سلسلة التجربة الفلسطينية

فيصل حوراني

دروب المنفى (٤)

الجري إلى الهزيمة

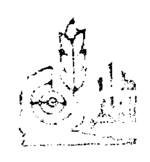
شهادة

J. AFAGHANI



مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

نابلـس - شـارع غرنـاطـة
تلفاكس: 09-2389514



دروب المنفى (٤)

الجري الى الهزيمة

شهادة

فيصل حوراني

Pathways of Exile (Part IV)
Sweeping Towards Defeat
A Testimony

Faisal Hourani

P.O.Box: 1845 Ramallah, Palestine
2001

This book is published as part of an agreement of co-operation with
the Ford Foundation

ص.ب ١٨٤٥، رام الله
الطبعة الاولى - ٢٠٠١

يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة فورد

تصميم وتنفيذ مؤسسة ناديا للطباعة والنشر والاعلان والتوزيع
رام الله - هاتف ٢٩٦٠٩١٩ - ٠٢

سلسلة التجربة الفلسطينية

تسعى «سلسلة التجربة الفلسطينية» وهي السلسلة السادسة والجديدة من منشورات **مواطن** الى تعريف القارئ بنواحي محددة ومتنوعة من التجربة الفلسطينية، وفي الشتات على وجه الخصوص. إن نقل هذه التجربة ، أو جوانب مختارة منها على الأقل، يكتسب أهمية كبيرة، خاصة إن تعدى هذا النقل البحث الجاف ليرسم صورة حية للواقع الفلسطيني المعاش، سواء كان ذلك في تجربة المقاومة في الأردن، أو في تجربة الحياة في مخيم اليرموك أو في مخيمات لبنان، أو تجربة الحرب الأهلية في لبنان و«حرب المخيمات» أو تجربة تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في خضم الصراعات العربية والمساعي المتعددة للاستحواذ على القرار الفسطيني.

إن الأغلبية العظمى من الفلسطينيين لم يعيشوا تجربة الشتات والمنافي ولم يعاينوها وجدانياً بأبعادها المتنوعة سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو نفسية. وبنفس المقدار فإن فلسطينيي «الشتات» لم يمروا بالتجربة الحياتية للفلسطينيين تحت الاحتلال أو داخل الخط الأخضر.

إن جسر هوّة التجربة الحياتية بين قطاعات الشعب الفلسطيني في أماكن تواجده المختلفة هو أحد الأهداف الأساسية التي تسعى إليه هذه السلسلة.

وكتاب فيصل حوراني **الجري وراء الهزيمة** هو الكتاب الثاني في هذه السلسلة التي نأمل أن يتواصل إصدارها في الفترة المقبلة. والكتاب يتحدث عن سوريا في الستينيات، وعن مشهدها السياسي المتلاطم غير المستقر، الذي انتهى

الى هزيمة ١٩٦٧، وعن ورطة الفلسطينيين في هذا المشهد وما قاسوه من آلام وتمزقات، وعن أوهامهم التي ساهم تحطمها وانكسارها في إبراز فكرة الكيان الوطني الفلسطيني المستقل وتدعيمها.

والكتاب هو الجزء الرابع من المشروع الكبير «دروب المنفى» الذي عكف على إنجازه فيصل الحوراني، والذي سيكون عند اكتماله، أعرض سيرة ذاتية في الأدب الفلسطيني الحديث. فهو يبدأ منذ ما قبل النكبة لينتهي في التسعينيات من القرن العشرين متحولاً بذلك الى سيرة للمنفى الفلسطيني كله، عبر عين مثقف خرج من بين صفوف تلك القطعة من اللاجئين الفلسطينيين حطت برحالها في سوريا.

زكريا محمد

محرر السلسلة

١

تبديل قمة الهرم لم يؤثر على القاعدة

بعد أحداث ١٨ تموز/يوليو ١٩٦٣ الدامية، دخلت سورية مرحلة جديدة وجدتني غارقاً في دوامتها. خرج الناصريون من مجلس قيادة الثورة والحكومة وتفرد حزب البعث بالسلطة. وانتهت ازدواجية السلطة. وأقام الدم الذي أريق في هذا اليوم حاجز عداء بين الجانبين. واحتاج الأمر إلى مرور سنوات قبل أن يمكن تخطي هذا الحاجز.

كانت تلك جولة ظفر فيها الحزب الذي أنتمي إليه بالتغلب على خصومه، غير أن الأمور لم تعد سهلة على البعثيين. ولم يتمكن هؤلاء من تحقيق الاستقرار لحزبهم أو للبلاد. وقد وجدت نفسي بعد هذه الأحداث غارقاً في أزمات متعاقبة كما كنت قبلها، فلم تتبدل إلا عناوين الأزمات. وكانت الأزمات كلها خانقة، فاشتد دفق الأسئلة المقلقة وانديااح الشكوك.

انجلى ميدان الصراع عن إحداث عشرات الضحايا ومئات المطلوبين وألوف المعتقلين من الناصريين وأصدقائهم، واستحوذت الشكوك على عشرات ألوف الساخطين. وتعيّن على البعثيين أن ينصرفوا إلى إعادة تنظيم الأمور وسدّ الثغرات الناجمة عن انهيار صيغة الحكم الثنائي. ولم تتح الظروف أن تتم العملية بالمقدار اللازم من الإتقان، فبدا الارتباك واضحاً، وكثرت الأخطاء وتراكمت.

وفي غياب التفكير السديد بالشأن الديمقراطي، ومع استفحال سطوة أنظمة الطوارئ بدعوى اشتداد الحاجة إليها، بدا كأن هدف الحكم الذي تفرد البعثيون به هو إرغام الجمهور على الاستكانة وليس اكتساب ودّه. وتركز جهد أجهزة الأمن على متابعة أي بادرة سخط دون أن يُعنى المسؤولون عن هذا الجهد بالتدقيق في طبيعة الوسائل المستخدمة أو يثنيهم عن استخدام وسائل القمع الرعبُ الذي تحدثه في كل مكان.

وما كان لهذا كله إلا أن يحرمني من الطمأنينة.

وفي سياق التبدلات التي طرأت على الهيئات القيادية قدم اللواء لؤي الأتاسي رئيس الدولة استقالته، وقفز العميد أمين الحافظ الذي رفع إلى رتبة لواء إلى الرئاسة، وجمع معها قبضة القائد العام للجيش. لقد ظفر العسكري الأعلى رتبة بين عسكريي البعث والأكثر تشدداً في مواجهة الناصريين بجائزة الانتصار على هؤلاء. وفي السياق ذاته شكل صلاح البيطار الذي كان قد كفّ عن حرده حكومة جديدة. ولم تخل هذه الحكومة من الناصريين وحدهم، بل خلت، أيضاً، من أولئك البعثيين الذين أظهروا في السابق ميلاً إلى التفاهم مع الناصريين. وكان أن انتقل هؤلاء بمعظمهم انتقالاً كاملاً إلى الجانب الناصري المهزوم وتعرضوا إلى ما يتعرض له من قمع أو كفّوا عن أي نشاط. وفي السياق ذاته، اتسع نفوذ الضباط البعثيين المتشددين ضد الناصريين، وتولى زعماء هؤلاء مواقع المسؤوليات الهامة وصاروا هم أصحاب الكلمة الغالبة.

أما في الحزب، فإن القيادة القطرية الجديدة التي تضم غالبية من المدنيين جهدت كي يبقى للحزب دوره في سياق التنافس مع العسكر. ولكن التناقضات داخل القيادة كانت كبيرة، ولم يكن العسكر بغير نفوذ فيها. كان في القيادة أربعة من زعماء تكتلنا، وهؤلاء هم حمود الشوفي والدكتور محمود نوفل وطارق أبو الحسن وخالد الحكيم، وجميعهم مدنيون. وكان الشوفي هو أمين سر القيادة. وإلى جانب هؤلاء، ضمت القيادة مدنيين اثنين من زعماء التكتل

الذي كان آخذاً في التشكل والذي أطلق عليه خصومه تسمية القطريين متهمين إياه بهذه التسمية بأنه ينهج نهج جماعة أكرم الحوراني الذين استقلوا عن الحزب وتصدروا المناوئين اليساريين للوحدة مع مصر. وضمت القيادة من العسكريين ثلاثة من أكثرهم نفوذاً وأبعدهم طموحاً في الهيمنة على السلطة هم محمد عمران، وصلاح جديد، وحافظ الأسد. ولم تضم القيادة أياً من الأنصار المباشرين لميشيل عفلق، بل إن صلاح البيطار نفسه لم يكن عضواً في هذه القيادة.

عكست بنية القيادة التناقضات التي تفعل فعلها داخل الحزب مثلما عكست تعقيدات المرحلتين: التي انقضت والتي بدأت للتو، وأظهرت أن المشاكل الناجمة من هذه التناقضات بقيت بغير حل. ولئن أمكن أن يتحد معظم البعثيين في مواجهة الناصريين، فإن انفثاء الصراع على السلطة مع هؤلاء عن خروج الناصريين من الميدان فتح الباب أمام احتدام الصراعات بين البعثيين أنفسهم. وما دمت أنا من نشطاء البعث فقد توجب علي أن أنخرط في المعمعان بكليتي وأكتوي بنيرانه.

تبلورت في حزب البعث بعد ١٨ تموز/يوليو ١٩٦٤، إذاً، ثلاث كتل رئيسة لكل منها جذور سابقة، وعدد وفير من الكتل والجماعات والشلل الأخرى. وحملت كل كتلة، بتكوينها وطروحاتها، ملامح التطورات التي ستعصف بالحزب والبلد في السنين التالية.

أولى الكتل كانت تلك التي انتميت أنا إليها، وهي التي عدها ناسها كتلة اليسار واشتهرت باسم زعيمها حمّود الشوفي وبرز بين أبرز زعمائها وأشدهم تأثيراً في فكرها وسلوكها صديقي الفلسطيني محمد بصل. عزز ناس هذه الكتلة يساريتهم بدعوتهم إلى تبني بعض المفاهيم الماركسية، فدعوا إلى بناء حزب الطليعة الثوري المتين، وتحدثوا عن التفسير المادي الديالكتيكي للتاريخ وصراع الطبقات وما إلى ذلك، وهم الذين تبنوا في الحزب الدعوة إلى الطريق

العربي إلى الاشتراكية. جهر ناس كتلة اليسار بهذه الدعوات وتسلحوا بها في مواجهة أفكار ميشيل عفلق عن عبقرية الأمة العربية، والمثالية، والاشتراكية العربية، والقومية التي هي عند عفلق «حب قبل كل شيء». وكان لهذه الكتلة التي نشأت أساساً في سورية وبتأثير ظروفها أنصار في العراق. ومن هؤلاء كان علي صالح السعدي وحمدي عبد المجيد وهاني الفكيكي ومعظم الذين سيطروا آنذاك على قيادة البعث في القطر العراقي. وقد وصل اثنان من زعماء الكتلة، السوري حمود الشوفي والعراقي حمدي عبد المجيد، إلى القيادة القومية للحزب وسلكا فيها بهدي مواقف كتلتهما سلوكا مناوئاً لأمينها العام ميشيل عفلق وأنصاره الذين يشكلون أغلبية هذه القيادة.

الكتلة الثانية كانت كتلة المسميين بالقطريين، وهي الكتلة التي كان للعسكريين النفوذ الأكبر فيها. وقد كان ناس هذه الكتلة متهمين من قبل خصومهم بأنهم يغلبون الشأن السوري الخاص على الشأن العربي العام وأنهم غير مخلصين لدعوة الوحدة العربية. أما ناس الكتلة أنفسهم فكانوا خليطاً يتداول أفكاراً مختلطة بعضها مستعار من طروحات اليسار وبعضها مستعار من غيره، وكان مدنيوها، ومنهم نفر يتعاطى الكتابة، يروّجون آراء شعبوية، فيما انصرف عسكريوها إلى تجميع الصفوف لتعزيز فرصهم في الصراع على مواقع النفوذ.

أما الكتلة الثالثة، إن جاز وصف تجمع مؤسسي الحزب الأوائل بأنه كتلة، فقد ضمت الذين احتفظوا بالولاء للقيادة التاريخية المؤسسة. وكان قد بقي في الميدان من أعضاء هذه القيادة ميشيل عفلق وصلاح البيطار وآخرون أقل شهرة منهما. وكانت هذه هي، إذاً، كتلة ميشيل عفلق، أو جماعة عفلق كما اشتهر أمرها.

وقد راوح بعثيون كثيرون من الذين لم يحسم واحدهم أمره بين الكتل الثلاث أو تلطى على أطرافها.

وباندحار الخصم الناصري ومواجهة الحزب مسؤوليات السلطة ومغرياتها،

برزت خلافات الكتل وتبايناتها بأحدّ ما يكون، واحتدمت الصراعات، وانتضى كل فريق أسلحته، وتتابعت المعارك.

في غضون ذلك، وبتأثيره، ومع استمرار التأثير المأساوي لوقائع ١٨ تموز/ يوليو، بدت التجمعات الفلسطينية، في دمشق والمخيمات، شبه مغلقة في وجوهنا نحن البعثيين الفلسطينيين. فمعظم ناس هذه التجمعات كان ناصري الهوى، ولئن قبل ما يفرضه واقع الحياة حين يضطر أي إنسان إلى التعامل مع هذا أو ذاك من البعثيين السوريين بما هم حكام البلد، فقد رأى فينا نحن البعثيين الفلسطينيين خونة أو شيئاً من هذا القبيل.

هنا، قد ينبغي أن أذكر لك أن غالبية أعضاء الحزب الفلسطينيين أيدت كتلة اليسار. وقد أفادنا هذا في تحقيق منجز طالما تطلعنا إلى الظفر به. فمنذ صار للكتلة ذلك الحضور الكبير في القيادة القطرية ثم في القومية، جددنا المطالبة بتنظيم فلسطيني مستقل. وقد انتهى الأمر بأن أصدرت القيادة قراراً يحول فرقة فلسطين المرتبطة بشعبة حيّ الميدان الدمشقي إلى شعبة فلسطينية خاصة مرتبطة بفرع دمشق. وإذا لم يلبِّ القرار طموحنا كله، فقد عددناه خطوة أولى تضعنا في الاتجاه الملائم. وبتأييد من القيادة، صارت الشعبة الفلسطينية مسؤولة عن العمل الحزبي في المخيمات، ومنها المخيمات التي تقع خارج منطقة دمشق الإدارية، وكان في هذا بداية التميز الذي نطالب به. وهكذا، اقترن ازدياد نفوذنا في الحزب بازدياد المسؤوليات والأعباء التي نتولاها فيه. وقد عقدنا مؤتمراً للشعبة حرصنا على تنظيمه في صورة مثالية، وانتخبنا قيادة للشعبة، وصار عمر خليفة أميناً لسرّ هذه القيادة وزميلي في السكن إميل صبيح في عداد أعضائها. وعقدنا العزم على استعادة الصلة بالتجمعات التي تنفر منّا، وخصوصاً تجمعات المخيمات.

وضعنا خطة طموحة لتحركنا في المخيمات. وجدنا أنفسنا إزاء تحد مثير وخطير، فلم نتردد. وجعلنا قوام الخطة تأييدنا لمطالب الفلسطينيين لدى

السلطة وتبني شكاواهم. ولما كانت سطوة أجهزة الأمن هي الباعث الأقوى على الشكوى، فقد التزمنا مواجهة هذه الأجهزة بأنفسنا والحدّ من سطوتها. فكان أن تشددنا في المطالبة بالإفراج عن المعتقلين الفلسطينيين، وهم وقتها ألوف، وكفّ يد المخابرات عن مخيمات اللاجئين. وقد ركزنا ضغوطنا على قيادة الحزب، وخصوصاً على أصدقائنا من أعضاء القيادة لتحقيق المطلبين. ولك أن تتصور كم كان وضعنا طريفاً بمقدار ما هو مؤلم. فأغلبية الناس ترفض التعامل معنا، لأننا بالنسبة لهم أعضاء في الحزب الذي يبغضونه وموالون للسلطة التي يضيقون بها. وقادة الحزب والسلطة يدهشهم انحيازنا إلى هؤلاء الناس ويرون أننا نهوّن خطر أعداء الحزب ونتصرف بدافع إقليمي فلسطيني ونبالغ في تصوير المظالم الحالّة بالفلسطينيين.

كنا لا ندخل المخيمات ولو من أجل الالتقاء بأنصارنا القاطنين فيها إلا في الظلام. وكنّا نجيء في أغلب الأحوال جماعة وبعضنا مسلح خشية أن يستفرد الحاقدون على البعثيين بأي منّا فيؤذوه. وكنا خاضعين في الوقت ذاته للمراقبة والتضييق على نشاطاتنا من قبل أجهزة الأمن مكروهين من عناصرها المبثوثة داخل المخيمات.

وهاأنذا أتذكر ما كابدناه على الناحيتين نتيجة سلوك سرية المخابرات الموكلة بشؤون المخيمات. كانت هذه سرية خاصة يقودها من اشتهر بكنيته وهو أبو رياض. وهو النقيب محمد عركه الذي اقترن اسمه بأبغض ما تعرض له الناصريون الفلسطينيون في تلك الفترة. استغل أبو رياض أنظمة الطوارئ وتغطى بالأجواء المسمومة التي أوجدتها أحداث تموز/يوليو، فأطلق العنان لعناصر سريته وأباح لهم أن يعيثوا فساداً في المخيمات بالمعنى الحرفي لهذه العبارة. جنّد قائد السرية حفنة من الزعران في كل مخيم، انتقاهم، غالباً، من سقط المنظمات الناصرية ممن أغواهم بالمال أو النفوذ أو التهديد، وأطلق أيديهم ليفتكوا بالناس. وحول أبو رياض قبو المبنى الذي تشغله قيادة السرية

إلى معتقل يُمارس فيه التعذيب الجسدي وتُهان الكرامات بأحط الوسائل ويُساق إليه أي إنسان يعده زعران السرية مشبوهاً. وكان ضحايا السرية وناسهم يحملوننا، بالطبع، مسؤولية ما يجري فيشتد نفورهم منّا.

كانت أصداء سخط الناس وأصداء الشكاوى التي يتداولونها فيما بينهم ولا يجرؤون على الجهر بها أمام المسؤولين تصل إلينا في صورة أو أخرى. وكنّا نتبنى الشكاوى وننقلها إلى كبار القادة، فيطالبنا هؤلاء بالبراهين التي تثبت صحتها، فلا نفلح في تقديم برهان قاطع، لأن الساخطين أنفسهم يخافون من تقديم الشهادات ضد مضطهديهم. وكانت صرخات المعذبين تصل إلى أسماع جيران مبنى السرية وتؤرق ليلهم ونهارهم، بل إن هؤلاء الجيران كانوا يرون مشاهد المعذبين بأعينهم حين يجري التعذيب في ساحة القبو المكشوفة، فلا يجرؤون هم الآخرون على تقديم أيِّ شهادة.

هنا، علي أن أذكر لك أن الاعتقال لمجرد الشبهة وتعذيب المعتقلين لحملهم على الإدلاء بالمعلومات كانتا ظاهرتين شائعتين في البلاد ومقبولتين حتى من القادة الذين نلجأ إليهم. كان هؤلاء يقرّون التعذيب الجسدي ولا يتحفظون عليه إلا إذا استهدف الأبرياء. فكان لا بدّ من أن نركز شكاوانا ضد ما ليس ضرورياً من القمع. بالرغم من هذا، عجزنا عن تقديم البراهين. وبلغ الاستهتار بمشاعر الناس في ذلك الجو حداً داهم عناصر السرية معه المآتم التقليدية التي أقامتها أسر ضحايا الأحداث، وطلبوا من أقرباء الضحايا أن يمتنعوا حتى عن استقبال المعزّين. وعلى كثرة ما حاولنا، لم نجد بين الذين دوهموا شخصاً واحداً يجرؤ على الإدلاء بشهادة رسمية ضد أي من عناصر السرية. كانت شهرة هؤلاء كمتوحشين في انتقامهم أقوى حتى من حرص الناس على تكريم موتاهم.

في هذا الوضع، قررنا أن نأخذ الأمور بأيدينا، وبادرنا إلى مقاومة سطوة السرية بالعنف. وهكذا، نظمنا ما يشبه المقاومة السرية ضد سرية محمد

عركة. هذا القرار لاءم، أكثر ما لاءم، رفيقنا محمد عطية الذي يقطن في مخيم اليرموك هو وأسرته والكثير من أقربائه واللاجئين القادمين من قريته لوبية. وقد تكشفت شخصية محمد عطية عن شجاعة باهرة وعزيمة لا يوهنها أي تهيّب. ومحمد هو الذي قاد المواجهة مع زعران السرية في مخيمه، كان هو أمين سر التنظيم الحزبي في المخيم، فرأى من الطبيعي أن يتصدى للمسؤولية، وكان عنده ما يحفزه على الإبتكار، فهو الذي يعاني أكثر منا نحن من بغض محيطه للسلطة ونبذه له. وراح محمد ينتقي أجرأ أعضاء التنظيم وأنصاره ويوجههم إلى مراقبة سلوك عناصر السرية ومعاقبة من يتجاوز منهم الحدود المألوفة. وهكذا، تعرض عدد من عتاة مخبري السرية إلى الضرب على أيدي شبان ملثمين يكمنون لهم ويستفردون بهم واحداً تلو آخر. وتلقى مخبرون آخرون إنذارات حاسمة. هذه المواجهات جرّأت الساخطين من غير البعثيين، فاتسعت ظاهرة الملثمين وكثرت المواجهات واشتد تواترها.

عندها، جاء دور النقيب عركة ليشكو التنظيم الحزبيّ الفلسطيني إلى القيادة، لكنه عجز هو الآخر عن تقديم البراهين.

وفي يوم قمت فيه بزيارة لكتيبة الحرس القومي التي تتخذ مقراً لها في مبنى مدرسة التجهيز الأولى، وفيما أنا جالس مع الأصدقاء في الحديقة، برز عند المدخل الشابُّ الذي طالما تجادلت معه حين كنت أنتقد عبد الناصر أمامه فيتصدى هو للدفاع ويهددني بالانتقام. ولعلك ما تزال تتذكر ذلك الشاب الذي سبق أن حدثتك عنه؛ إنه حسن، أجير الجورة الذي حل محلي في العمل في المصبغة في العام ١٩٥٧. كان حسن قد ترك العمل في الجورة وأنشأ لنفسه مصبغة صغيرة في حيّ الشاغور، ثم انقطعت أخباره. فلما رأيت مناوئي القديم مقبلاً على مقرّ الكتيبة، قدرت أنه ما جاء إلا لحاجة وهيأت نفسي للترحيب به ومساعدته. أما هو فما أن وقع نظره علي حتى تراجع فوراً، ودلّت حركته على الذعر الذي حل به حين رآني. فكان من السهل أن

أستخلص أنّ حسن العارف بأني بعثي خشي أن يلقاني أنا العارف بأنه كان ناصرياً متعصباً وتوجس أن أنتقم منه. ولم أشأ أن يظلّ حسن ضحية سوء فهم لا مسوغ له، فناديته باسمه، فلم يملك إلا أن يستجيب، وحثثته على الإفصاح عما بنفسه.

تبين أن حسن مهدد من قبل أحد عناصر السرية. كانت بحوزة الشاب عصا ثمينة من الأبنوس أهداها إليه قريب يعمل في بلد أفريقي. وقد ألف الشاب الذي لا يملك أشياء ثمينة كثيرة أن يعرض العصا أمام زواره ويتباهى بها. وكان أن رأى عنصر السرية هذه العصا مرة فطمع فيها وطلب من حسن أن يعطيه إياها. فلما أبى الشاب أن يفرّط بهدية قريبه واستكثر على نفسه هو الناصري المعتد بناصريته أن يخضع لعنصر مخابرات، أسرّها العنصر ضغينة ضد حسن وراح يتحين الفرصة للانتقام. وعندما وقعت الواقعة وانهزم الناصريون، جدد العنصر مطالبته بالعصا، وأنذر حسن باعتقاله وأمهله بضعة أيام، واستكثر حسن مرة أخرى أن يسلم وهو مهزوم بما لم يسلم به في ظرف آخر، فجاء إلى الكتيبة شاكياً.

سألت الشاب لأستثير حميته: «أما تزال شجاعاً كما عرفتك؟» ولم يدرك هو مغزى سؤالي، إلا أنه لم يملك سوى إظهار الاستعداد للتصرف بشجاعة. وبهذا الاستعداد، ارتسمت خطتنا للظفر بالبرهان القاطع الذي أعيانا البحث عنه، وصار على حسن أن ينتظر مهدده في الموعد المضروب ويتعرض للاعتقال ونراقب نحن ما يجري.

جاء المهدد في الموعد، واقتاد حسن إلى مقر السرية. وكنّا نحن قد رتبنا الأمر مع قائد الحرس القومي الذي كان في الوقت ذاته قائداً لقوات الهجانة العقيد حمد عبيد، فتوجهنا، عمر خليفة وإميل صبيح وأنا، مع العقيد إلى مقرّ السرية وداهمناه مداهمة بعد فترة وجيزة من وصول حسن إليه. وتلقانا أبو رياض غير مدرك سر وصولنا المفاجئ، ورحب بالقائد العسكري متجاهلاً وجودنا

تجاهلاً تاماً. وشاء أبو رياض أن يطيل مراسم الترحيب، وأمر بإعداد الشاي، إلا أن العقيد طلب أن يرى حسن بالذات وللتوّ.

يومها، عاينت أقبح ما وقعت عليه عيني حتى ذلك الوقت من سلوك الجائرين. كان حسن محاطاً باثنين من عناصر السرية وقد أرغماه على الانبطاح أمام المرحاض وطلبا منه أن يأكل، ولم يكن اسمه قد سجل في أي من سجلات السرية، كما لم يكن هو إلا واحداً من كثيرين اكتظ بهم القبو بعد أن جلبوا إليه دون أوامر اعتقال وقد غيّب التعذيب معالمهم البشرية. ومنذ ذلك اليوم بقي مشهد تعذيب حسن وحكاية عصاه الأبنوسية في بالي. وأنا أستحضر المشهد والحكاية كلما سمعت قصة تعذيب أيما أحد أو هُددت أنا نفسي بالتعذيب.

ويومها، صدر أمر القيادة القطرية إلى قيادة الجيش بحلّ السريّة والتحفظ على قائدها ومعاونيه وإحالتهم إلى التحقيق. وعاد حسن إلى مصبغته وأهله ليروي للمفاجئين بعودته السريعة قصة نجاته على أيدينا ويبالغ في تصوير النفوذ الذي نتمتع به.

تصورنا أننا حققنا انتصاراً. لكن هذا لم يكن إلا حلم ليلة صيف. فالسرية إن كانت قد حلّت بالفعل فلبعض الوقت ليس غير. وقائد السرية إن كان قد حقق معه فقد وفر له التحقيق الفرصة ليؤكد على أن كل ما قام به كان من أجل خدمة النظام الوطني التقدمي الذي يتآمر عليه الخصوم. وعن تجاوزاته حتى لأنظمة الطوارئ، أثبت نقيب المخابرات أن تجاوزاته ذاتها هي الدليل الذي يبيّن مقدار استعداده للمضيّ في خدمة النظام إلى أبعد الحدود. ولم يلبث أن أعيد تشكيل السرية بعد بضعة أسابيع من حلّها، وقد أوليت مسؤولية قيادتها لرئيسها السابق من جديد، وزاد سخط أجهزة الأمن علينا، كما زاد عدد الألسنة التي تتهمنا بأننا نتصرف بدوافع إقليمية فلسطينية ونبالغ في تصوير المظالم ونستهين بخطورة أعداء الحزب. وعادت السرية إلى سيرتها الأولى، وكل ما استجد أن عناصرها صاروا أشدّ حذراً وأكثر تهيباً حين يتعلق الأمر بالاحتكاك بنا.

إلى جانب المقاومة السلبية، نظمنا مبادرات إيجابية بهدف اختراق العزلة التي تحيط بنا. أتذكر من مبادراتنا واحدة هي أشهرها، وقد اعتمدنا فيها على أريحية الرئيس أمين الحافظ وولعه المشهور بما يسميه هو «الزكرتية» أو «القبضنة» وأخلاق الحارة الشعبية، ووضعنا على هذا الأساس خطة لجأنا إلى صديقنا منصور الأطرش ليقنع الحافظ بها.

لم يحتج أبو ثائر، وهذه هي كنية الزعيم البعثي ابن القائد التاريخي للثورة الوطنية السورية ضد الاحتلال الفرنسي، إلى أكثر من الإشارة إلى خطتنا حتى يرحب بها أبو عبدُه، وهذه هي الكنية الشهيرة للرئيس الحافظ، وهكذا، شكلنا وفداً فلسطينياً ليتوجه إلى الرئيس ويعرض مطالب الفلسطينيين ويركز على الملح منها فيطالب برفع التضييقات المفروضة على المخيمات والإفراج عن المعتقلين والعفو عن الذين تورطوا في نشاطات ضد البعثيين والتخفيف عن أسر ضحايا الصدامات. وكان من المتفق عليه أن يعامل الرئيس الوفد بإكرام ويشرح سياسة الحزب أمام أعضائه ويدعو إلى فتح صفحة جديدة في التعامل مع الذين خاصموا الحزب ويستجيب للمعقول من المطالب. والواقع أننا أفلحنا في تشكيل وفد كبير العدد وتوخينا أن يكون معظم الأعضاء من غير البعثيين ويتجنب البعثيون احتلال صدارته. وبالرغم من ظروف العزلة التي صرت تعرفها، ضم الوفد وجهاء مخيمات وموظفين كباراً وتجاراً من قطاعات عدّة ورجال دين. كثيرون من هؤلاء لم يجذبهم إلى الوفد الخوف من السلطة أو الرغبة في النفاق، كما قد تتصور، بل جذبهم إليه الحرص على رفع المظالم وتخفيف الأذى عن الناس، وإن كان في الوفد، بالطبع، خوّافون ومنافقون، أيضاً. أما رئيس الوفد المتحدث باسمه فكان الشيخ عبد الرحمن مراد. كان هذا الوجيه الفلسطيني المخضرم قاضياً مرموقاً في المحكمة الشرعية في دمشق، وكان واسع العلاقات جمّ النشاط مبادراً إلى فعل الخير، ولم تكن له سابقةٌ في تحدّي السلطات أو استفزاز الحكام، فكان أليق أعضاء الوفد برئاسته.

وعندما مثل الوفد أمام الرئيس الحافظ، تكلم الشيخ عبد الرحمن بفصحاه السلسة ونبرة صوته التي تشي بتأدبه ووقعه المتأني متحدثاً عن الفلسطينيين الذين تورطوا في الهجوم على وزارة الدفاع بما هم أغرار وقعوا ضحية التضليل فضلوا الطريق، وطلب من رئيس الدولة أن يغفر فعلتهم، هم الذين غدوا الآن بين يدي ربّهم، ويرأف بحال من خلّفه هؤلاء وراءهم من أرامل وأيتام وأمهات ثكالى وآباء مفجوعين. استخدم الشيخ، إذاً، لغة الاستعطاف، ولا بدّ من أنه تصور أنها هي الأجدى في هذا المقام، وأمعن في الاستعطاف متوهماً أنه يليّن بهذا قلب صاحب السلطة. وقتها، طلع أبو عبده على الوفد بواحدة من مفاجآته. فقد قاطع رئيس الدولة حديث رئيس الوفد بحدة أربكت الشيخ الطيّب. وصرخ أبو عبده مستنكراً أن يتحدث أحد بهذه اللغة عن الذين وصفهم هو بالأبطال الذين هاجموا وزارة الدفاع في عزّ الظهر. فهؤلاء عند الرئيس هم «الجدعان الذين تحدّونا ولا يجوز الحديث عنهم بلغة الاسترحام»، وهم «الأبطال الذين لم يهابوا الموت والذين تصدينا لهم والدموع في عيوننا». ثم قدّم أبو عبده مفاجأته الأهمّ، فأعلن أنه وقع لتوّه قراراً يعدُّ فيه كل من فقد حياته في الصدام المسلح في ١٨ تموز/يوليو شهيداً وتحصل أسرته على الراتب الذي يمنحه الجيش لأسر الشهداء.

في ذلك الوقت، فيما أخذ الحزب يعزز سيطرته على مؤسسات الدولة، تنبهنا في الشعبة إلى أهمية المؤسسة العامة للاجئين الفلسطينيين، وحصلنا على موافقة القيادة على تعيين فلسطيني في منصب المدير العام، وترتب على لجنة فلسطين الحزبية التي أنا عضو فيها أن تختار من يصلح لهذا المنصب. وشهدت اجتماعات اللجنة، على طريقة اجتماعات تلك الأيام، مناقشات طويلةً ومتشعبة، إلى أن تبلورت الخيارات حول واحد من ثلاثة جميعهم أعضاء في اللجنة: محمد بصل، وعمر خليفة، وأحمد مرعشلي. وقد اعتذر محمد اعتذاراً غير قابل للمراجعة، لأنه كان مشغولاً بمهام حزبية يراها هو أكبر. واستكبر عمر المنصب على نفسه بدعوى صغر سنّه وافتقاره إلى الخبرة. فلم يبق،

إذاً، غير أحمد. ولأني لم أسترح إلى هذا الخيار لأن أحمد ليس من تكتلنا اليساري، فقد جهدت لأحمل اللجنة على تخطّيه، وقمت بمناورات فرضت على اللجنة إعادة النقاش حول الموضوع، ورشحتُ إميل صبيح للمنصب. إلا أن أعضاء اللجنة جميعهم اعترضوا على ترشيح إميل لأسباب عديدة لعلّ أوجهها أنه كان ما يزال طالباً في الجامعة أو حديث التخرج.

ما كان أشدّ براءتنا ونقاوة سرائرنا في تلك الأيام! لقد ناقشنا هذا كلّه بقلوب وعقول مفتوحة، وأوردنا ملاحظاتنا وانتقاداتنا بعضنا لبعض بأتمّ الصراحة، ولم يخش أي منّا أن تؤثر صراحته على موقف الآخر منه، والحقيقة أن أحمد الذي ظفر بالمنصب احتفظ بعلاقات المودة مع الذين عارضوا ترشيحه تماماً كما مع الذين أيدوه. وسلك أحمد سلوك الحزبيّ المنضبط فجعل اللجنة مرجعاً لقراراته وإجراءاته في المؤسسة وثابر على أخذ رأيها في كل ما يستجد.

وقد بقي هذا هو شأن أحمد إلى أن احتدمت الخلافات بين كتل الحزب واشتد تنابذها. فقد اصطف أحمد كلية مع كتلة عفلق وأهمل العودة إلى لجنة فلسطين التي يهيمن عليها اليسار. وصرنا نحن بهذا أقلّ الناس نفوذاً حين يتعلق الأمر بشؤون المؤسسة. لم يكن أحمد سيئاً لا في نواياه ولا في موقفه من حاجات الجمهور، ولم يفتقر لا إلى النزاهة ولا إلى نظافة اليد. إلا أن خبرة أحمد الإدارية، هو الذي كان أستاذ مدرسة، كانت أقلّ مما يتطلبه المنصب الكبير. وكانت شخصية أحمد ألين من أن يقدر على مواجهة الموظفين والمدراء المخضرمين في المؤسسة. ومنذ أن أهمل أحمد استشارة اللجنة الحزبية حكم على نفسه بأن يقع تحت سطوة البيروقراطية العتيقة، فلم يلمس الجمهور أي تبدل في أداء المؤسسة، بالرغم من وعود البعثيين الكثيرة بالتغيير.

والواقع أن أحمد حاول أن يحتفظ بعلاقة طيبة مع كتل البعث كلها دون أن ينقص ولاؤه لعفلق، فتعذر ذلك كما يتعذر دائماً جمع النقائض. وعندما أفضت الخلافات إلى تنابذ الكتل وتعاديها صراحة، حاول أحمد، هذا الذي

أمعن في وصف حاله لك بما هو نموذج يمثل كثيرين، أن يشكل جسراً بيننا نحن اليساريين الفلسطينيين أغلبية أعضاء التنظيم والقيادة.

فعل أحمد هذا ليس على طريقة الانتهازيين الكثيرين الذين يضع واحدهم رجلا في البور ورجلاً في الفلاحة، بل بدافع رغبة صادقة تعكس حرصه على أن يرى البعثيين كلهم متعاونين ومتحابين وقادرين على معالجة خلافاتهم بروح رفاقية. ودأب أحمد على السعي بيننا وبين القيادة ليخفف غلواءنا ضد عفلق ويخفف ضيق القيادة بنا. كان الرجل يحبنا ويقدر تفانينا في العمل العام، لكن ارتباطه بعفلق كان من نوع ارتباط المريد بشيخ الطريقة الصوفية. وقد وجد أحمد نفسه في المؤسسة في وضع لا يحسد عليه، يعارضه معظم الجمهور الفلسطيني على أساس أنه من البعثيين أهل الحكم، ويعارضه معظم البعثيين الفلسطينيين على أساس أنه يميني مستزلم لعفلق، ولا تؤهله إمكانياته لإدارة المؤسسة. وانتهى الأمر إلى أن صار المدير العام الجديد في جيب البيروقراطية القديمة، تنافقه هذه البيروقراطية وتستغله، ويظل الأمل بالتغيير حلماً لا يطابقه الواقع.

ولك أن تعمم ما حل بأحمد ومؤسسته هذه فترى فيه صورة ما وقع لمعظم المؤسسات التي انيطت مسؤولية إدارتها بناس مماثلين له: تبديل في قمة الهرم يقصر عن التأثير على قاعدته. ومن السهل أن تستخلص أن الحال كان أسوأ في المؤسسات التي تولاها رفاق يفتقرون حتى إلى ما يتمتع أحمد به من حسن نيّة واستقامة خلق ونظافة يد!

بكلمات قليلة: منذ ١٨ تموز/يوليو ١٩٦٣، تضاءل خطر الناصريين الذي كان يهدد سلطة الحزب، وحل خطر الصراعات بين البعثيين أنفسهم محله. وقد كان هذا هو الوضع الذي وجدتني مستغرقاً في ملابساته.

٢ يمين مخضرم ومقتدر ويسار قليل الخبرة

قدّمتُ إشارات على وجود خلافات داخل الحزب. ولكي تدرك أبعاد مجرى الأحداث اللاحقة، من المفيد أن تعرف أن الخلافات بين كتل الحزب وشخصياته المتضاربة شغلتنا نحن البعثيين بأكثر مما أتيح لنا أن ننشغل في معالجة الشؤون العامة.

وقبل أي شيء وأهم من أي شيء، كانت هناك الخلافات العميقة التي يؤججها اختلاف الرؤية السياسية. وهذه هي، في رأيي، الخلافات التي وزعت الحزبيين على الكتل الرئيسة الثلاث، وهي التي فعلت فعلها في رسم التطورات اللاحقة. لا يعني هذا أن الخلافات داخل الكتلة الواحدة كانت مستبعدة أو قليلة الحدّة، كما لا يعني أن الخلافات ذات الطبيعة الشخصية، الخلافات التي يؤججها اختلاف الأمزجة وتباين المصالح الخاصة، كانت قليلة التأثير. ولعلي لا أخطئ إن قلت لك إن الخلافات ذات الطبيعة الشخصية كانت أشدّ جذباً للانتباه وإثارة للصخب من خلافات النوع الأول. وأخطر المخاطر كان يحلّ حين يمتزج تأثير الخلافات الشخصية مع تأثير الخلافات السياسية.

وهاأنذا أتذكر من حكايات الخلافات الشخصية واحدة كادت تفضي إلى صدامات عامة. اشتهرت هذه الحكاية باسم حكاية الرّواد. خلاصة هذه كما

هي مستقرة في ذاكرتي أن اثني عشر رائداً من الضباط البعثيين تعسكر وحداتهم في دمشق أو قريباً منها علقوا جميعهم غانية أجنبية. استحوذت هذه الغانية على الرواد الشبان بجاذبيتها الجنسية وخبرتها وجعلت كل واحد منهم يتوهم أنه الأثير لديها ومنّته بأن تصير له وحده إن حماها من نفوذ الآخرين. وكان أن علقت دزينة الرواد المغرمين في شبكة نزاعات جرى بعضها علناً وشاعت أخباره. ولأن الرواد كانوا من شاغلي المواقع التي تستند إليها سلطة الحزب فإن نزاعاتهم انعكست على عمل الأجهزة وأثارت القلق على غير صعيد. وكادت حكاية الرواد والغانية أن تفضي إلى انقسامات لها أول وليس لها آخر. وحين أوشكت الحكاية أن توصل إلى كارثة واستنفذت وسائل تسوية الخلافات بالحسنى، تدخل الرئيس أمين الحافظ وفرض الحلّ بطريقته المألوفة: المفاجأة والإجراءات الحازمة. فقد جمع الحافظ الرواد في مكتبه وراح يقرّعهم مستكبراً أن ينازع بعضهم بعضاً بسبب مومس. وفيما الرواد مجتمعون في مكتب الرئيس، كانت الشرطة العسكرية تنفذ الأوامر التي أصدرها هذا الرئيس. وهكذا، حُملت الأجنبية إلى المطار ووضعت في طائرة مغادرة. وعندما تلقى الحافظ الإشارة الدالة على تنفيذ التعليمات، أبلغ النبأ إلى الرواد ثم واساهم، وكان من رأيه كما عرضه أمامهم أن الرجل الحقيقي لا يحزن لفقده امرأة، و «أحسن مومس يمكن الظفر بها بمائتي ليرة»، هكذا قال الحافظ ثم تعهد أن يدفع المبلغ من جيبه لأي رائد يقول إنه لا يملكه، وفض الاجتماع.

تواتر الحكايات، ما تدوول منها بحجمه الحقيقي وما خضع لاختلاقات المخيلة، أباح أن تختلق الجهات الكثيرة الحاقدة على البعثيين حكايات أخرى مماثلة وتنشرها في معرض التشنيع على النظام القائم والتحريض ضده. ولو قُبلت الحكايات كلها لبدا أن وجود البعثيين متمثل في الفضائح. وقد استفادت من هذه الحكايات أجهزة الإعلام الناصرية وأجهزة الجهات العديدة الأخرى التي ساءها انتقال السلطة في سورية إلى أيدي البعثيين. وأحيط الجمهور السوري

بحملة شاركت فيها صحف كثيرة، وإذاعات، ومحطات تلفزيون، عربية وأجنبية، هذه الحملة صورت البعثيين على أنهم ناس متبذّلون وفاسدون ومستهينون بقيم مجتمعهم وتقاليده. وجرى التركيز في عدد كبير من مواد الحملة على الضباط المتنفذين المشهورين، وصُوّر هؤلاء على أنهم عبيد لشهواتهم، وقيل إنهم يقضون أوقاتهم في الحانات والمواخير.

وقد بلغت شدّة هذه الحملة حداً حمل الرئيس أمين الحافظ على المشاركة في التصدي لها بنفسه. ولأن محبّ «الزكرتية» غير المتزمت حين يتعلق الأمر بالسلوك الشخصي فعل ذلك على طريقته، فقد جاء تدخله طريفاً. فقد عزّ على الرجل الذي يبغض النفاق أن ينفي حاجة البعثيين كغيرهم من البشر إلى الترويح عن النفس، فذهب إلى القول إنهم في سورية لا يحجرون على حرية أي إنسان في اتباع السلوك الشخصي الذي يريحه، فمن شاء أن يطلق لحيته ويعتكف في مسجد فله هذا، ومن شاء أن يذهب إلى الحانات ويسكر فله هذا، أيضاً. أعلن أبو عبده رأيه في مؤتمر صحافي، ثم اختار من محفوظاته، كعادته، بيت الشعر العربي القديم الذي يلائم المقام وقرأه للصحافيين متلذذاً بتنغيم إيقاعاته تنغيماً يجعلها تؤدي المعنى الذي يتوخاه:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل   على أننا نذيب الحديدا !

ومن حكايا الخلافات الشخصية أتذكر واحدة أخرى أبطالها اثنان من الضباط الذين صارت لهم فيما بعد شهرة، وغانية مواطنة وليست أجنبية. كانت بطلة الحكاية شابة باهرة الجمال، وكانت ابنة وحيدة لمومس متقاعدة تملك منزلا جميلاً في أول شارع بغداد وتمارس فيه التجارة بجسد ابنتها بعد أن بار جسدها هي. هذه الشابة علقها الضابطان وحاول كل منهما أن يستأثر بها عشيقة خصوصية له، دون أن يعرف أي منهما علاقة الآخر بها. ورعت الأم علاقة ابنتها بالضابطين ووجهتها بحيث تستخلص منهما أعم الفوائد. ثم وقع ما لا بدّ منه. فبعد اجتماع عمل شارك فيه الضابطان، توجه كل منهما

إلى المنزل ذاته فالتقيا أمام مدخله. وهناك، تعارك الغاويان بالأيدي، على مشهد من العشيقة وأمها والجيران والمارة، وجلجلت الفضيحة. وانتهى الأمر إلى أن انضم كلّ من الضابطين إلى كتلة تناوئ الكتلة التي انضم إليها زميله وتواجها في الصراع على السلطة بالحدّة ذاتها التي تواجها بها في الصراع على فراش الشابّة.

أما الخلافات على مواقع السلطة، أو قل إن شئت تعبيراً أقرب إلى المتداول في كلام السياسيين: بشأن تحمل أعباء السلطة، فكانت هي الأشد والأكثر شيوعاً.

وفي هذا النوع من الخلاف، امتزجت النوازع الشخصية مع الأخرى العامة الناجمة من طموحات مختلفة، فتشابكت الأمور وتعقدت. وهكذا، اقترنت كل خطوة بمعركة خفيّة أو معلنة، صغيرة أو كبيرة. وتوالت المعارك، عند توزيع العضوية في الهيئات القيادية، عند تسمية الوزراء، وتولية الضباط مواقع المسؤولية في الجيش، أو تعيين المحافظين، والمدراء العامين، أو عند ما هو دون ذلك.

فإذا أخذت في الحسبان كثرة المناصب المتاحة للبعثيين وهم يعززون هيمنتهم على مواقع السلطة في الهيئات والمؤسسات المدنية والعسكرية، في العاصمة والمحافظات، فبإمكانك أن تتصور كم كان كبيراً عدد المعارك التي انشغل هؤلاء البعثيون بها وما أججه التعارك من نزاعات بين الكتل!

بالرغم من ذلك، وخلافاً للقناعات الرائجة التي قد تكون وصلت إليك، لم تكن الخلافات التي أشرت إليها هي الأشد تأثيراً في رسم المواقف أو الأخطر على الحزب ودوره في البلاد. فقد ظل بالإمكان التوصل إلى تسويات بين المختلفين في هذه المجالات وحلول للمشاكل المثارة. أما الأخطر فتمثل في الخلافات الجوهرية المتصلة برسم السياسات العامة إزاء المسائل الكبرى التي تواجهها البلاد وتزاحم الكتل على الاستئثار بمواقع صنع القرار بشأن هذه المسائل. وهذا التزاحم هو، عندي، السبب الأول الذي أدى إلى احتدام الصراع على مواقع النفوذ داخل الحزب، والجيش، والحكومة والهيئات القيادية كافة.

دارت الخلافات التي أتحدث عنها حول تحديد هوية الحزب العقائدية وتطويرها، وحدود دوره في الحكم، والوحدة العربية بمفهوماتها ومضامينها المتعددة، وقضية فلسطين والحل الملائم لها، والنهج الاقتصادي العام، والموازنة بين دور المدنيين والعسكريين في السلطة، وتوجهات السياسة على الصعد المحلية والعربية والدولية، وما شابه ذلك من قضايا أخرى كبيرة.

ميشيل عفلق والذين احتفظوا بالولاء لزعامته، والآخرون الذين استثمروا وجوده ليكسبوا الحكم العسكري صبغة مدنية، هؤلاء جميعهم آثروا الاحتفاظ بالمقولات العامة التي كونت عقيدة الحزب عند الشروع في تأسيسه على عتبة الأربعينات. وهذه، كما لا بد من أنك تعرف، مقولات قليلة وغامضة بشرت بها على مدى عقدين مقالاتُ الأستاذ وأحاديثه الموجزة وتربى عليها أعضاء الحزب وأنصاره. وكانت مقالات الأستاذ وأحاديثه التي ألقاها في غير مناسبة قد جُمعت وطُبعت فضمها كتابان حمل أولهما عنوان **في سبيل البعث** وحمل الثاني عنوان **معركة المصير الواحد**، وتكررت فيهما بضع مقولات عن الأمة الواحدة، والرسالة الخالدة، والقومية العربية التي هي «حبّ قبل كل شيء»، والطليعة الثورية التي يتوجب أن تُعدَّ نفسها لترتقي إلى مستوى تحقيق رسالة الأمة، وتميُّز البعثيين الذين هم هذه الطليعة عن الشيوعيين واختلافهم معهم. وكان على كل مرشح لعضوية الحزب أن يقرأ مقالات بعينها من مقالات الكتابين وعدداً أقل من مقالات كتبها بعثيون آخرون لم تجئ بأكثر أو أوضح مما جاءت به مقالات الأستاذ. وقد صار لعمومية المفهومات وغموضها وظيفة جديدة بعد أن سيطر الحزب على السلطة، إذ أنهما أباحا للأستاذ والمحيطين به أن يحتفظوا لأنفسهم، هم سدنة المفهومات، بحق الإفتاء وتقديم التفسيرات التي يبرز التطور الحاجة إليها، أي أن يرسخوا السياسات. وهذه الوظيفة تمثلت بالنسبة للباحثين عن سند فكري للحكم في تسويغ إدعاء العقائدية دون الالتزام بمفهوم محدد أو برنامج.

أما يساريو الحزب فقد ضاقوا بأسر المفهومات العامة والغموض وتوخوا الانفتاح على أجواء العصر الأكثر تقدمية وشاعوا أن يستوعب الحزب مستجدات

العصر ويتطور من صيغة عشيرة يرأسها الأستاذ إلى صيغة طليعة يتفاعل بها الحزب مع المجتمع.

وأما القطريون، فقد ضمّوا خليطاً غير متجانس، واتسم سلوكهم ببراغماتية من نوع ينفر أمثالي، إذ أنهم رددوا طروحات عفلق وتعاونوا معه ورددوا بعض طروحات اليسار لكنهم ساندوا حملة عفلق على يساريي الحزب.

والواقع أن موالي كل واحدة من الكتل توفر لهم ما يشد صفوفهم نحو طموح عام يجدونه هم مشروعاً ويشكل بالنسبة لهم عقيدة تميزهم عن غيرهم. فالعفلقيون، إن جاز التعبير، جمعهم طموح مثالي إلى بعث أمّة عربية واحدة في دولة واحدة تقف نداً إزاء الدول الكبيرة القائمة وتتميز عنها أو حتى تمتاز عليها، فلا تكون شيوعية مادية ولا رأسمالية استعمارية. واليساريون جمعهم طموح الشبان المنفتحين على المعارف المعاصرة ممن ظنوا أنه يمكن استخدام النهج العلمي الماركسي لتحقيق هذا البعث. أما القطريون فقد حملوا سمة من هنا وأخرى من هناك وتميزوا بطموحهم المثابر لتحقيق الهيمنة على السلطة وانصرفوا إلى تعزيز مواقع أنصارهم في الحزب والجيش والهيئات المدنية.

كان تمايز الكتل ظاهراً ولكنه تمايز قُوىً خرجت من منبع واحد وحملت الكثير من السمات المشتركة. وقد تماثل ناس الكتل كلها، على العموم ومع الإقرار بالاستثناءات، في إيلاء الأهمية للقول أكثر مما للفعل وإغفال التطابق بينهما. كما تماثل هؤلاء في إحلال التصور محل الواقع وجعل الرغبات في مقام برنامج العمل. وكان أكثر ما تماثل هؤلاء فيه هو تصرفهم بمنطق النخبة التي تعطي لنفسها حق النطق باسم الجمهور والتفكير نيابة عنه وتمثيل مصالحه، دون أن تُتاح للجمهور فرصة التعبير عن نفسه بنفسه أو السعي إلى تحقيق مصالحه بجهده النابع من إرادته. شيء آخر ماثل فيه الجميع بعضهم بعضاً هو إهمالهم لمقتضيات الديمقراطية.

ولأن عملية إعادة بناء الحزب، أي إعادة تنسيب الأعضاء الذين كانوا فيه قبل

حله في العام ١٩٥٨ إثر قيام الوحدة بين سورية ومصر، كانت ما تزال جارية عندما انفرد الحزب بالسلطة، ولأن هذه العملية اقترنت بمحاولات التوسع بضم أعضاء جدد لم يكونوا في الحزب من قبل، فإن الانفراد بالسلطة ترك بصماته على بنية الحزب وأثر فيها تأثيراً سلبياً خطيراً. فالحرص على توفير سند شعبي للسلطة أدى إلى التساهل في شروط العضوية واستقطاب الأنصار، فالتحق بصفوف الحزب، باسم العودة إليه، كثيرون من الذين اجتذبتهم إليه منافع الحكم وحدها، وانضم إليه أعضاء جدد كثيرون من الصنف ذاته. وانضم إلى الحزب، بوجود التساهل في التدقيق في شروط العضوية، كثيرون كانوا أعضاء أو مناصرين في أحزاب خاصمت حزب البعث في وقت أو غيره. هذه الظواهر سهّل التنافسُ بين الكتل استشراءها. وأوجد التنافس ظاهرة سلبية اخرى وهي انضمام أعضاء جدد إلى الكتل مباشرة أي قبل أن تتوفر لهم خبرة العمل في حزب موحد وحاجاته.

لم نسلم في التنظيم الفلسطيني من تأثير هذه الظواهر. لكننا تميزنا بالتدقيق في شروط العضوية واختيار الأنصار الجدد. وكنا في هذا المجال متشددين غاية التشدد. وما ساعدنا على التشدد هو أن التنظيم بأغلبيته الساحقة ينتمي الى كتلة واحدة، فلم يتأثر بالظاهرة السلبية المتمثلة في تنافس الكتل على اجتذاب المناصرين بأي ثمن. لكن هذا استتبع أن نجعل الأنصار الجدد موالين للكتلة ونزج بهم في مناوءة الكتل الأخرى. وأنا أتذكر تجربتي الشخصية مع الأنصار الجدد الذين توليت المسؤولية عن حلقاتهم. فقد ترتب على هؤلاء أن يقرأوا في الاجتماعات الرسمية بإشرافي ما هو مقرر للأنصار من مقالات عفلق وأمثاله كمنيف الرزاز وإلياس فرح، ثم أن يستمعوا إلى شروحي وتحليلاتي، أي إلى ما يتعارض مع ما قرأوه. كنت أمرّ على المواد المقررة كما يفعل مدرس مادة الديانة غير المتدين حين يشرح للتلاميذ نصوصاً لا تستهويه، ثم أصرف معظم الوقت في تنمية ملكة الجدل عند الأنصار وتثقيفهم بما نتداوله في كتلتنا مما لا يقرره الحزب ولا يقرّ به. وكثيراً ما واجهني نصير

من الأنصار بهذا السؤال: «أنت تقول لنا غير ما تقوله مقالات الأستاذ ولك آراء تنتقض آراءه، فبأي الموقفين نأخذ؟» وكنت أقدم دائماً إجابة واحدة: «خذوا بما تقرّه عقولكم، كلام الأستاذ مقرر في الحزب، لكنه غير مقدس!» أما خارج الاجتماعات فكنّا نحرض الأنصار وغير الأنصار صراحة على الأستاذ ونعبئهم للمواجهة مع كتلته.

في هذا الجوّ، استعد الحزب لعقد مؤتمره القومي السادس، فجرت الانتخابات الحزبية ففازت فيها نسبة ملحوظة من المناوئين لقيادة عفلق. فجند عفلق مواليه وإمكانياته وتحالفاته في حملة استهدفت ألا ينتخب المؤتمر قيادة قومية مناوئة له أو أن تصدر عنه قرارات غير مواتية، أي أن لا يظفر اليسار. وفي هذه الحملة بالذات، انكشفت صورة لشخصية عفلق تغاير الصورة المرتسمة في الأذهان مغايرة النقيض للنقيض. فطيلة عقود سابقة، حرص عفلق على أن يرى الحزبيون فيه صورة الثوري الناسك المترفع عن الصغائر المنصرف إلى جلائل الأمور. أما في الحملة فبرز عفلق مناوراً براغماتياً لا يتعفف عن كسر قواعد الأخلاق ولا يتردد في اتباع الأساليب الوضيعة لرد الخطر الذي يتصور أنه محدق به.

أكدت نتائج الانتخابات الحزبية أن عفلق مصيب في تقييمه لليسار بما هو خطر مداهم لسلطته، خصوصاً منذ تعزز التحالف بين يساريي سورية البعثيين ونظرائهم العراقيين. ولمقاومة اليسار، متّن عفلق حلفه مع القطريين بين يدي المؤتمر القومي، ورضي هؤلاء بأن يشكلوا متراساً يحمي الأمين العام. وفي العراق، اتخذ عفلق تدابير أو رضي عن أخرى تضعف كلها الحزب. فعل عفلق هذا ما دام في ضعف الحزب في العراق إضعاف لليساريين الذين يهيمنون على قيادته. وقد استخدم عفلق وسائل التحريض والتآمر كلها لإضعاف اليساريين أينما كانوا. وما فعله عفلق في العراق بالذات هو الذي يبرز المدى الذي قد يذهب إليه المدافع عن سلطته. فالأمين العام للحزب تحالف هنا حتى مع العسكر العازمين على تقويض سلطة الحزب. قبل عفلق

بالمجازفة لأن تحالفه هذا يضعف مناوئيه الحزبيين اليساريين. وأغمض القطريون السوريون العيون إزاء سلوك عفلق بالرغم من إدراكهم لخطره. فهؤلاء لم يكونوا على أي حال شديدي الاهتمام بما يجري في العراق. واجتذب عفلق في حملته على اليسار كل من أمكن اجتذابه من اللائبين على أطراف كل الكتل، فانجذب إليه من هؤلاء خليط من المدنيين، ولبّاه يمينيون مفتونون بصمود الأستاذ ضد اليسار، ومغامرون غير مفتونين بشيء سوى غوايات السلطة. واغوى عفلق أكثر عسكريي سورية نفوذاً بقدرته على إضفاء الشرعية الحزبية على إجراءاتهم هم في الحكم. كان خاتم هذه الشرعية ما يزال في حوزة الأمين العام؛ وكان العسكر بحاجة إليه فيما هم يؤسسون حكمهم. من هنا، اجتذب عفلق معظم العسكريين وبدا دعم هؤلاء للأمين العام كأنه تعبير باهر عن التزامهم الالتفاف حول الشرعية.

وعبر التطاحن الذي اشتد أثناء التحضير للمؤتمر القومي السادس، تمخض المشهد الحزبي عن مؤتمر من نوع خاص. وفي هذا المؤتمر، تمثلت كتل الحزب كلها بأكفأ قادتها المدنيين والعسكريين وأشدّهم استعداداً للعراك. وهكذا، تعارك المؤتمرون أكثر مما تجادلوا، واختصموا على أشياء كثيرة دون أن يتفاهموا على شيء. وخلال أيام المؤتمر الذي انعقد في دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣، صال المتعاركون وجالوا في ميادين الفكر والسياسة المختلف عليهما. طرح اليساريون ما عندهم، وتصدى عفلق لهم بغير هوادة، فأظهر أن محاولاتهم تجديد فكر الحزب ليست سوى محاولات انقلاب ودعوة إلى حزب آخر. أما جمهرة العسكريين المعنية في المقام الأول بدوام السلطة فقد أيدت الأستاذ. ضاقت غالبية العسكر بفذلكات اليسار وأدركت أن حالة الحزب القائمة في ظل فكر الأمين العام هي أكثر حالاته ملاءمة لطموحها فتشبث بها وبه. وركز عسكر الأمين العام جهدهم على منع انداح تأثير اليسار المتزيي بالزي الماركسي في أوساط الجيش. وقال أمين الحافظ أمام المؤتمر قولاً بليغ الدلالة، وصاغ القول بصيغة إنذار حاسم: «ليختلف الرفاق

كما يشاءون، أما الجيش فسنقطع اليد التي تمتد إليه!»

آمل في أنك تعرف ما ينبغي عليك معرفته من وقائع أشهر مؤتمرات حزب البعث هذا ونتائجه. وفي المراجع المتيسرة الكثير مما يغني. أما هنا فسأحدثك عما يتصل بالشأن الفلسطيني الذي تطرق له المؤتمر.

تعرف أنت أن انعقاد المؤتمر تزامن مع شروع إسرائيل في تنفيذ مشروعها الكبير لتحويل مجرى نهر الأردن من أجل الاستئثار بمائه. وقد كان موضوع التحويل وما يتصل به من احتمالات الاحتكاك أو حتى الحرب مع إسرائيل هو الهاجس الذي يقلق السوريين والعرب الآخرين المعنيين بالصراع مع الدولة المعتدية. وكانت أجواء المزايدات التي أطلقها العراك بين البعثيين والناصريين قد دفعت قادة سورية إلى الإعلان عن اعتزامهم منع التحويل بالقوة. وعندما انعقد مؤتمر الحزب القومي، وهو أعلى هيئات الحزب، توجب أن يفحص المؤتمرون مسألة التحويل هذه ويتخذوا التوجيه الملائم بشأنها. وكان بين اللجان التي توزعت أعضاء المؤتمر لجنة خاصة بفلسطين. وقد انضم إلى هذه اللجنة عشرون من أركان الحزب والدولة. وما تزال ذاكرتي تحتفظ بوقائع المداولات التي شهدتها لجنة فلسطين هذه، كما رواها لي في حينه غير عضو من أعضائها. فقد قدم أمين الحافظ عرضاً للوضع العسكري انطوى على الإقرار بأن ميزان القوى لا يبيح الدخول في مجابهة عسكرية مع إسرائيل لمنع التحويل. وعرض صلاح البيطار الوضع السياسي وخلص إلى النتيجة ذاتها. وأظهرت المداولات كلّها أن منع التحويل بالقوة متعذر. لكن استشراء روح المزايدة حال دون وجود عضو واحد من الأعضاء العشرين مستعد لنقل هذا الاستخلاص إلى اجتماع الهيئة العامة للمؤتمر. وهكذا، جاء قرار المؤتمر ليؤكد على الشعارات السابقة. وفيما ظلّت الآليات الإسرائيلية تفتت الصخر وتحفر المجرى الجديد، ظلت إذاعة دمشق تردد الأغنية التي يصمّ صخب إيقاعها الآذان: «نهر الأردن ما بيتحول».

أما التقرير العقائدي الذي ناقشته لجنة خاصة ثم عرض على المؤتمر فهو الذي استقطب أوسع الاهتمام ودار حوله أشدّ العراك. وضعت عناصر يسارية فلسطينية وسورية وعراقية مشروع هذا التقرير ظانة أن اليسار له الغلبة في المؤتمر فضمنت المشروع أفكار اليسار وطموحاته كلها. ويكفي أن تعرف أن صياغة المشروع تمت على يد ياسين الحافظ، وهو من كان شيوعياً حتى وقت قريب ثم انتقل إلى البعث حاملاً طموحه الأخّاذ بإكساء الفكر القومي أردية ماركسية، لتدرك إلى أي مدى كان اليسار معتداً بقوته الفكرية!

والذي حصل أن المؤتمر أجاز التقرير العقائدي، غير أن إجازته تمت عبر الصراع المرير على كل عبارة أو فكرة فيه، وبعد أن نجح المعترضون على المشروع في إدخال مقدار أو آخر من التعديلات عليه. ولما لم تكن ثمة محاضر مكتوبة للمداولات، فقد أمكن لعفلق الذي أبقاه المؤتمر على رأس الحزب أن ينشر نصاً للتقرير يلائمه ويزعم أن هذا هو ما صادق عليه المؤتمر. عندها، سخط اليساريون وقالوا إن التقرير الذي نشره عفلق مزوّر. وبالعودة إلى أشرطة التسجيل التي يفترض أن تضم مداولات المؤتمر، اتضح أن هذه الأشرطة فارغة، بل وجد منها ما لا زال يحمل الأغاني الهندية التي كانت مسجلة عليه من قبل. وفي تفسير ما وقع، شاعت روايتان: قال بعضهم إن الأمر نجم من خلل متعمد في آلة التسجيل، وقال آخرون إن الخلل لم يكن متعمداً، وغابت الحقيقة بين الروايتين. وعندما حاولت أن أتقصى الحقيقة بنفسي، عرفت أن الإشراف على التسجيل أوكل إلى عضو في المؤتمر يعاني متاعب في عينيه وتستحوذ الحوارات على انتباهه فتصرفه عن الاهتمام بالتسجيل. وهذا العضو ذاته وهو صديق حميم لي لم ينته إلى رأي قاطع: هل كان الخلل متعمداً أو غير متعمد.

أيا كان الأمر، فإن عفلق تشبث بالشعارات القليلة التي صاغ بها فكر الحزب وواصل كفاحه ضد التجديد. وفي المواجهة مع المنتقدين اشتهر عن عفلق قوله

في المؤتمر: «بمقالاتي القليلة التي تستهينون بها مكّنت الحزب من الاستيلاء على السلطة في قطرين». وهذا قول له تتمة منطقية ترك عفلق لحصافة سامعيه أن تستخلصها: فماذا فعلتم أنتم بشططكم الفكري؟! والمدهش أن المؤتمر الذي أجازت أكثريته تقريراً فكرياً يسارياً انتخب هو ذاته قيادة قومية على رأسها عفلق. وبتحالف العفلقيين مع القطريين، تحول اليساريون إلى أقلية.

الوقائع التي اقترنت بعقد المؤتمر، وخصوصاً ما دار منها حول تزوير التقرير العقائدي، أسقطت من ذهني ما كان قد بقي للأمين العام من هيبة. فقد رأيت بأم العين كيف تخلى المفكر المشهور عن مسوح المبدئي الناسك التي صنعت شهرته، وكيف صال وجال غير آبه بقيم الثوريين ومبادئهم.

وقد نشأ في الحزب بعد مؤتمره القومي السادس وضع غريب ومعقد: حزب تقوده قيادة متهمة بأنها زوّرت فكره، ومعارضة يسارية للقيادة تتهم مؤسسي الحزب ذاتهم بأن فكرهم غريب عن فكره، وكتلة واسعة تقف بين بين، تستعير شعارات المعارضة اليسارية لتوسع قاعدتها هي، وتسند إجراءات القيادة ضد اليسار. ولئن أظهرت وقائع المؤتمر سعة انتشار الفكر اليساري في الحزب، فقد أظهرت نتائجه أن يمين الحزب لم يكن بغير حول كما لم يكن من السهل إلحاق الهزيمة به. ولأن اليمين ضم معظم القادة المخضرمين ذوي الخبرات العريقة وحظي بتأييد القطريين، فقد سيطر على مواقع النفوذ في الحزب والدولة وجند قواه وخبراته للفتك بنواة الكتلة اليسارية وتبديد قوى الكتلة. وعلى الجانب الآخر، أديرت نشاطات كتلة اليسار من قبل شبان هم، بمعظمهم، قليلو الخبرة أو قصيرو النفس، وكثيرو الأوهام. وقد سهل هذا الوضع لعفلق وجماعته استدراج اليساريين إلى معارك متوالية تستنزف طاقاتهم ويفقدون خلالها مواقعهم الواحد تلو الآخر.

ولما كنت واحداً من نشطاء اليسار، فقد توجب أن أنهمك في المعمعة ألقي وأتلقى، ولا استقرار. وقد وجد زعماء كتلة اليسار فيّ مشاكساً جريئاً ضد

اليمين ولساناً حاداً في مقارعته. فقربني هؤلاء الزعماء إليهم أكثر فأكثر، وهيأوا لي أن أطلع على تفاصيل الشؤون الحزبية والحكومية وأعرف أدق أسرارها. وكان في هذا، كما في غيره، ما يشجعني على الاندفاع في المقارعة، كل هذا وأنا لم أبلغ بعد الخامسة والعشرين.

وقد ينبغي أن أقرّ لك بأني انهمكت في معمعان الصراعات الداخلية بلذة آسرة. وما أشدّ ما طاب لي أن أشتهر بصفتي العضو الذي يصادم قادة الحزب والدولة ولا يهاب صغيراً أو كبيراً!

لم أشغل في الحزب أي موقع قيادي من أي مستوى. وقد اتخذت لنفسي، بنفسي، خلافاً لنصائح أصدقائي العديدين، مبادئ ترسم سلوكي في الحزب، وتوخيت أن تكون المبادئ من النوع الذي يساعد في تحرير إرادتي وعزيمتي من أي ضغوط. شئت أن أتبع ما يلائم ضميري ومزاجي فحصنت نفسي بمبادئ رأيت أنها ملائمة. تمثل أول المبادئ في رفضي التفرغ للعمل الحزبي، أي رفضي أن أتقاضى راتباً من الحزب مقابل تفرغي للعمل فيه، وكذلك رفض أي وظيفة تعرض علي بوصفي حزبياً. ولهذا، بقيت في وظيفتي معلماً في مدارس الأونروا حتى بعد أن قصر راتب هذه الوظيفة عن الوفاء بحاجاتي. هذا المبدأ ارتبط به مبدأ مماثل. فقد رفضت أن أتلقى مكافأة مالية على أي عمل أنجزه لصالح الحزب. ومن المبادئ التي تشبثت بها كان تعففي عن الدخول في أي منافسة على المناصب الحزبية، حتى حين يتيسر الظفر فيها بواسطة الانتخابات ويكون نجاحي مضموناً. هذا التعفف نبع في الأساس من بغضي لمظاهر التطاحن على المناصب وما يقترن به من مناورات وأوجه سلوك متدنية المستوى في أحوال كثيرة. ونبع هذا التعفف أيضاً من اعتقادي أن إشغال منصب ما يخضع صاحبه لمتطلبات يفرضها المنصب، أي لقيود، ويفرض عليه تنازلات لا بدّ من أن يؤديها لكي يضمن استمراره في منصبه. أضف إلى هذين السببين أن الظروف وضعتني منذ انتسابي إلى الحزب

بالقرب من أوساطه القيادية وهيأت لي أن أتعامل مع القادة بندّية وجعلتني عضواً لا غنى عنه في عدد من اللجان المتخصصة، بما فيها أرفع اللجان مستوى. وقد عنى هذا أني لم أفتقر إلى ما يستحوذ عليه القادة من النفوذ أو الشهرة أو الوجود في مركز الأحداث. ومن المبادئ التي التزمتها في سلوكي في الحزب كان حرصي على تأدية المهام بإخلاص وإتقان وتفان، يستوي في هذا أن تتحدد المهمة بقرار وافقت أنا عليه أو قرار عارضته. لقد أدركت، حتى وأنا في سنّي المبكرة تلك، أن الانضباط والنجاح في أداء المهام يوفران لي حقاً أقوى في المعارضة. فكنت أعارض القيادة، إذاً، معتمداً على سجل نظيف وقوي وأجد حتى بين موالي القيادة كثيرين يحترمونني ويدافعون عن حقي في الجهر بآرائي المخالفة. أما أهم المبادئ وأدومها تأثيراً على شخصيتي فتمثل في تحديدي لطموحي وتشبثي به: شئت أن أصير كاتباً، وأن أتقدم في ميدان الكتابة. وكنت أجد في النشاط الواسع الذي أمارسه في هذا أو ذاك من ميادين السياسة عاملاً يحسّن فرص تقدمي في المجال الذي نذرت نفسي للتقدم فيه. والحقيقة أن لدي في هذا المجال ما أعتزّ به، وقد ساعدني هذا التحديد لطموحي على النجاة من المزالق، وخصوصاً مزالق الولع بالسلطة.

٣ في محاكمة خصوم الحزب أحسست بالكآبة

غني عن البيان أني لم أول دراستي الجامعية في ذلك العام أي اهتمام يذكر. وعندما جاءت سمية من عمان من أجل امتحانات الدورة الثانية، كنت أنا مستغرقاً في الأجواء التي رافقت التحضير للمؤتمر القومي السادس، فلم أتمكن من تخصيص أوقات طويلة للالتقاء بها. وبلغ استياء سمية الذي لا تفصح عنه إلا بإشارات غامضة ذروته. كنت ما أزال أحب هذه الفتاة التي صرت تعرف طبيعة علاقتي العذرية بها. إلا أني كنت أضيق بقيود هذا الحب. وفي لحظة أفصح صمت سمية فيها عن عمق استيائها، سطع في ذهني قرار: لن أربط مستقبلي بهذه الفتاة التي تضيق بالعمل العام. هل كنت ألزم نفسي بهذا القرار تضحية جديدة من التضحيات التي كان يطيب لأمثالي أن يتصوروا أنهم يقدمونها من أجل القضية العامة، أم أني هربت من تحمل مسؤوليات الشراكة في الحياة، أم أن نشأتي وتربيتي لم تؤهلاني لشراكة مستقرة؟ من الصعب إن لم يكن من المتعذر أن أجيب على هذه الأسئلة، فأنا لم أعرف السبب في حينه ولم أصل بعد ذلك إلى إجابات يقينية. وأغلب ظني أن هذه الأسباب كلها ومعها أسباب أخرى قد فعلت فعلها مجتمعة. وعلى أي حال، فقد انبثق القرار فجأة وأغواني ما ينطوي عليه من مغزى التضحية، فتشبثت به. لكني جبنت عن إبلاغ قراري إلى سمية التي كانت على ما يبدو خالية الذهن من هواجسي.

ولكي لا أتراجع، عزمت على أن أتزوج فتاة أخرى. كنت وحيداً لا ارتباط لي بأسرتي، وكنت مريضاً محتاجاً إلى الرعاية، فتهيأ لي أن لا بدّ من الزواج. وما دمت قد رفضت الارتباط بسمية بدعوى ضيقها بالعمل العام، فقد قررت أن أرتبط بفتاة منهمكة فيه متعودة على أجوائه ومتطلباته وتقلباته. ولم يطل بحثي بعد ذلك، إذ سرعان ما وقع اختياري على من تصورت أنها تتمتع بالمواصفات المرغوبة. وكانت هذه هي أخت صديقي محمد بصل ابنة الأسرة التي ينهمك أعضاؤها كلهم في السياسة، وسرعان ما باشرت التقرب منها ثم طلبت يدها. إنها العادة المستحكمة: الإسراع إلى إنفاذ ما أعتزم الإقدام عليه. وما زال يؤلمني حتى الآن واقع اني لم أفاتح سميّة بانقلاب موقفي منها ولا بحت للفتاة التي خطبتها بحقيقة حبّي لسمية. وهكذا، حصل أني، أنا المتشبث بمبادئ الأخلاق المستقيمة حدّ التزمت، سلكت سلوكاً أقرب إلى النذالة، لا لشيء إلا لأني افتقرت إلى الجرأة على مواجهة أي من الفتاتين بالحقيقة.

وفي جريدة **البعث**، وجدت نفسي في وضع مقلق. ازداد توقي إلى الكتابة مع اتساع نشاطي بينما ضاقت الفرص أمام نشر آرائي. كان عبد المحسن أبو ميزر، رئيس التحرير الوافد من الضفة الغربية، قد قضى في دمشق ما يكفي من الوقت ليعرف حال الحزب وتوزع الكتل فيه وحصة كل كتلة من النفوذ ويستوعب مغزى التطورات وآفاقها المقبلة. وكان الرجل ميالاً إلى كتلة عفلق، بل لعله كان عفلقي الفكر أكثر من عفلق نفسه. غير أن هذا الرجل حرص على مراعاة موازين القوى في الحزب ووجه الجريدة على هذا الأساس. وفي حساباته، أباح لي عبد المحسن مجال الكتابة، لكنه راح يضيق هذا المجال كلما نجحت حملة الأستاذ في التضييق على اليسار. وبمضيّ الوقت، لم يبق رئيس التحرير لي إلا حق تناول المواضيع غير المختلف عليها داخل الحزب، وحظر علي نشر أي مادة تشتمّ منها رائحة اليسار وأطروحاته الخاصة، وتشدد في مراقبة ما أكتب. كان بإمكاني، مثلاً، أن أهاجم الناصريين، أو أن أرد على حملات الإعلام المصري، أو أن أشتم الصهيونية والإمبريالية وأحملها

مسؤولية المساوئ القائمة في الكون كلّه. إلا أنه لم يكن جائزاً أن أتطرق إلى موضوع ينشغل الحزب به وتنقسم الآراء بشأنه. وبعدما أفلحت في تحرير مادتين أو ثلاث مما لا يقبله، شدد رئيس التحرير يقظته وأكثر من إمرار قلمه الأحمر على ما أقدم إليه من مواد، فصار المقال يذهب إلى المطبعة وقد تقطعت أوصاله واستلت روحه ولم يبق فيه ما يفيد أو يشوق أحداً. وأطلق عبد المحسن لسانه في انتقادي وانتقاد اليساريين مع توالي نجاحات الحملة على اليسار، وكان يعدنا من المتشنجين، ويحلو له أن يصفني بأني قطار، أي أني لا أتقن السير إلا على خط واحد في اتجاه وحيد.

لم أقصر في محاججة رئيس التحرير، فقد ألفت أن أحاجج الذين هم أرفع منه شأناً وأقسى يداً. ورداً على وصفه إياي بالقطار، كنت أقول له إنه تكسي، أي أنه مستعد لتبديل رفاق الرحلة وخدمة من يدفع. وفي ظل رقابة رئيس التحرير الصارمة، نمت خبرتي في كتابة العبارات المواربة والاتكاء على أساليب ملتوية لإيصال الآراء إلى القراء. كنت أنتقي من العبارات ما يضلل رئيس التحرير فيجيز النشر ويكون له تأثير مختلف على القارئ. وفي المواضيع التي لا تسعفني فيها العبارات المواربة، كنت أتناول موضوعات خارجية بعيدة عن دائرة الاهتمام فأعالجها بطريقة يدرك معها القارئ الذكي أني أسقطها على شؤون محليّة، أو أحلل برنامج حزب أجنبي مضمناً التحليل آرائي في برامج حزب البعث. ولم يكن عبد المحسن قليل الذكاء أو قليل اليقظة، إلا أن كثرة انشغالاته أباحت لي أن ألتفّ على ذكائه وأخترق يقظته.

وفي الجريدة، عبر عبد المحسن، تعرفت على كمال ناصر. التزم هذا السياسي والشاعر البعثي ذو الشخصية المتميزة نوعاً من الحياد حين وقع الخلاف الأول بين عبد الناصر والبعثيين. بقي كمال بعثياً بالطبع، إلا أنه لم ينجر إلى معاداة عبد الناصر حين خاصم الزعيم الكبير البعثيين أيام وحدة سورية ومصر، بل سعى إلى إصلاح ذات البين. وعندما وقع الانفصال، أيد كمال الدعوة إلى إعادة الوحدة وأيد من فرقاء البعث الفريق الذي تصدره ميشيل

عفلق وصلاح البيطار، وغالى كمال في استنباط ما يتصل بميل هذين الزعيمين إلى إعادة الوحدة. وبهذا، احتفظ كمال بعلاقته الطيبة بقادة الحزب المؤسسين وكان يعدّ نفسه واحداً منهم، وصار في الوقت ذاته أثيراً لدى أجهزة الإعلام الناصرية في القاهرة وبيروت، وكان يستقبل هناك بوصفه من أبطال النضال الوحدوي. وبعدما جاء البعث إلى السلطة، اندفع كمال في اتجاهين متوازيين، فتشدد في دعوته إلى إعادة الوحدة وقد ظن أن الفرصة سانحة، وشدد ولاءه لعفلق وجماعته وناصر العفلقيين في صراعهم مع مناوئيهم في الحزب، دون أن يتورط في العداوات مع أحد. كان كمال مقرباً من ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأمثالهما من القادة القدماء. أما القادة الجدد، فقد وجد الشاعر المسكون بالمشاعر الطيّبة طرقاً سهلة للتعارف معهم ومحاورتهم دون بغضاء؛ إنه شاعر البعث وممثله في أول مجلس نيابي أردني يتشكل نتيجة انتخابات نزيهة. أما علاقة كمال بعبد المحسن فكانت من نوع يستحق التأمّل. نشأ الاثنان في الضفة الغربية، عبد المحسن في القدس وكمال في بيرزيت غير البعيدة عنها. ووجد الاثنان طريقهما إلى حزب البعث في وقت واحد، واختبرا هموماً متماثلة عبر تجربة الحزب في المملكة الأردنية، وتماثلت مواقفهما في الشأن العام. وبكلمات وجيزة: كان كمال وعبد المحسن رفيقي عمر على درب واحد. بالرغم من هذا، كان عبد المحسن يجد في كمال منافساً له ويأخذ عليه اندفاعه في التعبير عن مواقفه بصراحة ويحسده وهو يرى أنه محبوب من الجميع وبضمنهم الذين يختلفون معه في الرأي. ومع أن عبد المحسن لم يكن بغير قدرات متميزة، فقد كان ينفس على كمال صيته بما هو شاعر ومكانته، ولم يتورع عن المس بهذه المكانة كلما لاحت الفرصة ليظهر تميزه هو ويجتذب الانتباه إلى نفسه، لكنه لا يبلغ أبداً حدّ التسبب بالأذى لرفيق عمره.

وعندما وقعت أحداث ١٨ تموز/يوليو الدامية، كان كمال في دمشق، في إبّان سعيه لرأب الصدع بين البعثيين والناصريين. ولما تمثلت الأحداث كما رآها كمال بإقدام الناصريين على المبادرة إلى إطلاق النار على البعثيين، ومع

تضخم إحساس الشاعر بالذات ومبالغته في تصور الدور الذي يقوم به، عدّ كمال هذا من الناصريين غدراً شخصياً به وإساءة للوساطة التي يتولاها ونقم عليهم. وحين كان الجمهور محبوساً في المنازل بحكم حظر التجول مشدوداً إلى الإذاعة والتلفزيون، تحدث الشاعر المفجوع في الإذاعة وظهر على الشاشة الصغيرة، بوجهه الجميل الذي يزداد جمالاً حين يغضب وصوته المتوتر الذي يصير فاتناً حين يشتد توتره، ووجه اللوم إلى الناصريين متهماً إياهم صراحة بالغدر، وقال أشياء كان يفوه بمثلها لأول مرة ضد عبد الناصر ذاته.

بعد هذا، بقي الرجل الذي لا تعرف روحه الاستقرار أبداً شديد القلق؛ لم يكن متيقناً مما إذا كان قد أصاب أو أخطأ، ولعله حسب حساب تأثير موقفه على علاقاته الواسعة بالوحدويين في دنيا العرب وبضمنهم ناصريون كثيرون. ولاب كمال هنا وهناك، يسأل هذا وذاك، ويتقص ردود الفعل، ولا يصل إلى اليقين. ثم زاد الطين بلّة إذاعة صوت العرب من القاهرة هاجمت كمال، وفي هجومها على الشاعر القومي العربي الحساس، أضافت هذه الإذاعة إلى الاسمين اللذين يعرفهما الناس اسم بطرس وسمته كمال بطرس ناصر مشيرة بهذا إلى انتمائه إلى أسرة مسيحية، وحرضت الجمهور عليه. وقد راقب عبد المحسن قلق كمال وشجنه إزاء التحريض البغيض، واستثمر الفرصة لمعاتبة صديقه كما ألف أن يفعل. ولأمر ما، شاء عبد المحسن أن يشركني في هذا العبث. ولأمر ما لعله استهانتي بإحساس كمال بالخطر إزاء التحريض واعتقادي أن لا خطر عليه البتة، قبلت المشاركة وهكذا تواطأنا، عبد المحسن وأنا، فدسسنا لكمال بين بريده الذي يصل عادة إلى عنوان الجريدة رسالة فيها إنذار. كانت تلك ورقة فيها كلمات قليلة: «كيف تتجرأ وأنت الشاعر العروبي الوحدوي على شتم رائد القومية العربية الرئيس جمال عبد الناصر حبيب الملايين، ألا تعرف أن حياتك يمكن أن تنتهي بطلقة ثمنها عشرون قرشاً؟»

قدم كمال كعادته ظهر كل يوم إلى مكتب عبد المحسن وأنا فيه. وكعادته، بدأ كمال بفضّ الرسائل وهو واقف بقامته الرشيقة، وراح يتمعن في رسالة ويتعجل

الفراغ من أخرى، فيما راحت شتى التعابير تتماوج على صفحة وجهه. وما أن وقعت عينا كمال على الرسالة المنذرة حتى هتف بجلبة: «هذا وسام آخر. اقرأ لتعرف كم أغاظ حديث أخيك كمال أعداء البعث هؤلاء»، ووضع الورقة أمام عبد المحسن.

تظاهر الصديق المعابث، بالطبع، بأنه يرى الرسالة لأول مرة، ورسم على وجهه تعبيراً يشي بالإحساس بالخطورة، ثم حوّل الرسالة إلي ففعلت ما فعله. وقال عبد المحسن لكمال بنبرة جادة: «لو أنك سوري لنصحتك بأن تستهين بالإنذار، لكنك غريب عن البلد، وهذا يجرئهم عليك، ومن يدري، فقد يفعلونها، هؤلاء الذين يحركهم اليأس لا بد من أنهم مغتاظون منك أنت بالذات، الأفضل، إذاً، أن تحتاط!» مع هذا الكلام، أخذ زهو كمال يبهت ويحل محله توجس تعكسه صفحة وجهه بوضوح. والتقط عبد المحسن مغزى اللحظة، فقال، حاثاً إياي على التدخل: «فيصل يعرف البلد أكثر مني ومنك وهو مثلي قلق عليك، فلماذا لا تتصل بوزير الداخلية وتطلب حماية». وبهذا، وصل عبد المحسن إلى ما توخاه؛ كان يعرف أن كمال يستهين بالرجل الذي يشغل وزارة الداخلية ويعدّ اتصاله به تنازلاً مهيناً، فشاء أن يدفعه دفعاً إلى ما يكره.

أرسل كمال نحوي نظرة مستنجدة، أمل في أن يظفر باستشارة مطمئنة، فأطرقت رأسي، أحنى الخجل رأسي. وقبل أن أفوه بشيء، تدخل عبد المحسن قاطعاً عليّ طريق النكوص: «يخجل فيصل من أن يصدر فتوى لشاعر في مقامك، ألا ترى مقدار قلقه». وما أسهل ما تورط كمال، فقد تناول سماعة الهاتف بعد أن أمدّه عبد المحسن برقم الوزير المباشر، واتصل بالوزير. مما لا شك فيه أن وزير الداخلية كان في وضع يمكنه من أن يقدر وضع كمال. ويبدو أن الوزير حاول إقناع طالب الحماية بأن لا خطر يتهدده. وبهذا، توفر سبب جديد ليحنق كمال، فقد عدّ استبعاد الوزير لوجود خطر على حياته هو استهانة من هذا الوزير به وبدوره في مواجهة خصوم الحزب. فاتخذ حوار كمال مع الوزير منحى آخر طريفاً. وقد تابعنا عبد المحسن وأنا صولات كمال

وجولاته وهو يجهد ليثبت أهميته، وحثثناه على التشبث بالحصول على الحماية. وانتهى الأمر بأن أرسل الوزير إلى كمال مسدساً وإجازة بحمله. فصار كمال يتزنر بالمسدس ويحرص على لفت الأنظار إلى وجوده على وسطه في أي مكان يحلّ فيه. تصور كمال كما شرح لي الأمر بنفسه أن إظهاره السلاح سوف يلجم محاولات الأعداء، واعتمد على تصوره أن هؤلاء الأعداء يجهلون حقيقة أنه لا يتقن استخدام أي سلاح.

ولأمر ما، أولاني كمال عناية خاصة؛ فطن إلى الجفوة التي تسم تعامل رئيس التحرير معي، وأعجبته محاولاتي لتمرير آرائي بأي وسيلة، وشاقته طريقتي في المحاججة، وعدني أنموذجاً للجيل الجديد في الحزب، فأوكل لنفسه، كعادته، رسالة كبيرة هي العمل من أجل التوفيق بين أصالة الجيل القديم وطموحات جيلي إلى التجديد، وندب نفسه لإقناعي بأهمية القادة التاريخيين للحزب وعظمتهم وأهليتهم للثقة. ومع أن الرجل يكبرني بعقد ونصف عقد وله مكانة سياسية واجتماعية وأدبية مرموقة، فإنه رفع الكلفة في تعامله معي أنا المبتدئ، ويسر لي أن أعامله معاملة الند، ولم يضن بالوقت أو الجهد في مثابرته على إقناعي بوجهة نظره.

وكان هذا الإنسان الذي لا يقر له قرار لا يترفع عن إظهار اقتناعه بفكرة من أفكاري حين تعجبه، غير أنه كان غالباً ما يرجع إلي ليعلن أنه بدّل قناعته. لم يكن من اليسير أن نتفق، وخصوصاً بشأن عفلق وقيادته. فبالرغم من ذلك، بقي من اليسير دائماً أن نتحاور دون حنق أو بغضاء. ولم يكف هذا الرجل الذي يصخب ذهنه وروحه بشتى الهواجس عن استدراجي إلى الحوار حول الأمور الساخنة ومعاودة الحوار مرة تلو مرة، دون أن يملّ القبول برأي والعودة عنه. وكان كمال يغتاظ حين يدرك أنه عاجز عن إقناعي، وغالباً ما يكون غيظه موجهاً ضد نفسه هو، وليس ضدي، وكثيراً ما كان يقول لي: «من تحسبني؟ أنا مثلك من الشباب، مع الشباب، أريد التجديد وأفدي طموح الشباب بروحي. ولكن هذه دمشق وليست باريس، وهذا ميشيل عفلق وليس

جورج مارشيه!» وما أكثر ما ردد كمال وهو مغتاظ من عجزه عن إقناعي: «أنت عنيد، لا تريد أن تقتنع بأن الحزب لا يتطور بين عشية وضحاها، وترفض أن تصدق أن الحزب لن يتطور إلا على أيدي مؤسسيه». كان كمال يفرغ بمثل هذا القول توتره ثم يكرر محاولاته فيقول: «لو أنك تعرف الأستاذ ميشيل كما أعرفه أنا، لاقتنعت برأيي»، ثم يشرع في جولة إقناع جديدة.

وهاأنذا أتذكر كمال في موقف أجج في روحه اضطرابا لم يسبق أن رأيته أسير مثله من قبل. كان ذلك يوم سقط صلاح البيطار في انتخابات الحزب الداخلية سقوطاً كان وقتها مهيناً. يومها، قدم البيطار استقالته من الحزب ومن رئاسة الحكومة واعتكف في داره معلناً حرده. في هذا اليوم لقيت كمال ناصر في مطعم «أبو كمال» الذي ألفنا أن نرتاده. كان الشاعر حزيناً وثائراً في الوقت ذاته، وبدا لي كأن أطناناً من الهموم تثقل عليه. وكعادته كلما عصفت أزمة، كان كمال يتصور أن هذه هي نهاية كل شيء. في هذا اللقاء، تحدث كمال حديث من يدفعه حلول كارثة إلى البوح بأعمق ما في سريرته: «لا بدّ أنك سعيد، ها؟» قذف كمال هذا السؤال في وجهي، دون مقدمات، بصفة اتهام، ثم هدر «تآمرتم فأسقطتم الرجل في الانتخابات». فلما لم أجب بشيء، قال هو بنبرة مأساوية: «أراحكم صلاح البيطار من نفسه ووفر عليكم عناء المشاغبة عليه». فلما بقيت حتى بعد هذا صامتاً، وجه كمال نحوي نظرته الغاضبة وقال: «إنك سعيد لأنك لا تعرف معنى أن يخسر الحزب صلاح البيطار، أما أنا فإني تعيس، نعم، سجل وافرح، كمال ناصر تعيس!» وشئت أن أهون على محدثي الحزين، فقلت اني أشاركه الرأي في أننا إزاء مشكلة صعبة، غير أن الوضع لا يصل إلى حد التراجيديا إن قعد صلاح البيطار في داره. واتبعت قولي بسؤال توخيت أن أستثير به حمية الشاعر وأشياءه العتيقة التي يعتز بها: «أين إيمانك بالحزب، وبالشعب؟» والتقط كمال الذي لا يتقن الإصغاء حين يكون مستثاراً الكلمتين الأخيرتين وكررهما بنبرة مريرة: «الحزب الشعب... ما أسهل أن تقول هذا، أنت الشاب الذي يستهين بمكانة

القادة الكبار ودورهم، أما أنا فلي خبرتي، اسألني أنا!»

أفرغ الشاعر مرارته ثم شرد، فلما استعاد حضوره بعد لحظات قص علي حكاية اعتقاله في قريته بيرزيت: «اعتقلوني وأنا نائب، جئت إلى البرلمان وقتها بإرادة الشعب وجهد الحزب والحركة الوطنية وسمعتي الخاصة. ولما أرادوا أن يبدلوا الحال جاءوا إلى داري واعتقلوني وساقوني إلى مخفر الشرطة كأني سارق عنزة. تصورت أن الشعب الذي اختارني بإرادته سيثور لكرامته ويداهم المخفر ويحررني، انتظرت وطال انتظاري...». فاستبقت أنا بقية الحكاية التي أعرفها، وتلوت بيت شعر من القصيدة التي قالها كمال في تلك المناسبة:

الشعب أقوى، والتفتّ فلم أجد حولي سواي!

وأصاب استحضاري هذا البيت غرضه، فتبسم كمال: «قرأت إذاً قصيدتي تلك؟»، فقلت:«نعم، وقد أعجبتني».

عندها، توجه كمال بكليته إليّ، وفرد ذراعيه على المنضدة، وفتح حدقتيه على سعتهما، وانبجس الهم الذي يختزنه: «في حياتي ثلاثة أحداث هزتني من الأعماق: خيانة عبد الناصر لي شخصياً بموافقته على ضرب حزب البعث، واستقالة صلاح البيطار، وعدم زواجي بإبنة خالتي». توخى كمال أن يشعرني بعمق أساه، غير أن قرنه واقعة شخصية بعيدة عن مجال اهتمامي بواقعتين عامتين جعل قوله بالنسبة لي أقرب إلى الكوميديا. وبدل مشاركته أساه، انطلقت من حنجرتي بالرغم مني قهقهة جعلها استعجالي كتمها قصيرة. واحتج هو، فجاء احتجاجه على طريقته: «تجد الأمر هيناً، ها؟ لقد غير عداء عبد الناصر للبعث مصير الأمة العربية، وعداؤكم للبيطار وعفلق سيغير مصير الحزب، وعدم زواجي بابنة خالتي غير مصيري، ولن تعرف الأمة ولن يعرف الحزب الاستقرار بعد ذلك، ولن أعرفه أنا».

هذا المجبول بالحساسية عصفت بأعصابه الصراعات التي عصفت بالحزب ونفذت قدرته على الاحتمال. ولأن «كل شيء سقط ما عداي فقط»، كما لخص

هو الأمر برجزه الساخر، فقد رأى أن يبتعد وسافر إلى باريس بدعوى أنه ينشد الهدوء ليتمكن من كتابة مذكراته.

وقد غاب كمال بضعة شهور ليس أكثر، وسوّد عدداً قليلاً من الصفحات، ثم رجع قلقاً أكثر مما كان. وظل هذا هو حال مريد عفلق إلى أن سقط العهد الذي يحمي عفلق ويحتمي به.

في تلك الفترة، اتسعت علاقاتي فشملت عدداً كبيراً من نشطاء العمل العام في دمشق، وتوثقت علاقاتي بعدد من القادة البعثيين العراقيين الذين التجأوا إلى دمشق بعد انقلاب عبد السلام عارف على سلطة الحزب في بغداد. وربطتني صداقة قوية خصوصاً مع علي صالح السعدي وحمدي عبد المجيد اللذين كانت الحالة اليسارية قد تلبستهما فصارا من قادة الكتلة التي أنتمي إليها.

كان مقرّ الجريدة ملتقىً وفّر لي فرصاً كثيرة للتعرف على أركان الحزب والدولة وضيوفهما. وكانت منازل محمد بصل وحمود الشوفي وعلي صالح السعدي وحمدي عبد المجيد منتديات أؤم واحداً منها أو أكثر كل يوم وأطّلع فيها على ما يجري في أوساط النخبة الحاكمة وأشترك في التخطيط لنشاطات كتلتنا. أما اجتماعات الحزب الرسمية التي يوجب علي نظام الحزب أن أشترك فيها، فلم تعد لها أي أهمية سوى أن حضورها يظهر أني ما أزال عضواً في الحزب وأني أتلقى فيها التعليمات الرسمية التي تتوخى قيادة الحزب تعميمها على منظماته. وكان الأمر يختلف حين تنعقد اجتماعات يحضرها مندوبون من قيادة الحزب، وكان تواتر انعقاد اجتماعات مثل هذه يشتد مع اشتداد الأزمة داخل الحزب، وذلك بسبب حرص القيادة على شرح مواقفها وتحريض أعضاء الحزب ضد خصومها.

في هذه الاجتماعات، تعززت شهرتي مشاكساً غير هياب وناقداً كفؤاً ومحرضاً ضد السلبيات. حتى أن أعضاء قيادة الحزب صاروا يتواصون بشأني فيحذر واحدهم الآخر من قدرتي على مجابهتهم وحدّة لساني.

والحقيقة أني كنت جريئاً على قادة الحزب والدولة جرأة لا يسوغها موقعي أنا العضو العادي في الحزب أو معلم المدرسة أو حتى الكاتب غير المتفرغ في الجريدة. وكان لهذه الجرأة في رأيي مصدران: واحد خاص، أو قل شخصي، وهو يتمثل في اندفاعي في المعارضة وتلذذي بممارستها واستعدادي للمضي إلى الحدود القصوى دون تهيب؛ وثانٍ يتمثل في استنادي إلى كتلة اليسار وأنصارها الموجودين في شتى الهيئات المتنفذة. وقد ينبغي أن تعرف أني خضت المعترك وأنا موزع بين الشك بنجاعة ما أقوم به واليقين بأن علي أن لا ألقي السلاح. وكلما نبت الشك وكاد يسلمني إلى الإحباط، كنت أغالبه متسلحاً بيقيني وأمضي في ما أنا خائض فيه. وفي كل الأحوال، ظل يبهجني كثيراً أن أشتهر بوصفي مقارعاً جسوراً وكفؤاً للحكام الجائرين. وقد تلبستني هذه الحالة، فبقي لديّ الاندفاع ذاته حتى بعد أن فقدت الكتلة التي أستند إليها نفوذها وتضاءلت إمكانيات الحماية المتوفرة لي.

وعلى الساحة الفلسطينية العامة، بقي وضعنا معقداً وإن أخذ يتحسن. أقول: يتحسن، وأنا أعني التحسن النسبي. فقد دفعنا هنا ثمن سلوك أجهزة الأمن المحرج وما فيه من تباين مع سياسة الحزب المؤيدة لقضية فلسطين. غير أننا بدأنا نجني ثمرات اعتراضنا على هذا السلوك وجهرنا بشجبه وسعينا المثابر لدفع المظالم والتخفيف من معاناة الجمهور الفلسطيني.

كنت أنشط على هذا الصعيد داعياً، بالطبع، إلى تفهم موقف الحزب، وأنا غارق في الوقت ذاته في مواجهة القيادة الحزبية وانتقاد إجراءاتها. ولم يكن من شأن هذا التباين أن يجعل الأمر سهلاً. وقد ينبغي أن أذكرك هنا بأن الموضوع الأعم الذي شغل الساحة الفلسطينية في ذلك الوقت كان هو موضوع إبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية المتميزة والعمل على إعادة بناء الكيان الوطني الفلسطيني الذي زعزعته نكبة ١٩٤٨ وانديا حاتها. ولا بدّ أنك أدركت كم ضاق عفلقيو الحزب بهذه الدعوة أو بما تنطوي عليه بالنسبة لهم من شبهة الإقليمية. والحقيقة أن موقف العفلقيين من هذه الدعوة انطوى على تباين بلبل

موقف الحزب إزاءها. فقد أيد الحزب، وبضمنه العفلقيون، الدعوة إلى تأسيس جبهة للعمل الفلسطيني، وأجاز الحديث عن الشخصية الفلسطينية. لكن العفلقيين والمتأثرين بهم ظلوا متحفظين عملياً إزاء أي نشاط فلسطيني مستقل عن النشاط القومي العام، ولم ينبذوا الهواجس المتصلة بشبهة الإقليمية. أما أنا ومعي عدد من البعثيين الفلسطينيين فكنا من أوائل المتحمسين لهذه الدعوة دون أن تخفف هواجس الإقليمية من حماسنا. ولعلي لا أبالغ ولا أدعي ما ليس لي إن قلت لك اني تقدمت الجميع في هذا المجال وتميزت بجرأتي في الجهر بالسخرية من الهواجس.

أظن أنه صار بإمكانك أن تدرك صعوبة حركتنا على الساحة الفلسطينية ونحن محكومون بهذه التباينات، هذه الحركة التي كانت صعبة حتى لو لم تكن التباينات موجودة. فليس غريباً، إذا، أن نشق طريقنا هنا ببطء شديد.

كنّا نتوجه إلى الناس بصفتنا بعثيين. وكان أمامنا إما أن نروج لسياسة الحزب ككل فيضطرب خطابنا، أو أن نبشر بما نحن مقتنعون به وحده فنظهر بمظهر من يغني خارج سربه فيفتقر خطابنا إلى الصدقية. ولو اتبعنا النهج الأول لما ميزنا الناس عن البعثيين الآخرين الذين لا ترتاح أغلبية الفلسطينيين إليهم. ولو اتبعنا النهج الآخر لفقدنا صفتنا البعثية.

لقد عانيت شخصياً من هذا التباين معاناة مضنية. ولعل من المفيد أن تعرف أني كنت أسير ازدواجية من نوع خاص، بغيضة وثقيلة على النفس. وقد وسمت هذه الازدواجية خطابي باللجلجة وجعلته غير مفهوم. وبتأثير الازدواجية، وجدنا أنفسنا، أمثالي وأنا، مرغمين على تنويع خطابنا. فكنا نتكلم على سجيتنا حين يحدّث بعضنا بعضاً في المجالس الضيقة التي تضمنا وحدنا، نطلق العنان لقناعتنا الخاصة ونغنيها بالحوار ونكسوها بلحم الحياة ودمها ونبلورها خططاً ومناهج للعمل. وفي الاجتماعات الحزبية الرسمية وحيث يحضر الحزبيون الآخرون المسكونون بالهواجس، كنّا نراوغ في الكلام.

أما في الملتقيات الأعم حيث يحضر غير الحزبيين، فكنا نختار لكل مقام مقالاً يلائمه، نجهر ببعض قناعاتنا ونكتم بعضها، ونمرر ما يمكن تمريره من آرائنا الخاصة ونحن نتظاهر بأننا نشرح سياسة الحزب. وإذا كشف مستمع فطن ما في خطابنا من اضطراب وواجهنا بالأسئلة المحرجة، كنا نزوغ ونداري الحرج بأي وسيلة متيسرة.

بكلمات أخرى، كان التجلل براية الحزب يقلل من تأثيرنا على الجمهور، وكان الخروج عن خط الحزب يوقعنا في المشاكل. والحقيقة أن هذا التباين بقي بغير حل، وظل عليَّ أن أدفع الثمن، تارة على هذا الجانب وتارة أخرى على الجانب الآخر. تعذر أن أحظى برضى الحزب والجمهور معاً وأظل وفياً لقناعاتي في الوقت ذاته، فتعذر أن أستقر. وكان من شأن هذا أن يبقيني في سخط دائم، على الوضع، وعلى نفسي.

التباين ذاته عانيت منه في مسائل أخرى، عديدة في واقع الأمر. خذ مسألة الديمقراطية مثلاً. أسس الحزب معارضته لعبد الناصر منذ زمن الوحدة على القول بأن نظام عبد الناصر يستهين بمتطلبات الديمقراطية. وقبل هذا، ميّز الحزب نفسه عن الشيوعيين بدعوى أن الشيوعية تهمل حرية الفرد وتدعو إلى ديكتاتورية طبقة. كما ميز نفسه عن أنظمة الحكم البرجوازية بدعوى أنها تسيء استثمار الديمقراطية وتفسدها. وثابر الحزب منذ تأسيسه في سورية على المطالبة بالحريات العامة والخاصة. لكن، عندما انفرد هذا الحزب بالسلطة، لم يظهر أي اهتمام بالديمقراطية ولم تتورع سلطته عن إتباع الأساليب ذاتها التي أدانها الحزب حين كان في المعارضة. بدأت سلطة الحزب عهدها بوقف العمل بالدستور الذي اعتمد في العهد السابق وتعطيل البرلمان وإيلاء مجلس قيادة الثورة السري والمعين تعييناً صلاحية التشريع وإدارة السلطة. وأصدر مجلس قيادة الثورة دستوراً مؤقتا وعدّه صالحاً لمدة سنتين يتم خلالهما وضع دستور دائم. وصيغت مواد الدستور المؤقت بما يتطابق مع حاجة سلطة غير ديمقراطية للاستئثار بصلاحيات التشريع والتنفيذ دون رقابة من

الجمهور. وفي ظل سلطة الحزب، تفاقمت سطوة أجهزة الحكم على المواطنين، وخصوصاً الأجهزة الأمنية، وأعيد الاعتبار كاملاً إلى قانون الطوارئ الذي يمكن للسلطة أن تصادر بموجبه حريات الناس وقتما تشاء. وفي السلوك العملي، امتدت يد السلطة إلى أبعد حتى مما يتيحه هذا القانون.

كنا نتداول هذه الأمور في أحاديثنا في لقاءاتنا الضيقة. وكنا نستحضر الوقائع المتواترة التي تشي باستحكام هيمنة الذين لا يقيمون وزناً للحريات العامة، وخصوصاً العسكريين. وكنّا نتخوف من أن يفضي الأمر من ديكتاتورية الحزب المسلطة على الجمهور إلى ديكتاتورية العسكريين المسلطة أيضاً على الحزب إلى ديكتاتورية الفرد المسلطة على الجميع. وكنّا ندرك أن هذا مناقض لما تربينا عليه في الحزب. لكنا مع هذا كلّه لم نكن نفعل الشيء الكثير لتبديل الوضع من هذه الناحية. هذا مع أني أتحدث عن اليساريين الذين يندبون أنفسهم لتمثيل مصالح الجمهور وحاجاته ويتهمون اليمين بإهماله لها، فكيف لو تحدثت عن هذا اليمين؟!

لم تفتقر السلطة إلى المسوغات في مواجهة منتقدي غياب الديمقراطية. فهي لم تفتأ تؤكد على أن الأمر مرهون بفترة مؤقتة، هي الفترة اللازمة لتوطيد سلطة الحزب وإضعاف مناوئيها واستكمال التدابير اللازمة لتطوير الاقتصاد وتوفير الأساس المادي للحريات الديمقراطية. استعاد منظرو السلطة من الماركسية حديثها عن الديمقراطية الشعبية، استخلصوا من مفهومات الماركسية ما يلائم عزمهم على الاستئثار بالسلطة، ورددوا الكلام المعروف عن أولوية الاقتصاد وتوفير الحريات للجمهور وحجبها عن خصومه. ولأن هؤلاء أولوا أنفسهم حق النيابة عن الجمهور، بما هم طليعته الممثلة لمصالحه والموكلة بصياغة مستقبله. فقد عدّوا من يخاصم السلطة أو يخالفهم الرأي خصماً للجمهور وأجازوا لأنفسهم ممارسة القمع بدعوى الحاجة إليه للدفاع عن مصالح الأغلبية. وفي هذا السياق، استعار ناس الحزب، وبضمنهم أصحابي في كتلة اليسار، انتقادات الماركسيين للديمقراطية البرجوازية، ففتنت الانتقادات

حزبيين كثيرين، خصوصاً الشبان الذين وائمهم نبذ الديمقراطية البرجوازية بعدما عاينوا أقبح تطبيقاتها في عهد الانفصال.

إن الإيمان بالديمقراطية الشعبية بما تنطوي عليه من تمييز بين الطبقات وانحياز لطبقات الكادحين ضد طبقات المستغلّين كان يقتضي الإيمان أيضاً بالصراع الطبقي وما اكتشفته الماركسية من قوانينه. غير أن مثل هذا الإيمان لم يتوفر لمعظم البعثيين. سأدرك فيما بعد أن الفكر الذي انبنى على مقولات انتقائية وغامضة عاجز عن تبني أفكار الماركسية المتماسكة. وقد بقي فكر البعث بتلويناته اليمينية واليسارية انتقائياً وغامضاً على الدوام. وظل الحزب الذي يضع الأمة فوق أي طبقة عاجزاً عن تبني المتطلبات الكاملة للديمقراطية الشعبية. وهكذا، حوّرت الديمقراطية الشعبية، أو حُوِّرت مفهوماتها من قبل البعثيين لتتواءم مع مصلحة الحزب واعتزامه التفرد بالسلطة والبقاء فيها؛ سهل ذلك أن التوزيع الطبقي في المجتمع السوري لم يكن واضح المعالم وأن الطبقة العاملة التي تندبها الماركسية لقيادة المجتمع تشكل فيه أقلية قليلة، بحيث لا تخشى السلطة من شيء إن تجاهلت دورها. وهكذا، في المحصلة، جرى الترويج لضرورة توفير الحرية للحزب وأنصاره وحدهم، وصار هذا هو مفهوم الحزب للديمقراطية الشعبية.

هنا، قد ينبغي أن تعرف أن بعض أوجه الحريات الديمقراطية كان ما يزال موجوداً فعلاً داخل الحزب. أذكر من ذلك حرية التعبير عن الأفكار المختلفة وتوجيه النقد إلى القيادة داخل الهيئات الحزبية، والانتخابات الدورية. وكثيراً ما شهدتْ اجتماعات الهيئات الحزبية نقاشات حيّة ومستفيضة تبين ذوي الآراء المتعارضة دون أن يتعرض أحد للعقوبة. لكن مجرى التطور في ظل غياب الحريات العامة أفضى إلى تضييق حقوق أعضاء الحزب الديمقراطية أولاً بأول.

أما كيف تأتى أن تكبل سلطة الحزب حريات غير الحزبيين بالقيود التي تضعها أنظمة الطوارئ ويظل الحزب ديمقراطياً في داخله ولو لبعض الوقت،

فهذا يعود في رأيي إلى وجود كتل عديدة متصارعة، بما أنشأه الصراع من توازنات حكمت علاقات حزبيي مختلف الكتل بعضهم ببعض. ومن هذا الوجه، شكل تعدد الكتل مزّية ووفر الحماية لتعدد الآراء. وبهذا، يصبح مفهوماً كيف اقترن التوجه لتبديد الكتل المناوئة للسلطة وصبّ الحزب في قالب واحد بتقليص حريات الأعضاء داخل الحزب ذاته. لقد استخلصت الحكمة الشعبية منذ القدم القول بأن في اختلاف الحكام رحمة بالرعية. وهذا القول صحيح تماماً في أحد وجوهه.

أيا كان الأمر، فإن الأمين العام للحزب والمتحالفين معه واصلوا بعد المؤتمر القومي السادس ما شرعوا فيه قبله، وشددوا حملتهم على كتلة اليسار، وأمعنوا في العمل على تفكيكها. أظهرت وقائع المؤتمر قوة هذه الكتلة فحفزت عفلق وحلفاءه على التشدد في هجومهم عليها. دقّ اليمين ناقوس الخطر، وجنّد إمكانياته، واختبر وسائله وشحذ الأسلحة، وعمل بغير هوادة.

لم تكن كتلة اليسار متجانسة. لقد سبق أن أشرت إلى هذا. ولك أن تعرف أن الكتلة لمّت أشتاتا من الناس ذوي الأمزجة المختلفة. تشكلت أول نواة للكتلة في حضن صلاح البيطار قبل وصول الحزب إلى السلطة. وقتها، وكان هذا في عهد الانفصال فيما راح الحزب يعيد بناء نفسه، دعا البيطار إلى تطوير تنظيم الحزب ليصير فعالاً وسط الجمهور في مقابل نخبوية عفلق الزائدة. فاستهوت الدعوة عدداً من شبان الحزب الطامحين إلى التجديد والتفوا حول رجل الحزب الثاني هذا. لكن النواة تخطت صلاح البيطار الذي أبعده الغرق في هموم السلطة عن دعوته هذه. وتلقت النواة دعماً يعتد به من عدد من شبان الحزب في العراق، خصوصاً في العام ١٩٦٣ منذ اصطدام هؤلاء مع عفلق وتوجهوا ناحية اليسار. وفي المحصلة التي أفرزتها التطورات المعقدة، التقى في قيادة الكتلة كما في قواعدها ناس ذوو دوافع مختلفة دفعتهم إلى اليسار وجمعتهم في ميدان مناوءة عفلق والعفلقيين ومن يتحالف معهم. وهكذا، التقى في زعامة الكتلة، والبعثُ في السلطة، قادة عراقيون نشأوا في أجواء

العراك الدامي مع شيوعيي العراق وأسسوا شهرتهم على قاعدة جرأتهم في التصدي لنظام عبد الكريم قاسم الذي يؤيده الشيوعيون وافتقروا قبل اتجاههم إلى اليسار إلى فكر يوجههم غير فكر عفلق ومقولاته. انضم هؤلاء إلى الفلسطيني محمد بصل بماركسيته الإنتقائية وقراءاته الواسعة في الفكر والآداب والفنون وكفاءته في مناوءة العفلقيين بعد أن تحرر مبكراً من تأثيرهم الفكري على نشأته الأولى. ومع هؤلاء، برز السوري القادم من جبل الدروز حمود الشوفي الذي كان يروي من الماركسية ما ينقله إليه محمد بصل دون أن تخترق الماركسية أفكاره الشعبوية التي اكتسبها من موقعه هو النشيط من نشطاء عوام الدروز. وبرز من الوافدين من جبل الدروز شخص آخر في قيادة الكتلة هو محمود نوفل الحاصل على لقب علمي من جامعة سوفياتية خرجته مهندساً في البيطون المسلح والباحث عن موقع أهمية له في البلد دون أن يملك فكراً محدداً. ومع هؤلاء كان نبيل الشويري، وهو ابن عائلة دمشقية مسيحية عريقة ذات صلة بالعمل الوطني في البلد، ورجل جمّ التهذيب وأعرفُ قادة الكتلة بآداب السلوك المديني. وإلى هؤلاء انضم في الوقت الذي أحدثك عن وقائعه الكاتب ياسين الحافظ الوافد إلى دمشق من منطقة الجزيرة السورية. وكان ياسين المنتقل من الحزب الشيوعي إلى صفوف البعثيين دارساً مجتهداً للماركسية سكنه هاجس التوفيق بين الفكر الماركسي والفكر القومي تأثر في هذا المجال بإلياس مرقص فاجتذبته كتلة اليسار حين تصور أنه قادر على تحقيق طموحه الفكري الأخاذ عبر نشاطه فيها.

وبين ماركسية محمد بصل الإنتقائية وقومية ياسين الحافظ المستجدة ويسارية علي صالح السعدي المحمولة على إرث العداء للشيوعية وشعبوية حمود الشوفي وبراغماتية محمود نوفل، تراوح مختلف أصناف الناس الذين تشكلت منهم كتلة اليسار. وكان التنوع في أسفل الهرم أشدّ حتى مما هو في قمته.

وعلى العموم، تأثرت الكتلة عبر مساهمات ياسين الحافظ وغيره بفكر الياس مرقص. وقد سبق لإلياس أن كان عضواً متميزاً في الحزب الشيوعي السوري،

ثم انفض عن الحزب وخاصمه وأوكل إلى نفسه مهمتين لم يكف عن ممارستهما طيلة حياته: هدم سمعة الشيوعيين والتوفيق بين الماركسية والناصرية، أو تسويغ السياسات الناصرية بمسوغات ماركسية. ولما لم يكن الدفاع عن عبد الناصر محبذاً آنذاك في البعث، فقد استعارت الكتلة من أفكار إلياس ما يوائم تطلعها هي إلى التوفيق بين الماركسية وفكر البعث القومي مثلما استعارت ما يسوغ نفورها من الشيوعية. وفي وقت من الأوقات، قبل استقلال النواة عن صلاح البيطار، استخدمت الأفكار المستعارة من مرقص لتسويغ تعاون الكتلة مع البيطار. وبعدما اتخذت الكتلة موقفاً سافراً في مناوءتها لعفلق والبيطار معاً، اجتذبت كثيرين من معارضي الزعامة البعثية التاريخية، ممن لا تستهويهم الماركسية بأي حال من أحوالها ولا يشغلهم هاجس التوفيق بين أي فكر وغيره، وكان من هؤلاء مثلاً نذير النابلسي، زعيم نقابة سواقي السيارات في دمشق، الذي أدى فريضة الحج إلى مكة وكان يعتز بلقب الحاج المضاف إلى اسمه. كل هذا، دون أن نتحدث عن أفاقين ومغامرين انضموا إلى الكتلة أو استثمروا نشاطها في سعيهم لقهر الكتل الأخرى والاستفراد دونها بمنافع السلطة.

هنا، قد ينبغي أن أذكر لك أن كتل الحزب كلها، وليس كتلة اليسار وحدها، حوت في صفوفها أشتاتاً غير متجانسة من شتى أصناف الناس. كما قد ينبغي أن أضيف أن الكتل جميعها، حين تؤخذ المواقف بإجمالها وبصرف النظر عن الاستثناءات، تساوت في إهمالها مسألة الديمقراطية، حتى وإن اختلفت مسوغات كتلة عن مسوغات أخرى، والتقت جميعها في القول بإباحة الحريات لفئة وحجبها عن فئات أخرى.

وقد أتيح لي أن أشهد واحدة من الممارسات المؤسية لديمقراطية العهد الذي كنت معدوداً من أنصاره. فقد تسنى لي حضور وقائع المحاكمة التي جرت لقادة الناصريين بعد انقلابهم الفاشل. كان واحد من العسكريين المغامرين الذين تقربوا من كتلتنا ليستثمروها عضواً في المحكمة وهو النقيب الذي صار رائداً سليم حاطوم. وبنفوذ سليم، دبر لي قادة الكتلة فرصة حضور المحاكمة

التي حظر على الصحافيين حضورها. وكانت تلك محكمة عسكرية خاصة أعضاؤها كلهم من الضباط، وكانت أقرب إلى مجلس حربي منها إلى محكمة، وهي لم تأذن للمتهمين بتوكيل محامي دفاع. ولم تعين من قبلها محامين للدفاع عنهم. وقد مثل أمام هذه المحكمة عدد من قادة الانقلاب الفاشل وحوكم الفارون غيابياً.

كان التحقيق الذي وضعت ملفاته بين يدي أعضاء المحكمة قد استند إلى معلومات وافرة جمعتها أجهزة الأمن. وكان في الملفات ما يكفي لإدانة المتهمين بأنهم شرعوا فعلاً في محاولة انقلابية استخدموا فيها السلاح. ولو جرت المحاكمة علناً وروعيت فيها الإجراءات القضائية المعتادة مع توفر الكم الهائل من القرائن لما تمكن المتهمون من التنصل من مسؤولية المبادرة إلى استخدام السلاح ضد سلطة قائمة. وهذا هو بالذات ما جعل استهانة المحكمة بأصول المحاكمات مغيظة لي ومحزنة أكثر من أي سبب آخر. ولعلي لا أجانب الصواب حين استخلصت منذ ذلك الوقت ان المحكمة أهملت الإجراءات القانونية لسبب واحد وحيد هو استهانة الحكام بالقانون وحرص السلطة على منع المتهمين من استخدام منبر المحكمة للترويج لآرائهم.

وهاأنذا أتذكر كيف توالت وقائع المحاكمة في المسرح العسكري في دمشق في شارع شكري القوتلي المشهور باسم طريق بيروت. لقد حولت قائمة العرض إلى قاعة محكمة، وأقيمت منصة القضاة مكان خشبة المسرح، ونصب في مواجهتهم شيء يشبه القفص، وانتظمت بضعة صفوف من الكراسي ليجلس عليها القليلون الذين أذن لهم بمشاهدة ما يجري.

هنا، جرى استجواب المتهمين على عجل، وجرى التركيز على نقاط بعينها مما أظهره التحقيق وأغفلت نقاط. وقد تناول رئيس المحكمة وأعضاؤها والنائب العام العسكري طرح الأسئلة دون نظام. وبدا لي بوضوح أن هدف الأسئلة هو تعريض المتهم للحرج والإساءة لسمعته وتسفيه دوافعه للإنقلاب، وليس

جلاء حقيقة الوقائع المنسوبة إليه في التحقيق. وأعطى رئيس المحكمة وأعضاؤها لأنفسهم حق مقاطعة أي متهم إن اتخذ حديثه منحى لا يتفق مع هذا الهدف ومنعه من متابعة الحديث. وغالبا ما استهدفت المقاطعات تقريع المتهمين الحاضرين أو توجيه الشتائم للغائبين والاستهانة بما يدلي به المتهم من دفاع عن نفسه. وقد خصصت لكل متهم من قادة الصف الأول الحاضرين جلسة أو أكثر. اما بقية المتهمين فتمت محاكمتهم دفعة بعد دفعة، بالجملة. ولا تزال في ذاكرتي هيئة نقيب شاب جيء به من السجن للإدلاء بشهادة أثناء محاكمة واحد من كبار القادة. وعندما سئل النقيب عن صلته بهذا القائد، أجاب بما يفيد أن الصلة بينهما انبتت منذ زمن. عندها، استفهم رئيس المحكمة عن السبب بنبرة سافرة مما وشى بأنه يعرف أنه سبب قبيح. وتلجلج النقيب، وأخذ يلتفت إلى هذه الناحية وتلك في حركة تشي بأنه متحرج. فانتهر الرئيس الشاهد مقرعاً إياه على تردده، وبدا على الشاهد أنه يتمنى حقاً أن تنشق الأرض وتبلعه فتخفيه عن العيون المسلطة عليه. وإزاء الحاح رئيس المحكمة المقرون بالشتائم، طلب الشاهد أن يقدم الإجابة لأعضاء المحكمة وحدهم لأن في الأمر سراً يمنعه الأدب من البوح به. وتقدم المعذب بخجله من المنصة بعد أن تلقى الإذن، وقدم إجابته همساً. ولم يكن الشاهد قد رجع إلى مكانه بعد، عندما انفلت لسان الرئيس وهو يوجه الخطاب إلى الحاضرين: «تريدون، بالطبع، أن تعرفوا السرّ. لن نبخل عليكم به، لأن من حقكم أن تعرفوا نوع الناس الذين حملوا السلاح ضد سلطة الثورة». وعرف الحاضرون أن صلة النقيب الشاهد بقائده انصرمت لأن القائد سمع في حينه إشاعات تتهم النقيب بأنه شاذ جنسياً. ومع أن الأمر لم يعد الإشاعة وأن القائد بتّ صلته بالنقيب منذ سمعها، فقد طاب لرئيس المحكمة أن يعزف على وتر الحساسية ضد الشذوذ الجنسي للإساءة لسمعة هذا القائد والناصريين عموماً. ولم يتورع الجالس على منصة المحكمة عن تحميل الحكاية التي رواها للحاضرين بنفسه ما لا يمكن أن تحمله: «لماذا الخجل، كل ضباط الجيش يعرفون أنك...

وأنك كنت صبيّ هذا الجالس في القفص».

سلوك المتهمين، إذا استثنينا بعضهم وخصوصاً العقيد جاسم علوان، لم يرسم لهم صورة كريمة. هل هو الجور الذي قد يذل أعتى الناس، أم هو شيء في هؤلاء أرغمهم الجور على كشفه؟ قصر وقت المحاكمة لم يتح لي أن أستخلص إجابة شافية. وفي كل الأحوال التعميم غير جائز. وما عاينته تمثل في أن معظم المتهمين أظهر ضعفاً لا يليق بمكانته ولا يطابق السمعة المتحققة للذين منّوا الجمهور بإعادة وحدة سورية ومصر إلى سابق عزّها. أتذكر من هؤلاء العقيد رائف المعري. كان الرجل جسيماً، طويلاً وعريضاً، وذا مهابة ظاهرة وهو صامت، لكنه تكشف عندما تكلم عن خنوع واتضاع أوديا بمهابته. وبدا لي أن الهم الوحيد لهذا الرجل هو النجاة من العقوبة المتوقعة، النجاة بأي ثمن وأحطّ وسيلة. لم يحاول الرجل أن يبرر ما أقدم عليه هو وزملاؤه، بل اتبع في مواجهة الوقائع المنسوبة إليهم نهجاً واحداً لم يبدله، وهو التنصل من المسؤولية وتكرار الرجاءات الذليلة «بأن تصدقه هيئة المحكمة الموقرة». وفي إجابته على أي تهمة مهما ضؤل شأنها، ثابر العقيد المعري على الإشارة إلى رفيقه في القفص العقيد جاسم علوان والقول: «هو المسؤول، هذا هو المسؤول، هو الذي ورط الجميع». ولكم أغاظتني هذه الإستكانة!

وحده، جاسم علوان، هذا الرجل الذي بدا أنه هو منظم ترتيبات الانقلاب، ظل متماسكاً وشامخاً طيلة الوقت. كان الرجل الذي اجتاز عتبة الأربعين مربوع القامة، متين البنية، وكان تماسكه ومتانة بنيته ظاهرين بالرغم من ظروف التحقيق التي مرّ بها وقسوة الوضع الذي هو فيه. وقد بدا لي الرجل متين الأخلاق أيضاً متماسك المبادئ حريصاً حرصاً ثابتاً على أن يظهر تشبثه بهذه المبادئ. وفي سلوكه في المحكمة، أظهر العقيد جاسم بجلاء تام إنكاره حق ضباط المحكمة المسمين قضاة في أن يحاكموه، ولم يتخل عن اعتقاده أنه كان على حق حين لجأ إلى استخدام السلاح لإعادة وحدة سورية ومصر. وتحدث العقيد في بداية المحاكمة، فأعلن أنه يرفض التقاضي مع الجالسين

على المنصة أو الإجابة على أي من أسئلتهم. وبعد هذا، التزم العقيد الصمت، ولم يخرج عن صمته إلا إذا تعلق الأمر بتبرئة أحد المتهمين. فإذا واجهت المحكمة أحد هؤلاء بمسؤوليته عن واقعة خطيرة، كان العقيد يقف ويعلن أنه وحده هو المسؤول عنها، ثم لا يقول غير هذا. وسلوكه الكريم، لم يكسب العقيد احترام مشاهدي المحاكمة وحدهم، بل فرض على هيئة المحكمة أيضاً أن تعامله باحترام.

كان صمت العقيد بليغاً تماماً كما كانت بليغة العبارات القليلة التي يتفوه بها. وعندما فرغت المحكمة من استجواب المتهمين وهمت برفع جلساتها لإعداد قرار الحكم، فاجأ العقيد الحضور حين طلب أن يدلي كلمته قبل إقفال المحاكمة. وأنا أتذكر الرجل في وقفته في القفص والنظارات الداكنة التي احتفظ بها على عينيه طيلة المحاكمة ونبرة صوته وصداه المنداح في القاعة. وجّه العقيد خطابه إلى المشاهدين وليس إلى المنصة، وتكلم بالفصحى، بأناة، بغير انفعال. وقال الرجل الذي تنتظره عقوبة الإعدام أنه استمع إلى التهم الموجهة إليه فلم يأبه بمعظمها، وكرر القول بأنه يتحمل المسؤولية الكاملة عن التحرك المسلح، فهو لم يطلب الكلام ليتنصل من أي مسؤولية بل ليرد على تهمة واحدة كرر الجالسون على المنصة ترديدها. واتضح أن أشدّ ما أغاظ العقيد هو اتهام القضاة له بأن ما قام به كان موجها ضد الوحدة والحرية والاشتراكية، وفي دحضه للاتهام الذي يراه العقيد شنيعاً، استخدم الرجل أسلوب التساؤل الإستنكاري: كيف أكون ضد الوحدة أنا الذي نشأت في بادية الشام حيث يتجوّل البدو بطلاقة ولا يقيمون أي اعتبار لأي حدود!؟ كيف أكون ضد الحرية أنا ربيب المضارب التي يتحرر الإنسان فيها من أي قيد!؟ وكيف أتنكر للاشتراكية وأنا ابن المجتمع الذي يتشارك ناسه في كل شيء ويتطلعون دائماً إلى العدالة!؟

لم يستند دفاع العقيد على أفكار عميقة. ولم يورد الرجل من الحجج ما قد يفتن أمثالي. غير أن البساطة التي طبعت الحديث هي التي فتنتني. وقد ترك

صدق الرجل في نفسي أثراً ها أنت ترى أنه لم ينمح بمضيّ السنين. ما الذي كان سيحصل لو أن انقلاب الناصريين على السلطة نجح وصار الظافرون بالسلطة هم القضاة؟ خرجت من القاعة بهذا السؤال، وانهالت الأسئلة التي من نوعه: أين هو، حقيقةً، الفارق الذي يميز البعثيين عن الناصريين؟ لماذا يقف كل فريق في مواجهة الآخر؟ وبأي شيء يختلف جاسم علوان الناصري، بأريحيته وصلابته ومفاهيمه النظرية البسيطة، عن زميله أمين الحافظ، البعثي؟ ولم يكن من شأن هذه الأسئلة إلا أن تعمق إحساسي بالكآبة، وهو الإحساس الذي تلبسني طيلة المحاكمة. ولكم سعدت بعد ذلك عندما لم تُنفذ أحكام الإعدام التي أصدرتها المحكمة.

٤ أتانا مزهواً بريشه، فرددناه ممعوط الريش

في تلك الفترة التي تلت فشل الإنقلاب الناصري، توجب أن نواجه مشكلة طارئة تعرض لها الاتحاد العام لطلبة فلسطين وتأثرت بها فروعه وبضمنها فرعنا في دمشق. انفجرت المشكلة في سياق ردود الفعل الناصرية بعد الفشل وما تعرض الناصريون له من قمع في سورية. والواقع أن مخزون الأحقاد المتبادلة بين الجانبين انفجر وتناثر طفحه في كل مكان. وكان عدد من ناصريي سورية قد نجا من الملاحقة والتجأ إلى القاهرة، وراح ينفخ أبواق الدعوة إلى الانتقام من البعثيين. ومن جانبها، لم تقصر أجهزة الأمن المصرية في ملاحقة من طالته أيديها من هؤلاء. وطال القمع المصري منظمة حزب البعث في قطاع غزة أيضاً. وهكذا، طُرد الطلاب البعثيون الوافدون إلى مصر من الجامعات وأقصوا عن البلاد، ولوحق بعثيو غزة وتعرض نفر منهم لعقوبة الإبعاد. أمّا الاتحاد العام للطلاب الفلسطينيين الذي تستقر قيادته في القاهرة منذ إنشائه فقد تعرض لضغوط عاتية. كان البعثيون يشكلون أغلبية في قيادة الاتحاد. وكانت القيادة قد انتخبت في صورة ديمقراطية وشرعية لا يمكن التشكيك فيها. وكان للإتحاد وقيادته من المكانة ما يجعل المس بهما من قبل السلطات المصرية فضيحة يتعذر التستر عليها. من هنا، انصبت الضغوط على أعضاء القيادة البعثيين لحملهم على استنكار سياسة حزبهم. كان هؤلاء

خمسة من تسعة هم كل أعضاء القيادة. والخمسة هم زهير الخطيب، رئيس الاتحاد، ولطف غنطوس أمين السر العام، ويوسف عيسى وحمزة برقاوي وآخر غاب اسمه عن بالي. وقد صمد هؤلاء أمام شتى الضغوط مثلما صمدوا أمام عروض الإغراء. وفي الجوّ الذي غدوت تعرف كم كان مسمماً بالضغائن، تم تدبير انقلاب على قيادة الاتحاد، انقلاب بالمعنى الحرفي للكلمة ساندته الأجهزة المصرية، وجرى إقصاء أعضاء القيادة البعثيين عن مقر الاتحاد بالقوة وإبعادهم عن مصر. واحتل المقرّ فريق تصدره تيسير قبعة الملتجئ من دمشق إلى القاهرة ومعه صديقي هايل عبد الحميد الذي كان قد انضمّ إلى «فتح»، ومعهما مناصرو القوميين العرب و «فتح». وشكل الذين داهموا المقر قيادة عدّت نفسها القيادة العامة للاتحاد. واشتعلت المنازعة بين القيادة الشرعية المبعدة والقيادة التي شكلها المنقلبون، وقد انحزنا نحن، بالطبع، إلى البعثيين، ولم يكن أمامنا إلا أن نفعل هذا، خصوصاً أنهم كانوا القيادة الشرعية.

وصل المبعدون إلى دمشق، باستثناء زهير الخطيب الذي لم يبخل على زملائه بالدعم لكنه آثر التوجه إلى الكويت. وتشكل في دمشق مركز للأمانة العامة للاتحاد تصدره لطف غنطوس والتففنا نحن حوله. شمر هذا الشاب البعثي عن ساعديه ونشط إلى العمل، وراح يدير المواجهة مع الفريق الخصم. وتجندنا جميعنا لحماية ما تمكن حمايته من نفوذ البعث في الاتحاد. وكان سلاح الشرعية في أيدينا فأعلينا شأنه لأنه مفيد لنا.

وتوجب بحكم هذه الظروف أن نبدأ بترتيب وضع فرع الاتحاد في دمشق واستعادة سيطرتنا السابقة على قيادته، ولعلك تتذكر أن القوميين العرب كانوا قد فازوا بأغلبية مقاعد امانة الفرع في الانتخابات السابقة. ولأني كنت البعثي الوحيد الذي انتخب لهذه الأمانة فقد وقع على عاتقي أن أتصدر تحركنا للسيطرة على الفرع. والحاصل أننا فعلنا في دمشق بالقوميين العرب ما فعلوه هم وحلفاؤهم برفاقنا في مقر الاتحاد في القاهرة. وكان في

ما فعلناه، على قباحته في حدّ ذاته، شيء واحد يمكن احتسابه لصالحنا، ذلك أننا تسلحنا حين أقصينا الأعضاء القوميين العرب بقرار أصدرته قيادة الاتحاد العام الشرعية بحل لجنة الفرع الإدارية وتعيين لجنة جديدة مؤقتة ارأسها أنا.

ما أغرب التباينات بين ما كنا نقول وما نفعل! فها أنت ترى كيف رضيت أنا الداعية المزمن إلى الديمقراطية بأن ارأس هيئة قيادة الفرع دون انتخاب وأقصي الهيئة المنتخبة. بل إن لك أن تعرف أني فعلت هذا بحماس. صحيح أنه كان من الممكن الاتكاء إلى فتاوى ديمقراطية لتسويغ ما فعلناه، إلا أن ما سيطر علي ووجه سلوكي آنذاك لم يكن هو الهاجس الديمقراطي بل الحاجة للدفاع عن مصلحة جماعة أنتمي إليها. ولئن تسترتُ على وجع الضمير بإقناع نفسي بأني محق. فقد بقي في قرارة النفس، في القرارة العميقة، ما أوجعني.

والطريف في الأمر أننا كنّا مصنفين لدى قيادة الحزب في خانة خصومها فيما نحن نقوم بهذا كله لصالح هذا الحزب. لقد أيدت القيادة إجراءاتنا بمقدار ما تعلق الأمر بإقصاء الناصريين عن قيادة فرع دمشق، غير أنها لم تذهب إلى أبعد من هذا. كانت ماليّة الاتحاد العام قد بقيت بالطبع في القاهرة وصارت في يد قيادته الجديدة غير الشرعية. وكنا بحاجة ماسة إلى المال، ليس من أجل تسيير نشاطات فرع دمشق فحسب، بل من أجل إقامة الصلات مع فروع الاتحاد الأخرى والمنافسة مع الخصوم في هذا المجال. وقد طلبنا من القيادة القومية للحزب تخصيص معونة مالية لاتحادنا. وإزاء إهمال القيادة للطلب وفي ظل اشتداد الحاجة، تواضعنا، فطلبنا سلفة نردها حين تنتظم موارد الاتحاد من جديد. فلم نحظ من القيادة الحزبية إلا بالمماطلة.

بهذا، بدأت المشكلة. وقد صار وضعنا مؤسياً أكثر مما هو طريف: نخوض المعركة باسم حزبنا، وحزبنا يحرمنا من الأسلحة.

وقد تفاقمت المشكلة مع احتدام الصراع بين القوميين العرب والبعثيين على اكتساب ولاء الفروع الخارجية للاتحاد المنتشرة في البلاد العربية ودول

أوروبا وغيرها. تطلب الأمر تسفير وفود، للاتصال بالفروع، وبقيادة اتحاد الطلاب العالمي، إلا أن المال اللازم لنفقات السفر أعوزنا. ولم تقتنع القيادة حتى بصرف ثمن تذاكر السفر لمبعوثينا. فلم يسافر أحد. وخلا مجال المنافسة للخصوم وحدهم.

استأجرنا مقراً شغلته الأمانة العامة المبعدة. وكان هذا قبواً متواضعاً في حيّ المزرعة دفعنا أجرته عن الشهور الثلاثة الأولى من جيوبنا. وأقنعنا صديقنا وزير المواصلات بأن تمدنا وزارته بهاتف وتتمهل في المطالبة بسداد الفواتير. وبهذا، اقتصرت معظم اتصالاتنا مع الخارج على الهاتف وحده. ولم يكن في هذا الأسلوب ما يفي بأي غرض مفيد. واستضفنا في منزلي في دمشق مندوباً عن اتحاد الطلاب العالمي، وعرضنا أمامه رؤيتنا للتطورات. وكان هذا هو، تقريباً، كل ما استطعنا عمله. ولم يكن هذا العمل بالطبع كافياً. فألحفنا في طرق أبواب القيادة القومية وطلبنا أن يستقبلنا أي عضو فيها لنشرح له خطورة المشكلة. ولم نتلق إلا بعد عناء شديد هاتفاً من مكتب عضو القيادة شبلي العيسمي يقول إنه موافق على استقبالنا.

ذهبنا، لطف وأنا، إلى مكتب العيسمي. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أجتمع فيها مع الرجل في لقاء ضيق. والواقع أننا أولينا العيسمي هذا توقيراً مضاعفاً، التوقير الذي تصورنا أن عضو القيادة القومية الشهير أهل له والتوقير الذي اصطنعناه اصطناعاً بدافع لهفتنا على كسب تأييده، وقد تأدبنا، كلانا، ونحن ننتقي العبارات التي نخاطبه بها ونغوص في شرح المشكلة. وبدا لنا أن الرجل يستمع بانتباه وتفهم. وهو على أي حال لم يقاطع أيا منّا ولم يظهر أن شرحنا، نحن اللذين يتمتع كل منا بلسان ذرب ويتحدث لغة مفهومة وطليقة، مفتقر إلى الوضوح. وبعدما فرغنا من شرحنا الطويل، وكنّا قد أفرغنا كل ما في جعبتنا. نطق عضو القيادة، فكان كل ما فاه به هو هذا: «أين هي، إذاً، المشكلة؟» وبإمكانك ان تتصور كيف انطفأ حماسنا، ثم كيف

تبدل أسلوب حديثنا ونحن نعيد الشرح. ولا أظن أن من حق أحد أن يؤاخذني إن قلت إننا، في الإعادة، استهدينا بقاعدة أن التكرار يعلم الحمار. ولأني توجست أن يكون عضو القيادة قد عجز عن فهم ما قلناه حتى بعد الإعادة، فقد وجهت إليه سؤالاً مباشراً عما إذا صارت المشكلة مفهومة، فأجاب بكلمة واحدة: «نعم»، ثم صمت، فكان أن سألته عما يمكن أن نتوقعه، فقال: «أفضل أن أتلقى منكما تقريراً مكتوباً حول النقاط التي تطرقتما لها، وسأدرس التقرير ثم أرى ما إذا كان من المهم عرضه على القيادة أو تلخيصه لها عندما تجتمع».

في خلفية معاناتنا، كانت الصراعات المحتدمة داخل الحزب تفعل فعلها. لقد صارت مواقف كل كتلة تتحدد وفق مصالحها هي وأهدافها العاجلة، بصرف النظر عن تطابقها أو تعارضها مع مصالح الحزب وأهدافه. أما مصالح البلد فقد ضاق مجال الاهتمام بها لدى الجميع.

لقد رأيتَ مثلاً كيف ساند عفلق العسكريين من خصوم الحزب كلّه في العراق لأن في هذا إضعافاً ليسار الحزب، ولم يأبه بما آلت إليه الأمور حين فتك هؤلاء العسكريون بسلطة الحزب كلها في البلد. وكانت جماعة عفلق، والعيسمي منها، تحجب عنا أي مساعدة لأنها تخشى أن نستفيد منها لتوطيد مركز كتلتنا اليسارية. وبهذا، انتهى الأمر إلى أن يخسر الحزب نفوذه الواسع في الاتحاد العام لطلاب فلسطين. ولعلك تعرف أن الحزب لم يستعد هذا النفوذ بعد ذلك أبداً.

وفي سياق السعي لتبديد النتائج الإيجابية للمؤتمر القومي السادس وتقليص نفوذ اليساريين وإقصائهم عما بقي لهم من مواقع في الحزب، تعجل عفلق عقد مؤتمر قومي جديد، سابع، وباشر الإعداد له على نحو يبعد عنه اليسار. ولم يكن متيسراً عقد مؤتمر قومي موال لعفلق موالاة تامة إلا باتباع وسائل غير مشروعة وتخطي قواعد الانتخاب والتمثيل التي يحددها نظام الحزب. وهذا هو ما فعلته القيادة، فتوالت قراراتها بفصل أعضاء، وتجميد عضوية

آخرين، وحل هيئات، وتعيين أخرى. وبلغت سطوة القيادة ومجافاة قراراتها لنظام الحزب وتعسفها حداً حمل زعماء كتلة اليسار على الدعوة إلى مقاطعة المؤتمر الذي يجري الإعداد له.

وفي المحصلة، تشكل المؤتمر وفق ما توخته قيادة عفلق وضمت هيئته العامة أغلبية كاسحة من الموالين للأمين العام أو المستعدين للتحالف معه ضد الكتلة اليسارية. وتحول الصراع حول شرعية المؤتمر من عدمها والرضى بحضور جلساته من عدمها إلى معركة طاحنة. وفي هذه المعركة، استخدم المتخاصمون من الأطراف كلها، وخصوصاً الطرف المهيمن على السلطة، أسوأ ما يمكن استخدامه من أسلحة وأساليب. وكنت أشهد هذا، بل كنت مستغرقاً فيه وأنا موزع المشاعر: تنفرني السلبيات وتجتذبني متع المعامع؛ يصدمني ما يدفع إلى خيبة الأمل ويحفزني على الاستمرار ما يبرق من آمال، تنبت الشكوك فأستنبت ما يطفئها، ولا يقرّ لي في الأحوال كلها قرار.

وفي حمأة الصراع، تماسكت شعبة فلسطين. ومحضت الشعبة التي صار حضورها في حياة الحزب أوسع كثيراً من حجمها ولاءها لكتلة اليسار، وشكلت سنداً للكتلة لا يستهان بقوته، ومع نجاح الحملة على الكتلة في هزّ قواعدها وإيقاع انهيارات فيها، ثبتت شعبة فلسطين ثباتاً بدا لي عصياً على الاختراق. كان في الشعبة سبعون عضواً عاملاً، وكانوا جميعهم من الذين انتسبوا إلى الحزب قبل وصوله إلى السلطة، أي في الظروف الصعبة التي لا تجتذب الأحزاب السرية المعارضة فيها إلا أصلب الناس. وقد اتخذت أغلبية هؤلاء موقفاً واحداً وحظيت بإطار مساند من مئات الأعضاء المتدربين والأنصار المنتمين إلى الشعبة. أما الذين والوا قيادة عفلق من أعضاء الشعبة العاملين فكانوا سبعة من السبعين، وكانوا كلهم من أصحاب الوجاهة الذين يستهينون بالعمل التنظيمي المثابر، فلم تكن لهم صلة حميمة بأنصار الشعبة. هؤلاء السبعة هم كمال ناصر ويوسف الخطيب وعبد المحسن أبو ميزر، ذوو الشهرة في عالم الأدب والصحافة ومعهم أحمد المرعشلي البعثي القديم وعبد الله

خريس الذي كان مديراً إدارياً لجريدة **البعث**، وصديقنا محمد عطية، وشخص آخر نسيت اسمه. وقد ضُمَّ إلى هؤلاء السبعة فيما بعد ثلاثة بعثيين استقدمتهم قيادة عفلق من لبنان، وكان أشهرهم هو نمر حماد الذي عينه رئيس الحكومة صلاح البيطار مديراً لمكتبه الصحافي. وما كان لأي من هؤلاء أو لهم مجتمعين أن يزعزعوا تماسك أغلبية الأعضاء.

تماسك أعضاء الشعبة واشتهار سمعتهم كمناوئين للقيادة الحزبية المهيمنة على السلطة حسّنا وضعنا في فرع اتحاد الطلاب والوسط الفلسطيني الأوسع. وقد عملنا من جانبنا كلّ ما هو متيسر لتوطيد موقعنا في الفرع على أسس يقبلها الطلاب. وكان من ذلك أن توسعنا في توفير الخدمات للطلاب، ونشّطنا اللجنة التي تساعدهم في إتمام معاملات تسجيلهم وتوفير نصوص المحاضرات والمراجع لمن يحتاج إليها منهم. إلى هذا، استثمرنا إمكانياتنا وعلاقاتنا لمساعدة ذوي المعتقلين الفلسطينيين. وكان مكتبي في مقرّ الفرع يغصّ دائماً بالزوار من هؤلاء الباحثين عن مساعدة للإفراج عن معتقل أو زيارته أو القادمين لتوجيه الشكر لأن قريبهم تم الإفراج عنه. ومع مواظبتنا على تقديم الخدمات لطالبيها دون تمييز، ألف الناس أن ينظروا إلينا نظرة خاصة فيميزوا بيننا وبين بعثيي الحكومة. لكن، يبقى أن أهمّ ما جلب لنا التفهم والاحترام كان شيوع سمعتنا بوصفنا منتقدين جسورين للسياسة التي يشكو الناس منها. ولا أكتمك أن رضى الآخرين عن سلوكنا ظل على الدوام بين العوامل التي تشجعني على التشدد في الانتقاد.

وتعبيراً عن الثقة بمتانة وضعنا، عزمنا على إجراء الانتخابات في الفرع. فعلنا هذا بالرغم من تحذيرات «بعثيي الحكومة» لنا وخشيتهم من أن نفشل في التنافس الديمقراطي. وفي غضون ذلك، استعدنا صلاتنا بروابط الطلاب العرب الأخرى في دمشق، وأعدنا الاعتبار إلى لجنة التنسيق بين هذه الروابط. ولم يلبث أن صرتُ أنا رئيساً لهذه اللجنة بموافقة الجميع. فصرت، بهذا، المتحدث الرسمي باسم الروابط. فتعززت مكانتي الشخصية، وتوفر لي مزيد من الحماية.

بكلمات أخرى: صرنا نقترب أكثر فأكثر من الجمهور، وذلك بمقدار ما نتميز عن السلطة ونثبت أننا لسنا من أزلامها المطيعين، وصار الناس يتلقوننا بتحفظ أقل وترحاب أعمق.

أما داخل الحزب، فقد اشتد التوتر مع مواصلة التحضير لعقد المؤتمر القومي السابع في مواجهة الدعوة إلى مقاطعته. وقد حددت القيادة القومية الثالث عشر من شباط/فبراير ١٩٦٤ موعداً لافتتاح المؤتمر وتشبثت بهذا الموعد.

وقتها، وصل عبد الله الحوراني إلى دمشق ليمثل تنظيم غزة. فتسنى لي أن ألقى هذا القريب لأول مرة منذ فرقتنا دروب المنفى حين كنّا في العام ١٩٤٨ طفلين. لعلك ما تزال تتذكر أن عبد الله، هذا، كان الأخ الصغير لأول شهيدين من قريتنا المسمية الصغيرة في العام ١٩٤٨، وأنه، هو الذي انتهى مع أسرته إلى قطاع غزة، انتسب في القطاع كما فعلت أنا في سورية إلى حزب البعث، ثم صار المسؤول الأول عن التنظيم الحزبي في القطاع. بصفته هذه، تعرض عبد الله لعقوبة الإبعاد عن القطاع، أبعدته السلطات المصرية في سياق حملتها على البعثيين إثر فشل الإنقلاب الناصري في سورية. وصدف أن كان عبد الله قد تدبر أمره قبل صدور القرار بإبعاده فحصل على عقد عمل كمعلم لمدرسة في إحدى إمارات الخليج العربية، فلما أرغم على الخروج من غزة توجه إلى مكان عمله الجديد، ثم لم يلبث أن تبعته أسرته. وفي دمشق، حل عبد الله ضيفاً في الشقة التي أسكنها أنا وصديقه القديم إميل صبيح. وأتيح لي أن أعرف عن قرب شخصية هذا المسؤول البعثي الوافد من غزة. كان عبد الله عفلقياً حتى النخاع في تفكيره، بل قل: كان عروبياً – على الطريقة التي تصف كتابات عفلق بها العروبة. وقدم عبد الله بسلوكه مثلاً للبعثي كنت أنا قد نسيته. لكن لأن عبد الله اكتسب عفلقيته من القراءة وحدها فقد نجا من تأثير الاحتكاك العملي بالأستاذ، وبدت عروبيته مثالية تماماً، وبلغت في بعض وجوهها حد التزمت. لم يقتصر الأمر على اعتقاد عبد الله أن الشجاعة والنزاهة والكرم أخلاق ملازمة للعروبة بالضرورة، بل تجاوز هذا إلى اعتقاده

أن مضاجعة امرأة أو تناول كأس بيرة أو تخصيص وقت للترويح عن النفس سمات منافية للعروبة بالضرورة ولا يجوز أن تلتصق بالعربي الثوري بأي حال من الأحوال. وقد اقترن الولاء للحزب عند عبد الله بالولاء لقيادة الحزب التاريخية، وكان ينزّه هذه القيادة عن أي خطأ أو دناءة، ولم يصدق ما نرويه نحن مما نعرفه عن سلوك أفرادها.

والواقع أننا، إميل وآخرين من تكتلنا وأنا، حاولنا إقناع ضيفنا بمقاطعة المؤتمر، وبذلنا في المحاولة جهداً كبيراً إلا أنه قاوم محاولتنا وأبى أن يقبل أطروحتنا. كنّا ندرك أهمية الثقل المعنوي لتنظيم غزة ومغزى مقاطعة ممثله لمؤتمر نعترض نحن على عقده. إلا أن عبد الله تشبث بالحضور، وكان لديه ما يحاججنا به: «حتى لو صدقتكم سيبقى صحيحاً أن انتقاد سياسة الحزب ينبغي أن يقال داخل هيئاته».

وبمثاليته التي لا تفريق فيها بين قيم السياسة والأخلاق، توجه عبد الله الحوراني إلى المؤتمر الذي انعقد في مبنى المسرح العسكري. غادر ضيفنا شقتنا في الصباح وهو مستبشر، فلما رجع في المساء كان على وجهه إمارات استياء لا تخطئها أي عين. رأى المثالي المتزمت قادة حزبه الغارقين في مظاهر السلطة فصدمه ما رأى. وشهد الذي ضحى باستقراره من أجل الحزب سلوك ذوي الأسماء الكبيرة التي ألف أن يوقرها عن بعد، وعاين كيف يتزلف هؤلاء للعسكر ويخنعون أمام نزواتهم، فحل الحنق عليهم محل التوقير. وساءت عبد الله طروحات المتحدثين حين استخلص منها مقدار حرصهم على مواقع النفوذ بأي ثمن وغفلتهم عن مصالح الحزب والأمة. ولإيمانه بأهمية النضال من داخل الحزب، سجل عبد الله اسمه مع طالبي الحديث في اليوم التالي، واعتزم أن يتحدث بأتمّ الصراحة. وهذا هو ما فعله حين حل دوره على منبر المؤتمر في ثاني أيام انعقاده. تحدث عبد الله من منطلق حرصه على نقاوة عقيدة البعث وسلوك أعضائه، واستهجن ما رآه مما يتعارض مع القيم التي يتصور أنها هي قيم العروبة. وما أن بدأ عبد الله بسرد الوقائع التي ساءته وتسميته الأشياء

والناس بالأسماء الصريحة، حتى انفجرت في وجهه صرخات استنكار صدرت من أرجاء القاعة كلها. وتواترت المشاغبة على حديثه، إلى أن اضطر عبد الله إلى التوقف وغادر القاعة. وبعدها، لم يرجع محبط الأمل إلى المؤتمر، فعدّه أصحاب المؤتمر في المقاطعين ولم يتورعوا عن رميه بشتى الاتهامات.

أمضى عبد الله في دمشق بقية أيام الإجازة التي حصل عليها من عمله. وبعد معاينته الشخصية لما حل بالحزب، صار ذهن البعثي المبعد عن غزة أكثر انفتاحاً للإصغاء إلى ما نقوله والتأمل فيه. وخلال أسبوعين، أجرى عبد الله اتصالات عديدة ببعثيين من مختلف الكتل، وعقد صلات شخصية وأنشأ صداقات سينتفع بها في مقبل الأيام. ولئن غادرنا عبد الله بعد تلك الزيارة وهو ما يزال على العموم ذلك المثالي الطهري، فلقد لاحظت أنا أنّ شيئاً قد اهتزّ في داخله. توثقت صلتي بعبد الله منذ تلك الزيارة، جذبني إليه صفاء سريرته ومجانسته بين المعتقد والسلوك. وقد اغتنمت فرصة وجود هذا القريب في دمشق، فأتممت إجراءات الخطبة بحضوره. وعندما كتبنا عقد الزواج كان عبد الله واحداً من الشاهدين اللذين وقعا العقد فيما كان علي صالح السعدي هو الثاني.

كنت سعيداً باكتشافي أن لي هذا القريب الذي يمكن اتخاذه صديقاً. وفي لحظة الوداع، احتضني عبد الله بمودة غامرة، وكان من الممكن أن تنفجر الدموع لولا أن دموعي جفّت كما صرت تعرف منذ سنوات. ولأنه استشعر المخاطر المحدقة بي أنا الممعن في تحدّي ذوي النفوذ، فقد همس عبد الله في أذني: «انتبه لنفسك، إنها غابة، وعيون ضباعها حمراء عليك!» فاحتسبت شهادة الذي لم يعرفني إلا منذ أسبوعين بين الشهادات التي أعتزّ بها والتي تشجعني في العادة على الإمعان في التحدي وليس على أي شيء آخر.

محا المؤتمر القومي السابع السمات اليسارية التي ظهرت في سابقه، وانتخب قيادة قومية جديدة ليس فيها أحد من أعضاء كتلتنا. وبرز المسمّون بالقطريين

حلفاء لعفلق. وتشكلت حكومة جديدة تولى القطريون عدداً من المناصب فيها إلى جانب العفلقيين. وأظهرت قيادة الحزب وكذلك الحكومة العين الحمراء إزاء المعارضين من البعثيين.

بهذا، صار وضعنا في الشعبة أصعب وأشدّ تعقيداً. فالسياسات التي ألفنا انتقادها ازدادت سوءاً، فيما فقدنا الحماية التي توفرت لنا عندما كانت كتلتنا ممثلة في القيادة والحكومة. وزاد الطين بلّة أننا افتقرنا ونحن في هذا الوضع إلى الحكمة وأعوزتنا القدرة على الاصطبار، فأبحنا للمستجدات أن تستفزّنا. ولو أننا أجرينا آنذاك حسبة هادئة لموازين القوى لتواضعنا. غير أن مشاعرنا المستثارة واستمرار زعماء الكتلة في تحريضنا والتزامنا الوقوف إلى جانبهم وهم يتعرضون للقمع، كلّ هذا دفعنا إلى الإمعان في التحدّي. وقد صورنا الأمر لأنفسنا على أساس أن عفلق وحلفائه كسبوا الجولة بالتضليل، فيكفي أن نفضح أضاليلهم حتى تعود الأمور إلى نصابها الصحيح. وهكذا، صعدنا تحدياتنا للقيادة إلى مستويات لا يسوغها أي مسوغ إلا اشتداد ضيقنا بما آلت إليه الأمور.

تجنبت القيادة أن تفصل أي واحد منا من الحزب؛ كان أعضاء الشعبة متكاتفين وفصل أي منهم معناه خسارة الحزب للشعبة كلها. غير أن اثنين منّا تعرضا لأول إجراء من نوعه تقرره القيادة القومية وتنفذه الحكومة. ذلك أن القيادة التي شاءت أن تحرم كتلتنا من الاتصال بمنظمات الحزب خارج سورية، قررت حظر سفر سبعة عشر رفيقاً من نشطاء الكتلة، وقد أدرج اسم محمود السلطي واسمي إلى جانب اسم محمد بصل في عداد هؤلاء.

وبالتزامن مع هذه الواقعة التي صار لها في الحزب صدى الفضيحة، تعرضنا لمشكلة أظهرت بوضوح مدى استعداد القيادة لاستخدام وسائل السلطة لإيذائنا. فقد دعونا إلى الانتخابات الموعودة في فرع الطلبة. وتقدمنا بقائمة حزبية. ووفرنا للقائمة فرصة النجاح في انتخابات كانت نزيهة بمقدار ما يمكن لأي

انتخابات أن تكون نزيهة. وصرت أنا رئيساً للفرع، منتخباً بعد أن كنت معيناً. وقتها، بدأت المشكلة. فقانون الجمعيات في سورية يوجب أن تصادق وزارة العمل والشؤون الاجتماعية على نتائج انتخابات أي جمعية لكي تصير للمنتخبين صفة القيادة الشرعية بحكم القانون. والواقع أن مندوب الوزارة شهد انتخاباتنا ووقع على محضرها، وأقر قانونيتها، ورفع القرار إلى الوزير للمصادقة عليه. أما الوزير، وكان وقتها العفلقي سليمان العلي وهو عضو في القيادة القطرية، فقد أبى أن يصادق على القرار. كان من شأن موقف الوزير أن يعزز شعبيتنا بين الطلاب، غير أن هذا لم يكن مما يسمح لنا بممارسة نشاطات أمانة الفرع، إذ يتعذر أن نحصل قبل مصادقة الوزير على أي رخصة لأي نشاط، كما يتعذر أن نسحب بتوقيعنا أي مبلغ من حساب الفرع في البنك.

حاجتنا إلى التمتع بوضع قانوني ألجأتنا إلى رفيقنا أحمد المرعشلي الوسيط الدائم بيننا وبين ذوي الشأن في قيادة الحزب. كان أحمد بما هو المدير العام لمؤسسة اللاجئين الفلسطينيين واحداً من مرؤوسي الوزير المعني بالأمر، كما كان بحكم ولائه لجماعة عفلق على علاقة طيبة بهذا الوزير. وهكذا، توجه أحمد إلى سليمان العلي مباشرة، ثم رجع إلينا بالنتيجة: يتشبث الوزير بموقفه، فمعظم المنتخبين لأمانة الفرع أعضاء ناشطون في الكتلة المناوئة لقيادة الحزب. وهو يأبى أن يوفر لهم أي ميزة، يقول هذا صراحة ولا يهاب أي لوم أو مؤاخذة، أمّا القانون فمصلحة الحزب هي أم كل قانون وأبوه.

من اليسير عليك أن تتصور مقدار غيظنا إزاء هذا التعسف. وقد دفعنا هذا الاستفزاز الفظ إلى اتخاذ موقف كنا نحن أنفسنا سنعده غريباً كل الغرابة لو اتخذه غيرنا. وفي مواجهة الاستفزاز، صعدت الشعبة تحديها إلى الذروة: بادرت قيادة الشعبة إلى عقد مؤتمر عام لها حضره أعضاؤها، فقرر المؤتمر تجميد علاقات الشعبة بقيادة الحزب إلى أن تتراجع القيادة عن الإجراءات التعسفية. وقد حظي هذا القرار بموافقة اثنين وستين عضواً من خمسة وستين حضروا المؤتمر. وحين أبلغت قيادة الشعبة القرار إلى القيادة الأعلى،

أضافت إليه التأكيد على أنها، هي قيادة الشعبة الفلسطينية، لن تلتزم أي ولاء لأي قيادة أعلى ما لم تتم إعادة الاعتبار لنظام الحزب الداخلي.

إننا بهذا لم نعلن انفصالنا عن الحزب لكننا أظهرنا أننا لا نطيع قيادة الحزب حين يستفزنا تعسفها أو تعسف أحد أعضائها. رمينا قفاز التحدي على أنف القيادة المصرة على تطويعنا، وأظهرنا أشدّ الاستعداد للعراك.

شاعت في أوساط الحزب في سورية كلها أنباء تمرد شعبة فلسطين، وحفزت حزبيين ساخطين كثيرين على التمرد. ولا بدّ من أن تكون قيادة الحزب قد قدّرت حجم الخطر وقررت إطفاء التمرد. لم تكن الاستجابة لمطالبنا واردة، لأنها تعني رضوخ القيادة للمتمردين. إلا أن الاستجابة لم تكن مستبعدة، أيضاً، إذ أن تمردنا سيتعزز بدونها ويتسع.

وقتها، دفعنا الإمعان في التحدي إلى التضييق على أعضاء الشعبة القليلين الموالين للقيادة، خفنا أن يشكل هؤلاء حصان طروادة لاختراق تماسك الشعبة فقررنا التضييق عليهم. وكان أن جمعنا هؤلاء في حلقة واحدة أوليت مسؤولية رئاستها إلى حزبي اشتهر بصرامته في مسائل الانضباط هو معين حامد، وعزمنا على استغلال استهانة هؤلاء بالانضباط لنجمد عضوية أي مخالف منهم. ففي نظام الحزب يعاقب العضو إذا تخلف عن الاجتماع الحزبي أو أهمل تسديد اشتراكه المالي للحزب. وقد عولنا على أن الواحد من هؤلاء يرى نفسه أرفع شأناً من أن ينشغل باجتماعات روتينية لأعضاء قاعدة الحزب. وكمال ناصر ويوسف الخطيب وسواهما من النجوم لم يعرفوا الحياة الحزبية الروتينية ولا أظهروا أي ولع بها. وها أنا ذا أتذكر كم كان طريفاً وضع هؤلاء الوجهاء حين حملهم الخوف من التعرض إلى العقوبة على الانتباه إلى ما يعدّونه هم من توافه الأمور. كان معين يجيء إلى مكان الاجتماع قبل الموعد ويضع ساعته على المنضدة ويترقب حلول اللحظة التي يستطيع فيها أن يضع إشارة الغياب. فصار الواحد من هؤلاء، وهو المرغم على ما يكره، يجيء إلى

الاجتماع وقد جعله الخوف من التأخر يجري جرياً، فيدخل المكان وهو يلهث ويلعن في سره أو علنه الزمن الذي انحطت فيه أقدار الرجال.

ومن أطرف ما أتذكره مما يتصل في هذا المجال بكمال ناصر المرة التي كنت فيها جليسه على فنجان قهوة في مطعم أبو كمال وكان حديثه قد طاب لي واستغرقني. لقد تشعب الحديث وقتها في مسارب مشوقة، وكنت أنا أستحثّ كمال على الاسترسال فيستجيب بانبساط. وفيما نحن في أحلى مزاج، توقف كمال عن الكلام فجأة، ووقف إزائي، ووجه إلي نظرة لاهبة، وجأر: «يا خبيث، تتعمد أن تؤخرني عن موعد الاجتماع!» ظن كمال أني ألهيه متعمداً لتحل عليه العقوبة، ولم أشأ أن أصحح ظنّه، ثم انطلق من المطعم جارياً إلى حيث تترصده ساعة معين حامد. وبعد الاجتماع، لقيت كمال في الجريدة، فعاتبته على سوء ظنه بي، فتأثر، كعادته، حيث يتصور أنه أساء لمشاعر أحد، وشاء أن نتحدث في خلوة لأن لديه ما يفضي به إلي.

في الخلوة، عرض كمال أن يتوسط بيننا وبين الأستاذ، أي عفلق. قدّم كمال عرضه بمهابة فكأنه يندب نفسه لأداء رسالة ثقيلة على هذه النفس ويعد أداءه لها تضحية جليلة منه. قال كمال إنه يحبنا وهو راغب في بقاء أمثالنا في الحزب، وتساءل: «ما الذي تاخذونه. على الرجل؟»، ثم أضاف: «إذا كانت فلسطين تهمكم فإني أحلف بكل مقدس عندي أن الأستاذ ميشيل مستعد لأن يهب ما عنده كله من أجل فلسطين، بما في ذلك ملابسه الداخلية». ولا شك في أنك حزرت أن ذكر الملابس الداخلية في هذا المقام دفعني دفعاً إلى الضحك. وظن كمال أنني أضحك استهانة برأيه هو في عفلق، فحنق وانطلق حنقه تقريعاً: «من أنت، بل من أنتم، بصل وشوفي، وحوراني، أولاد، زعلطّية، تتطاولون على العمالقة!»

لم أؤخذ بصراخ كمال ولم آخذه عليه، بل تسلحت بابتسامة متسامحة. ولم يلبث أن هدأ هو، واستعاد نبرة حديثه اللينة: «هذه الشعبة التي تخوفون بها

الآخرين أين هي، أريد أن أنضم إلى شعبتكم وأواجهكم داخلها». كان كمال الجاهل بالشأن التنظيمي يتصور أن الشعبة هي اسم لتكتلنا أو لشيء من هذا القبيل، ولم ينتبه إلى أنها وحدة تنظيمية في الحزب وهو عضو فيها.

وفي إبان أزمة الشعبة مع القيادة، حلت ذكرى مناسبة عامة، لعلها كانت الذكرى الأولى لحركة الثامن من آذار/ مارس، أو ذكرى تأسيس الحزب، أو العيد الوطني لسورية. وقد جرى الاحتفال الرئيس بهذه الذكرى في المدرج الكبير في جامعة دمشق، حيث أقيم مهرجان خطابي تولى التلفزيون والإذاعة نقله على الهواء مباشرة. وكنت أنا واحداً من خطباء المهرجان بوصفي رئيس لجنة التنسيق بين روابط الطلاب العرب. كان من المتعذر أن أجهر بانتقاد الحزب أو السلطة انتقاداً مباشراً، غير أني لم أفوت المناسبة دون أن أظهر تميزي وتميز الفريق الذي أنتمي إليه وألمح إلى ما نختلف بشأنه مع القيادة. وقد اهتديت إلى أسلوب ملائم، فقلت إن الطلاب الذين أتحدث باسمهم يؤيدون حركة آذار/مارس وقيادتها حين تقوم سياستها على الاستجابة إلى ما يطمحون إليه. ثم عددت ما قلت إنه طموحات هؤلاء الطلاب. وقد اخترت العبارات بعناية، بحيث أعرض الطموحات كمطالب. وتوخيت أن يكون مستوى النص مما يفهمه أغلب المستمعين. وفي الإلقاء، نوعت النبرة ليسهم تنويعها في إبراز المعاني التي أتوخاها وإيصال المغزى الكامن وراء العبارات إلى سامعيها.

هذا الخطاب المنقول على الهواء، والذي لم يملك أحد حق إيقافي عن إتمامه، أثار في القاعة ردود فعل متباينة. وفي الصفوف الأولى، حيث يجلس قادة الحزب والدولة وكبار الضيوف، تجهمت معظم الوجوه. أما في الصفوف التالية فقد تناول المعجبون والساخطون الهتاف بالشعارات التي تعكس مواقفهم. وخلال الدقائق العشرين التي استغرقها إلقاء الخطاب، لم يرفع أمين الحافظ نظره عني إلا حين كان يميل على أحد جانبيه ليتلقى ملاحظة أو يستفسر عن شيء. وعندما خطب الحافظ في ختام المهرجان، خرج أكثر من مرة عن النص المكتوب – وكان الحافظ على كل حال ممن يفتنهم الارتجال – وقال كلاماً ضمنه ردوده

على النقاط التي أثرتها في خطابي. وكان الرجل في ردوده شهماً ومتواضعاً كما كان مؤدباً ولم يخف إعجابه «بجرأة الرفاق وسعة طموحهم».

وضعني الخطاب في بؤرة الضوء وأكد على سمعتي كمعارض كفؤ. ولئن أرضى الخطاب الساخطين على القيادة، فقد جلب لي مزيداً من سخط المتزمتين في الولاء لها. وكان من النتائج المباشرة أن الوزير سليمان العلي اشترط أن أتنحى أنا عن رئاسة الفرع وأستقيل من أمانته كي يصادق على شرعية هذه الأمانة وأعضائها الآخرين. ونقل أحمد المرعشلي هذا الشرط إلينا، وقال إنه واثق بأن الوزير لن يرضى بأقل من ابتعادي عن قيادة الفرع. ومال معظم الرفاق إلى رفض هذا الشرط. إلا أنني حسمت الأمر: فخروجي وحدي مع بقاء الآخرين في أمانة الفرع لا يبدل طبيعتها، ولا بدّ على أي حال من أن يستأنف الفرع نشاطاته. وقد تعجلت كتابة نص استقالتي وسلمتها إلى أحمد ليقايضها بإعتراف الوزير. كان من السهل علي أن أفعل ما فعلت، بل كان ما فعلته مبهجاً لي، إذ ما أحبّ أن أقدم على عمل أدلل به على تواضعي وأؤكد فيه على تعففي عن رهن الشأن العام بشأن شخصي! وبهذا، وجدت مشكلة فرع الطلاب المعلقة بيننا وبين القيادة حلاً لها، وبقيت المشاكل الأخرى، وأخصها، مما له صلة بالعقوبات، حظر السفر المفروض علي وعلى محمود السلطي.

في ذلك الوقت، كان السعي إلى إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، م.ت.ف.، في إبّانه. فكانت سورية بحاجة إلى بعثييها الفلسطينيين كي تجد لنفسها موطئ قدم في المنظمة. وكان في هذا سبب آخر أمسك يد القيادة عن الفتك بالشعبة المتمردة وأعضائها المتنمردين. كان من حق القيادة وفق التعديلات التي أدخلها المؤتمر القومي السابع على نظام الحزب الداخلي أن تحل الشعبة كلها أو تستبدل قيادتها المنتخبة بأخرى معينة تعيينا أو تفصل من تشاء عن الحزب. إلا أن القيادة لم تلجأ إلى أي إجراء من هذا القبيل، وإن لم تظهر اللين. وفي هذا الجو، ندب كثيرون أنفسهم للتوسط بين الشعبة والقيادة.

أحد الوسطاء، وأغلب ظنّي أنه كان منصور الأطرش، أفلح في تحقيق خطوة، إذ قبلت قيادة الشعبة أن تستقبل عضواً من القيادة القطرية وتمكنه من عرض وجهة نظر القيادة في اجتماع عام لأعضاء الشعبة كلهم والاستماع إلى رأي الشعبة. وانعقد الاجتماع، وجاء عضو قيادة، ثم انعقد اجتماع ثان وجاء عضو آخر. وتوالت الاجتماعات وتعاقب أعضاء قيادة، ولم تحلّ المشكلة.

لا أتذكر تفاصيل هذه الاجتماعات بتمامها، إلا أنني أتذكر الكثير. ولسبب ما، ندبت القيادة في المرة الأولى واحداً من أعضائها غير المهمين. وعجز هذا عن إقناع أحد كما عجز عن أن ينقل إلى القيادة وصفاً صحيحاً لموقف أعضاء الشعبة وهواجسهم. وكان المندوبان الثاني والثالث من المستوى ذاته. والحقيقة أن تخصيصنا بهذا المستوى قد ساءنا، فلماذا يترفع ذوو النفوذ عن ملاقاتنا، ألم يقم النفوذ الذي يتمتعون به على أكتافنا وأكتاف أمثالنا!؟ وبدل أن تؤدي اللقاءات إلى تضييق الفجوة فقد أدت في الواقع إلى توسيعها. ولأننا كنّا نتحرى ما يدور حولنا، فقد بدا لنا أن في القيادة من يتعمد تعميق الفجوة. وعرفنا أن أعضاء القيادة انقسموا في الرأي بين داعٍ إلى معاملتنا بحزم وداع إلى أخذنا بالملاينة والترغيب أو داع إلى المزج بين الأسلوبين. وقد تصدر فهمي العاشوري وهو من كان وزيراً للداخلية الداعين إلى الشدّة واقترح أن تندبه القيادة للالتقاء بنا وتعهد تطويعنا.

كان العاشوري، وزير الداخلية هذا، صديقاً شخصياً لأحمد المرعشلي، فاطّلع على أحوال الشعبة من أحمد كما اطلع عليها من التقارير الأمنية التي يتلقاها. وكنّا في تشنيعاتنا المتواترة على القادة والمسؤولين، قد خصصنا العاشوري هذا بواحدة من أقذعها. وهاأنذا أقر بأني أنا الذي ألف هذه التشنيعة ونشرها فانتشرت على نطاق واسع، وأقر أيضاً بأني ندمت بسبب بذاءتها. استندت التشنيعة إلى تباين ظاهر بين هيئة العاشوري وهيئة زميل له هو الوليد طالب وزير الخارجية، وكلاهما من إدلب بما يُتندر به مما له صلة

بالشذوذ الجنسي في سمعة هذه البلدة. كان للوليد طالب جسد تبرز معالم الذكورة في قامته وتقاطيعه بروزاً زائداً على المألوف. أما العاشوري فكانت له قامة نحيلة وتقاطيع منمنمة مما يبيح وصفه بالليونة. والتشنيعة التي ألّفناها تقول إن إشاعة سرت في البلد تتهم الوزيرين بوجود علاقة شاذة بينهما. وتضيف التشنيعة أن بعثيين حريصين على مكارم الأخلاق ومعنيين بسمعة الحزب شاءوا أن يتحروا صدق الإشاعة أو كذبها فتوجهوا إلى شيخ من وجهاء إدلب مشهودٍ له بالنزاهة واستحلفوه أن ينبئهم بالحقيقة، فقال الشيخ: «الحقيقة أن ابن طالب قد يفعلها، وأن ابن العاشوري قد يفعلها أيضاً، أما أن تكون قد حصلت أو لم تحصل فهذا ما لا أملك الجزم به». ولا بدّ أن العاشوري قد سمع تشنيعتنا المهينة وتحرى مصادرها فعرف أنها جاءت من ناحيتنا. وهكذا تصدى الرجل لتطويعنا وهو يملك دوافع كثيرة لفرض سطوته علينا ويتصور أنه محق حين يصنفنا بين المغترّين.

والحاصل أن الرجل جاء إلى الاجتماع بنا وقد أحاط نفسه بالمظاهر التي تدل على سلطته: سيارة الوزارة، والحراس، والمرافقون، والأسلحة التي في أيديهم. ودخل الوزير قاعة الاجتماع ومعه مرافق وعدد من الحراس، ثم احتل صدارة المنصة قبل بدء الاجتماع. وما أن أعلن عمر خليفة افتتاح الجلسة، حتى شرع العاشوري في الكلام. تحدث الرجل بنبرة حانقة، وتوالت من فمه العبارات كأنها زخات رصاص. وصف عضو القيادة موقف الشعبة بأنه شاذ وقرّعنا بلا هوادة، وتحدث عن التناقض في موقفنا بين مطالبتنا بما لأعضاء الحزب من حقوق وبين تنصلنا من الولاء للقيادة، وأنذرنا بتعذر أي بحث في مطالبنا ما لم نتراجع عن موقفنا الشاذ.

بكلمات أوجز: أعادنا وزير الداخلية الحانق إلى نقطة الصفر، وأثار تقريعه لنا سخطنا واستفزّ حميتنا على العراك. ولأني كنت قد توقعت من قبل شيئاً من هذا، فقد كنت مهيئاً للرد على حديث الوزير. سلحت نفسي بنبرة هجومية

أتقن استخدامها، خصوصاً حين أعرف أني أستند إلى حجج متينة. وبدأت حديثي بملاحظاتي على سلوك زائرنا، فأخذت عليه أنه أدخل إلى قاعة الاجتماع مرافقيه وحراسه، وهم ليسوا أعضاء في الشعبة ولا مدعوين إلى اجتماعها، كما أخذت عليه أنه شغل مقعد رئيس الجلسة دون أن يكون هو رئيسها، إذ أن رئاسة الاجتماع حسب نظام الحزب هي لأمين سر الشعبة عمر خليفة. وأخذت على مندوب القيادة، فيما أنا ممعن في إظهار استهانته بنظام الحزب، أنه تحدث دون إذن. ثم قلت إن مخالفة النظام قبيحة حتى لو ارتكبها عضو مبتدئ في الحزب. وهي تصير أشدّ قباحة حين يرتكبها عضو قيادة قطرية يقرعنا هو نفسه، بدعوى أننا نخالف نظام الحزب. ثم جئت إلى موضوع القطيعة بين الشعبة والقيادة، فقلت إن الشعبة لم تكن هي البادئة فيها. ودعوت عضو القيادة إلى تذكّر الإجراءات غير النظامية التي اتخذتها قيادته ضدنا، وقلت إن القيادة هي التي عاملتنا وكأننا لسنا أعضاء في الحزب، وهي المطالبة بتصحيح هذا الخطأ.

لم أذكر أي إجراء بعينه لثقتي بأن الحاضرين جميعهم يعرفون ما أشير إليه. غير أن العاشوري قاطع حديثي مظهراً الدهشة وتحداني أن أذكر إجراء واحداً أهملت فيه القيادة صفتنا الحزبية. وبهذه المقاطعة الفجّة، لم يعد العاشوري أن أسلمني زمام المبادرة. كنت مشحوناً بالسخط على الوزير الذي تنطح لتطويعنا، وقد واتتني في تلك اللحظة الفرصة لإحراجه. فذكرت على الفور أشهر الإجراءات التي تتمثل في موقف زميله في القيادة وزير العمل والشؤون الاجتماعية وما تلا ذلك من مساومات. ولو أن العاشوري كان أوزن مما بدا عليه في ذلك الاجتماع، لفوّت علي فرصة استثمار الواقعة. لكن الرجل كان هو الآخر مشحوناً بالسخط، وأغلب ظني أنه استكثر أن يخاطبه أعضاء عاديون مخاطبة الندّ للندّ، فلم يجد ما يرد به علي سوى أن يصرخ في وجهي: «هذه الحكاية غير صحيحة، أنت تكذب».

إنكار العاشوري لواقعة شهيرة واتهامه لي بالكذب كانا أقسى من أن يحتملهما أعضاء الشعبة. فكان أن هبّ عدد من هؤلاء من مقاعدهم مستثارين وترددت في وجه الوزير صرخات: «إخرس!»، «مكابر!»، «سلاح حراسك لا يخيفنا». وتميز صوت إميل صبيح الذي يجعله الحنق مرناناً: «قد تخيف ضباط الشرطة في وزارتك، أما هنا فأنت أمام حزبيين لكل منهم سجل في النضال أكرم من سجلك!»

كنت إزاء فجاجة عضو القيادة أقف على أرض صلبة، فلم أؤخذ بإنكاره للواقعة أو اتهامه لي بالكذب، ولم أشترك في حملة السباب التي استهدفته، بل انتظرت إلى أن تمكن عمر من إعادة النظام، ثم قلت، معتبراً أني ما أزال صاحب الدور في الكلام: «ليس لمندوب القيادة حق مقاطعتي، وعلى رئيس الجلسة أن يضمن لي حق المتابعة دون مقاطعة».

ومرة أخرى تحدث العاشوري دون إذن، بل إنه صرخ محنقاً: «أي رئيس، وأي حق، أنا عضو القيادة القطرية وأنا الذي يدير الجلسة!»

وكانت هذه زلة أخرى وقع العاشوري فيها فكشف جهله بنظام الحزب. وهذا هو ما بينته أنا في تعقيبي. فطلب عمر من «الرفيق عضو القيادة القطرية» أن يكف عن المقاطعة، ولمح إلى حقّه هو في رفع الجلسة إذا لم يسد النظام فيها. لحظتها، جاء دوري أنا لأزل؛ لم أكتف بما ظفرت به وما لحق بالوزير، بل أردت أن أرغم متهمي بالكذب على الإقرار صراحة بأني صادق. لم أكن بحاجة إلى هذا الإقرار، إلا أنها، على ما يبدو، الرغبة في الانتقام وهي في السياسة موجّه سيء. وبهذا الدافع، أعدت رواية تفاصيل حكايتنا مع وزير العمل والشؤون الاجتماعية، متلذذاً بإرغام العاشوري على الاستماع إليها، ونوهت بالوساطة التي قام بها أحمد المرعشلي، ثم طلبت من أحمد الحاضر معنا أن يدلي بشهادته.

مسكين أحمد، لقد وضعته في موقف حرج. إن صادق على روايتي فهذا يعني أنه يكذّب صديقه الوزير ويسيء إلى القيادة، وإن كذّب الرواية التي يعرف

الحاضرون أنها صحيحة فهذا يعني أنه يسيء إلى سمعته ويسيء إلينا نحن أصدقاءه. لم يكن أحمد من الذين يواجهون القيادة بكذبها، كما أنه لم يكن من الذين يستهينون بسمعتهم، ولهذا بدا الحرج واضحاً عليه، وشاء أن يزوغ، فتحدث عن ضرورة التفاهم بين أعضاء الحزب الواحد وتجاوز الحساسيات وتجنب إثارة المشاكل، ودعا إلى فتح صفحة جديدة، وما إلى ذلك مما توخى أحمد به أن يتجنب الحرج. مرة أخرى، افتقرت إلى الحصافة. وبدل أن أقدر في كلام أحمد تجنبه الإساءة لأي طرف، سخطت عليه لما عددته جبنا وهروباً من قول الحقيقة، وطلبت أن يجيب أحمد فقط على هذا السؤال: «هل الواقعة صحيحة: يجيب بلا أو بنعم، دون فذلكات.» وقام أحمد بآخر محاولاته للزوغان: «يا رفيق فيصل! يا رفيق! ألا يفهم بعضنا بعضاً في صورة جيّدة؟ فلنتجاوز هذه الحكاية!» لكني لم أمنح المستنجد بي الفرصة، بل أصررت على أن يجهر بلا أو بنعم فومض في عين المطالب بالشهادة المحرجة شيء، ثم حشرج: «الواقعة غير صحيحة». وما أن نطق أحمد بعبارته الوجيزة حتى هبّ الوزير من مقعده وصبّ نحوي سيلاً متصلاً من الشتائم. وامتزج سخط الحاضرين على أحمد بسخطهم على الوزير، فهبّ معظمهم من مقاعده، وتبادل كثيرون منهم الشتائم مع الوزير. ويبدو أن حراس الوزير توجسوا شراً فشددوا يقظتهم، وأشهر أحدهم سلاحه فازداد الطين بلّة، بل بلاّت، وعجز عمر هذه المرة عن إعادة النظام، فأعلن انتهاء الاجتماع.

وكانت فضيحة جلجلت أصداؤها في أنحاء شتى.

في القيادة، اشتد سخط بعض الأعضاء علينا، وسخر آخرون من زميلهم. كان العاشوري مزدهياً مثل ديك منفوش الريش يوم تعهد تطويعنا، وها هو ذا قد رجع مخزياً مثل ديك معط ريشه وألقيت عليه النفايات. يومها، تدارس أعضاء القيادة أمرنا بعناية أشدّ، وصدر قرارهم بتكليف العقيد عبد الكريم الجندي معالجة الأمر. كان هذا العقيد عضواً ذا نفوذ في القيادة القطرية ولجنة الضباط التي تحكم من وراء ستار وقائداً للواء الصواريخ الشهير،

وكان هو الذي تصدر منذ البداية الداعين إلى المزج بين الشدّة واللين في التعامل معنا. وبعد أن عرف العقيد ما حل بالعاشوري، ندب هو نفسه لمعالجة مشكلتنا وتعهد حلها.

وفي منظمات الحزب، المدنية والعسكرية، في دمشق والمحافظات، تدوولت وقائع الفضيحة وما أضفته عليها الرغبات المتباينة من تهويل. فبعضهم صورنا على أننا فرسان الدفاع عن كرامة أعضاء الحزب وحقوقهم وقال إن الوزير وحراسه هددونا بأسلحتهم فتصدينا لهم وطردناهم من الاجتماع. وصورنا آخرون على أننا زعران مشاكسون ومغرورون، وقالوا إننا منعنا عضو القيادة من الكلام واعتدينا عليه.

أما أنا فقد راجعت نفسي وندمت على مسلكي المحرج إزاء أحمد المرعشلي، واستخلصت أني أسأت إلى صديق هو في نهاية المطاف غير شرير. فذهبت إليه في موعد طلبت أن يحدده لي وفي نيتي أن أعتذر له. لكني ما كدت أشرع في حديثي الملاين حتى قاطعني هو وفي نيته أن يعتذر لي: «لو كنت في موقفي لما قلت إلا ما قلته أنا». وفتح أحمد قلبه في ذلك اللقاء ففاض مخزونه: لقد أوقعه خلافنا مع القيادة بين نارين؛ كانت قناعاته تحمله على موالاة قيادة عفلق، لكنه لا يريد التفريط بصحبتنا؛ وهو لم يدل بشهادته الكاذبة انتصاراً للقيادة بالضبط، لا، الأمر ليس كذلك. فالقيادة كما يرى أحمد موقفها قوية بشهادته وبدونها. ولأن القيادة قوية فهو يخاف علينا نحن، فعينها حمراء علينا بما فيه الكفاية، ولو مال هو إلينا ضد الوزير لشجعنا على الإمعان في التحدي فتوفر سبب جديد للبطش بنا. هكذا فسر أحمد سلوكه، ثم باح بما قال إنه أخفاه عني في السابق. فمنذ احتدام هذا الخلاف، طُلب من أحمد أن يستخدم نفوذه لدى الأونروا لتطردني من وظيفتي. وبعد الاجتماع، اتصل العاشوري بأحمد للغرض ذاته. روى لي أحمد هذا، ثم أكّد على أنه لم يستجب للطلب، لكنه لم يجرؤ على رفضه صراحة. وقال أحمد إنه طلب من

الوزير أن يرسل إليه رسالة خطية بهذا الشأن وهو مدرك أن العاشوري لن يتورط في شيء مكتوب. أما إذا فعلها العاشوري، قال أحمد، «فحينها سأرى ما الذي يمكن عمله». وجزم أحمد: «لن أتسبب في قطع رزق أحد، بإمكانك أن تثق بوعدي!». ثم أكد الصديق القديم على ضرورة أن نظل أصدقاء، ودعاني إلى أن أعدّ ما جرى في الاجتماع في باب المماحكات الحزبية التي لا تورّث أحقاداً شخصية. وبدا أحمد سعيداً حين استخلص أنه أرضاني. والحقيقة أن اللقاء بأحمد أسعدني أنا الآخر وخرجت منه مرتاح الضمير.

٥ في السياسة خيبات، وفي الدراسة: فشل

مع انطلاق العمل لإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، أتيح لي أن ألتقي رئيس الدولة اللواء أمين الحافظ. جرى اللقاء في وقت ما من شباط/فبراير ١٩٦٤، بعد أن مثل الحافظ سورية في مؤتمر القمة العربية الأول.

كانت مشاركة سورية في القمة قد أثارت الجدل داخل الحزب. ثم طال الجدل مسألة حضور القمة التالية من عدمه؛ أيّد بعض الحزبيين المشاركة في القمم، وعارضها آخرون، وبدت مواقف كثيرين منهم مبلبلة. هذا الجدل انسحب من جانب منه على المواقف إزاء المساعي الجارية لتأسيس المنظمة الفلسطينية. كان الذين سُمّوا القطريين آخذين في التوجه نحو اليسار، وكانت أوساطهم معارضة على العموم للمساهمة في القمة بما هي هيئة للعمل العربي المشترك يشكل المحافظون من الحكام العرب أغلبية فيها. أما العفلقيون ومنهم الرئيس الحافظ فكانوا أميل إلى المشاركة. ومع أن نسبة محسوسة من البعثيين أيدت الدعوة لإبراز الكيان الوطني الفلسطيني، فإن مفهوم البعثيين عن الكيان اختلف عن المفهوم السائد في الأوساط الأخرى. ولم يرض البعثيين أن الذي أختير لمهمة تأسيس المنظمة هو الزعيم الفلسطيني أحمد الشقيري. فقد أخذ البعثيون على الشقيري ما يعدّونه انحيازاً منه لعبد الناصر، وعارضه بعضهم بدوافع ثورية يسارية، أيضاً. ويوم دُعيتُ إلى اللقاء مع الرئيس الحافظ، كان القصر

الجمهوري معنياً بدراسة علاقة سورية مع المنظمة التي هي في قيد الإنشاء ومع الشقيري بالذات، فرأى أن ينظم لقاء يحضره عدد من أركان الحزب والدولة ويدعى إليه عدد من الحزبيين الفلسطينيين.

وهكذا، دعي إلى اللقاء ثلاثة من نشيطي الشعبة، اميل صبيح وكمال الخالدي وأنا، كما دعي إليه كمال ناصر وعبد المحسن أبو ميزر. أما من السوريين فشارك في اللقاء عدد أكبر، وكان منهم، ممن لا أزال أتذكر حضوره محمد عمران وصلاح جديد ونور الدين الأتاسي وبعض رؤساء الأجهزة الأمنية الكبيرة.

وصلنا، نحن ثلاثي الشعبة، إلى القصر الجمهوري معاً. فوجدنا أن الدكتور عبد الخالق النقشبندي، في الانتظار، وهو الذي قادنا إلى مكتب الرئيس، وطرق، هو الذي يشغل منصب وزير الدولة لشؤون القصر، باب المكتب، ثم بقي في الخارج بعد أن أذن لنا نحن بالدخول. هنا، غمرتنا عبارات الرئيس المرحبة: «مائة هلا بالرفاق، نمور فلسطين على العين والرأس»، قالها الحافظ وكررها، ثم قادنا إلى صالة مجاورة فوجدنا أن كمال ناصر وعبد المحسن قد سبقانا إليها، ثم لم يلبث أن قدمت بقية المدعوين إلى الاجتماع، وجلس أبو عبده في صدر المكان.

تبين مع افتتاح الجلسة ان القادة الحاضرين أرادوا أن يسمعوا منا، نحن المعدودين عندهم خبراء الحزب في الشأن الفلسطيني. وقبل أن يأذن لنا بالكلام، شاء أبو عبده أن يطلعنا على ما جرى في القمة العربية، وذلك حتى نكوّن رأينا مستندين، كما قال هو، إلى الرواية الصحيحة «وليس إلى ما ينشره سيئو النوايا من أقاويل». ألزم الرئيس نفسه التحدث بالفصحى. اعتقد العسكري المفتون بانتمائه إلى العروبة أن الحديث بالفصحى أدعى إلى الاحترام وأليق بذوي المقامات العليا. وكانت فصحى الرجل مستقاة من قراءته المدرسية ومحفوظاته من الشعر العربي القديم، غير أن عاميته الحلبية كانت تأخذ في مخالطة الفصحى كلما أمعن في الحديث إلى أن تطغى عليها.

وكان الرجل ينتبه بين وقت وآخر إلى أنه صار يتحدث بالعامية، فيستعيد فصحاه فجأة، ثم تتكرر المخالطة ويتكرر الانتباه والاستعادة.

أدركنا من تحديد الرئيس لموضوع اللقاء أن حكاية أزمة الشعبة مستبعدة عنه. لكن إميل، وهو الغاوي المزمن لمناقشة الشؤون الداخلية، طمع في أن يستغل المناسبة لعرض الحكاية أمام أكبر رأس في الدولة. واجتهد إميل، فقارب الحكاية من موقع إيجابي، فنوه بالاستقبال الكريم الذي خصصه الرئيس للوفد الفلسطيني بعد أحداث ١٨ تموز/يوليو واستجابة الرئيس لمطالب الوفد، وشكره على أريحيته. أراد إميل هذا التنويه مدخلاً ليذكر بمطالبنا نحن. إلا أن أبا عبده المعجب حقاً بخصومه الفلسطينيين لم ينتبه إلى مرمى إميل، بل قطع حديثه وقال: «لا شكر على واجب»، وقرن العبارة الفصحى بالكلمة الحلبية «خايّ» التي تعني: أخي، ثم أضاف: «الشكر لكم أنتم الذين تهتمون بإخوانكم الفلسطينيين حتى لو وقفوا ضدنا، هذا هو الخلق العربي الصحيح»، ثم تلا من محفوظاته بيت الشعر الذي رأى أنه يلائم المقام:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النازلات على ما قال برهانا

واندفع الرجل بعد ذلك في حديث طويل عن إعجابه بالفلسطينيين وتقديره لجرأتهم عندما حملوا السلاح في عزّ الظهيرة في وجه البعثيين: «كنت هناك، تعرفون، رأيتهم بعينيّ هاتين، جدعان هم، أي والله جدعان، ترى واحدهم فترى نمراً لو خبط حيطاً برأسه لهدم الحيط». وفي هذا النحو، اندفع أبو عبده مفصحاً عن هذا المفهوم للشجاعة. وعجز إميل عن إيقاف الرئيس عن الكلام واستثمار الفرصة. ومن الحديث عن شجاعة الفلسطيني، انتقل أبو عبده إلى الحديث عن تقرير كنّا قد كتبناه للقيادة حول الكتيبة العسكرية التي سرح جنودها الفلسطينيون وكان تسريحهم الذي حذرنا في تقريرنا من الإقدام عليه بين الأسباب التي حفزتهم على حمل السلاح ضد سلطة البعث. أظهر أبو عبده أسفه لأنه هو القائد العام للجيش قرأ التقرير متأخراً، وكان أوان

الإصلاح قد فات: «كان تقديركم للموقف جيداً، كان أفضل من تقدير العسكريين له». قال الرئيس هذا، ثم أضاف: «هكذا نحن الشباب العربي الطيب، مع أهلنا في أي ظرف، في الحارة مع أهل الحارة، وفي القرية مع أهل القرية، وفي المدينة. تعرفون أني رئيس دولة وعضو في قيادة حزب قومي، على الرأس والعين العرب والعروبة والحزب. لكن إن جدّ الجد فأنا ابن حيّ الكلاسة في حلب، فما نفعي للحزب والعرب إذا لم أنفع أبناء حيّي!؟»

من موضوع إلى موضوع، متنقلاً بغير مقدمات وباسطاً آراء مثل هذه الآراء، تحدث أبو عبده لساعات، وكان ينهض من مقعده حين يأخذه الحماس ويتابع الحديث ماشياً ذاهباً غاديا وسط حلقة الحاضرين. كنّا، نحن ثلاثيّ الشعبة، نتسارق النظر كلما فاجأتنا نقلة أو أدهشنا رأي. أما عبد المحسن فراح يتسقط فرصة يدخل فيها بين جملة وأخرى أو نقلة وغيرها ليدلي بما يظهر به إعجابه بالحديث وصاحب الحديث. يقينا أن رئيس تحرير **البعث** كان أقل سطحية من أن تستهويه مفهومات الرئيس البسيطة، ولا شك في أنه فطن إلى عجبنا إزاء ما نسمع، إلا أن حاجته لمجاملة صاحب النفوذ هي التي أطلقت تعليقاته الممالئة. أما كمال ناصر فبدا أكثر احتراماً لعقله، فلم يدل بأي تعليق. إلا أن كمال، لأمر ما، لعله سوء اجتهاده في توجيهنا نحن الثلاثة المشاكسين إلى إظهار التأدب في حضرة الرئيس، كان يهب واقفاً كلما باراه هذا الرئيس وهو يجول وسط الحلقة، ثم يعود إلى الجلوس ليهب من جديد في جولة الرئيس التالية. ولما تكرر هذا من كمال دون أن يجاريه فيه أحد، كفّ عن الحركة، وبدا برماً. أما الحاضرون الآخرون، فلم يظهر أن ثمة ما يدهشهم، والواضح أنهم ألفوا أسلوب الرئيس والاستماع إلى آرائه، ولم تعد هذه تثير عجبهم.

وعندما أمكن أن يجيء الرئيس إلى الموضوع الذي شاء أن يطلعنا على وقائعه، تشبثنا بالفرصة، وعملنا على ملاحقته بالأسئلة والملاحظات كي لا يتشتت حديثه مرة أخرى. لم يتخل أبو عبده عن أسلوبه تماماً، إلا أن جهدنا أفلح في حمله على تركيز الحديث حول القمة وشؤونها. والواقع أن وجه الرئيس

اكتسى مسحة حزن ظاهرة، وكذلك نبرة صوته، منذ شرع في حديث القمة؛ ولا شك في أنه استحضر معاناته في القمة وما كابده بعدها من هجمات منتقديه، فحلّ الحزن.

لن أنقل إليك كل ما استقر في ذاكرتي من حديث أمين الحافظ عن القمة العربية. فما قاله الرئيس في تلك الجلسة الخاصة كرره بعد ذلك في أحاديث علنية نشرتها وسائل الإعلام. وسأكتفي بإيجاز ما أثر فيّ تأثيراً شخصياً من حديث الرجل.

توخى رئيس دولة سورية أن يؤكد لنا على أنه توجه إلى القمة بإرادة طيبة ونيّة صافية ورغبة صادقة في التوصل إلى قناعات مشتركة، وكرر هذا مراراً. ولم يكن للرجل أن يقول شيئاً مختلفاً هو الذي تعرض لانتقادات كثيرة بسبب مشاركته في القمة. وقال الرئيس إنه يعتقد أن ملوك العرب ورؤساؤهم لا يجتمعون كلهم في مؤتمر واحد إلا من أجل هدف جليل، وفي يقينه أنه لا يوجد للعرب قضية أهمّ من قضية فلسطين ولا هدف أجلّ من تحريرها. وتصور الرجل، إذا، أن اجتماع القمة معقود من أجل تدارس التحضيرات اللازمة لبلوغ هذا الهدف، وعبر عن يقينه من أن تحرير فلسطين واستعادة عروبتها كاملة هدفان يمكن تحقيقهما لو صلحت ضمائر المجتمعين وخلصت نواياهم وكانت عزائمهم قوية: «قلت لهم هذا، وذكّرتهم بأن السنغال، الذين هم سنغال، حرروا وطنهم، فكيف يعجز العرب وهم خير أمة أخرجت للناس عن تحرير فلسطين».

بعد هذا، أظهر الرجل استياءه الشديد لأن قادة القمة أرادوا أن تنحصر المداولات في موضوع تحويل مجرى نهر الأردن: «قلت لهم هذا موضوع فرعي، فرع من أصل، فرع من فروع عدّة، وعلينا أن نعالج الأصل، تحرير فلسطين هو الأصل، أما الفرع فأمره هيّن، فنظر كل واحد منهم إلى الآخر كأني أنطق بالكفر». وأكد الرجل على أنه هو الذي فرض على المجتمعين التطرق إلى موضوع التحرير. غير أن مناقشة قادة القمة للموضوع لم تجعل

رئيس سورية أقل استياء. فقد تناوب الملوك والرؤساء الحديث، فأظهر كل واحد منهم كم هي صعبة هذه المهمة، وقال إنها تحتاج إلى إعدادات غير مقدور عليها في الوقت الحالي وان استكمال الإعدادات يحتاج إلى وقت طويل، «لم أظهر زعلي، قلت لنفسي: يا أبا عبده أصبر وجارهم! وقلت لهم: المهم أن نتعاهد منذ الآن أمام الله والتاريخ على تحرير فلسطين وألا يهدأ لنا بال ولا ينطبق جفن على جفن إلا بعد تحريرها». وهو، حسب ما قاله لنا، لم يندب زملاءه إلى معجزة بل توخى الواقعية: «يحتاج تحرير فلسطين إلى خطة؟ صدق وحق، لا بدّ من خطة. تحتاجون في أقطاركم إلى إعدادات؟ عدل، لا بد من الإعدادات. وأنا عندي الخطة وهي تحدد الإعدادات».

أصغيت إلى محدثنا وهو يعيد على مسامعنا بنود خطته، فتذكرت الخطة التي سبق أن نشرها صديقنا صبحي ياسين في الخمسينات ملحقاً لكتابه عن ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ الفلسطينية. ولعلك ما تزال تتذكر ما رويته لك عن هذه الخطة التي شغلت صفحة واحدة في كتاب صديقنا القديم والتي ألفنا أن نستحضرها في أحاديثنا كلما احتجنا إلى إيراد مثل عن سذاجة التفكير حين تقترن السذاجة بحسن النيّة. ولئن دعت خطة صبحي ياسين إلى تشكيل ما سماه هو فرقة فدائية ضاربة من خمسة وعشرين ألف فدائي، فإن خطة أمين الحافظ دعت إلى تحشيد أعداد غير محددة من الجنود العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة للانقضاض على إسرائيل في الوقت الملائم والقضاء عليها، «ندرب القادرين من أهل الضفة والقطاع على القتال، ونخلي المنطقتين من النساء والأطفال والعجّز والمسنين، ونحل محل هؤلاء جنوداً من الجيوش العربية، ونخزن السلاح في أماكن لا يعرفها إلا القادة، حتى إذا اكتمل الحشد اللازم اندفع الجميع في هجمة كاسحة لتحرير فلسطين». ولكي «لا يشتلق العدو»، هكذا قال أبو عبده الذي جعله الحماس لخطته يمشي ويتحدث بعاميته الحلبية، أي لكي لا ينتبه العدو إلى ما نقوم به، ولتوفير عنصر المباغتة الضروري لنجاح الهجوم، اقترح صاحب الخطة أن يتم التدريب والإخلاء

والتحشيد والتخزين في سرّية كاملة، وقدّر أن إتمام الإعدادات يحتاج إلى سنتين، «فإن استقلّيتم المدة»، أي إذا وجدتم أن هذه المدة غير كافية، «نجعلها ثلاث سنوات». وإمعاناً في توخي السرّية، اقترح صاحب الخطة أن تجرى الإعدادات كلّها في الليالي المظلمة التي لا قمر فيها ويلبس الجنود الزي المدني إلى أن يحين وقت الحاجة لاستبداله.

وما أن فرغ أبو عبده من عرض بنود خطته حتى جلس وركز نظره علينا نحن الحاضرين من الفلسطينيين. وقد بدا أن الرجل راغب في أن يعرف رأينا نحن بالذات فيها. وأظن أنك حزرت أنه لم يكن لدى أي منّا ما يقوله على الفور دون أن يصدم حماس الرجل أو يسيء إلى مشاعره. وقد صمتنا جميعا، حتى عبد المحسن. ويبدو أن صاحب الخطة استخلص من صمتنا أننا موافقون عليها، بل لعله ظن أن إعجابنا بها بلغ حدّ الاندهاش الذي يلجم الألسنة. وقد تابع الرجل حديثه بعد ذلك بنبرة المتحسر على فوات فرصة عظيمة، وأظهر استهجانه لموقف الملوك والرؤساء إزاء خطته: «تصوروا!»، كان قد عاد إلى الفصحى، «تصوروا يا رفاق، ملوك العرب ورؤساؤهم، ملوك ورؤساء لكل منهم اسم وهيبة وصولجان، أبوا أن يلتزموا خطتنا!» لقد استهان هؤلاء، كما روى محدثنا، استهانة شديدة بالخطة وانتهى الأمر بأنها لم تدرج على جدول الأعمال. «وقتها، قلت لهم بصراحة: أبو عبده ما جاء إلى هنا ليخون مبدأه أو ينشغل بتوافه الأمور ويضع توقيعه على كلام فارغ». وفي محاولة منه لاجتذاب زملاء القمة إلى الالتزام بشيء ما جليل، و «تسهيلاً لإمكانية الوصول إلى اتفاق محرز»، كما قال محدثنا، «عرضت عليهم أن نتعاهد سراً على تحرير فلسطين ونقسم من الآن على أن مهمة تحريرها أمانة معلقة في أعناقنا». وأعلن أبو عبده أنه يقبل، في مقابل التعهد والقسم الصريحين، بأن يصدر عن القمة البيان الذي يريده أعضاؤها مهما كان محتواه، «قلت لهم: نحن رجال، نقسم، ونصون السر، ثم نخدع العدو بأي كلام». غير أن ملوك القمة ورؤساءها رفضوا حتى هذا الاقتراح الهيّن،

«خوافون، صاحب جلالة وصاحب فخامة وصاحب سيادة وصاحب ما أدري إشو كمان، أسامي وتعظيمات، لكن في الآخر: طز! ما قيمة اللقب إن كان واحدهم يخاف حتى من إمرأة!»

حاولنا أن نستخلص شيئاً أهم من هذا عن القمة ونوايا الرئيس بشأن القمة التالية. إلا أن الرجل تابع الحديث المشتت، ولم يكن يركز الحديث على نقطة بعينها إلا حين يتعلق الأمر برغبته في إبراز تشدده هو في مقابل تهاون الآخرين. وقد لفت نظرنا أن أمين الحافظ في هجومه المتواصل على زملاء القمة استثنى منهم الملك حسين بالذات. وعندما استفسر عبد المحسن محدثنا عن رأيه في الملك الأردني، بدأ أبو عبده إجابته بالثناء على السائل والسؤال، ثم قال دون تردد: «هذا الملك، يشهد الله، رجّال».

وصف أبو عبده الملك بالصفة التي تعني عنده أن الموصوف بها شجاع ومقدام، ثم صمت لحظات أطرق خلالها بنظره كمن يفكر، وعندما رفع رأسه وجه الخطاب إلينا نحن الفلسطينيين: «تقولون الملك حسين خائن؟ أنا لم أر منه عيبا». لم نكن قد قلنا أي شيء، لكنه أسلوب أبي عبده: «تقولون جدُّه خائن؟ كلامكم على الرأس، لكني لا أضع أحداً في ذمتي. تقولون رجعي؟ كلام الحزب على رأسي. لكن الشهادة أمانة، وأنا أقولها، في الوجه والقفا، حسين رجّال».

كنت أعرف ما يدور همساً في الأوساط الضيّقة في قيادة الحزب والدولة بشأن محاولة يؤيدها أمين الحافظ لتحسين علاقات سورية بالأردن والتحالف في وجه عبد الناصر. لهذا، أردت أن أجتذب محدثنا إلى مزيد من الإفصاح، فسألته بنبرة تعمدت أن تنمّ عن عدم اقتناعي: «ما الذي أعجبك، بالتحديد، في موقف الملك وسلوكه؟» لكن ردّ فعل الرئيس أظهر أنه لا يريد أن يبوح بجديد: «بالتحديد؟ إيش يعني التحديد. قلت لكم الرجل جدع، يعني جدع. هذا هو قولي. لي رفاق عندهم قول غير هذا. أما أنا فاشهد الله أنك يا ملك يا حسين من الجدعان». كمال خالدي، وهو الذي يعرف ما أعرف، التقط مغزى محاولتي

وشاء ألا تفوت الفرصة، فدعم المحاولة: «بصراحة، أنت يا رفيق تقول كلاماً جديداً علينا، نحن لا نشك في أنك مؤمن بما تقول، لكنا بحاجة إلى ما يجعلنا نؤمن به مثلك. وهذا هو ما قصده الرفيق فيصل حين وجه سؤاله». دخول كمال على الخط نبه عبد المحسن إلى ما نحاول الوصول إليه، فشاء أن يسعف رئيس الدولة في مواجهة سعينا إلى استدراجه. ولعل عبد المحسن شاء أيضاً أن يظهر أنه واحد من الكبار الذين يجوز لهم أن يعرفوا ما لا تجوز معرفته لأمثالنا: «رفيقنا أبو عبده رئيس دولة، ورئاسة الدولة لها مسؤولياتها وأسرارها. وإذا جدّ جديد فستعرفونه حين يحين أوان الإعلان عنه». لكن الرئيس الحافظ الذي بدا أبعد ما يكون عن الانتباه إلى مناورات مجالسيه، خذل عبد المحسن. كان الرجل قد أعدّ إجابته ليخلصنا مما عدّه شكاً منا بصواب رأيه في الملك، فلم تلجمه مداخلة عبد المحسن، بل توجه نحوي مباشرة وقال: «تريد أن تعرف حتى تقتنع، عدل، هذا حقك وأنا أؤكد لك، كان الملك حسين هو الوحيد الذي جرؤ في الاجتماع على مواجهة عبد الناصر، كان حين لا يعجبه شيء يقوله عبد الناصر يفتح عينيه في وجهه على آخرهما، لا يهاب ولا يجامل ولا تخيفه هيبة الرئيس.» لقد كان هذا هو كل ما استخلصناه ونحن نتحرى سر إعجاب أبي عبده بالملك.

حين فرغنا من هذه النقطة، كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً وظهر النعاس جليّاً على عدد من الحاضرين حتى أن أحدهم - وهو إن لم تخنّي الذاكرة العقيد ثابت برّو قائد الشعبة السياسية، أي جهاز الأمن السياسي التابع لوزارة الداخلية، قد أغفى وفضحه الشخير. ولم نكن قد تطرقنا، بعد، إلى موضوع منظمة التحرير الفلسطينية ومهمة الشقيري.

ولأني احتجت إلى التوجه إلى المرحاض، فقد غادرت الصالة فوجدتني في صالة أخرى لا ينيرها إلا الضوء الباهت المتسرب من خارجها، وفيها مكتب يجلس إزاءه رجل هدّه النعاس فألقى برأسه على المكتب وأغفى. كنت بحاجة إلى من يدلني على مكان المرحاض ولم أجد غير الرجل النائم الذي تصورت

أنه موظف أبقي هنا من أجل خدمة المجتمعين. فتوجهت ناحية المكتب عازماً على إيقاظ النائم، لكن ما أن اقتربت منه حتى هبّ هو من نومه، فانتصبت أمامي القامة التي لا يمكن أن أخطئ معرفة صاحبها. كان الخارج لتوه من غفوته وهو يفرك عينيه متعجلاً استعادة اليقظة هو وزير شؤون الرئاسة الدكتور عبد الخالق النقشبندي. لقد خجلت أن أسأل رجلاً له مكانة هذا الرجل عن مكان المرحاض، لكنه هو نفسه، وقد ألف على ما يبدو ما آل إليه حاله في خدمة الرئيس، فطن لغايتي وتقدمني ليدلني على المكان. ولكم حزّ هذا في نفسي! كانت أمامي حالة تجسد ما أشكو منه: العسكر النافذون وما يفعلونه بقادة الحزب المدنيين حين يستكين هؤلاء لسطوة العسكر.

غني عن البيان أني رجعت إلى الاجتماع معكر المزاج. وكان الكلل قد حلّ بالمجلس كله. وعندما نبّه أحدهم المجتمعين إلى أن الموضوع الذي انعقد الاجتماع من أجله لم يبحث بعد، أبدى الرئيس استعداده لمتابعة الاجتماع، «إلا إذا رأى الرفاق غير ذلك». وقد انطوى الاستدراك على تحبيذ الرئيس تأجيل الاجتماع. وهذا هو ما التقطه الدكتور نور الدين الأتاسي قبل سواه: «الوقت متأخر، والموضوع يحتاج إلى وقت طويل، وبإمكان الرئاسة أن تستدعينا مرة أخرى». واستمزج الحافظ آراء الحاضرين. فحبذ هؤلاء جميعهم التأجيل، فنهض الرجل معلناً فضّ الاجتماع، وقال العبارة التي ألف أن يرددها أمام الحزبيين: «رغبة الرفاق أمر»، وبدا راضياً.

كنّا في الرابعة صباحاً. وكان مطعم أبو كمال هو الوحيد في المدينة الذي يتواصل العمل فيه ليل نهار، فتوجهنا إليه ثلاثتنا، إميل وكمال الخالدي وأنا. كنّا كلّنا مشجونين بالرغبة في إفراغ ما امتلأت به نفوسنا. وكان لا بدّ من أن نفرغ المخزون قبل أن ننام أو قل: حتى يمكن أن ننام! وما كدنا نجلس إلى المنضدة في المطعم شبه الخالي من الزوار حتى أقبل كمال ناصر وعبد المحسن. وكان صوت كمال يجلجل وهو يقتحم المطعم ببقية عبارة: «لو أن الله وهب هذا الإنسان الطيب جرعة أخرى من الفهم لصار ذلك الزعيم». فهتفت موجها

الخطاب إلى كمال ناصر الذي يجره زميله إلى منضدة تبعده عنّا: «تبحث عن بطلك، تتمنى أن يحل أمين الحافظ محل جمال عبد الناصر، هذا لن يصير!»

أصابني حديث الرجل ذي الاسم المشهور والمناصب الرفيعة بخيبة أمل. قد ينبغي أن أقول لك إن مستوى الحديث في هذا اللقاء لم يختلف عن مستوى أحاديث الرجل التي سمعتها منه في اللقاءات العامة، في خطبه أمام الجمهور أو إجاباته على أسئلة الصحافيين. غير أني ألفت أن أعزو تعابير الرجل وأفكاره البسيطة إلى قلّة خبرته، هو حديث العهد بالسلطة، في الحديث أمام جموع كبيرة، أو إلى رغبته في تجنب الإفصاح عن المواقف، أو إلى ارتباكه إزاء مناورات الصحافيين. فلما أتيح لي أن أستمع إلى الرجل في لقاء خاص دعا هو إليه وحدد موضوعاته لم يبق ثمة مجال لمغالطة النفس.

تطابق انطباع رفيقي الآخرين عن أمين الحافظ مع انطباعي. وهكذا، ما أن خلونا بعضنا إلى بعض حتى أطلقنا العنان لألسنتنا. وكانت السخرية وتأليف التشنيعات هي وسيلتنا المجربة للترويح عن النفس، خصوصاً حين يكون الهمّ ثقيلاً. وأنا هو الذي ألف أن يحور صدر بيت الشعر الشهير فيجعله لم يطل ليلي ولكن لم أنمِ! والواقع أن حديث الحافظ الذي لم أرو لكَ منه إلا شذرات قليلة قد كشف جوانب كثيرة في شخصية صاحبه وأسلوب تفكيره، مما يشجع أمثالنا على النمّ.

رحنا نستعيد العبارات والقصص التي سمعناها ونستخلص منها ما هو هزلي، أو ندخل على العبارات تحويرات قليلة فتصير هزلية. وكان ذلك اللقاء قد ملأ جعبتنا بالكثير مما يسعف في تأليف التشنيعات، فما أكثر ما ألّفنا منها! ولم يكن أي منا طيب السريرة إلى الحد الذي يفوّت فرصة مثل هذه الفرصة، فما أشد ما أفضنا في التشنيع على الرجل الطيب! وقد أمضينا ساعة ضحكنا خلالها ذلك الضحك العصبي الذي لا ينفع شيء أكثر منه في إفراغ الأعصاب المتوترة من شحنتها وتهدئتها. ولم يحتج تأليف التشنيعات

إلى الابتكار. كان يكفي أن نستحضر واحدة من عبارات الرجل كما رواها بنفسه ليبدو الأمر وكأنه ألف على لسانه تأليفاً، أو نضيف إلى العبارة كلمة أو اثنتين. أخذنا، مثلاً، قوله «إن السنغال الذين هم سنغال، تحرروا»، وهو قول ينطوي كما ترى على الاستهانة بشعب بأسره، وحورنا العبارة فصارت: «إن السنغال الذين لهم أذناب تحرروا». وفي النحو ذاته، مثلاً ايضاً، حورنا وصفه لشجاعة الفلسطيني فجعلناه «ينطح واحدهم الحيط برأسه فيخرج الرأس سالماً من طرف الحيط الثاني».

تشنيعاتنا على أمين الحافظ، هذه التي واصلنا بعد ذلك تأليف المزيد منها، شاعت شيوعاً واسعاً، تلقاها عشاق استغابة القادة وتندر أعضاء الحزب وخصومه بها، من فطن من هؤلاء إلى ما أدخلناه نحن على عبارات الرجل من تحويرات ومن تصور أن ما رويناه هو حقاً ما فاه الرجل به. ووصلت التشنيعات إلى المستهدف بها، فسجلها واحدة ضدنا. وفي أول حديث له في مناسبة عامة حلّت بعد لقائه بنا، وكان ذلك على ما أتذكر في افتتاحه لمؤتمر فرع الحزب في دمشق، هاجَمَنا أبو عبده: «يزورنا الرفاق، فنستقبلهم على الرحب والسعة، ونفتح لهم قلوبنا، ونحدثهم كما يحدث الرفيق رفيقه، فيخرجون من عندنا ويحرفون الكلم عن مواضعه، ألا ساء ما يفعلون!» وقد احتفظ أبو عبده بسماحته حتى وهو في موقع الدفاع المشروع عن النفس، وخرج عن النص المكتوب وألقى بيتي الشعر القديم الشهيرين:

وان الذي بيني وبين بنـي أبي وبين بني عمي لمختلف جـداً
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

لم يسمِّ أمين الحافظ وهو يندد بسلوكنا أياً منا باسمه. ولم يأذن لوسائل الإعلام بأن تنشر المقطع من خطابه الذي تعرض لنا فيه. وكان هذا واحداً من مظاهر ترفع الرجل عن التشهير ببني أبيه، وكان فيه ما أوجع ضمائرنا نحن الذين أسأنا إلى إنسان لم يتقصد أن يسيء إلى أيّ منا، فضلاً عن أنه طيّب السريرة وأريحيّ ومحب للفلسطينيين.

غني عن البيان أني أهملت الجامعة وشؤونها، أو قل إني أهملت الدراسة في ذلك العام أيضاً. ولعل من الأصوب أن أقول إن انشغالي بالشؤون الأخرى صرفني عن الاهتمام بالدراسة. ولك أن تعرف أن انصرافي عن الدراسة في ذلك العام كان كاملاً. وأنا، على أي حال، لم أتذكر دراستي الجامعية إلى حين اتصلت سمية بي. جاءت الصديقة إلى دمشق في وقت لا أتوقع مجيئها فيه، ففاجأني صوتها على الهاتف، فهرعتُ إلى لقائها وأنا أهجس بأنها سمعت بأني خطبت فتاة غيرها فجاءت لتتحرى الأمر، وقد انبثق السؤال من عينيها قبل أن يطلقه لسانها: «صحيح؟» سؤال وجيز تلقتْ الإجابة عليه حين أطرقت برأسي ومددت يدي لترى هي الخاتم المستقر في الإصبع. وقتها، قالت سمية: «مبروك»، كلمة واحدة، لم تعد بعدها أبداً إلى ذكر الموضوع. وتصرفتْ سمية منذ ذلك الوقت بما ينبئ برغبتها في أن نظل أصدقاء ويشي بترفعها عن توجيه اللوم، ولم تلمني إلا على إهمالي الدراسة: «كان عليك أن تدرس من أجلي، على الأقل، فمن الذي سيشرح لي موضوعات المنطق اللعينة إن لم تشرحها أنت؟!» وانبثق من داخلي شعور طاغٍ يدفعني لأن أقوم بأي عمل من أجل استرضاء سمية ويظهر أني أهتم بها: «معك الحق كله، وبإمكانك أنت أيضاً أن تساعديني، فلماذا لا ندرس المنطق معاً فيصير بإمكاني أن أتقدم إلى الامتحان في هذه المادة، على الأقل، في الدورة الأولى، لعل ذلك يشجعني على تحضير بقية المواد للدورة التالية».

لا أدري على أي محمل حملت سمية اقتراحي هذا، إلا أن الاقتراح سرها، وأضاءت على وجهها ابتسامة أخّاذة واستراحت أساريره. ولو أني طاوعت الشعور الذي تملكني في تلك اللحظة لما صارت لي شريكة حياة غير سمية.

عزمت، حقيقة، على دراسة المادة مع سمية ونويت أن أخصص جلّ وقتي لها. فصرنا نلتقي في نادي الجامعة. فعلنا هذا لبضعة أيام. غير أن الدراسة في النادي تعذرت، وما ذلك إلا لكثرة معارفي وكثرة الذين يقاطعون خلوتنا منهم، واحد يريد أن يحييني، وآخر يسأل عن أمر من الأمور الخاصة أو العامة،

وثالث ينشد مساعدة، ورابع راغب في مناقشة شأن من شؤون الحزب أو السياسة، وخامس، وسادس، بلا انقطاع. وكانت سمية تخصّ كل واحد بابتسامة ما أو بعبارة مجاملة وتصبّر نفسها. لكن، بعد أن زادت المقاطعات عن أي حد محتمل، عاود سمية انقباض الوجه وكفّت حتى عن توجيه نظرة إلى من يقاطعنا. ثم جاءت لحظة طوت فيها سمية دفتي كتابها وقالت: «كفى!»

اقترحت أن ننقل لقاءاتنا إلى مقرّ فرع الاتحاد. كنت أعرف هواجس سمية، هي التي تخشى التردد على الفرع حتى لا تحسب من المهتمين بالسياسة أو يظن أحد أنها واقعة تحت نفوذ البعثيين، فعرضت اقتراحي وأضفتُ أني لا أتشبث به إن كان عندها اقتراح غيره. ولما لم يكن عند سمية ما تقترحه، فقد قبل اقتراحي وإن على مضض. كان مقرّ الفرع غاصّاً بالطلبة الذين تتوزعهم الحجرات والباحة. فاستثمرتُ دالتي، أنا الرئيس السابق للفرع، واستخدمت الحجرة الوحيدة الخالية، وهي الحجرة التي يستخدمها أعضاء أمانة الفرع كمكتب لهم. هنا، نشأت مشكلة جديدة، إذ تكررت المقاطعات وانضاف إليها رنين الهاتف والمحادثات التي لا بدّ منها والتي يجريها كثيرون.

لم نمض في هذه الحجرة أكثر من ساعة. بعدها، قالت سمية التي لم يبارح الانقباض وجهها: «أريد قهوة، استخدم نفوذك، ولتكن ثقيلة!» وما أن جاءت القهوة، حتى طوت هي الكتاب ووضعته في حقيبتها، ثم انتزعت من انقباضها ابتسامة وقالت بنبرة يائسة: «أردتَ أن تبين لي أن صداقتنا متينة، شكراً لك، الأمر واضح بالنسبة لي، الصداقة شيء وتوفير الظروف لتلبية متطلباتها شيء آخر». وإزاء صمتي، انتزعت سمية قهقهة قصيرة، ثم قالت بنبرة لها وقع هذه القهقهة: «لا تستغرب أن أتفلسف، ألست طالبة فلسفة، ولا تحاول إقناعي، فأنا لم أدرس المنطق بعد!»

وبهذا، انتهى مشروعي لمعاودة الاهتمام بالدراسة.

٦ تلاحقني الهواجس فأتوجه للجزائر

مع استمرار مشكلة الشعبة والقطيعة بينها وبين قيادة الحزب، بقي وضعنا في الحزب مبلبلاً، لا معلقين ولا مطلقين. ومنذ عرفنا نبأ تكليف القيادة عضوها العقيد عبد الكريم الجندي معالجة المشكلة، تعاملنا مع النبأ بجدية وشرعنا في إعادة ترتيب الحسابات. فالعقيد من طينة تختلف عن طينة الذين تصدوا لمعالجة المشكلة قبله. فهو عسكري ذو نفوذ، وهو من القادة المعتادين على تحمل المسؤوليات. وقد اشتهر العقيد بقدرته على تأدية عمل كثير ومتابعة ما يتولاه من مهام مهما ارتفع عددها وتداخلت ميادينها.

والواقع أننا هيأنا أنفسنا للّقاء مع هذا القائد كأننا مقبلون على معركة لا بد من التدرب على خوضها. وقد انصرفنا في سياق الاستعداد للمعركة إلى جمع أقصى ما يمكن جمعه من معلومات عن شخصية عبد الكريم الجندي وأساليب عمله وتكتيكاته. استعنّا بشتى المصادر، ولجأنا إلى الذين يعرفون العقيد من قادة كتلتنا ونشيطيها. ثم وزعنا المهامّ على أنفسنا، وخصّصنا لكل واحد من نشيطي الشعبة موضوعاً يُعدُّ له أقوى عدّة حتى يتولى الحديث عنه في اللقاء المرتقب.

أجمع الذين استشرناهم بشأن عبد الكريم الجندي على أن لهذا الإنسان شخصية مركبة. رجل اندفاعي غير هيّاب، وقد يبدو أهوج، وذلك في بعض

الحالات، وحيسوب يطيل البحث والترصد ويتقن المناورة ولا يقدم إلا بعد أن يضمن النجاح، وذلك في حالات أخرى. شجاع هو ومفتون بالشجعان، يحبّهم ويحترمهم، غير أنه قد يثور حتى لأتفه سبب فيفتك بمستفزِّه، وقد يخفي غلّه ويعدّ انتقامه على مهل. نزيه هو وصادق في معظم الأحوال، لكنه لا يتورع في أحوال أخرى عن الختل، كما لا يتورع عن الجور على أحد إن اعتقد أن هذا الأحد من الذين يستحقون أن يجار عليهم. محمد بصل الذي يعرف عبد الكريم الجندي معرفة جيدة قدم هذا الوصف: يسلك العقيد في الجيش سلوك الحزبي الذي يسعى لتثقيف العسكر بفكر الحزب وغرس الروح الحزبية بينهم، ويسلك في الحزب بروحية العسكري الذي يعلي شأن الانضباط ويصرّ على أن يلتزم الحزبيون أوامر قادتهم حتى لو لم تكن محبَّذة. ومحمد هو الذي دعانا إلى الحذر: لم يتصدّ هذا الرجل للمهمة لو لم يكن واثقاً من قدرته على بلوغ ما يريد.

اتصل مدير مكتب العقيد في القيادة القطرية بعمر خليفة وابلغ إليه موعداً يحدده العقيد للاجتماع مع أعضاء الشعبة كلهم. وأبلغ مدير المكتب إلى عمر نصّ الدعوة الرسمية إلى الاجتماع، بل أملاه عليه. صيغت الدعوة بعبارات محكمة، وأظهرت أن العقيد خصص الاجتماع ليطلع أعضاء الشعبة على سياسة الحزب ويشرح الواجبات المنوطة بهم في مجال تنفيذ هذه السياسة. وشدد النص على ضرورة ألا يتغيب أي عضو عن الاجتماع. كل هذا دون أن يرد في النص ما يشير إلى أي مشكلة، لا تصريحاً ولا تلميحاً. ولم يفتنا، بالطبع، أن نستخلص مغزى النص: لقد بدأ العقيد بالساخن.

ناقشت حلقتنا الصغيرة نص الدعوة بإمعان. وتقرر في نهاية المناقشة أن نتجاوز ما في النص من استفزاز. ورأينا أن في مستطاعنا فرض مناقشة مشكلة الشعبة في الاجتماع فرضاً، واتفقنا على أن نرفض الانتقال إلى مناقشة أي موضوع آخر قبل الفراغ من مناقشتها. وأعدنا تدقيق خططنا، وعدلنا ما احتاج منها إلى تعديل، وأضفنا إلى استعداداتنا الاستعداد لتطويق

أي آراء شاذة ومنع العقيد من إخافة الحاضرين. ألم أقل لك إننا تهيأنا للقاء كأننا ذاهبون إلى معركة!

جئنا جميعنا إلى مقر القيادة القطرية، حيث تقرر ان نلتقي بالعقيد، في الموعد المحدد. واكتظت ردهات المقر بجمعنا فتحاشرنا فيها. أما القاعة المخصصة للاجتماع فكانت مغلقة. وعندما طلبنا أن تُفتح القاعة، قيل إن الأوامر تقضي بأن لا تفتح ما لم يصل الرفيق أبو حسين، أي العقيد. ولدهشتنا، لم يجيء الرجل المشهور بانضباطه، لا في الموعد المحدد ولا بعده. وانصرفت ساعة ثم أخرى دون أن يظهر العقيد أو يتصل بالهاتف. وقد استخلصنا أن العازم على تطويعنا تعمد أن يتأخر، وأغلب الظن أنه أراد أن يختبر قدرتنا على الاحتمال، وربما أراد أن يزعزع معنوياتنا أيضاً. وبعد التشاور، كتب عمر احتجاجاً سلمه إلى مدير المكتب مسجلاً على عضو القيادة تخلفه عن الموعد واستهانته بالرفاق، وقررنا أن ننصرف. وقتها، وقتها، فقط، رجانا هذا الموظف أن نمهله بضع دقائق، ودخل إحدى الحجرات، ثم رجع ليقول عن الرفيق المنتظر سيصل خلال لحظات، وفتح باب القاعة.

بدل السادسة مساء، كما كان مقرراً من قبل، بدأ الاجتماع في الثامنة والنصف. كنّا قد توزعنا مقاعد القاعة حين ظهر عبد الكريم الجندي. دخل العقيد القاعة المكتظة بحركة ناشطة وتوجه إلى المنصة فوراً، وخلع قفازيه بحركة لا يتقنها إلا العسكريون، ثم خلع معطف الجبردين العسكري الأنيق وعلقه على ظهر الكرسي المخصص لرئيس الجلسة، وبعدها، بعدها فقط، وجه نظره ناحيتنا وهتف: «مساء الخير» وجلس.

أتانا عبد الكريم الجندي، إذاً، بكامل الأبهة التي يتسلح الضباط بها لإظهار سطوتهم والتأثير في النفوس. ولا شك في أن هذه البداية قد أحدثت بعض ما توخاه صاحبها من تأثير، وقد تجلى تأثيرها في ردّ الحاضرين الفوري على التحية، إذ أن هذا الرد جاء جماعياً وبنبرة متسقة، حتى يمكن مضاهاته برد

التلاميذ على تحية أستاذهم، ثم تجلى ثانية في مسلك عمر خليفة، فعمر الذي هو كما صرت تعرف رئيس الجلسة حسب نظام الحزب، وصل إلى المنصة بعد العقيد، وكان العقيد قد شغل المقعد المخصص للرئيس فلم يطالب عمر بالانتقال إلى المقعد المجاور بل جلس هو عليه. لكن التأثير الذي توخاه العقيد لم يستمر لأكثر من لحظات. ففيما عدا ذلك، تصرف الجميع خلال الجلسة دون تهيب. وقد تماسك عمر بسرعة، فدعا مقرر الجلسة إلى شغل مكانه على المنصة. ولما شاء العقيد أن يشرع في الكلام فوراً، تدخل عمر وطلب منه أن يتريث إلى أن تفتح الجلسة رسمياً ويؤذن له بالكلام. ثم وقف عمر ووقفنا نحن كما تقضي مراسم افتتاح الجلسات في حزب البعث، وهتف بشعار الحزب «أمّة عربية واحدة» فهتفنا بعده: «ذات رسالة خالدة». وبذا، بدأت الجلسة رسمياً.

تكلم عمر مستخدماً نبرة روتينية صرفة، فأعلن متعمداً بهذا أن يرد على ما جاء في الدعوة إلى الاجتماع، أن هذه جلسة خاصة تعقدها الشعبة بحضور عضو القيادة القطرية الرفيق عبد الكريم الجندي. وقال عمر إن قيادة الشعبة أعدت للجلسة مشروع جدول أعمال، وشرع في تلاوة هذا المشروع: «أزمة الحزب وانعكاسها على العلاقة بين شعبة فلسطين وقيادة الحزب»، وكان هذا هو البند الأول في المشروع، وقد طلب عمر التصويت عليه فارتفعت الأيدي بالموافقة. ثم قرأ عمر البند الثاني: «الإجراءات غير النظامية التي اتخذتها قيادة الحزب ضد عدد من أعضاء الشعبة». وقبل أن يتم التصويت على هذا البند، انفجر سخط العقيد فقاطع عمر بنبرة مقرعة: «أي أزمة وأي إجراءات. تركت مشاغلي الكثيرة وجئت إليكم من لوائي، كان عندي عمل طول النهار، وما زال عندي عمل كثير، وليس لدي وقت أضيعه في السفسطة. أقصى ما أملكه من الوقت ساعتان. عندي كلمتان أقولهما لكم، وأسمع منكم بإيجاز، فإذا رغبتم...».

تحدث العقيد بدون إذن. فوقفت أنا ورسمت بيديّ الإشارة التي تعني أني

أطلب التحدث حول نقطة تتعلق بنظام الجلسات، وهذا يوجب على رئيس الجلسة أن يعطيني الأولوية في الكلام. وقد أذن لي عمر بالتحدث فيما كان العقيد مستمراً في رمينا بسخطه. فقاطعت العقيد وقلت موجهاً خطابي إلى عمر: «أسجل على رئاسة الجلسة مخالفتها الصريحة للنظام وتغاضيها عن تحدث مندوب القيادة دون إذن وقبل الفراغ من إقرار جدول الأعمال». هذه الملاحظة ساءت العقيد بالطبع فهمّ بمقاطعتي، غير أن عمر أشار إليه كي يصمت، ثم رد على ملاحظتي: «تقبل الرئاسة الملاحظة وتعتذر، وتتعهد أن تتحرى التزام النظام وتمنع المخالفات».

لم يؤخذ عبد الكريم الجندي بمناورتنا الصغيرة هذه، بل عاود الحديث بغير إذن، فتصديت له آخذاً عليه إمعانه في مخالفة النظام. وتدخل عمر طالباً منّا نحن الاثنين أن نلتزم النظام فنصمت، فصرنا ثلاثتنا نتحدث في وقت واحد. ولم يلبث أن دخل آخرون على الخط، فاختلط الزعيق بالعبارات المنمقة بالتعقيبات المستنكرة، وعمّ الصخب. وصار على العقيد أن يختار بين أن تفرط الجلسة أو تسير وفق النظام. وقد صمت العقيد. وأفلح عمر في استعادة الهدوء وشاء أن نستمر في مناقشة بنود جدول الأعمال. وما أن أعاد عمر تلاوة البند الثاني حتى خرج العقيد عن صمته وتحدث مرة أخرى بغير إذن. فتدخلت أنا على الفور، ورفعت صوتي كما رفعت درجة الاستفزاز: «يبدو أن رفيقنا مندوب القيادة معتاد على اجتماعات الضباط حيث يصمت الأدنى رتبة. أيها الرفاق: نحن في حزب ولسنا في ثكنة». وفيما أنا ماض في التحريض، قاسني عبد الكريم الجندي بعينين يقظتين. وما أن فرغت من الإدلاء بملاحظتي حتى هتف: «إذا كنت تفهم النظام برفع اليد لطلب الحديث فإني أرفع يديّ الاثنتين!»

ليس من حقي أن أثقل عليك بهذه التفاصيل، وإذا ذكرت بعضها فلأنها ترسم صورة الجو الذي أصفه، حيث تستأثر الماحكات حول التفاصيل بمعظم الوقت وجل الاهتمام. كنّا نعارك لنؤكد على أهمية حضورنا في مواجهة حضور القائد الحزبي والعسكري. وكان هو يخشى أن يلزمه هؤلاء الأولاد

الانضباط فيتغلبوا عليه بأكثريتهم وتماسكهم وخبرتهم بنظام الحزب. وهكذا انقضت الساعتان اللتان قال العقيد إنه لا يملك من الوقت سواهما ونحن ما نزال نتماحك. فبعد جدول الأعمال، ثار الجدل حول حكاية الساعتين هذه.

والواقع أني تدخلت أيضاً في هذه النقطة. فقلت ان رفيقنا عضو القيادة تأخر عن موعد الجلسة أكثر من ساعتين ثم جاء ليحصر مناقشة أزمة الحزب، وعمرها عشرات السنين، في وقت أقصر من الوقت الذي ضيّعه بتأخره. ثم تساءلت، مواصلاً نهج السخرية والاستفزاز، عما إذا لم يكن من الأجدى، إذاً، تأجيل الاجتماع بانتظار أن يتوفر لعضو القيادة الوقت الكافي للاستماع إلينا. وفي مداخلة تالية، بعد أن تشبث العقيد بقصر الاجتماع على ساعتين، دعوت إلى تسمية الأشياء بأسمائها، وقلت إن في الاجتماع موقفين: واحداً يتبناه أكثر من ستين عضواً ويعكس الرغبة في إجراء مناقشة عميقة، وثانياً يتبناه شخص واحد هو عضو القيادة. وأمعنت في السخرية، فقلت إن هذا الشخص يتصور أن أعضاء الحزب رعيّة لقادته فليس لهم سوى أن ينصتوا ويقبلوا ما يملى عليهم. ثم دعوت إلى أن يحسم أعضاء الشعبة الأمر، فإمّا أن تنتظم الجلسة بحيث توضع اليد على الجراح المؤلمة وإمّا أن ينصرف كل منّا إلى شأنه. وكررت القول: «نحن في حزب ولسنا في ثكنة»، ثم أضفت إننا إزاء امتحان نجيب فيه على هذا السؤال: هل الحزب منظمة ديمقراطية أم وحدة عسكرية وهل نحن مناضلون ثوريون أم جنود ينصاعون لأوامر ضابطهم؟ وختمت المداخلة بالغاً بها ذروة الإستثارة بهذا الهتاف: «نحن لسنا إمّعات ولا نحن من الذين تخيفهم النجوم التي على أكتاف الضباط». فلما غمر التصفيق القاعة، تشجعتُ فقلت إن ما يخيفنا هو، كذلك، السياسات الخاطئة التي يندفع قادتنا فيها والتي يزينها لهم منظرون كذّابون ومنافقون وهو نتائج هذه السياسات وأثرها الضار، وما نطالب به هو حقّنا في تصحيح الأخطاء.

لم يكن عبد الكريم الجندي قليل الفطنة. ولا بدّ من أنه استخلص مغزى

التصفيق الجماعي الذي قوطعت به مداخلتي أكثر من مرة، كما لا بدّ من أنه رأى نفسه إزاء فريق يصعب اختراق تماسكه كما يصعب استرضاؤه أو إخافته بالأساليب المألوفة. ولن أنسى رد فعل الرجل في تلك اللحظة: انتزع العقيد عن كتفيه الشارات الدالة على رتبته العسكرية وألقى بها وراء ظهره، وخلع السترة وشمر كميّ القميص، وذلك كله في هدوء وفيما العيون تراقبه، ثم توجه بالكلام إلى عمر: «لا عسكر ولا ضباط. إننا رفاق فليفتح كل منّا قلبه. تريدون وقتاً غير محدود، فلتستمر الجلسة حتى الصباح!»

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف حين أعلن عضو القيادة هذا الاستسلام. ولم تستمر جلستنا حتى الصباح فقط، بل امتدت حتى الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم التالي. وهكذا، اتصل الحوار الجاد على مدى خمسة عشر ساعة ولم ينقطع حتى خلال الاستراحات القصيرة التي منحنا عمر واحدة منها كل بضع ساعات.

وكما اقتضت خطتنا المسبقة، تحدث كمال الخالدي وفتحي موسى عن أزمة الحزب الفكرية، منشئها، وأسبابها، وظواهرها، وانعكاساتها على وضع الحزب، وعن مقاومة اليمين لمحاولات التطوير واضطهاده لأصحابها. لم تبق نقطة إلا تناولها المتحدثان بإسهاب وجرأة: عمومية المنطلقات الفكرية، غموض الشعارات وقصورها عن أن تكون بنوداً لنظريةٍ لحزب ثوري، تخلف الأفكار والشعارات عن روح العصر، وتأثير التخلف في مجال تطويب زعامة «الأستاذ» وأبوته للحزب والحزبيين، وتعارض هذا مع الحاجة إلى حزب قادر على تولي أعباء الحكم والنهوض به، وما إلى هذا مما هو بأهميته أو أهمّ منه. تتابع الإثنان على الكلام حول الأزمة الفكرية، واستغرق حديثاهما خمس ساعات. ثم جاء دوري فاستغرق حديثي أربع ساعات ونصف ساعة.

تناولت أنا، وذلك أيضاً حسب خطتنا المسبقة، الوجه السياسي للأزمة وتطوراتها على الصعيد العملي منذ تأسيس الحزب. وقد أسهبت في عرض الوقائع

وإيراد الأمثلة التي تظهر كم صار وجه الحزب مبغوضاً من الجمهور وتضع اليد على المخاطر التي ستنجم من استمرار الأزمة بغير معالجة. تحدثت عن تشويه الديمقراطية في الحزب بعد تغييبها عن الجمهور، ووضعت اليد على الصلة بين العمليتين، وبينت كيف يبهت اهتمام القيادة بالوسائل الديمقراطية فيما يشتد الاتكاء على أساليب المناورة والتحايل والمؤامرات. وقلت إن الأمر ليس أمر إغفال الديمقراطية بل تعمد تغييبها وهذا لا يفضي إلا إلى الديكتاتورية. وتحدثت عن العفوية والارتجالية، عن الجهل بالتخطيط والمزاجية في التنفيذ وما يؤديان إليه من تخبط في إدارة شؤون البلد. تحدثت عن استفحال سطوة القيادة على أعضاء الحزب، عن إنتقائية التعامل، عن إحلال معيار الولاء للقادة محل معيار الولاء للقضية المشتركة، عن استبعاد العناصر الكفوءة والمناضلة وتقريب المنافقين. وتبسطت في إظهار مضارّ ما فعله عفلق مع العراق: كيف غذّى الحزب بروح العداء للشيوعية، كيف بارك المذابح التي استهدفت الشيوعيين وغيرهم من أنصار عهد عبد الكريم قاسم، كيف سلط سخطه بعد هذا على اليساريين البعثيين، وكيف أدت سياسته في نهاية المطاف إلى تدمير سلطة الحزب كلها في العراق لحساب تكريس نفوذ اليمين والرجعية والعسكر المتحالفين معهما. وتطرقت بصراحة تامة إلى ما نشهده من تأييد القطريين، وعبد الكريم الجندي واحد من قادتهم، لمواقف عفلق وما يوفرونه له من حماية، وبينت كيف يتناقض هذا السلوك مع ميل هؤلاء إلى اليسار. وقلت للعقيد إننا ندرك أن مآخذكم على عفلق لا تقلّ عن مآخذنا، لكنكم تتحالفون معه لإزاحة كتلة اليسار، تبرزونه في واجهة الحملة على اليسار فيتحمل مسؤولية تصفيته في الحزب، فتجيئون أنتم بأيد تظنونها نظيفة وتقدمون أنفسكم بوصفكم حلاً للأزمة. وصفت هذا السلوك بأنه خاطئ وضار فضلاً عن أنه انتهازي. وتحدثت عن تسلط العسكر على الحزب والدولة، ونددت بالتمييز بين عسكري ومدني في الحزب. وتطرقت لمظاهر الفساد واستغلال السلطة، وتنبأت بأن هذه المظاهر التي تبدو الآن صغيرة سوف تكبر وسيتسع

نطاقها مع استمرار الوجوه الأخرى للأزمة. وتبسطت في عرض ملاحظاتي حول السياسات المحلية والعربية والدولية. فتحدثت عن تغييب مؤسسات التمثيل الديمقراطي، وعن استفزاز الحزب وسلطته للقوى التقدمية بدل التوجه إلى اجتذابها وتفاقم الموقف المعادي للشيوعية وإضافة العداء للناصرية إليه وبينت مقدار ارتباك الإجراءات الاقتصادية وتعثر إجراءات تطبيق الإصلاح الزراعي وضعف الاهتمام بالتصنيع. تحدثت عن عزلة سورية عن محيطها العربي واستمرار السياسة التي تكرس العزلة. تحدثت عن الاتكاء على الشعارات المزايدة حين يتعلق الأمر بقضية فلسطين وإهمال الاستعداد الذي لا بدّ منه لإسناد أي شعار. تحدثت عن تخبط المواقف إزاء القمة العربية ومؤتمراتها وكيف أدى التخبط إلى تبهيت دور سورية في القمة بدل أن تتولى دوراً رائداً هي، في واقع الأمر، أهل له لو اتبعت سياسة صحيحة. وفي حديثي عن الصعيد الدولي، تطرقت إلى ما أراه من تباينات بين ما يعلنه الحزب وما يفعله: التباين بين الدعوة إلى التعاون مع الاتحاد السوفييتي وبين الموقف من الشيوعية والشيوعيين؛ التباين بين القول بأن العلاقة مع السوفييت استراتيجية وبين قصر التعاون معهم على استيراد السلاح؛ التباين بين صبّ أقسى الشعارات ضد الإمبريالية وبين الاستمرار في استيراد معظم حاجات سورية من دولها.

حين شرعت في الكلام، كان في نيتي التركيز على نقاط بعينها هي النقاط التي يعنينا أن يعرف مندوب القيادة موقف الشعبة منها. فلما اندفعت في الكلام، تدفقت الأفكار وفاضت المشاعر وتدفقت معها الوقائع المختزنة في الذاكرة وفاضت. سالت العبارات من تلقاء نفسها فعكست ما أؤمن به أو أعاني منه، بصدق وبغير تزويق، وشملت كل شيء. وكنت، وأنا أتحدث في هذا النحو، أحس بأني أتخفف من الأثقال التي يعنيني حملها وأني أبرئ ذمتي. ولا بد، إذاً، من أن نبرة الصدق كانت هي أميز ما ميّز حديثي الطويل.

أصغى عبد الكريم الجندي إلى حديثي كلّه بانتباه وبدون مقاطعة، تماماً كما فعل أعضاء الشعبة. وأظن أن الجميع، بمن فيهم العارفون بما انتويت قوله، قد فتنوا بالحديث، فتنهم في المقام الأول ما تميز الحديث به من صراحة وصدق.

وعندما فرغت من الكلام وتوجه عمر إلى الأعضاء سائلاً عما إذا كان أي منهم راغباً في التعقيب، بقي الصمت هو المهيمن. فرفع عمر الجلسة للاستراحة وهرع إلي متعجلاً التعبير عن رضاه: «قلت كلّ ما في نفوسنا». وفي الاستراحة، اقتربت أنا من العقيد، وكان قد انتحى ركناً في أحد الممرات ووقف يشرب الشاي، ويتبادل الحديث مع الذين التفّوا حوله، ومددت يدي للمصافحة فاستجاب واستبقى اليد بين يديه. وكان في هذه الاستجابة ما شجعني على التبسط مع عضو القيادة فقلت فوراً بغير مقدمات: «لعبتكم مع عفلق مكشوفة، أنتم معه اليوم للتخلص من الآخرين، وغداً يجيء دوره، فلماذا لا نختصر الطريق ونتعاون!؟» ولم أدرك أني بالغت في التبسط مع العقيد إلا حين عانيت رد فعله، فقد بدا كمن لُسع فأفلت يدي وجأر: «هذا كلام خبيث. أنا أضع صرماية الأمين العام على رأسي». والصرماية، إن كنت تجهل هذه اللفظة العامية، هي الحذاء. وكان في تعجل العقيد الرد على ملاحظتي بنزق ما أكد لي صوابها، فوضعتُ على شفتي ابتسامة العارف ببواطن الأمور حين ينكرها عارف آخر بها، وقلت بنبرة تظهر تسامحي مع العقيد إزاء تكذيبه لي: «لعبتكم مكشوفة، أقول هذا وأصرّ عليه، ولننتظر ما تجيء به الأيام!»

سيقول عبد الكريم الجندي عني بعد هذا اللقاء الأول به وسيكرر القول كلما اقتضى الأمر: «فيصل من صنف نادر، إنه صادق وشجاع، يفصح عن رأيه ويجهر بما في قلبه، في الوجه، فلا يمكن أن يكون متآمراً». أما في ذلك الوقت الذي واجهت فيه الرجل المسؤول بتهمة المراوغة ورميته بما يعرف هو أنه فيه دون أن يجرؤ على الإقرار، فقد تشدد في نفي التهمة وبالغ في إظهار الاحترام لعفلق والاستياء مني.

بعد عودتنا إلى القاعة، تكلم إميل صبيح فاستغرق حديثه ساعتين. كان إميل مكلفاً وفق خطتنا بأن يستعرض مشكلة الشعبة مع قيادة الحزب وما نطالب به أو نقترحه من أجل حلّها. وبولعه بالتفاصيل، لم يترك المولع أيضاً بالمماحكة شاردة أو واردة إلا عرضها وأمعن في استقصاء مدلولاتها. وبالولع ذاته، بسط إميل المطالب، فذكر المطالب العامة وابرز إصرارنا على تعزيز خصوصية المنظمة الفلسطينية داخل الحزب، وقال إننا نتطلع إلى أن يجمع الحزب أعضاءه الفلسطينيين كلهم، أينما وجدوا، في تنظيم واحد له قيادة قطرية على غرار ما هو قائم بالنسبة للأقطار العربية. وعدد إميل المطالب الخاصة وأكد على إصرارنا على إلغاء قرار حظر السفر المفروض على عدد من الحزبيين وضمان عدم تدخل وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في شؤون المنظمة الفلسطينية الطالبية، ثم قال وهو يوجه الخطاب إلى مندوب القيادة: «بصراحة يا رفيق، لن يصفو الجو بين الشعبة والقيادة قبل أن تُلبّى مطالبنا».

كانت تلك من جانبنا هي الكلمات الرئيسة، وقد تخللها أو تبعها كلمات أخرى ركز أصحابها على موضوع بعينه أو أضاءوا نقطة أو أثنوا على رأي أو طرحوا أسئلة. وقد عكست الكلمات جميعها موقف الأغلبية بوضوح ليس بعده وضوح. أما الأقلية فلم يتحدث من جانبها أحد.

غاب كمال ناصر عن الاجتماع ولعله كان وقتها خارج البلد، كما غاب يوسف الخطيب. أما عبد المحسن فقد حضر جانباً من الاجتماع ثم غادر بدعوى الحاجة إلى إلقاء النظرة الأخيرة على عدد الجريدة قبل الشروع في طبعه ولم يعد، ولعله لم يتصور أن يكون الاجتماع قد امتد إلى ما بعد منتصف الليل. وصمت أحمد مرعشلي، ولعله استحضر ذكرى ورطته في الاجتماع السابق فاتبع قاعدة أن الصمت من ذهب. وصمت الآخرون من الموالين للقيادة. وعندما تحريت سر صمت أحمد لا لشيء إلا بدافع حثّه على الإدلاء بدلوه، تبسم الصديق الذي أختلف معه في الرأي تلك الابتسامة التي تظهر لعارفه أنه

يتعمد التهرب ثم قال: «الكل شعب عربي طيّب، أليس كذلك يا رفيق!» أما عبد المحسن الذي سألته في اليوم التالي عن سر صمته فقد أظهر حنقاً سافراً: «ما الذي تريده، أن تضعني في مواجهة عصابة الأولاد هذه؟!»

بدل إصغاء العقيد لكلماتنا الانطباع السلبي الذي خلفه سلوكه في بداية الجلسة. وعندما جاء دور عضو القيادة ليدلي هو الآخر بما عنده، كان الجو قد صار ممهداً للإصغاء إليه دون ضغينة.

تجنب العقيد أن يرد على أطروحاتنا رداً مباشراً أو ينساق إلى المهاترة. والواقع أن الرجل قدم رواية تفصيلية للوقائع التي اقترنت بعملية إنشاء التنظيم العسكري في الجيش ودور هذا التنظيم في جلب الحزب إلى السلطة واتساق نشاطه مع توجيهات قيادة الحزب، فأظهر بهذا مقدار ما تكبده عسكريو الحزب من معاناة وما واجهوه من أخطار وما أقدموا عليه من تضحيات مثلما أظهر حرصهم على الولاء للقيادة الحزبية. وفي عرض للتطورات، ركز الرجل خصوصاً على الوقائع التي له صلة شخصية بها، فبدا حديثه أقرب إلى الشهادة وجاء مشوقاً. تحدث العقيد عن علاقته بالحزب منذ كان هو شاباً إلى أن وصل إلى لجنة الضباط وكيف أسهم هو في تأسيسها. قال ان تأسيس اللجنة بدأ في عهد وحدة سورية ومصر بعد أن نقلت سلطات الوحدة عدداً كبيراً من الضباط البعثيين السوريين إلى مصر بهدف إبعادهم عن مواقع التأثير. وروى العقيد وقائع الإعداد لثورة آذار/مارس وما عقدته لجنة الضباط من تحالفات مع القوى الأخرى في سياق الإعداد للانقلاب على عهد الانفصال. ثم تحدث الرجل عن وقائع الأيام الأولى التي تلت الانقلاب، عن الصراع مع الناصريين الذين اشتركوا فيه على مواقع النفوذ، عن تشكيل حكومة الثورة الأولى وتعقيداته، عن التعيينات للمناصب العليا في الجيش، عن المناقشات التي جرت عند وضع الخطط والسياسات، وعن تضارب الآراء بشأن كل منها. وبهذا كلّه، قدم العقيد حكاية في منتهى الأهمية، بأسلوب

جذاب، بل شديد الجاذبية؛ لم يعرض آراء، ولم يرد على آراء، لكن وجهة نظره تسربت من تلقاء نفسها عبر الحكاية المشوقة فجاء هذا كلّه بمثابة رد على آرائنا دون أن يبدو أن الرجل تقصد الرد.

وعلي أن أقرّ بأن عبد الكريم الجندي كسب الكثير بحديثه وظفر بثقة حاضرين كثيرين أقنعهم هذا الحديث بأن محدثهم حسن النية وأنه متميز عن غيره من القادة الذين خبروهم قبله. وتمكن الرجل من أن يستثير في الحاضرين حس التمييز بين ما هو طموح وما هو ممكن، وكذلك التمييز بين قصور ينجم من قلة الخبرة فيظل تلافيه ممكناً وقصور ينجم من سوء النيّة. وكسب الرجل احترام سامعيه لأنه لم يتورط في نفي ما أورده المتحدثون باسمهم من وقائع تماماً كما أنه لم يصادق عليه. أما المطالب فلم يشر الرجل إليها في حديثه هذا، فلا احتاج إلى أن يلزم نفسه أي وعود بشأنها ولا تورط في رفضها.

تابعت حديث عضو القيادة بانتباه شديد، وحرصت في الوقت ذاته على تقصي مظاهر تأثر الحاضرين به. وقد تكوّن لدي منذ ذلك اللقاء الانطباع الذي راح يتعزز بعد ذلك بأن هذا القائد قادر على اجتذاب كثيرين من رفاقي في الشعبة إليه، وعازم عزماً قوياً على المضيّ في هذا السبيل. وقد لاحظت خلال النقاش الذي دار حول حديث عبد الكريم الجندي أن معظم ملاحظات رفاق الشعبة جاء بمثابة استفسارات تستقصي التفاصيل. وإذا اشتمل النقاش على انتقادات فقد اتخذت الانتقادات صيغة يتمنى أصحابها بها على العقيد أن يستخدم وزنه وصلاحياته لتحقيق هذا المطلب أو غيره. لم يقل أحد إنه بدّل قناعاته بعد استماعه إلى الحديث، ولم يعلن أحد أن الحديث أطفأ ما لديه من هواجس، إلا أن شيئاً ما، شيئاً تستشعره دون أن تلمسه، شيئاً يتصل بالموقف من العقيد، هو الذي وشى بأن تبديلاً ما قد حصل. لم يعد القائد الماثل أمام أعضاء الشعبة ذلك الخصم الذي استعدوا للعراك معه، لقد صار شيئاً اقرب إلى الحليف المأمول، إن لم يكن قد صار حليفاً ينخاه أعضاء الشعبة لحل

مشكلتهم. وهذا هو ما فطنت أنا إليه وإلى مغزاه، ولعلي كنت الوحيد الذي فطن إليهما. ويبدو أن إميل فطن هو الآخر إلى شيء ما، فقد طلب الكلام وأشار إلى خلو حديث مندوب القيادة من التعرض للنقاط التي أثرناها والمطالب التي عددناها. وقال إميل إن الكلام الطيب ليس كافياً وحده لحل المشاكل. وإذا كان كلام إميل قد أعاد شيئاً من الاعتبار لمطالب الشعبة، فإن صيغة حديثه هو نفسه عن هذه المطالب في آخر الجلسة اختلفت كلية عن الصيغة التي استخدمها في إبّانها.

وعندما فرغ الجميع من تعقيباتهم على الحديث، أشار عبد الكريم الجندي إلي وقال بنبرة مستريحة: «لم نسمع تعقيب رفيقنا فيصل». وسألني عمر الذي يعرف أني لن أتحدث إلا إذا تلقيت الإذن منه هو رئيس الجلسة عما إذا كان لدي ما أقوله فوقفت وتحدثت بإيقاع توخيت أن لا يكون سريعاً، وقلت إننا سمعنا كلاماً فلتدعمه الأفعال. وكررت القول إننا لسنا إمعات. وأضفت أننا لسنا من الذين يأكل الكلام الحلو عقولهم أو تفتنهم الحكايات المنمقة، تماماً كما أننا لسنا من المتشنجين. وختمت تعقيبي الوجيز بأني «أتصور أني أعبر عن رأي الأغلبية حين أعلن أن موقف الشعبة سوف يتحدد في ضوء استجابة القيادة لمطالبها».

كان هذا منّي عزفاً على وتر ما زال حساساً إلا أنه لم تعد له الحساسية ذاتها التي كانت قبل قليل. وكما استخلصت أنا هذه النتيجة، كان عبد الكريم الجندي على ما بدا لي قد استخلصها هو الآخر. فهو لم ينفعل بسبب كلامي، بل تبسم وقال مباسطاً الجميع: «حين نتصرف تصرف الرفاق الذين يجمعهم ميدان واحد ونتعاون فإننا نصنع المعجزات، المعجزات التي تريدونها أنتم والتي تريدها القيادة».

وهكذا، بثّ الرجل دعوته غير المباشرة إلى المصالحة دون أن يلزم نفسه أو قيادته أي التزام.

وبعدها، بعدها، فقط، تساءل العقيد: «ألا تقولون لي ما هو العاجل من طلباتكم؟» فتولى عمر الرد. كان تأثر عمر بحديث عضو القيادة عميقاً، فقال بنبرة افتقرت إلى الحزم: «يصعب ان يستعيد أي منّا حماسه للتعاون مع القيادة ما لم تؤكد هي من جانبها على أنها تعاملنا دون تمييز». وبعد هذه الفذلكة، لم يتذكر أمين سر الشعبة من مطالبها إلا مطلب إلغاء حظر السفر.

عندها، كتب العقيد شيئاً على ورقة وطوى الورقة ووضعها في جيب قميصه، ثم قال: «أكذب إن تعهدت الآن أن الأمر سيحل فوراً، فما أنا إلا عضو في قيادة جماعية، ثم إن الحظر صدر عن القيادة القومية وليس عن قيادتنا القطرية، لكن أعدكم بعرض الموضوع على القيادة».

أدلى العقيد بوعده، ثم بسط ذراعيه بحركة متوددة وسأل وهو يبتسم: «هل تأذنون الآن لعسكري ترك ثكنته أطول من اللازم بأن يعود إلى واجباته؟» وبالطبع، لم ينتظر العقيد صدور أي إذن، بل وقف لتوه ولوّح تلويحة وداع، ثم بحث عن شارات رتبته التي سبق له أن ألقاها خلفه ووضعها في جيب بنطاله، ثم لبس سترته وألقى المعطف على كتفيه، ثم لوح بتلويحة وداع ثانية وكرر التلويح مرات عدّة. وكان الأعضاء كلهم قد وقفوا في هذه الأثناء دون أن يبرح أي منهم مقعده، ويبدو أن طول انتظارهم أشعر العقيد بأن عليه أن يودعهم بكلمة فلا يكتفي بالتلويح وهكذا ارتفع صوته في القاعة.

رجا العقيد سامعيه أن لا يحسبوه من الذين يؤثرون العمل العسكري على العمل الحزبي، وقال إن الواجب عنده هو الواجب، الواجب الحزبي مثل الواجب العسكري، وأعلن أنه يتبع قاعدة يراها ذهبية، «فأنا في الجيش حزبي وفي الحزب عسكري، الإخلاص والانضباط أولاً، وكل شيء آخر يجيء بعدهما».

هذه الكلمات حركت أكفّ الأعضاء بالتصفيق. وعندما غادر الرجل القاعة كان فيها من لا زال يصفق. وصار علي أنا أن أنتبه إلى هذا وأتمعن في مغزاه، ولم أكن سعيداً بما انتبهت إليه.

حظي لقاؤنا بالعقيد عبد الكريم الجندي بشهرة لم يحظ بمثلها أي لقاء عقدناه مع أي قائد غيره. روج معارضو القيادة أنباء اللقاء كما روجها الموالون أيضاً. المعارضون أبرزوا وقائع تحدي أعضاء الشعبة للعقيد وجرأتهم في الانتقاد وكفاءتهم في تشخيص أزمة الحزب وتشبثهم بمطالبهم. والموالون وصفوا الجوّ الإيجابي الذي طغى على الحساسيات القديمة وروح الانضباط التي سادت الاجتماع، وركزوا حديثهم على ديمقراطية مندوب القيادة في سلوكه وسعة صدره وهو يستمع إلى الاتهامات، وأشادوا بالنتائج. وللتأكيد على صحة كل من الرؤيتين المتباينتين، استخدم كل فريق الواقعة ذاتها، وهي أشهر ما ذاع نبأه من وقائع اللقاء: طول الجلسة غير المألوف.

في هذه الأثناء، فيما تنوعت ردود الفعل وانداحت على نطاق واسع، راح ما استخلصته أنا يتفاعل في داخلي: ماذا لو أفلحت القيادة في اجتذاب الآخرين دون تلبية مطالبنا الكبيرة؟ ونما لديّ الإحساس بأني أعارض بدوافع أعمق جذرية من دوافع غيري. ومع هذا الإحساس، نبتت الأسئلة، أو قل: نبتت الهواجس: هل يجيء وقت أبقى فيه في الميدان وحدي؟ وما الذي يمنع أن تتكرر في شعبة فلسطين التراجعات والإنهيارات التي وقعت في منظمات أخرى؟ وما الذي سيحميني إن انهارت قوة كتلتنا حتى في الشعبة؟ وإذا لم يبق إلا أن أحمل السلّم بالعرض وحدي فهل من الضروري أن أبقى في الساحة، وما الذي يُلزمني البقاء فيها؟

وحين نقل إلينا بعد أيام ما قاله عبد الكريم الجندي عن أعضاء الشعبة من أنهم صعبون لكنه سيشتريهم واحداً واحداً، تحسست رأسي واضطرمت الهواجس: هذا رجل لا يطلق الكلمات في الهواء!

على صعيد آخر، اندفع أحمد الشقيري في إنجاز المهمة التي أوكلت إليه من قبل مؤتمر القمة العربية الأول. أنت تعرف أن القمة الأولى أوكلت إلى الزعيم الفلسطيني مهمة دراسة إمكانية تنظيم شعب فلسطين وتقديم تقرير بهذا

الشأن إلى القمة التالية. وأنت تعرف دون شك أن الشقيري لم يتقيد بحدود المهمة، وعندما انعقدت القمة الثانية كانت م.ت.ف. قد أنشئت وصار لها ميثاق ونظام أساسي وعلم وهيئات ودوائر وكان الشقيري قد اختير من قبل المؤتمر الوطني الفلسطيني الذي أسس المنظمة رئيساً لها. ولا بدّ من أنك تعرف أيضاً أن أوساطاً فلسطينية كثيرة عارضت الشقيري لسبب أو لغيره، وأن الأردن تحفظ إزاء إنشاء المنظمة، وأن موقف السعودية اتسم بالتشدد في معارضة الشقيري، فيما تراوح الموقف السوري بين المعارضة والتأييد، للرجل ومهمته. وقد ينبغي أن تعرف أن الجدل احتدم بين البعثيين حول هذا الموضوع وامتزج بجدلهم المستمر حول مؤتمرات القمة العربية.

تفاوتت آراء البعثيين وتباينت، وخصوصاً بشأن الشقيري وتصدره العمل لإنشاء المنظمة ورئاسته هو لها. وفي وقت طلب الشقيري فيه أن يزور سورية، استدعينا إلى القصر الجمهوري مرة ثانية وضمنا الاجتماع ذاته الذي ضمنا في المرة السابقة برئاسة أمين الحافظ. وكان علينا نحن الذين دعينا بصفتنا خبراء في الشأن الفلسطيني أن نقدم تصورنا للوضع على الساحة الفلسطينية ومواقف ناسها من الشقيري. وقد تناوبنا، كمال الخالدي وإميل وأنا، وصف واقع الساحة وتقديرنا للموقف. وأعلن الرئيس الحافظ أن هذا تقدير جيد وأثنى علينا، ثم فتح الباب للمناقشة.

بادر عبد المحسن أبو ميزر إلى الكلام، وروى أن الشقيري اتصل به وبكمال ناصر عارضاً أن يضم واحداً منهما أو كليهما إن اقتضى الأمر إلى اللجنة التنفيذية التي تقود م.ت.ف. وذلك إذا ساعد الاثنان في حمل سورية على دعم المنظمة وكفّ اعتراضاتها. واستخلص عبد المحسن من هذا العرض أن نوايا الشقيري إزاء الحزب وحكمه طيّبة، وقال إن الشقيري راغب في تحقيق توازن بين البعث وعبد الناصر ومحتاج إلى مساعدة الطرفين. هذا الاستخلاص لم يتسق مع قناعات أغلب الحاضرين. وقد تدخلت أنا فدعوت إلى عدم الخلط بين حاجة الشقيري لعلاقات طبيعية مع سورية وبين موقفه الشخصي من

حزب البعث ونظامه. ولا بدّ من أن عبد المحسن أدرك أنه تورط في إظهار رضى زائد عن الشقيري، إذ أنه لم يلبث أن استدرك الأمر، فقال إن ما ذكره هو تلخيص أمين لما سمعه من الشقيري وأنه قام بدور «محامي الشيطان» من أجل توضيح الأمور ليس أكثر. إلا أن الاستدراك وقد تم بهذه الفجاجة، وكذلك وصف الشقيري ضمناً بأنه شيطان لم يروقا لأحد من الحاضرين. وقد ارتبك عبد المحسن إزاء رد الفعل السلبي على كلامه، ولم يهتد إلى ما يستطيع قوله بعد هذا. فتدخل كمال ناصر لإسعاف صديقه. لم يؤكد كمال ناصر حكاية عرض الشقيري تعيين أي منهما في قيادة المنظمة، ولم ينف الحكاية، بل اكتفى بأن حثّ الرفاق على أن يعرفوا آراء الزعيم الفلسطيني قبل إصدار حكمهم عليه.

مرة أخرى تناوبنا، نحن ثلاثة الشعبة، الحديث فأكمل أحدنا الآخر. وفي وصفنا لردود الفعل المرتقبة على زيارة الشقيري، أجمعنا على أن الساحة الفلسطينية مسيّرة بتأثير عاملين: الرغبة في إعادة بناء الكيان الوطني والحماس لعبد الناصر. وذكرنا أن تأييد عبد الناصر لإعادة بناء الكيان ومساندته للشقيري من شأنهما أن يضمنا لمؤسس م.ت.ف. دعم معظم الجمهور الفلسطيني له أينما حلّ، ولن يدقق الناس العاديون في التفصيلات التي يدقق فيها ناس النخب المعارضة للشقيري. ورأينا أنه في حكم المؤكد عليه أن يحظى الشقيري بتأييد كاسح من الفلسطينيين المقيمين في سورية. كما رأينا أن بُغض غالبية الفلسطينيين لنظام البعث سيجعلها تبالغ في إظهار التأييد بمقدار ما يزيد البعثيون انتقاداتهم للرجل. وعرضنا رأينا في الترتيبات التي أتمها الشقيري حتى ذلك الوقت، في التحالفات التي عقدها والهيئات التي أقامها. وبيّنا أن بعض ترتيبات الشقيري انطلق من اعتبارات جهوية أو عشائرية كما انطلق بعضها من الحاجة لمراعاة هذا النظام العربي أو ذاك. وقلنا إن هذه جميعها اعتبارات متخلفة وغير ثورية لا تتفق مع المقاييس التي يعتمدها أمثالنا. ولكن الجمهور لن يتوقف عند طبيعة الاعتبار، بل إنه سوف

يقبل النتائج وذلك، على الأقل، على أساس أن «ليس بالإمكان أبدع مما كان».
وفي ختام حديثي أنا، قلت إننا إزاء تباين واضح، فمن الضروري أن يدعم الحزب منظمة التحرير، غير أن الموكلين بالمنظمة لا ينتهجون أفضل السبل، فلا بد، إذاً، من الضغط عليهم. ودعوت إلى ممارسة الضغط على أن لا يبلغ حدّ القطيعة ولا يؤدي إلى إضعاف المنظمة.

استمرت المداولات لساعات عديدة، واستقصيت التفاصيل. ونوقش هاجس مسؤولي أجهزة الأمن الذين يخشون أن يؤدي حلول الشقيري في أماكن التجمع الفلسطينية إلى تحركات مناهضة للحزب وسلطته. ثم جرى تلخيص هذا كلّه، فجاء التلخيص مطابقاً تقريباً لما اقترحناه نحن ثلاثة الشعبة: تساند سورية منظمة التحرير وتضغط على الشقيري وفريقه في اتجاه حثهم على الموازنة بين البعث وعبد الناصر.

كان أمين الحافظ يردد كلمة جيد كلما أضاء أي واحد منا نحن الثلاثة نقطة جديدة. نسي الرجل اساءتنا السابقة إليه، أو نسي أننا نحن المتسببون بها وثابر على الثناء على آرائنا. وقد لفت نظري أن صلاح جديد بقي صامتاً طيلة الوقت وأنه لم يكفّ عن تأملنا بهدوء. كان هذا الرجل واحداً من أهم الحاضرين وكان، هو الضابط العسكري، الزعيم الفعلي للكتلة التي سميت كتلة القطريين. وقد ركز جديد إنتباهه علينا نحن ثلاثة الشعبة، إلا أن ملامح وجهه التي يتحكم بتعبيراتها لم تفصح عن أي انطباع سلبي أو إيجابي إزاءنا. وعندما فرغنا من المناقشة وبدا أن الاجتماع على وشك أن ينفضّ، لاحظت كيف راح الدكتور نور الدين الأتاسي يتبادل مع صلاح جديد حديثاً هاماً وهو ينظر ناحيتنا غير مخف بهذا أن الحديث يدور حولنا. وقبل أن ينفض الاجتماع، تذكر الرئيس الحافظ أننا لم نناقش ما ينبغي عمله للشقيري الذي سيصل غداً إلى البلاد، فتجددت المناقشة، ووضعنا اقتراحات وأبدى الحافظ إعجابه باقتراحاتنا وكرر ثناءه علينا وصادق الحاضرون على ما اقترحناه. ووفق ما صودق عليه، تقرر أن يجرى للشقيري القادم من ناحية لبنان استقبال بروتوكولي

على الحدود حيث يتصدر محافظ لواء دمشق المستقبلين ومعه مدير المراسم في وزارة الخارجية. وعند وصول الشقيري إلى فندق أميّة الذي يحل فيه في دمشق يجرى له، كما تقرر في الاجتماع، استقبال آخر يشترك فيه أعضاء قيادة شعبة فلسطين. وتقرر ألا يستقبل الرئيس الحافظ رئيس المنظمة إلا في آخر أيّام الزيارة، حتى يتجنب رئيس الدولة البت بالمطالب التي سيتقدم بها الشقيري، وذلك بدعوى أنه هو رئيس الدولة سيعرضها على القيادة لدراستها. قلنا أن تأخير اللقاء يوفر الفرصة لإعادة تقييم الموقف، ولا يمنع الحافظ من أن يؤكد لرئيس م.ت.ف. على أن سورية تدعم المنظمة. واتفقنا على أن الاستجابة لمطالب الشقيري ستتحدد في ضوء سلوكه، وليس ثمة حاجة للعجلة.

وقبل أن نغادر القصر، عرض الدكتور نور الدين الأتاسي أن يستضيفنا نحن الثلاثة على العشاء؛ قال إنه لا يحس الرغبة في النوم ويسعده أن نتبادل الحديث خارج الاجتماعات الرسمية. وأدركنا أن لدى الرجل وفريقه جديداً يقوله هو لنا فاستجبنا للدعوة. ولم يلبث أن احتوانا دفء المطعم المألوف.

هنا، تحدث الدكتور نور الدين بصفته الرفيق الصديق الذي يفتح قلبه لنا. أوجز المتحدث، وهو عضو القيادة القطرية، ما جاء في تقرير العقيد عبد الكريم الجندي إلى القيادة عن لقائه بنا، وأبرز قول العقيد إن في شعبة فلسطين كوادر متقدمة خبيرة ومتمرسة في النضال وحثّه القيادة على عدم التفريط بنا. وقال الدكتور الأتاسي إن القيادة راغبة في الاستجابة لمطالب الشعبة وأن القرار بإطلاق يدنا في فرع اتحاد الطلاب وتقديم العون للفرع قد أتخذ. أما قرار حظر السفر الصادر عن القيادة القومية فإنهم سيعملون في القيادة القطرية كل ما بوسعهم لحمل القيادة القومية على إلغائه. بعد هذا، جاء الدكتور الأتاسي إلى ما بدا لنا أنه سبب حرصه على الاختلاء بنا، فقال إنه راغب في حضور اجتماع مع الشعبة من أجل استكمال التصافي بينها وبين القيادة وتعزيز الجوّ الإيجابي الذي حققه اللقاء مع زميله العقيد. وقال الدكتور الأتاسي إنه متردد في الحضور، ولن يحسم أمره إلا إذا تعهدنا نحن

الثلاثة أن نقوم من جانبنا بما يلزم لإنهاء المشكلة. «أنا صديقكم»، قالها محدثنا، «ولا أريد أي سوء تفاهم».

ما أشد ما تضاربت مشاعري في هذا اللقاء. لقد أظهر الرجل نوايا طيّبة لا يمكن إنكارها، غير أن الأمر لم يتعدّ ذلك، وحديثه، على ما فيه من تودد، لا يلغي واقع الحال في الحزب والدولة الذي نشكو منه. وقد رحب زميلاي إميل وكمال خالدي باقتراح محدثنا؛ صحيح أنهما كررا القول بضرورة حل مشكلة حظر السفر قبل إتمام المصالحة، لكن ميلهما الواضح إلى إتمامها كان هو الأبرز. ومرة أخرى بدا لي أنّي قد أظل أجذف وحدي. كنت الوحيد بين الثلاثة الذي استهدفه قرار الحظر وأحسست أني صرت عقبة في وجه مصالحة يرغب فيها الجميع. وكان لا بدّ من أن أجاري زميليّ في الترحيب باقتراح الدكتور نور الدين. فليس من المريح لي أن أتحول إلى «مبوظ» فرح تنتصب زيناته أمام ناظريّ. كما أنه ليس من اليسير أن أواصل العناد وحدي وأنا أرى كيف ينحلّ عناد الآخرين. ووجدتني أفكر: ها هم الرفاق الذين تكاتفت معهم على وشك المضيّ في طريق أكاد أرى خاتمته ولا يجتذبني ما فيه. كان علي بالطبع أن أشكر هؤلاء الرفاق لإصرارهم على رفع الحظر عنّي، لكني لم أجد ما يكفي من الأسباب لتبديل الموقف من قيادة الحزب، فنحن لم نناوئ القيادة من أجل مطلب كهذا المطلب. وقد أوجعني إحساس غامض يشبه إحساسك بوجع داخلي تعجز عن تحديد مصدره. ولا بدّ أن الدكتور نور الدين استشعر في صمتي شيئاً ما غير مواتٍ لخطته، ولعله تصور أني متخوف من عدم إلغاء حظر السفر، فقد وجه الخطاب إلي وقال بنبرة من يعد نفسه من الذين يمونون علي: «ستكون في الاجتماع، وستلجم لسانك، فهذا مما يساعد على تحريرك من الحظر!» ووجدتني أبتسم، امتزج تأثير المرارة المختزنة بالميل إلى الاستكانة ببقايا العناد: «لك ما تشاء يا دكتور، ساعدّ طلبك هذا نصيحة طبيب!» كان محدثي طبيباً وكنت أنا المريض الذي يصف له طبيبه حمية فيعد باتباعها وهو غير واثق مما إذا كان قادراً على اتباع الحمية حقاً.

أرقتني الهواجس بقية تلك الليلة. فشغلت نفسي بالقراءة كعادتي كلما أرقت. ولم أذهب إلى الفراش إلا في الصباح. ولم أنهض إلا قرابة الثانية بعد الظهر. ولما استمعت إلى نشرة الأخبار التي تبثها إذاعة دمشق في الثانية والربع، حمل إلي نبأ النشرة الأول ما أدهشني، إذ أنه أعلن أن الرئيس أمين الحافظ استقبل الأستاذ أحمد الشقيري فور وصول الزائر إلى دمشق وأبلغ إليه تأييد سورية الكامل لمساعيه واستعدادهم لتقديم ما يلزم من العون. كان هذا، كما ترى، مخالفاً لما اتفقنا عليه مخالفة النقيض لنقيضه، فصار من شأنه أن عزز إحساسي بالكآبة.

إن من لا يعرف أمين الحافظ ولا يعرف طبائع البعثيين لن يفهم أبداً لماذا جمع رئيس دولة سورية أركان الدولة والحزب الحاكم واستقدمنا نحن بصفتنا خبراء واستمع إلى الجميع ووافق على قرارهم، وذلك كله في المساء، ثم لماذا خالف الرجل ذاته القرار في الصباح. وان يتعهد الرئيس للشقيري الاستجابة لمطالبه ويجزل له الوعود لا يعني بالضرورة أن الوعود ستنفذ كما لا يعني أنها لن تنفذ. وأغلب الظن أن أريحية أمين الحافظ المتأصلة فيه هي التي جعلته يأمر بإحضار الزائر إليه فور وصوله. ولا بدّ من أن فصاحة لغة الشقيري المشهود له بها قد أحدثت تأثيرها العميق على القائد المغرم بالفصحى. أما تنفيذ الوعود فكان مرهوناً بعوامل عديدة، متداخلة ومتباينة، وهي عوامل لا يتحكم بها أمين الحافظ وحده ولا يبدلها تقلب مزاجه.

وأيا كان الأمر، فإن الاجتماع الذي اقترح الدكتور نور الدين عقده ظلّ في البال لكن موعده تأخر. طرأت تطورات متلاحقة شغلت الجميع. سقطت حكومة وتشكلت أخرى. وشغل الدكتور نور الدين منصب نائب الرئيس في الحكومة الجديدة. وصار عبد الكريم الجندي وزيراً لوزارتين: الداخلية إلى جانب الإصلاح الزراعي. وتابع الشقيري أعمال إنشاء مؤسسات م.ت.ف. في كل مكان، وأنشأ مكتباً لها في دمشق عيّن له مديراً ترضى عنه سلطات سورية وضم إليه بعض البعثيين أو الذين في حكمهم. وانشغلت أنا بهذه

التطورات، مؤيداً أو معارضاً، وساخطاً في معظم الأحوال.

في هذه الأثناء، لم يبارحني الإحساس بتميز مواقفي عن مواقف بقية أعضاء الشعبة، ولا بارحني الخوف من أن يتخلى الرفاق عني ذات يوم. ومع اشتداد الهواجس نبتت الرغبة في مغادرة سورية. وأجج استمرار حظر السفر هذه الرغبة حتى طغت على ما عداها. فكل ممنوع مرغوب، أنت تعرف، وولعي بالتحدي هو الذي جعل رغبتي في السفر طاغية. وأغلب ظني أن هذه الرغبة ما كانت لتتحول إلى هاجس متحكم لولا الحظر ولولا نزعة التحدي المزمنة التي طالما عنتني.

لم أحدد جهة بعينها أتطلع إلى التوجه إليها. ولكن الصدفة وحدها هي التي حددت الجهة. فقد حمل إلي البريد رسالة من الجزائر أرسلها صديقي وزميلي في تأسيس عرب فلسطين صبحي عرب. كان صبحي، الذي هو من أصل جزائري، قد توجه إلى الجزائر قبل سنة محمولاً بالحماس للثورة التي تكللت باستقلال البلد. وقد أقام صبحي في العاصمة الجزائرية مدرساً لمادة اللغة العربية في كلية المعلمين وانتسب في الوقت ذاته إلى كلية الحقوق. وقد ضمن صبحي رسالته وصفاً طيباً للحياة في الجزائر، واقترح علي أن أجيء إليها، وقال إن ما حمله على الكتابة هو معرفته بوجود بعثة من وزارة التعليم الجزائرية تعتزم التوجه إلى دمشق للتعاقد مع معلمين ووجود واحد من أصدقائه في هذه البعثة. وقد تحدث صبحي مع هذا الصديق بشأن التعاقد معي فما علي إلا أن أحزم أمري فأجد الطريق ممهدة. وما هي سوى أيام حتى وصلت البعثة إلى دمشق واتصل صديق صبحي بي، وحصلت على عقد العمل، وأبلغ اسمي إلى شركة الطيران السورية لتنقلني في واحدة من رحلاتها الخاصة التي تحمل المعلمين إلى الجزائر.

استحوذ أمر إلغاء حظر السفر، إذاً، على اهتمامي كلّه في تلك الفترة. وشئت أن أقطع طريق التراجع، فقدمت استقالتي من عملي في الأونروا، وطلبت من

الخطيبة أن تستعد للاحتفال بزواجنا فور تمكني من الحصول على تأشيرة الخروج لكيّ ترافقني. وعندما انعقد الاجتماع المرتقب مع الدكتور نور الدين، كانت العلاقة بين الشعبة والقيادة القطرية قد قطعت شوطاً ملموساً في مسارها الطبيعي، وكانت وعود الدكتور بحلّ مشكلتي قد توالت فشجعتني على تهيئة نفسي للسفر. ولا أكتمك أني، أنا المعتزّ بكبريائي حدّ التزمت، قد حثثت رفاق الشعبة وقتها على التشدد في المطالب بحلّ مشكلتي. وفي الاجتماع، بدا كأن مشكلة حظر السفر هي المشكلة الساخنة الوحيدة التي ما تزال عالقة وأنها هي التي يتركز عليها الاهتمام. وقد تضامن رفاق الشعبة جميعهم معي، وبضمنهم الموالون منهم للقيادة. عرف هؤلاء مني أن آخر رحلة لنقل المعلمين ستقوم بعد بضعة أيام وأنها فرصتي الأخيرة، فتشددوا. ومن جانبه، أظهر الدكتور نور الدين سماحة زائدة، فأعلن أنه يأخذ الأمر على عاتقه بالرغم من قرار القيادة القومية، وتعهد أمام الشعبة أن أحصل أنا على وثيقة السفر وتأشيرة الخروج قبل رحلة الطائرة الأخيرة، وطلب منّي أمام الجميع أن أجيء إليه في مكتبه ظهر اليوم التالي، وقال: «لن تخرج من عندي إلا وأنت مسرور».

وفي مكتبه، في سرايا الحكومة، في المرجة، لقيت من الدكتور نور الدين معاملة كريمة؛ أُدخلت عليه فور وصولي، واستقبلني بمودة، ثم استدعى إليه العقيد عبد الكريم الجندي الذي يقع مكتبه بوصفه وزيراً للداخلية في المبنى ذاته، وطلب من العقيد بحضوري أن يصدر أمره بمنحي وثيقة السفر وتأشيرة الخروج على الفور.

عندما دخل العقيد مكتب رئيسه فوجئ بوجودي فيه لكنه حيّاني بمودة، فلما عرف سرّ استدعائه العاجل، صمت لحظات، ثم نظر إلي وأطال النظر، ولا بدّ أنه قلّب الأمر على وجوهه المختلفة، ثم قال لي إنه يعزني كثيراً ويود لو أن بإمكانه حل مشكلتي لأنه مؤمن بأني لا أستحق إلا أطيب معاملة. وبعدها، وجه العقيد خطابه إلى نائب رئيس الحكومة فذكّره بأن قرار الحظر صدر عن القيادة القومية وهي وحدها المخولة بإلغائه، أما هو وزير الداخلية فمنفذ لقرار

القيادة الحزبية العليا وإن كان غير مقتنع بصوابه، «صرماية القيادة على رأسي»، ردد العقيد عبارته الأثيرة، «وأنا لا أستطيع أن أخالف قرارها».

ردّ العقيد أسخط الدكتور نور الدين فأخرجه السخط عن تأدبة المعهود، بل جعله يخالف أمامه ما يلتزمه هو وقادة كتلته من تجنب التعريض بالقيادة العفلقية، فقال محاججاً رفيقه في قيادة الكتلة: «هل ترضى حقاً بأن يصير واحد... مثل غنام مسؤولاً عن تقرير مصير فيصل حوراني، وهل تصدق أنه مؤهل لهذا». كان صاحب هذا الاسم الذي ذكره الدكتور نور الدين مقروناً بصفة وضيعة طالباً من أصل سعودي تخرج من الجامعة حديثاً وهيأ ميشيل عفلق له فرصة الظفر بعضوية القيادة القومية ليحل فيها محل عبد الرحمن منيف الذي خرج منها. وكان صاحب هذا الاسم مشهوراً في الوسط الحزبي بأنه من أعضاء القيادة المستزلمين لعفلق، وكان مضرباً للمثل كلما اقتضت الحاجة أن يشار إلى قليلي الشأن الذين لا يخالفون عفلق في أي حال من الأحوال. لم يدافع العقيد عن علي غنام، ولم يبد عليه أن ملاحظة الدكتور نور الدين قد أسخطته، بل إنه بزّ رفيقه في التأكيد على مغزى الملاحظة «على غنام وغيره في القيادة القومية». «كثيرون، لكنها قيادة قومية وصرمايتها على راسي». أورد العقيد بصيغة الجمع الصفة الوضيعة التي ذكرها الدكتور نور الدين بصيغة المفرد، ولكنه وضع يده فعلاً على رأسه.

تحرج الموقف: نائب رئيس الحكومة وتحسبُّه إزاء عجزه عن الوفاء بوعد قاطع أدلى به أمام أعضاء الشعبة كلهم. ووزير الداخلية الذي لا يتعفف عن نعت أعضاء في القيادة القومية بأقبح النعوت فيما يظهر استعداده لوضع صرمايتها على رأسه. وأنا المسكون بالهواجس. وحلّ الصمت. وفجأة، بدا أن فكرة ما قد برقت في ذهن الدكتور نور الدين، فنظر ناحية العقيد وسأله بجدّية: «هل ترفض تسهيل سفر فيصل لأنك لا تريد له أن يسافر أم لمجرد الالتزام بقرار جهة أعلى؟» وبدا لي العقيد صادقاً حين أكد من جديد على أنه لا يكن لي إلا أطيب المشاعر. عندها، قال الدكتور نور الدين: «نحلُّها بيننا، إذاً، بما يعفيك

من المسؤولية إزاء القيادة، وأتحمل أنا هذه المسؤولية». وهذا هو ما كان: كتب نائب رئيس الحكومة أمراً موجهاً منه إلى وزير الداخلية كي يسهل سفري. وقرأ العقيد الأمر، فانبسطت أساريره، وهتف: «هذا، أيضاً، على راسي».

صحبني عبد الكريم الجندي إلى مكتبه وشاء أن يجادلني هناك على مستوى آخر. وتبسط في الحديث. حاول العقيد أن يثنيني عن السفر، دلّل على فطنته حين قال إن الحظر هو الذي حفزني على التحدي، ثم أضاف إن عليّ أن أتروى ما دام الحظر قد زال، وحذرني من أنني ألقي بنفسي إلى عالم لا أعرفه وأضيّع ما أنا فيه وأخسر المكانة التي حققتها بجهدي. «لا تظن أنك الوحيد الذي يشكو» قالها العقيد بنبرة ملغزة، وسأل بالنبرة ذاتها: «لماذا لا تصبر كما نصبر نحن حتى تتبدل الأحوال؟» التقطت مغزى النبرة الملغزة، لكن هذا لم يجعل توقي إلى الخلاص أقل، فأنا لا أعترض في الحزب على عفلق وجماعته وحدهما. وكرر العقيد المحاولة، ومضى إلى أكثر من التلميح: «النضال الداخلي في الحزب محتاج إلى أمثالك». وأمعنت أنا في التشبث برغبتي. كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر وهو موعد انصراف الموظفين. لفتّ نظر العقيد إلى هذا، فتعجل كتابة شيء على ورقة، وناولني الورقة: «اذهب بها إلى المسؤول المناوب في مديرية الهجرة والجوازات رأسا»، وودعني عند الباب.

وهكذا لم أتأكد من توفر الفرصة إلا قبل يوم واحد فقط من آخر موعد متاح للمغادرة إلى الجزائر. وكان من المتعذر، إذاً، إقامة احتفال زواج، خصوصاً أني احتجت للساعات الباقية كلها من أجل الحصول على تذاكر السفر وتوديع الذين لا مناص من توديعهم وإعداد الحقائب وما إلى ذلك مما لا بدّ منه. وفي الموعد المحدد، توجهت بصحبة الخطيبة إلى المطار، وقد رافقنا حشد من الأهل والأصدقاء.

وبعدما أتممنا الإجراءات وتأكد لي أن اسمي قد رفع حقاً من قائمة الممنوعين، انتقلت والخطيبة إلى صالة الترانزيت، وكانت هذه في مطار المزة مجرد حجرة

كبيرة فصلت عن بهو المطار بحيطان زجاجية، فكان بإمكان المودعين والمسافرين أن يرى بعضهم بعضاً ويتبادلوا الإشارات عبر الزجاج.

وقفنا، الخطيبة وأنا، على جانب، واحتشد الأهل والأصحاب على الجانب الآخر. وفي هذا الوضع، نقل كل منا الخاتم من يد إلى اليد الأخرى، وصفق الأهل والأصدقاء، ولوحوا بإشارات التهنئة، وصرنا زوجين. ثم جاء من دعانا إلى التوجه إلى الطائرة.

والآن علي أن أقرّ لك بأمرٍ حتى وأنا أخشى أن تعدني موسوساً فتضحك مني أو تحزن علي. فأنا لم أشعر بالاطمئنان حتى حين صرت داخل الطائرة. ولم يبارحني القلق إلا بعد أن رأيت بعيني أننا نطير فوق البحر، أي أننا ابتعدنا عن الأجواء السورية فلم يعد بمقدور أحد أن يمنعني من متابعة السفر. وعليّ ان أقرّ بأمر آخر، فزوال الخشية من احتباسي في البلد أفسح المجال لهمّ جديد داهمني وأنا معلق بين الأرض والسماء: هل كانت هذه هي حقاً الخطوة الصائبة. داهمني هذا الهم وتعاقبت الأسئلة. هل انبثق خوفي من البقاء في المعمعان وحيداً من تصورات صحيحة أم أن الهواجس ركبتني بتأثير خطر السفر وأني أجزت لنفسي أن أميز نفسي عن الآخرين دون وجه حق؟ هل أنا حقاً الأصلب والأشد ثباتاً، أم أن هذا تبجح لا يجيزه لا واقع حالي ولا واقع حال غيري؟ هل أنا هارب لأن متطلبات المواجهة أقوى من الإمكانيات أم لأني أنا ضعيف؟ ألم ينطو رد فعلي على خشيتي أنا نفسي من ضعفي، من أن أسقط كغيري في غواية المغريات التي توفرها السلطة؟ وما الذي يعنيه هذا، هل أنا حقاً ذلك الطهري المتشبث بطهريته أم الخائف منها؟

٧ أفرّ من شيء فلا أقع إلا على مثله

تناوشتني الأسئلة منذ انفككت مما حسبته قيداً، فصادرت متعتي بما تصورت أنه الخلاص. وزاد الطين بلّةً أن رحلتي الأولى بالطائرة هذه لم تكن مريحة.

كان خريف العام ١٩٦٤ عاصفاً، ماطراً ومبرقاً ومرعداً. وكنا في اليوم الأخير من تشرين الأول/أكتوبر. وكانت مطيتنا طائرة عتيقة من نوع دي سي ٤. وكانت مقاعد الطائرة مشغولة بكاملها بحيث لم يبق مقاعد لجلوس المضيفين. وكان مخزن الحقائب قد طفح فشغلت الحقائب الفائضة ممر صالة الركاب وضيقت فرص الحركة فيها. وظلت الطائرة تترجرج فتنخلع قلوب الركاب أو تهوي في مطبّ هوائي فيكاد يغمى عليهم. دام هذا البلاء عشر ساعات. وحتى حين توقفت الطائرة في مطار أثينا للتزود بالوقود، لم تكن هذه استراحة. فالركاب لم يؤذن لهم بمغادرة الطائرة، بل توجب عليهم أن يعانوا أيضاً من فساد الهواء لأن مكيفات الهواء توقفت مع توقف المحركات.

خلال هذه الرحلة، مرض الجميع، وفتك الدوار والغثيان بالركاب وقذف معظمهم ما في جوفه مرة أو مرات. لم ينج من هذا الفتك إلا راكب واحد هو أنا. ويبدو أني نجوت لأني اضطررت إلى تشديد يقظتي حتى أتمكن من العناية بزوجتي. فقد داهم الدوار والغثيان رفيقة السفر منذ بداية الرحلة ولم تتحرر من فتكهما

حتى بعد انتهائها. وفي منتصف الرحلة، وكنّا فوق البحر بين ساحل أوروبا وبين ساحل أفريقيا، بلغ ضيق المضيفتين بالخدمة المستمرة ذروته، فساءت معاملتهما للركاب وتباطأت الاستجابة لطلباتهم. وكان ما يزال أمامنا ساعتان لنبلغ الجزائر عندما أبلغ إلينا أن ما تحمله الطائرة مما هو مخصص لإسعاف الركاب قد نفذ كلّه: الأكياس التي تتلقى ما يقذفه الركاب، وورق النظافة، والحبوب المضادة للغثيان، والمنعشات. وعدّت المضيفتان المجهدتان والساخطتان نفاذ المواد سبباً للتوقف عن أداء الخدمات، وتدبرت كل منهما ركناً صغيراً خالياً وجلست على أرض الطائرة، ثم لم تلبثا أن غرقتا في النوم. وحين بلغت رحلة الطائرة نهايتها في ذلك الجو العاصف، جاء الهبوط مروّعاً، فانطفأ آخر ما في الأجساد من همّة، وحطّ الركاب على الأرض وهم أقرب إلى الأموات منهم إلى الأحياء وفاتهم التمتع بلحظة الظفر بالنجاة. وبين الجميع، كان حال زوجتي هو الأسوأ. ولأن المرأة التي هدّها الإعياء عجزت عن هبوط سلم الطائرة بنفسها، فقد توجب علي أن أحملها على ظهري الذي تفتك به آلام الروماتيزم.

وبحالي هذا، وحملي، وطأت أرض الجزائر.

وجدنا ناساً كثيرين في استقبالنا. جاء هؤلاء لتسهيل دخولنا البلد، غير أن تدخلاتهم المتضاربة وملاحظاتهم النامّة عن عدم الدراية عقّدت إجراءات الدخول بدل أن تسهلها فأطالت أمد عذابنا. ولم تستوف الإجراءات كلها إلا وقد أشرفت الساعة على العاشرة مساء، أي بعد ثلاث ساعات كاملة من هبوطنا. بعد هذا، حشرنا جميعنا في باصين. فيما استقل مستقبلونا سيارات صغيرة وتقدموا الموكب المخوض في ظلام الليل. كان المطر غزيراً، أغزر مطر خبرته في حياتي، وكان الطريق الذي انعطفنا فيه بعد أن انفصل الموكب عن طريق المطار قد تحول إلى سلسلة متتالية من البرك الصغيرة. وبهدي أنوار الباصات القليلة التي تصارع الظلام والماء، قطعنا مسافة زاد من طولها كثرة المطبات الأرضية والالتواءات. وفي نهاية رحلة أخرى شاقة، بريّة هذه المرة وليست جويّة، عبرت السيارات بوابة لم نتبين معالمها ثم توقفت في مكان يكتنفه الظلام.

اكتشفنا أننا في ثكنة عسكرية. واتضح أن هذه الثكنة بقيت مهجورة منذ أخلاها جيش الاحتلال الفرنسي، فلم تمتد إليها يد بعناية ولا جرى على الأقل تنظيفها. وقد جيء بنا إلى الثكنة لنبقى فيها إلى أن يتحدد لكل منا المدينة أو القرية التي سيعمل فيها. وما أن عاينّا المهاجع التي اقتادنا إليها مرافقونا لننام فيها وصدمتنا الفوضى والقذارة والبرودة المستوطنة، حتى انفجر ما نختزنه من سخط دفعة واحدة. وكنت، أنا الذي صبّر نفسه على الأذى طيلة الساعات الماضية، في مقدمة الساخطين. وسط الضجيج الذي ملأت أصداؤه المهاجع، برز من بين مستقبلينا رجل ملفع ببرنس، بخلاف زملائه الذين يلبسون أزياء مدينية، وطلب منّا أن نهدأ كي يمكن أن نسمعه، ثم أوضح أنهم اضطروا إلى ايوائنا في هذا المكان لأنهم لم يقعوا على مكان غيره. قال الرجل إننا نصل إلى البلد عشية احتفالات الجزائر بعيد انطلاقة ثورتها، فتذكرنا أن يوم غد هو حقاً يوم الأول من تشرين الأول/أكتوبر. وقال الرجل إن العاصمة استقبلت في هذه المناسبة ألوف الضيوف القادمين من خارج البلاد وحلت فيها جموع غفيرة وفدت من مختلف الجهات، فانشغل كل مكان يمكن لإنسان أن يبيت فيه. وجبهنا المبرنس الذي خلا صوته حتى من نبرة الاعتذار بأن علينا أن نعدّ أنفسنا محظوظين لأن الموكلين باستقبالنا حصلوا في آخر لحظة على الإذن بإيوائنا في الثكنة المهجورة، ولولا ذلك لما درى أحد أين كنا سنقضي الليل في هذا الجو العاصف.

ابتسم المبرنس بعد أن أتم شرحه، ولعله تصور أنه ظفر بامتناننا بعد هذا الشرح. لكن شيئاً طاف على الوجوه نبّه الرجل إلى حقيقة رد فعلنا، فغارت ابتسامته وأحنى رأسه ليتجنب النظرات الساخطة. وعندها، عندها فقط، انتبه الرجل إلى أن عليه على الأقل أن يعتذر، فهتف بالفرنسية: «باردون» كلمة اعتذار واحدة، قالها ثم صمت.

استمعت إلى شرح الرجل فكاد صوابي يطير. وطار صوابي فعلاً عندما قدم الرجل اعتذاره الباهت. ثم لم يبق لي ما يطير أو يحطّ عندما عرفت أنهم

خصصوا مهجعاً واحداً ينام فيه الذكور وآخر تنام فيه الإناث. فهذا، على سوئه في حدّ ذاته، عنى أن أنفصل عن زوجتي وهي في أشدّ الحاجة إلى الرعاية. في هذا الوضع، أقسمت بالصوت العالي على أني لن أقضي ليلتي في هذا المكان، حتى لو اقتضى الأمر أن أقضيها أنا وزوجتي العليلة في العراء. وبالرغم من أن رد فعلي أقلق مستقبلينا، فقد بدا هؤلاء فاقدي الحول، وقال المبرنس: «الله غالب»، ثم صمت ثانية.

كان عنوان صبحي معي، فقلت لمستقبلينا خذوني إلى هذا العنوان! فجاء الجواب المخيب للأمل: الباصات انصرفت وسواقو السيارات الصغيرة التي اتضح أنها تخص وزارة التعليم انصرفوا بسياراتهم، وليس في الثكنة المهجورة هاتف لنطلب التاكسي. وعندما جاءوا على ذكر الهاتف، تذكرت أني أحمل أرقام هواتف صبحي ومكتب م.ت.ف، ومكتب فلسطين الذي يشغله ممثلو «فتح»، فتشبثت بالأمل، وطلبت أن يصحبني أحدهم إلى أقرب مكان فيه هاتف. عندها، فقط، تبين أن السيارة المخصصة للمبرنس لم تبرح المكان، وقد حملني سائقها إلى مقهى. لم يرد أحد في منزل صبحي أو مكتب م.ت.ف، أما مكتب فلسطين فجاءني منه صوت عميق ومفعم بالود. وما أن عرّفت بنفسي حتى هتف صاحب الصوت بالنبرة الغزاوية التي أستطيب إيقاعها: «أنا أخوك أبو صبري، وأنا أعرف من أنت، إننا نتوقع وصولك منذ أيام وقد تأخرت».

أبو صبري، هذا الذي سيصير قائداً لقوات العاصفة الفتحاوية، سطع في ظلام تلك الليلة كما يسطع القمر فجأة بعد أن يحلولك السواد، وما كان أحلاه من قمر!

وصل الرجل إلى الثكنة في سيارة المكتب بسرعة أدهشتني أنا المتلهف على وصوله. ولم ينقض الليل حتى كنّا، زوجتي وأنا، نشغل حجرة دافئة ونظيفة في فندق في وسط العاصمة. كانت زوجتي شبه غائبة عن الوعي. أما أنا فكانت عذابات يوم السفر الطويل قد استنفذت ما لدي من قوى. وفي هذا

النحو، أمضينا ليلتنا الأولى بعد الزواج. وقد غرقت في النوم إلى أن أيقظني رنين الهاتف. وسمعت موظف الاستقبال يقول إن في البهو زائراً ينتظرني.

ما كان أطيب ممدوح صيدم (أبو صبري) الذي أنجدنا. فهو لم يتوجه إلى داره أمس قبل أن يذهب إلى دار صبحي الذي اتضح أنّ هاتفه معطل ويبلغ إليه العنوان الذي حللت فيه. وها هو ذا الصديق المتلهف على لقائي قد صابحني بأبكر ما استطاع غير عارف أو غير عابئ بحاجتي إلى الراحة.

كان أول ما فعله صبحي أن صحبني إلى مكان نستطيع أن نتفرج فيه على الاحتفالات. وحسناً فعل هذا الصديق، إذ أنها كانت المرة الوحيدة التي أتيح لي فيها أن أشهد احتفالات الجزائريين بأمجد أعيادهم الوطنية. كانت الشوارع والساحات وشرفات الشقق وأسطح الأبنية مكتظة بشاغليها، حتى لقد بدا لي أن مواطني البلد كلهم قد برحوا مساكنهم. احتلت الجموع كل فراغ. وانتظمت مسيرات متصلة ترفع اليافطات وما عليها من شعارات. كما انتظمت جماعات ثابتة وأخرى متنقلة، بعضٌ يغني وبعض يرقص، وبعض يغني ويرقص. وصدحت ايقاعات المزامير والدفوف والطبول فملأت الأجواء، تلاميذ مدارس، وأصحاب مهن، وناس نقابات، شغالون وعطّالون، نساء ورجال، وهرج كثير، وبِشْرٌ وآمال. تلك كانت هي الجزائر كما رأيتها في أول نهار لي فيها، بعد أن تنحت مرارات ليلة الوصول.

في ذلك النهار، أتيح لي أن أرى أحمد بن بيلاّ الشهير، ولعله كان في أبهى حالة يمكن لوافد مثلي أن يراه فيها. انتصبت قامة الزعيم، الذي تحرر من أسر الاحتلال مع تحرر بلده من هذا الاحتلال وصار أول رئيس للجمهورية المستقلة، في سيارة مكشوفة تنقلت به من شارع إلى شارع، فكانت طلّته على الجموع تثير العواطف وتؤجج الاهتياج ويشتد معها إيقاع الموسيقى، وكان هو يبدو مزهواً بالنصر ومفعماً بالامتنان ويوزع التحيات والابتسامات دون كلل.

لم يصعب أن تلتقط عيني الخبيرة أن أغلب المحتشدين هم من الناس الفقراء.

فقد نمّت مظاهر الفقر عن نفسها بالرغم من أن كل من في الشارع اختار لهذا اليوم أفضل ما بحوزته من ملابس وزينة. لكن لم يصعب علي أبداً أن أدرك أن آمالاً عريضة محمولة على المستقبل تحرك الناس وتحميهم من الإحساس بالبؤس. ومنذ ذلك الصباح الذي وجدت فيه نفسي وسط الجموع، انبثق توقي إلى التعرف على أحوال البلد الذي حللت فيه لتوّي. وخلال تجوالنا هنا وهناك، توجب على صبحي أن ينشغل بسيل أسئلتي. واتضح لي أن هذا الفلسطيني الذي رجع إلى جزائريته لم يضع وقته هنا عبثاً. فإلى العمل والدراسة، انتسب صبحي إلى حزب جبهة التحرير وغدا من الأعضاء النشيطين، وأنشأ علاقات واسعة على مستويات عدّة، وصارت له صلات حميمة مع عدد من ذوي المكانة والنفوذ، وكان هذا كلّه مفيداً لصاحبي، وأتيح لي أنا أيضاً أن أجني منه بعض الفائدة.

عزم صبحي على استثمار صلاته الشخصية لتأمين وضع ملائم لي. وحددنا معاً ما الذي ينبغي الحصول عليه: تعييني لتدريس اللغة العربية في مدرسة ثانوية، إذ لم يبق لي جلد على تعليم المبتدئين، وتوفير شقة لسكني قريبة من المدرسة، والسعي إلى أن تكون المدرسة وكذلك الشقة في حي بن عكنون حيث يقيم هو أو حيّ قريب منه. بدأنا مساعينا بزيارة قمنا بها معاً إلى مكتب فلسطين. كان صاحبي قد انحاز إلى «فتح» في منافستها مع م.ت.ف. وصار من رواد هذا المكتب، وشاء أن يعرفني على مديره ناوياً أن يستعين بنفوذ هذا المدير لتدبير أموري. وهكذا أتيح أن أتعرف على خليل الوزير (أبو جهاد) في الجزائر. وتبين لي أن الرجل الذي هو مدير المكتب يعرف شيئاً عنّي، وقد أظهر سعادته باختياري القدوم إلى الجزائر: «يوجد هنا الكثير مما يمكن عمله لخدمة قضية فلسطين».

كان هذا رجلاً قليل الكلام، وجيز العبارة، خافت الصوت، وكان كثير التواضع، وربما تهيأ لمن لا يعرفه معرفة صحيحة أنه ضعيف الشخصية. ومنذ بداية

اللقاء، طرق أبو جهاد بنفسه موضوع عملي، فاتضح أنه يفكر بما فكرنا، صبحي وأنا، به: «الأفضل أن تظل في العاصمة». والتقط صبحي إشارة التحبيذ، فطلب من محدثنا المساعدة وتلقى وعده. عندها، ذكر صبحي ما لم يكن قد أطلعني عليه من قبل، فتبين أن معلمي الدفعات التي وصلت إلى البلد قبلنا قد شغلوا الشواغر المتوفرة في العاصمة والمدن الكبيرة، ولم يبق لنا نحن المتأخرين إلا مدارس البلدات والقرى النائية. وكان معنى هذا أني محتاج إلى دعم عالي المستوى حتى أظفر بالمطلوب. وإزاء ذلك، هزّ أبو جهاد رأسه فعنت الهزة أنه يفهم المشكلة، ثم قال لصبحي: «أكمل مساعيك، وسأقوم أنا بما أقدر عليه!»

بعد هذا اللقاء، أخذني صبحي إلى وزارة التعليم، وهناك قدمني إلى الشيخ محمد الميلي. لم يكن هذا رجل دين ولا كان يتزيا بزي رجال الدين، ولقب الشيخ يعادل عند الجزائريين لقب الأستاذ. كان محمد الميلي من الجزائريين الذين تيسر لهم أن يتعلموا اللغة العربية ويدرسوا التراث العربي الإسلامي، وكان قد انتسب إلى رابطة العلماء المسلمين الجزائريين التي ضمت دارسي علوم الدين والتراث وبرزت بوصفها مؤسسة المتعلمين الأصلب والأكثر نشاطاً في مواجهة الاحتلال الفرنسي. وقد رفدت الرابطة الثورة الجزائرية بعدد كبير من كوادرها التي تتقن اللغة العربية، وكان الشيخ محمد الميلي من هؤلاء. كان الرجل، إذاً، من المتعلمين المناضلين في الثورة، وكان خطيباً يفتن سامعيه من عشاق البلاغة العربية وكاتباً يتناول شؤون الفكر والسياسة ويمزج القضية الوطنية بالإسلام ويستخلص من التراث الإسلامي ما يسوّغ الدعوة إلى الاشتراكية. وفي الوزارة، كان الشيخ واحداً من المسؤولين الكبار عن تعليم اللغة العربية.

استقبلني الشيخ بترحاب المتشوق إلى الاستماع لعربي قادم من المشرق، وتحدث معي بفصحى سلفية ممزوجة بعامية غير بعيدة عن الفصحى. ولكم

اجتذبني هذا المزيج، ففيه ألفاظ وتعابير قلّ استخدامها في المشرق أو اندثر، ولبعض ألفاظه معانٍ تختلف عن معانيها في المشرق أو تغايرها. وبلغته هذه، أفهمني الرجل أنه سيبذل جهده لتدبير مكان لي في العاصمة «على أن هذا، باش نكون صادق، مطلب صعب». ولما سألني العازم على المساعدة عما إذا كنت أقبل العمل في مدرسة ابتدائية إن تعذر العثور على شاغر في أخرى ثانوية، لم أجد بدّاً من أن أقول نعم، فبدا عليه الارتياح، وهتف: «بارك الله فيك هذا يجعل الحال أيسر!» ثم تطوع دون سؤال منّي وقال إنه سيؤخر تعييني في أي مكان خارج العاصمة حتى يتسنى الوقت للعثور على مكان فيها.

كانت بحوزة صبحي سيارة رينو دو شوفور عتيقة وصغيرة إلا أنها تفي بالغرض. وفي أيام الانتظار، راح صبحي يحملني في سيارته، وحدي في بعض الحالات وبصحبة زوجتي التي تتعافى من المرض في حالات أخرى، ورحنا نجول في العاصمة ونتعرف على الأمكنة والناس. وقد طاب لي أن أزور الأماكن الشهيرة التي ترددت أسماؤها في الأنباء في سنوات الثورة. كما طاب لي أن أبحث عن الذين تعرفت عليهم من الجزائريين في دمشق وأجدد الصلة بهم. وهكذا، مثلاً، أمكن أن أتعرف على حيّ القصبة الذي ارتبط اسمه في ذاكرة مجايليّ بأمجد قصص الكفاح الوطني وأغربها. كما أمكن أن أعثر على جزائريين اثنين عاشا في دمشق سنوات عديدة وتعاونت معهما في ساحة العمل الطالبي وكانا من أعزّ الأصدقاء.

أول الاثنين هو العربي طرقان، جاء إلى دمشق أواخر الخمسينات طالب علم. كان هذا فتى ابن مدينة، وكان حين ورد إلى دمشق لا يعرف العربية، هو الذي يتحدث الفرنسية كالفرنسيين ولم يرجع إلى الجزائر إلا بعد الاستقلال وقد رجع إليها وهو قادر على التحدث بالعربية وإن بصعوبة. والثاني هو الهاشمي القدوري، ابن الصحراء الجزائرية حيث يعيش أهله. كانت العربية هي لغة الهاشمي الأم التي يتقنها، وذلك بخلاف الفرنسية التي تعلمها في المدرسة لكنه

غادر البلد وجاء إلى دمشق قبل أن يتقنها. وفي دمشق، تأثر الهاشمي بالبعثيين، اجتذبته العقيدة العربية القومية فتحمس لها وصارت عنده كأنها دين.

متقن الفرنسية حصل فور عودته إلى الجزائر على وظيفة محترمة في أحد البنوك حيث يجري كل شيء بهذه اللغة ولا مكان للعربية. انتمى العربي طرقان في العاصمة إلى الوسط الذي يصعب عليه التعامل باللغة العربية حتى في شؤونه الخاصة، وكان معظم ناس هذا الوسط، معظمه وليس كله، من الذين انبتت صلتهم بالثقافة وتقاليد الحياة العربية. وكان الرجل عندما لقيته في بلده قد غدا من جديد يستثقل الحديث بالعربية ويصعب عليه الانخلاع عن الجو الذي هو فيه. لقد رحب الصديق القديم بي، ودعاني إلى معاودة الاتصال به، إلا أنه لم يبادر إلى الاتصال بي، فلم نلتق بعد ذلك إلا لقاءات عابرة، وغالباً ما جرى اللقاء بالصدفة.

أما الهاشمي، فقد لقيني لقاء من عثر على عزيز كان قد فقده وانتهى إلى الظن بأنه لن يلقاه ثانية. هرع الهاشمي إلى فندقي منذ علم أني حللت بالمدينة، وأخذنا، صبحي وزوجتي وأنا، فوراً إلى منزل عمة له يقيم هو عندها، وهيأ لنا قضاء أمسية استذكرنا خلالها وقائع حياتنا المشتركة في دمشق وجدّنا ومجوننا في قلب العروبة النابض. كان الهاشمي في دمشق من عشاق مطعم الشواء الذي يرتاده الباحثون عن سهرة طلقة ووجبة طيبة بسعر في المتناول، وهو مطعم «البريمو». وبعد عودته إلى بلده، حيث يحظر عهد الاستقلال على مواطني البلد شراء المشروبات الروحية أو تعاطيها. تجدد شوق الهاشمي إلى ذلك المطعم. فلما ضمتنا السهرة وحضرت المشروبات التي أمكن تدبرها دون أن يحضر الجو الذي تميز به المطعم الدمشقي، تأجج هذا الشوق، وشاركنا اسم البريمو السهرة. وقد روى لنا الهاشمي كيف أنه دعي مرة لحضور عرس في منازل أهله في الصحراء وهيّج الجو البهيج توقه إلى الشرب الذي لم يكن متيسراً فأخذ يردد على مسمع من المحيطين به: «البريمو،

البريمو»، فلما سألوه عن مدلول الكلمة الغريبة لم يجد ما يسوغ به احتلالها للسانه إلا القول إن هذا هو اسم لوليّ دمشقي من أولياء الله الصالحين، فحملها سامعوه على محمل الجد وراحوا يتبركون بذكر سيدي البريمو ويرددون: «الله الله يا سيدي البريمو!» وبخلاف العربي طرقان، كان الهاشمي القدوري، هذا المتعلم، والمناضل، والعاشق المتيم بالعروبة، والشاب المفعم بالحيوية، ما يزال يبحث عن عمل بعد سنتين من عودته إلى بلده.

ليس صدفة أن يجد العربي طرقان وظيفة محترمة ويظل الهاشمي عاطلاً عن العمل لزمن طويل. فكوادر البلد الذي سيطرت عليه فرنسا قرناً وثلث قرن تشكلت أغلبيتها من المتأثرين بالثقافة الفرنسية. وإذا استثنينا مؤسسات قليلة نشأت فيها بؤر للتعريب، فإن معظم المؤسسات بقي خاضعاً لنفوذ الذين يتقنون الفرنسية. وهؤلاء لم يكتفوا بأن خدم بعضهم بعضاً، بل قاوموا تسرب دعاة التعريب إلى مؤسساتهم وعملوا كل ما شأنه أن يدعم الحاجة إلى اللغة الفرنسية. والواقع أن المواجهة بين دعاة التعريب ومقاوميه اتخذت شكل معركة سافرة. وقد استخدمت في هذه المعركة، كما في أي معركة، الأسلحة المتيسرة جميعها، المشروع منها وغير المشروع.

كان هدف التعريب هو استكمال الاستقلال، أي إعادة الجزائر إلى غالبية أصحابها، واقعياً وليس نظرياً فقط. وقدّر لي فور وصولي أن أشهد استعار هذه المعركة في كل مكان وأشترك فيها. وبمصادفة ما توقعتها حتى في خيالي، وجدتني مرشحاً لتولي مهمة من مهامّ الدرجة الأولى في هذه المعركة. كنت ما أزال في الفندق انتظر البتّ بشأن مكان عملي. وكانت زوجتي ما تزال تعاني آثار السفرة المضنية فاحتاجت إلى دواء، فتوجهت إلى الصيدلية لشرائه. وهناك، تعذر التفاهم مع صيدلي لا يتقن إلا الفرنسية. غير أني كنت محظوظاً، إذ أن زبوناً مثلي، شاباً من جيلي، أنجدني. عرض الشاب علي مساعدته ففاجأني بلهجة دمشقية لا شائبة فيها، ثم تولى الترجمة فإذا هو يتقن هذه الجزائرية الدارجة المخلوطة بشتى التعابير الفرنسية ويتقن الفرنسية ذاتها.

واتضح أن منجدي هو حيدر الحسني الجزائري أحد أحفاد الأمير الشهير عبد القادر الجزائري الذين ولدوا ونشأوا في دمشق. كما اتضح أن هذا الشاب يعرف من أنا ويعرف كثيرين من أصدقائي في دمشق، وأنه لم يتوقع حتى في خياله هو الآخر أن يلقاني في الجزائر. ولقاء الصدفة هذا هو الذي أدخلني في لجّة معركة التعريب.

فحيدر لم يتركني بعد أن فرغت من الصيدلية، بل قادني إلى مقهى قريب، وهناك انداحت مدارات الحديث. فعرفت أننا، حيدر وأنا، قد مررنا في دمشق ببعض الخبرات المتماثلة. فقد انتسب هو، أيضاً، إلى حزب البعث منذ كان طالباً في الثانوية. وبعد أن أرسله أهله إلى لندن لدراسة الاقتصاد، احتفظ حيدر بعضويته في حزب البعث واهتمامه بما يجري في سورية، وانتهى إلى أن صار من نشيطي كتلة اليسار البعثي في العاصمة البريطانية، ومن هنا سمع باسمي، ألم أقل لك إن جرأتي على قادة الحزب صنعت لي شهرة واسعة! وفي لندن، كما كان الأمر في دمشق، تعرف حيدر على كثيرين من نشطاء الثورة الجزائرية وانخرط بنفسه في نشاطاتهم. وما أن ظفرت الجزائر باستقلالها حتى قطع حيدر دراسته وتوجه إلى بلده الأصلي، إنه حفيد الأمير الذي قاد قبل قرن وثلث قرن مقاومة الجزائر دفاعاً عن استقلالها، فما الذي كان بمقدوره أن يلجم اندفاعته وقد استعادت بلاده الاستقلال؛ كان مسكوناً برومانسية سنّه الثورية ومشحوناً بالرغبة في أن يخدم البلاد التي نفي أجداده منها قهراً ويجد لنفسه مكاناً في عهدها الجديد.

كان حيدر، مثلي، قد أطل من موقعه في حزب قومي على اليسار الماركسي، هو الذي نشأ، مثلي أيضاً، في بيئة تعلي شأن الدين والتراث؛ وكان يقرأ بثلاث لغات: الإنجليزية والفرنسية إلى جانب العربية، وعربيته بالذات كانت من النوع والمستوى اللذين لم يتوفر لجزائريين كثيرين تحصيلهما. وبهذه المزايا، وبكفاءاته العديدة الأخرى، وبانحداره من سلالة القائد الجزائري الوطني الكبير، شغل حيدر على صغر سنّه، وفور وصوله إلى الجزائر، موقعاً

مرموقاً، فصار عضواً في اللجنة الاقتصادية التابعة للمكتب السياسي لحزب جبهة التحرير الحاكم، وهي اللجنة التي يرأسها عضو هذا المكتب حسين زهوان. ومن هذا الموقع، أنشأ حيدر، وهو جمّ الحيوية بطبعه، علاقات واسعة، وتوفرت له فرص النشاط المثمر والنفوذ. وبانفتاحه على الماركسية، أقام حيدر صلات طيبة مع الشيوعيين وصار واحداً من أصدقائهم المعدودين قبل أن يصير عضواً في حزبهم. وكان الشيوعيون وقتها ذوي نفوذ كبير في منظمة الشبيبة الجزائرية. هذه المنظمة كان لها مجلة أسبوعية تنطق باسمها، تصدر بالفرنسية. وقد اقترح الشيوعيون على حيدر أو اقترح هو عليهم أن تُصدر المنظمة أسبوعيةً أخرى، بالعربية. وتمكن حيدر من إقناع زعيمي اليسار في حزب جبهة التحرير، محمد حربي وحسين زهوان بدعم الفكرة. وهكذا، صدر القرار بإصدار أسبوعية الشباب وأوكلت رئاسة تحريرها إلى حيدر. وعندما لقيني الشاب لقاء الصدفة هذا، كان مشغولاً باستكمال الإعدادات اللازمة لإصدار المجلة.

ومنذ لقائنا الأول، وضع حيدر الأمر في السياق الذي يراه، فأصر على أن إصدار المجلة منجز يحققه المقاتلون في معركة التعريب، وشرح الأمر باندفاع ووضوح: معركة التعريب محتدمة. هناك من يظن أنها معركة إحلال لغة محل لغة، الأمر ليس كذلك، إنها معركة الهوية الوطنية للجزائر. أن تبقى الجزائر متفرنسة معناه أن تظل تابعة ويظل استقلالها مجرد شكل. وأن تتعرب الجزائر معناه أن تستعيد هويتها وتصير في صلب حركة التحرر الوطني العربية وتمتلك ما يؤهلها لدعم حركات التحرر في كل مكان. إنها في المقام الأول معركة من أجل الحرية والتقدم. هكذا يفهم اليسار المسألة، ومن أجل هذا تجند في مجهودات التعريب حتى اليساريون الذين لم يتح لهم أن يتعلموا العربية. شيء آخر تبسط حيدر في شرحه. فقد غابت العربية عقوداً وعقوداً عن مؤسسات التعليم وإدارات الدولة والمجتمع، وضاق استخدامها حتى كاد يقتصر على شؤون العبادة وعلوم الدين التي تتداول في حلقات محدودة. وبهذا وذاك، لم يضق مجال الانتشار

فحسب، بل قرّ في الأذهان، أيضاً، أن العربية غير صالحة للتعليم الحديث والتعامل مع شؤون الحياة العصرية. فمن الضروري، إذاً، مضاعفة الجهد، إذ أن المهمة مضاعفة: إثبات أحقية الشعب في استعادة لغته الوطنية، وإثبات قابلية هذه اللغة للتعبير عن الشؤون المعاصرة.

شرح حيدر هذا كلّه وأمعن في الشرح ليس، فقط، لأن موضوع التعريب يشغله، بل ليحثني، أيضاً، على قبول العرض الذي قدمه لي ونحن في الطريق إلى المقهى: «منذ قدمت لي نفسك، قلت لنفسي إن السماء قادت خطاك إلينا لتعمل معنا». ولم يفت حيدر وهو يقول هذا أن يستدرك، هو الحريص على إبراز علمانيته: «إن كانت السماء معنية بتعريب الجزائر». ومع أن الثناء يطرب فإن المبالغة فيه دفعتني إلى الابتسام؛ لقد كنت مستعداً لقبول العرض إن تحمست السماء لمعركة التعريب وإن لم تتحمس! لم يكن حيدر في بحثه عمن يعاونه قد وقع على العدد اللازم من المحررين الذين يتقنون الكتابة بالعربية، فلم يكن غريباً أن يفرحه وقوعه عليّ. وحين كرر الملهوف على إنجاح مشروعه: «أنت بالنسبة لي لقية، ولن أتركك»، قلت له إنه ليس بحاجة إلى الإلحاف، فالعرض يستهويني والإنهماك في المعامع يأسرني.

طلب حيدر لنا دورة قهوة ثالثة، وأصر على أن نناقش ما أسماه المسائل العملية. ولما عرف المتشبث بضمّي إلى محرري المجلة أني قدمت للعمل مع وزارة التعليم، اقترح أن يستخدم نفوذه كي تعيرني الوزارة إلى المجلة، فقبلت الاقتراح. ولم يضع هو الوقت، بل باشر الاتصالات. وعندها تبين أن هناك عائقاً يصعب تخطيه، إذ أن القانون يحظر على غير الجزائري العمل في صحيفة جزائرية ولا تستطيع الوزارة أن توافق على إعارتي لعمل غير قانوني. هذا الحظر أنبت فكرة جديدة: أن أحتفظ بعقدي مع الوزارة وأكتب للمجلّة وأسهم في تحرير موادّها دون أن أسجل في عداد الصحافيين.

وبهذا، ضمّ حيدر جهده إلى جهود الساعين لإبقائي في العاصمة. ولم تمض

سوى أيام قليلة حتى رُتبت أموري على أفضل ما يمكن. فقد عينت لتدريس اللغة العربية في مدرستين يتلاصق مبنياهما، واحدة ابتدائية مختلطة وأخرى ثانوية للإناث. وحصلت على شقة مناسبة. وكان مكان العمل والسكن في حيّ سيدي مالكي، أو ليز ألبروج وفق تسميته الفرنسية القديمة، وهو حي صغير وأنيق مجاور لحي بن عكنون الذي يقيم فيه صبحي.

خصصت لي لجنة الحيّ التي اتضح أن رئيسها واعضاءها من أصدقاء حيدر اليساريين شقة من ثلاث حجرات في الطابق الخامس في مبنى ملاصق للمدرستين. وكان للشقة شرفة تطل على مشهد من أجمل ما جاورت في حياتي من مشاهد الطبيعة. فعلى مدّ النظر، كان ينبسط السهل الفسيح الذي يبدأ في جوار العاصمة ويتصل بسهل متيجة الذي تتوسطه بلدة بليده، وما يتماوج في هذا المدى من ألوان. ولم يكن علي إلا أن أدور دورة قصيرة في مشوار على الأقدام لا يستغرق أكثر من خمس دقائق حتى أصل إحدى المدرستين أو أمشي ربع ساعة على طريق تحيطه البساتين حتى أصل إلى صبحي.

كنت أجيء إلى المدرسة الابتدائية في الثامنة صباحاً فأبقى فيها حتى قرابة منتصف النهار. وبعد استراحة الغذاء، كنت أجيء إلى المدرسة الثانوية في الواحدة والنصف فأبقى حتى الثالثة حين تكون سيارة المجلة قد وصلت لتنقلني إلى مقرها في وسط البلد حيث أغرق في العمل حتى ساعة متأخرة.

وهكذا، توليت أكثر من عمل واحد، تماماً كما كان عليه الحال في دمشق، وتوجب علي أن أواصل الجهد في الليل والنهار، تماماً كما كان عليه الحال أيضاً هناك. ووجدتني غارقاً في هموم البلد الذي لجأت إليه، هموم القاع والقمة، ومعامعه العديدة. وما هربت منه وجدته في انتظاري. لم يختلف إلا الأسماء والعناوين.

٨ قطرة السمّ الواحدة التي لوّثت برميل ماء

كان مدير المدرسة الابتدائية رجلاً من بلاد القبائل وفق التسمية التي يطلقها الجزائريون على المنحدرين من أهل البلاد القدماء الذين كانوا فيها قبل الفتح الإسلامي، أو البربر وفق التسمية المألوفة أكثر من غيرها في المشرق. جئت إلى مدرسة هذا الرجل وهو يقترب من سن التقاعد، وكان قد ولد ونشأ وتعلم وحصل على الوظيفة وأمضى سنوات عمره كلها فيما فرنسا تحتل الجزائر وتعدها جزء منها، وهو يتحدث الفرنسية كما يتحدثها الفرنسيون ويتمسك بعبارات السلوك الفرنسية ويستخدم الأزياء الفرنسية، بما في ذلك القبعة التي يرفعها عن رأسه ويحطها كلما تبادل التحية مع أحد. بكلمات أخرى، كان من الممكن أن يظن المرء أن هذا الرجل فرنسي، لولا خصلة فيه تبرز للعيان حين يحنق. فمع الحنق، كان المدير يخلط فرنسية المتعلمين التي يتقنها باللهجة القبائلية بما فيها من ألفاظ عربية خالطتها عبر القرون، وكان يطلق لصوته الغليظ العنان فيصير زعيقاً يذكرك بزعيق أي إبن جبل في بلادنا حين يستفزه أي أمر إلى الصراخ. ولك أن تعرف أن الرجل كان كثيراً ما يحنق!

ولّد سلوك مدير المدرسة لدي انطباعاً بأنه لم يستوعب بعدُ تماماً أن أحوال البلد تبدلت حقيقة وان الفرنسيين لم يعودوا هم الحكام والأسياد. وأغلب ظني أن انطباعي هذا كان صحيحاً. ظل الرجل في قرارة نفسه كما في

ظاهرها على إيمانه بأن الفرنسية وحدها هي لغة التعليم، أما العربية فهي، عنده، لا تصلح إلا للعبادة. وإذا كان منهاج التعليم الجديد قد أوجب تدريس اللغة العربية وتدريس عدد من المواد بها، فلا بدّ من أن هذا جرى، بالنسبة لمدير المدرسة، لسبب طارئ لا يعتقد هو بأنه سيدوم. وكان في المدرسة اثنان غيري يدرّسان العربية، وهما جزائريان، فكان المدير يتعامل معهما كأنهما معلمان من درجة متدنية ولا يظهر أي احترام لهما. أما أنا فبدا وجودي لهذا الرجل غريباً من وجوهه كافة. لقد ألف المدير أن يجيء إلى مدرسته معلمون فرنسيون من خارج البلاد، وكان في المدرسة عندما جئتها عدد من هؤلاء، فهذا لم يختلف عنده عن وجود معلمين فرنسيين مولودين في الجزائر. أما أن يجيء غريب يسلك سلوكاً عصرياً ويتصرف على غير طريقة رجال الدين ويتضح إلى هذا أنه عربي ومكلف تدريس العربية، فقد كان هذا أبعد وأعقد من أن تبلغه مدارك الرجل.

والواقع أن مديري بدا محتاراً في تعامله معي. لم أكن جزائرياً فيضعني في منزلة متدنية، ولا كنت فرنسياً فيعلي شأني. ولم تكن بيننا لغة مشتركة نتخاطب بها ولا تخلى هو عن تعاليه فاستعان بجزائري ليترجم بيننا. وحين كانت متطلبات العمل ترغم المدير على الاستعانة بمن يترجم، كان ضيقه بالوضع يعجله فيقصر الحديث على أضرّ الضرورات. وما من مرة أجرينا فيها حديثاً إلا ازداد استغراب الرجل بشأني، ولا بد من أنه انتهى إلى اعتباري حالة خاصة عصية على الفهم. وما تبادلناه دون مترجم اقتصر غالباً على «صباح الخير» و«إلى اللقاء» من جانبي، و«بونجور» و«اورفوار» من جانبه. وفي المرات القليلة التي شاء مدير المدرسة، على ما يبدو، أن يتبسط فيها معي، كان يجهد نفسه ليوجه إلي التحية بما يتصور أنه كلام عربي، فكان يقذفني بعبارة «الخير عليك»، يأكل جهله العربية بعض الحروف ويحور اعتياده الفرنسية حروفاً أخرى فتصير التحية أقرب إلى ما يمكن احتسابه من أقذع الشتائم، فيما يحتسب هو عناءه تضحية يتودد بها إلي.

هذا المدير لم يكلف نفسه ولو مرّة واحدة عناء الإطلاع على ما أقوم به في المدرسة. وكما أهمل المدير عملي أنا، أهمل أيضاً عمل معلميّ العربية الجزائريين، بل إنه تصرف إزاء هذين المعلمين كأنهما غير موجودين أو غير مكلفين بأي عمل، ولم يكن يتدخل في شؤونهما إلا إذا توفرت فرصة لتسجيل نقطة ضد أي منهما، كأن يتأخر عن الدوام أو تصدر ضجة عن الصف الذي يشغِله. أما مع الفرنسيين، المستوطنين منهم الذين اختاروا الجنسية الجزائرية أو الوافدين إلى البلد بعقود عمل مثل عقدي، فكان المدير يسلك كأن الواحد من هؤلاء هو مديره، فكان يوقرهم ويخصص لهم ما شاؤوا من الوقت والجهد لمعالجة مشاكلهم ويعرض خدماته عليهم بنفسه حين لا يطلبونها بأنفسهم.

وهاأنذا أتذكر من الفرنسيين واحداً اسمه «لامور»، استقر الاسم في ذاكرتي بسبب معناه (لامور معناها الحبّ) والتباين بين معنى الاسم وصاحبه. قدم مسيو لامور من قرية من قرى النورماندي. وكان هذا رجلاً تخطى عتبة الأربعين، ضئيل القامة، قميء الهيئة، منفر التقاطيع. وقد حوى وجه مسيو لامور بالذات أكثر من مَعْلم واحد يحملك على النفور منه، فكان جلد الوجه مبقعاً ببقع غير متجانسة الألوان، وفيه عينان غائرتان حتى ليصعب التعرف على لونهما وأنف يبدو أنف الجنرال ديغول منمنماً إذا قورن به، وفم مقوس تحدده شفتان رقت حوافهما فيما اكتنز وسطهما حتى لكأنهما متورمان. وكان سلوك مسيو لامور هذا أقبح من شكله، فهو يتعامل مع التلاميذ الجزائريين كأنهم حشرات قذرة، لا يدنو من أي منهم ولا يأذن لأحد بالاقتراب منه. فإذا حدث أن لامسه أحد، كان مسيو لامور يثور ثورة لا يوقفها إلا انصرافه إلى حجرة المغاسل وقضاؤه وقتاً طويلاً فيها. وكان زعيق الرجل على التلاميذ في صفه يصل إلينا بغيضاً ومزعجاً ويشوش عملنا. وعندما تطوع من ترجم الأوصاف التي يرمي بها مسيو لامور تلاميذه، أدركت – أقول هذا جاداً وليس ساخراً – لماذا وجد النازيون الذين قهروا فرنسا كثيراً من المتعاونين معهم بين الفرنسيين.

وفي تعامله مع الزملاء الجزائريين، كان مسيو لامور صارماً في احتفاظه بمسافة بينه وبينهم، مع معلميّ العربية ومع الآخرين الذين يدرسون بالفرنسية مواد أخرى؛ كان لا يبادر أياً من هؤلاء بالتحية حتى حين يوجب الوضع أن يكون هو المبادر؛ وإذا تلقى التحية من أحدهم، كان يرد بنبرة محسوبة وعبارة مقتضبة؛ وكثيراً ما كان يقرن الرد بنظرة تؤكد على مغزاه: لا تذهب إلى أبعد من التحية! وإذا انضم جزائري إلى الحلقة التي هو فيها، كان مسيو لامور يغادر الحلقة؛ ولا يُقبل هو على مجلس فيه جزائري. ألمانيا والألماني اللذان فوق الجميع، شعار النازيين الرسمي وتتمته كان عند مسيو لامور: فرنسا والفرنسي.

هذا الرجل المتعالي اشتهر عنه في المدرسة حبّه لزميلة فرنسية. كانت هذه المعلمة سيدة طيّبة واجتماعية ومتواضعة تحبّ التعرف على شتى أصناف الناس والاختلاط بهم ولا تنفر من أحد. مع ذلك، كان نفور هذه السيدة من المتودد إليها، الملحاح في تودده، ظاهراً لم ينجح تأدبها في إخفائه.

بالرغم من قبائحه كلّها، علي أن أبيّن لك أن تأذيّ من سلوك مسيو لامور كان أقلّ مما قد يوحي به وصفي له. كان في هذا السلوك شيء يجعله أقلّ إيذاء من المتوقع. ولا أدري كيف أفسر لك رد فعلي. إني لا أجد الكلمات التي تجعل هذه النقطة واضحة. فحين يتصرف إنسان بأكثر مما يبيح له وضعه الواقعي سيبدو تصرفه كاريكاتورياً، يستوي في هذا أن يكون التصرف حسناً أو سيئاً في حد ذاته. وإذا افتقر التصرف إلى الواقعية فإن حسنه لا يبهج وقبيحه لا يؤذي. إن الإفراط في إظهار التواضع من إنسان رقيق الحال مماثل للإفراط في التعالي من إنسان ليس في وضعه ما يجيز له أن يترفع. وكلاهما، التواضع والتعالي، يثيران السخرية في مثل هذه الحالة، وربما الإشفاق، أكثر مما يثيران الإعجاب أو النفور. ولعلّ هذا هو ما يفسر موقفي إزاء سلوك مسيو لامور. وقد ينبغي أن أصارحك بأنه طاب لي أن أراقب سلوكه فأقع في تصرفاته على الكثير مما يسلّي.

تعامل معي مسيو لامور في البداية كما يتعامل مع الزملاء الجزائريين، فلم يحل هذا دون تمتعي بمراقبة تصرفاته، خصوصاً مناوراته مع آسرة قلبه، الملاطفات، والورود، والهدايا، والدعوات المتعاقبة للغداء أو العشاء، وتأبيها هي الاستجابة. كنت أراقب عن كثب. ثم جاء وقت اكتشفت فيه أن هذه السيدة تعرف القليل من الإنجليزية. وبالقليل الذي أعرفه أنا أيضاً أمكن أن أتجاذب معها بعض أطراف الحديث. وظلّ بالإمكان أن نستعين بمن يترجم عربيتي وفرنسيتها كلما اقتضى الأمر الإمعان في التفاصيل. اجتذب هذه السيدة فيّ شيء هو، كما وصفته هي، معرفتي بأمور كثيرة لم تتوقع أن يعرفها شرقي مثلي، وانشغالي بقضايا لم تتوقع أن ينشغل بها شاب في مثل عمري، وإطلالي على عوالم تجهلها وتلتذ بحديثي عنها. ومع اضطراد وقفاتي مع السيدة في الاستراحات، اضطر مسيو لامور الذي لا يطيق الابتعاد عن سيدة قلبه إلى الانضمام إلى الحلقة التي نكون هي وأنا فيها، وكان يحتفظ بالصمت ما دمت أنا في الحلقة ولا يظهر أي رد فعل إزاء ما يصدر عني، حتى أنه كان لا يضحك ولو ضحك الجميع حين أروي طرفة.

بقي هذا هو حالنا شهرين أو ثلاثة. وذات يوم، فاجأني مسيو لامور بأن بادر هو إلى إلقاء التحية وهو يمر بقربي، وتوقف لحظة، وقال كلاماً فهمت منه أنه راغب في حديث معي وسيطلب من السيدة أن تترجم بيننا. ولما تم ذلك، كان كل ما قاله مسيو لامور أنه علم أني أعمل في الصحافة وأن هذا جيد وهو يغبطني، ثم لم يبادر بعد ذلك إلى أي حديث معي، إلا أنه صار يبتسم ابتسامة عريضة كلما لقيني ويرفع قبعته ويبادرني بالتحية: بونجور، أو أورفوار، مسيو جورناليست!

في مدرسة الإناث، كان الوضع أدعى إلى العزلة. اعتدت أن لا أجيء إلى هذه المدرسة إلا بعد أن تبرح تلميذاتها الباحة ويتجهن إلى الصفوف. كان معظم المعلمين والمعلمات من الفرنسيين أو الجزائريين الذين لا يتقنون العربية. أما

مديرة المدرسة فكانت سيدة فرنسية من المستوطنين الذين اختاروا الجنسية الجزائرية. تقدم العمر بهذه السيدة وبلغت سن التقاعد لكنهم أجازوا لها أن تستمر في العمل. ضمني مع هذه السيدة لقاء عمل لم يمتد إلا لبضع دقائق، وذلك في أول التحاقي بمدرستها. وقد أفهمتني المديرة أنها لا تعرف طبيعة عملي ولا تجد أيّ جدوى لقرار الحكومة تدريس لغة جديدة للتلاميذ الذين صاروا في الثانوية دون أن يتعلموا هذه اللغة، ثم قالت إنها لا تملك أن تمنعني عن القيام بما أنا مكلّف به، وأن الأمر عائد لي، إذ لا يهمها أن أعمل أو أن لا أعمل، ولن يسوءها أن أحضر أو أغيب. وبعد ذلك، أهملتني هذه المديرة إهمالاً كاملاً.

والواقع أن المصاعب التي لقيتها في تعليم العربية لفتيات الثانوية كانت أشد مما لقيت في المدرسة الابتدائية وأعقد. فتعليم الصغار بدا أسهل من تعليم الفتيات. كنت أدرّس صفّ بنات تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشر والخامسة عشر أمضت الواحدة منهن ثماني سنوات في المدارس ولم تتعلم العربية. وزاد من صعوبة التعليم أن المناهج المقررة، وهي غالباً ما كانت مستعارة من هذا البلد العربي أو ذاك، لم تراع وضع الجزائر الخاص من حيث غياب اللغة العربية عن الاستخدام العام طيلة أكثر من قرن وغيابها حتى عن خطاب الناس العادي فيما بينهم، وخصوصاً ناس المدن. تصور نفسك وأنت تتلو نصاً مما يقرأه تلاميذ الصف التاسع في مدرسة في دمشق على تلميذ فرنسي لا يعرف العربية. لقد كان هذا هو حالي مع تلميذاتي فتعذر التفاهم وتحول وجودي في صفهن إلى عذاب لي ولهن.

غير أن استحالة الاستمرار في تدريس المنهج المقرر حملتني على الخروج عليه. لقد توخيت أن تقتنع تلميذاتي بأن اللغة العربية صالحة لدراسة أي مادة يدرسنها هن بالفرنسية. وبهدي هذا الذي توخيته، صرت أعيد شرح ما يتعلمنه بالفرنسية من مواد التاريخ أو الجغرافيا أو العلوم؛ أسألهن عن آخر ما تعلمنه وأحاول جعله مفهوماً بالعربية. فعلت هذا بصبر ومثابرة، فلم يلبث

أن أثمر جهدي. وقد تمثل أول الثمر بإقبال التلميذات علي وتشوقهن لمتابعة شروحي. وبمضيّ الوقت، تنحى النفور من اللغة الصعبة وحلّ التوق إلى استجلاء أجوائها محله. وقد انعكس هذا على سلوك التلميذات إزائي. فبعد أن كن يخلقن لي ما يحتمل وما لا يحتمل من المتاعب، صرن سهلات القياد مستجيبات لتعليماتي وتعلقن بي تعلقاً يعكسه استقبالهن المتودد لي وحرصهن على مراضاتي.

وجاء وقت عرفتْ إحدى التلميذات فيه أني صحافي. كانت هذه أشدّ تلميذات الصف فضولاً وأدومهن مثابرة على تحري أحوال المدرس القادم من بلد بعيد. وقد أشاعت المبهورة بما عرفته النبأ وتناقلته التلميذات بافتتان، ورحن يباهين تلميذات الصفوف الأخرى بهذه العبارة التي يتعمدن أن أسمعها أنا أيضاً: «شكون بحالنا، شيخنا جورناليست!» أي من الذي يضاهينا، أستاذنا صحافي!

وفي مكاتب المجلة، مضى العمل على أكثر من قدم واحد أو ساق واحدة، وتم إنجاز تحضيرات كثيرة في سرعة قياسية، وأمكن أن يتلقى القراء أول أعداد المجلة قبل انقضاء الشهر الأول على وصولي. كان لهمة حيدر وموهبته في استنباط الحلول للمشاكل الطارئة أثر حاسم في دفع العمل إلى أمام. وقد تعاون مع حيدر فريق جزائري متحمس للمهمة، شبان يتقنون العربية أو يلمّون بها وآخرون لا يتقنون إلا الفرنسية غير أن رغبتهم في التعريب صادقة. ولقيت المجلة دعماً كاملاً من قيادة اتحاد الشبيبة ومن المكتب السياسي لحزب الجبهة الذي احتفظ حيدر بقربه منه عضواً في اللجنة الاقتصادية. ولم يكتف محمد حربي وحسين زهوان بتوفير الحماية لحيدر والدعم للمجلة، بل شاركا في بعض مراحل الإعداد لإصدارها ثم أسهما في الكتابة. وبهذا، أمكن أن يصدر العدد الأول من الشباب وفيه ما يمكن الاعتزاز به.

هنا، في المجلة، حيث العمل الجذاب والصحبة التي تُغني العقل والروح، عوّضتُ ما أفتقده في عملي الآخر. والحقيقة أني عددت العمل في المجلّة

مهمتي الأولى وخصصت له جل طاقتي ووقتي. ولم أشغل نفسي بهمّ التدريس إلا خلال الساعات التي أقضيها في المدرستين. كان العمل في المجلة يبدأ منذ الصباح، لكنه لا ينشط إلا مع اقتراب المساء حين يفرغ المحررون من جولاتهم على مصادر المعلومات ويجيئون إلى مكاتب المجلة. وكانت سيارة المجلة تنقلني من المدرسة فور الانصراف من المدرسة في الثالثة بعد الظهر فأصل إلى مكاتب المجلة القريبة من مقر المكتب السياسي في شارع دعدوش مراد في الثالثة والنصف، ولا أعود إلى منزلي إلا قرابة منتصف الليل. وفي أيام العطل، الخميس عطلة المدارس والأحد العطلة العامة والأعياد، كنت أخصص وقتي كله للمجلة والسياسة والعلاقات.

بالرغم من كثافة العمل واتساع شبكة علاقاتي العامة، لم يخل الأمر من أوقات تتوفر فيها فرص الترويح عن النفس. كنت قد أحضرت معي ما فاض بعد سداد ديوني من المبلغ الذي تقاضيته مع انتهاء عملي في الأونروا، فأمكن أن أؤثث الشقة بما هو لازم للإقامة، دون أن أستدين مجدداً. وكنت أتقاضى من المجلة مكافأة شهرية تساوي الراتب الذي أتقاضاه من وزارة التعليم فأمكن أن أنفق بشيء من السعة. ولأن مكافأتي في المجلة كانت أدنى بكثير مما أستحق، ولأن حيدر عجز عن اختراق الأنظمة التي لا تبيح لي الحصول على ما هو أكثر، ولأن زملاء العمل، وفي المقدمة حيدر، الذين يتقاضون رواتب الصحافيين الكبيرة أحسّوا بالحرج إزائي، فقد تبارى الجميع في تعويض ما يعدّونه (غبنا لحق بي)، فكثرت دعواتهم لي ولزوجتي وحرصوا على أن يدفعوا هم حسابي في أي مكان عام نذهب إليه. ومع أن عيشي كما ترى لم يكن ضنكا فقد ظل حيدر على إحساسه بذنب المقصر إزائي وألف أن يتحفني بالهدايا ويحيل إلي الكثير مما يتلقاه هو منها بوصفه رئيس التحرير. وحرص حيدر على أن أتنقل أنا بسيارة المجلة أيا كانت الجهة التي أذهب إليها، حتى لا أتكبد نفقة المواصلات، وكان يصر على نقلي بسيارته الخاصة حين تكون سيارة المجلة مشغولة.

في أجواء العمل الكثير، المتنوع، الجذاب في واقع الأمر، وبإصرار حيدر على أن يشركني في كل ما يشتغل به وحرص على تقديمي إلى نخبة السياسيين والمثقفين والنقابيين الذي حقّوا بالمجلة وألفوا أن يترددوا على مكاتبها، تيسرت لي الأجواء ذاتها التي تيسر لي مثلها في دمشق ووجدتني منغمساً في الشأن الجزائري وهموم ناسه، وخصوصاً ناس اليسار وهمومهم. ولعلك تعرف أن هموم الجزائريين لم تكن قليلة.

كان الناس الذين جمعهم الكفاح الوطني ضد الاستعمار الفرنسي في جبهة واحدة قد أخذوا في التمايز بعضهم عن بعض. وكانت الخلافات التي تقع على جذورها في العهد السابق قد شرعت في توزيع الناس على كتل متصارعة بتأثير متطلبات بناء العهد الجديد وأعبائها وتعدد وجهات النظر وتباين المصالح والأمزجة. نشطت الخلافات وبلور ما وقع منها داخل حزب جبهة التحرير تيارين رئيسين، أحدهما هذا اليساري الذي وجدتني في لجته، والثاني هو التيار اليميني أو المحافظ. وقد ضم كل من التيارين أشتاتاً من العناصر والكتل، فاختلط الحابل بالنابل وتعقدت الصورة.

وإذا عناك أن تعرف مزيداً من التفاصيل، فلك أن تعرف، إذاً، أن التيار اليساري ضم اشتراكيين قوميين، وإسلاميين متنورين، وماركسيين من مختلف الأصناف، لينينيين، وماويين، وجيفاريين وتروتسكيين. وقد أوجد هؤلاء لأنفسهم قواعد ذات نفوذ في هيئات الدولة والمجتمع، وكانت لهم الغلبة في منظمات العمال والشبيبة والنساء. وكانت غالبية أعضاء المكتب السياسي لحزب الجبهة واللجنة المركزية وكوادر الحزب النشيطة من المحسوبين بصورة أو بأخرى على هذا التيار. وقد تمركزت طروحات هذا اليسار على الدعوة إلى تكريس تجربة التسيير الذاتي للمزارع والمصانع والديمقراطية الشعبية بدل الديمقراطية البرجوازية وتعزيز التعاون مع حركات التحرر الوطني في العالم العربي وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ومع كوبا، والصين الشعبية والاتحاد السوفييتي. وفي هذا الخضم اليساري بإجماله، بدا لي وضع الحزب الشيوعي

الجزائري جاذباً للانتباه. كان ميلي إلى الشيوعيين قد تأسس في دمشق. وقد أقمت فيها علاقات خاصة مع عدد من شيوعييها، وصار لي فيها أصدقاء منهم، أعزهم ويعزونني. وعندما جئت إلى الجزائر ووجدتني غارقاً في شؤونها العامة، كان من الطبيعي أن أتصرف بهدي هذا الميل، وكانت الفرصة ميسرة، إذ أن الشيوعيين يدعمون المجلة ويتابعون العمل فيها عن كثب ويسهمون فيه. ولعلك تعرف كيف أن سمعة الشيوعيين الجزائريين قد تعرضت خلال سنوات الثورة الأولى على الاحتلال إلى إساءات بالغة، لأن موقفهم منها كان في البداية مضطرباً ولأنهم تأخروا بعض الشيء في حسم أمرهم بين أن يستقل شيوعيو الجزائر عن شيوعي فرنسا أو يواصلوا نهج العمل المشترك القديم. وبعد الاستقلال، مع تشبث قيادة العهد الجديد بحظر العمل على أيّ حزب سوى حزب الجبهة، أبقى الحزب الشيوعي على سرية تنظيمه المغالي بها وأوكل إلى نفسه مهام عديدة. فمع تأييد الحزب للتيار اليساري ككل وانهماكه في نشاطاته، كان عليه أن يقاوم اليمين، وأن يحاول الحد من غلواء القوى اليسارية، وخصوصاً الماركسية المتطرفة التي تناوئه وتصفه بالاعتدال وتعدّ الاعتدال تهمة.

أما التيار اليميني، فتكونت نواه الرئيسة من المحافظين من أعضاء حزب الجبهة من كل المستويات. وقد استقطب هذا التيّار بدوره أصنافاً شتى من الناس والكتل، فكان منهم المتضررون من إجراءات التسيير الذاتي والتدابير الأخرى ذات الوجه الاشتراكي، كما كان منهم ذوو النزعات الاجتماعية المحافظة ومعظم الذين أسهموا في الكفاح الوطني بدوافع دينية أو وطنية متزمتة. وقد حظي هذا التيار بمساندة معلنة أو خفيّة من أجهزة الدولة البيروقراطية، وكان له نفوذ كبير في الجيش وبين موظفي المراتب العليا في الإدارات المدنية. وكان من حظ هذا التيار، خصوصاً حين يتعلق الأمر بالحديث عن يمين حزب الجبهة، أنه حظي بزعيم ذي سمعة طيبة هو وزير الدفاع قائد الجيش عضو المكتب السياسي العقيد هواري بو مدين.

غني عن البيان أن الانقسام بين التيارين لم يعن تمايزاً بينهما على الدرجة من الوضوح التي قد يوحي بها الوصف الوجيز لهما. فقد تداخلت المواقع بين التيارين مثلما تداخلت داخل كل منهما. واختلطت الأفكار السلفية بالمعاصرة، والمحافظة بالثورية، هنا وهناك وعلى الجانبين وفي البرازخ التي تمتد بينهما والمساحات التي تنداح حولهما كليهما. وكان التداخل والاختلاط محيرين في كثير من الحالات. فلم يكن من النادر أبداً أن تقع في صفوف اليسار على متدين مفتون بعدالة الشريعة الإسلامية وهو يتصور أن هذه الشريعة هي قاعدة الدعوة إلى الاشتراكية. كما لم يكن من النادر أن تقع على ماوي ساخط على اليسار وناشط في الطرف الآخر.

وبين الجميع، بدا لي موقف الرئيس أحمد بن بيلاّ هو الأدعى إلى الحيرة منذ تسنى لي أن أتفحص المشهد الجزائري بتفاصيله. فقبل الاستقلال، كانت لهذا القائد المنحدر من منبت اجتماعي متواضع شعبية طاغية، وقد اتسعت شعبيته خلال سنوات أسره الخمس من قبل الفرنسيين، اتسعت في الجزائر كما في العالم. وبهذه السمعة، صار أحمد بن بيلاّ رمزاً تتمثل به الجموع المنادية بحرية الشعوب في أي مكان في العالم، وفي البلاد العربية على وجه الخصوص. وقد جئت إلى الجزائر وأنا أسير هذه السمعة. وفي المنافسات الأولى التي اقترنت بإعلان الاستقلال، انحاز بن بيلاّ بحماس إلى اليسار، ونادى بالاشتراكية، وتبنى التسيير الذاتي، وتعهد أن يخدم العهد الجديد الفقراء، أي غالبية أبناء الشعب الساحقة، وأقام صلات شخصية مع أشهر القادة الثوريين في العالم، واتخذ لنفسه زيّا اقتبسه من زي ماوتسي تونغ وبذلته الزرقاء الشهيرة، وسكن في شقة من ثلاث حجرات، رافضاً الإقامة في القصر المخصص لرئاسة الجمهورية، وأحاط نفسه بكل ما ومن يعزز سمعته اليسارية. إلا أن شيئاً في الجو، شيئاً التقطته أنا بحواسي المدربة قبل أن ينبهني أصحابي إليه، كان قد بدأ يشوب سمعة هذا الرجل ويضعه في موضع المحتاج إلى البرهنة على أنه يستحق هذه السمعة.

لقد وجد بن بيلاً نفسه منذ صار رئيس دولة مضطراً إلى أخذ توازنات القوى القائمة بعين اعتباره. وشيئاً فشيئاً، وجد الرجل نفسه حريصاً على أخذ التعقيدات التي تكتنف الشؤون الاجتماعية والثقافية والسياسية في حساباته لمواقفه. ولم تتطابق حسابات الرئيس بالضرورة مع حسابات اليسار. جرى هذا دون أن ينقص الرجل انحيازه إلى اليسار أو يبلغ في الاختلاف معه الحدّ الذي يجعله هو مقبولاً من اليمين. وانتهى الأمر إلى أن صار بن بيلاً موضع انتقاد يساريين كثيرين فيما بقي الخصم الألدّ لليمين. أخذ اليمين على بن بيلاً يساريته، وعدّه اليساريون وسطياً، وكان عليه وهو رأس العهد وواجهته التي تتركز حولها الأضواء أن يتحمل مسؤولية عجز العهد عن تلبية ما ظن الناس أن الاستقلال سيلبيه من حاجاتهم.

ولئن اقتصرت انتقادات معظم اليساريين لبن بيلاً على المجالس الخاصة التي يتناول الأصحاب فيها الآراء والهواجس بصراحة، فقد جهر بعض غلاة اليساريين ليس بالنقد وحده، بل بالشتائم. وكم كان مثيراً لدهشتي أنا الوافد إلى البلد حديثاً أن أسمع ما يقوله كاتب يساري هو العفيف الأخضر عن بن بيلاً. كان بن بيلاً عند العفيف الأخضر هو «السيرجنت»، أي الشاويش، أو الرقيب الذي أوصله سوء الأحوال إلى رئاسة الجمهورية. لم يذكر العفيف بن بيلاً أمامي باسمه أبداً، بل بهذه الصفة «السيرجنت»، وهي صفة يوردها منتقد بن بيلاً المتشدد ليذكر بما كان عليه الرجل في مطلع شبابه عندما جنّد للخدمة في جيش فرنسا، وليوحي بأن كفاءات الذي صار رئيس جمهورية لا تزيد على كفاءات سيرجنت.

من بين قادة التيار اليساري في حزب الجبهة، تعرفت على عضوي المكتب السياسي اللذين مرّ ذكرهما، حربي وزهوان، وتيسر لي أن ألقاهما بين وقت وآخر، دون أن ترتقي علاقتي بأي منهما إلى ما يزيد بكثير على علاقة صحافي بمسؤول. أما القائد الذي توثقت علاقتي به فهو بشير القاضي. كان هذا عضواً نشيطاً في اللجنة المركزية لحزب الجبهة موكلاً بالإشراف على نشاط

منظمة الشبيبة. وقد أولاني الرجل عناية خاصة وزادت عنايته بي منذ عرف أني فلسطيني. كان بشير القاضي يسارياً دون تبجح، وكان يضيق بالمزايدة السياسية أيا كان موضوعها أو الدافع إليها، ولعل هذا هو أول ما جذبني إليه. تعرفت على الرجل في اجتماع لكتاب المجلة التي يسهم هو في الكتابة لها. وقد قادنا الحديث يومها إلى الشأن الفلسطيني، فأظهرت ضيقي بالمتاجرة العربية بقضية فلسطين والمزايدات التي يتبارى معظم السياسيين في تأجيجها. قلت رأيي هذا في سياق مداخلة تطرقت فيها إلى موضوعات أخرى. وتحدث آخرون حول موضوعات عديدة فلما تحدث بشير، اجتذب انتباهي حرصه على العودة إلى موضوع المزايدة الذي تخطيناه ثم ثناؤه على رأيي. وقد روى القائد الجزائري في هذا الاجتماع واقعة لم تبرح ذاكرتي منذ ذلك الوقت.

جرت الواقعة أوّل ما استلم أحمد بن بيلاّ رئاسة الجمهورية. كان الجميع وقتها منهمكاً في ترتيب وضع السلطة الجديدة، وكانت المشاكل الداخلية كثيرة، خصوصاً بعد المنازعات بين قادة جبهة التحرير التي تلت انهيار سلطة الفرنسيين وسبقت البتّ بتسلم بن بيلاّ الرئاسة. في خضمّ هذه المشاغل، وزعت وكالة أنباء اليونايتدبرس تصريحاً منسوباً لرئيس الجمهورية الجديد يقول فيه إن الجزائر سوف توجه مجاهديها الذين فرغوا للتو من حرب الاستقلال إلى فلسطين كي يحرروها ويقضوا على إسرائيل. وبعد مراجعة بن بيلاّ، اتضح أنه لم يستقبل أحداً من اليونايتدبرس، ولم يدل بهذا التصريح أو بمثله لأيما أحد، ولم يفكر بأن يرسل المجاهدين الجزائريين إلى أيّما مكان. واستخلص المعنيون بالأمر أن نشر التصريح المزعوم استهدف إحراج بن بيلاّ والقيادة الجزائرية كلّها. فالسكوت عن التصريح فيه إقرار بأن الرئيس أدلى به ووضع لقادة الجزائر أمام الرأي العام العربي في خانة المزايدين. وتكذيب التصريح فيه مجازفة بأن يخسر العهد الجديد شيئاً من شعبيته ويصدم مشاعر جزائريين كثيرين يتمنون لو أمكن التوجه حقاً إلى الجهاد في البلد المقدس وتحريره.

وقد شاقني أن أعرف كيف تصرفت قيادة العهد الجديد إزاء هذا الشرك الذي أعرف أنه كثيراً ما نصب لآخرين من المسؤولين في بلاد العرب. سألت محدثنا، فقال إن أعضاء القيادة انقسموا في الرأي بين مطالب بإصدار تكذيب رسمي وداع إلى إهمال الموضوع. وكان محدثنا من الذين ألحّوا على ضرورة إصدار تكذيب، وقد قلت له يومها إني أفهمك جيداً، ولو كنت في مكانك لما هدأت إلى أن ينشر التكذيب. هذا الحوار بيني وبين بشير القاضي شكل فاتحة العلاقة الطيبة التي نمت وتطورت مع الأيام.

على صعيد آخر، أو قل: على مستوى آخر، تعرفت على عدد من مجاهدي الثورة الجزائرية من ناس القاعدة، ممن وقع على عاتقهم أثقل الأعباء في أيام الشدّة، ثم لم يصيروا بعد الاستقلال نجوماً ولا قادة ولا مسؤولين في مؤسسات الدولة. وخجا، أو الرجل الذي عرفته بهذا الاسم ولم أعرف له اسماً غيره، هو الأشد حضوراً بين الذين بقوا في ذاكرتي من هؤلاء.

عرفني صبحي عرب على خجا هذا حين احتجت إلى تأثيث شقتي وكان المبلغ الذي بحوزتي متواضعاً، وقال صبحي إن خجا هو الشخص الوحيد في الكون الذي يستطيع أن يجيئني بما أحتاج اليه بالمبلغ القليل الذي لا أملك غيره. وقد ينبغي أن أبدأ بتنبيهك إلى أن اسم خجا، ليس هو الاسم الحقيقي للرجل الذي أحدثك عنه ولكن جميع الناس ينادونه به وهو نفسه لا يفصح في تعامله مع أحد عن أي اسم آخر، حتى مع أن اسم خجا ليس سوى واحد من أسماء مستعارة عديدة استخدمها الرجل أثناء تقلب ظروف حياته، هو الذي كان عندما تعرفت عليه، مشرفاً على الستين.

أما لماذا لم يعد خجا إلى اسمه الأصلي بعد أن زالت الأسباب التي ألجأت المجاهدين إلى استخدام الأسماء المستعارة فإن في الأمر سراً لم أتمكن من جلائه. وهناك من قال لي إن اسم الرجل الأصلي مقترن بفترة من حياته لا يريد هو أن يعرفها الناس. بل إن هناك من تكهن فقال إن الرجل تزوج حين

كان معروفاً باسمه الأصلي عدة نساء واولدهن أولاداً كثيرين، ثم هرب من الجميع بحكم انهماكه في العمل السرّي، ثم لم يشأ أن يستعيد أعباءه العائلية من جديد. وهناك من روى أن خجا هذا انضم في مطلع شبابه إلى الجيش الفرنسي، باسمه الأصلي طبعاً، وصار سائقاً لسيارة ضابط منحدر من عائلة ارستقراطية وانتهى به الأمر إلى أن قتل ضابطه هذا وفرّ من الجيش وتخفى سنوات طويلة تحت شتى الأسماء إلى أن اشتعلت الثورة والتحق بها. ولو سألت خجا عن أي من هذه الروايات فلن تسمع سوى كلمة واحدة: «خاطينا!» أي: دع عنك هذا!

أيا كان الأمر، فإن عارف خجا لا يحتاج إلى تحري ماضيه ليدرك أن الرجل مارس ضروباً شتى من الأعمال وبرع فيها، وأنه انخرط حقاً في سلك الشرطة أو الجيش ولفت نظر الضباط الفرنسيين فاستخدموه في منازلهم لمدة أو أخرى واستفادوا من خبراته. وبين ما يروى عن زيجات الرجل المتعددة، هناك واحدة غير مشكوك فيها ومن المؤكد عليه أنها تمت منذ زمن طويل. فزوجة خجا التي تعيش معه تقاربه في العمر، وأعمار العدد الكبير من أولادهما تظهر أنهما تزوجا منذ عقود. وهو، على أي حال، مثله في هذا مثل معظم الجزائريين، لا يحبّ أن يتحدث عن شؤونه الزوجية ويتأذى لو جاء أحد على ذكر الزوجة.

الأمر الآخر المؤكد عليه أن خجا انضم إلى تنظيم جبهة التحرير الفدائي منذ تأسيسه في العاصمة؛ قد تتعدد الروايات حين تذكر دوافعه، لكن لا خلاف على أنه كان بين أوائل الذين تشكلت منهم نواة التنظيم السري في حيّ الأبيار. ومجاهدو هذا الحي يشهدون بأن خجا كان من السباقين في الالتحاق بمنظمتهم. ويشهد هؤلاء أن شخصية خجا اتسمت بالبراعة في تنفيذ ما أوكل إليه من مهام، والجرأة، والقدرة الفائقة على التكتم والتخفي. ولأن انضمامه إلى التنظيم السري سبق الإعلان عن انطلاقة الثورة، فقد طال زمن انصراف خجا إلى العمل الثوري. ولم يحصل الرجل من الثورة إلا على ما يفي بحاجته من الطعام والسجائر وعلى القليل من المال الذي لا يكفي لإعالة

أسرة. فترتب على الزوجة والأولاد أن يعانوا الحرمان فعاشوا حياة أقرب إلى حياة المشردين، والتحق الذين كبروا منهم بصفوف الثورة، وبقي الصغار في كنف الأم الصابرة. بالرغم من ضنك عيشهم، كان لأولاد خجا عزاء تمثل في الشعور الذي نمته أمهم فيهم بأنهم أبناء بطل. وكان في الزيارات الخاطفة التي يقوم بها الأب لأسرته ما يعزز لدى الأبناء شعورهم بأهمية أبيهم ويصبّرهم على ما هم فيه.

ولعلك تعرف أن الجنرال ديغول قام وهو رئيس لجمهورية فرنسا بزيارة إلى الجزائر قبيل ظفرها بالاستقلال وفي نيته أن يتحقق بنفسه من مدى نفوذ جبهة التحرير. وشاءت الجبهة أن يتضح للزعيم الفرنسي صاحب السلطة الأعلى في بلاده عمق توق شعب الجزائر إلى الاستقلال ومدى التفافه حول الجبهة. فصدرت الأوامر لتنظيمات المدن بحثّ الناس على التظاهر أثناء زيارة الجنرال وحمل أعلام الجبهة وتحدّي جيش الاحتلال. وقتها، ظهر خجا علنا في الحيّ، وبرع في التحريض، وتألق في المظاهرات، ورآه كثيرون من الذين سبق أن سمعوا باسمه، وتكرست شعبيته في الحيّ قبل أن يعود إلى الاختفاء. ثم جاءت المفاوضات بين قيادة الجبهة والفرنسيين، وتعاقبت الشهور، وتموجت الآمال والتوقعات، فتكرر ظهور خجا واختفاؤه، ولمس الناس آثار نشاطه في الحالتين وتداولوا الأنباء الصحيحة والأخرى المهولة بشأنه.

المفاوضات تمخضت عن اتفاقية شهيرة، هي اتفاقية ايفيان، أقرت فرنسا بموجبها بحق الجزائر في الاستقلال، وانتهت حكاية أن الجزائر جزء من فرنسا وراء البحار. وعرف الجميع أن جبهة التحرير مقبلة على استلام الحكم. وقتها، فور الإعلان عن الاتفاقية، انتسب ألوف الجزائريين إلى الجبهة. بشير القاضي قال لي إن العدد بلغ ثمانية عشر ألف منتسب جديد في يوم واحد. ولك أن تحزر دون خشية الوقوع في أي خطأ، أن معظم هؤلاء كان من الانتهازيين. وبإمكانك أن تحسب في الانتهازيين كل عضو انتسب إلى الجبهة في الأيام التالية أو معظم المنتسبين. وقد كانت سمة هؤلاء صارخة إلى حدّ اتخذت قيادة الجبهة معه

قراراً بإيقاف تنسيب أعضاء جدد. ولكي تدرك دلالة العدد الذي ذكره بشير القاضي لك أن تعرف أن عدد أعضاء منظمة الجبهة السرية في العاصمة لم يبلغ الألف أو لم يزد عنها في أي وقت قبل الاتفاقية. فإذا أضفت إلى انتهازيي الفرصة الأخيرة، كل ثوري أغوته منافع السلطة وتوفرت له الفرصة فانصرف إلى جنيها، فلك أن تتصور ما آل إليه الحال، وكم اشتد التزاحم. وعلى قاعدة أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق، ومع احتدام الخلافات بين نخب الحزب والسلطة وحاجة المختلفين إلى استزلام المؤيدين، انفتحت أوسع الفرص أمام الانتهازيين، واستتبع هذا تراجع مكانة المجاهدين الذين تعففوا عن التخويض في حمأة الصراعات الداخلية والتكالب على المنافع أو الذين لم يعرفوا كيف يشقّون طريقهم وسط الزحام.

في هذا الجوّ، وجد خجا نفسه منسياً في الظل. هل تعفف الرجل؟ أم أن خبراته قصرت، لست أدري. الذي أدريه أن خجا هذا لم يكن سوى واحد من المجاهدين، بالألوف، انتهوا إلى الظل أو انسحبوا إليه من تلقاء أنفسهم. صحيح أن بعض قادة حزب الجبهة تنبهوا إلى الوضع ودعوا إلى الاهتمام بشؤون المجاهدين القدماء. وصحيح أن منظمة خاصة بمجاهدي الثورة الجزائرية تشكلت بعد الاستقلال وأحيط تشكيلها بوعود كثيرة. وصحيح أيضاً أن قوانين وأنظمة هدفها إنصاف المجاهدين القدماء أقرت وأعطت للمجاهد أفضلية في الحصول على فرص العمل المتيسرة. غير أن هذا كلّه لم يبدل طبيعة الوضع الذي وصفته لك. فالطابع الانتهازي الذي غلب على تكوين الجبهة ذاتها انعكس في تكوين منظمة المجاهدين القدماء، والأفضليات التي وفرها القانون تمتع بها أدعياء الجهاد أكثر مما تمتع بها المجاهدون الأصحاح. وقد يحسن أن تعرف أن المرشح لعمل ما كان مطالباً بأن يقدم شهادة تثبت أنه مجاهد. ومع غياب سجلات مكتوبة، صار المطلوب هو شهادة يوقع عليها اثنان أقر لهما من قبل بأنهما كانا مجاهدين. وصار من يظفر بمثل هذه الشهادة مؤهلاً هو نفسه للشهادة لغيره. فما كان أيسر الحصول على

الشهادة وما أكثر الذين امتهنوا بيعها بيعاً لمن يشاء!

ولكي يعيل خجا من بقي في الدار من أفراد أسرته، ولكي يفي بحاجات ابنه وأحفاد له فقدوا معيلهم في حرب الاستقلال، وجد خجا نفسه من جديد كما كان في شبابه منهمكاً في أعمال شتى متفرقة. ومع استكانته إلى اليأس من مستقبل العمل الثوري، أدار خجا ظهره لسمعته بما هو مناضل وطني محترف وراح يتعاطى أي عمل يدر مالاً مهما تدنى شأن هذا العمل. وفي سعيه إلى إعالة أسرتين، سرعان ما اهتدى خجا إلى تجارة راجت كثيراً في ذلك الوقت هي تجارة الأثاث والأدوات المنزلية المستعملة. كان ألوف المستوطنين الفرنسيين الذين غادروا البلاد عند استقلالها قد خلفوا أكواماً من الأثاث والأدوات في منازلهم المتروكة، فنشأت هذه التجارة. وكان على خجا هنا أن يتنافس مع مئات متعاطي هذه التجارة على زبائن محدودي الموارد. وكعادته كلما تولى عملاً، برع خجا في هذا الميدان أيضاً، واشتهر بأنه أقدر الجميع على أن يجيء بما يطلبه أي زبون مقابل أي مبلغ يملكه. أما كيف كان خجا يتدبر الأمر في هذا النحو فقد بقي هذا سراً لا يبوح به. هل كان يحصل بنفسه وحده على الأشياء التي يبيعها أم يشغّل آخرين، هذا أيضاً بقي سراً. أما قدرات خجا على جلب أشياء يبيعها بأرخص مما يبيعها أي أحد غيره فقد كانت تدهش كل الذين عرفوه، بمن فيهم أقرب الناس إليه. لم يملك خجا متجراً ولم يأذن لزبون بأن يجيء إليه في منزله. كان الزبون يقع على خجا متجولاً في أنحاء الحي أو يجيئه وهو في المقهى الذي يتردد عليه، يطلب الزبون آلة تصوير أو جهاز تلفزيون، أو طقم مائدة، أو غرفة نوم أو ثياباً، أو أي شيء، فيحصل بعد يوم أو أيام قليلة على ما طلبه. يحتاج الزبون لوثائق بديلة عن وثائق فقدها، أو لتدبير منفعة عند شخص أو في مؤسسة فينال ما يحتاجه. لم يكن عليك إلا أن تطلب، فإذا هزّ خجا رأسه موافقاً فإنك حاصل على ما تريد لا محالة. وما عليك بعد ذلك، وليس قبله، إلا أن تدفع المبلغ الذي يتناسب مع وضعك المالي.

وفيما هو منصرف إلى هذه التجارة، بقي لخجا شخصيته المقدامة، وانضاف إليها سخطه على الحكام الجدد واستهانته بهم وطول لسانه في التشنيع عليهم. وكان التشنيع عند خجا مقصوداً من أجل التشنيع، ربما من أجل الترويح عن النفس.

وكان زملاء الجهاد القدامى الذين لم يلتحقوا بركب الحكام والوظائف الحكومية يلتقون في مقهى صغير في ناحية من حيّ بن عكنون يملكه ويديره ويخدم فيه واحد منهم، يشربون الشاي الأخضر، والقهوة الممزوجة بالحليب، والعصير المعلب، يتاجر تاجرهم، ويستريح من عناء العمل من توفر له منهم عمل، ويستعيدون ذكريات الأيام السالفة، ويتكاشفون حول الأسرار القديمة، ويتبادلون الآراء حول التطورات الجارية، ويتبارون في السخرية من الحكام ويؤلفون التشنيعات، ويلوكون المرارات. ويظل هذا هو شأنهم إلى أن يحين موعد إقفال المقهى، فينصرف منهم إلى منزله من ينصرف ويتوجه الآخرون إلى منزل واحد منهم حيث يمكن أن يشربوا الكحول ويشتموا بحرية أكثر.

اجتذبني خجا مرة إلى جلسة المقهى ففتنني جوها، الناس، والأحاديث التي تنطلق دون رقابة على النفس، والصدق الذي يسم الأحاديث، وموضوعات هذه الأحاديث، ونبرة التشكي غير الذليل، والفيض من حكايات أيام الثورة. وقد صرت أتحين أي فرصة فراغ لأنضم إلى رفاق المقهى وأسمع منهم ما لا يوفره أي مصدر آخر. وبإمكاني أن أقول لك إن خجا أحبني بمقدار ما أحببته وأن رفاقه تلقوني بمودة وحفاوة صادقتين.

جزائري آخر، من صنف ومستوى مختلفين عن صنف خجا ومستواه، تعرفت عليه منذ حللت بالجزائر ولم أبتعد عنه إلا يوم رحيلي. كان هذا محرراً في المجلة سأذكره لك بالحرف الأول من اسمه: ج. وكان متميزاً في كل شيء.

التحق ج. هذا بالثورة منذ كان فتى، ترك مدرسته وانضم إلى الثوار، دفعته إلى ذلك روحٌ مغامرة لم تكف عن إقلاقه حتى بعد أن كبر، ورغبة في الحصول

على اعتراف الآخرين به بما هو إنسان يرى أنه نضج. كان ج. يتقن الفرنسية قراءة وكتابة وحديثاً كما يتقنها باريسيّ عريق. وإلى إتقانه العامية الجزائرية وتمتعه بأكثر خصائصها فرادة، تعلم ج. العربية الفصحى، أتقن الحديث بها حتى مع أن نطقه لبعض حروفها ظل ثقيلاً، وكان بإمكانه أن يكتب بالعربية، غير أنه كان يكتب ببطء، وظل حتى بعد أن تحسنت عربيته بحاجة إلى من يراجع ما يكتبه حتى يطمئن إلى صوابه. من هنا توثقت علاقتي بـ ج. فقد كنت أنا الذي يحرر ما يكتبه هو، وألفت أن أولي مواده عناية زائدة، وأسعى في غضون ذلك إلى تحسين عربية صاحبي.

وقد اكتشفت في ج. إلى ميزاته ومزاياه الأخرى، مخزناً غنياً يخزن كل ما يتصل بالثورة الجزائرية من حكايا وأسرار. واتضح أن ج. يحظى بذاكرة فذّة القدرات تحتفظ بكل ما وقع نظره عليه أو التقطته أذناه أو قرأه أو استشعره وتعيد بثه بيسر. فإذا عرفت أن ج. الذي طور ثقافته بنفسه خلال سنوات الثورة قد خدم في الأجهزة الإعلامية والثقافية وكان في أغلب الأوقات قريباً من مراكز القيادات العسكرية والمدنية، فبإمكانك أن تقدر كما قدرت أنا قيمة هذا المصدر ومقدار ما سعدت باغترافي من خزينه.

تنقل ج. تبعاً للظروف بين مواقع عدة. وفي السنتين اللتين سبقتا الاستقلال أقام ج. في تونس في قواعد الثورة الجزائرية في البلد الجار، فتيسر له أن يزيد معرفته باللغة العربية ويقرأ كتب التاريخ الثوري والفكر السياسي العربيين، فصار ملماً بأدبيات الشيوعيين والناصريين والبعثيين والإخوان المسلمين. ودرس ج. الإسلام، عقيدة، وتشريعاً، وتقصى تأثير الإسلام على تكوين الشخصية الجزائرية، فاستخلص أن للإسلام دوراً إيجابياً في الحفاظ على هذه الشخصية في وجه الاستعمار ومحاولات الفرنسة. لكن ج. لم يصر متديناً بسبب ذلك، ولا كفّ عن مخالفاته المتعددة لقواعد الشريعة الإسلامية. كل ما في الأمر أن دراسة ج. للإسلام سلحته بالحجج التي يستخدمها في جدله مع القوميين والماركسيين، تماماً كما أن دراسته لفكر هؤلاء سلحته

بحجج يجادل بها الإسلاميين. وكان ج. كما ينبغي أن يقال مجادلاً لا يأذن لمحاوره بالفوز عليه.

بكلمات أخرى، أوغل ج. في دراسة عقائد الآخرين، دون أن يصطفي لنفسه عقيدة بعينها. وكان أشدّ ما يبهج ج. هو الكشف عن التباين بين ما يبثه أصحاب أي عقيدة من أفكار وبين ما يمارسونه على أرض الواقع والجهر بخيبة أمله في سلوكهم. وقد صارحني ج. بأن خيبة أمله في قادة الثورة الجزائرية كانت قاسية على نفسه؛ كان الفارق كبيراً بين ما يقوله القادة وما يفعلونه، كان أكبر من أن يقبله الفتى الذي ضحى بكل شيء ليلتحق بالثورة، فخلفت الصدمة في روحه شرخاً لم يبرأ منه. وصار من الصعب أن تقنع ج. بوجود ناس أو قوى سياسية يطابقون بين القول والسلوك. اتسمت شخصية ج.، إذاً، بالسلبية، وصارت معقدة أو قل: مركّبة. إلا أن تراكم خيبات الأمل لم يحل بين ج. وبين أن ينشط بهمة عالية ويؤدي ما يتولاه من مهام بحماس ومثابرة. وفي هذا بالذات كان يكمن تميز ج.؛ تراه وهو منكب على العمل فتظن أنك إزاء إنسان شديد الإيجابية مصمم على إنجاز أقصى ما يمكن إنجازه، ثم تراه وهو يسخر من كل إنسان يرد ذكره ويستخف بأي إنجاز فتدرك كم هي عميقة خيبات آمال هذا الإنسان.

ظفر ج. بعد الاستقلال بعضوية لجنة الإعلام والثقافة التابعة للمكتب السياسي وفيها تعرف على حيدر. وقد قدّر حيدر كفاءات ج. تقديراً صحيحاً. وظن اليساري سليل الأسرة العريقة المجبول بالرومانسية الثورية أن بإمكانه انتزاع صاحبه ج. من سلبيته فأولاه عنايته وحاول اجتذابه إلى أي عمل يتولاه. أما مشاعر ج. تجاه حيدر فقد بدت معقدة. كان ج. يحبّ حيدر ويمقته في آن واحد، يقدّر همة صاحبه ونشاطه ويستهين بها في الوقت ذاته. وعندما تصدى حيدر لمهمة إصدار **الشباب**، عرض على صاحبه أن يكتب لها وأغواه بأن من شأن هذا أن يجوّد لغته العربية. كان ج. لا يكتب إلا للصحف الناطقة بالفرنسية وكان له في هذه الصحف اسم لافت للنظر بالرغم من صغر سنه.

وقد استهان ج. بعرض حيدر أول ما تلقاه وسخر من المشروع وتوقع لصاحبه الفشل. غير أن ج. بدّل موقفه فجأة، فلم يقبل أن يكتب للمجلة، فحسب، بل طلب أيضاً أن يتفرغ للعمل فيها، دون أن يكف عن السخرية: خيبة أمل أزمنت فجعلت صاحبها شكاكاً، ورغبة في إثبات الذات تستعر تحت الرماد!

تعامل ج. معي في البداية بتحفظ أقرب إلى النفور، إنه واحد من هؤلاء الذين لا ينفتحون على الآخرين بسهولة حتى لو كان هؤلاء من ناس المحيط الذي يألفونه، فكيف وقد انضم إلى محيطه هذا الغريب! ووقع ج. بشأني تحت تأثير عاملين متبايني التأثير: انكماشه تجاه الطارئين على محيطه وفضوله لمعرفة هذا الفلسطيني القادم من سورية، البعثي المتعاطف مع الشيوعيين، الصحافي الذي جاء إلى الجزائر بعقد عمل مع وزارة التعليم. وعندما تغلب الفضول على التحفظ، اكتشف ج.، كما سيفسر لي الأمر بنفسه، أني من الذين يسهل التفاهم معهم وأن لساني ليس أقل حدّة في النقد من لسانه، ووقع على الكثير مما هو مشترك بيننا. وهكذا، لم يلبث أن انفتح ج. علي بكليته فصرنا صديقين. كنّا نلتقي بحكم العمل ونتحادث حول شؤونه. فصرنا نلتقي بتدبير مسبق أيضاً ونتبادل الآراء والمعلومات ونتحاور حول كل شيء.

والحقيقة أن أحاديث ج. هيأت لي أن أعرف الصورة الأخرى للثورة الجزائرية، صورة النخبة على وجه الخصوص، الصورة المقابلة لتلك التي استقيتها عن بعد والمتممة لما ترسمه أحاديث خجا ورفاقه. ومع ميله الدائم إلى إبراز السلبيات، لم يفتقر ج. إلى القدرة على عرض الحقائق بنزاهة. وكان ج.، مثله مثل كل خائبي الأمل الذين لا ينسحبون من الساحة، مسكونا بالرغبة في البوح، وقد وقع فيّ على مستمع جديد ويقظ، فما أسرع ما فتح أفواه قِربه! ولا أبالغ إن قلت لك إن أحاديث ج. جعلتني أعرف من أحوال نخبة الثورة الجزائرية ما يعرفه أخص ناسها. حتى أن حيدر وقد لاحظ كم اتسعت معرفتي، صار يكلفني كتابة موضوعات تغطي الشؤون الجزائرية، بل إنه كثيراً ما ندبني إلى تناول الموضوعات الحساسة التي يحجم المحررون

الجزائريون عن تناولها.

وشيئاً فشيئا، مع تنوع المصادر وغناها، تنحت الصورة التي جئت بها، الصورة التي لم تحتوِ إلا على ما هو فاتن، وتشكلت الصورة الواقعية، صورة الثورة كما هي في واقع أمرها. وقد كانت هذه صورة لثورة عارمة، قام بها وقاد نشاطاتها ناس من لحم ودم، ناس من شتى الأصناف البشرية، لديهم ما لدى البشر من قدرات متفوقة وأخرى قاصرة، من نوايا حسنة وأخرى غير حسنة، وكل منهم معرض إلى ما يتعرض له البشر من تأثير المزاج الشخصي والمصالح الخاصة والغوايات مثلما هو خاضع أيضاً لتأثير المزاج العام والمصالح الوطنية.

كانت صورة بن بيلاً، مثلاً، كما ارتسمت عبر المتابعة عن بعد، هي صورة القائد البارع، المحنك، الشجاع، المبادر، المقتدر في مجالات التحريض وتجميع القوى ورص الصفوف، والمترفع عن الصغائر. أما في أحاديث ج. فبن بيلاً إنسان متواضع التعليم، قليل الحظ من الثقافة، قليل الدراية بالشأن السياسي، متقلب المزاج، سريع التأثر بما يتعرض له من طوارئ، واهن اليقظة، مشوش الأفكار ومبلبل المواقف بين الوطنية الجزائرية والعروبة والإسلام والأممية. وأما عند خجا ورفاقه فبن بيلاً هو قائد الثورة الذي لم يروه أبداً ولم يميزوا في التعليمات التي كانوا يتلقونها أي تأثير خاص له، وهو الذي قفز بعد الاستقلال إلى صدارة الحكم وانشغل بهموم النخبة وأهمل هموم ناس القاع، وهو أيضاً المسؤول عن بروز الانتهازيين والفاسدين واحتلالهم مواقعَ النفوذ.

كان ج. يبتسم ابتسامة متخابثة كلما هم بالإفضاء بجديد ثم يستثير فضولي بسؤال يعزز مغزى هذه الابتسامة: «أنت تعتقد أن سي أحمد بن بيلاً، هذا، رجل نظيف اليد، عفيف النفس؟» وكنت أجيب بنعم أو أتروى فأسأله بدوري عما إذا كان لديه اعتقاد مختلف، فيمعن في التخابث: «معك حق في ما تعتقده، ألم يتعفف الرجل عن السكن في القصر ويؤثر السكن في شقة صغيرة كعامّة الشعب؟» عندها، كنت أدرك أن في جعبة ج. سراً ويجيء

دوري للتخابث: «أين الغلط في هذا التصرف؟» فلا يلبث أن ينكشف السر: تجنب بن بيلاّ السكن في القصر لينأى بحياته الخاصة عن الأضواء، وما ذلك إلا لأن له عشيقة سيصدم الجمهور لو عرف من هي. يقول ج. هذا ويذكر اسم العشيقة، ويتركني مبلبلاً فالاسم معروف لي. خذ جميلة بوحيرد، مثلاً آخر! اسم لمناضلة جزائرية ذات شهرة واسعة كرستها الدعايات التي مجدت الثورة وقصائد الشعراء في دنيا العرب كلها، وصورة أخرى من الصور الفتانة. هذه الصورة جردتها أحاديث ج. من هالة القداسة وأعادت تشكيلها، امرأة قامت مرة بما قام به ألوف الجزائريات، بل إن ما أقدمت عليه كان أقل شأنا مما فعلته كثيرات غيرها، كل ما في الأمر أن جميلة هذه اعتقلت وواتتها فرصة استثنائية لتصير شهيرة وتحجب شهرتها بطولات الأخريات. وعندما حاججت ج. بأن بطولة واحدة مشهورة ليست إلا التلخيص الأنموذجي لألوف البطولات المغمورة، لم يسقط في يده، بل واجهني بالابتسامة إياها، فأدركت أن المدهش في الحكاية هو الذي سيأتي فحثثته: «لن تقول لي إنها بطولة زائفة، بطولة جميلة هذه؟» فقال ج. إن هذه الفتاة العادية في كل شيء استثمرت الشهرة وتزوجت المحامي الفرنسي الكبير الذي تطوع للدفاع عنها بتأثير هذه الشهرة، وغادرت بلدها إلى فرنسا ولم تعد تهتم بما يجري فيه، فيما استمرت الأغاني والقصائد التي تمجد اسمها وتحيل من التي تخلت عن بلدها رمزاً لنساء البلد. أما عند خجا ورفاقه فجميلة هذه هي البنت التي لم تتطابق آخرتها مع بدايتها، إنها البنت التي خالفت تقاليد دينها وشعبها وتبعت عشقها للفرنسي، يأخذون على جميلة زواجها بفرنسي ولا يذكرون اسمها إلا مقروناً بالسخط والشتائم.

وإذا كان هذا هو ما حل بصورتي هذين الأنموذجين الساطعين، بن بلاّ وبوحيرد، فلك أن تتصور ما حل بالبقية. خجا ورفاقه، و ج.، وكثيرون من أمثالهم كانوا يتابعون ما يجري ويلتقطون مظاهر القصور والفساد ويجمعون الحكايات عن سلوك المسؤولين ويتلذذون بترويجها، وكان هذا يصل إلي وينضاف إلى ما

أشهده بنفسي.

وهاأنذا أتذكر واقعة جرت قبل نهاية ذلك العام، وكان ج. هو أول من نقل إلي نبأها. فقد حدث أن عضواً في المكتب السياسي أفرط في الشرب في وليمة في بلدة بليده حتى سكر ثم أصر على أن يقود السيارة بنفسه على طريق العودة إلى منزله في العاصمة مع أن سائق السيارة كان معه. وقد أطلق السكران العنان لسيارة السيتروين حتى تجاوزت سرعتها مائة وخمسين كيلومتراً في الساعة، كما شهد بذلك سائقه الذي جلس بجانبه. وكانت النتيجة فاجعة، فقد حصدت رعونة عضو المكتب السياسي أرواح ثلاثة مواطنين، أب وأم وابنهما الشاب. كان هؤلاء يسعون على الطريق حتى يصلوا إلى مكان عملهم البعيد في الوقت المناسب فحصد السكران أرواحهم. تمام الفاجعة تمثل في تدخل الرئاسة لحماية عضو المكتب السياسي حتى من اللوم. فقد حظر على وسائل الإعلام أن تنشر النبأ. ولم يجر أي تحقيق قضائي في الحادث. واستخدم الرئيس بن بيلاّ وزنه بنفسه للتأثير على أقرباء الضحايا، واسترضاهم بفدية دُفعت من ميزانية الرئاسة. فإذا عرفت أن مثل هذه الواقعة لم يكن قليل التواتر، وخصوصاً في مستويات المسؤولية الأدنى من مستوى الرئاسة، فستفهم كيف أن السلبيات لم تمح الصور المجيدة القديمة فحسب، بل شوهت، أيضاً، حتى صور المنجزات الجارية التي يراها الناس وينتفعون بها. أليس صحيحاً أن قطرة سم واحدة قد تلوّث برميل ماء؟!



٩ في الجزائر، لم يعبأ بي الشقيري فلم يسؤني سلوكه

في مطلع العام ١٩٦٥، بعد شهرين من وصولي إلى الجزائر، عقد اتحاد الفلاحين الجزائريين مؤتمره العام الأول التأسيسي. وبحكم عملي في الشباب، توجب علي أن أسهم في العمل التحضيري على صعيد الإعلام وأتابع التحضيرات الأخرى فأطلّ على المشهد الجزائري العام من أوسع أبوابه، باب المسألة الزراعية وهموم الفلاحين، وهي آنذاك أم المسائل في البلد.

كانت المجلة كما صرت تعرف قد باشرت الصدور وحظيت أعدادها باهتمام خاص من قراء العربية وأوساط اليسار. وكان من الطبيعي أن تحظى هموم الفلاحين، وهم غالبية مواطني البلد بحيز واسع على صفحات المجلة، وأن تعكس المجلة مواقف اليسار إزاء المسألة الزراعية وتنتصر لجهوده وهو يسعى لتعزيز مواقعه داخل الاتحاد الذي يجري تأسيسه. والواقع أن التيارات والكتل السياسية كلها، وليس اليسار وحده، حرصت على المساهمة في هذا العمل وتعزيز نفوذها في الاتحاد. ولذا، فإن المنافسة حميت وسعيرها أخذ يشتد كلما اقترب موعد افتتاح المؤتمر. وقد أفضى التنافس، أو قل: الصراع، إلى تبلور موقفين متباينين: أول الموقفين توخى أن يشكل الفلاحون الممارسون فعلاً للعمل الزراعي قوام المؤتمر؛ وثانيهما سعى إلى أن تتشكل أغلبية المؤتمر من البيروقراطيين، أي من الذين يتولون مسؤوليات الإدارة وشؤونها في وزارة

الفلاحة ومؤسسات العمل الزراعي الحكومية. كان الموقف الأول في جوهره ديمقراطياً تقدمياً بمقدار ما عكس الرغبة في تطوير مؤسسات التسيير الذاتي وجعلها في خدمة مصالح الجمهور الواسع واقتصاد البلد. أما الموقف الثاني فكان في جوهره أيضاً محافظاً، أو قل: رجعياً وغير ديمقراطي بمقدار ما استهدف تعزيز سطوة البيروقراطية ومنع الفلاحين من تولّي مسؤولية مزارعهم بأنفسهم.

وفيما يتعلق بعضوية المؤتمر والهيئات القيادية التي ستنبثق منه، تبلور الخلاف حول نقطة مركزية هي تلك المتعلقة بشروط العضوية. فرأى أصحاب الموقف الأول أن تقتصر العضوية، وخصوصاً في الهيئات القيادية للاتحاد، على عمال المزارع، على الذين يمارسون العمل الزراعي فعلاً. ورأى أصحاب الموقف الآخر الملتفون حول وزير الفلاحة أحمد بن محساس أن تشمل العضوية العاملين في الإدارات، في الوزارة وغيرها. وكان من المفهوم أن فتح الباب أمام البيروقراطيين يعادل التصريح لهم بالهيمنة على الاتحاد وتغليب الطابع الحكومي فيه على طابعه الشعبي وإخضاع مقدراته لنزوات الحكام.

استنفر اليسار قواه وتطلع إلى بن بيلاً بأمل أن يدعم رئيس الجمهورية الموقف الأول ويواجه غلواء المحافظين المتمرسين حول وزير الفلاحة. وتواترت العرائض والنداءات الموجهة إلى الرئيس بهذا الشأن. ومع وجود توازن دقيق للقوى داخل تركيبة المؤتمر، أدرك الجميع أن موقف الرئيس الذي هو في الوقت ذاته رئيس الحزب الكبير سوف يحدث أثراً حاسماً.

وفي سياق النشاط الذي اشتد مع دنوّ موعد الافتتاح، قررت هيئة تحرير **الشباب** أن تصدر العدد التالي قبل موعده المعتاد بيومين ليكون في المتناول ساعة افتتاح المؤتمر. استند هذا القرار إلى الاعتقاد بأن وجود مجلة تدعم الموقف التقدمي سوف يقوي معنويات الفلاحين ويحثّ المترجرجين على الانحياز إليهم ضد البيروقراطية. وقد ترتب على هذا القرار أن يتصل العمل في المجلة

طيلة الأيام الثلاثة التي سبقت رأس السنة الجديدة فلا يتوقف لا في النهار ولا في الليل. والحقيقة أن هذا هو ما حصل، إذ تجمع المحررون في مقر المجلة وأقاموا فيه. وبهذا الاستنفار، لم يمكن، فقط، تحضير العدد للطبع في الموعد الاستثنائي المتوخى، بل أمكن أيضاً أن يجيء عدداً خاصاً تتناول موادُّه المسألة الزراعية وبضمنها مسألة اتحاد الفلاحين وهمومه.

كان هذا جهداً طيباً هيأ ثمرة طيبة. غير أن بيروقراطية الدولة اليقظة وقفت لهذا الجهد بالمرصاد وكادت تسقط الثمرة قبل أن يتذوقها أحد. كنّا غارقين في العمل، وكنّا نرسل المواد المنجزة إلى المطبعة أولاً بأول، ثم نتلقاها منضدة ونصحح أخطاء التنضيد ونعد مواد جديدة. وجرى كل شيء في الأيام الثلاثة حسب المألوف، فلم يقع ما يثير الريبة أو يستدعي الحذر. وفي الليلة المخصصة لطبع العدد، توجهت مع حيدر و ج. إلى المطبعة وفي نيتنا أن نشهد عملية الطباعة ونستعجلها، ففوجئنا بأن باب القبو الذي تشغله المطبعة مقفل وليس في القبو ما ينم عن وجود أحد فيه. كانت هذه، ككل المطابع الكبيرة في الجزائر المستقلة، مطبعة حكومية. وقد تبين أن مدير المطبوعات العام أصدر لمدير المطبعة أمراً طارئاً بإقفالها ومنح العمال عطلة يوم يتصل بيوم رأس السنة الذي هو عطلة عامة. وكانت تلك من البيروقراطية ضربة محكمة على الرأس حتى لقد كدنا نفقد توازننا.

ج. هو الذي أنقذ الموقف. فذهن هذا الشكاك المزمن الذين خبر كل أشكال التآمر هو الذي تفتق عن المخرج. ركب ج. سيارته وذهب إلى منزل الفنيّ المصري الذي هو أهم فنيي المطبعة وقال له ببساطة إن أمر الإقفال قد ألغي وأننا لم نعثر على مدير المطبعة الذي يبدو أنه غادر البلد. ورجع ج. إلينا ومعه هذا الفنّي. وبالطريقة ذاتها، أحضر ج. وغيره من أمكن العثور عليه من العاملين الآخرين. وانتقل المحررون إلى القبو ليؤدوا بإشراف الفني المصري العمل الذي كان على الغائبين أن يقوموا به. وفي الصباح، مع أول ضوء، كانت الثمرة في أيدينا. وكم أسعدني، وأنا أجول في أبهاء المبنى الذي انعقد

المؤتمر فيه، أن أرى كيف يتداول الوافدون إليه نسخ الشباب ويتناقشون حول ما تبثه من آراء! ولك أن تعرف أن ج. كان أكثر محرري المجلة سعادة بالمشهد. وقد حرص ج. على أن يجذب انتباهي إلى اثنين يقف أحدهما إزاء الآخر موقف المتحرج، وقال وقد ألم به فرح يشبه فرح الأطفال: «المدير العام للمطبوعات ومدير المطبعة، فليتمتعا بالخازوق!»

في مراقبتي للمشهد الماثل حولي، سهل علي أن أميّز بين النوعين من الحاضرين: ذوي الملابس الخشنة والملامح الصلدة والنظرات التي تعكس أوجع الهموم، وفي مقابلهم المهندمون ذوو الوجوه والأبدان التي تطفح بمظاهر العافية والنظرات والابتسامات التي تتنوع دلالاتها ومنه تنوع مقامات الذين توجه إليهم.

وهاأنذا ما أزال أتذكر كيف اضطرب المشهد وانفجر الصخب حين دخل بن بيلاّ القاعة التي دعي الجميع إلى الاحتشاد فيها قبل وصول الرئيس. هب الفلاحون من مقاعدهم وهم يصرخون: «يا سي أحمد عِيتا عَ هذول الغوال!» أي أعنّا على هؤلاء الغيلان. وأطلق البيروقراطيون هتافات موقعة، كان معظمها بالفرنسية، وصفقوا بهدي إيقاعاتها. كنت أومن بأن مطلب الفلاحين عادل، وبدت لي هبتهم مفعمة بالصدق، وكانت نداءاتهم حارة، وقد انطوت على الأمل بأن يحسم الرئيس الأمر لصالحهم. والواقع أني انتظرت أن يستجيب بن بيلاّ للنداءات الصادقة ويتجاهل البيروقراطية ونفاقها. وقد تابعت النقاش الذي احتدم وليس في ذهني سوى هاجس واحد: متى سيضع بن بيلاّ حداً لهذا الضجيج؟

وحين اختلط الحابل بالنابل أسوأ اختلاط ولم يعد من الممكن تمييز ما تصرخ به الأفواه، تقدم إلى المنبر زميل من مجلة أخرى نعرف أنه من المستزلمين لبن بيلاّ، فتوجهت الأنظار إليه، وتلاشى الصخب. عرف الجميع أن ما سيقوله هذا الإنسان هو الذي يعكس ما يفكر به الرئيس فتهيأوا للإصغاء. فما الذي قاله الناطق باسم الرئيس. اختار الذي انتصبت قامته إزاء المنبر وانبسط ذراعه عليه أكثر العبارات استثارة للعواطف، فناشد الجميع، باسم الرئيس

الزعيم، باسم الثورة وأمجادها، باسم الشهداء والأرامل والأيتام، أن يعلوا شأن مصلحة الوطن العليا على أي مصلحة، وأن يلبّوا دواعي الوحدة الوطنية فيتكاتفوا وينبذوا الخلافات. ومن هذا المدخل، توجه المستحوذ على المنبر إلى غرضه فأعلن أن أبناء البلاد كلّهم صف واحد لا فرق فيه بين عامل وفلاح وموظف، بين رئيس ومرؤوس. ثم هتف الخطيب بعد أن بلغ حالة تشبه حالة الوجد الصوفي: «لا اعتراض من جزائري على آخر فكلّنا فلاحون!» وفي غضون ذلك، ثابر الرئيس على الابتسام بما ينم عن إعجابه بكلام رَجُله. ومع الهتاف الأخير، ملأت الابتسامة وجه الرئيس كله وهزّ رأسه هزّة موافقة لا لبس في مدلولها.

أحدث الخطاب تأثيرات متنوعة. اطمأن البيروقراطيون إلى أن زعامة الحزب والدولة لن تخذلهم، فكانوا المبادرين إلى التصفيق. وانبسطت أسارير وزير الفلاحة أحمد بن محساس وتصدر المصفقين. وتنسم المترجرجون والانتهازيون اتجاه الريح فانضموا إلى هؤلاء. ووجم فلاحون اشتموا ما لا يريح وإن لم يصل إليهم من الفصحى المنمقة إلا أقلّ ما بثته. وهبّ فلاحون آخرون أدركوا مغزى الكلام بكامله وثاروا عليه.

وبعد أن أدلى كل راغب في الحديث بدلوه، تدخل بن بيلاّ مباشرة، فقدم اقتراحاً قبلته أغلبية الحاضرين وعبرت عن قبولها بالتصفيق الذي طغى على الأصوات المستنكرة. وكعادته، حاول الرئيس باقتراحه هذا أن يمسك العصا من وسطها. وباعتماد الاقتراح، تأكد حق الموظفين في شغل عضوية المؤتمر دون قيود، وصار على من ينتخب منهم لعضوية قيادة الاتحاد أن يتخلى عن عمله الوظيفي طيلة انشغاله فيها. امسك بن بيلاّ إذن بوسط العصا، ولعله تصور أن هذا يمكنه من التحكم بطرفيها. أما في الواقع فإن الطرف الذي حكم الاتحاد، ثم حكم البلد كلها بعد ذلك، هو طرف الغيلان الذين لم يستجب الرئيس لنداءات الفلاحين عندما حذروه منهم.

صدمت النتيجة حيدر الذي كنت أجلس بجانبه، فقذف شتيمة مجلجلة، وبصق، وغادر مقعده ساخطاً فتبعته أنا إلى البهو. وهناك، انضمّ ج. إلينا. جاء ج. وعلى وجهه الابتسامة المتخابثة التي تميزه وواجهني بعينين مفتوحتين وهزات رأس متئدة: «أما قلت لك، بذلة بن بيلاّ الثوري، زي ماوتسي تونغ الأزرق، إنه أنسب غطاء لبيروقراطية بن محساس». فلما بقيت صامتاً، وما ذلك إلا لأني لم أكن قادراً على مجاراة صاحبي في سخريته، وسع هو ابتسامته، وقال بجدّية: «كم مرة ذكرت لك أن بذلة بن بيلاّ هذه مصنوعة من أغلى أنواع التركال الفرنسي وأن بيير كاردان هو الذي فصلها للرئيس؟ لم تكن تصدقني، فهل تصدقني الآن!؟»

لم يكن الأمر أمر تصديق أو تكذيب. كل ما في الأمر أني لم أعط لحكاية البذلة المدلول المهول الذي أعطاه ج. لها. فبهذه البذلة أو بدونها، كان بن بيلاّ سيفعل ما فعله، ولم يكن مهيئاً للإمساك بالعصا إلا من الوسط.

غَرَقْنا في التحضير للمؤتمر صرفنا عن الاحتفال برأس السنة الجديدة. فلما لم ينبنا من جهدنا إلا خيبة الأمل والإحساس بالخذلان، تذكرنا المشروبات التي سبق أن أعددناها للاحتفال. وكان حيدر شديد الرغبة في الشرب: «أريد أن أشرب حتى أنطفئ». أما ج. فإنه مع رغبته في الشرب آثر ما سماه هو الفرجة على المؤتمر: «مشاهد لا ترى مثلها كل يوم، ومناورات ومؤامرات. أبقوا لي ما أشربه عندما أروي لكم الحكايات!»

كان شراء المشروبات الروحية وتعاطيها محظوراً على الجزائريين مسموحاً لغير الجزائريين وحدهم. وكان أصحابي في المجلّة من الذين يتعففون عن استخدام نفوذهم للحصول عليها. فكنت أنا الذي يجلبها. وكانت الكمية المعدّة من أجل الاحتفال محفوظة في منزلي، فطلب حيدر أن نتوجه إليه على الفور. وفي المنزل، حيث انضم صبحي أيضاً إلينا، لم تفلح جهودي في ثني حيدر عن الإفراط في الشرب منذ شرع فيه. راح الراغب في إطفاء سخطه

يغب الكأس غبّاً، ويطلب المزيد، ويستعجلني إن توانيت في إحضار قنينة جديدة. عدّ الثوري الرومانسي سليل الأسرة الأرستقراطية ذات الأمجاد الوطنية هزيمة الفلاحين في المؤتمر هزيمة شخصية له، وعانى ما يعانيه الإنسان حين يندحر، وكان مشحوناً بالحاجة إلى البوح وتفريغ ما يختزنه، فانفلت لسانه بشتائم طالت الجميع، اليمين المتآمر واليسار المقصر والرئيس الذي يمسك العصا من الوسط. وظل هذا هو حال حيدر إلى أن أطفأه الإفراط في الشرب فعلاً فنام حيث يجلس.

وفيما غرق حيدر في النوم، أعددنا نحن أطباق طعام تناسب السهرة التي نعوض بها سهرة رأس السنة، وحضر زملاء عمل آخرون. وما أن صحا حيدر مع اشتداد الضجيج في المنزل، حتى كان أول ما فعله أن اعتذر عما افترض أنه سببه من ازعاجات، ودعا الحاضرين إلى أن ينسوا الهموم العامة وينصرفوا إلى التمتع بالطعام والشراب. على أن حيدر، مع ما أبداه من أريحية واستعداد للمنادمة، بقي قلقاً، وكان واضحاً أنه يجهد نفسه للتحرر من قلقه فلا يفلح. وفي هذا الحال، بقينا عدة ساعات، أكلنا الكثير وشربنا. لكن مزاج حيدر المعتكر اقترن بخوفنا عليه لكثرة ما شرب، فظل الجوّ كلّه معتكراً. ولا بدّ من أن حيدر أدرك أنه هو السبب وأن هذا ساءه. كما يبدو أن حاجة صديقنا إلى الاستمرار في الشرب والبوح بما في نفسه أمام الأصحاب لم يأذنا له بأن يتوقف أو ينسحب. وفجأة، قطع حيدر مجرى الحديث الدائر وهتف: «لماذا لا ننتقل إلى مكان آخر، لماذا لا نذهب إلى ياسمينة ويحيى، نفاجئهما ونتمتع بصحبة العريسين ونسندهما بصحبتنا».

لصاحبيّ هذين الاسمين حكاية كنا نحن قد أسهمنا في وضع خاتمة سعيدة لها، ويجدر بي أن ألخصها لك. فياسمينة هو الاسم العربي الذي حملته سيدة فرنسية اسمها الأصلي مادلين. ويحيى هو الاسم الذي حمله شاب بريطاني اسمه جون. جاءت الفرنسية إلى الجزائر بما هي يسارية عازمة على دعم مسيرة البناء الاشتراكي في البلد حديث الاستقلال، وجاء البريطاني

ليدرس في جامعة الجزائر فاجتذبته أجواء اليساريين وفيها تعرف على السيدة الفرنسية. كانت مادلين قد تخطت الأربعين، أما جون فكان شاباً في عزّ شبابه، اسكتلندياً يطفح بالفتوة ويشع من وجهه رونق الشباب. وبالرغم من فارق السن، أحبّ جون مادلين حبّاً سيطر على كيانه كله وبادلته هي الحبّ بطريقتها الهادئة، وشاعت حكاية حبهما على كل لسان. وعندما لاحظ الاثنان أن استمرار العلاقة بينهما يضر بالدور الذي يندبان نفسيهما لأدائه في المجتمع الجزائري، قررا أن يوثقا علاقتهما بالزواج، لكن عقبات روتينية كثيرة نبتت في وجه زواجهما منذ اتضح أن كلاً منهما ينتمي إلى كنيسة لا تحبذ زواج أتباعها باتباع الكنيسة الأخرى. ولأن الاثنين افتقرا إلى الصبر اللازم من أجل تليين العقبات، فقد ساء حالهما. ومن هنا نبت الحل: أن يشهر الإثنان إسلامهما ويتزوجا في الجزائر بالسهولة التي يتزوج بها المسلمون. وكان أن صحبناهما، حيدر وأنا وآخرين، إلى دار الإفتاء وتم الأمر بأهون ما يكون، وظفر كل منهما باسم جديد. وأمن حيدر للزوجين السعيدين السكن في فيلاّ قائمة بحذاء ماء البحر على شاطئ سيدي فرج غير البعيد عن المدينة، وكان هذا هو المكان الذي اقترح أن نذهب إليه.

اعتذر معظم الحاضرين عن الذهاب، بعضهم تهيب إزعاج العريسين، وبعضهم رأى أن الوقت متأخر، فذهبنا أربعة، حيدر وصبحي وزوجتي وأنا، وحملنا معنا سلة حوت كل ما بقي من القناني والطعام. وفي الفيلا التي بلغناها في سيارة حيدر قرابة منتصف الليل لم نجد إلا يحيى. ذلك أن ياسمينة تعجلت السفر لتقنع أهلها بالرضى بعريسها وتشركهم في بهجتها بانتهاء عنوستها. فوجئ يحيى، لكنها كانت مفاجأة سارة له، فوصولنا في هذا الوقت الذي اشتد فيه شوقه إلى الغائبة ساعده، كما قال هو نفسه، على احتمال ألم الفراق وأخرجه من وحدته القاسية.

هنا، أيضاً، أفرط حيدر في الشرب، وكانت لديه ذريعة جديدة: أنس مجلس الأصدقاء هذا وعبق الحبّ الذي يفجر المكان. وبعد أن مضى من الليل أكثره،

اقترح مضيفنا أن نبيت في الفيلاّ. عرف يحيى أننا جئنا في سيارة حيدر، وخشي على صديقنا من عواقب الشرب، فشاء أن يستبقينا عنده مراعياً حالة حيدر بالذات. واستفز الاقتراح حيدر بما ينطوي عليه من اتهام له بالعجز عن السيطرة على نفسه، فكابر كما يكابر كل من يفرط في الشرب، وأصر على أن نغادر الفيلاّ للتو ونرجع في سيارته كما جئنا ويقودها هو. ولم نجرؤ نحن على التخلي عن حيدر وتركه لمصيره، ولا كان من اللائق أن نفعل هذا. وهكذا، حوتنا السيارة من جديد، حيدر وراء المقود وصبحي بجانبه، وزوجتي في المقعد الخلفي وراء صبحي وأنا بجانبها. ومنذ الدورة الأولى لعجلات الرينو إيركاتر ذات الهيكل القابل للعطب بسهولة، صدم حيدر العارضة الخشبية لبوابة الفيلاّ وكاد يحطمها فتقدم يحيى وكرر اقتراحه، فكرر حيدر الرفض، فرجاه يحيى أن يسلم المقود لصبحي، فاشتدت مكابرة حيدر واندفع بالسيارة اندفاعة كادت تصدم يحيى هذه المرة. وحين فتحنا عيوننا التي أغلقها الهلع كانت السيارة تدرج على طريق الشاطئ، العريض والمسفلت.

على هذا الطريق الخالي من أي سيارة عدا سيارتنا، لم يقع ما يثير هلعنا، وإن استفز صبحي يقظته ليتدخل عند اللزوم، وبقيت أنا أسير الهواجس التي لا أبوح بها. المقدر وقع بعد أن اتبع حيدر عادته في اختصار المسافات، فانعطف في طريق جانبي. وكان هذا طريقاً ضيقاً كثير المنحنيات. وقد واجه حيدر منعطفاً حاداً يتصدره حائط، وكان عليه أن يتجه إلى اليسار، إلا أنه لم ير الحائط فظل متجهاً نحوه. وهنا نفعتنا يقظة صبحي، إذ تدخل في آخر لحظة وأدار المقود بأعجل ما استطاع، فحمانا من أن يصدم مقدم السيارة الحائط مجابهة. ولكن جانب السيارة الأيمن احتك بالحائط فطار باباه وتكسر الزجاج، وحطت السيارة مائلة في الحفرة التي تشبه الخندق والتي تفصل الحائط عن الطريق.

تفقدنا الإصابات فاكتشفنا أن أيدي صبحي وحيدر أصيبت بجروح لا تثير القلق وأني أنا لم أصب بشيء. أما ما أثار قلقنا فكان الجرح الذي أصاب

جفن زوجتي ولم يمكن أن نتحقق من مدى خطورته في الضوء الباهت.

راحت السكرة فصار على الفكرة أن تجيء. والواقع أن ما جاء كان أكثر من فكرة واحدة. فقد خشي حيدر الفضيحة حين يُعرف أنه قاد سيارة عائدة للحزب وهو سكران في آخر الليل، ولا بدّ من أنه استحضر ما تعرضت له سمعة عضو المكتب السياسي الذي سكر وتسبب بالحادث الشهير على طريق بليده. ورأى حيدر أن الخراب الذي لحق بالسيارة طفيف فاقترح أن نتابع المشوار ثم نتدبر معالجة الجروح عند أي طبيب من أصحابنا فنتجنب الشرطة وتحقيقاتها. وجلس حيدر خلف المقود وأدار محرك السيارة لكنه فشل في إخراجها من الحفرة. فاقترح الملهوف على تجنب أي فضيحة أن نمشي إلى أن نقع على تاكسي. فتدخلت أنا الذي لم أر أن تجنب ذيوع نبأ الحادث ممكن ما دامت السيارة ذاتها قد تضررت، وقلت إنّ مشينا قد يطول قبل أن نعثر على تاكسي وأنا أخشى أن تكون زوجتي في حاجة إلى عناية عاجلة. واقترحت أنا أن يغادرنا صبحي وحيدر لأنهما جزائريان يعرضهما السكر لمساءلة قانونية فيما أنتظر أنا مع زوجتي قدوم الشرطة لتأخذها إلى حيث تمكن معالجة الجرح. ولكن حيدر وصبحي أبيا أن يبرحا المكان بدوننا.

في هذه الأثناء، كان أصحاب الفيلا التي يشكل الحائط جانباً من سورها قد اتصلوا هم بالشرطة. وفاجأتنا ضجة الصافرات فيما نحن مستمرون في جدلنا. وبعد اسعاف الجراح في المستشفى، أخذنا، أربعتنا، إلى مركز الشرطة فيما كانت أضواء الفجر قد استكملت انتشارها وهيأت الطريق لبزوغ الشمس. وأجرى وكيل ضابط، هو المسؤول المناوب في المركز، تحقيقاً سريعاً. وقد لفت نظري كيف أن حيدر تجنب الإدلال بمركزه في الحزب أو الصحافة بل تصرف بلباقة وتواضع. كنّا قد تواطأنا على رواية موحدة فزعمنا أن حيدر أراد أن يعطي ضوء الإنذار عند المنعطف إلا أن الضوء لم ينطلق مما أربك حيدر للحظة هي اللحظة التي وقع الحادث فيها. وكنّا قد عزمنا على إغفال حكاية الشرب. غير أن الشرطة التي فتشت السيارة المعطوبة وجدت فيها

زجاجة نبيذ. وكان هذا كافياً لتنبيه المحقق إلى الحكاية إن لم تنبهه الروائح. وبعد التحقيق الأولي السريع، أذن لي ولزوجتي بمبارحة المركز على أن نرجع إليه قبل الظهر لندلي بشهادتينا من أجل استكمال التحقيق. واحتفظ وكيل الضابط بحيدر وصبحي موقوفين، بما هما جزائريان شربا الكحول المحظور، على أن يتقرر مصيرهما عندما يحضر قائد المركز.

وعندما رجعنا للإدلاء بالشهادة، اتضح أن قائد المركز اختتم التحقيق ولم يعد بحاجة إلينا. قدر الضابط تعفف حيدر عن استخدام مكانته وقضاءه الوقت في سجن المركز دون تذمر، فبادر إلى المساعدة من تلقاء نفسه آخذا هذه المكانة بعين الاعتبار دون شك. والواقع أن مساعدة الضابط جاءت ثمينة. فقد أغفل الرجل حكاية الشرب إغفالاً كاملاً. فصارت القضية قضية حادث سير عادي.

خيبة الأمل في المؤتمر، وهذا الحادث، والجرح في جفن زوجتي، لم تشكل هذه بداية طيبة للعام ١٩٦٥. وقد أمضيت ساعات عمل اليوم التالي في المدرسة وأنا معتكر المزاج بادي الكآبة. ونويت أن أعتذر عن العمل في المجلة بقية اليوم. ولما جئت في الساعة الثالثة إلى حيث تنتظرني سيارة المجلة لأرسل اعتذاري مع سائقها، فوجئت بأن حيدر وليس السائق هو الذي في الانتظار. وكان في جعبة حيدر أنباء طازجة عن حدثين وقعا في مطلع العام، حدث فلسطيني وآخر سوري. وشاء رئيس التحرير أن يطلعني على التفاصيل ويبسط لي خلفيات المواقف الجزائرية من الحدثين قبل أن ننضم إلى اجتماع هيئة التحرير الذي ينتظرنا.

تعرف أنت أن «قوات العاصفة» وهو الاسم الذي أطلقته «فتح» على مسلحيها، أصدرت في مطلع ذلك العام بيانها الأول، وفيه إعلان عن أول عملية مسلحة نفذتها «فتح» ضد إسرائيل. ولعلك تعرف أن السلطات السورية أصدرت في مطلع العام أيضاً حزمة من القرارات أممت بموجبها عدداً كبيراً من المصانع والشركات. وكان حيدر قلقاً بشأن الأسلوب الذي يتوجب على المجلة أن تنتهجه

في تناولها للحدثين. ولأن حيدر كان يعدني من المختصين في المجالين والملمين بالشأن الجزائري فقد تعمد أن يتبادل الرأي معي قبل أن يواجه هيئة التحرير.

هنا، لك أن تعرف أن وجودي في الجزائر لم يبعدني لا عن الشأن السوري ولا عن الشأن الفلسطيني الذي كنت أنشغل فيه وأنا في سورية. إن الهم الفلسطيني ممتد في الروح فكيف يبرحها وممتد في جغرافيتي الشخصية فلا يمكن أن ينأى عني أنى حللت. وزمني الشخصي مندمج بالزمن الفلسطيني فهما لا ينفصلان. وقد اتضح لي منذ ذلك الوقت وربما قبله أن المسكون بالهم الفلسطيني لا يجوز له أن يغفل الشأن السوري. وقد كنت أنا، بما صرت تعرف عني، عاجزاً عن إغفال الشأن السوري حتى لو جاز لي أن أغفله. وفي الجزائر، كنت محاطاً بالكثير مما يبقي فلسطين حاضرة على الدوام فتحضر معها سورية.

وكان تعلق الجزائريين بفلسطين وقضيتها شاملاً، يرى عامة الناس ما تعرض له البلد المبارك فيضعون قضية تحريره في مرتبة القداسة. وتتأثر النخب بالرؤية العامة وتأخذها في الحسبان وهي تحدد موقفها من هذا الشأن أو غيره. وقد توزع تأييد النخب الجزائرية بين م.ت.ف. و«فتح» المتنافستين أو انصب عليهما معاً دون تمييز. أما في قمة السلطة، حيث الآراء متعددة والمنافسات العلنية والصراعات المستورة محتدمة، فقد كان الأمر معقداً. وفي المحصلة، أي في مركز التوازن الذي توافق عليه الجميع حتى ذلك الوقت، تمثل الموقف الجزائري الرسمي في الحرص على إدامة التحالف مع نظام عبد الناصر دون الانجرار إلى معاداة الذين يخاصمون هذا النظام في دنيا العرب. ولكن درجة التزام هذا الموقف تفاوتت بين كتلة وأخرى. ويمكن القول ونحن نتوخى الإيجاز أن القصر الجمهوري ورئيسه بن بيلا كانا أشدّ ميلاً إلى عبد الناصر. وأن وزارة الدفاع ووزيرها بو مدين المنافس الأشد لبن بيلاّ تحمسا لسياسة أقلّ ارتباطاً بعبد الناصر وأكثر انفتاحاً على الأطراف العربية الأخرى.

في هدي هذا التمايز وتنويعاته، ومع الإقرار بتشابك الخلفيات والمصالح والدوافع تشابكاً يتعذر وصفه في أي عجالة، تمايزت المواقف من م.ت.ف. و«فتح». لقد لقيت المنظمة دعماً واسعاً، وكان مكتبها في العاصمة الجزائرية هو الوحيد بين مكاتبها الذي يتمتع بالحرية الكاملة ولا تتدخل السلطة في شؤونه. لكن التدقيق في تفاصيل السلوك إزاء م.ت.ف. كان يظهر أن ناس القصر هم الأكثر دعماً لها. ولقيت «فتح» بدورها دعماً طيباً من الجزائريين، وإن كان واضحاً أن وزير الدفاع والذين يلوذون به كانوا هم الأكثر تعاطفاً معها.

وفي هدي التمايز ذاته أيضاً، تمايزت المواقف من سورية. فمما لا شك فيه أن دعاة تمتين التحالف مع عبد الناصر قد ساءهم ما وقع للناصريين في هذا البلد، وإن لم يصلوا إلى حد مخاصمته بسبب ذلك. ولئن بدا دعاة الانفتاح على البلاد العربية الأخرى قليلي التأثر بمصير الناصريين في سورية، فإنه لم يكن من المتوقع أن يتحمسوا كثيراً لتدابير مثل التأميم. مع الإقرار بأن صورة المواقف إزاء سورية كانت أكثر تشابكاً واستعصاء على الإحاطة بها.

من هنا نبع قلق حيدر، من تحسبه ردود الفعل على ما يمكن أن يكتب في الشباب عن الحدثين. وزاد في القلق أن الناصريين جهروا بالعداء لـ «فتح» وشككوا في مرامي دعوتها إلى الكفاح الشعبي المسلح ضد إسرائيل، في حين تحمس البعثيون لها واحتضنوها، وكانوا مثلها من المتحمسين للدعوة إلى هذا الكفاح المسلح.

أصغيت إلى شروح حيدر وهواجسه وأنا أستحضر لقاء ضمني قبل بضعة أسابيع مع صديقي هايل عبد الحميد (أبو الهول). وآمل في أنك ما تزال تتذكر أن هذا الصديق كان قد انتقل من سورية إلى ألمانيا ونقل معه تجربة عرب فلسطين التي شاركته أنا فيها، ثم وفد إلى القاهرة بدافع لم أتبينه إلا فيما بعد، وهناك تحالف مع القوميين العرب، مع بعض طلابهم في واقع الأمر، واستولى هو وهم على قيادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين وطردوا البعثيين

منها. وقد جاء أبو الهول إلى الجزائر بوصفه مسؤول العلاقات مع فروع الاتحاد ليشرف على تأسيس فرع للطلبة الفلسطينيين الذين تزايد عددهم منذ الاستقلال. وقد أسعدني بالطبع أن ألقى الصديق القديم، بالرغم من الخصومة التي وضعتنا في طرفين متقابلين وأظن أن اللقاء بي أسعده هو الآخر.

في هذه الزيارة، طلب أبو الهول أن يختلي بي في مكان أضمن خلوّه من الرقابة. وبعد أن ضمنا مكان منعزل، حيث يصعب أن يتجسس علينا أحد أو آلة كما اشترط طالب الخلوة، كاشفني صديقي بأنه انضم، هو، وأعضاء تنظيمه، منذ كان في ألمانيا إلى منظمة فلسطينية جديدة منتشرة في كل مكان، وأفاض في عرض المزايا التي نسبها إلى هذه المنظمة، دون أن يذكر أبداً أنه يقصد «فتح» أو أحزر أنا مقصده. لم تكن منطلقات صديقي الفكرية قد تطورت كثيراً، ولم تكن الإنشائية التحررية والعاطفية قد فارقت خطابه، فظننت أنا أن الحديث يدور حول تنظيم لا يختلف كثيراً عن تنظيم عرب فلسطين. وعندما طلب مني صديقي أن أنضم إلى هذا التنظيم، رفضت دون تردد، بل إني تجاوزت الرفض إلى إظهار الاستخفاف: «الدنيا تتبدل وأنت ما تزال أسير التجربة الأولى». فلما ألح عليّ أبو الهول مؤكداً على أن الأمر هو لمصلحتي ومصلحة القضية، قلت بنبرة تشي برغبتي في طيّ الحديث: «لقد كبرنا!» وفيما راح حيدر يبسط تعقيدات المواقف الجزائرية إزاء بيان قوات العاصفة، كنت أنا أفكر: «هذا هو إذاً ما تحدث عنه أبو الهول».

علي أن أقر بأن رد فعلي الأول على الحدث السوري اتصف بالاستهانة به بالرغم من ضخامته. وقد رأيت في التأميمات قفزة في حقل من الأشواك حفزت عليها المزايدات بين الكتل المتصارعة التي أعرفها والمنافسة على اكتساب الشعبية المحتدمة بينها. وفي اجتماع هيئة التحرير، حذرت من اعتبار هذه التأميمات دليلاً على وجود توجه أصيل إلى الاشتراكية. غير أن زملاء العمل، وخصوصاً حيدر، عارضوا رأيي. وكان من رأي حيدر أن هذه خطوة عظيمة سيكون لها تأثير عميق في حياة البلاد وفي التطور اللاحق لحزب البعث،

بصرف النظر عن دوافعها الآنية. وانتهى الحوار باتفاق الجميع على إظهار التأييد الحازم للتأميمات ومساندة البعثيين ضد تحركات القوى المحافظة التي تواترت الأنباء عن نشاطات شرعت فيها للمقاومة.

أما الحدث الفلسطيني، فقد أظهرت شروحي لخلفياته أنه الثمرة العسكرية الأولى لمجهودات الفلسطينيين في مجال تنظيم أنفسهم والإعداد لأخذ زمام المبادرة في معركة تحرير وطنهم الطويلة. وكنت أنا الذي تنبأ في الاجتماع بأن يكون لهذا الحدث تأثير كبير على مجرى الحياة الوطنية الفلسطينية، حتى مع أن نتائج العملية العسكرية التي تحدث البيان عنها كانت ضئيلة. وأما الحساسيات الناجمة من اختلاف المواقف الجزائرية، فقد تناوب محررو الجريدة على شرحها واستقصاء تأثيراتها. وقد اتفق الرأي على ضرورة إبراز الحدث الفلسطيني وإظهار التأييد الكامل له. وإزاء تحسبات المحررين من ردود الفعل المرتقبة في بعض أوساط السلطة، قال حيدر: «اتركوا مواجهة الساخطين لي!»

وهكذا، صدر عدد الشباب التالي وقد توج صفحته الأولى هذا العنوان: «أول نوفمبر فلسطيني». اقترحت أنا أن يشتمل العنوان على المضاهاة بين الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ، يوم انطلاقة الثورة الجزائرية والأول من كانون الثاني/يناير، يوم انطلاقة الثورة الفلسطينية، فتفتق ذهن ج. عن هذا العنوان الموجز والبليغ، ألم أقل لك إن عربيته كانت آخذة في التحسن! وإلى جانب المواد التي غطّت الحدث الفلسطيني، حظي الحدث السوري بتغطية واسعة، أخبار وتعليقات. وكان التعاطف واسعاً في الحالتين.

واجه حيدر، فعلاً، ردود الفعل المتحفظة في بعض أوساط السلطة. وقد كانت هذه، كما ينبغي القول، أقرب إلى الدعوة إلى التروي منها إلى السخط. وثابرت **الشباب** على إظهار تأييدها لمبادرة «فتح» والتدابير السورية. وتتابعت التغطيات الإخبارية والتعليقات في الأعداد التالية. وغني عن البيان أني غصت في هذا النشاط بكليتي، بالكتابة وتحرير ما يكتبه غيري. ولا شك في أن معرفتي

بشؤون الساحتين الفلسطينية والسورية وسمت تغطيات الشباب بنكهة خاصة واجتذبت القراء.

في هذه الأثناء، وجدتني أنا محمولاً حملاً على الانخراط في مواجهة مع مكتب م.ت.ف.، مع مديره على وجه التحديد. إن التأييد الواسع الذي أظهرته الأوساط الجزائرية الشعبية والرسمية لمبادرة «فتح» لم يكن ما يناسب سياسة م.ت.ف. الرسمية الداخلة في منافسة حادة مع منظمات الكفاح المسلح الناشئة. ويبدو أن اتساع التأييد هو بالذات الذي حمل مدير المكتب على العمل لتشويه سمعة «فتح». كان مدير المكتب هو الدكتور رفعت عودة، وهو من كانت له في المشرق بعض الشهرة في أوساط القوميين العرب، وخصوصاً الناصريين. وقد استفزني في نشاط الرجل أكثر ما استفزني مقال نشره في جريدة الشعب الجزائرية، وهو مقال وجدته أنا كما وجده كثيرون غيري قبيحاً غاية القبح. ففي هذا المقال، كرر الدكتور رفعت آراء الناصريين الذين يرون في ممارسة الفلسطينيين للكفاح المسلح ضد إسرائيل توريطاً للدول العربية في مواجهة لم تستعد هذه الدول لها بعد. واستحضر المقال الاتهام الذي تردد في الأوساط المصرية المعارضة للكفاح المسلح والذي زعم مروجوه أن «فتح» على صلة بالمخابرات البريطانية. تجنب الرجل التورط في تبني هذا الاتهام صراحة، وأورده بصيغة: قيل عن «فتح»...، إلا أنه عرض الاتهام بوضوح دون أن ينفيه أو يظهر أي مقدار الشك فيه؛ روج الاتهام واحتفظ لنفسه بحق التنصل من مسؤولية رمي المنظمة الفلسطينية المسلحة به. وقد كان هذا هو بالذات أكثر ما استفزني في مقال مدير المكتب. إني أحبّ الأذكياء، لكني أبغض التذاكي خصوصاً حين يقترن بالسذاجة. وقد صدم المقال الجزائريين المتحمسين لـ «فتح»، واستفز غالبية الفلسطينيين الموجودين في الجزائر.

كنّا، صبحي وأنا، في مقدمة الساخطين. وكان كلانا واسع العلاقات، فتصدرنا المحرضين على مدير المكتب. وانضم إلينا بعثي مثلي تميز عني بأنه ترك البعث وانضم إلى «فتح» هو محمد أبو ميزر الذي يكتب مقالات تنشرها مجلة

المجاهد: أشهر الأسبوعيات الجزائرية. كما انضمت إلينا البعثية السورية دعد عبد الله وهي من كانت آنذاك زوجة محمد. وتشاورنا مع خليل الوزير وممدوح صيدم. فقال خليل الذي يصعب استفزازه إن لمكتب م.ت.ف. في الجزائر صفة الممثلية الفلسطينية وليس في خططهم في مكتب فلسطين الذي يمثل «فتح» الاصطدام مع هذه الممثلية. وأفهمنا الرجل أنه لن يتصدر أي نشاط موجه ضد مدير المكتب، لكنه لن يستاء أبداً ان قام أيّما أحد بهذا النشاط. كان خليل الوزير أقرب في طبعه إلى عباد الرحمن الذين «إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»، غير أنه لم يكن من المتهاونين إزاء ما يسمى سمعة الفريق الذي يقوده. ولئن أعطانا الرجل موافقة مواربة فقط على ما نعتزم القيام به، فقد كانت موافقةً على كل حال. وما تجنب أبو جهاد الإفصاح عنه بوضوح، أفصح عنه أبو صبري: «وضعنا هنا يلزمنا بعض الاعتبارات. فكملوا أنتم ما نويتم القيام به، وإذا هددكم مكروه فنحن حاضرون للحماية!»

طلبنا عقد اجتماع للجالية الفلسطينية لمناقشة سلوك مدير المكتب بحضوره، وجمعنا تواقيع عدد كبير من أبناء الجالية على هذا الطلب. ولم يجد الرجل المأخوذ بشدّة حملتنا عليه بداً من أن يسعى لثنينا عن المواجهة العلنية، فحاول استرضاءنا نحن المحرضين، ووسط الوسطاء بأمل أن نرضى بلقاء معه يضمنا نحن وحدنا. وعندما تشبثنا بمطلبنا، تذاكى الرجل مرة أخرى، فوجه الدعوة إلى الاجتماع العام في صيغة تبدو الدعوة بها كأنها مبادرة منه، وجعل موضوع الاجتماع التداول في الشأن الفلسطيني دون أن يذكر نقطة بعينها.

هذا الاجتماع أعددنا أنفسنا له إعداداً جيداً، وحددنا الهدف: تسفيه سلوك مدير المكتب وإرغامه على تقديم اعتذار علني، وليس أقل من ذلك. وأعد مدير المكتب واللائذون به عدّتهم فحشدوا أنصارهم كلّهم بأمل أن يطغى وجودهم على وجودنا. وبجهدنا والجهد المقابل، فاق عدد الحاضرين أي توقع واكتظ بهم المكان، ولم يجد كثيرون منهم مقاعد فشهدوا الاجتماع واقفين. ولأننا اتفقنا على أن أتولى أنا محاججة صاحب المقال، فقد تحسب أبو صبري

لردود الفعل فأحاطني بعدد من أشداء «فتح» وكلفهم مهمة حمايتي.

وصل الدكتور عودة إلى الاجتماع متأخراً بعض الشيء. أقبل صاحب القامة الطويلة النحيلة بوجه لا تستقر تعابيره على حال، وتوجه نحو صدر المكان بخطى جعلتها مراقبته لنفسه مضطربة. وقد بلغ الرجل الكرسي المخصص لجلوسه واستدار ليصير في مواجهة الحاضرين. ودارت نظرات الرجل على الحشد وصدرت عنه كلمات ألقاها على ما يبدو بمثابة تحية دون أن يسمعها الذين وجهت إليهم. وعندما جلس الرجل على مقعده، كان بادي الحيرة، وارتجل حديثا تنقل بين نقطة وأخرى دون أن يتركز على أي نقطة أو يمس النقطة التي جاء الحشد من أجلها. وطال الحديث. وتململ الحاضرون. ويبدو أن الرجل تنبه لشيء فصمت، فظننا نحن أن صمته استراحة، ولم ندرك أنه أنهى الحديث إلا عندما وقف واحد من معاونيه وقال إن مدير المكتب مستعد الآن للإجابة عن استفسارات الحاضرين.

هذه البداية المرتبكة أثرت على مجرى الاجتماع كلّه، فاتسمت مداخلات الحاضرين بالارتباك أو النزق. وعندما تكلمت أنا، عمدت إلى استخدام فصحاي التي ألجأ إليها كلما اقتضى الأمر أن أرتفع بمستوى نقاش دائر أو أحمل الحاضرين على الإصغاء بانتباه. وكان استخدام الفصحى على كل حال متفقاً مع مستوى الحاضرين، فالجالية الفلسطينية في الجزائر تكونت بمعظمها أما من معلمين أو طلاب جامعة، والحاضرون في الاجتماع كانوا كلهم من المنشغلين بالشأن العام. وقد استخدمتُ نبرة تضع حديثي في المستوى المشترك بين الخطبة والمناقشة. ولم أبدد الوقت في أي مقدمات، بل دخلت مباشرة في صلب الموضوع، فبدأت بإدانة تجاهل المدير في كلمته للغرض الذي اجتمعنا من أجله ونسبت هذا التجاهل إلى العقلية التي تستخف بمشاعر الجمهور وتستعيض عن الانشغال بما يشغله حقاً بالولع في إغراقه في العموميات. ثم دعوت إلى التمييز بين أمرين: بين جدية الاتهام الموجه إلى «فتح» أو هشاشته وبين حق ممثل فلسطين الرسمي في ترويج الاتهام دون أن

تكون أي جهة فلسطينية، بما في ذلك الجهة التي عينت هذا المدير بوظيفته، قد أجرت أي تحقيقات أو قالت إن الاتهام صحيح. وبينت أن المدير تجاوز بهذا أي صلاحيات يملكها وخالف مواقف الفلسطينيين كافة واستفزّ غالبيتهم، دون أن يخدم أي هدف مفيد. وقلت إن في ترويج اتهام شنيع لا يسنده غير المزاعم إساءة لسمعة الشعب الفلسطيني بأسره، وليس لمنظمة واحدة من منظماته. ثم فندتُ فحوى الاتهام، فقلت إنه صدر عن المخابرات المصرية وحدها. فهذه المخابرات انطلقت من واقع أن عدداً من مؤسسي «فتح» كانوا من الإخوان المسلمين. وقد سبق لهذه الجهة ذاتها أن اتهمت إخوان مصر المسلمين بأن فيهم عملاء للمخابرات البريطانية، وذلك في سياق تأليب الجمهور ضد الإخوان الذين ناوأوا نظام الرئيس عبد الناصر، فلم تتورع عن تكرار الاتهام ورمي «فتح» به لأن هذا النظام لا يؤيد «فتح» هذه. وبينت مدى تهافت الاتهام وشناعة تعميمه حتى لو اقتصر على إخوان مصر، فكيف وقد عممه مروجوه ليشمل منظمة فلسطينية أسهم في تأسيسها ناس كانوا في الاخوان المسلمين ثم انفكّوا عنهم. ورويت ما أعرفه عن اخوان قطاع غزة المسلمين وما ميزهم عن غيرهم، كما رويت ما جمعته من معلومات عن مؤسسي «فتح»، عن وطنيتهم ودورهم في الكفاح الوطني في القطاع وكيف أن وطنيتهم هي التي وجهتهم إلى ما يتوجه إليه الآن معظم الفلسطينيين، أي إلى تأسيس منظمات فلسطينية تأخذ زمام المبادرة في العمل لتحرير الوطن.

بعد هذا الذي ملكت به انتباه الحاضرين، جئت إلى أكثر ما في حديثي مساً بصاحب المقال، فقلت إن من حق الدكتور عودة أن يستهين بمشاعر الفلسطينيين وقناعاتهم إن طاب له ذلك ويغلب ولاءه لناصريته على الولاء للساحة الفلسطينية، فهذا شأن يخصه هو وحده. أما ما ليس من حق الدكتور عودة فهو أن يظل بعد ذلك في مكانه الرسمي ويستمر هذا المكان لغير صالح الشعب الفلسطيني، مع أنه مكان خصصته الدول المضيفة لمثل هذا الشعب. وفي الختام، تمنيت لو أن الرجل لم يقع في ما سميته هذه الخطيئة، ودعوته إلى التراجع. وقلت إن

المناضل الحقيقي، ناصرياً كان أو أي شيء آخر، لا يترفع عن الإقرار بالخطأ ولا يحجم عن تقديم الاعتذار، خصوصاً حين يكون في إقراره واعتذاره إعادة اعتبار لنفسه ورفع أذى عن أبناء شعبه. وحثثت الرجل على الاعتذار.

عندما هممت بالكلام، كنت مشحوناً بالحنق، ولكن حنقي وهن وأنا أتحدث وأخلي المكان لحساب العقل. ولما استمر صمت الجمهور بعد أن فرغت، أدركت ان كلامي عبر الآذان إلى العقول وليس إلى العواطف. ولك أن تعرف أني غبطت نفسي على هذه النتيجة. وقد أربك حديثي في هذا النحو مدير المكتب زيادة على ما هو مرتبك. فلا بدّ من أن الرجل توقع أن يسمع شتائم نزقة وهيأ نفسه أو هيأ غيره للرد عليها. فلما خلا حديثي من أي شتيمة لم يكن لدى المرتبك مما هو مقنع ما يرد به على الفور. ولذا تلجلج الرجل، وبدأ رده بالتعبير عن اعتقاده هو بأني لم أقرأ المقال قراءة صحيحة. فقاطعته وأنا أحس بأني واقف على أرض صلبة: «لماذا لا تعيد أنت، إذاً، قراءته، الآن، أمام الجميع». فتجاهل هو اقتراحي هذا، ولجأ إلى النقطة الوحيدة التي يمكنه اللجوء إليها: «في مقالي لم أتبّن أي اتهام». فكان هذا أسوأ مما لو أن الرجل صمت. ذلك أن أحد الحاضرين نهض وهتف:«قل إذن إن الاتهام غير صحيح!» فأضفت أنا حتى أضيق عليه هامش الزوغان: «واكتب مقالاً جديداً، انفِ فيه هذا الاتهام!» عندها، توجه الرجل إلي مباشرة، وقال إن مثل هذه الأمور لا يناقش في اجتماعات مفتوحة، ودعاني إلى مكتبه حيث يمكن أن نشرب القهوة ونتحدث، وفق تعبيره، على رواق. ولم أكن أتوقع شيئاً أفضل من هذا لأكرّ على الرجل من جديد: «في جلسة تضمّ أبناء الجالية، في مقر تابع لمنظمة التحرير، لا تجوز مناقشة اتهام يمسُّ فريقاً وطنياً، أما على صفحات الجرائد فيجوز نشر الاتهام حتى دون مناقشة، أي منطق هذا، وأي استخفاف بعقول الناس!» عند هذا الحدّ، لم يهتد الدكتور رفعت عودة إلى ما يقوله، فنهض غاضباً، وغادر الاجتماع.

واصلنا بعد ذلك حملتنا على مدير المكتب، وزاد عدد مؤيدينا. ولجم هو

اندفاعته في مهاجمة «فتح» وإن لم يقدم الاعتذار العلني. وبعد أسابيع، فوجئنا بدعوة ثانية لاجتماع الجالية. صدرت الدعوة عن مكتب م.ت.ف.، ووجهت إلى الجالية عبر الإذاعة والتلفزيون، وحددت دار سينما كبيرة في العاصمة مكاناً لعقد الاجتماع. ولم يلبث أن عرفنا أن رئيس المنظمة أحمد الشقيري قادم في زيارة وأنه هو الذي طلب عقد الاجتماع.

والواقع أن الشقيري الذي ووجهت حملات معاونيه على «فتح» باستنكار واسع، لم يكن قد تورط هو شخصياً في التشنيع على دعاة الكفاح المسلح. ويبدو أن رئيس المنظمة شاء أن يمتص الآثار السلبية ويضيّق فجوات الانقسام بين الفلسطينيين، فجال على التجمعات الفلسطينية وأجرى فيها ما اهتدى إليه من إجراءات لتخفيف السخط ورأب الصدوع. وفي الجزائر، اتصل الشقيري بخليل الوزير وأجرى معه حديثاً مطولاً، ثم صحبه إلى اجتماع الجالية، ودخل القاعة وذراعه معقود بذراع قائد «فتح»، ولم يجلس على المنصة إلا بعد ان أجلس هذا القائد على المقعد المجاور لمقعده هو. وفي خطابه، ركّز الشقيري الكلام على الوحدة الوطنية، وأشار غير مرة إلى خليل الوزير. ولما لم تكن لخليل الوزير الأهمية أو الشهرة اللتان كانتا للشقيري، فقد عددنا ما فعله رئيس المنظمة دعوة إلى التهدئة واستجبنا له، فلم يتكرر في هذا الاجتماع المجابهة التي وقعت في سابقه.

وبعد انتهاء الاجتماع، فيما أنا واقف عند باب الخروج، مرّ الشقيري والذين كانوا معه على المنصة، فتوقف الدكتور رفعت عودة أمامي وقال لرئيسه: «هذا هو الشاب الذي حدثتك عنه»، فسألني الشقيري دون أن يتوقف: «ألم نلتق في دمشق؟» ولم ينتظر إجابتي، بل تابع طريقه. لم يسؤني ألاّ يعبأ الزعيم الكبير بي. فقد كنت بهذا الاجتماع قد نلت الترضية التي أتوخاها. وأمكن مع تحسن الجو أن ألتقي الدكتور عودة في أجواء ليست مشحونة بالتوتر. وهاأنذا أتذكر أول لقاءاتنا العادية. جرى اللقاء في وليمة أقامها صديق جزائري لأصدقائه الفلسطينيين. وقد قال لي الدكتور عودة يومها نصف مازح ونصف جاد:

«سمعت عنك من أصدقائك العراقيين، والواقع أنك أقسى مما وصفوك»، فأجبته نصف جاد ونصف مازح: «أما أنا فسبق أن قرأت لك، وأشهد أن ما قرأته كان كلّه أقلّ سوء من المقال الذي اختلفنا عليه». ومنذ ذلك الوقت، صار من غير المتعذر أن أتعاون مع مكتب م.ت.ف. وبقيت لي، بالطبع، صلتي بمكتب فلسطين.

إلى هذا، تسنى لي أن أختلط بعدد من طلبة جامعة الجزائر. والواقع أن الأمر هنا اختلف عما ألفته في جامعة دمشق. صحيح انك تلتقي هنا بطلبة عرب أيضاً، إلا أن المناهج التي درسها هؤلاء منذ المرحلة الابتدائية وطرائق التفكير التي تربوا عليها ومستوى اطلاعهم على الشؤون الفلسطينية والعربية الأخرى، كل هذا كان مختلفاً عن دمشق. وفي الجامعة، كما في المجتمع كله، كنت أقع على النوعين من الناس، الذين يقدسون فلسطين تقديساً ويتعاطون مع قضيتها بنوازع أقرب إلى نوازع المتدينين المتصوفين؛ والآخرين المتأثرين بالثقافة الفرنسية. ومع النوعين كليهما، كان الحوار شاقّاً. وكان يتوجب في أغلب الأحوال أن أبدأ من الأوّليات. ولكم احتجت إلى التذرع بالصبر وأنا أحاجج شبانا جزائريين يفكرون بطريقة عرب صدر الإسلام، ويرون الحاضر بعيون الموتى ويحكمون عليه بعقول هؤلاء. أما الشبان الذين يستعيرون لغة الفرنسيين وطرائق تفكيرهم فقد احتجت في محاجتي لهم إلى ما يزيد على التذرع بالصبر. إلا أن حواري مع شبان النوعين جلب لي جملة من الفوائد، وكان بمثابة تدريب على الحوار مع المتدينين الأصوليين ومع الأجانب في المستقبل. ولا يزال في ذاكرتي مشهد أراني فيه في كافيتيريا الجامعة ومعي أبو صبري وأنا غائص في جدل مع حلقة من الطلاب اليساريين منصرف لإقناعهم، وقد ضاق أبو صبري بصبري عليهم، فحثني على الاستعجال: «لماذا تتعب نفسك في الجدل، قل لهؤلاء إن اليهود قتلوا أبي وجدّي، ألا يكفي هذا سبباً لرفع السلاح في وجوههم!» في هذه الأثناء، جددت التأميمات انشغالي بما يجري في سورية. ولعل تجدد اهتمامي بالشأن السوري لم يرتبط بقرارات التأميم وحدها. كان شأني مع البلد الذي جئته طفلاً وكونت فيه نفسي إلى أن صرت

شاباً شأن المواطن الذي يسخط على أشياء في وطنه فيهجره فما أن يستقر في مكان جديد حتى يعاوده الحنين إلى ما ألفه وتستعر الأشواق في روحه. أضف إلى هذا أن اطلاعي على حال الجزائر وما أدى إليه من تبدل الصورة المثالية التي كانت في الذهن برّدا كثيراً من حنقي على الوضع في سورية. لقد وجدت «الحال من بعضه»، على حدّ هذا التعبير المصري العامي الذي أحبّه. بل وجدت أن في سورية أسباباً تجتذبني أكثر مما في الجزائر.

وفيما نحن نتابع التطورات الجارية في سورية، جاء من دمشق زائر من المطلعين على الشأن العام. فتسنى لي أن أسمع التفاصيل التي أفتقدها. كان هذا هو المهندس مراد القوتلي، وهو عضو في لجنة الحزب الشيوعي السوري المركزية، وكانت تربطه قرابة نسب بحيدر. لم أكن قد لقيت مراد في دمشق، لكني سمعت عنه من أصدقاء مشتركين، وكان ما سمعته طيباً. وقد حمل هو إلي تحيات الدكتور نبيه إرشيدات أول شيوعي جمعتني به صداقة حميمة. وخصص مراد وقتاً طويلاً للحديث معي أنا بالذات، وركز همّه على إقناعي بأن آخذ مسألة التأميم بجدية. تفاعل الشيوعيون السوريون بالتأميم، عدّوه مؤشراً إلى اتجاه التطور داخل حزب البعث وسلطته، فساندوا السلطة في صراعها مع خصوم التأميم، ودعوا إلى تشكيل جبهة وطنية تقدمية تضمهم مع البعثيين وتنضم إليها القوى التقدمية الاخرى في البلاد. ولك أن تتخيل طرافة الصورة: شيوعي من الذين يخاصمهم حزب البعث منصرف إلى إقناع بعثي بأن يؤيد هذا الحزب ومنهمك في إيراد التفاصيل واستنباط الأدلة التي تساعد على الإقناع. والواقع أن حديث مراد أثر في: أحيا في نفسي مشاعر مختزنة، وأوهن تحفظي ضد تدابير التأميم.

وبعد هذا الحديث مع مراد، وجدتني منهمكاً بحمية في حملة الشباب لتأييد النظام السوري ضد خصومه المحافظين، فزاد عدد المواد التي أكتبها في هذا الشأن، وطابت نكهتها.

وعلى عادة مجلات اليساريين المشرقية، كانت مقالات **الشباب** تظهر فيها بغير توقيع، أو تحمل توقيعات مستعارة، فلم يعرف إلا زملاء العمل صاحب المقالات التي تتابع أحداث سورية. ثم لم يلبث أن اكتشفنا أن الصحف السورية الرئيسة كلها تعيد نشر مقالات الشباب هذه مخصصة لها أماكن بارزة في أهم صفحاتها. وقد دأبت سفارة سورية في الجزائر على إرسال هذه الصحف إلينا، فصرت أرى مقالاتي وقد أعيد نشرها في غير صحيفة، فيسعدني هذا، وأسرح في تصور ردود فعل معارفي هناك، اذ كيف سيفسرون الأمر لو عرفوا أن الذي غادر سورية حانقاً هو كاتب هذه المقالات؟ ولا أخفي عليك أن إعجابي بنفسي قوي بسبب ذلك.

ثم جاء وقت اتصلت فيه السفارة السورية بالمجلة وقال قائلها إن سعادة السفير راغب في زيارة **الشباب** لينقل إلى محرريها تحية سورية لهم وشكرها إياهم على موقفهم المساند. كان السفير هو الدكتور شاكر الفحام، وهو من كان أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة دمشق وأحد قدماء البعثيين، وكنت أنا قد عرفته هناك، وخضت معه، هو العفلقي وأنا المناوئ للعفلقيين، مناقشات حامية، إلا أن صلتي به لم تتعكر بسبب ذلك، أو قل إنه وهو الأكبر سناً والأعلى مقاماً، صبر على مماحكاتي صبراً جميلاً، ولعله توقع أن تبدلني الأيام. وبعد مجيئي إلى الجزائر، زرتُ الدكتور شاكر في منزله وأبلغت إليه أني أعمل في التدريس وكتمت عنه صلتي بالمجلة. وعندما تحدد موعد الزيارة، رأى حيدر أن الأوان قد حان كي يعرف السفير السوري أني أنا هو كاتب المقالات التي تحتفي بها صحافة بلده.

والواقع أن الدكتور شاكر، وهو رجل يتسم بالطيبة، بهت تماماً حين وجدني بين مستقبليه في المجلة وتوقف عن إتمام عبارات التحية التي شرع فيها، وتأملني لحظات، ثم هتف، ناسياً اعتبارات البروتوكول: «ما كان أغباني! تساءلت دائماً من أين لمحرري المجلة هذه المعرفة الدقيقة بالشأن السوري، هو، إذاً، أنت، ويقولون لي عنك إنك ناقم وطويل اللسان!» وفي تقريره إلى

دمشق، نوّه الدكتور شاكر بما أقوم به، ونسب إلي دوراً اكبر من الذي أضطلع به في الواقع، ليس لأنه تعمد المبالغة، بل لأنه استند إلى ما ذكره حيدر عن هذا الدور حين قال رئيس التحرير للسفير الزائر إن لي أنا صلات واسعة مع قادة البلاد ورأياً مؤثراً في سياسة الجزائر المشرقية.

علمت بتقرير الدكتور شاكر عندما قدم إلى الجزائر عضو من أعضاء القيادة القومية لحزب البعث ليجري مفاوضات مع حزب جبهة التحرير. كان الزائر هو التونسي مسعود الشابي، وكان مشهوراً بولائه المستحكم لعفلق، فلم تكن علاقتي به حميمة. فلما تعمد الرجل أن يبحث عني ويلقاني، أثار سلوكه استغرابي، وقد صارحته بهذا في أول لقائنا، فعرفت في معرض تفسيره لاهتمامه بي تقرير السفير، وأدركت أن التقرير اشتمل على المبالغات عندما طلب الرجل مساعدتي لإنجاح مهمته في الجزائر. وكان أهم ما عرفته من حديث الشابّي أنه تذاكر مع عدد من أعضاء القيادة بشأني وأن سلوكي يدهشهم. لقد كنت عند هؤلاء إنساناً غريب الأطوار، فأنا أسلك في سورية سلوك المعارضين المتشددين وأدفع ثمن سلوكي دون تهيب، وأنا أتطوع في الجزائر للدفاع عن سياسة الحزب ولا أهتم حتى بأن يعرف الحزب ذلك.

في هذا النحو، سارت أموري في الجزائر، إنشغال بالتدريس لا يتعدى ساعات العمل التي لا تزيد في أي حال عن ثلاثين ساعة في الأسبوع، واستغراق في الشؤون السياسية، المحلية والفلسطينية والعربية الأخرى والدولية، وخصوصاً الأفريقية. وقد توثقت علاقتي مع اليساريين في الجزائر. واسترحت خصوصاً إلى الشيوعيين. وهاأنذا أتذكر كم أسعدني التعرف على الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري بشير الحاج علي. كان هذا القائد ذو العزيمة الملحوظة من الذين كتبوا للمجلة، وقد اجتذب انتباهي أنه واحد من دارسي الموسيقى العربية. إن تخصص قائد شيوعي بارز في الموسيقى أمر لا بدّ من أن يجتذب الانتباه.

وتسنى لي أن ألتقي كثيرين من قادة حركات التحرير والفرق اليسارية في

أفريقيا. هؤلاء الذين احتضنت الجزائر أو استضافت عدداً وافراً منهم وقدمت تأييداً ودعماً معلنين لمنظماتهم.

أما وضعي في المجلة فقد تعزز كثيراً بسرعة قياسية، حتى لقد صرت بعد شهور قليلة معدوداً بين محرريها الرئيسيين. وقد واصل حيدر مساعيه لتفريغي للعمل في المجلة تفريغاً كاملاً، وأمكن أن يتدبر وسيلة تأذن بتسميتي موظفاً إدارياً وتبيح لي أن أحصل على راتب شهري ينضاف إلى المكافأة، وجدد عرضه لي بأن أستقيل من عملي في التدريس. فقبلت العرض، وأبلغت إلى وزارة التعليم أني غير راغب في تجديد عقد العمل للعام الدراسي التالي. وبهذا، صار علي أن أواصل التدريس لبضعة شهور أخرى فقط، أي حتى حزيران/يونيو ١٩٦٥، ثم أتفرغ كلية للعمل في المجلة. لقد أدرت ظهري للتدريس وبدأت احتراف الصحافة. ورحت أتطلع بشوق شديد إلى حزيران/ يونيو القادم.

١٠ عود على بدء لم اختره ولم أبغضه

عرفتُ كما رأيت أنت ما يجري في الجزائر. وانشغلت بصراعات الكتل داخل حزب جبهة التحرير الحاكم، لكني لم أعرف بطبيعة الحال كل شيء. كنت أتابع مجريات الصراعات دون أن تستغرقني بكليتي. وقد بدت لي حدّة الخلافات أقل مما هي في واقع أمرها. ألف أصدقائي أن ينبهوني إلى خطورة الوضع. ولكني غالباً ما نسبت حديث الأصدقاء عن المخاطر المحتملة إلى رغبتهم في حثّي على مؤازرتهم ضد خصومهم دون ان تقلقني الهواجس بمقدار ما تقلقهم أو أنشغل في الصراع بمقدار ما ينشغلون هم فيه. فلما غرقت أنا نفسي في منافسات الفلسطينيين على الساحة الجزائرية، اشتدت حاجتي لتحري خلفيات المواقف الجزائرية ذاتها، فزاد بهذا تنبهي إلى ما يجري في أوساط قيادات الحزب والسلطة. وكانت الصراعات في هذه الأوساط آخذة في الاحتدام بحيث يتعذر على أي حال الاستمرار في إغفال تفاصيلها.

هنا تمحور الصراع حول مصير رأس الحزب والسلطة كليهما أحمد بن بيلاّ. وقد يحسن أن أزيدك معرفة بهذا الرجل لتدرك كيف أمكن لخصومه أن يطيحوا به في نهاية المطاف. لم يكن بن بيلاّ حاكماً فرداً بالمعنى المألوف لهذا الوصف. غير أن أسلوب إدارة الرجل لشؤون الدولة حمل كثيراً من سمات الحكم الفردي. وسواء تعلق الأمر برؤية مناصريه له أو رؤية معارضيه، فقد

برز رئيس الجمهورية ورئيس الحزب بوصفه صاحب الكلمة النافذة التي تفوق أهميتها أهمية القانون. لم يتفرد الرجل بسلطة القرار أو التنفيذ، لكنه امتلك سطوة واضحة على الذين لهم حق المشاركة في وضع القوانين وإصدار القرارات التنفيذية. وكان شأن بن بيلاً من هذه الناحية شبيهاً إلى حدّ ما بشأن عبد الناصر وان اختلفت ظروف الاثنين. فهو يرأس دولة فيها برلمان وحكومة وهيئة قائدة للتنظيم السياسي، إلا أن معظم الذين يشغلون هذه المراكز يأتمرون بأمره أو يأخذون رغباته بعين اعتبارهم، حتى لو لم يطلب هو ذلك. وفي سعيه إلى الشعبية، غرق بن بيلاً في اللعبة التي تجتذب أمثاله، فاستقطب أضواء الشهرة، وعمل على أن ترتبط المنجزات باسمه، وحرص على أن يحضر في أي مكان، بما في ذلك ملاعب كرة القدم، ويتدخل في أي شيء، بما في ذلك سلوك الجمهور في هذه الملاعب. وبهذا أمكن لخصوم الرئيس أن يتهموه بالفردية وإيثار الذات وحبّ الظهور، كما أمكن أن يثبتوا حكاية أنه مسؤول عن كل شيء في البلد فيحملوه المسؤولية عن السلبيات في موازاة ادعائه المسؤولية عن الإيجابيات، ويحرضوا ضده على هذا الأساس.

وكما يحدث في مثل هذه الحالة، لاذ ببن بيلاً وصوليون كثيرون واحتموا بسلطانه، عديمو كفاءة شغلوا مراكز ليسوا مؤهلين لها، وأفاكون، وفاسدون يتعجلون تكديس المنافع. استغل هؤلاء حاجة الرئيس إلى تجميع الأنصار في وجه معارضيه ووهنه في محاسبة أنصاره على تجاوزاتهم. وتوجب عليه هو أن يدفع ثمن هذه التجاوزات من شعبيته ومن سخط اليساريين النزيهين أنفسهم.

أضف إلى هذا ما هو أوقع تأثيراً في مصير بن بيلاً. فإن الحاجة إلى بناء البلد وتطويره بعد الخراب والفوضى الشاملين اللذين خلفهما الفرنسيون الراحلون، أرغمت النظام الذي يقف هو على رأسه ويحمل مسؤولياته على اتخاذ تدابير ليست كلها مما يعزز شعبية الرئيس أو يبقيها على حالها. أضرب لك مثلاً في القانون الذي حظر على الجزائريين شرب الكحول. كان الدافع إلى إصدار هذا القانون وجيهاً بالمقياس الاقتصادي. فالبلاد بحاجة

إلى العملة الصعبة. والنبيذ الجزائري مرغوب في الأسواق الأوروبية، وقد انفتحت أمامه سوق واسعة منذ كان الفرنسيون هم المهيمنون على كروم العنب ومعامل إنتاج النبيذ وتجارته. وكان من الطبيعي أن يحرص عهد الاستقلال على توجيه الإنتاج إلى التصدير. إلا أن هذا كان تدبيراً أسخط كثيرين وخصوصاً من الذين تستند عليهم شعبية الرئيس.

أضرب لك مثلاً آخر أثار سخطاً أوسع وقع في الفترة التي كانت فيها شعبية بن بيلاّ آخذة في التآكل، فزاد الطين بلّة، بل بلاّت. فقد انتبهت السلطات الجزائرية إلى أنها ورثت عن فرنسا نظاماً للتعويضات العائلية يتعارض مع ما يتطلبه وضع الجزائر. ففي فرنسا، حيث عدد السكان معرض للتناقص بسبب تدنّي نسبة الولادات، تدفع الدولة للعاملين في مؤسساتها تعويضاً كبيراً عن أطفالهم لتشجع على زيادة النسل. أما في الجزائر المستقلة، حيث تشكل نسبة الولادات المرتفعة عبئاً خطيراً على خطط التنمية، فقد صار الاستمرار في دفع تعويضات عائلية مرتفعة سلوكاً ضاراً ولا بدّ من تخفيضها. وقد ارتبطت معالجة هذه المشكلة باتفاقية إيفيان التي ظفرت الجزائر باستقلالها بموجبها. ولأني أخشى أنك لا تعرف هذه النقطة، فإني مضطر إلى مزيد من الاستطراد. فقد تضمنت الاتفاقية بنداً يبيح لسكان الجزائر كلهم، المواطنين والمستوطنين حق الاختيار بين الجنسية الفرنسية والجنسية الجزائرية، على أن يتم الاختيار في غضون سنتين. هذا البند حمل السلطات الجزائرية على أن تصبر طيلة سنتين حتى لا يؤدي تخفيضها للتعويضات العائلية إلى تنفير الجزائريين من اختيار الجنسية الجزائرية.

وما أن انقضت السنتان حتى صدر قانون جديد يخفض هذه التعويضات. وبهذا، فقد جزائريون كثيرون فجأة جزءاً ملحوظاً من دخلهم. وقد أحدث هذا التدبير الذي يتم وأنا في الجزائر سخطاً لم أشهد مثيلاً له من قبل.

كل هذا انضاف إليه التأثير المدمر للسمة التي سبق أن ذكرتها لك، أي لحرص

بن بيلاً على إمساك العصيّ من الوسط، فازداد تآكل شعبية الرجل، مع أنه بقي في كل الأحوال حتى لحظة الإطاحة به الزعيم الأقوى والأوسع شعبية بين زعماء الجزائر كافة. أما لماذا أمكنت الإطاحة به بالرغم من ذلك، فالتفسير صار في متناولك. فالذي أطاح ببن بيلاً هو الجيش. وقد تأسس هذا الجيش بمنأى عن إشراف بن بيلاً وتطور فيما كان بن بيلاً في الأسر. وكان الجيش شبه موحد وراء مؤسسه وقائده العقيد هواري بو مدين الذي خلف بن بيلاً. والجمهور المندوب لحماية زعيمه الأثير كان ساخطاً لمائة سبب وسبب، فسهل هذا على خصوم الزعيم الإطاحة به دون أن يخشوا العواقب.

حدث هذا، كما لا بدّ من أنك تعرف، في منتصف حزيران/يونيو ١٩٦٥.

كان العام الدراسي قد انقضى وختمته تلميذاتي بحفلة مجلجلة أقمنها من أجلي في المدرسة وتحدّين بها المديرة وبقيت أصداؤها تعمر روحي بمشاعر الامتنان زمناً طويلاً. وكانت وزارة التعليم قد قبلت استقالتي. وكانت زوجتي قد سافرت إلى دمشق في أول الرحلات الجوية المخصصة لنقل المعلمين كي تزور أهلها وتتهيأ لوضع حملها الأول في رعاية الأهل. أما أنا فقد حرمت نفسي من الإجازة كي أتمكن من توطيد وضعي الجديد في المجلة بأعجل ما يمكن وأشرف على استكمال تأثيث شقتنا ليشاركنا فيها المولود المنتظر.

في ذلك الوقت، اشتدت وتيرة الخلافات داخل قيادة حزب الجبهة، واقتضى الأمر عقد دورة استثنائية للجنة الحزب المركزية. هذه الدورة فعلت ما فعلته الدورات السابقة كلّها، فصدرت عنها قرارات تؤيد وجهة نظر بن بيلاً وفريقه. صدرت القرارات بأغلبية كبيرة، وتصورت الاغلبية أن هذه الموجة من الخلافات قد هدأت. ولم تزد هواجس أصحابي عن توقع موجة خلافات جديدة قد تأتي بعد حين.

ركن بن بيلاً ذاته إلى النتيجة وتصرف على هذا الأساس. وتصادف أن مباراة كبيرة لكرة القدم كانت ستجري في اليوم التالي في وهران. فطار بن بيلاً إلى وهران، وحضر المباراة، وألقى كلمة طمأن فيها الجمهور إلى أن

«الدعوة لا باس»، أي أن الأمور بخير، ورجع في المساء إلى العاصمة راضياً مرضياً على أهدأ ما يكون عليه الرضى. وفيما الرئيس غارق في النوم، اقتحم العسكر المكان الذي يقيم فيه، وأيقظوه، واقتادوه إلى السجن.

حرك وزير الدفاع قائد الجيش عدداً من الدبابات والمصفحات، عدداً قليلاً في واقع الأمر الذي عاينته بنفسي، وسيطر على المواقع ذات الأهمية الخاصة. وعندما أشرقت شمس الصباح، كان عهد بن بيلاّ قد سقط وحل محلّه عهد بومدين.

لم تمرّ حركة بو مدين دون اعتراض. ولكن حجم الاعتراض بدا لي هزيلاً بالقياس للشعبية المفترضة لزعامة بن بيلاّ ومكانته والكره المفترض لتدخل العسكر في السياسة. لقد عارض الحركة كثيرون دون شك، لكن هؤلاء لم ينشطوا على الفور إلى مقاومتها. أما الذين خفّوا إلى المقاومة بأمل إجهاض حركة الجيش فكانوا بعض يساريي الجبهة ومعهم الشيوعيون. وهؤلاء هم الذين نظموا المظاهرات التي شهدتُها في شوارع وسط العاصمة. كانت هذه مظاهرات عديدة تواترت لعدة أيام بعد الحركة، إلا أنها كلها كانت صغيرة. كنت ترى جماعات لا يزيد عدد أي منها عن مائة، تركض في شارع أو غيره وتطلق شعارات مناوئة لبومدين، ثم تتفرق من تلقاء ذاتها أو يفرقها جنود مسلحون لم يحتاجوا إلى استخدام أسلحتهم في أي مرة.

في يوم الانقلاب على بن بيلاّ. كانت الجزائر قد أكملت الاستعداد لاستضافة مؤتمر قمة الدول غير المنحازة. وقد بني قصر خاص لاستضافة المؤتمر هو قصر الأمم الذي اشتهر فيما بعد باسم قصر الصنوبر، وأحيط القصر بعدد وافر من الفيلات الفاخرة ليقيم فيها ملوك القمة ورؤساؤها، وحجزت فنادق الدرجة الأولى ليقيم فيها أعضاء الوفود وناس الإعلام. وكان من المقرر أن يسبق القمة مؤتمر لوزراء الخارجية، وقد وصل عدد من المندوبين لهذا المؤتمر وحلّوا في الفنادق الكبيرة. ولذا، صارت هذه الفنادق هدفاً يقصده المتظاهرون. أراد منظمو المظاهرات أن يصل رأيهم إلى الخارج، وتوخّوا الحيلولة دون عقد

المؤتمر ما لم تجهض الحركة الإنقلابية ويرجع بن بيلاً إلى مكانه. ولئن أفلح هؤلاء في إيصال وجهة نظرهم إلى شاغلي الفنادق، فقد أفلحوا أيضاً في إثارة شكوكهم بشأن عقد المؤتمر الذي صار رئيسه في السجن.

هل كان علي أن أتصور قبل سنة من هذه الأحداث أن صراعات زعماء الثورة الجزائرية في ما بينهم سوف تؤثر على حياتي الشخصية وتبدل مجراها من جديد؟ يقينا إن هذا ما كان ليقع لي حتى في الأحلام، ومع ذلك فقد وقع!

الذي حصل أن مبادرة منظمة الشبيبة الجزائرية إلى رفع راية الاعتراض على حركة الجيش وتنظيم المظاهرات لمقاومتها أسخطت ناس العهد الجديد. فتعجل هؤلاء البطش بمنظمة الشبيبة وبأي شيء يخصها. وقد كانت مجلة **الشباب** ستصبح هدفاً لهؤلاء بما هي مجلة يسارية حتى لو لم تكن تابعة لمنظمة الشبيبة، فكيف وهي حسب صفتها الرسمية اللسان المركزي لهذه المنظمة؟! لقد داهمت الشرطة العسكرية مقرّ المجلة، واعتقلت بعض محرريها ثم أقفلت المقرّ بالشمع الأحمر، وتابعت أجهزة الأمن ملاحقة من نجا من الاعتقال، مستثنية صديقي ج.

واجه ج. التطورات الجديدة بسخريته المعهودة، ونشط لسانه في التشنيع على الجميع، السابقين والقادمين، دون أن ينحاز لأي طرف. ولأنه قدر ما سيقع على المجلة تقديراً صحيحاً فإنه لم يتوجه إلى مقرها، بل جلس في مقهى «ملك بار» القريب من مبنى قيادة الحزب والمبنى الذي يقع مقر الجريدة فيه. فلما جاء حيدر، خفّ ج. إليه قبل أن يصل إلى المقر وحذره من الاعتقال، فنجا رئيس التحرير وتوارى عن الأنظار. وبالطريقة ذاتها، التقطني ج. وقال لي إنهم غافلون عن اسمي لأنه غير مدرج في سجل المحررين، وحذرني من أن هذه الغفلة لن تدوم. وأبلغ ج. إلي رسالة من حيدر يطلب الصديق المطارد فيها مني أن أوافيه في موعد بعينه عند أسرة نعرفها كلانا. فإن لم أجده هناك فسأجد العنوان الذي أتجه إليه. وهكذا، اهتديت إلى حيدر حيث اختار

أن يختفي في فيلاً في شاطئ سيدي فرج.

ناقشت مع حيدر الأمور الجارية. فبدا الشاب المفعم بالسخط على ثقة بأن الانقلاب لن يستقر، وأن الجمهور لا يحتاج إلا إلى تحرك طلائعه ليهبّ ويقضي على الانقلابيين. وعرفت أن حيدر على صلة بعضوي المكتب السياسي محمد حربي وحسين زهوان المتواريين في حيّ القصبة عن أنظار الانقلابيين، وأنه يتلقى توجيهاتهما بانتظام، وهما يقدران أن المسألة مسألة أيام فقط تعود المياه بعدها إلى مجاريها السابقة.

لم أؤخذ بحماس حيدر. فأنا قادم من سورية حيث شهدت عدّة انقلابات، وأعرف ما الذي يعنيه تحرك الجيش ونجاحه في السيطرة على المواقع الحساسة منذ الساعات الأولى لتحركه. غير أني لم أشأ أن أصدم مشاعر صاحبي المتفائل. وقد أبديت ما كنت سأبديه في كل الأحوال وهو استعدادي للقيام بأي نشاط أقدر عليه. فأنا أيضاً لا أحبّ انقضاض العسكر على الشرعية. عندها، أفصح حيدر عن السبب الذي جعله يتعجل لقائي، فهو يريدني أن انشط في كواليس وزراء الخارجية الوافدين وناس الإعلام العربي للحثّ على تأجيل عقد القمة إلى أن يعود رئيس جمهورية الجزائر الشرعي إلى موقعه. وندبني حيدر لمهمة خاصة تندرج في هذا السياق، فصار علي أن أتصل بالوفد السوري بالذات وأعمل على توهين حماس البعثيين لبومدين.

غفل حيدر عن حقيقة يعرفها وهي أن موقف البعثيين المنحاز لبومدين ليس وليد تلك اللحظة. فلطالما أخذ البعثيون، وخصوصاً العفلقيين منهم، على بن بيلاً التزامه الصداقة مع عبد الناصر واهتمامه بالشأن الأفريقي على حساب الاهتمام بالشأن العربي، فهو عندهم كما وصفه شاعرهم يوسف الخطيب «يزجي القوافي انغولا عن النقب». وبضيق البعثيين ببن بيلاً، ألف هؤلاء أن ينظروا بعين الرضى إلى مناوئة العقيد بومدين، وكانوا ينسبون إلى العقيد مزايا يرون أن بن بيلاً مفتقر إليها. وما أن استولى العقيد على السلطة حتى

بادر البعثيون في سورية إلى الاعتراف بعهده الجديد.

وجدت في الوفد السوري صديقاً لي هو الدكتور محمد الخطيب الأمين العام لوزارة الإعلام وهو من كان في وقت من الأوقات من وجهاء كتلة اليسار التي أنتمي أنا إليها. كما وجدت في الوفد شخصاً آخر يرغب في مقابلتي دون أن أكون قد عرفته، هو إميل شويري الذي عين مؤخراً رئيساً لتحرير البعث فحل محل عبد المحسن أبو ميزر الذي رجع إلى القدس، وقد حمل لي رئيس التحرير تحيات من أصدقاء مشتركين في دمشق بينهم أخوه، صديقي نبيل شويري القائد في كتلة اليسار. وكان إميل، وهو صحافي مقتدر ودبلوماسي، من اللصيقين بصلاح البيطار، وكان، بخلاف أخيه اليساري، يجهر بيمينيته.

وقد روى لي الدكتور محمد كيف وصلت أنباء الحدث الجزائري إلى دمشق، فيما وزير الإعلام غائب عنها، فاستدعي هو إلى القصر الجمهوري لحضور اجتماع طارئ يرأسه رئيس الدولة اللواء أمين الحافظ. ووصف محمد لي ما جرى في الاجتماع فعرفت أن أمين الحافظ افتتحه بقوله إنه استقصى خلفيات الانقلاب الجديد فاتضح له أن بومدين أكثر عروبة من بيلاّ. وكان هذا هو الوصف الوحيد الذي استخدمه الحافظ لتسويغ تأكيد سورية الفوري للعهد الجزائري الجديد. وقد تلقى محمد يومها أمر الرئيس بتجنيد أجهزة الإعلام السورية لدعم هذا العهد وإبراز عروبة الرئيس الجزائري الجديد.

أراد الدكتور محمد وإميل أن يعرفا رأيي أنا في الحدث، فأفضت في شرحه لهما. ولا شك في أني كنت متأثراً بموقف أصدقائي اليساريين الجزائريين، غير أن رؤيتي لم تتطابق مع رؤيتهم. وعرف محمد وإميل مني أن حربي ورضوان الملاحقين كانا في المكتب السياسي هما اللذان يدعوان إلى أن تنشئ الجزائر علاقات طيبة مع القوى الثورية العربية كلها وليس مع نظام عبد الناصر وحده. أما بومدين الذي فتنت عروبته البعثيين فكان من دعاة الموازنة في العلاقات بين الأنظمة العربية الثورية والأخرى المحافظة. وصارحت جليسيّ السوريين بما

أتنبأ به من سلوك بومدين فالرجل الذي دعا إلى توسيع علاقات الجزائر مع البلدان العربية كلها وهو في موقع المعارض لرأس النظام سيختلف سلوكه بعد إطاحته بهذا الرأس وحلوله محله، وسيصير العهد الجديد أسير مصالح القوى التي تسنده، وهي بالإجمال قوى جزائرية انعزالية أو عروبية محافظة.

ولم أخف عن عضوي الوفد السوري أني على صلة بناس اليسار الجزائري، وقد نصحتهما بأن يتصل وفدهما بالقادة المتوارين عن الأنظار ليسمع منهم مباشرة، وتعهدت أن أهيئ هذا الاتصال إن رغب السوريون فيه.

تحمس الدكتور محمد للنصيحة وأبدى استعداده للقاء حربي وزهوان أو أي منهما متى تيسر ذلك. ونقلت رغبة المسؤول السوري إلى حيدر، فنقلها هو إلى زهوان. وفي اليوم التالي، تلقيت الإجابة: يأبى أي من القادة الشرعيين أن يستقبل عضو الوفد السوري ما لم تسحب سورية اعترافها بنظام بومدين. فلم يتحقق اللقاء. إلى هذا الحد كان أصدقائي اليساريّون متفائلين بأنها مسألة أيام فقط يعودون بعدها إلى ما كانوا فيه!

يبدو أن نشاطاتي ومساعي في تلك الأيام المحمومة قد اجتذبت الانتباه إلي وأثارت الشكوك. وقد حذرني ج. من المتابعة فاتضح أنه على علم بأني أتصل بالوفود وأردد آراء لا يرضى عنها ناس الإنقلاب. ولأني لم أكن قد أطلعت ج. على اتصالاتي هذه، فقد أخذت تحذيره لي مأخذ الجد. ثم جاء من حذرني من ج. نفسه وقال إنه يعسُّ لصالح العهد الجديد، أي أنه مخبر. ثم إن ج. نفسه كرر تحذيره لي وقال إن عيون الأمن حمراء عليّ، وفسر لي سبب إحجامهم عن اتخاذ تدبير ضدّي، فقال إن خليل الوزير الذي تربطه علاقة وثيقة بناس العهد الجديد سئل عني فقدم شهادة طيبة وأسبغ علي نوعاً من الحماية، لكن مثل هذه الحماية، قال ج.، لا تنفع إلى الأبد.

وهكذا، وجدتني في دوامة الشكوك والهواجس. وبتّ على ثقة بأن لا بقاء لي في الجزائر. ولئن لم أبرح البلد للتو، فلأني لم أكن قد اهتديت بعد إلى الخطوة

التالية. وفيما أنا في تخبطي، حمل إلي إميل شويري إشارة الفرج. قال إميل إنه عندما عُرضت عليه رئاسة تحرير البعث اشترط أن تطلق يده في اختيار العاملين في التحرير، وعرض عليّ أن أعود إلى سورية وأعمل في الجريدة. وأكد إميل على أنه سيوفر لي مكانة محترمة ودخلاً يفي بحاجاتي، وجزم بأنه يملك الصلاحية للاتفاق معي منذ الآن، هنا في الجزائر، وإذا قبلت عرضه فلي أن أعدّ نفسي محرراً في جريدة **البعث** منذ الأول من تموز/يوليو ١٩٦٥.

كان هذا عرضاً كاملاً لا عيب فيه، وكان يعكس كما تبين لي طبيعة إميل ودقته ووضوح شأنه كلّه واستقامته في التعامل مع مرؤوسيه.

وبالرغم من أني طلبت مهلة للتفكير ووعدت إميل بأن يعرف رأيي قبل أن يبرح الجزائر، فإني كنت قد قبلت العرض في الواقع، وغبطت نفسي على توفر فرصة خلاصي من الدوامة بهذه السرعة وبهذه السهولة. ولعل إميل نسب استمهالي إياه إلى التردد وظن أني متردد لأسباب متعلقة به، فطلب أن نتحدث بصراحة. بغير كلفة. وقد بدأ إميل بنفسه فأقر بأنه يميني لا يؤيد طروحات اليسار، ثم قال إنه يندبني للعمل معه وهو يعلم أني يساري ومتعاطف مع الشيوعيين، ويرى أن اختلاف المواقف يغني الجريدة، تماماً كما يغنيها تنوع الكفاءات. وإمعاناً منه في تشجيعي، ذكر إميل حكاية الصحافيين الذين جاء بهم إلى الجريدة لتحسين مستواها المهني وكيف فرض على قيادة الحزب القبول بهم بالرغم من أنهم غير بعثيين. وعدّ إميل من هؤلاء من كان آنذاك ناصرياً وهو سعد الله ونوس وصديقه الناصري الآخر أديب خضور، كما ذكر اثنين من صحافيي عهد الانفصال، جان ألِكْسان المحسوب على الشيوعيين وأحمد شكري المعدود من المحافظين.

بعد هذا الحديث مع إميل، توجهت إلى «ملك بار». وما أن رآني ج. من مقعده وراء الواجهة، حتى غادر المقهى، وخفّ إلي وأمسك بيدي ومضى بي في شوارع جانبية. عرف ج. أن مكان اختفاء حيدر قد اكتشف ولو لم يرسل هو

تحذيره في الوقت المناسب لوضع صديقنا في القبضة. وقال ج. إنه لا يعرف المكان الجديد الذي انتقل حيدر إليه، وحذرني من الذهاب إلى المكان القديم. أما عني فقد كان لدى ج. شيء هام، فقد عرف أنهم قرروا إلقاء القبض عليّ، وقال إنه تدخل بأمل إلغاء القرار غير أنه ليس واثقاً من نجاح وساطته ورجاني أن أتوارى إلى أن تنجلي الأمور.

غني عن البيان أني أخذت التحذير الجديد بجدّية تامة. فلو صح ما يشيعه خصوم ج. من أنه يعسّ للعهد الجديد فمعنى هذا أنهم يريدون تخويفي لأكف عن أي نشاط، وقد تعهد هو بإقناعي بالابتعاد من تلقاء نفسي. وان صح حدسي، أنا الذي أرى أن ج. مخلص في خدمة أصدقائه ولا صلة له بدسائس ناس الأمن، فالأمر، إذاً، أخطر.

بهذا الهم المتجدد، عدت فوراً إلى إميل وأبلغت إليه موافقتي على عرضه جملة وتفصيلاً. وسألت عن الدكتور محمد فعرفت أنه في خلوة مع السفير الدكتور شاكر الفحام. فاقتحمت الخلوة وكشفت هواجسي كلها أمام الرجلين، ونشدت عون السفير.

ما كان أطيب الدكتور شاكر الفحام، وما أسرع ما انتخى وقدّم المساعدة! وضع السفير سيارته المحمية بالحصانة الدبلوماسية وسائقها تحت تصرفي. وبما أن هذه كانت سيارة سفير سورية بالذات فقد وفر الرجل لي حماية مضمونة، وصار من غير الممكن أن أتعرض لمكروه وأنا في حماية سفير أول بلد اعترف بالعهد الجديد.

وبالرغم من إحساسي بالاطمئنان، فقد تعجلت تسوية أموري تمهيداً للرحيل عن البلد. فذهبت إلى الحي الذي أسكن فيه وأبلغت إلى لجنة الحيّ اعتزامي مغادرة الشقة. فقال رئيس اللجنة إن زميلاً لي من معلمي المدرسة طلب شقة فوعدوه بأن يخصصوا له أولى الشقق التي ستشغر، وسألني عما إذا كنت مستعداً لبيع أثاث شقتي لهذا الزميل، ورجاني أن أطلب سعراً مهاوداً لأن

الرجل كثير العيال وحاله رقيق. وفيما أنا في الشقة منصرفاً لإعداد حقيبة سفري، وصل رئيس اللجنة وبصحبته الزميل الفقير. جاء الموعود بالشقة ولسانه يلهج بعبارات الشكر والثناءات ولسان حاله يلهج بالرجاء. وشاء الرجل أن يساومني على ثمن الأثاث، مطلقاً العنان لفصحاه التقليدية للإشارة بطبائع كرام الناس الذين أنا، عنده، منهم وأريحيتهم وكرمهم ومبادرتهم إلى فك كربة المكروب ومواساة المحزون وإغاثة الملهوف، وما إلى هذا من مثل هذه العبارات. وتيقنت من أني لو دخلت مع هذا الرجل في مساومة، فإن أمرها سيطول. وتفتق ضيفي عن فكرة فنفذتها للتو. تذكرت أن لجنة الحيّ أبت أن تتقاضى مني أجرة للشقة وأصرّت على أن تعدني ضيفاً على الحي ما دمت قد جئت من بلاد بعيدة لأدرس في مدرسته. فقلت لرئيس اللجنة إني أترك مهمة مساومة زميلي له، على أن تتقاضى اللجنة ثمن الأثاث وتعده تبرعاً مني لدعم ميزانيتها، أو تنفقه في أي وجه من الوجوه التي تراها. ويبدو أن رئيس اللجنة اشتبه بأني أنوي بعرضي هذا أن أسدد الأجرة التي أعفوني من دفعها فحملته الأريحية على رفض عرضي وأصر على رفضه. فوجدتني أتوجه إلى الزميل الملهوف وأقول له بالفصحى التي يفهمها: «هذا الأثاث لك، رزق ساقه الله لك حلالاً زلالاً تتصرف به كما تشاء، فإن أسعفتك الإمكانيات وجادت نفسك بشيء تدفعه فقدّمه لرئيس اللجنة الشاهد علينا الآن ليصرفه في وجوه الخير التي يراها!» وهاأنذا أتذكر وجه ذلك الزميل وقد كادت المفاجأة تصعقه فهتف: «شقة وأثاث بالمجان، لك الله، يا الله!»

بعد هذا المشهد الذي تأثر به سائق السفير كثيراً، حملتني السيارة المحمية بحصانتها وسائقها الذي صار أكثر استعداداً لتلبية أي مطلب لي، فطفت على الأصدقاء الذين قدرت أن من الضروري توديعهم، وتتابعت المشاهد العاطفية وتندى بعضها بالدموع إلى أن فرغت من المهمة. ومع المساء، جئت إلى مبنى السفارة، حسب اتفاقي مع الدكتور شاكر، وهناك قضيت ليلتي الأخيرة في الجزائر.

وفي السيارة ذاتها، وقد جلست فيها هذه المرة إلى جانب صاحبها، توجهت إلى المطار. وقد نبهني حديث السفير إلى أني أغادر الجزائر في آخر رحلة من الرحلات الخاصة التي تعيد المعلمين إلى سورية. فانتزعت من وسط هواجسي ابتسامة وقلت للرجل الطيب: «جئت إلى الجزائر متأخراً بالرغم من رغبتي في الاستعجال وكان ذلك، أيضاً، في الرحلة الأخيرة. وهاأنذا أضطر إلى أن أغادر الجزائر بعد قراري البقاء فيها فتسعفني هذه الرحلة الأخيرة. تباطأ مجيئي إلى هنا لأن سلطات سورية كانت تحظر عليّ السفر. وهاأنذا أتعجل المغادرة لأن سلطات الجزائر تدفعني إلى الرحيل». ولا بدّ من أن مرارة نبرتي قد كشفت لجليسي عمق الحزن الذي يسكنني. لم يقل الرجل شيئاً، إلا أن لمسة يده ليدي نقلت إلي رسالة مواساة. وعندما قال الرجل ونحن ندخل منطقة المطار: «سأبقى معك إلى أن تصل الطائرة»، كانت مواساته لي قد بلغت تمامها.

وفي مقعدي في الـ دي سي ٤، عاودتني ذكريات المتاعب التي تكبدتها في رحلة القدوم إلى الجزائر على الطائرة ذاتها. ولم تكن رحلة العودة أيسر. ولكي أصرف انتباهي عن متاعب الرحلتين، حملت نفسي على إمعان التفكير في ما ينتظرني، في الموقع الذي سأشغله في البلد الذي أنا راجع إليه. ودار بي تفكيري دورة، وأخرى. وتعددت الدورات. وتكرر تقليب الاحتمالات والتدقيق فيها. ولم أتمكن من مغالطة النفس، بل كنت أصل كل مرة إلى الاستنتاج ذاته. فالمكان الذي أشغله يكون مريحاً أو منغصاً حسب الطريقة التي أختارها لسلوكي فيه. فمن شأني أن أستريح إن استكنت شريطة أن تقبل نفسي الاستكانة فلا يقلقني وجع الضمير. أما إن بقيت متمسكاً بإبائي، متشبثاً بما يمليه عقلي علي من قناعات، حساساً إزاء ما يمس الكرامة، فما أكثر ما سأواجه من منغصات، ولا مفر من مواجهتها! واستحضرت من محفوظاتي الحديث الشهير: «لا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربّه». نعم لا يستريح المؤمن، أي مؤمن، ما دام حياً وما دامت الحياة التي يرغب المؤمن في أن يحياها لا تعاش

إلا بالطول والعرض.

وهكذا، كان العَوْدُ على البدء، إلى سورية مرة أخرى، إلى حزب البعث من جديد. إلى الجريدة التي بدأت فيها هاوياً وهاأنذا أعود إليها محترفاً. لم يتم العَوْدُ باختياري تماماً، إلا أني لم أجدني كارهاً له كل الكره. لقد كانت تلك، في الجزائر، فترة اتسع فيها أفقي واغتنت خبراتي وتطورت الشخصية. وفي غضون ذلك، جرت في سورية مياه كثيرة تحت الجسور جميعها. تبدلت أنا بعض الشيء. وتغيرت الأحوال في البلد بعض الشيء أيضاً. وليس من العسير، إذاً، أن أجد لي فسحة ما في الجوّ الذي ضقت به قبل ثمانية شهور.

١١ نبيه ارشيدات، مرفأ أستعيد فيه توازني

عدت إلى دمشق وليس لي فيها منزل، فانضممت إلى زوجتي المقيمة عند أهلها. وبعد بضعة أيام، قبل أن يحل الأول من تموز/ يوليو، حملني توقي المزمن إلى العمل على الالتحاق بالجريدة. وقد رحب إميل بي ترحيباً جميلاً، ووفى بوعده، فهيأ لي مكانة لا يحظى بها إلا صحافي ذو خبرة. وصرت نائباً لمن يسمى رئيس قسم الدراسات، الذي هو في واقع الأمر محرر صفحة الرأي. وصار عليّ أو صار من حقي كما قال إميل أن أكتب مقالا أسبوعياً وأي عدد أرغب في كتابته من التعليقات. أما رئيس القسم الذي صرت أنا نائباً له فكان البعثي العراقي طارق عزيز، وهو من كان نائباً لرئيس التحرير في الوقت ذاته.

إلى إميل وطارق، كان في قيادة العمل برهان شريح ومحمد علي الأشقر اللذان يتقاسمان عمل سكرتارية التحرير. كان الإثنان يعملان في حجرة واحدة ويتقاسمان المسؤوليات. إلا أن شخصيتيهما كانتا مختلفتين. أما محمد علي، أو علي كما يناديه الجميع، فهو بعثي قديم تولى عملاً ثانوياً في جريدة **البعث** قبل وحدة سورية ومصر، وصار في عهد الوحدة موظفاً في جريدة يومية تصدر عن وزارة الإعلام. فلما حلّ عهد الانفصال، سُرح علي من عمله بما هو بعثي، فاعتبر بهذا من مضطهدي ذلك العهد. فما أن أعيد

إصدار **البعث** حتى وجد علي مكاناً له فيها. واستفاد علي من صراعات الحزب الداخلية وما ينجم منها من إبعاد المغلوبين، فراح يترقى حتى صار سكرتيراً للتحرير دون أن ترتقي قدراته الصحافية إلى المستوى ذاته. كان عليّ جمّ التواضع، وكان تواضعه يتحول إلى تطامن حين يتعامل مع الذين هم أعلى منه مرتبة، وهو يهتدي بحكمة شعبية لا أستسيغها أنا: «الأرض الواطئة تشرب ماءها وماء غيرها». وفي المهنة، خصوصاً ما يتعلق بالمهام المطلوبة من سكرتير التحرير، كان الرجل كما وصفه إميل «خالتي»، استخدم إميل هذا الوصف ليتجنب صفة «أمّيّ» المفضوحة. ولم يكن عليّ يتعفف عن طلب العون من أيما أحد؛ تمر بقربه فيستوقفك أو يجيء إليك بنفسه: «زكاة روحك، اختصر لي هذا الخبر، أريده أصغر بأربعة أسطر!» يطلب منك هذا بدعوى أنه مشغول في أمور عاجلة، ثم يشكرك شكراً جميلاً ويثني على كفاءتك، كما يفعل أي رئيس يقدر تقدم مرؤوسيه في المهنة.

على العكس من علي، كان برهان. جاء إميل بصديقه البعثي الفلسطيني القديم هذا ليعوض به نقص كفاءة علي. وبرهان رجل معتد بنفسه وقدرته المهنية، دقيق في العمل، يصل إلى مكتبه في الوقت المحدد ويؤدي مهامه صامتاً، وإذا تحدث فلكي يتابع تنفيذ ما أصدره من تعليمات، لا يحتك بأحد، ولا يأذن لأحد بأن يتجاوز حدود علاقات المهنة. ولقد عملت مع هذا الرجل قرابة سنة ولم أتمكن من أن أعرف عنه أي شيء زيادة على ما ذكرته لك.

وكان جان ألكسان مسؤولاً عن قسم التحقيقات، وأحمد شكري عن قسم الأخبار الداخلية، وسعد الله ونوس عن الثقافة والمنوعات يعاونه أديب خضور. وقد تعاقد إميل مع الصحافي الفلسطيني كمال تفاحة الذي يعمل أيضاً في شعبة الأخبار في إذاعة دمشق وأوكل إليه مسؤولية قسم الأخبار العربية والدولية. وكان كمال يجيء إلى الجريدة في المساء فقط، فإن تغيب، وكثيراً ما تغيب لأسباب طارئة، كنت أنوب عنه فيترتب علي أن أبقى في الجريدة إلى ما بعد منتصف الليل.

كان هؤلاء تقريباً هم العاملون في جهاز التحرير كلّهم. فلقب رئيس قسم قد يعني أن شاغله هو الرئيس وهو الوحيد فيه. ولئن أوجب هذا الوضع على الجميع أن يعملوا بغير هوادة ودون فرص للراحة، فقد وفر لهم في المقابل جو الفريق الصغير ومزاياه والتجانس الذي يشدهم بعضهم إلى بعض. أما كيف كانت الجريدة تحصل، إذاً، على المواد التي تملأ ثماني صفحات كبيرة كل يوم، فبجهد خارق من هؤلاء المتفرغين، وبالاستعانة بمستكتبين كثيرين، والاستعانة بما تبثه وكالات الأنباء والإذاعات.

هنا، لا بدّ من أن أنوه بإدارة إميل للعمل. فقد أسهمت مقدرة رئيس التحرير على التنظيم في زيادة فعالية الفريق الصغير إسهاماً كبيراً. أراد هذا البعثي المحبّ للصحافة أن يقدم للقراء جريدة تجتذبهم، فشجع العاملين معه على المبادرة، وأطلق لهم الحرية إلى الحدود القصوى التي يبيحها وضع الجريدة بما هي اللسان المركزي للحزب الحاكم. ينحدر إميل شويري من أسرة مسيحية تقطن في حيّ القصاع الدمشقي العريق. وقد اشتهر والد إميل بمساهمته في نشاط الحركة الوطنية السورية أيام الاحتلال الفرنسي وتحرره من النوازع الطائفية. وكان إميل إبن أبيه الوارث لمزاياه. فانتسب إلى حزب البعث وهو بعد فتى، وتعاون مع الجميع بانفتاح ونزاهة. وكان الرجل مهذباً، بل مفرطاً في التهذيب، وكان يحلو له أن يسلك سلوكا ليبرالياً، بمقدار ما يتسنى لبعثي أن يصير ليبرالياً. واشتهر إميل بحرصه على توفير جو عمل ملائم لمرؤوسيه وتشدده في حمايتهم من أي مضايقات. وبهذه السمات، وبمبادرته إلى تحمل المسؤولية كلما سبب أي من مرؤوسيه مشكلة، كان إميل رئيس تحرير طيّب ومن الذين يمكن أن يركن إليهم دون هواجس.

طارق عزيز المنحدر من أسرة مسيحية عراقية كان هو الآخر مهذباً في سلوكه. ولم يكن طارق أقل من إميل تحرراً من النوازع الطائفية. حتى أنني لم أنتبه إلى أن طارق هذا مسيحي، مع أنه ظل رئيساً لي في العمل قرابة سنة، وكان مكتبانا في حجرة واحدة وكنّا نتبادل الآراء يومياً حول شتى المواضيع. عدا

ذلك، تميز طارق عن إميل الليبرالي بولائه الشديد لميشيل عفلق وتعصبه لمنظومة الأفكار القومية التي يبثها الأستاذ. وكان من شأن طارق لو قاده عقله إلى قناعة مخالفة لرأي الأستاذ أن يتجاهل قناعته عندما يكتب ويجاري أستاذه، وقد ألف أن يعدّ هذا بين أمثل مستلزمات الالتزام بعقيدة الحزب.

هذه المجموعة من الصحافيين الذين عملت معهم وأنا في بداية احترافي الصحافة علمتني الكثير. تعلمت من إميل كيف يمكن أن يؤدي المرء عملاً كثيراً مرهقاً دون أن يتلف أعصابه أو يثير أعصاب معاونيه، كما تعلمت العناية بالصياغة اللغوية، بأن تكون اللغة صحيحة دون أن تصير مقعرة. وتعلمت من طارق الموازنة بين القناعة الشخصية والخط الفكري الملزم، وجاريته في هذا، حتى مع التزامي فكراً لا يتطابق مع فكره. وأخذت عن أحمد شكري الدقة في صياغة الخبر بأوجز عبارة. وعن جان الكسان، أخذت حذقه في جمع المعلومات التي تجعل التحقيق الصحافي مشوقاً. وفتنني علي الأشقر بإصراره على ألا يتسبب بأي أذى لأي إنسان، ولو لم يكن لهذا الرجل إلا هذه الميزة لكفت للتغطية على نقص قدراته. وكمال تفاحة الذي يكبرني في السنّ أعجبتني قدرته على العمل بهدوء والتعاطي مع الأنباء بروح مهنية حتى لو كانت أنباء ملتهبة ومثيرة للعواطف. كانت شتى أنواع الأخبار تمر بين يدي كمال، فلا ينفعل إزاء أيٍ منها، لا يؤسيه المفجع ولا يستخفّه المفرح، بل يتعامل مع النوعين بروح مهنية وهو هادئ كل الهدوء. وكان كمال يحتفظ بهذا الموقف طيلة المساء إلى أن يرسل آخر الأنباء إلى المطبعة. وبعدها، بعدها فقط، كان الرجل يفصح عن رد فعله الشخصي أمام الساهرين معه، فيظهر ابتهاجه أو سخطه، حسب الأحوال.

أما سعد الله ونوس فقد نفره فيّ شيء لم يفصح هو عنه في أي وقت، لا أثناء مزاملتي له في الجريدة ولا بعد ذلك. وقد قيل لي إن سعد الله يستكثر علي المكانة التي أحظى بها ويجد أنها أكبر من أن يستحقها صحافي مبتدئ. وقيل لي أيضاً إنه يعدني مغروراً ولا يستسيغ أسلوبي أنا الذي يتعامل مع

الذين هم أعلى منه مرتبة بندية. وأما أديب خضور فقد تلقاني ببرود، لكن هذا حصل في البداية فقط، ثم لم يلبث أن صرنا أصدقاء. وأيا كان شأن المشاعر الشخصية فقد استفدت من حماس سعد الله لإعلاء شأن الثقافة واستقطاب مثقفي البلد الشبان حول القسم الذي يرأسه. واستفدت أيضاً من مثابرة أديب على تطوير أدواته المهنية.

أضف إلى هؤلاء العدد الكبير من المتعاملين مع الجريدة بما هم مستكتبون. في هذا المجال، أتيح لي أن أنشئ علاقات واسعة وأصطفي أصدقاء كثيرين وأتعلم وأجوّد كتابتي.

كنت، إذا، في وضع مريح من ناحية العمل. وقد واظبت على نشر مقال أسبوعي طويل في صفحة الرأي وتعليقين سياسيين أو ثلاثة كل أسبوع. وكان هذا كلّه يحمل توقيعي. وقد اختبرت ليبرالية إميل فوجدتها متينة. ذلك أني اقترحت أن أكتب سلسلة مقالات تستعرض التطورات التي أفضت إلى سقوط بن بيلاّ وحلول بومدين محلّه. فقبل إميل الاقتراح، بل شجعني، وهو يعلم أن الآراء التي سأفصح عنها لا تتفق مع رأي الحزب الذي تنطق الجريدة باسمه. وعندما قلت لإميل إن المقالات قد تسبب مشاكل عويصة، قال هو دون أن يشعرني بأنه يصدر توجيهاً: «الأمر متروك لحصافتك». فأعددت مقالات أفردت الجانب الأوسع فيها لعرض الوقائع وفق رؤيتي لها دون أن أبثّ آرائي المباشرة إلا في أضيق الحدود. وفي المحصلة، أحدثت الوقائع التأثير الذي أتوخاه. وقد نشر إميل المقالات التي أعددتها كلّها وأثنى عليها، وكان يتصل في حضوري كما في غيابي بالمسؤولين في الحزب والدولة ويلفت نظرهم إلى هذه المقالات ويحثهم على قراءتها. وحين أظهر بعض هؤلاء حنقه على ما عدّه خروجي عن خط الحزب الرسمي، دافع إميل عني وحماني من الأذى وتذرع بأن في المقالات اختلافاً يقع في باب تنوع الاجتهادات وليس المخالفة، وأمعن في تحمل المسؤولية، فقال إنه هو الذي طلب مني أن أكتب ما كتبت.

وفي واقعة أخرى، حماني إميل حين تورطت في مخالفة مباشرة وصريحة لتعليمات رئيس الحكومة ذاته. انخرط الإعلام السوري كله لبعض الوقت في حملة شديدة ضد دعوة المملكة العربية السعودية إلى ما سمي وقتها الحلف الإسلامي. وقد أثارت الحملة، بالطبع، سخط السعودية، فامتنعت هذه عن تجديد الاتفاقية التجارية المعقودة بينها وبين سورية، واشتد التوتر بين الجانبين. ثم جاء وقت تفاهم فيه رئيس الحكومة صلاح البيطار مع السعوديين على تجديد الاتفاقية مقابل تعهد وقف الحملة، وأشرف البيطار بنفسه على إنفاذ ما تعهده. في هذا السياق، زار صلاح البيطار الجريدة، وتحدث مع إميل، وأفصح عما يعتقده هو من أن حكاية الحلف الإسلامي كلها حكاية مختلقة، وأصدر تعليماته بوقف الحملة على الحلف والكف عن مهاجمة السعودية. وفي اليوم الذي زار البيطار فيه الجريدة، كنت أنا قد أرسلت مقالي الأسبوعي للنشر، وكان طارق عزيز هو الذي أجاز نشره وأرسله إلى المطبعة، وكان المقال كلّه مخصصاً للتهجم على السعودية وحلفها. وهكذا، صدرت **البعث** في الصباح وفيها هذه المخالفة الفظة للتعليمات التي أصدرها رئيس الحكومة الرجل القوي في قيادة الحزب في المساء.

تسلم إميل العدد وهو في سريره، وأدرك عمق الورطة التي أوقعت نفسي وأوقعت الجريدة فيها. أما كيف تصرف إميل إزاء الورطة فهذا هو ما أود أن أبينه لك بتمامه. بادر الرجل إلى الاتصال بي بالهاتف، ولما قيل له إني نائم طلب إيقاظي، ثم بدأ بالقول إنه قرأ مقالي فأعجبه كثيراً فلم يملك أن يمنع نفسه عن الاتصال بي للتعبير عن إعجابه. وبهذا، أوصل إميل يقظتي إلى تمامها وهيأني لما بعده. وما بعده كان شرح رئيس التحرير لأبعاد المشكلة وإصراره على أن أترك معالجتها له وحده، وإن اتصل بي أي من المسؤولين، قال إميل، فليس علي إلا أن أقول شيئاً واحداً لا أزيد عليه: «رئيس التحرير أجاز المقال فراجعوه هو». وبعد حديثه معي، بادر إميل إلى الاتصال بوزير الإعلام، وكان هذا وقتها هو الكاتب شاكر مصطفى. وجاء إميل على ذكر مقالي، فاتضح أن صلاح البيطار سبقه

إلى الاتصال بالوزير وكلّفه قراءة المقال والتحقيق في سبب صدوره بما يخالف التعليمات. ولم يخلف إميل عادته المحمودة، بل تصدى لحمل المسؤولية كاملة ونأى بي أنا عن متاعب التحقيق.

وهاأنذا أتذكر واقعة أخرى كان بطلها جان ألكسان والطرف الآخر فيها هو وزير الأوقاف. كان لوزارة الأوقاف أرض في ساحة المرجة هي الأرض التي يقوم عليها جامع يلبغا. وقد رأى بعض المستنيرين في الوزارة أن بالإمكان الاستفادة من الموقع المتميز وسط المدينة لزيادة الموارد التي تصرف في العادة على أوجه الخير. وظهر مشروع اشتهر باسم مشروع يلبغا هدفه إقامة مبنى كبير من طوابق عدة يُجعل الطابق الأرضيّ منها جامعاً يحتفظ باسم الجامع القائم على هذه الأرض وتستثمر بقية الطوابق فندقاً سياحياً من الدرجة الأولى. هذا المشروع أيدته الجريدة. ولأمر ما له صلة بتعارض المفاهيم والمصالح، وجد من يقاوم المشروع. وقد اهتدى المقاومون إلى حجة دينية فتشبثوا بها ليحرجوا الآخرين، إذ كيف تقبل وزارة الأوقاف الموكلة برعاية شؤون المسلمين الدينية أن يُقام على أرض تابعة لها فندق تتعاطى فيه الخمور وقد تتعاطى فيه الموبقات الأخرى سراً أو علناً فوق رؤوس المصلين في الجامع. وإزاء هذه الحجة المحرجة، تهيب الوزير غالب عابدون وطوى حماسه لأول للمشروع. عندها تجند جان ألكسان بتشجيع من إميل، فكتب سلسلة تحقيقات تناولت مزايا المشروع وفوائده وتابعت خلفيات التأييد والمقاومة من موقع الحثّ على المضي في تنفيذه. فاستاء الوزير واشتكى الجريدة إلى رئيس الحكومة. وكان من أوجع ما تضمنته الشكوى اعتراض الوزير على أن يكون من حق «جان» و«إميل»، المسيحيين، حشر أنفيهما في شأن يخص أوقاف المسلمين.

استفزتنا رائحة الطائفية المنكرة وغير المألوفة في الوسط الذي ننتمي إليه واستفزنا خصوصاً ما فيها من تطاول على إميل وجان المتحررين من النوازع الطائفية. فثارت حميتنا للمواجهة. وكان أن اكتشف أحدنا أن الأرض التي تقوم عليها مباني المبغى العمومي في مدينة حلب، وهو مبغى البحسيتا الشهير،

تابعة هي الأخرى لوزارة الأوقاف وأن الوزارة تتقاضى من المبغى أجرة منتظمة، بصورة رسمية.

لا أجد الكلمات القادرة على وصف فرحتنا حين وضعت هذه المعلومة بين أيدينا. لقد رأيت اميل وقد استخفه فرح العثور على ما يقفل فم الوزير المشتكي فراح يرقص خلف مكتبه. ورأيت جان وقد حلت به حالة تشبه حالة الملتاث وهو يردد: «قال: إميل وجان، قال. لا يا غالب يا عابدون، لا!» احتشد المحررون كلهم في حجرة رئيس التحرير. وفي حضور الجميع على مسمع منهم، اتصل إميل بوزير الأوقاف: «إميل، وجان، ها أستاذ؟! أرض الأوقاف لا يجوز أن يقام علها فندق، فماذا عن البحسيتا، ماذا لو عرف القراء غداً أن أرض الأوقاف تؤجر لمبغى عمومي؟» وقد سمعت بنفسي صوت غالب عابدون الذي أعرفه وهو يكاد يشق غلاف سماعة الهاتف ويناشد إميل طيّ الموضوع ويعتذر ويكرر الاعتذار.

وفي واقعة أخرى كان بطلها المحرر المعاون لجان، واجه إميل وزير الدفاع اللواء حمد عبيد. ألفت وزارة الدفاع منذ استلام حزب البعث للسلطة أن تحصل على ألوف النسخ من جريدة الحزب كل يوم وتوزعها على الوحدات العسكرية، دون أن يطالبها أحد بالثمن. فلما تسلم إميل مسؤولية الجريدة، أصر على أن وزارة الدفاع زبون مثل أي زبون. واستند إميل إلى دعم رئيس الحكومة له وأجرى محادثات مع الوزارة انتهت بتعهدها دفع ثمن الاشتراكات. وتعهدت الوزارة دفع المبالغ المتراكمة عن السنوات السابقة وذلك على أقساط، وكانت هذه قد بلغت مئات ألوف الليرات. وقبل الواقعة التي أشرت إليها، كانت الوزارة قد دفعت القسط الأول بالفعل. ثم حدث أن اتصل أحد من الوزارة طالباً إرسال محرر ليشهد مناورة عسكرية، فأرسلت الجريدة معاون جان. وقد شهد الرجل مناورة عادية لوحدة بحجم كتيبة، ثم فوجئ باستدعاء اللواء حمد عبيد له ولزملائه من الصحف الأخرى ومخاطبته إياهم أمام الحاضرين: «أريد أن أرى خبر المناورة غدا مع مانشيت أحمر على عرض

الصفحة الأولى!» ونقل المحرر بالطبع رغبة الوزير هذه. إلا أن إميل تعامل مع الخبر بما يستحقه من الناحية المهنية، فأنزله فعلاً في الصفحة الأولى لكن بنص قصير وعنوان على عامود واحد.

وفي الصباح، وكنت في مكتب إميل، هدر صوت اللواء المهتاج على الهاتف؛ كان ثائراً، ولم يكن يحتج بل يرغي ويزبد ويهدد. وبعد أن أفرغ الوزير ما بجوفه، سمعت إميل وهو يقول له: «هل أتدخل أنا في شؤون وزارة الدفاع، هل أطلب منك أن تضع هذه الوحدة أو تلك في هذا الموقع أو غيره؟ فلماذا تتدخل أنت، إذاً، في شغلنا!؟» وكان ثمن هذه الواقعة أن امتنعت وزارة الدفاع عن القسط الثاني من ديونها للجريدة. ثم حدث ما زاد الطين بلّة، حين خطب الوزير ذاته أمام طلاب الكلية العسكرية ونشرت الجريدة الخطاب فوقع خطأ مطبعي في عبارة المطلع: «يا طلاب الكلية العسكرية»، إذ حل حرف الكاف محل الطاء في لفظة طلاب، فجن جنون اللواء حمد عبيد وأصر على أن هذا خطأ متعمد بقصد الإساءة إليه، وأوقف دفع أي مبلغ للجريدة. لكن إميل لم يلن ولم يأذن لأحد بأن يؤذي أي محرر.

بعبارة وجيزة: لقد وجدتني في الجريدة في وضع مشجع على العمل ولم يكن لدي ما أشكو منه في هذه الناحية.

وعلى الصعيد الفلسطيني، تحولت دمشق إلى واحدة من الساحات الرئيسة للنشاط. أنا لا أشير بهذا إلى م.ت.ف. ونشاطاتها والنشاطات المقترنة بنشأتها وتطورها، وحدها، بل أشير، أيضاً، إلى المنظمات الداعية إلى الكفاح المسلح، هذه التي نشأ بعضها في سورية وأنشأ بعضها الآخر فروعاً فيها وراح عددها يتزايد وأخذت نشاطاتها تبرز للعيان.

كانت «فتح» هنا بثقلها الغالب. اعترض الأردن ولبنان ومصر على أي وجود لحركة «فتح»، فعمدت قيادة الحركة إلى إنشاء موطئ قدم لها من سورية المؤيدة لدعوة الكفاح المسلح. ولم يلبث أن تطور موطئ القدم فصار حضوراً

واسعاً. وأقامت «فتح» قواعد ارتكاز في سورية، سياسية وعسكرية، واتخذ عدد من قادتها دمشق مقراً لإقامة دائمة أو شبه دائمة. وكان لطف غنطوس الذي تعرف أنه انتقل إلى الإقامة في دمشق قد لعب أثناء غيابي في الجزائر دوراً مثمراً في توسيع علاقات قادة «فتح» مع نظرائهم البعثيين في الحزب والدولة. تعرف لطف على عدد من قادة «فتح» المؤسسين حين كان في القاهرة، فعرف ياسر عرفات وصلاح خلف وغيرهما. وأنشأ صداقة متينة مع البعثي السابق الذي صار من قادة «فتح» فاروق القدومي (أبو اللطف) وزوجته نبيلة النمر. وما أن اتجهت «فتح» إلى توطيد مركزها في سوزية حتى وجدت في لطف المعين الجاهز للمساعدة والمقتدر. وبحكم علاقتي بلطف، كنت قد عرفت شيئاً عن الاتصالات الأولى المبكرة قبل أن أتوجه إلى الجزائر. وعندما رجعت إلى دمشق، وفي جعبتي حصيلة تعاوني أنا مع قادة «فتح» في الجزائر، كان من الطبيعي أن أنضم إلى لطف وأشترك في جهوده.

وجد البعثيون ما يجمعهم مع الفتحاويين حول الدعوة إلى تحرير فلسطين بالكفاح المسلح مقابل الداعين إلى حل يستند إلى قرارات الأمم المتحدة والداعين إلى التروّي في اللجوء إلى السلاح. ولأن الفتحاويين كانوا مناوئين لنظام عبد الناصر فقد اتسع الهامش المشترك بينهم وبين البعثيين. وبالدعم الذي محضه البعثيون لـ «فتح» دون سواها من منظمات ناشئة، صار لهذه المنظمة حضور أكبر من حجمها. وتعزز هذا الحضور ثمرة للنشاط المثابر الذي بذله قادة «فتح»، ثم تعزز أكثر فأكثر عندما تميزت «فتح» بأنها هي التي أطلقت الرصاصة الأولى.

ولعلي لا أبالغ إن قلت لك إن ياسر عرفات، وهو من أعرفه منذ ذلك الوقت، بزّ الذين عرفتهم في حياتي جميعهم في أمرين كان لهما شأن كبير في إبراز وجود «فتح» وانتشارها: في المثابرة على النشاط، وفي إحاطة الأفعال العادية بدعاية تظهرها كأنها خوارق. خص ياسر عرفات دمشق بجلّ وقته، وكان يملأ المدينة بنشاطه ودعايته، بما يكاد يتطابق مع المعنى الحرفي لكلمة يملأ، هذه.

لم يكن الرجل يعبأ بأن تتطابق الروايات التي يجتذب بها الاهتمام مع الواقع أو أن لا تتطابق. كان أهم ما يشغل هذا الرجل هو اجتذاب الانتباه لما يريد ترويجه، ولم يكن مهماً، بعد، أن يتم ذلك بوسيلة أو بغيرها، بالتزام الحقيقة أو بإغفال هذا الالتزام.

ألف عرفات أن يجيء إلى الجريدة وأنا فيها مرة أو غير مرة كل يوم؛ يجلس في حجرة مكتبي ويتحرى الأخبار فيقرأ أنباء الوكالات ويستمع إلى الإذاعات المختلفة، وهو في هيئة من يتوقع نبأ بعينه. وكان عرفات إذا أنس في نبأ ما يمكن الاستفادة منه صنع منه شيئاً ينفع في الدعاية، بلاغاً عن عملية، أو حكاية عن تمرد وقع، أو أي شيء من هذا القبيل. ثم كان عرفات يرجع إلينا بعد غياب قصير ومعه هذا الذي صنعه. وكان لدى الجريدة، كما لدى وسائل الإعلام السورية كلها، توجيه دائم: نشر ما يصدر عن «فتح» وما يخدم سمعتها.

تعاطفت مع هذا الرجل منذ عرفته، فتنني استغراقه في الهم العام ومحاولاته المثابرة على البرهنة على أنه يؤدي عملاً بالغ الأهمية. وقد اتسم سلوك الرجل منذ ذلك الوقت وقبل أن يغدو الزعيم المشهور الذي عرفته أنت بعملية زائدة، أو قل إن شئت: ببراغماتية صارخة. لم يكن هو من الذين يحبّون الجدل الفكري والمناظرات ولا كان من السهل استدراجه إليها. وكان عرفات حين يرغم على الإدلاء بدلو في هذا المجال لا يزيد على أن يردد عبارات قليلة، غالباً ما تكون حمالة أكثر من وجه. أما إذا تطلب الأمر أن يتحدث الرجل عن شأن عملي فما أيسر ما كان الكلام يتدفق على لسانه، وما أكثر ما كان هو يتفنن في انتقاء التعابير وسرد الروايات، يستوي في هذا أن تكون الروايات صحيحة أو متخيّلة، ممكنة الحدوث أو خارقة للعادة!

إلى جانب «فتح»، كان في دمشق أحمد جبريل الذي سبق أن حدثتك عنه وجبهته، جبهة التحرير الفلسطينية، وقد راحا ينافسان ياسر عرفات و«فتح» في إصدار البلاغات ومحاولة اجتذاب الانتباه. جدد أحمد صلته بي بعد

عودتي من الجزائر. وتصادقت أنا مع زميله في قيادة الجبهة الطالب ثم الصحافي فيما بعد، فضل شرورو. وكان الاثنان يحتاجان إلى خدمات يطلبانها مني، فكنت أؤديها، وأحتفظ بعلاقات طيّبة معهما ومع من أعرف من ناس الجبهة. لكني لم آذن للعلاقة مع الجبهة بأن تبلغ ما هو أبعد من ذلك.

وإلى «فتح» وجبهة التحرير الفلسطينية، كان في دمشق عدد آخر من المنظمات. والواقع أن المنظمات الفلسطينية كانت تنشأ وتستمر لبعض الوقت ثم ينفرط العقد أو يندمج بعضها ببعضها الآخر أو يصبُّ في المنظمات الرئيسة، وذلك بغير انقطاع.

الشقيري ظل يتردد على دمشق، وظلت علاقته مع الحزب والدولة على حالها الأول، مراوحة بين الجفوة والمجاملات، بين الانتقاد والمساندة، دون أن تصير حميمة. غير أن حضور م.ت.ف. داخل سورية كان يتوطد. فقد اتسع نشاط المكتب، وضمّ الشقيري إليه لطف غنطوس بصفة معاون مدير، وقدّمت له مؤسسات الدولة تسهيلات متنوعة، وحصل عدد من العاملين في المكتب على جوازات سفر دبلوماسية.

وفي سياق توسيع حضور المنظمة، نشأت في سورية كتيبة من ثلاث كتائب عسكرية شكلت قوام جيش التحرير الفلسطيني. وتحولت بقايا كتيبة الاستطلاع الشهيرة التي سبق أن حدثتك عنها إلى نواة لهذه الكتيبة التي تأسست أثناء غيابي عن البلد، وصار صديقي القديم زميل الكفاح والمسارات في البطيحة قائداً لها. لا بدّ من أنك تتذكر مصباح البديري وما جرى له بعد تسريحه من الجيش السوري في عهد الوحدة وتتذكر أن الضباط الفلسطينيين، زملاءه، الذين سرحوا وقتها من الجيش كانوا بالعشرات، وكان بعضهم قد اقتيد بعد التسريح إلى السجن وتشرد آخرون داخل سورية وخارجها. وقد أعيد بعض هؤلاء إلى الخدمة وصاروا هم معاوني مصباح في قيادة الكتيبة الفلسطينية.

هنا، يجدر أن أستطرد قليلاً لأروي لك ما عرفته من قصة عودة هؤلاء الضباط

إلى سلك الجندية. فمنذ صار أمين الحافظ قائداً للجيش إلى جانب رئاسته للدولة، تبنى الذي لا يهن إعجابه بشجاعة الفلسطينيين فكرة إعادة هؤلاء الضباط، بعضهم إن لم يكن كلهم، إلى الجيش السوري، لكن فكرته لم تحظ باستجابة الآخرين في الحزب والدولة لأن هؤلاء خشوا أن يشكل وجود هؤلاء الضباط قاعدة لنفوذ الشيوعيين في الجيش. فلما بدأ البحث في تأسيس جيش التحرير الفلسطيني وكتيبته في سورية، تفاهم أمين الحافظ مع الذين فاوضوه من قادة م.ت.ف. على أن يطلبوا استخدام عدد من هؤلاء الضباط. وتسلح الحافظ أمام زملائه في قيادة الحزب والدولة بما طلبته م.ت.ف. فصدرت الموافقة اللازمة. واستعاد مصباح البديري ومحمد الشاعر وعبد العزيز الوجيه وعبد الرزاق اليحيى وآخرون من زملاء دورتهم الشهيرة زيّهم العسكري، وحمل كل منهم رتبة مقدم وشغل موقعاً في جيش التحرير. لقد تفتقت بلاغة الشقيري عن إطلاق أسماء جليلة على كتائب جيش التحرير الثلاث. فالكتيبة التي تأسست في قطاع غزة سميت «قوات عين جالوت». وفي العراق «قوات القادسية»، وفي سورية «قوات حطين». وبعودة ضباط الدورة الشهيرة توفر لقوات حطين عدد متميز من القادة ذوي الخبرة والكفاءة والالتزام المتين بالشأن الوطني.

أقيم قرب مدينة درعا، أقرب المدن السورية إلى حدود فلسطين، معسكر لإيواء الكتيبة الفلسطينية، أو إيواء قوات حطين إن جارينا متطلبات البلاغة. واستخدم مصباح البديري ورفاقه خبرتهم وكفاءتهم وكذلك إخلاصهم لتنظيم المعسكر على أحسن وجه ممكن وتحويل جنود كتيبة الاستطلاع المدللين والشبان المجندين حديثاً إلى عسكريين حقيقيين. وهاأنذا أشهد بأن قائد الكتيبة وضباطها أنجزوا في هذا المجال ما يمكن أن يعتدّ به. وقد طاب للشقيري أن يتردد على هذا المعسكر، وكان يزوره كلما احتاج إلى الدعاية لـ م.ت.ف. في مواجهة منظمات الكفاح المسلح الناشئة. ولهذا، كان الرجل يعدّ لزيارته عدّة إعلامية في المقام الأول، فيلبس لهذه المناسبة البذلة التي فصلت له لتضفي على قوامه الممتلئ سمة القائد العسكري، ويصحبه سرب من المصورين

والمحررين الصحافيين ويلقي في القاعدة خطاباً غالباً ما يضمنه نقاطاً مثيرة حتى يضمن التغطية الإعلامية المناسبة. وكان ناس المعسكر يتشوقون لزيارات الشقيري ويعدّون لها من جانبهم أتم الإعدادات.

وقد ألفت أن أزور المعسكر بصحبة الشقيري وبدونها. وتجددت صداقتي مع مصباح ورفاقه، وتأسست صداقات جديدة مع الذين لم ألتقهم من قبل. وغالباً ما كنت أنا وسيط الصحافيين الوافدين من خارج البلد حين يرغبون في الالتقاء بضباط جيش التحرير وزيارة معسكره. وانتظمت في الوقت ذاته علاقتي بالشقيري، ولم تعد قاصرة على اللقاءات العابرة. الأستاذ نمر المصري، صديق أسرتي وراعي خطواتي الأولى في البحث عن وظيفة، كان قد غدا من أنشط قادة م.ت.ف. وأكثرهم مثابرة على تنظيم أمورها، وهو الذي تعمد أن يمتن صلتي أنا الصحافي الفلسطيني برئيس المنظمة بعد عودتي من الجزائر. ومنذ ذلك الوقت، صرت ألتقي الشقيري كلما شئت ذلك أو كلما دعاني اليه، وحرصت على أن أكون في عداد مستقبليه حين يصل إلى الحدود، ومتابعة نشاطاته.

علي أن أقرّ بأن شخصية الشقيري لم تكن من النوع الذي أحبّه أنا. فلهذا الرجل شخصية مرسومة لا يصدر أي شيء عنها عفواً. فهو يلبس بحساب، ويتكلم أو يصمت، يستقر أو يتحرك، يظهر الابتهاج أو السخط، يصدق أو لا يصدق، كل هذا بحساب. وربما تصور الرجل أن حساب السلوك هو من متطلبات الزعامة، وربما كان محقاً في هذا الظن، غير أنه كان يبالغ بحيث يصعب أن ترى منه مما هو أصلي إلا المبالغة. وقد بقي في نفسي على الدوام شيء ضد هذا الزعيم مستمد من تاريخه الطويل قبل تأسيس م.ت.ف. ولعلك تعلم أن الشقيري كان يظهر الاستهانة بالقيادة التي سبقته ويدأب على انتقاد سلوكها ويروج شتى الاتهامات، ولم يكن الانتقاد هو ما آخذه أنا عليه، بل الروح التي يصدر عنها الانتقاد. ثم إني لم أسترح لتقلب الشقيري المتواتر في خدمة حكام عرب عديدين بعد الخروج من فلسطين. مرة أخرى، لم آخذ على الرجل خدمته للحكام، لم يسؤني أن يمثل سورية أو السعودية في الأمم المتحدة، لم

يسوءني أن يوالي عبد الناصر. أما ما ساءني فهو تحول الرجل إلى مخاصمة حاكم عمل في معيته لحساب الحاكم الجديد. ولم يكن من السهل، على سبيل المثال، أن يحاجج الشقيري، وهو الرجل المحافظ بجميع المقاييس، حكام السعودية بصواب اشتراكية عبد الناصر، ويستخدم الحجج التي تستخدمها السعودية ضد اشتراكية البعثيين دون أن أجد أنا ما آخذه عليه.

وأياً كان عليه الأمر، فقد حافظت على صلتي بالشقيري، صلة الصحافي الفلسطيني برئيس المنظمة الفلسطينية الأولى. ولم أتوان في تقديم أي خدمة يتطلبها عمل المنظمة. وأولاني هو، بطريقته المحسوبة، رعاية خاصة، وحرص على أن أشعر في حضرته بأني من أصحاب المنزل. وقد تسلحت بإرادتي لإلزام نفسي التمييز بين ماضي الرجل وحاضره، بين شخصه ومكانته. ولأن أمور الرجل لم تكن سهلة أبداً مع معظم البعثيين، فقد حرصت على أن أبدو متميزاً. وكان هذا الحرص، على أي حال، جزءاً من طبيعتي.

وهاأنذا أتذكر واحدة متميزة من الزيارات التي صحبت فيها الشقيري إلى معسكر الكتيبة. جاء الرجل إلى دمشق وقتها ليعالج واحداً من التعقيدات التي تسم علاقاته بحكامها. وكانت دعايات المنظمات المسلحة، وأخصها دعاية «فتح» التي تتبناها سورية، قد أحاطت بالرجل وفريقه واشتطت في وسم م.ت.ف. بالبيروقراطية الجامدة والفساد والعزلة عن الجمهور وما إلى ذلك من التهم التي تتواتر أثناء اشتعال الخصومات. وكالعادة، كنت بين مستقبلي الشقيري عند الحدود، فما أن رآني الرجل حتى أقبل عليّ واحتضنني. ثم همس في أذني بأنه سيعقد مؤتمراً صحافياً فور حلوله بالفندق وطلب أن أكون أول من يوجه إليه السؤال، وحدد السؤال الذي ينبغي أن أوجهه. ومع استغرابي لهذا السلوك، لم أجد غضاضة في الاستجابة لطلب الزعيم، خصوصاً أن السؤال كان من النوع العادي الذي لا يسبب الحرج.

وهكذا ما أن انتظمت حلقة الصحافيين حول رئيس م.ت.ف. حتى سبقت

الجميع ووجهت هذا السؤال: «ما هي أهداف زيارتكم لسورية؟» فإذا أنا بالرجل وقد انتفض كما ينتفض المفاجأ بسؤال تعوزه اللباقة. ومع تعابير الحنق، ونظرة العينين المقرعة، انفجر الشقيري في وجهي: «أأسأل أنا لماذا أجيء إلى سورية؟ ومن الذي يسأل؟ مندوب جريدة **لبعث** الذي كان عليه أن يسألني لماذا لا أكون دائماً في سورية». ولك أن تتصور ما حل بي إزاء المخادعة والتصنع وكم احتجت من جهد لأمنع نفسي من الانفجار في وجه زعيم له مكانة هذا الزعيم، ولك أن تعرف أن نجاحه في اجتذابي إلى هذا الفخّ كان يفلقني. مع هذا، ما أسرع ما بادر الشقيري إلى امتصاص حنقي، فقد استدعاني إلى حجرته وشكرني بحضور صديقي نمر المصري بنبرة من يشكر شخصاً قبل التواطؤ معه لتحقيق مصلحة عامة، وقال إنه أرادها رسالة فاتحة قبل المحادثات الشائكة التي سيخوضها، ثم دعاني إلى مرافقته في زيارته لمعسكر قوات حطين. ولم أعلم إلا بعد انتظام الموكب وجلوسي في السيارة التي تقل الأستاذ نمر المصري أن هذه الزيارة أعدّت مسبقاً بحيث يشترك فيها الرئيس أمين الحافظ.

أعدّت الكتيبة لزوارها الاستقبال الذي يليق بالرؤساء. وقدم مصباح بديري التحية العسكرية التي لا يتقن أحد أداءها بمقدار ما يتقنه هو. ثم اقتيد الزوار إلى المنصة ليشهدوا عرضاً عسكرياً هيأته الكتيبة خصيصاً من أجلهم. وهاأنذا أستعيد المشهد: أمين الحافظ بقامته الرشيقة وبذلة الضباط الأمراء وشاراتها وأوسمتها الكثيرة وقبعته العسكرية المؤطرة بالزينات الذهبية، والشقيري وبذلته ذات الطراز العسكري الخالية من الشارات، ونحن، بقية الزوار من مختلف المراتب، وقد احتشدنا خلف الرئيسين على المنصة. وأتذكر مصباح بديري وهو يتقدم ناحية المنصة ويطلب من الفريق أمين الحافظ الإذن بالبدء في العرض، كما أتذكر استيائي لأن قائد الكتيبة الفلسطينية طلب الإذن من الرئيس السوري وليس من رئيس منظمة التحرير. وكنت واثقاً من أن مصباح فعل هذا متعمداً، وأتذكر أيضاً كيف سعدت عندما أبى الحافظ أن يرد هو

على طلب الإذن، بل التفت إلى الشقيري ورجاه أن يأذن هو ببدء العرض.

وبعد أن أتمت الكتيبة مرورها أمام الزوار، دعينا إلى مشاهدة بيان عملي كان من الواضح أن جنود الكتيبة دربّوا تدريباً مثابراً لكي يتقنوا أداءه: اجتياز موانع، والقفز عبر حلقات تشتعل فيها النيران، وطرق التعايش مع تقلبات ظروف الطبيعة، وما إلى ذلك مما لا شك في أنك تعرفه. وفي سياق هذا البيان، أمسك أحدهم بأفعى... وسلخ جلدها وشواها على النار، ثم قام بتوزيع قطع اللحم المشوي على الضيوف. وقد عنّ لي أن أراقب ما يفعله الشقيري بقطعته. فرأيت الرجل الذي لم يألف شظف العيش وهو يتقبل قطعة لحم الأفعى شاكراً للعسكري مبادرته ومبالغاً في شكره، ثم رأيت كيف احتفظ بها في يده، ثم كيف تخلص منها. أما أنا فقد لكت القطعة التي قدّمت لي وبلعتها فلم أجد في لحم الأفعى ما هو حسن أو سيئ. وتبع ذلك كلمة ألقاها الشقيري في باحة المعسكر وخصصها لتحية الجنود وترددت فيها العبارات المألوفة دون أن يتطرق الرجل إلى أي موضوع حساس. وكان واضحاً أن رئيس م.ت.ف. لا يريد أن يجهر بأي شيء يجرح الرئيس السوري.

بعد الكلمة، دعينا إلى قاعة فسيحة. وكان في انتظارنا غداء فاجأتني مظاهر البذخ الصارخة فيه. فقد توزعت أرجاء القاعة مناضد أعدت كل واحدة منها لجلوس ستة آكلين خصص لهم منسف مهيب يجلله لحم خاروف كامل ورأسه، وذلك عدا المقبلاّت. ودفعتني الدهشة، أو قل الاستنكار، إلى الإحصاء، فعددت خمسة وثلاثين منسفاً. ويبدو أن مصباح الذي لم يكن قد تسنى لي بعد أن أحادثه، قد أخطأ فهم اهتمامي بمراقبة القاعة، فأقبل علي مبتسماً، وسأل وهو يظن أني مبهور بالموائد الباذخة: «كيف تجد الأمور؟» وكنت ما أزال ساخطاً على صديقي بسبب ما عددته نفاقاً منه لأمين الحافظ وقلة لياقة أمام رئيس م.ت.ف. فقلت متعمداً أن تجبهه سخريتي بتمامها: «ما أراه أمامي يفوق ما أشتهي. صار لنا جيش تحرير، فصار بإمكاننا أن نأكل المناسف على موائده!»

لم يؤخذ مصباح بسخريتي ولا بالنقد الجاد الذي وجهته إليه بوضوح، بل دافع عن نفسه. أما عن البذخ، فقال مصباح إن قيادة م.ت.ف. هي التي شاءت أن يكون الغذاء باذخاً فلم يعترض، لأن الطعام سيفيض فيوفر لجنود الكتيبة وجبة استثنائية. وأما عن مسلكه في بداية العرض العسكري، فقال: «أذلّني عبد الناصر، وأكرمني البعثيون، لن أنسى هذا أبداً»، وكان يشير بهذا إلى ما تعرض له من عذاب وإذلالات ومتاعب بعد تسريحه من الجيش في عهد وحدة مصر وسورية.

على صعيد آخر، في منظمة الحزب الفلسطينية، في الشعبة، تبدلت أمور كثيرة أثناء غيابي، ومن الأمور ما انقلب رأساً على عقب. هنا، قد ينبغي لك أن تعرف أن عضويتي في حزب البعث لم تلغ عندما نأيت بنفسي عن ربعي. فأنا لم أستقل من الحزب، وهم لم يتخذوا أي إجراء ضدي. وهكذا، استمرت العضوية أوتوماتيكياً، وإن لم يستمر الحماس السابق، ولم أعد مولعاً بالانهماك في شؤون الحزب الداخلية أو تخصيص جل وقتي له. ولك أن تقول إني صرت حين يتعلق الأمر بهذه الشؤون مراقباً ومتلقياً أكثر مني ناشطاً ومؤثراً. وفرت لي الصحافة والمجالات العامة ما يكفي لإفراغ الطاقة وبثّ آرائي على نطاق واسع، فلم أعد معنياً بأن أقاتل من أجل أن أعرض رأيي في اجتماع حزبي روتيني.

كانت كتلة اليسار التي انتميت إليها قد تآكلت ولم يبق منها إلا ما يشبه الشلّة. وكان الخلاف بين الذين سموا بالقطريين وبين العفلقيين قد تحول إلى خصومة معلنة وتمحور حول مسائل عديدة محسوسة في السياسات الداخلية والعربية والدولية. وبحكم المجابهة مع العفلقيين، وبتأثير نوازع كثيرة متشابكة، اتجه القطريون ناحية اليسار أكثر فأكثر، وصاروا هم المقصودين حين يشار إلى يسار البعث. لقد صاروا هم كتلة اليسار. وعندما رجعت، وجدت أن علاقة أغلبية أعضاء الشعبة بكتلة اليسار القديمة قد انبتت أو وهنت واستبدلتها الأغلبية ذاتها بالعلاقة مع خصوم الأمس الذين شكلوا كتلة اليسار المستجدة.

كما وجدت أن وجهاء الشعبة تسلموا مراكز بارزة، فصار كثير منهم مدراء عامّين لعدد من الشركات التي أممت في مطلع العام. وتذكرت كيف تعهد العقيد عبد الكريم الجندي مرة أن يشتري أعضاء الشعبة واحداً واحداً. وعرفت أن هذا الزعيم النافذ في كتلة اليسار المستجدة بذل جهداً ملحوظاً كي يتسلم فرسان الشعبة هذا العدد الكبير من المناصب.

كان شريكي في سكني السابق ورفيق النشاطات المناوئة للقيادة إميل صبيح قد صار مديراً عاماً لشركة مؤممة تنتج السجاد. وصار رفيقي في قائمة الممنوعين من السفر محمود السلطي مديراً عاماً لمصنع كبير ينتج السكر. وعمر خليفة أمين سر الشعبة ومايسترو نشاطاتها صار مديراً عاماً لمصنع ينتج الأدوات الكهربائية المنزلية. ومعين حامد المنضبط المزمن صار هو الآخر مديراً عاما، وغير هؤلاء كثيرون. وكان أوفر هؤلاء حظاً هو عصام القاضي زميلي في قيادة الطلاب. اشتهر عصام بأناقته وحبه لكل ما هو أنيق. ولا أدري إن كان الأمر قد تم بالصدفة أم بتدبير جرى التدقيق فيه. فقد عيُّن عصام مديراً عاماً لشركة فتّال المؤممة. وهذه شركة تمارس تجارة الاستيراد وتركز نشاطها على استيراد مستحضرات التجميل، وقد احتازت قبل تأميمها على امتيازات وفيرة لتوزيع مواد أشهر شركات العطور العالمية. والواقع أن عصام أدار الشركة بشغف، واحتفظ بصلة مع صاحب الشركة الأصلي لأن هذا كان يملك فرعاً للشركة في لبنان، وكان حريصاً على سمعة الشركة ككل، فصار كلما حصل على امتياز جديد يشترط أن يستفيد فرع الشركة المؤمم في دمشق من هذا الامتياز. وبهذا، وبكفاءته، بزّ عصام الجميع في ما حظي به وما قام به لخدمة الدولة.

في هذا الجوّ، جاهدت الشلّة الباقية من كتلة اليسار القديمة كي تحتفظ بموقع قدم في المشهد العام. ولأن أصدقائي الأثيرين، وأخصهم نسيبي محمد بصل، ما زالوا مثابرين على النشاط بالرغم من وهن الكتلة، فقد احتفظت

بصلتي القديمة بها، أو قل إني احتفظت بصلتي بأصدقائي فيها. ولكن هؤلاء وقعوا في ما وقع فيه غيرهم من الباحثين عن مواقع النفوذ، فحاولوا أن يجتذبوا إلى صفهم هذا العسكري أو ذاك، دون تدقيق في مدى تلاؤم سلوك العسكري وفكره مع الطروحات اليسارية الطموحة التي تتشبث بها الشلّة. وبين عسكريين عدّة اجتذبهم أصحابي أثناء غيابي، برز واحد كان عندي من الصنف الذي لا يستحق أي ثقة، هو الرائد سليم حاطوم. ظن أصحابي أنهم يستطيعون استثمار طموحات هذا الضابط، ورأيت أنا أنه هو الذي يستغلهم، تماماً كما أنه يستغل سواهم. وكان ولع أصحابي بهذا الضابط هو السبب المباشر الذي جعلني أرفض الالتزام من جديد بكتلتهم، وقد أبلغت إليهم موقفي بأتم وضوح: أنا صديقكم، أفعل ما أقدر عليه لمنفعتكم في إطار القناعات المشتركة، أحترم طموحاتكم اليسارية، لكن علاقتي بالكتلة لن تزيد على هذا.

وبتحرري من الانتماء إلى أي كتلة، صرت، كما وصفني بعض من عرفني، كتلة لوحدي، أو كتلة فيها نفر واحد، أو قل إني صرت عازفاً منفرداً يقوم مقام أوركسترا ويبث الألحان كما يطيب له. واعتدت أن أتعاون مع من يجمعني به هامش مشترك، على أرضية هذا الهامش وبغض النظر عن الجهة التي ينتمي إليها. ولم أتأثر بانجذاب معظم رفاق الشعبة وبينهم أخص أصدقائي إلى كتلة اليسار الجديدة، بل سلكت إزاء ناس هذه الكتلة السلوك ذاته: التعاون على الهوامش المشتركة. بكلمات أخرى، بقيت لي عضويتي في حزب البعث، إلا أني صرت بمعنى من المعاني مستقلاً ولم ألتزم حقيقة إلا ما أعتقده.

أما ميلي المضطرد صوب الشيوعيين فقد بقي على قوته، وهو ما حملني على أن أوثق علاقاتي بالذين أعرفهم من الشيوعيين وأتعرف على آخرين. ولم يمض وقت طويل بعد عودتي من الجزائر حتى صار الدكتور نبيه ارشيدات بالنسبة لي الأخ الأكبر والموجه والصديق الذي أسرّ له بكل ما في نفسي ولا أفترق عنه. ونبيه هو الذي عرفني على من سيصير عندي صديق عمر، وهو

الشيوعي الأردني الدكتور منير الحمارنة. قدم منير من براغ بعد أن درس الاقتصاد السياسي فيها، ووجد لنفسه عملاً في المؤسسة الاستهلاكية، المؤسسة الحكومية الكبيرة للتجارة الداخلية، المنشأة حديثاً. ولم يلبث أن شكلنا نحن الثلاثة، نبيه ومنير وأنا، جماعة متميزة، نشيطة، ومتفاهمة ومتعاونة في السرّاء كما في الضرّاء.

وعبر نبيه ومنير، صار بإمكاني أن أتعرف على أي شيوعي مقيم أو وافد إلى البلد، وانفتحت أمامي في هذا المجال آفاق لم تقفل بعد ذلك أبداً.

اجتاز نبيه قبل أن أتعرف عليه حياة افتقرت إلى الاستقرار؛ ولد في إربد في شمال الأردن إبناً معززاً لوجيه كبير من وجهاء آل إرشيدات؛ ونشأ في كنف أبيه الوطني المحافظ عبد الرحمن إرشيدات الذي كان قاضياً ترقى في مناصب الدولة حتى صار قاضي القضاة. وإذا كان الإبن قد ماثل أباه في الاهتمام بالشأن العام والحرص على خدمة المحتاجين والتشبث بمكارم الأخلاق، فقد اختلف عنه في السياسة. وفيما كان الأب من أركان النظام الذي أسسه الأمير، ثم الملك، عبد الله، برز نبيه منذ فتوته مناوئاً لهذا النظام حادّ اللسان في انتقاده وانتقاد ملكه. وجاء نبيه إلى دمشق ليدرس الطب في جامعتها. وكانت الحرب العالمية الثانية في إبّانها، فاجتذبته الحياة السياسية التي تشكل الجامعة السورية واحداً من مراكزها العامرة بالنشاط. وفي معمعان هذا النشاط، اجتذب موقف الشيوعيين المتميز ضد الفاشية انتباه الشاب الذي نشأ على رفض الجور أياً كان مصدره. وعلى هذا الطريق، اهتدى نبيه إلى حلقات الشيوعيين السرية، ثم لم يلبث أن انضم إليها وأسهم في تأسيس الحزب الشيوعي الأردني. ومنذ ذلك الوقت، تقلبت حياة نبيه مع تقلب الأحوال السياسية في الأردن وجواره وما تعرضت له الحركة الوطنية التقدمية من مد وجزر. عرف المنهمك في العمل العام السجن والمنفى والاختفاء، كما عرف الأيام الطيبة، حين كان الوطنيون التقدميون يتصدرون مسيرة الحركة الشعبية،

وكان هو القائد المنظم والخطيب المحرض، فضلاً عن أنه طبيب الفقراء. وعندما تعرض مدّ الحركة الوطنية التقدمية للضربة الموجعة التي تلقاها في العام ١٩٥٧، لوحق نبيه، لكنه نجا، ووجد طريقه إلى سورية ثانية، وجرت له في الأردن محاكمة غيابية صدر عليه إثرها حكم بالسجن. وحال هذا الحكم كما حالت الأسباب الأخرى، دون عودة الرجل إلى بلده، وذلك لسنوات عديدة.

وفي سورية، كان أمام نبيه أن ينضم إلى جيش اللاجئين السياسيين الأردنيين على أن يتجرع المرارات التي لاكوها مع تقلب أحوال سورية ذاتها. ولكن الرجل المعتز بكرامته حدّ التزمت أبى أن يركن إلى هذا المصير، وشمر عن ساعديه، وافتتح عيادة صار فيها، هنا أيضاً، طبيب الفقراء، وانهمك في النشاط العام متعاوناً مع رفاقه الشيوعيين السوريين. فلما وقعت الواقعة على هؤلاء في عهد وحدة سورية ومصر، لوحق نبيه، فلجأ إلى الصين الشعبية كما لجأ إليها شيوعيون كثيرون. وهناك أبى الذي يأبى أن يعتاش إلا بكده الركون إلى وضع اللاجئ السياسي، ولم يتيسر له هو الذي لا يتقن لغة البلد أن يعمل في مجال مهنته، فعمل في البرنامج العربي في إذاعة الصين. ثم جاءت الثورة الثقافية المشهورة وهياجها الذي يلغي العقل، وأبى نبيه أن يجاري المهووسين، فنفر من الصين، ولجأ إلى الاتحاد السوفييتي. وهنا، أيضاً، عمل نبيه في إذاعة موسكو العربية، وخبر البيروقراطية السوفييتية وكابد غلاظاتها. وما أن لاحت للشيوعيين فرصة العودة إلى سورية بعد انتهاء عهد الوحدة، حتى كان نبيه أول العائدين إليها، وعاد الطبيب إلى عيادة الفقراء.

وعندما تعرفت أنا على نبيه في وقت ما من العام ١٩٦٤، كان هذا الشيوعي المتمرس قد غدا نجماً في حياة دمشق السياسية والاجتماعية، وكان موضع ثقة الجميع واحترامهم، بما هو طبيب وسياسي وصديق وفيّ لأصدقائه. ولا أظن أني عرفت في حياتي من حظي بمثل الثقة والاحترام اللذين حظي نبيه بهما. ولعله الوحيد الذي نشط في الحياة العامة من موقع الالتزام الصارم

بالشيوعية، وظلت له في الوقت ذاته صلات طيّبة بالمنتمين إلى تيارات السياسة الأخرى كافة، كما ظل يحظى منهم بأطيب المشاعر الشخصية. وقد يكفي أن تعرف أن خصوم الشيوعيين كانوا ينشدون مساعدة نبيه حين يحتاجون إلى مشورة طبيّة حتى حين تلجئهم تقلبات السياسة إلى الاختفاء ولا يكشفون أماكن اختفائهم لطبيب غيره.

لقد كنتُ محظوظاً حقاً إذ أتيح لي أن أكون من أصدقاء هذا الإنسان. ولك أن تعرف أن صداقتي لنبيه عوضت خيبات الأمل التي صدمتني في حياتي المضطربة. كانت هذه الصداقة هي مرفأ الأمان الذي الجأ إليه في أي وقت. وفي هذا المرفأ بالذات، أكثر مما في أي ملجأ سواه، كنت أستعيد توازني كلما أفقدتني الضربات الموجعة التوازن.

١٢ الخلاف يحسمه السلاح، أما الديمقراطية فللحكي

طال مكوثي في منزل أنسبائي. لم أفتقر هنا إلى الحفاوة أو الرفقة الطيبة، لكن الحاجة إلى سكن مستقل كانت أغلب. ومضى شهر وآخر دون أن أعثر على شقة للإيجار. وفي الثاني من أيلول/سبتمبر، وُلدت ابنتي الأولى لمى، أولى الزهرات اللواتي عطّر أريجهن حياتي وقدر لي أن يكن ثلاث. واشتدت حاجتي إلى السكن المستقل. ولعلك تعلم أن البحث عن شقة للإيجار في دمشق كان قد صار من أشق المهام. فقانون الإيجارات الجديد الذي أنصف المستأجر دفع مالكي الشقق الخالية إلى عرضها للبيع والإحجام عن تأجيرها. وصار على الراغب في استئجار شقة أن يخضع لشروط يفرضها المالك، أهون منها الشروط التي يلتزمها طالب الظفر بمكان في الجنة.

في هذه الأثناء، اقتصرت صلتي بأسرتي التي نشأت فيها ثم فارقتها ساخطاً ولم أرجع إليها على زيارات أقوم بها بين وقت وآخر وألتقي بسكان الشقتين، التي تحت والتي فوق. ولعلك ما تزال تتذكر أن جدتي لأمي وأبناءها كانوا يشغلون الشقة التي فوق وأن جدي وزوجته الثانية وأبناءه منها كانوا يشغلون الشقة التي تحت في البناية ذاتها. خلت علاقتي بأسرتي من التوتر الذي وسمها في السنوات السابقة، واستقرت على أمر مقبول مني ومنها: أظهر لأسرتي ما يلزم من ولاء واحترام وترحب الأسرة بي كلما جئت إليها، ثم لا

يقع بعد ذلك، أو زيادة على ذلك، إلا تبادل المجاملات. طبقت مع الأسرة المثل الشائع في دمشق: يا عباد الله لا تؤذوني فلا أؤذيكم! وكففت عن أن أسبب لعباد الله من أعضاء الأسرة ذلك الذي كانوا يعدّونه إيذاء، وكفوا هم عن التدخل في شؤوني، فتحقق الرضى.

ظل جدّي عبد المجيد سيّد الأسرة المتوج، يحفظ له أعضاء الأسرة ما يلائم مكانته من توقير واحترام، ويجهرون بطاعته، ويتأدبون في حضرته، حتى مع أن نفوذه الفعلي عليهم لم يظل مساوياً لهذه المكانة. وقد ظل الجدّ كما كان طيلة عمره أنيقاً حريصاً على أن يبدو في كامل مهابته في أي مكان يذهب إليه. واحتفظ جدي بالخصال الأخرى التي ترسم شخصيته وسلوكه في المجتمع، فبقي وفيّاً للالتزامات والمجاملات الاجتماعية، حتى بعد أن اتسع نطاقها مع اتساع علاقات الأسرة بمحيطها، كما بقي حاراً في تعامله مع الناس والأحداث، حاراً في سخطه كما هو في رضاه، في قبوله لشيء كما في رفضه لغيره، في الود وفي الجفوة. وكان جدّي هو الوحيد بين ذكور الأسرة الذي يُعنى بأن يعرف أحوالي كلما جئت للزيارة، ولم يتخل عن عادته في أن يقرعني كلما وقع فيّ على ما لا يستسيغه، وأن يثني على ما يرى أنه يستحق الثناء. بل إن جدّي احتفظ بعادة ما كنت سأحدثك عنها لولا دلالتها. فقد أحدثَ مشيي حافياً في الصغر ولعبي كرة القدم دون حذاء تشويها دائماً في اظفر الإبهام في قدمي اليمنى، قسى الاظفر وغلظ فصار تقليمه صعباً، وكان جدّي هو الذي يقلمه لي منذ انضممت إلى الأسرة في دمشق وأنا ابن عشر سنوات. كان جدي يستخدم الموس ذا النصل الحاد الذي لا يفارق جيبه، وكان يطيب له أن يقرعني دوماً على إهمالي، كما كان يطيب لي أن أتلقى تقريعه وأنا مستسلم لرعايته المحببة. وفي أول زيارة لي بعد عودتي من الجزائر، وكانوا قد أعدوا لهذه المناسبة غداءا خاصا، جاء الجد بعد أن أدى صلاة الظهر في الجامع الأموي، وما أن فرغ من السلام علي وجلس وجلست قبالته حتى رازني بتلك النظرة التي تسبق تقريعه لي ثم قال: «أراهن أنك لم

تقص الإظفر اللعين منذ قصصته لك آخر مرة». وكان جدي مصيباً. ولم ينتظر إجابتي، بل أخرج الموس من جيبه وهو يقول: «اكشف قدمك واقترب مني!» ثم راح يشحذ موساه.

أما خالي نافذ فقد كفّ عن مجافاته لي وصار يحتفي بقدومي لكنه لا يبلغ حدّ رفع الكلفة. كان الخال يتجنب أن يخوض معي في شؤوني الخاصة أو يشركني في شؤونه، فكان الشأن العام هو ما يدور حديثنا حوله. انجذب نافذ إلى العمل العام قبل تأسيس م.ت.ف. ومع تأسيس المنظمة، سُمي خالي الكبير هذا عضواً في المجلس الوطني وساهم في وضع الميثاق القومي الفلسطيني وظل واحداً من أعضاء المجلس النشيطين. غض خالي، وهو الذي نشأ على الولاء الصارم لزعامة الحاج أمين، طرفه عن واقع أن الشقيري كان من معارضي هذه الزعامة، وحمل نفسه حملاً على التعاون مع رئيس المنظمة. لكن أمد هذا التعاون لم يطل، إذ سرعان ما اكتشف الخال أن حرية الشقيري في التصرف ليست مطلقة، وأن في شخصيته عيوباً ضارة بالعمل الوطني لا يجوز التغاضي عنها. وهكذا، تحول نافذ عبد المجيد الحوراني إلى منتقد قاسٍ للشقيري، يأخذ عليه استكانته أمام التدخلات العربية في شأن المنظمة، كما يأخذ عليه ذاتيته المفرطة وفرديته واستهانته بمؤسسات المنظمة وقرارات هيئاتها. فكان لنا، إذا، ما نتحادث بشأنه دون أن نقارب المواضيع الشخصية التي يثير حديثها الشجون.

والواقع أن حنق خالي نافذ علي كان قد تضاءل. فعل الزمن فعله فشذب حدة خالي ضد ما يعدّه خروجاً مني على التقاليد التي يوقرها هو. وتأثر الخال بما كان يسمعه عني وأنا بعيد عنه، وقد رسم ما نقل إليه عن سلوكي صورة إنسان محترم لم يقع في ما قد يعدّه هو أمراً مشيناً. ولا بدّ من أن خالي الذي فارقته مجافياً كان يتحرى أحوالي فيعرف كيف أني أفرض احترامي حتى على الذين أتخاصم معهم. وبالرغم من إحجام خالي عن إظهار رضاه، كان الرضى يتكشف حين يصدف أن ألتقي عنده بأي غريب عن الأسرة، وما أكثر

ما بدا فخوراً وهو يقدمني إلى الآخرين بهذه الصفة: «إبن إختنا العزيز، الصحافي الشهير...». أما في النقاش مع خالي حول المسائل التي نختلف عليها، فقد ألزمت نفسي ما يلتزمه الصغار إزاء الكبار في الأسر المحافظة: أتأدب، فأصغي، وقلما أبسط رأيي المخالف. وخالي لا يصدر في أحكامه إلا عن واحد من لونين: الأبيض والأسود، والناس عنده ثائر أو خائر، مستقيم أو منحرف، عزيز النفس أو وضيع، والزعماء إما خائن وإما وطني. وإذا جاء ذكر الحكام العرب فهم عند الخال «كلهم خونة» باعوا فلسطين وقبضوا الثمن. وكلهم هذه تشمل عند خالي من يطيقه ومن لا يطيقه. ولتسويغ التمييز بين النوعين، كان الخال يستدرك: «الخونة نوعان خائن عن معرفة وخائن بسبب الجهل». فإذا نوّهت باسم حاكم لا يمكن لصفة الخيانة أن تنطبق عليه، كان نافذ يحتدّ وتنبلج من عينيه تلك النظرة التي تعكس السخط: «هذا أسفل من الجميع، إنه يخون بقعوده عن محاربة الخونة».

وقد تجرأت مرة فنوهت باسم عبد الناصر وأنا أعلم أن لهذا الزعيم الحاكم مكانة متميزة في قلب خالي، فجاء الرد على الفور: «نعم هذا زعيم كبير، وهو مثلهم، لكنه يحرص على شعبيته فيبيع نصف بيع وليس بيعاً كاملاً، واليهود والإنجليز والأمريكان يكرهونه على هذا الأساس». ونصف البيع هو الوصف الذي يستخدمه خالي لميل عبد الناصر إلى قبول قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين وكان للخال رأي في البعثيين لا يبدله: «أصحابك هؤلاء لا في العير ولا في النفير، يكثرون الكلام ولا يفعلون شيئاً، والمياه تجري من تحت أرجلهم». ولا بدّ لأي حديث مع الخال من أن يجيء على ذكر الشقيري. وهذا، بالنسبة لخالي، موظف عند الحكام العرب، جاء هؤلاء به ووضعوه على رأس م.ت.ف. فهو من طينتهم، يبيع شعبه كلاماً ويتستر على الذين يبيعون وطنه.

أما جدتي فقد وجدتها على حالها، والجديد في أمرها أن داء السكري الذي لا تعالجه استفحل وأحدث آثاره. وأسوأ ما في الأمر أن الجدّة فقدت القدرة على الإبصار، إلا أنها لا تقرّ بذلك ولا يجرؤ أحد على ذكر ما حلّ بها أمامها.

وقد ذكرني حال هذه الجدّة بحال جدّتي الكبيرة، أمّها، فكأن شيئاً لم يتبدل، سوى إن حركة الابنة انحصرت في الشقة الضيّقة خلافاً لأمها التي كانت أمامها مساحة الدار الكبيرة في القرية ومحيطها الفسيح. وكانوا في الأسرة يعاونون فاقدة البصر كأنهم يقومون بهذا عفو الخاطر ومن باب التوقير. وقد أتقنت خالتي شفيقة السلوك في هذا النحو، فصار لا غنى لجدتي عنها.

وقد عنّ لي في إحدى الزيارات أن أختبر ما انتهت إليه مشاعر جدتي إزاء جدي: هل ما زالت أسيرة البغض الذي خلفته فعلته حين استخدم هو زوجها مالها وجاءها بضرة، أم أن السنوات الثلاثين التي انقضت ليّنت عنادها؟ اقترحت على الجدّة أن ننزل معاً إلى الشقة التي تحت لنزور الجدّ وزوجته. فاعتذرت جدتي دون أن تقدم أي إيضاح. فخطوت أنا خطوة أخرى، فقلت إني راغب في أن أرى جدّي وجدتي العزيزين على قلبي وهما يتعاملان كما يتعامل خلق الله بعضهم مع بعض دون بغض. فلم تزد هي على أن قالت: «هداك الله!» وهذه في قاموس جدتي الذي لم أنسه معناها أني أطلب شيئاً متعذراً. ولم أتراجع بل ألحفت: «غريب أن تحملي اللوم ثلاثين سنة وأنت...»، فقاطعتني الجدة بنبرة حاسمة: «ما فات مات، وما في القلب يبقى في القلب». وشئت أن أقول شيئاً، لكن التي نكأت جرحها سبقتني: «كرمى لله، أتركني لما أنا فيه، لا تتعب نفسك!» فصمتُّ أنا لحظات احتراماً لما هاج في روحها، ثم عدّلت الاقتراح: «إذاً، أدعو الجدّ إلى هنا»، فقالت وقد استعادت سيطرتها الكاملة على نفسها بسرعة: «هذه دار أبنائه يجيء إليها في أي وقت، أنت تعرف»، دار أبنائه، إذاً، وليس دار زوجته تماماً كما استمر عليه الحال قبل هذا وبعده طيلة عقود وعقود!

جرى هذا الحديث فيما خالتي شفيقة رائحة غادية بين حجرة الجلوس والمطبخ. وقد التقطت الخالة نتفاً من حديثي فظنت أني أتعجل الالتقاء بجدي. فنزلت متطوعة إلى تحت ورجعت بصحبة أبيها. فخففت إلى باب الشقة لأحيي جدي، ثم تنحيت أمام باب الحجرة ليدخل قبلي. كانت جدتي إذاً هي من تلقى تحية

الجد: «السلام عليكم»، وكان عليها وفق التقاليد والشرع أن ترد التحية بمثلها أو بأحسن منها. وقد ردت الجدة التحية بالفعل، لكنها لم تزد على أن قالت: «وعلى رسول الله السلام». حتى في هذا المقام، أبت الجدّة أن توجه الخطاب إلى الجد مباشرة. واستخلصت ما ينبغي أن أستخلصه: إنها حالة عناد لم أعرف لها مثيلاً، وقد ورثنا، نحن نسل الجدّة، شيئاً منها، قليلاً أو كثيراً.

كنت أتردد بين وقت وآخر، أيضاً، على الجورة، مكان عملي القديم حين عملت أجير مصبغة. هنا، وجدت ما بقي على الحالة التي تركته فيها وما تبدل. لم تتطور الأدوات. ولم يتغير حال العطونة المزمنة. والزبائن هم هم. والمترددون المواظبون على زيارة المكان ظلوا يترددون، معظمهم إن لم يكن كلهم. أما صاحب المصبغة، صديقي ومعلمي السابق أبو وليد، فلم يعد يعاملني بالعفوية التي ألفتها منه. ما من شيء في سلوكي أنا إزاء الرجل تبدل، لكنه وضعي الجديد. فقد صرت بالنسبة لصاحب المصبغة صحافياً مشهوراً. وصار هو يعدني واحداً من الحكام فيظهر الحرص على مجاملتي أكثر من الحرص على إمتاعي بالصداقة. أضاف الرجل في مخاطبته لي لقب الأستاذ إلى اسمي، وحرص على تقديمي إلى زبائنه بصفتي شخصاً ذا أهمية وإغفال ما كان من شأني حين كنت أجيراً مبتدئاً في مصبغته، ومال إلى الاستفادة من علاقته بي أكثر من ميله إلى مؤانستي. كان أبو وليد قد انتهى إلى الضيق بعمله في المصبغة، وبدأ يقلق على صحته هو الذي رأى كيف افترس عمل المصبغة المضني صحة أخيه الكبير وأدى إلى وفاته. وطمع الرجل في أن يظفر بواسطتي بعمل مريح وراتب مجزٍ في إحدى المؤسسات الحكومية، وتصور أني قادر على توفير الفرصة له. ومن الشرح الطويل الذي قدمته، لم يفهم الملهوف على وظيفة حكومية سوى شيء واحد هو أني ممتنع عن مساعدته، وقد استخلص من هذا أني تبدلت فلم أعد الولد الطيب الذي كنته.

الحاج نجدت، أعز أصدقائي بين رواد الجورة، سائق الشاحنة المنحدر من أسرة غنية، لم تسلم شخصيته من بعض التبدل. صحيح أن تباين رغبات

الرجل بين التوق إلى الانطلاق بلا قيود وبين الحاجة إلى الاستقرار كان ما يزال متقداً في داخله. إلا أن السنين فعلت فعلها آخر الأمر، فصار الحاج نجدت أميل إلى الاستقرار. كفّ السائق العتيق عن السفر بالشاحنة التي يملكها هو عبر دروب الصحراء واستأجر سائقاً، وصار يتقاسم هو وسائقه غلة الشاحنة. واختفت بذلة العمل الزرقاء، فلم يعد الحاج نجدت يظهر إلا وهو بكامل أناقته. واكتسبت نبرة حديث الرجل، وقد هدأ، مهابة وروية وظل الحديث مع هذا مشوّقاً تشع منه حصيلة الخبرة وتأثيرات المعاناة الطويلة. إلا أن الحديث وقد تجلل صاحبه بالمهابة فقد شيئاً من طلاقته أو قل: من عفويته السابقة. فيما عدا هذا، ظل صديقي كما كان، حفيّاً بأصحابه، مناوئاً للفساد والفاسدين، مبغضاً لأخيه الصحافي القديم صاحب الحكام القدامى، ومبغضاً للحكام كلهم، كما ظل إزائي ودوداً، صريحاً معي صراحة يؤكد بها على أني ما أزال عنده الصديق الذي يكاشفه بما في نفسه دون تهيب. وراح هذا الصديق يراقب ما أحققه من نجاح في حياتي الصحافية فيغبطني دون أن يكفّ عن تحذيري من الاستمرار مع البعثيين، ولم يتوقف عن ترديد نبوءته القديمة: «ستتركهم، فأنت لست من هذه الطينة».

محمد ومصطفى، الأخوان اللذان يملكان البقالية المجاورة للمصبغة ويعملان فيها معاً، اتسم سلوكهما إزائي بشيء من الغرابة. ازدهرت أحوال البقالية مع اتساع حي القصور الذي تقع فيه وتحسن دخل الأخوين، إلا أنهما لم يكفّا في حضوري عن الشكوى من سوء الأحوال، كساد السوق، وغياب المواد المرغوبة، وفداحة الضرائب، وصرامة الرقابة الحكومية وكثرة الغرامات. تعامل الأخوان معي بوصفي من أهل الحكم، وصارا يترقبان قدومي على الجورة ليكررا الشكوى ويعرضا قائمة من المطالب بأمل أن أعمل على تحقيقها. وكان أسوأ ما اقترن بهذا السلوك هو إلزام الأخوين نفسيهما التعامل معي باحترام مصطنع تفوح منه رائحة النفاق التي أمّجها. وزاد من غرابة الأمر أن محمد ومصطفى هذين لم يفلحا أبداً في ستر حقيقة مشاعرهما المستجدة، فقد كان

حسدهما لي أقوى من أن يستره أي نفاق أو احترام مصطنع.

ملفينا زرتها هي الأخرى. جئت إلى الشقة مدفوعاً بشوقي إلى استذكار أيام إقامتي فيها والتعبير عن الامتنان والعرفان بالجميل. غير أن العجوز التي سبق أن عاملتني كما تعامل أم إبنها، استقبلتني بقليل جداً من الحفاوة ولم تبذل أي جهد لإخفاء استيائها مني: «سنة كاملة، ولا رسالة منك!» ولم يتبدل مزاج المستاءة حتى بعد أن قدمت الاعتذارات: «أنت في دمشق منذ شهر ولم تزرني!» تعذر علي تبديل هذا المزاج، خصوصاً أن السيدة التي أعطيتها ذات يوم حقوقاً عليّ لم تنس أني رفضت الزواج بمن رشحتها هي وتزوجتُ على هواي، ولم يبارحها غيظها. وفكرتُ: لن أكرر هذا مع أي إنسان!

أيا كان الأمر، فإن الشؤون العامة، وليس الشخصية، هي التي استحوذت على جل وقتي واهتمامي. والواقع أن القليل فقط من شأني الشخصي كان بمنأى عن تأثير الشأن العام. فقد امتزج الشأنان في حياتي، في ذلك الوقت كما في أي وقت آخر، امتزاجاً لم يبق معه مجال للتمييز. ولئن بدا أني أعرف ناساً كثيرين وأقيم معهم صلات شخصية حميمة، فإن معظم هؤلاء كان من ناس السياسة أو الإعلام أو الأدب أو الفنون المختلفة، أي من هؤلاء الذين يجمعني بهم الاهتمام المشترك بشأن عام. وقد كان وما زال من المألوف أن أتعرف على إنسان وتتوثق صلتي به وتدوم سنوات دون أن أعرف من أموره الشخصية إلا أقل القليل ودون أن أشغله بأي من أموري.

فلأعد بك، إذاً، إلى أهم ما شغلني في تلك الفترة بين العامين ١٩٦٥ و ١٩٦٦، أي إلى الوضع العام في البلد. ففي تلك الفترة، بلغت الصراعات داخل حزب البعث واحدة من ذراها القصوى. وأفضت إلى إحداث أكبر تبديل عرفه الحزب وبدّل حال البلد.

تحولت الكتلة المستحوذة على اسم اليسار إلى تيار عارم، وخصوصاً داخل الجيش وانتقلت من مُداراتها لعفلق والذين يلوذون به إلى الخصومة المفتوحة

معهم، فاستقطبت إلى ناسها الأصليين معظم الساخطين على عفلق وجماعته. وقد استفاد اليسار من الزخم الذي أحدثته التأميمات فوسعت الكتلة نشاطها وعززت صفوفها وجوّدت تنظيم هذه الصفوف. وقبل عودتي من الجزائر، حققت الكتلة في الصراع مع خصومها مكسباً ذا دلالة عميقة، حين تم إقصاء «الأستاذ» عن منصب الأمانة العامة للحزب. صحيح أن ميشيل عفلق منح مع إقصائه عن المنصب الذي استحوذ عليه منذ تأسيس الحزب لقب القائد المؤسس، إلا أن هذا لم يكن سوى لقب فخري. وصحيح أيضا أن الدكتور منيف الرزاز وهو من مناصري عفلق حل محله وقيل إن شغله للمنصب سيكون مؤقتاً، غير أن الدكتور الرزاز على ما يتمتع به من سمعة واحترام لم يكن قادراً على لعب الدور الذي لعبه الأستاذ ذاته بأي حال من الأحوال. والواقع أني رجعت إلى سورية فيما كان الأمين العام الجديد، المؤقت، مأسوراً داخل شبكة العنكبوت التي نسجتها أحابيل اليساريين وهو يجاهد للخروج منها دون طائل.

وفي خضم هذا الصراع المشتعل، أخذت الصفوف تتمايز في معسكرين متقابلين يعمل كلٌّ منهما لإلحاق الهزيمة بالآخر وتضيق فرص التفاهم أو التعاون بينهما. وبرزت أسماء الضباط صلاح جديد وحافظ الأسد وسليم حاطوم وغيرهم ومعها أسماء المدنيين الدكتور نور الدين الأتاسي والدكتور يوسف زعين والدكتور إبراهيم ماخوس بوصفهم زعماء اليسار. وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء من ذوي السمعة الطيبة والأيدي النظيفة المشهورين برغبتهم في تطوير الأوضاع في البلد وتجديد حال الحزب.

واجتذب اليسار في صراعه مع عفلق العدد الأكبر من الذين يعدون داخل الحزب تلاميذ زكي الأرسوزي أو يسمون بالأرسوزيين. ولهؤلاء الذين لعبوا دوراً في التطورات اللاحقة، قصة قديمة يجدر أن تعرف أنت شيئاً عنها لتعرف كيف تؤدي الصراعات المتشابكة في المجتمعات قليلة التطور إلى الاختلاط في المواقع، وكيف يمكن أن يصير أكثر الناس يمينية من وجهاء اليسار. فزكي الأرسوزي صاحب الاسم الذي ينتسب هؤلاء إليه هو من كان

زعيماً لسكان لواء اسكندرون العرب قبل فصله عن سورية وإلحاقه بتركيا. وقد تأسست زعامة الأرسوزي على خليط من العوامل المتباينة، فهو وريث نفوذ عائلة من الأسياد التقليديين، وهو المتعلم العصري الذي استبدل لقب الأستاذ بلقب السيد الموروث. وبعد أن هُجِّر الأرسوزي كما هجر كثيرون من لواء اسكندرون، واصل في دمشق نشاطه في الحقل العام والتفّ حوله المتعلمون من مريديه. وبهذا تكونت جماعة الأرسوزي. هذه الجماعة أسست نادياً أطلقت عليه اسم نادي البعث وراحت تدعو لبعث الأمة العربية واستعادة شخصيتها المتميزة وامجادها السالفة وما إلى ذلك مما يدعو إليه القوميون. ولأن ميشيل عفلق أطلق على الحزب الذي أسسه اسم حزب البعث ودعا إلى ما يدعو إليه الأرسوزيون، فقد اتهمه هؤلاء بأنه سرق أفكار أستاذهم واستأثر دونه بمهمة الأستاذ. لقد انضم أرسوزيون كثيرون في مقبل الأيام إلى حزب البعث مع تلاشي جماعتهم الأصلية وبروز شأن الحزب، إلا أنهم اختزنوا غيظهم العتيق. وما أن لاحت فرصة الخلاص من عفلق بعد ربع قرن على الحكاية القديمة حتى لحق الأرسوزيون، معظمهم إن لم يكن كلهم، بركب العازمين على الخلاص منه. وكان من المضحك المؤسي معاً، على الأقل بالنسبة لي ولأمثالي، أن أرى أرسوزياً يضعه سلوكه ومعتقداته على يمين عفلق اليميني، وقد اضطر أن يلوك بعض المقولات اليسارية، لا لشيء إلا لأن الكتلة التي تتصدى لعفلق صارت يسارية.

في سياق التمايز بين المعسكرين، أولى ناس الجانبين اهتماماً كبيراً للتنظيم الفلسطيني في الحزب. وقد عرفت أنت حتى الآن كيف نجح يساريو القيادة في حل مشكلة الشعبة، ثم كيف أوليت الإدارات العامة إلى عدد كبير من وجهائها. وفي مقابل ذلك، نشّط العفلقيون ناسهم في الشعبة. ولأن العدد كان قليلاً فقد استقدم عفلق عدداً من البعثيين الفلسطينيين المقيمين في لبنان وجندهم في المعمعة ضد اليسار. وهكذا ارتسمت صورة المواقف في الشعبة: أقلية قليلة احتفظت بصلتها بكتلة اليسار القديمة الآخذة في التلاشي، وأقلية

أخرى عفلقية، وغالبية التحقت بكتلة اليسار المستجد أو حامت حولها.

كان من المتعذر أن يغويني العفلقيون. ولم أقتنع بأن الكتلة التي تتماوج المواقف فيها من الماوية إلى الأرسوزية هي كتلة يسارية حقاً. وكتلتي القديمة أبعدني عنها ما رويته لك من ولعها باجتذاب أي عسكري تتكئ عليه. فلم يبق أمامي إلا أن أظل الكتلة التي من نفر واحد وأواصل عزفي المنفرد، وذلك، بالطبع، دون أن أهمل ما يجري حولي أو ينقص تأثري به. ولك أن تعرف أني لم أسترح لوضعي غير المحدد هذا، لكني لم أجد، في رؤيتي للصورة، ما هو أفضل. أرجو ألا تخطئ الفهم فتظن أني كنت محايداً أو أن حيادي كان سلبياً. فالواقع أني غصت في المعمعان المتقد كما يغوص أي ناشط ماضي العزيمة واقتحمت حلقات النار. ولو جاز أن أوصف بأني كنت محايداً، فقد كان هذا حياداً إيجابياً، بل شديد الإيجابية. وكان لي في كل شيء آراء أجهر بها وأقاتل من أجلها على كل جبهة. كل ما في الأمر أني كنت قليل العناية بأن تصبّ آرائي في هذا الجانب أو غيره. وكان هذا مني خطأ، هو الخطأ الذي يقع فيه المبتدئ والذي يغلّب تشبثه بقناعاته الخاصة وحرصه على نقاوة الضمير على أي شيء آخر.

وبهذا كان سلوكي غير مفهوم من قبل أصدقائي، وخصوصاً الشيوعيين. أعليت، مثلاً، شأن الشرعية الحزبية، وجهرت بالدعوة إلى التزامها. وكان في هذه الدعوة ما يسوق الماء إلى طاحونة العفلقيين. وكان من المنطقي عند أصحابي أن لا أندفع في تبني دعوة تخدم اليمين. أما أنا فكنت مدفوعاً بحرصي المزمن على الأصول وبخشيتي المزمنة أيضاً من سطوة العسكر. وهاأنذا أتذكر مرة دخل فيها العقيد عبد الكريم الجندي مطعم «أبو كمال» فوقع نظره علي فبادرني بالتحية وهو مقبل، ثم ذكرني وهو واقف إزاء المائدة التي يلتفُّ حولها الأصحاب بقرار القيادة القومية العفلقية ضدي قاصداً أن يحرضني ضد العفلقيين. وقتها، قلت للعقيد بنبرة تعمدت أن تبرز مغزى العبارات: «تبقى الشرعية هي الأساس، والنضال من داخل الحزب وليس

بالانقلاب عليه هو المجدي، ألم تتشبث أنت نفسك بهذه القاعدة إزاء القرار، ومن الذي كان يقول: صرماية القيادة على رأسي». هذه الإجابة اجتذبت العقيد إلى الجلوس على المائدة.

ذكرت عقيد اليسار المتطلع إلى الاستئثار بالسلطة دون العفلقيين بالنقاش الذي جرى بيننا في اجتماع الشعبة قبل سنة، وكيف احتج هو وقتها لأني تنبأت بأن ينقلب على عفلق. فتعجل العقيد الرد: «كل مرحلة لها تكتيكها وهذا ما يعرفه حتى المبتدئون، وما من أحد إلا ويحرص على ستر أوراقه فلا تنكشف قبل الأوان، وهذا أيضاً يعرفه المبتدئون». كرر العقيد تعريضه المبطن بي مرتين ليستفزني، ويبدو أنه أفلح، فقد تنحت كل تحسباتي وانفجرت في وجه مستفزي: «لم يكن ذلك تكتيكاً صحيحاً، فقد أدى إلى إقصاء يساريين حقيقيين عن معركة اليسار في الحزب، وبمساندتكم لعفلق ضد هؤلاء ميعتم الحدود بين اليسار واليمين. ولم تكن تلك أوراقاً بل مؤامرة، وها هي النتيجة ماثلة في الخليط من الناس الذي تقودونه وتريدون لنا أن نصدق أنه هو الذي سيحقق طموحات اليسار».

حاججت من ناس المعسكر الذي ينتمي إليه عبد الكريم الجندي كثيرين غيره، وبإمكاني أن أشهد بأنه إن جمعه بهم ما هو مشترك فقد تميز عنهم بإخلاصه القوي للكتلة وصدقه في تبني الشعارات التي تبثها. كان هذا الإنسان مسكوناً بالهواجس، وقد غدا على يقين من أن ميشيل عفلق وناسه إنما يخدمون الاستعمار ويعيقون تطور البلد وتقدم الأمة العربية نحو ما يرى هو أنه أهدافها الكبرى. كان الرجل حالماً بمقدار ما هو عملي، وقد اشتملت أحلامه على أن يقيم بيديه ومعه بالطبع أمثاله دولة قوية تقاوم إسرائيل والصهيونية والإمبريالية والرجعية العربية وتصحح ما يسميه هو انحراف الاتحاد السوفييتي عن الخط الثوري القويم وتبني الاشتراكية. وقد تصور الرجل أن وجود أمين الحافظ والعسكريين الآخرين الذين يسندون السلطة العفلقية هو الذي يحول دون تحقيق هذه الأهداف، فأجاز لنفسه اتباع أي وسيلة للخلاص منهم.

وكانت تلك في الترجمة العملية محاولة لإقناع الآخرين بقبول فكرة الانقلاب العسكري الذي تنهمك الكتلة اليسارية في الإعداد له.

في تلك الفترة، طلبت أن ألتقي الدكتور منيف الرزاز. كنت لا أعرف هذا القائد البعثي الوافد من الأردن معرفة شخصية، لكني قرأت له وسمعت ثناءات كثيرة عليه من الأردنيين الذين أثق بهم، فتكون لدي انطباع طيب عن الرجل. ولأني أدركت أن حلوله محل عفلق في الظروف التي تم فيها قد أوقع هذا الرجل الطيّب في مأزق، فقد طاب لي أن ألقاه وأحذّره. وكان واسطتي لتأمين اللقاء هو نمر حماد. لعلك تعرف صاحب هذا الاسم فتحاوياً تولى مناصب دبلوماسية في م.ت.ف. أما في ذلك الوقت فإن نمر كان بعثياً، وفد إلى سورية من مكان إقامة أسرته في مخيم اللاجئين في جنوب لبنان لدعم الأقلية العفلقية بين البعثيين الفلسطينيين. ويبدو أن نمر قد هيأ الدكتور الرزاز للقاء مع خصم وليس مع رفيق مستقل الرأي جاء ليقدم نصيحة. وهكذا، ما أن حييت وجلست حتى بدأ الأمين العام الجديد المؤقت بالدفاع عن نفسه وتفسير مواقف فريقه، ولم ينطو حديث الرجل على أي شيء إيجابي تجاهي أنا المستمع الوحيد. وهكذا، ولأن طروحات الرجل لم تأت بجديد لا أعرفه، اضطررت إلى أن أوقف دفق الحديث غير مرة. والواقع أن الظرف أسعفني دون أن أظهر بمظهر قليل الأدب. فقد راح هاتف الأمين العام يرن كل بضع دقائق. وغالباً ما كان الشخص الآخر على الخط طالب حاجة. بل إن معظم الذين هتفوا كان من العسكريين، وغالباً ما كانت حاجاتهم هينة، طلب إجازة حل موعدها، أو طلب الإذن بمغادرة الموقع لأن أم البنين على وشك أن تضع مولوداً جديداً، أو طلب إجازة استثنائية لأن الأب والأم مزمعان على الطلاق ولا بدّ من التدخل للتوفيق بينهما، أو لأن الأخت المخطوبة ستتزوج في القرية البعيدة ولا بدّ من حضور العرس. وكان الدكتور الرزاز يناقش أصحاب الطلبات غير متنبه إلى وجود شيء غير عادي في هذا الدفق الذي لا يتوقف. والذي تنبه إلى هذا هو أنا الأعرف من الرجل بشطارات ضباط الجيش، خصوصاً المسيسين منهم.

وما أن أباح لي الأمين العام فرصة الإفصاح عما جئت من أجله حتى قلت إن هذه المكالمات أعفتني من الحاجة إلى أي مقدمة، ودخلت في الموضوع. ففي سياق الترتيبات المؤقتة التي أحلت الرزاز محل عفلق، أوكلت إلى الأمين العام المؤقت صلاحيات كثيرة، لأن المتصارعين على الاستحواذ بها لم يتفقوا على طريقة اقتسامها فألقوها على عاتق الرجل وواصلوا صراعهم. وكان مما ألقي على عاتق الرجل الذي هو سياسي بعض صلاحيات القائد العام للجيش، فصار هذا موضع تندر، وعمد ضباط الكتلة المناوئة للعفلقيين إلى إغراق خليفة عفلق المؤقت بطلباتهم لتتكامل شبكة العنكبوت التي وقع في أسرها. ولو استجاب الأمين العام لكل الطلبات لقال خصوم العفلقيين انهم يفسدون الجيش، أما لو امتنع عن تلبيتها فإن الامتناع يوفر الكثير مما يمكن استخدامه مادة للتحريض.

شرحت هذا بألبق العبارات المتيسرة وخلصت إلى القول إن المطلوب هو تعريض اسم خليفة عفلق العفلقي إلى السخرية حتى تسهل تنحيته هو الآخر، وأردت أن أضيف شيئاً هو في الواقع الشيء الذي ما جئت إلا لأقوله، لكن الدكتور الرزاز كان قد صدم صدمة أفقدته صبره عليّ، فوقف وأنهى اللقاء: «أتعبت نفسك بغير لزوم» ولم يتسنّ لي أن أوجه أي نصيحة.

بعد هذا اللقاء مع الرزاز، استدعيت مع آخرين كالعادة إلى القصر الجمهوري. كان الشقيري على الطريق إلى دمشق، وكانت التحضيرات جارية لعقد الدورة الثالثة للمجلس الوطني الفلسطيني، وكان هذا هو الموضوع الذي دعينا إلى الاشتراك في مناقشته بين يدي رئيس الدولة. افتقر الاجتماع إلى عدد من الذين ألفت أن أراهم في الاجتماعات المماثلة السابقة. وكان السبب واضحاً: لم يستدع سيّد القصر الذي هو السيّد العسكري في كتلة اليمين أيا من زعماء الكتلة المناوئة. وهكذا غابت إمكانية مشاهدة حوار شيّق، ولم نجد نحن المدعوين بوصفنا خبراء ما نضيفه إلى ما صار معروفاً، ولم يكن الفريق أمين الحافظ قادراً على تركيز ذهنه طويلاً على المشاكل

الفلسطينية وهو المستغرق بكليته في مشاكل الصراع على السلطة، فلم يطل الاجتماع. وعندما هممنا بالانصراف، أشار الفريق الحافظ إلينا نحن فلسطينيي الشعبة كي نبقى، ثم اقتادنا إلى حجرة ملحقة بمكتب عمله، وهناك فتح مخزونه، بالفصحى وبالعامية.

صارحنا الرجل الذي يوجه اليساريون رأس حربتهم العسكرية ضده بأن الحالة في الحزب موشكة على الانفجار. وفي حديثه عن الكتلة المناوئة ردد الحافظ أربعة أسماء، صلاح جديد وحافظ الأسد وسليم حاطوم وعبد الكريم الجندي، ووصف هؤلاء بأنهم خليط منحدر من طوائف الأقليات الدينية في المجتمع، ففهمنا لماذا عدد هذه الأسماء بالذات وأغفل غيرها. ولعل الفريق الحافظ الذي لم يفطن إلى ضيقنا بالمغزى الطائفي في حديثه قد ظن أن هذا المغزى فاتنا، ولعله بسبب هذا كرر وصف المناوئين له بأنهم أشتات من العلويين والدروز والإسماعيليين «وما أدري إشو كمان». ولا بدّ من أنك تصورت كم نفرنا هذا الحديث، تماماً كما كان ينفرنا حديث خصوم الحافظ حين يحكمون عليه بوصفه سنيّاً يتصرف بدوافع طائفية. والرجل الذي اختلى بنا ليحرضنا على خصومه لم يزد بحديثه الطائفي على أن أقنعنا بأنه لا يستحق المكانة المتحققة له، ولا يجوز أن يكون في قيادة حزب قومي ألف ناسه من أمثالنا أن يترفعوا عن التصنيفات الطائفية.

يومها، قلت بحضرة هذا الرجل كلاماً كثيراً. وجدتني وقد سيطر علي ما وصفته لك في وضع من يملك أن يعامل هذا الرجل من فوق فكأني أنا قائده وليس هو القائد المفروض عليّ. وهاأنذا أتذكر كيف اتسم حديثي بنبرة تعليمية وخلا من التوقير، وأتذكر الحديث ذاته. لقد كررت هنا رأيي حول أهمية الشرعية في الحزب كما سبق أن بسطته أمام العقيد عبد الكريم الجندي، ولكني أضفت إن الظفر بالشرعية الحزبية غير كافٍ لرجل الحكم، فالحكم يقوم على أساس الشرعية الشعبية العامة وليس على شرعية أي حزب. وذكرت الحافظ بأن نظام الحكم الذي نشأ في آذار/مارس ١٩٦٣ واختاره هو رئيساً

للدولة يكاد يفتقر إلى أي شرعية. والوضع الذي أعلن في البداية أنه مؤقت لم يتحول إلى دائم مع أن قرابة ثلاث سنوات انقضت منذ نشوئه. وقلت إن هيئات النظام المعينة تعييناً التي قيل إنها مؤقتة لم تتحول إلى هيئات منتخبة. واستخلصت أن الذين يعتزمون الانقلاب على السلطة قد يخرقون الشرعية الحزبية، لكنهم لا يخرقون الشرعية الشعبية لأن هذه غير متوفرة. وإذا أفلح هؤلاء في الاستئثار بالسلطة فوضعهم حين يتعلق الأمر بالشرعية لن يختلف من حيث الجوهر أو المظهر عن وضع السلطة القائمة.

أفضت في هذا النحو وأدنت الوضع من أساسه. وصمت الرفيقان اللذان تابعا كلامي صمت المؤيد. بالرغم من هذا، ومن فصاحة بياني، فهم أبو عبده ما رغب هو في فهمه، واستخلص أننا نؤيده. وقد فوجئنا بعد أيام، بعد أن شهدنا حفل الاستقبال الذي نظمه أمين الحافظ احتفاء بالشقيري، بدعوة جديدة منه إلى خلوة أخرى. هذا اللقاء الجديد بالحافظ تم قبل يومين أو ثلاثة من انهيار العهد الذي يتصدر الرجل رئاسته. وقتها، كرر الرئيس مقولاته، وتحدث بنبرة ساخطة، ولم يتوقف للاستماع إلى رأينا، حتى لكأنه استدعانا كي نصغي إليه ونتلقى التوجيهات وقد انحفرت في ذهني العبارة الأخيرة التي قالها هذا المتهيئ لمواجهة قادمة وهو يتوعد خصومه: «أقليات، والشارع سنّي بأغلبه، وأنا ممثل هذا الشارع، وعليهم أن يعرفوا: أنا أبو عبده!»

في ذلك الوقت، استكمل الاصطفاف في الخندقين المتقابلين استنفر كل طرف قواه وأعلن النفير. وكما يحدث في مثل هذه الأحوال، نشط دعاة التوفيق بين رفاق الحزب الواحد، وسطاء الخير هؤلاء. وأظهر كل من الطرفين استجابته لوساطة الخير، كي يحمل الطرف الآخر مسؤولية التوتير والتفجير. وأفلحت واحدة من وساطات اللحظة الأخيرة في إبرام اتفاق بين الجانبين قوامه دعوة مؤتمر الحزب القطري إلى الانعقاد والاحتكام إليه. ودعي أعضاء المؤتمر بالفعل إلى دورة استثنائية تحدد يوم الخامس والعشرين من شباط/فبراير

١٩٦٦ موعداً لانعقادها.

أما البعيدون عن الصورة فقد ظنوا أنها هدنة حقيقية قد تفضي إلى المصالحة. وأما العارفون بطبائع المتواجهين واستعداداتهم فظلوا على قناعتهم بأن الصدام واقع لا محالة. والواقع أن ناس الطرفين تصرفوا حتى بعد الاتفاق على أساس أن الصدام قد يقع في أي لحظة.

لا أظن أن أمين الحافظ قد توهم حقيقة أن الشارع سيقف معه، أيا ما كانت الصفة التي يطلقها هو على هذا الشارع. وإن كنت مخطئاً في ظني وكان هو قد توهم شيئاً من هذا فإن استعداداته هو وكتلته للمواجهة القادمة لم تقتصر أبداً على الركون إلى موقف الشارع. وما يمكن أن يقال عن الحافظ وكتلته ينطبق بتمامه على استعدادات الطرف الآخر. لقد تبارى الجانبان في اجتذاب الأنصار، وركزوا على العسكريين منهم واتبعوا في جذبهم أي وسيلة متيسرة نظيفة أو غير نظيفة؛ كانت حربة الجانبين في المواجهة حربة عسكرية، فتركز أوسع الجهد على استقطاب العسكريين. واحتاج الجانبان إلى غطاء مدني وما كان أيسر أن حصل كل منهما على شيء منه!

اعتمد الحافظ والقيادة التي ارتهن مصيرها بمصيره على ولاء عدد من قادة الوحدات العسكرية القريبة من دمشق، وركنا خصوصاً إلى الوحدات الكبيرة المرابطة في قطنا، لأن قائدها العميد شحود الأتاسي كان من الموالين المضمونين. إلا أن الطرف الآخر، وهو الذي لم يفتقر لوحدات تواليه بكاملها، اعتمد على وجود موالين له في الوحدات كافة، وخطط لاستثمار وجودهم فيها تخطيطاً محكماً. وبوجود كتيبة سليم حاطوم القوية بجوار دمشق ووجود حافظ الأسد على رأس القوة الجوية، تحدد رأس الحربة الذي سيوجه إلى رأس الدولة، وضمن قادة الكتلة اليسارية أن يتدخل الطيران لصالحهم إذا وقع ما ليس في الحسبان. لقد أعد عسكريون متمرسون بالإعداد للانقلابات تدابير يصعب على الطرف الآخر اختراقها. ومن هذه التدابير واحد إن كان أطرفها فقد كان

أيضاً شديد الفعالية في توهين استعدادات المستهدفين بالانقلاب. فقد أعد برنامج لاستدراج أكبر عدد ممكن من الضباط العفلقيين إلى خارج وحداتهم. وخصص أشخاص مهمتهم إغواء هؤلاء الضباط بطريقة أو بأخرى ليكونوا بعيدين عن هذه الوحدات في الوقت الملائم.

وفي الوقت الملائم هذا، وقع ما كان متوقعاً، فكان ما اشتهر في تاريخ سورية باسم حركة الثالث والعشرين من شباط/فبراير، وهي الحركة التي قام بها أصحابها قبل يومين من الموعد الذي اتفق على أن ينعقد فيه المؤتمر القطري الحزبي.

كنت في هذا التاريخ ما أزال أقيم في منزل نسيبي محمد بصل. وفي وقت ما بعيد الفجر، انتزعني من نومي صخب الآليات العسكرية وهي تعبر الشارع. صحا كل من في المنزل. وتلفع كل واحد منّا بما تيسر ليتقي البرد، وحوتنا الشرفة، ورحنا نتابع الهدير وهو يبتعد متجها إلى حيث نتوقع، إلى المنزل الذي نعرف أن أمين الحافظ حصنه وشدد الحراسة عليه وإلى غيره من المواقع. وقدرنا أن الآليات التي تعبر حيّ ركن الدين لا بدّ من أن تكون قد قدمت من المعسكر الكبير الذي تشغله كتيبة سليم حاطوم. وكان هذا تقديراً طابق الواقع. ومع انتشار نور الفجر، رأيت إميل صبيح القاطن في المبنى المقابل واقفاً في شرفته وهو يشير إلينا، فبادلناه الإشارات، ولم يطل الترقب، إذ سرعان ما حملت نسائم الصباح دويّ قذائف المدفعية ولعلعة الرشاشات!

وجه إميل إلينا سؤالاً بحركة من يده. وفي هذه اللحظة، لعلع صوت رشاش مرنان. فرسمت بيدي الإشارة التي تعني في جلسات الحزب نقطة نظام. وعقب محمد على إشارتي الساخرة: «لماذا لا يكون ما نسمعه هو حقاً صوت إطلاق النار ابتهاجاً بافتتاح المؤتمر القطري». ومع اشتداد إيقاع الأصوات، خرج العميد شحود الأتاسي من منزله في المبنى المجاور. كانت جماعة الحركة قد

خصصت واحداً من أحذق ناسها لاستدراج قائد قوات قطنا إلى أي مكان يبعده عنها. وكان الحاذق قد صحب العميد إلى ملهى شهير يتبذل في أجوائه. ويبدو أن هذا الحاذق سلط على ضحيته الخمر ولحم الراقصات حتى أطفأ يقظته ثم حمله بسيارته إلى منزله قبل ساعة واحدة من ساعة الصفر.

في ذلك الصباح، جرت حول منزل أمين الحافظ معركة حقيقية. فالرجل الذي رفّع وهو رئيس للدولة إلى رتبة فريق، أعلى رتب الجيش السوري، استخدم ما يعرفه من فنون القتال واستبسل في الدفاع عن منزله وبثّ روح الاستبسال في جنود السرية التي انتقاها بنفسه لحراسته. وأطال الفريق الحافظ المقاومة بأمل أن تصل قوات قطنا التي يعوّل عليها لإجهاض الانقلاب. كان أبو عبده يجهل بالطبع ما حلّ بعميد هذه القوات. أما المهاجمون الذين قادهم النقيب سليم حاطوم بنفسه فإنهم حرصوا على حسم المعركة في أقصر وقت، فسلطوا على المنزل أسلحة كتيبتهم بكثافة، فسال الدم على الناحيتين. وكان ابن الفريق الحافظ نفسه بين المصابين. والواقع أن المدافعين عن المنزل التزموا أوامر رئيسهم الفريق غير الهياب دون أن يحل بهم الهلع أمام كثافة الهجوم، وقاتلوا فيما الفريق يتقدمهم في القتال إلى أن نفذت ذخيرتهم. عندها، عندها فقط، رفع أمين الحافظ راية الاستسلام. ولم يفت الرجل أن يلطخ الراية البيضاء بالدم. فهذه هي، عند العسكريين، العلامة التي تظهر أن رافع الراية لم يرضخ إلا لأن ذخيرته نفذت.

في هذه الأثناء، وفر هواء شارعنا بعض المساعدة للعميد شحود. وانتبه الرجل إلى وجودنا في الشرفة، فتساءل بالإيقاع المتعجل الذي اعتاد هذا العسكري عليه: «ما الذي يجري؟» وكانت حالة السخرية المريرة قد تلبست محمد وهو الذي رد: «لا تقلق يا عميد، إنه المؤتمر القطري، والرفاق يسوّون خلافاتهم، وهذا هو حفل الافتتاح فقط!»

اقتيد أمين الحافظ وصلاح البيطار والمطلوبون من قادة الحزب والدولة إلى

السجون. ونجا ميشيل عفلق الذي كان وقتها على ما أظن خارج البلاد. وتوارى الدكتور منيف الرزاز عن الأنظار. ونقلت الإذاعة بلاغاً إلى الناس من الحكام الجدد. وبدأ في سورية عهد جديد: عهد ٢٣ شباط/فبراير. ولك أن تعرف أن البلاغ أعلن هوية العهد اليسارية، وتعهد أن يقاوم العهد الجديد الصهيونية والإمبريالية والرجعية العربية. ولم يفت البلاغ أن يكثر الحديث عن الديمقراطية والحريات وما إلى ذلك من حكي.

١٣ فشل تمرّد سليم حاطوم فزادت الثقة بآرائي

ترك إميل شويري رئاسة تحرير **البعث** فور سقوط جماعته. وتردد طارق عزيز لبعض الوقت ثم حزم أمره وغادر البلاد. أما أنا فإني لم أجد في حركة ٢٣ شباط/فبراير ما يقنعني بتبديل الموقف الذي انتهيت إليه، المستقل عن صراعات الكتل. وبالرغم من أني ناوأت عفلق وجماعته طويلاً وأني لا أجد فارقاً جوهرياً بين حكم هذا النوع أو ذاك من العسكر، فقد أدنت المسلك الانقلابي، ولم أقر بحق العسكر في استخدام السلاح لإزاحة قيادة الحزب المنتخبة. ولكي أعطي الانطباع بأني أنا أيضاً من ذوي الأهمية، فقد أعلنت استنكافي عن العمل وامتنعت عن الكتابة.

في اليوم الأول للحركة، تذكر أولو الأمر الجدد جريدة **البعث** في وقت ما بعد الظهر. فأجال رجل الحركة القوي اللواء صلاح جديد نظره على المحتشدين حوله في مقر قيادة الحزب لينتقي من يصلح لتسيير أمور جريدة الحزب. وكان في الحاضرين بعثي رجع لتوّه من الخارج معلناً أنه حصل على دكتوراه في العلوم السياسية، طالباً أن يحصل على عمل. هذا البعثي هو الذي انتقاه اللواء صلاح وأوكل إليه المهمة، وهو من صدر عن قيادة الحزب الجديدة قرار لاحق بتسميته رئيساً للتحرير. وهذا هو الذي أبلغت أنا موقفي إليه في المساء على الهاتف، فأبلغه هو إلى الذين يعنيهم الأمر في القيادة وطلب تعليماتهم.

لم يظهر الدكتور ناجي الدراوشة أي استياء من استنكافي عن العمل، ولم يعمد حتى إلى مناقشتي في حججي، ولعله كان سعيداً، لأن ابتعادي يريحه من شخص له سمعة مناكف جريء. أما الذين ساءهم موقفي أو أثار دهشتهم فهم أصحابي اليساريون، وفي المقدمة الشيوعيون. كنت معدوداً في أي حساب من يساريي حزب البعث. فلم يفهم الأصحاب كيف أعمل في جريدة الحزب في عهد سيطرة اليمين وأستنكف حين يجيء اليسار. والواقع أن موقفي ليس من السهل فهمه وقد وجدت مشقة كبيرة في إيضاحه والدفاع عنه. وقد شقّ علي أنا نفسي أن أجد تفسيراً أركن إليه. وكل ما في الأمر أن هذا هو ما كان عليه رد فعلي المتعجل وقد جاريته، ثم وجدتني أسيراً له، وعزّ التراجع. فهل حركتني رغبة خفية في أن أبدو شهماً لا يطعن خصومه؟ هل غاظني أن أفقد تميزي أنا اليساري الذي عمل مع اليمينيين؟ هل تصورت أن فرص التحدي الذي يطيب لي ممارسته قد ضاقت؟ هل توجست أن يتسع دور العسكر في السلطة؟ هل تأثرت بمعرفتي الشخصية بعدد من فرسان الحركة واعتقادي أن يسارية كثيرين منهم طارئة وزائفة ولن يلبث أن يتبدلوا؟ أم أني شئت أن أميّز نفسي عن جموع البعثيين الذين يبدلون الولاء مع تبدل القيادات، كما يبدل المرء ملابسه مع تعاقب الفصول؟

أيا كان الأمر، فإن موقفي لم يرض أحداً من الذين أعرفهم. اليمينيون من هؤلاء تنبأوا بأنه حرد لن يلبث أن يضعف. واليساريون الحريصون علي خشوا أن أتعرض للمتاعب ثمناً لموقف لا ضرورة له. ومؤيدو العهد الجديد من أصحابي صبّوا علي كلهم ضغوطاً متواصلة كي أتراجع وخطأوا مسلكي بغير مواربة. ولا أزال أتذكر بوضوح ما فعله نبيه إرشيدات، فقد لاحقني ملاحقة يومية حتى لقد بدا كأن لا همّ لنبيه سوى إقناعي. وصف الصديق الذي يمحضني وداً لا شائبة فيه سلوكي بأنه دلع وشغل يساريين مراهقين... وتشبث نبيه بالحجة الدامغة: «انضممت إلى الجريدة في عهد تعارضه وكتبت فيها. الآن هذا عهد يؤيده الشيوعيون ويسعون لتوطيد أركانه وتطويره فمن الغريب أن تفقد صبرك!» بتأثير هذه الضغوط، ومع حاجتي إلى الدخل الذي

يوفره العمل والذي لا دخل لي غيره، راح عنادي ينحل أولاً بأول، ورحت أترقب الفرصة الملائمة للتراجع دون أن يسيء تراجعي إلى كرامتي.

هذه الفرصة وفرها لي سلوك كاتب روايات وصحافي فلسطيني بعثي هو نواف أبو الهيجا. وفد نواف إلى دمشق قادماً من بغداد بعد سقوط سلطة البعث في العراق. وكان من عادة نواف أن يزور طارق عزيز ويحاول إقناعه بتأمين عمل ثابت له في الصحافة. غير أن طارق رأى في البعثي الشاب هذا شخصاً قليل الكفاءة قليل الثبات على أي أمر، فلم يشأ أن يتورط في تزكيته لأي عمل. فلما وقع ما وقع وترك طارق عزيز الجريدة، شغر مكان نائب لرئيس التحرير ولم تعين القيادة أحداً ليشغله. وبعد أن شاعت حكاية الصدفة التي أوصلت الدكتور ناجي الدراوشة إلى رئاسة التحرير، تشجع نواف وأقدم على خطوة غريبة، فاستغل الفوضى التي تعقب التبدلات الكبيرة، واحتل الحجرة التي كان طارق عزيز يشغلها، وأبلغ إلى عامل المقسم أنه هو نائب رئيس التحرير. ونجح نواف في إيهام رئيس التحرير بأنه هو، أيضاً، مرسل من قبل القيادة. وراح يمارس عمله على هذا الأساس. أما ما لفت النظر إلى نواف بعد ذلك فهي الممارسات الغريبة التي أتاها منذ استيلائه على المنصب. من ذلك، مثلاً، أن صفحة الرأي التي يشرف هو عليها نشرت مقالاً بتوقيع غير معروف تصدّره على عرض الصفحة كلّه هذا العنوان: «نجيب محفوظ يسلم راية الرواية العربية لنواف أبو الهيجاء». وشاء نواف أن يخوض في الشأن السياسي أيضاً، فراح يكتب تعليقات تتناول الشأن الفلسطيني وينشرها بغير توقيع في الزاوية ذاتها التي كانت تعليقاتي أنا تنشر فيها. فساءني ذلك كثيراً اذ خشيت أن يتصور قارئ المقالات أني أنا كاتبها فيحملني أوزارها.

من هنا، لاحت الفرصة لزيارة مقر الجريدة وتوفر سبب معقول للمبادرة بالتحدث إلى رئيس التحرير. وجرّ الحديث عما يقوم به نواف إلى الحديث عما ينبغي أن أقوم به أنا. عندها، كاشفني ناجي بأن عدداً من زعماء العهد الجديد ذكرني بالخير، وسمى من هؤلاء رئيس الحكومة الدكتور يوسف زعيّن،

ووزير الإعلام جميل شيّا، وصلاح جديد، وعبد الكريم الجندي، وآخرين وقال إنهم شهدوا بكفاءتي. وطلب ناجي أن أرجع إلى العمل وقبلت طلبه.

عدت إلى الكتابة. وتوليت مسؤولية صفحة الرأي. وصار رئيس التحرير يحيل إلي كل مشكلة يتهيب هو حمل مسؤولية حلّها. وبعودتي إلى الكتابة في **البعث** تيسرت لي منابر أخرى. وكان أهمّ ما تيسر لي هو الإذاعة. هذه الفرصة وفرها لي قريبي عبد الله الحوراني. تعرف أنت أن هذا البعثي الذي نشأ في مخيم للاجئين في قطاع غزة كان قد أبعد عن القطاع والتحق بعمل في إحدى الإمارات الخليجية قبل ثلاث سنوات. ولك أن تعرف أن عبد الله أبعد بعد ذلك عن هذه الإمارة، فجاء إلى سورية وأقام فيها، وأوليت إليه مسؤولية «إذاعة فلسطين من دمشق». وكان هذا برنامجاً متخصصاً في الشأن الفلسطيني تبثه الإذاعة السورية على مدى ساعة من مساء كل يوم، وقد ندبني عبد الله للكتابة له، فصرت واحداً من كتاب تعليق البرنامج السياسي، وتفردت بزاوية أسبوعية أكتب مادتها وأذيعها بصوتي. وعندما جيء بخالد الجندي ليصير رئيساً لاتحاد العمال، طلب أبو سليمان مني أنا صديقه، أن أكتب لأسبوعية الاتحاد، وهي **صوت العمال الاشتراكي**، فصرت أقدم لها مادة أسبوعية تتناول الشؤون العربية. وتعرف عليّ أحمد حمدوني، وهو من صار رئيساً لاتحاد الفلاحين. وبفلاحيته التي لا تعرف إن كانت طبيعية أو مصطنعة، قال الرجل معاتباً: «تكتب لمجلة العمال وتهمل مجلّة الفلاحين وهم أكثر من نصف البلد!» فلم أهمل، لا الفلاحين ولا مجلتهم، بعد هذا العتاب. ثم لم يلبث أن عيّن عبد الله الحوراني مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون، فزادت فرص الكتابة.

بكلمات أخرى، صرت أعمل ليل نهار ولا أذهب إلى المنزل إلا حين يكون ثمّة موعد عمل فيه أو من أجل النوم. كنت وقتها أنشط من أي نشيط في الوسط الإعلامي وأكثر انتشاراً. فإذا تذكرت الداء الذي يسكن عمودي الفقري فبإمكانك أن تتصور مقدار الآلام الجسدية التي كابدتها ومدى حاجتي إلى مسكنات الألم التي أدمنت عليها.

في تلك الفترة، هيمنت الشعارات اليسارية، أو قل: أكثر الشعارات اليسارية تطرفاً، على الخطاب السياسي، فهيمنت، بالتالي، على خطاب الإعلام. وطغت موجة يسارية طفولية فوسمت أي كلام بسمتها، وجعلت الكلام كثيراً دون أن ترافقه على أرض الواقع إلا منجزات قليلة. لم يكن هذا يعجبني، غير أني لم أكن قادراً على مجابهته أو عزل نفسي عن تأثيره عزلاً كاملاً. وكل ما ميزني أن كتاباتي اتسمت بنبرة واقعية، فنجت من المزايدة والصخب السائدين. وقد توفرت لي إزاء سخط المزايدين عليّ بعض الحماية وافتقدت بعضها. ففي الإذاعة والتلفزيون كان عبد الله هو الذي يتولى مسؤولية حل ما ينجم من مشاكل. كان هذا في عبد الله، كما هو في إميل شويري، طبعاً استفاد منه جميع الذين تعاونوا معه. وفي **صوت العمال** و**نضال الفلاحين**، كانت الرقابة على ما يكتب فيهما أقلّ شأناً من أن تثير المشاكل. أما بؤرة معاناتي فتركزت في جريدة **البعث**.

هنا، صار علي أن أتعامل مع رئيس تحرير لا علم له بالمهنة ولا خبرة ولا قدرة له على تحمل المسؤولية ولا رغبة. وقد ألقى ناجي عبء إدارة التحرير على سكرتير التحرير علي الأشقر. وكلما طلب أي من المحررين شيئاً من رئيس التحرير كان يسمع عبارة واحدة لا تتبدل: «اسأل الرفيق علي!» وكان علي لا يتحمل أي مخاطرة مثلما كان أشدّ من رئيس التحرير تهيباً إزاء المسؤولية. وإذا كان لدى ناجي توجيهات يلزمنا بها فقد كان يبلغها إلى علي ويوصيه بالتشدد في مراقبة التزامنا بها. وبهذا، سار عمل التحرير سيراً روتينياً لا تشويق فيه ولا ابتكار. وكان ناجي يوجه خط الجريدة مستنداً إلى توجيهات يومية مكتوبة تصدرها القيادة الحزبية ويسلمها هو إلى عليّ. وبشأن الأخبار، اشتط ناجي في التشدد، فأضاف إلى توجيهات القيادة اليومية، الصارمة في حدّ ذاتها، توجيها دائماً من عنده أبلغه إلى علي وتشدد علي بدوره في إلزام المحررين به: «انشروا الأخبار كما تذيعها إذاعة دمشق!» ولم يكن مسموحاً لأي زيادة. وعندما حاجج المحررون علي بأن الإذاعة مقيدة بوقت النشرة

المحدود، وهي تختصر الأخبار حتى لو لم تشتمل على ما يسبب أي مشكلة، كان جوابه: «زكاة أرواحكم، لا تورّطونا!» وأما في تناول الموضوعات الداخلية العادية، في التحقيقات والزوايا بما فيها زاوية بريد القراء، فقد حظرت توجيهات ناجي أي نقد من أي نوع أو درجة لأي مسؤول أو مؤسسة، حتى لو تعلق الأمر بالإدارة المشرفة على المجاري في محافظة من المحافظات.

وقد شاعت عبارة «اسأل الرفيق علي»، وتجاوزت شهرتها نطاق الجريدة. وهاأنذا أتذكر واقعة طريفة جرت يوم زواج ناجي. إذ احتفل رئيس التحرير بزواجه احتفالاً كبيراً. وأجريت مراسم الإكليل في أكبر كنيسة في المدينة. وتصدر قادة الحزب والدولة الحاضرين. وعندما جاءت اللحظة التي يستحكم فيها الصمت، وذلك حين سأل المطران العريس عما إذا كان يقبل فلانة زوجة له، سبقت أنا ناجي في الإجابة، وهتفت من مقعدي بصوت مسموع: «اسأل الرفيق علي!» وقد قيل لي يومها إن صلاح جديد ذاته، هذا الرجل المسربل بالجدّ على مدار الساعة، قد انهمك في الضحك مثل الجميع.

كان ناجي يسلمني كل يوم نسخة من توجيهات القيادة ويوكل لعلي أن يتحرى دقة التزامي بها. في ما أكتب وفي ما أرسله إلى النشر من كتابات الآخرين. وكلما جئت إلى علي بمادة، كان المغرق في المشاغل يتصفحها على عجل فيصدر أحكاماً متعجلة فتتوالى طلباته بحذف عبارة أو تعديل أخرى وهو يكرر: «زكاتك، لا تورطنا!» وقد حدث أكثر من مرة أن مادتي ذهبت إلى المطبعة بعد أن أجازها علي ثم أعيدت ثانية بعد انصرافي، ليعاد التدقيق فيها وتُحذف منها مقاطع أو يلغى نشرها.

بديهي أني ضقت بهذا الوضع. ولك أن تعرف أن حردي وامتناعي عن الكتابة تكرر. وكنّا نصل بعد كل حرد إلى اتفاق متوازن. لكن حليمة العاجزة عن إبطال عادتها القديمة لم تكفّ عن مضايقتي. وبين الأخذ والرد بشأن التضييقات، سعيت إلى أن أجوّد أسلوبي الذي كدت أنساه وأنا في الجزائر: إمرار آرائي

المخالفة في ثنايا العبارات وخلف السطور. وأستطيع أن أدعي بفخر أو بغير فخر أني صرت في الإعلام السوري أبرع الذين استخدموا هذا الأسلوب.

في هذه الأثناء، في نهاية مطاف عسير وبحث شاقين، أمكن أن أعثر على شقة للإيجار. وفّر الفرصة أصدقاء لي كانوا أصدقاء أيضاً لضابط شرطة يملك شقة فارغة ويريد أن يؤجرها لبعض الوقت ويبحث عن مستأجر يتعهد أن يخلي الشقة في أي وقت يحتاجها هو فيه. وقد قدمت لصاحب الشقة التعهدات اللازمة والضمانات كلها وكفلني الأصدقاء المشتركون، فصارت لي شقة مستقلة.

في هذا الوقت، وقعت الحادثة التي كادت تعصف بالعلاقات القائمة بين «فتح» وسورية، وهي الحادثة التي أدت إلى احتجاز ياسر عرفات وخليل الوزير وغيرهما من ناس «فتح» في السجن. ولكي تدرك مغزى ما وقع بتمامه، يجدر أن تعرف ما عرفته أنا عن الخلفيات التي مهدت لهذه الحادثة. فالقيادة البعثية الجديدة التي تشكلت بعد حركة شباط/فبراير أعطت في ظل شعاراتها المتشددة زخماً قوياً لشعار حرب التحرير الشعبية ورأت أن فلسطين لا تتحرر إلا بحرب الشعب طويلة الأمد. ومن أجل الإعداد لحرب شعبية أمدها طويل، رأت القيادة أن الحزب مطالب بإعداد الجماهير لخوض هذه الحرب. وما انطبق على فلسطين في رؤية القيادة انسحب على كل أرض عربية خاضعة لاحتلال أجنبي. وكما كان الشأن بالنسبة للشعارات الكبيرة، لم ينجز إلا القليل من الأعمال في مجال تطبيقها. وفي هذا السياق، قررت القيادة مواصلة تقديم الدعم للمنظمات الفلسطينية، وخصوصاً منها «فتح». وفي هذا السياق أيضاً، جرى العمل لتعزيز نفوذ الحزب داخل المنظمات. ومضى بعض ناس القيادة إلى ما هو أبعد، فخططوا لتطوير نفوذ الحزب داخل «فتح» بالتدريج إلى أن يتمكن الحزب من احتواء المنظمة الفلسطينية والهيمنة على قيادتها بالكامل.

كان صلاح جديد في حدود علمي هو أكثر أعضاء القيادة حماساً لخطة الاحتواء والهيمنة. ولكي لا يعجلك هذا الإيجاز فتكوّن فكرة مجتزأة عن طموح

الرجل، علي أن أضيف أن صلاح جديد وناس فريقه الأقربين تطلعوا إلى تحقيق وحدة القوى الثورية العربية من المحيط إلى الخليج، واشتمل تطلعهم على أن يصير حزب البعث هو قائد القوى الموحّدة، فانتهجوا نهج الاحتواء والهيمنة بهذا الدافع. ولئن بدأوا بـ «فتح» الفلسطينية فقد نووا أن يثنّوا بغيرها. وهم لم يبدأوا بـ «فتح» على أي حال إلا لأن هذه كانت منظمة ناشئة، غضة الإهاب، وكانت حاجتها الماسّة إلى سورية تجعلها في متناول اليد.

ووقع جزء من تنفيذ الخطة على عاتق اللواء أحمد سويداني وهو من كان قائداً للمخابرات العامة ثم رئيساً للأركان العامة للجيش وعضواً في القيادة القطرية للحزب ومن أكثر أعضائها ولاء للواء صلاح جديد وطاعة. وبهذا، شهدت «فتح» إقبالاً على الانتساب إليها من قبل عدد من البعثيين. وقد برز من هؤلاء فلسطيني ضابط في الجيش السوري هو النقيب يوسف عرابي. وأظهر يوسف هذا حمية في النشاط، وأمكن أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة في تنظيم «فتح» العسكري. وقد عدّ البعثيون نشاط رفيقهم في «فتح» توليفاً محموداً بين عروبيته وفلسطينيته وأحبّوه. ثم فجأة، علم هؤلاء أن يوسف قد قتل، وقالت قيادتهم لهم إن قاتليه هم ياسر عرفات وخليل الوزير واخوانهما.

أما التفاصيل التي لم تعرف كلّها في حينه فإنها تظهر أن النقيب شرع في تحرك هدفه السيطرة على ما كان يسمى قواعد «فتح» في دمشق، أي على الشقق المتفرقة التي يستخدمها التنظيم لأغراض عسكرية. وقد أفلح النقيب ومعاونوه المنتقون في السيطرة بسرعة على اثنتين أو ثلاثة من هذه الشقق - القواعد. وحين عرف الموجودون من قادة «فتح» بما يجري، كان النقيب في طريقه للاستيلاء على واحدة أخرى، فخفوا إلى المكان وهم مسلحون. وكان هذا المكان قبواً، وفيه التقى الطرفان، ووقعت مشادة، وانطلق رصاص من البنادق المتماثلة، وأصيب يوسف في مقتل، كما أصيب في مقتل أيضاً شخص من الفريق الآخر، وكان ياسر عرفات هو الذي قاد هذا الفريق إلى القبو. وكانت هذه، في الحساب المنصف، نهاية الخطة

الساذجة التي استهدفت الهيمنة على «فتح».

ولكي لا ينصبّ اهتمام الجمهور البعثي على الخطة ذاتها ويحاسب المسؤولين عن الفاجعة، أغرق البعثيون بالأنباء والتحريضات التي توجه انتباههم إلى مصرع رفيقهم المحبوب، وألقي القبض على عرفات والوزير وغيرهما. وطاف في أجواء دمشق قميص عثمان جديد، فاصطخب الجو بالدعوة إلى الانتقام.

ستقع في المراجع المتيسرة على تفاصيل ما جرى بعد ذلك. أما هنا فسأحدثك عما يتصل بي من تأثيراتها وما تحريته بنفسي. أنت تعرف أن علاقتي بياسر عرفات كانت طيّبة، ومثلها كانت علاقتي بخليل الوزير. فكان بإمكاني أن أزعم أني أعرف رجلي «فتح» هذين معرفة وافية. وبهذه المعرفة، جذّفت ضد التيار الداعي إلى الانتقام، وجهرت بقناعتي بأن الرجلين لا يملكان أي نوازع للاعتداء على ضابط بعثي. لقد انطلق الرصاص في حجرة صغيرة من حجرات قبو صغير يحتشد فيها خلق كثير ويحمل كل منهم سلاحاً من الطراز ذاته الموجود مع الآخرين ويستخدم الذخيرة ذاتها، فمن المتعذر، إذاً، تمييز مطلق الرصاص القاتل. أما مبادرة عرفات وفريقه إلى مواجهة يوسف فقيّمتها على أنها تحرك مشروع للدفاع عن النفس والمنظمة ضد متمردين.

وبحصيلتي الوافرة من المعلومات التي تحريتها بنفسي والآراء التي كونتها، نشطتُ في حملة محاججة شديدة اللهجة مع ناس الحزب: هذه كلها عملية سياسية، وقائدا «فتح» وفريقهما لم يفعلوا أكثر من الدفاع عن منظمتهم المهددة، ومن المعيب أن يعاملوا كأنهم مجرمون. والواقع أن المشكلة كلها كان من الممكن أن تعالج على هذا الأساس لو لم تتأثر المعالجة بالخلافات التي تجددت داخل الحزب والتباعد الذي نشأ بين أركان حركة شباط/فبراير. وقد شهدت بنفسي الرائد سليم حاطوم وهو منخرط في تحريض البعثيين الفلسطينيين ضد اللواء صلاح جديد وناسه بدعوى أنهم ورطوا يوسف، الضحية، ثم لم يوفروا له الحماية. كما شهدت ناساً من جماعة جديد وهم

يحرضون الآخرين على اللواء حافظ الأسد ويتهمونه بأنه يحمي الفتحاويين المعتقلين ويمنع يد العدالة عن أن تصل إليهما.

يبدو أن جديد لم يطلع الأسد على خطة الهيمنة على «فتح» ومهمة يوسف عرابي فيها، أو أنه لم يتمكن من إقناع الأسد بها. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل رد فعل الأسد، وهو من كان وزير الدفاع والقائد العام للجيش، أقل حدّة من غيره. وقد استخدم الأسد صلاحيات منصبيه لإخضاع الحادثة إلى تحقيق لا يتحيز القائمون به ضد المتهمين الفتحاويين، وذلك في مقابل الدعوات المتأججة إلى الانتقام العاجل.

في هذا الجوّ، انعقد اجتماع عام لأعضاء شعبة فلسطين حضره صلاح جديد. لا أتذكر سبب عقد هذا الاجتماع العام، لكنني أتذكر أن سخونة موضوع يوسف عرابي فرضت نفسها على مجرى المداولات حتى سيطرت عليه. يومها، تعمدت أنا أن يسمع جديد رأيي بتمامه، ولذا أفضت في الحديث وأطلت، فمن الخير لي أن يعرف الرجل رأيي مني مباشرة بدل أن يتلقاه عبر التقارير. وبين نقاط أخرى تركز عليها حديثي، شرحت وجهة نظري بشأن العلاقة بين الحزب وبين «فتح». قلت إن حزب البعث حزب سياسي طبقي يحمل مشروعاً لتوحيد البلاد العربية وإقامة نظام اشتراكي في دولتها الموحدة؛ أما «فتح» فحركة تحرير وطني تستقطب ناساً من كل طبقة وتتوخى تحرير بلد واحد من هذه البلاد. وخلصت إلى القول بأن الحزب مطالب بتقديم أوفر الدعم لحركة التحرر الوطني، لكن لا يجوز أن يصير الحزب قيما على الحركة أو بديلاً لها. ثم كررت الرأي الذي صرت تعرفه حول حق عرفات وإخوانه في التصدي لمحاولة الانقلاب، وأضفت أنه إن كان لا بدّ من محاسبة أحد وتحميله مسؤولية ما وقع، فلا بدّ من التحقيق مع الذين أوكلوا ليوسف مهمة غير نزيهة وعرضوه للخطر. وبهذه الإضافة، بالذات، مسست الوتر الحساس الذي صرتَ تعرفه، إذ كنت أوجه في واقع الأمر اتهاماً لقيادة الحزب وألمح إلى أني عرفتُ الخطة التي كانت شديدة السرية.

لم يؤيدني من أعضاء الشعبة أحد، وكان أغلبهم مهتاجاً بسبب أقوالي، وأغلظ بعضهم لي في القول. غير أن صلاح جديد استمع إليّ بانتباه، واجتذبه على نحو خاص فكرتي عن العلاقة بين الحزب وحركة التحرر، فناقشني في تفصيلاتها. وبعد انتهاء الاجتماع، تقدم الرجل مني بدل أن يدعوني إليه، وتبسط في الحديث، وأذن لي بأن أدعوه بكنيته «أبو أسامة»، وحثني على أن أتصل به كلما احتجت إلى شيء. وزودني بأرقام هواتفه المباشرة في المكتب والمنزل، وودعني بود. إنها وسائل القابض على السلطة، أو قل: بعض وسائله، لامتصاص السخط. ولي أن أزعم أني حصنت نفسي ضد تأثير هذه الوسائل، غير أن توالي المجاملات الطيبة لم يكن له أن يظل بغير تأثير.

انقضت شهور على وجود قائدي «فتح» في السجن. تشكلت لجنة تحقيق ثم لجنة أخرى. ولم تفضّ أي منهما المشكلة. لقد تعذر على أي من اللجنتين أن تستنبط من الوقائع ما يسوغ الدعوة إلى الانتقام. بعدها، استخدم الأسد صلاحياته الرسمية فشكل لجنة تحقيق أوكل رئاستها إلى فلسطيني بعثي ضابط في القوى الجوية السورية، هو محمود عزّام. وكانت هذه هي اللجنة التي أمرت بالإفراج عن قائدي «فتح». ولم يبق من الحادثة التي أوقعت كل هذا الاضطراب إلا عقابيل متفرقة جرت معالجتها بعد ذلك بنفس طويل.

اتخذت موقفي ضد التيار الغالب في الحزب، ووقفت إلى جانب قادة «فتح»، وذلك في الحالتين باستنادي إلى دلالة الوقائع وتشبثي بالقناعات الشخصية التي استخلصتها لنفسي. ولئن أسخط موقفي الحزبيين وعزز سمعتي الطيبة لدى قيادة «فتح»، فإني فعلت ما فعلت وأنا لا أخشى عقوبة ولا أطلب مكافأة. وكان كل ما توخيته أن أبرز استقلال رأيي وقدرتي على التصرف بما يتفق مع هذا الرأي.

بعد شهر واحد من وقوع حركة شباط/فبراير، بدأ سليم حاطوم يبث الشكوك إزاء نوايا قادة الحركة الآخرين تجاهه. وقد روى النقيب الذي صار رائداً

واقعة استخلص هو منها أن صلاح جديد يخطط لقتله، وليس أقلّ من هذا.

توقع الرائد ذو الطبيعة المغامرة أن يظفر بحصة في السلطة تعادل الدور الذي أداه لإنجاح الحركة. وكان هذا الدور في تصور صاحبه هو أكبر الأدوار، أليس هو الذي خاض المعركة أمام منزل أمين الحافظ واقتاد الرئيس إلى السجن؟ والواقع أن سليم صار عضواً في القيادة القطرية الجديدة للحزب، وأبقيت للرائد سيطرته الكاملة على كتيبته، وراح هو يوسع الكتيبة ويطور سلاحها ويغدق الأموال والهدايا على ضباطها وجنودها، وكل هذا من أموال وزارة الدفاع. وتمتع سليم بنفوذ واسع، فكانت له كلمة مسموعة في أي مؤسسة من مؤسسات الدولة المدنية، ولم يجرؤ أي مسؤول فيها على ردّ طلب له. لكن هذا كله لم يشبع طمع الرائد، فقد بقي، كما كان، على طمعه بالظفر بالموقع الأول في السلطة. ووجد من يحرض الضابط المفتون بنفسه ويزين له السعي إلى الاستفراد بالسلطة دون زعماء الحركة الآخرين، فازداد طمعه وتعزز اعتقاده بأنه أحق القادة في شغل الموقع الأول. وقد سبق لك أن عرفت أن أصحابي في كتلة اليسار القديمة كانوا على صلة بسليم هذا. والواقع أن أصحابي هؤلاء، هم الذين أهمل العهد الجديد إيلاءهم أي دور في السلطة، كانوا الأكثر إلحاحاً على سليم في أن يتميز عن غيره. ولأن هؤلاء لقنوا سليم دعوتهم اليسارية وبينوا له أن دعوة زملائه في الحركة دعوة زائفة، فقد راح سليم يزايد على المزايدين جميعاً ويطلب أن تحذو سورية حذو كوبا على الفور فيتحد الشيوعيون والبعثيون اليساريون ويقيموا النظام الاشتراكي.

كان من الطبيعي أن يثير سلوك سليم هواجس زملائه في قيادة الحزب، ويبدو أنهم وضعوه تحت رقابتهم لكي لا يفاجئهم بما ليس في حسبانهم. وهكذا، تواترت أفعال تثير الشكوك وردود أفعال مماثلة؛ إنه المسلسل المعروف الذي لا يتوقف عند حد. وفي سياق هذا المسلسل، جرت الواقعة التي بدأت الحديث بالإشارة إليها. فقد اكتشف سليم أن صلاح جديد أعطى رشوة لرقيب في الكتيبة مقرب من قائدها، وطلب منه أن يزود قيادة الحزب بأخبار معلمه

وتحركاته. وزعم سليم أن الرشوة بلغت أربعة آلاف ليرة، وهذا مبلغ يكاد يساوي راتب الرقيب لسنتين. ولأن تقديم المبلغ الكبير اقترن بالوعد بتقديم مكافأة دورية كبيرة أيضاً، كما زعم سليم، فقد أجاز الرائد لنفسه أن يستخلص أن صلاح جديد يروّض هذا الرقيب ويعدّه لمهمة القتل.

بعد هذه الواقعة، وبصرف النظر عما هو صحيح أو مهوّل أو حتى مختلف في رواية سليم لها، صار الرائد لا يذهب إلى أي مكان إلا وهو محاط بحراسة قوية قوامها آليات عسكرية وعساكر يضع كل منهم إصبعه على زناد سلاحه. وكان الرائد يحمل حتى وهو في اجتماع لقيادة الحزب جهاز اتصال لاسلكي مفتوح دوماً على الجهاز الذي يحمله قادة حراساته ولا يأذن لأحد بأن يمس جهازه. ولم يلبث أن صار سليم حاطوم ظاهرة تؤرق العهد الجديد. فهو يجلب بسلوكه سوء السمعة للعهد، من جهة، ويهدد زملاءه في قيادة العهد، من الجهة الأخرى. ولأن سليم اتصف بالتعجل في كل شأنه، فسرعان ما تحولت الظاهرة إلى مشكلة ينشغل بها الجميع.

في هذا الوضع، تصور صديقي ونسيبي محمد بصل، وهو من صار الزعيم العملي لما بقي من كتلة يسارنا القديمة أن جماعته قادرة على استثمار صلتها بسليم لتحسين فرصها في العودة إلى مراكز الصدارة. وتوهم محمد، وهو المعتد بقدراته، أنه قادر على ضبط إيقاع سلوك سليم وتوجيهه وفق ما يرى هو أنه المصلحة العامة. وفي البداية، أمل محمد في أن يشكل سليم جسراً للتفاهم يوصل جماعته إلى شيء ما مشترك مع جماعة ٢٣ شباط/ فبراير. ولكن سليم ظل ينقل إلى محمد وأصحابه أن صلاح جديد هو الذي يرفض أي اقتراح بالتعاون معهم. وأغلب ظني، أنا الذي لم يثق بسليم في أي وقت، أن الضابط الطماع لم ينشط حقيقة لإقامة أي جسر، وما ذلك إلا لأن في رأسه موالاً، هو الموال الذي سيغنّيه على كل حال بعد وقت قصير.

ومهما يكن من أمر، فإن علاقة جماعة محمد بصل بسليم حاطوم توثقت

وزادت شهرتها. ووفرت هذه العلاقة للجماعة شيئاً من الحماية، فانتعشت حركتها السياسية. وانتضى محمد همته المشهورة وانتعشت نشاطاته على كل صعيد. وفي سياق ذلك، راح محمد وزعماء الجماعة يزورون صلاح البيطار وغيره من الموقوفين. كان سليم هو الذي يؤمن أذون الزيارات وهو الذي يمكن الزائرين من قضاء ما يشاؤون قضاءه من الوقت مع الموقوفين، دون رقابة. فلما رأيت أن الفرصة متيسرة طلبت من محمد أن يدبر لي إذناً بزيارة صلاح البيطار. كان وراء هذه الرغبة نازع أخلاقي إذ شئت أن أبدو شهماً، كما كان وراءها نازع من نوع آخر، فقد تسنى لي أن أعرف صلاح البيطار وهو في المعارضة ثم وهو في رئاسة حكومة، بل حكومات، فلماذا لا أكمل معرفتي به وهو مسجون!

كان صلاح البيطار وآخرون من جماعة العهد السابق موقوفين في الاستراحة التي تتوسط مدارس الشرطة في القابون، وقد خصص لكل اثنين منهم حجرة معدة في الأساس للإقامة المريحة، ففيها سريران وحمام وما يلزم لإقامة شخصين من أثاث وأدوات. وعندما ولجت باب الحجرة وقع نظري أول ما وقع على زميل البيطار فيها، فكان هذا هو فهمي العاشوري، وزير الداخلية السابق الذي تشاجرت معه، وليس أحداً سواه. لم أكن قد رأيت فهمي العاشوري منذ شجاري القديم معه. ولأننا افترقنا بعد الشجار متباغضين، فقد تحرجت حين فوجئت به في هذا المكان بالذات، ولم أدر كيف أتصرف إزاءه. وفي اللحظة التي تسمرت قدماي فيها عند باب الحجرة، خشيت أكثر ما خشيت أن يظن الرجل الذي انتهى إلى السجن أني تدبرت أمر الزيارة لأراه هو بالذات وأظهر شماتتي به. ولعل هذا هو ما أربك خطوتي التالية، فقد تساءلت عما إذا كان الأستاذ صلاح موجوداً، دون أن أوجه التحية. فهبّ العاشوري من سريره وقد طفح وجهه كله بابتسامة مرحّبة، وهتف وهو يمدّ يديه كلتيهما للمصافحة: «لا أظن أني تبدلت إلى الحد الذي يصعب معه أن تعرفني». ولم أجد بداً من اختلاق عذر: «لا بدّ أنها الملابس»، وأشرت إلى

الجلابية التي حلّت محل البذلة.

كان صلاح البيطار قد أخطر بأني قادم لزيارته ولم يعترض. فلما جئت استقبلني الزعيم المسجون ببرودة؛ خرج من الحمام الذي كان فيه ليجدني منهمكا في حديث مع شريكه في الحجرة، فحياني تحية مبتسرة وصافحني بيد مسترخية، ثم اتجه إلى سريره وأسند ظهره إلى ظهر السرير وفرد ساقيه على الفراش، وبعدها، بعدها فقط، أظهر استعداده للإصغاء إلى ما ظن أني جئت لأقوله له.

بعد أسابيع من هذه الزيارة، ظهر صلاح البيطار فجأة في بيروت وقد قرأت في صحيفة لبنانية، أغلب ظني أنها **النهار** مقابلة مع الرجل يصف فيها طريقة ما سماه هروبه من السجن. وقد ادعى البيطار أنه استخدم معرفته بعلوم الرياضيات ليعد خطة هرب، بسيطة لكنها محكمة، وكان في هذا الإدعاء محاولة للتستر على الذين مكّنوه من الإفلات. وأنا أعرف، ولك أن تعرف، أن صلاح البيطار هُرِّب من الاستراحة بمعرفة سليم حاطوم، ولم يكن للحساب أو الجبر أو الهندسة أي دور في تهريبه.

خدع الرائد سليم حاطوم يساريين كثيرين، فيما كان يتخبط بحثاً عن مناصرين له على أي صعيد متيسر. قد فُتن أصحابي الشيوعيون بالضابط البعثي الذي يدعو إلى وحدة اليسار. وكان سليم يبثّ أفكاراً تفتن الشيوعيين، في المجالس التي يعرف أن حديثه فيها سيصل إليهم. وبلغ لابس زيّ اليسار حدّ الدعوة إلى ضم سورية إلى حلف وارسو، فكيف لا يفتن به الشيوعيون، هم الذين لم تبلغ طموحاتهم ذاتها هذا الحد. وهاأنذا أتذكر محاججاتي الطويلة مع نبيه ارشيدات بشأن هذا المغامر. أفتتن نبيه كغيره بالرائد، ثم أتيحت له فرصة السفر معه إلى كوبا فرجع إلى دمشق وهو أشد افتتاناً. ففي كوبا، أطلق سليم العنان ليساريته وزايد حتى على اليساريين الكوبيين. وفي موسكو، على طريق العودة، أرادت السفارة السورية أن تنظم حفل استقبال. لكن

الرائد أبي: «خصصوا كلفة الاستقبال لما هو أنفع!» قال هذا أمام نبيه، فازداد صديقي الشيوعي إعجاباً بالحريص على المال العام. ولم يعرف نبيه إلا بعد حين، أي بعد أن عرفت أنا، أن سليم أحضر من موسكو معطف فرو ثمنه ألف دولار، هدية لإحدى عشيقاته، وأنه منع السفارة من تنظيم الاستقبال لأن أصحابه الحميمين نظموا له سهرة من نوع آخر بعيدة عن الأنظار.

بكلمات أخرى، صار سليم حاطوم نجماً يبثُّ إشعاعات يسارية وصارت له كتلة تلتف حوله، كما صار له معجبون. ولا بدّ من أنك تعرف شيئاً مما انتهى إليه هذا كلّه. فبعد تواتر الأزمات بين الرائد وبين زملاء القيادة، أظهر هو فجأة الرغبة في إجراء مصالحة معهم، ودعا عدداً من أركان الحزب والدولة إلى منزله في قريته في جبل الدروز بهدف إتمام هذه المصالحة. هذه الدعوة لبّاها معظم الذين وجهت إليهم فوصل صلاح جديد والدكتور نور الدين الأتاسي، وهو من صار رئيساً للدولة، وجميل شيّا وزير الإعلام وغيرهم إلى منزل سليم. أما حافظ الأسد فإنه لم يحضر، وقد أشيع أنه قبل الدعوة وكان على وشك التوجه إلى المكان إلا أن طارئاً ما شغله.

وما أن اكتمل حشد المدعويين حتى كشف سليم نيّة خبيثة. فلم تكن الدعوة سوى فخ نصبه الرائد ليصطاد أركان العهد ويتخلص منهم. والواقع أن سليم أشرع بندقيته وصوبها أول ما صوبها ناحية صلاح جديد. غير أن وقفة حكيمة وشجاعة من المدعوين الآخرين حمت البلاد من مذبحة لو تمت لأوقعت الاضطراب في كل مكان. وقد شهد شهود عيان رووا لي الحادث بأن جميل شيّا، وهو من أبناء جبل الدروز مثل سليم، وضع جسده أمام فوهة البندقية قبل أن ينطلق الرصاص. وبمجازفته هذه، أتاح الرجل المبادر للآخرين أن يتدخلوا ويحموا المستهدفين بالقتل ويرغموا سليم على التراجع.

وصلت أنباء ما يجري في منزل سليم والتمرد الذي أعدّ له إلى مراكز الحزب والسلطة في دمشق، فتحرك الجميع لتدارك الموقف وإطفاء التمرد. وكان عبد

الكريم الجندي هو الأسرع إلى المبادرة. قاد العقيد لواء الصواريخ الشهير وتحرك به باتجاه الجبل، وتحركت قوى أخرى، واتخذت تدابير، وسرعان ما أحبط التمرد.

أحيط بالمغامر الفاشل، وضاقت في وجهه السبل، فتوجه إلى منزل الزعيم الوطني سلطان الأطرش. استجار سليم بالرجل الكبير ظناً منه بأن الرجل سيجيره لأنه درزي. لكن الزعيم الذي يجلّه أهل البلاد جميعهم رفض أن يجير بعثياً غدر برفاقه ومتمرداً تمرد مدفوعاً بنوازع شخصية. ولم يبق أمام الذي تلاحقه آلة الدولة والحزب إلا اتباع أقصر الطرق إلى خارج البلاد. وهكذا، اجتاز سليم حاطوم الحدود، وتبعه من كان معه في المنزل من أنصاره، واستجار الجميع بالأردن.

لا شك في أن حادثة المنزل لم تكن في ذهن سليم إلا فاتحة يتحرك بعدها أنصاره في دمشق. إلا أن مبادرة عبد الكريم الجندي العاجلة والتدابير التي اتخذها، قطعت الطريق على أي تحرك مضاد وأرعبت أنصار سليم، ففر منهم من فرّ دون أن يقدم على شيء، وتخاذل من تخاذل فاستسلم قبل أن يفعل شيئاً. كان مدير مخابرات دمشق واحداً من أنصار سليم، ويبدو أنه كان من المعول عليهم كثيراً لدعم التمرد. إلا أن الرجل كان، فيما أعلم، أسرع أصحابه إلى الاستسلام. وقد تصرف هذا الرجل تصرفاً طريفاً بعد استسلامه، فاتصل بالوجهاء من المتصلين بسليم وحذرهم واحداً واحداً: أرسلت الآن دورية لاعتقالك، فتدبر أمرك قبل وصول الدورية!

محمد بصل كان واحداً من الذين تلقوا تحذير المنقلب على أصحابه. لم يكن محمد قد أعدّ للأمر أي عدّة، وبدا واضحاً أنه مفاجأ بما أقدم عليه سليم، ولم يعرف في الدقائق القليلة المتاحة له إلى أين يذهب وإلى من يلتجئ. وكان أن غادر محمد المنزل بغير هدف، وهام على وجهه في أزقة حيّ ركن الدين، فهدته الصدفة إلى قريبة له عجوز تسكن في الحي في مكان لا تستطيع أي سيارة

أن تصل إليه، فالتجأ إلى قريبته.

كنّا في الثامن من أيلول/سبتمبر ١٩٦٦. وقد استغرق القضاء على التمرد وتصفية عقابيله بضعة أيام أخرى، ثلاثة أو أربعة. وكانت هذه أياماً اضطرب خلالها كل شيء في البلد. فالصورة لم تكن واضحة لأحد. وأجهزة الإعلام لم توفر ما يشفي الغليل. والبعثيون الذين يبدلون الولاء مع تبدل الحكام، لم يعرفوا كيف يتصرفون فيما اتجاهات الريح غير مستقرة. وقد ازداد عملي في الجريدة، كما في غيرها، لأن عدداً من العاملين البعثيين تهيب اتخاذ أي موقف وآثر التروي إلى أن تنجلي الصورة وتلكأ في أداء العمل المطلوب. وكان رئيس تحرير **البعث**، وهو الهيّاب بطبعه، في مقدمة المتلكئين، فتوجب علي أن أعوض النقص.

كنت أملك ما يكفي من الدوافع للوقوف ضد سليم حاطوم حتى لو توفرت لتمرده أسباب النجاح. وكنت في وضع تيسر لي معه أن أطلع على ما يجري، فصرت على يقين من أن التمرد فاشل لا محالة. وبهذا وذاك، انهمكت في النشاط على أصعدة ومستويات عدّة، وأسهمت في التحريض ضد التمرد، بالكتابة وبغيرها. وأنا أتذكر مما كتبته في تلك الأيام الافتتاحية التي تصدرت صفحة **البعث** الأولى وكررت الإذاعة وكذلك التلفزيون بثها عدة مرات. وكان عنوان هذه الافتتاحية إن لم تخنّي الذاكرة «اللغم الذي انفجر على نفسه».

وفيما أنا ناشط ضد التمرد، توجب عليّ أن أهتم بمساعدة محمد بصل المتهم بالمساهمة فيه. والواقع أن صديقي ونسيبي كان في حاجة إلى مساعدة عاجلة. فهذا الملاحق الذي التجأ إلى منزل قريبته العجوز أرسل إلي بعد أيام ما يفيد بأن المرأة الخوافة من السياسة اشتمت ما يريب بشأن لجوئه إليها. والطريف أن العجوز كانت مستعدة للمجازفة بإيواء قريبها لو أنه كان طريد عدالة من الذين يسرقون أو يقتلون. أما أن تكون التهمة سياسية فهذا هو ما لم تتحمل المرأة أي مجازفة بشأنه. وطلب محمد أن أتدبر بأعجل ما أستطيع أمر نقله إلى

مكان آخر يختفي فيه، حتى لا يجد نفسه مضطراً إلى أن يهيم في الشوارع.

كان وجه محمد معروفاً لكثيرين في المدينة، وكان اسمه مدرجاً في قوائم المطلوبين، وكان حظر التجول المفروض على المدينة يجعل أي تحرك فيها مكشوفاً لعيون الأمن، وكنت مستغرقاً في أعمال كثيرة. بالرغم من هذا كله، أسهمت في البحث عن مأوى آمن لمحمد إلى أن توفر هذا المأوى. وقد استغرق البحث بضعة أيام وشارك فيه، بالطبع آخرون. وفي السابع عشر من أيلول/سبتمبر، انتقل الملاحق إلى منزل يملكه أحد العاملين معي في الجريدة، وهو من أصدقاء محمد، في حيّ الميدان. أتذكر هذا التاريخ بدقة، لأنه تاريخ اليوم الذي ولدت فيه زهرتي الثانية، ابنتي لينا. وهكذا، وجدتني في هذا اليوم منهمكاً في الإشراف على انتقال محمد من حي ركن الدين في أقصى شمال المدينة إلى حي الميدان في جنوبها، وفي الإشراف على توفير ما يلزم لكي تضع زوجتي مولودها. قمت بهذا، فيما أنا منهمك أيضاً بعملي الكثير في مكتبي في جريدة **البعث**، ووسيلتي الوحيدة لإجراء الاتصالات اللازمة كانت هاتف الجريدة الذي أعرف أنه مراقب. فهل أدركت كم هي نافعة الخبرات التي اكتسبتها بعد أن مارست النشاط السياسي السري منذ كنت طفلاً؟!

وما أن استقر محمد في مأواه الجديد الذي انتقل إليه في ظلام المساء حتى خففت إلى زيارته. وهناك دار بيني وبين الصديق المختفي حديث طويل، وتسنى لي أن أعرف جملة من الأسرار الجديدة، وأجلو تفاصيل أسرار أخرى عرفتها من قبل.

أقرّ محمد بأن جماعته كانت منهمكة مع آخرين في إعداد عملية كبيرة هدفها إسقاط عهد ٢٣ شباط/فبراير بكامله. وليس استبدال بعض فرسانه بسليم حاطوم وحده. وقد تشكل لإنجاز العملية المتوخاة تحالف واسع ضم جماعات بعثية كثيرة ساخطة على العهد القائم. وكان بين ناس التحالف جماعة القيادة القومية المنحاة أو جماعة عفلق إن جاز التعبير. وكان الدكتور منيف الرزاز

وصلاح البيطار هما ممثلي الجماعة المدنيين في هذا التحالف. ولم يكن سليم حاطوم إلا واحداً من العسكريين الذين يستثمر التحالف الكبير طموحهم إلى السلطة من أجل زعزعة أركان العهد الذي ينبغي إسقاطه. وذكر محمد أن الإعداد للعملية بدأ منذ شهور. وفي سياق هذا الإعداد ومن أجل استكماله، بقي الدكتور الرزاز في دمشق ووفر نفوذ سليم الحماية له. وهذا النفوذ ذاته هو الذي مكن صلاح البيطار من الهرب من السجن والانتقال إلى بيروت كي يتولى الاتصالات الخارجية اللازمة لإنجاح العملية. وقال محمد إن سليم حاطوم ظل على الدوام يتعجل البدء بالتحرك لأنه خشي أن تُفتضح العملية إن طال الوقت. وعندما اعتقلت السلطات العقيد فهد الشاعر زعيم كتلة العسكريين الموالين للقيادة المنحاة، جُنَّ جنون سليم وحاول دفع التحالف إلى التحرك بما بقي لديه من قوى بعد خسارته للعقيد فهد والذين كشف أمرهم معه واقتيدوا إلى السجن. لكن التحالف احتاج إلى إعادة تنظيم صفوفه لتعويض الخسارة. وقد تولى محمد تهدئة سليم في كل وقت هاج فيه، فأظهر هذا الاستجابة، وذهب إلى كوبا في السفرة التي حدثتك عنها، فلما رجع واستقصى إمكانية التحرك قيل له إن الأوان لم يحن بعد وطولب بأن يصبّر نفسه ويكفّ عن الإلحاح.

هذه وتفاصيل أخرى كثيرة بسطها محمد أمامي برويّة، ثم جزم بأن تمرد سليم ليس سوى مغامرة أقدم عليها الرائد المتعجل دون أن يعلم قيادة التحالف الكبير. وقال محمد إنه فوجئ بما قام به سليم مفاجأة تامة، وخالط حديثه عن المفاجأة إحساس واضح بالاسترابة في دوافعها. وكان من رأي محدثي، وهو رأي وافقته عليه، أن التمرد المجهض قد أحبط إمكانية التحرك الأكبر فألغاها كليّة أو أجلها إلى مدى غير منظور.

وفي تقييم نتائج ما أقدم سليم عليه، اتفقنا على أن هذا المغامر أساء إلى أصحابه كلهم. واعترف محمد بأني كنت على حق حين حذرت من التعامل معه. واستحضرنا ما جهر الرائد به فور وصوله إلى الأردن حين أغفل أطروحاته اليسارية إغفالاً كاملاً ثم لم يجد ما يهاجم به السلطة السورية إلا القول بأن

قادتها اشتراكيون يخربُّون باشتراكيتهم البلد. واتفقنا اتفاقاً كاملاً في تصورنا، محمد وأنا، للمخاطر المريعة التي كان الجيش والبلد كله سيتعرضان لها لو أن هذا المغامر أفلح في قتل صلاح جديد ونور الدين الأتاسي.

عند هذه النقطة، عنت لي فكرة، قاربتها مقاربة في البداية، فلما آنست استجابة صديقي لها عرضتها بصراحة: لماذا يظل محمد مختفياً ومعرضاً للملاحقة، لماذا لا يتصرف بطريقة مختلفة ما دام غير ضالع في تمرد سليم حاطوم وغير مؤيد له؟ لماذا لا يسلم نفسه إلى السلطات؟ والواقع أن محمد لم يستصوب اقتراحي، فحسب، بل قال، أيضاً، إنه فكر بالإقدام على هذه الخطوة وهو مستعد للدفاع عن نفسه أمام متهميه، غير أنه يخشى ما يعرفه من سلوك أجهزة الأمن، فقد يقضي عليه التعذيب قبل أن يصدقوه. وبعد تقليب الأمر على وجوهه كافة، قبل محمد أن يسلم نفسه إلى القيادة القطرية، إذا توليت أنا ترتيب ما يلزم كي لا يتسلمه غيرها.

وهذا هو ما ذكرني بعرض صلاح جديد عليّ أن أتصل به إن احتجت إليه.

طلبت الرجل في مكتبه فقيل لي إنه ليس فيه، فأدرت رقم هاتف المنزل وأنا متهيب من إقلاقه في وقت راحته. وعندما انفتح الخط، جاء صوت صلاح جديد الذي أعرفه. وبادر هو إلى سؤالي عما يستطيع أن يفعله من أجلي، فتشجعت، وطلبت أن يخصص نصف ساعة من وقته لخلوة نكون فيها وحدنا، وعبرت عن أملي بأن نلتقي بأعجل ما يمكن. وجاء الرد: «خير البرّ عاجله». وبعد دقائق، كنت في السيارة المخصصة لصلاح جديد بوصفه الأمين العام المساعد لسرّ القيادة القطرية، في طريقي إلى منزله. وكان هذا شقة من النوع الذي يمكن لأي مقدم في الجيش أن يظفر بمثله، وقد حظيت فيها باستقبال ودي.

علي أن أذكرك بأني كنت عضوا في حزب البعث الذي يشغل فيه مضيفي مركز القمة وأن حال البلد لم يكن قد هدأ بعد تمرد سليم، وأن عملية تصفية جيوب أنصاره والبحث عن المطلوبين ما زالت جارية. ولو أني راعيت هذا

الوضع وحده لما جرؤت على نقل رسالة من متهم مطلوب إلى طالبه، ولحسبت حساب أن يسألني القائد الذي قصدته عن الطريقة التي حصلت بها على الرسالة. لكني لم أخش في الواقع أي شيء، ليس لخفة في طبعي أو استهانة بالعواقب، بل لأن شيئاً في داخلي جعلني أجزم بأن الرجل لن يقلقني بالأسئلة ولن يخيّب ثقتي به.

صاغ محمد عرضه تسليم نفسه للقيادة في رسالة كتبها بخط يده. وقد تشاورنا، هو وأنا، حول الصياغة، فجاءت الرسالة موجزة لم تتعد بضعة أسطر. هذه الرسالة ناولتها لمضيفي دون تمهيد. فقرأها الرجل في لحظة ثم وضعها على منضدة صغيرة بجانب مقعده، وقال بعض عبارات أشاد فيها بقدرات محمد الشخصية وكفاءته السياسية، دون أن يتعرض لموقفه المعارض. وعن موضوع الرسالة، قال الرجل إنه سوف يعرض الأمر على القيادة القطرية لتقرر بشأنه ما تراه.

استغرق موضوع محمد أقل من خمس دقائق. غير أن اللقاء امتدّ قرابة ساعة بعد ذلك، دون أن يجيء صلاح جديد على ذكر ذلك الموضوع ثانية. كنت إزاء مضيف ودود، يخدم زائره بنفسه. ويستقصي أحوال الزائر الصحية والمعاشية، ويتبادل معه الرأي حول شتى الشؤون، ويبدو متواضعاً في حديثه وسلوكه، ولكنه لا يلزم نفسه بشيء إزاء الموضوع الذي لا يشغلني سواه. ولما استفسرت عما يمكن أن أتوقعه بشأن صديقي كرر أبو أسامة القول بأنه سيعرض الأمر على القيادة، ولم يزد عليه. وبعد الزيارة، لم أسمع شيئاً عن الرسالة أو العرض الذي فيها، لا من صلاح جديد ولا من أيما أحد في القيادة. وغلب عليّ الظن بأن المسؤول الذي ليس من صفاته الخفة كان يؤثر أن يبقى هذا الفلسطيني حيث حبس هو نفسه بنفسه. ولا بدّ من أن صلاح جديد قد عرف طبيعة الدور الذي لعبه محمد واستخلص أن من الأفضل إبقاءه معزولاً في مخبئه بدل تحمل مسؤولية اعتقاله.

لقد مزج صلاح جديد في شخصيته مزجاً غريباً بين البراغماتية والمبدئية، تماماً كما مزج بين الحلم والواقع. وكان هذا مزيجاً لم ينتج توليفة جديدة، بل أبقى التمايز بين المتضادات. وأنا عاجز عن أن أجد تفسيراً مقنعاً لظاهرة حيرتني: كان صلاح جديد يفعل كل ما هو لازم لتقتنع بأنه أهل للثقة وكنت تثق به، ثم يقع منه شيء ما غالباً ما تكون دلالته غامضة إلا أنه كافٍ لحملك على مراجعة موقفك من الرجل، دون أن تكون على يقين من أنه لا يستحق الثقة. ولو سألتني عن مشاعري تجاه الرجل الذي لعب دوراً حاسماً في سورية والمنطقة لبضع سنوات ووقعت في عهد سلطته أهم الحروب العربية - الإسرائيلية، لقلت لك إني أحببت الرجل دون أن أصير على يقين من أنه يستحق هذا الحب، واحترمته ووثقت به دون أن أركن إليه كلية، وتمتعت بحمايته دون أن أثق بأني نجوت من أذاه. وقد أيّدت كثيراً من سياسات صلاح جديد دون أن أتأكد من أني مصيب. وعارضت سياسات أخرى غير واثق من أنه هو حقاً الذي يستحق اللوم بسببها. كان هذا رجلاً يحيرك أمره دون أن تضع اليد على سبب الحيرة.

بقي أن تعرف أن موقفي من سليم حاطوم وفر لي بعض الشهرة بوصفي بعيد النظر عميق المعرفة بنفسيات الأفاكين. نبيه ارشيدات أظهر استسلامه لرأيي ببراءة: «البعثيون محيرون. رفاقك، وأنت أعرف بهم». وأصحابي من جماعة اليسار القديمة كفّوا عن إطلاعي على محاولاتهم التي لم يكفّوا عنها مع عسكريين آخرين. وفي ذاكرتي من هذا السياق واقعة بطلها أجنبي هو صديقي الفرد مارتر، وهو من كان أول قنصل عام لجمهورية ألمانيا الديمقراطية في سورية قبل أن يقيم البلدان علاقات دبلوماسية كاملة بينهما. فقد دعاني هذا الدبلوماسي إلى الغداء قبل أيام من تمرد سليم، ولأمر ما أرسل الدعوة عبر دائرة المراسم في وزارة الخارجية واختار مطعماً مشهوراً لنلتقي فيه، وجاء إلى المطعم ومعه الملحق الثقافي للقنصلية الذي يتقن العربية ليقوم بالترجمة. قال الفرد إنه فعل هذا كي لا أحسّ أنا بأي حرج، وأفهمني أنه

مسافر في اليوم التالي في إجازة إلى برلين وهو مطالب بأن يقدم تقريره إلى وزارة خارجية بلده عن الأحوال في سورية. وذكر ألفرد أنه يعرف حساسيتي إزاء الإدلاء بمعلومات، فهو لا يطلب معلومات، بل يطلب رأيي في تقييم معلومات جمعها هو. وعرض الفرد ما توفر لديه من معلومات عن تحركات سليم حاطوم، فاتضح أنه يعرف أن هذا الضابط يعد لانقلاب. وشاء أن يسمع مني تقديري لفرص نجاحه. لقد أعجبتني، بالطبع، ثقة هذا الدبلوماسي بأني قادر على إعطاء الرأي الصحيح، فذكرت له ما أتوقعه وهو أن تفشل محاولات سليم. وعندما رجع الفرد من إجازته، كان سليم قد قام بتمرده وقضي عليه.

لقد بقي الفرد مارتر في سورية بعد ذلك لعدّة سنوات، وصار أول سفير لبلده فيها منذ اعترفت سورية اعترافاً كاملاً بجمهورية ألمانيا الديمقراطية. وبقي هو خلال هذه السنوات على اعتقاده بأني أملك القدرة على التحليل السياسي الصحيح. وكان الفرد يقول كلما جاء على ذكري إني صديق مخلص للدول الاشتراكية وإني لا أغش أصدقائي أبداً. وكان الرجل في هذا محقاً تماماً.

تلك هي الأوقات التي صار يشار إلي خلالها بوصفي واحداً من أكثر الصحافيين الجدد كفاءة وأوسعهم معرفة وأشدّهم حرصاً على التميز. لم يكن هذا لأني تمتعت فعلاً بمزايا غير عادية، إذ أني جئت إلى الإعلام دون دراسة، ودون معرفة يعتد بها بمتطلبات المهنة. كل ما في الأمر أني قاومت السياسة التي حولت الإعلام إلى أجهزة تخدم اتجاهاً واحداً وتتحول إلى غيره كلما تبدلت قمة السلطة ولا تعرف التعددية. كانت هذه سياسة لا تتصور في الإعلاميين إلا قطيعاً ينبغي أن يظل مطواعاً لكل من يعتلي قمة السلطة. وقد حاولت أنا أن أظل إنساناً لا يسلم ظهره للذين يركبون ظهر السلطة. وكنت في هذا وحده من المتميزين.

١٤ استعرضت معلوماتي عن الماركسية أمام بلشفي عريق

في صيف العام ١٩٦٦، تسنى لي القيام برحلتي الأولى إلى أوروبا. لم تكن هذه هي الفرصة الأولى التي أتيحت لي، لكنها الأولى التي اغتنمتها. فقبل هذه الفرصة، لاحت فرص كثيرة، أو قل: وجهت إلي دعوات عديدة، لكني رفضتها في سياق حرصي على التميز لكي لا أظهر بمظهر المتهافت، وكنت أتذرع بكثرة المشاغل. وهناك دعوات رفضتها لأن ضميري لم يستسغها. وأنا أتذكر على الدوام فرصة مغرية فوتها على نفسي ثم ندمت بعد ذلك ندماً ما زال يعاودني إلى الآن. جاءت الدعوة من السفير الأمريكي في دمشق. لا أتذكر اسم هذا السفير، لكني أتذكر أنه كان أسود لون الجلد. وقد سعى الرجل منذ حلّ في دمشق إلى تحسين صورة الإدارة الأمريكية وتوخى الظهور بمظهر الأمريكي الديمقراطي، المتواضع، الساعي إلى التعاون مع الجميع، وثابر على إقامة علاقات شخصية مع الأوساط السياسية والثقافية والاجتماعية.

وفي لقاء مع العقيد عبد الكريم الجندي، شكى الرجل من حدّة البغض الذي يحيط بالدبلوماسيين الأمريكيين ونسب هذا البغض إلى التحريض المتعمد الذي تبثّه الأجهزة الحكومية. وطلب السفير من الجندي أن تُباح له حريّة التجول والاتصال بالناس دون التزام القيود المفروضة على حركة الدبلوماسيين. بل إن السفير تحدى مسؤول الأمن هذا، فقال إنه واثق من أن الشعب السوري

لا يجاري حكومته في كرهها للأمريكيين ولو أتيحت له هو السفير الأمريكي فرص الاتصال الحر بالناس فسوف يثبت هذه الحقيقة. والذي حدث أن العقيد الجندي قبل التحدي وأذن للسفير أن يتجول كما يشاء ويتصل بمن يريد، دون حاجة إلى التقيد بمتطلبات البروتوكول.

في هذا السياق، بهدف تفحص أسباب البغض، جاء السفير إلى **البعث** ومعه مترجمه الخاص. جاء الرجل كما قال محاوراً وليس مجاملاً وأبدى رغبته في أن يلتقي أكبر عدد ممكن من المحررين. وقد توخيت في النقاش مع هذا السفير أن أبيّن أن البغض الذي يشكو هو منه موجه ضد الإدارة الأمريكية وسياستها وليس ضد الشعب الأمريكي وأن في سياسة الإدارة ما يسوّغ البغض وينمّيه. وعندما طالبني السفير بأن أورد أمثلة، كان من الطبيعي أن أبدأ بذكر الموقف الأمريكي من القضية الفلسطينية وانحيازه لإسرائيل. وكان السفير قد جوبه بهذا الموضوع في كل مكان ذهب إليه في طول البلاد وعرضها، وكان ردة جاهزاً: «أنا سفير الولايات المتحدة في سورية وليس في إسرائيل ومن شأني أن أوضح ما يتصل بالموقف الأمريكي من سورية وليس من إسرائيل». وعنى هذا الرد أن يتشعب النقاش. وقد اضطررت للخوض في التفاصيل التي تعرفها عن صلات البلاد العربية بعضها ببعض وصلة سورية خصوصاً بفلسطين. وقادني هذا إلى ذكر النهب الذي تمارسه الولايات المتحدة للنفط العربي. فتذرع السفير مرة أخرى بأن الموضوع يقع خارج اختصاصه، وقال إن الولايات المتحدة عرضت أكثر من مرة أن تساعد سورية في البحث عن النفط في أراضيها وأن سورية هي التي رفضت. لم أملك أن أكظم غيظي إزاء تملص السفير من مناقشة الموضوعات الحساسة، فلم أعد أناقش بل صرت أهاجم السياسة الأمريكية وكل ما يمتّ إليها بأي صلة في أي مكان، ولا يزيد هو عن تكرار القول: هذا خارج اختصاصي.

كنت حتى قبل اللقاء مع هذا السفير أعد اختيار الإدارة له، هو المنحدر من أصل أفريقي، محاولة للتضليل وكان هذا يغيظني. فلما ازداد غيظي منه

بسبب طريقته في النقاش، وجدتني أقول: «وددت لو أني قادر على سؤالك عن أعمال التمييز العنصري القبيحة التي يتعرض الملونون لها في البلد الذي تمثله، غير أني أخشى أن تقول، هنا أيضاً، إن الأمر لا يعنيك». ولدهشتي، قال الرجل إنه بالفعل لا يود الخوض في هذا الشأن الأمريكي الداخلي، وإذا كان عليه أن يقدم أي إيضاح فلي أن أعرف أن الإدارة الأمريكية تعمل الكثير وتنفق بلايين الدولارات لمكافحة التمييز العنصري ولتحسين أحوال الملونين. وبعد الإيضاح، قال السفير ما بدا لي أنه قول عرضي: «لك أن تزور الولايات المتحدة وتتحقق من هذا بنفسك». فقلت: «هناك أمور كثيرة أود لو أمكن أن أتحقق منها».

تبيّن بعد ذلك أن السفير الأمريكي كان يقدم عرضاً وأنه استخلص من إجابتي أني قبلت العرض.

حمل إليّ البريد دعوة من هذا السفير إلى حفلة شواء «باربيكيو» مقامة في حديقة السفارة احتفاء بإحدى المناسبات الأمريكية فلبيت الدعوة. وكان السفير بين مستقبلي الضيوف عند المدخل، وكانوا هناك يزوّدون كل مدعو باسم غير اسمه مستعار من أسماء نجوم السياسة والثقافة. وقد اختار لي السفير بنفسه اسم الأمير فيصل، وهو من كان وليّ عهد السعودية وملكها غير المتوج. وعلق السفير الاسم على ياقة سترتي وهو يمازحني كأننا أصحاب قديمون. ثم لم تنقض سوى بضعة أسابيع حتى حمل البريد إلي رسالة من السفير مرفقة بالدعوة التي حدثتك عنها. توسط الرجل لدى جهة أمريكية سماها هو في رسالته ولعلها كانت «أصدقاء الشرق الأوسط» فوجهت هذه الجهة دعوة لي لجولة ثلاثة شهور في الولايات المتحدة وتكلفت تغطية النفقات الكاملة مع مصروف الجيب.

أطلعت رئيس التحرير على الدعوة، فلم يفدني برأي قاطع، بل اكتفى بأن قال: «أنت أدرى بمصلحتك». وسألت عضو القيادة القومية المسؤول عن شؤون

الإعلام فوعد بأن يدرس الأمر ويبلغ إلي قراره. وتشاورت مع أصدقائي، فحثني بعضهم على اغتنام الفرصة. أما نبيه ارشيدات فتردد ومسّ ما كان يشغل بالي: «عليك أن تقيس الأمر بمدى تأثير الزيارة على سمعتك هنا!» وبعد أيام، أعلنت أني لا أقبل الدعوة إلى زيارة البلد الذي يعتدي على فيتنام، والذي... والذي...، وعددت كل ما آخذه على السياسة الأمريكية. ولك أن تعرف أني أحسست وقتها بالراحة. وصرت أقارن نفسي، بيني وبين نفسي، بجان بول سارتر الذي منحت له جائزة نوبل فرفضها.

دعوة أخرى أتذكر أني رفضتها دون أن أندم. كانت هذه دعوة جاءت من اليونان، من وزارة الإعلام في عهد حكم الجنرالات. كان الحكم اليوناني العسكري عالقاً في مشاكل مع الولايات المتحدة ولم يظهر العواطف المألوفة التي يظهرها الغربيون تجاه إسرائيل، فتصرف البعثيون على أساس أن حكام اليونان العسكر معادون لإسرائيل والصهيونية والإمبريالية، وسعوا إلى تحسين العلاقات معهم. وفي هذا السياق، جاءت الدعوة. لم توجه الدعوة إلي باسمي، بل كان المطلوب صحافياً من كل مؤسسة إعلامية فرشحني ناجي الدراوشة لتمثيل **البعث** ونقل إلي النبأ متوقعاً أن أسعد به. وقد فوجئ رئيس التحرير حين قلت إني أعد ترشيحه إياي بمثابة إهانة، ثم فوجئ أكثر بحملتي على حكم جنرالات اليونان ورفضي أن أخالف النداءات التي أطلقها ديمقراطيو العالم كله لمقاطعتهم. وعلى قلة فطنته، فطن ناجي إلى أن رفضي سوف يسبب حرجاً للآخرين، فقلت قبل أن يتورط هو باتخاذ أي قرار: «ليكن هذا. فأنا أتمنى ألا يزور أيّ صحافي البلد الذي يقاطعه الشرق والغرب. وإذا أرغمت على المشاركة في الزيارة فإني أعد نفسي مستقيلاً».

أما الدعوة التي قبلتها فتسنى لي أن أقوم برحلتي الأولى إلى أوروبا، فقد جاءت من بلغاريا. كان الملحق الثقافي البلغاري في دمشق، واسمه ديمتروف معجباً بي حتى ليكاد يعبدني، وقد عمل كل ما يمكن عمله ليتقرب مني، فكان يرسل إليّ المجلات والكتب، ويترقب أي مناسبة أو يختلق المناسبات ليجيئني

بالهدايا من التذكارات والمشروبات والمأكولات البلغارية أو يستضيفني في منزله، ويطرب حين أستضيفه، ويحرص على أن لا يفوتني حضور أي استقبال تقيمه سفارته. ديمتروف هذا جاء في ذات يوم متهلل الوجه وقال إن لديه دعوة لي لزيارة بلغاريا لمدّة أسبوع وإن الشاعر السوري محمد كامل صالح سيكون رفيقي في الزيارة. وكان محمد هذا هو من اشتهر لدى البلغار بترجمته لقصائد شاعرهم الكبير بوتيف إلى العربية. ولأن ديمتروف خشي أن أرفض الدعوة، فقد تعجل شرح مزاياها: أسبوع واحد، فلن أبتعد طويلاً عن مشاغلي، ولقاءات على المسؤولين وتمتع بجمال طبيعة بلغاريا الساحر. وأخفى ديمتروف عني أمرين كان من شأن أي منهما أن يحملني على الرفض: أخفى أن الدعوة موجهة من مؤسسة السياحة «بلكان توريست» كما أخفى أنها ليست موجهة إلينا نحن الاثنين باسمينا، بل إلى أي اثنين وأنه هو الذي اختارنا. شيء آخر أخفاه ديمتروف وهو أن اثنين من الصحافيين اللبنانيين سيشتركانِ في الرحلة.

عرفت أول ما خفي حين انضم اللبنانيان إلينا في مطار دمشق. سأسمي أول الاثنين س. وهو من كان رئيس تحرير أسبوعية يصدرها حزب لبناني اشتراكي. أما الثاني فكان رياض ملحم. وقد اصطحب كل من اللبنانيين زوجته بالرغم من أن الداعين لم يحسبوا حساب الزوجات. وفي الطائرة البلغارية المتجهة إلى صوفيا، عرفت من س. أننا مدعوون من بلكان توريست وسنقضي معظم أيام أسبوع الزيارة على شاطئ البحر الأسود.

وفي الطائرة، أيضاً، أدركت أني وقعت على صحبة ثقيلة. اجتذبني س. إلى صف ذي ثلاثة مقاعد، فجلس هو بجوار النافذة، وجلست أنا بجوار الممر، وشغلت زوجته المقعد الأوسط. وهكذا، صار علي أن أصغي إلى الرجل وزوجته طيلة ثلاث ساعات، فإذا أنا إزاء فيض كلام لا يتوقف. كان جليساي ثرثارين، وكانت الزوجة حريصة على الإدلال عليّ بما تظن أنه يدهشني أو يثير حسدي. وهكذا، عرفت أن زوجة س. هي ابنة عائلة كبيرة وغنية، أرقى بكثير من عائلة

الزوج وأغنى. وعرفت أن هذه المرأة درست في أرقى المدارس، وألفت التردد على أندية المجتمع المترفة وفازت قبل عدد من السنين لم تحدده بلقب ملكة جمال. وفي كل ما قالته هذه المرأة لي حرصت على إفهامي أن س. محظوظ جداً لأنها زوجته وعليه ألا يكف عن توجيه الشكر لقدر القدر الذي أوقعه عليها. وكان س. يصغي إلى زوجته مؤمناً على ما تقوله لي أو محتفظاً بالصمت الأريب. أما هي فكانت تتأفف إزاء أي شيء يحكيه هو وتقاطعه إذا أغفل الإشادة بها. ولم تتعفف الزوجة عن لفت نظري إلى أن زوجها يفتقر إلى لباقة التعبير لأنه لم يحظ بالتربية الراقية (في اللهجة اللبنانية يلفظونها: الريئية) التي حظيت هي بها. أما زوجة رياض فكانت أقرب إلى البساطة وأقلّ صخباً واستغراقاً في الذات. غير أن وجود المرأتين معاً في مجتمع رجال وما يوجبه هذا الوضع من تنافس بلبلا أمورنا ليس خلال رحلة الطائرة، بل خلال أسبوع الزيارة كله.

أعدّ برنامج زيارتنا على أساس أن القادمين أربعة. وعلى هذا الأساس حجزت المقاعد في الطائرة التي ستقلنا من صوفيا إلى فارنا والحجرات في الفنادق التي سنقيم فيها والموائد في المطاعم. وبوصول ستة بدل أربعة، صار لا بدّ من تبديل كل الحجوزات. وكانت هذه هي أولى المشاكل التي انشغل بها مستقبلونا وشغلونا معهم منذ وصولنا. المشكلة الثانية، ارتبطت بالمرافق الموكل بنا. كان هذا شاباً وسيماً وظاهر الذكاء والحيوية. واتضح أن الشاب ابن لأسرة من ملاكي المصانع أمم النظام الاشتراكي مصنعها، وصار على الابن الذي مات أبواه أن يعمل ليعيل نفسه فاختار هذه المهنة، فهو يتقن الفرنسية والإنجليزية ويشوقه أن يحتك بالزوار الأجانب. وما كان لشاب له هذه الخلفية أن يخلص لنظام بلده الاشتراكي. ولسبب ما، ربما لقدومنا من سورية، استخلص ديمتري، وهذا هو اسم الشاب، أننا، محمد كامل وأنا، شيوعيان أو شيء من هذا القبيل فتجنب أن يخوض معنا أو أمامنا في أي حديث. ولما كان لدى ديمتري ما يرويه للغرباء، فقد وجد ضالته في الجماعة اللبنانية ليروي لها ما يرى هو أنه من شنائع بلده. وصار اللبنانيون في جدلنا

معهم حول مزايا النظام الاشتراكي يحاججوننا بما يستقونه من روايات المرافق البلغاري فنبدو نحن كأننا ملكيان أكثر من الملك، وكان الجدال يعذبني، دون أن يمكن تجنبه.

في هذا النحو، أمضينا ستة أيام على شواطئ البحر الأسود؛ ننتقل من فندق إلى غيره، ومن مطعم إلى آخر، ومن شاطئ مكتظ برواده إلى شاطئ أكثر اكتظاظاً، تصحبنا عقد المرافق وعقد زوجة س. فننشغل بما ينجم منهما من هموم وسخافات. ولم يتوفر لي من المعلومات عن البلد الذي أزوره لأول مرة ما يزيد على ما تحتويه النشرات السياحية. بل إن النشرات كان فيها تشويق افتقرت إليه الأحاديث الجامدة التي جلدنا بها كل من قابلناه من المسؤولين عن السياحة. فلم نتمتع بشيء ولم نجن فائدة. وفي اليوم الذي سبق يوم المغادرة، أرجعتنا الطائرة إلى صوفيا لنبيت ليلة ونتوجه في الصباح إلى الطائرة التي ستحملنا إلى دمشق. وكان ضيقي بالرحلة قد صار يخنقني، فما أن بلغنا الفندق حتى هتفت بصاحبي السوري: إلى الشوارع، بعيداً بقدر الإمكان!

وكما لا يحدث إلا في الحكايات، انبثق من إحدى العطفات رجل بلغاري نعرفه، محمد كامل صالح وأنا، ولا نتوقع في أي حال أن نراه ماشياً، هو الذي يشغل منصباً يعادل منصب الوزير.

كان هذا هو نائب رئيس لجنة الدولة للعلاقات الثقافية مع الخارج، وكان قد سبق له أن زار دمشق غير مرة والتقانا في كل مرة وتوثقت صلتنا به. وبوقوعنا على هذه اللقية في صوفيا، تبدل حالنا، أو قل: انقلب رأساً على عقب، أيضاً كما لا يحدث إلا في الحكايات. استمع المسؤول الثقافي إلى شكوانا، وفهم سبب ضيقنا وأدرك أو افترض أننا، وقد صرنا في بلغاريا، راغبان في التعرف على شؤونها السياسية والثقافية، وليس السياحية، والاطلاع على تجربة البناء الاشتراكي فيها. واقترح الرجل اقتراحاً قبلناه على الفور، فصرنا ضيفين على لجنته واتفقنا على أن نمضي أسبوعين آخرين في البلد الصديق.

لم نخبر زملاء الرحلة بما وقع لنا من حظ إلا في آخر لحظة، عند مغادرتهم الفندق. اندهش هؤلاء إزاء ما عدّوه قدرة خارقة للعادة، وأظن أنهم لم يصدقوا روايتنا عن الصدفة التي وضعتنا في طريق الرجل المسؤول. أما ديمتري، المرافق، فإنه لم يندهش فحسب، بل داهمته الهواجس أيضاً، فقد تثبت بهذا مما سبق أن استخلصه وهو أننا شيوعيان. وانضاف إليه الاعتقاد بأننا أيضاً ذوا مكانة عالية. ولما كان ديمتري قد باح بالكثير مما يسيء إلى نظام بلده، فقد خشي أن نعمل على الاقتصاص منه. وأظن أن وقتاً طويلاً مضى قبل أن تهدأ هواجس هذا الشاب. ولا أخفي عليك أن البلبلة التي لحقت بأصحابنا قد أطربتني بعد كلّ ما عانيته في صحبتهم.

بعد ديمتري المبغض للشيوعية الساخط على كلّ ما في النظام، رافقنا الشاب ميخاييل، عضو الكومسمول المفتون بكل شيء والمصمم على التأكد من مشاركتنا إياه في قناعته. وبعد الشواطئ والفنادق والمطاعم المتماثلة والأحاديث المملّة عن السياحة وأرقامها، تسنى لنا أن نتجول في مقاطعات عدة ونعاين تنوع طبيعتها ونجري في كل مكان حوارات سياسية وثقافية مشوقة ومفيدة.

زرنا، بين ما زرناه، المنطقة الجبلية التي شهدت نشاط بوتيف العسكري وهو يقود مقاومة شعبه للغزو التركي. فتهيأت الفرصة لرفيق الرحلة أبو كمال كي يشهد مكان المعركة التي انتصر بوتيف فيها على الأتراك. كان أبو كمال، مثله في هذا مثل بوتيف، عقيداً في الجيش قبل أن يسرح منه في عهد وحدة مصر وسورية، وكان، مثل بوتيف أيضاً، شاعراً، فاستمتع بهذه الزيارة. كما زرنا المنطقة التي ولد فيها الشاعر فبتزاروف، وهي المنطقة التي شهدت نشاط هذا الشاعر الشاب ضد الاحتلال النازي لبلده قبل أن يعتقله النازيون ويعدموه.

والطريف أن برنامج زيارتنا تضمن لقاء مع الشاعرة الكبيرة التي يحملها معظم البلغاريين مسؤولية التسبب في إعدام هذا الشاعر. أتحدث عن بغرايانا، الشاعرة الشهيرة، وهي شاعرة مخضرمة وامرأة فاتنة. شهدت هذه المرأة

العهد الملكي، وقيل إنها كانت عشيقة للملك، ثم شهدت العهد الجمهوري. وعندما احتلّ النازيون بلغاريا، كانت بغرايانا قد صارت شخصية يُعتدّ بها في حياة البلاد الثقافية. فلما وقع فبتزاروف في أيدي النازيين وعرّف على نفسه بأنه شاعر، سأل هؤلاء بغرايانا عنه فأنكرت الشاعرة الكبيرة معرفتها بالشاعر الشاب. وساد الاعتقاد بأن إنكارها سهل على النازيين تنفيذ حكم الإعدام. وحين لقيتها، كانت هذه المرأة في الثانية والسبعين، وبدت لي لطيفة المعشر عذبة الحديث، وكان جمالها المشهور وأرستقراطيتها الغابرة ما يزالان يطبعان بطابعهما الأنيق وجهها وقوامها وسلوكها. وقد قيل لي، أنا الذي لم أقرأ شيئاً لها، إن بغرايانا كتبت شعراً جميلاً في العهد الاشتراكي وأيدت هذا العهد، كما في العهدين السابقين.

كان برنامج زيارتنا حافلاً بالنشاط. قابلنا كثيرين، نساء ورجالاً، من الوسط الثقافي، رسامين وقصاصين وشعراء ونقاداً، ومن الوسط السياسي، نواباً ووزراء وقادة أحزاب ورؤساء نقابات. وأتيح لنا أن نمضي يوماً في مصنع ويوماً آخر في مزرعة تعاونية. كما أتيح لي بناء على طلبي أن أقابل رئيس الجبهة الوطنية البلغارية ورئيسة لجنة النساء البلغاريات وأجري أحاديث مطولة وصريحة مع كل منهما. وكان هذا كلّه رائعاً ومفيداً.

في هذه الأثناء، واجهتنا مشكلة هيأ لي البحث عن حل لها التعرف على عدد من العرب المقيمين في صوفيا ومنهم اثنان لم أنسهما أبداً بعد ذلك. وكانت تلك هي مشكلة الترجمة بيننا وبين الذين نحاورهم. فاللجنة التي استضافتنا تعرف أن محمد كامل صالح ترجم أشعار بوتيف عن الفرنسية، وليس عن البلغارية مباشرة، وقد قيل لها إني أنا أعرف الإنجليزية فانتقت المرافق ميخاييل الذي يتحدث اللغتين. لكن، اتضح أن صاحبي مترجم بوتيف عن الفرنسية يقرأ هذه اللغة دون أن يتحدثها أو يجرؤ على استخدامها في أي حديث. أما إنجليزيتي فكانت مسعفة إذا تعلق الأمر بإدارة أحاديث عادية، كما هو الحال في الشأن السياحي، وليس في ما هو أكثر من هذا. وهكذا، بحثنا عن

مساعدة، فجاءنا العون من هذين الشخصين.

كان في صوفيا الشاعر العراقي الشاب رشيد ياسين، وهو من أصدقاء محمد كامل، فلجأنا إليه. أقام رشيد فترة في دمشق وتعرف على أدبائها، ومنهم رفيق رحلتي، ثم انتقل إلى صوفيا ليدرس في جامعتها وأتقن البلغارية اتقاناً لم يبلغه من العرب الذين أعرفهم أحد غيره. وكان رشيد حين جئنا إلى بلغاريا أحد العاملين في برنامج إذاعتها باللغة العربية، ولم يكن العمل يستغرق من وقته إلا أقلّه، فكان لديه الوقت الكافي للاهتمام بنا وحل مشكلتنا. غير أن رشيد ذاته كان مشكلة، فقد رأى في الترجمة عملاً يحط من قدره هو الذي يعد نفسه أهم من أن يقتصر دوره عليها. وهكذا، لم يكتف رشيد بالترجمة بيننا وبين الذين نحاورهم، بل كان يبيح لنفسه الدخول في حوارات على هذا الجانب أو ذاك والإدلاء بآرائه في المواضيع التي يدور الحديث حولها. ولك أن تتصور وضعاً يدخل رشيد فيه في حوار معنا بالعربية وحوار مع نظرائنا بالبلغارية دون أن نعرف نحن أو هم ما الذي يقال على الجانب الآخر. ولكي يكون تصورك للوضع أقرب إلى واقعه، علي أن أضيف أن رشيد واحد من الناس الذين لا يعجبهم شيء، وهو يملك مقدرة خارقة للعادة على استخراج ما يسوء من أي شيء يراه أو قول يسمعه، ولا يتهيب الجهر برأيه في أي حال من الأحوال.

وهاأنذا أتذكر ما فعله رشيد في لقائنا مع رئيس اتحاد الكتاب البلغار. كان هذا كاتب مسرح، وكانت له أهمية كبيرة في بلده، وكان هو معتداً بنفسه ودوره وقد تميز بأنه أول كاتب بلغاري كتب شيئاً ضد ستالين أيام كان رجل الاتحاد السوفييتي القوي ما يزال حياً. ولم يكن لدى رشيد ما يثير سخطه أو ما يتعذر التحكم به من سخط حين يتعلق الأمر بما كتبه هذا الكاتب. أما ما أثار رشيد فكان الاستقبال البيروقراطي الذي أعد لنا، وأما ما أخرجه عن طوره فهو وجود عدد من النقاد في اللقاء ممن لم يفعلوا شيئاً سوى التطبيب على ما يقوله رئيسهم أو التدخل في حوارنا معه ليشيدوا بإنجازاته. ولما كنّا

قد رجونا رشيد ان لا يعرضنا للحرج في مجلس رئيس اتحاد الكتاب، فقد صبّر نفسه ما استطاع الصبر. لكن صبر رشيد لم يدم، إذ ما لبث أن انفجر في وجوهنا بالعربية: «نقاد وضعاء، ولقاء تافه لا يستحق أن نضيع وقتنا فيه»، ثم اشتبك مع هؤلاء النقاد بالبلغارية وعلا صياحه.

الشخص الآخر الذي اهتم بنا وانتهى إلى أن يصير الوحيد الذي نركن إليه كلما احتجنا إلى ترجمة لا تشوهها النزوات هو أحمد الغفري. تعامل أحمد معنا بدافع القيام بالواجب في المقام الأول، فهو شيوعي ومن واجب الشيوعي أن يساعد أمثالنا ويجعل زيارتهم للبلد الاشتراكي نافعة. وكان أحمد يتقن البلغارية ويعرف البلد جيداً، تماماً كما يعرف متى ينبغي أن يدخل على خط الحديث الذي يترجمه فيضيء نقطة هنا أو أخرى هناك فيساعد على أن يفهم المتحاورون بعضهم بعضاً في صورة أجلى. وعلى عكس رشيد، كان أحمد منظماً إلى درجة مدهشة وجمّ التهذيب، وكان يأخذ كل شيء بجدية دون أن يتزمت.

هل قضينا الوقت كله في نشاطات جادة، ألم نسع إلى الترويح عن النفس؟ بلى! فقد كانت الأماسي أمامنا بطولها، حيث لا عمل ولا مواعيد. وقد تقت إلى أن أفعل ما يفعله الآخرون حين يسافرون إلى أوروبا، فحاولت أن أغوي أي امرأة لتصير لي مغامرة أتحدث عنها. بدأت المحاولة على الشاطئ. ومع وجود ألوف النساء، لم تتيسر الفرصة، ليس لأني قصرت في السعي بل أنها انسدّت في وجهي، ربما بالصدفة. فلما امتدّ المقام في بلغاريا صار التوق إلى الاختلاء بامرأة حاجة مقلقة، بالنسبة لي، كما هي بالنسبة لزميلي، حاجة غلاّبة. وظهر تأثير هذه الحاجة في سلوكنا، حتى أن رشيد نفسه أشفق علينا. وانتهى بنا الأمر، على ما نفترضه لأنفسنا من مكانة ونصطنعه من وقار، إلى اتباع ما يقوم به المتبطلون حين يبحثون عن صحبة أنيسة. فانضممنا إلى سيل الناس من الجنسين الذين يتمشون في شارع ديمتروف في المساء ويتصيدون الفرص. وقد ألقينا شباكنا، مساء، وثانياً، وثالثاً واستخدمنا

الإنجليزية وساعدنا رشيد بالبلغارية، دون طائل.

وفي رابع أيام تصيدنا الخائب، وهو اليوم الثامن عشر أو التاسع عشر لوجودنا في بلغاريا، وقعنا على متنزهتين ترجم رشيد لهما رغبتنا في قضاء الأمسية معهما فقبلتا، فكاد صوابنا يطير، بالمعنى الحرفي للكلمة، من الدهشة قبل أن يطيّره الفرح. وتعجلنا اقتياد الفتاتين ناحية سيارة الموسكوفيتش العتيقة التي يملكها رشيد. وكنا قد بلغنا السيارة حين وقفت سيارة مرسيدس فخمة وأشار راكباها إلى الفتاتين فاندفعتا إليها اندفاعاً أنساهما أن تعتذرا لنا.

ركبت الفتاتان المرسيدس وضاعت الفرصة. وركِبَنا اليأس فركبنا الموسكوفيتش. ولحظة أن صرنا في الساحة التي ينتهي عندها الشارع، وهي الساحة التي يتصدرها مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وقع نظري على فتاتين تتمشيان على الرصيف قرب هذا المبنى. لوحت بيدي، ربما بحكم ما صار عادة، وإذا بالفتاتين تجيبان معاً بتلويحة مرحة وابتسامتين. فصرخت برشيد أن قف! ولما تذرع هو باستحالة الوقوف في الساحة، وخصوصاً أمام مبنى قيادة الحزب، جلجل صوتي بشتيمة أوقفت رشيد وسيارته.

اتضح أن الفتاتين أختان كانتا في الطريق إلى منزل الأسرة بعد أن فرغتا من عمل نهارهما؛ كبراهما مساعدة مهندس في مهنة ما، والصغرى، هذه التي اجتذبتني ملامحها الغجرية الصارخة، مزينة في صالون تجميل. كانت ذات الملامح الغجرية تعرف كلمات إنجليزية التقطتها من زبائن الصالون الأجانب، فكان هذا سبباً كافياً لأستأثر بها، فيما بدأ زميلي محاولاته لاجتذاب الفتاة الأخرى. ولم تكن هذه تعرف غير البلغارية، فترتب على رشيد، المأزوم، والمتوتر، والكاره لما يقوم به، أن يتولى الترجمة. وقد تعجل رشيد إيواءنا في مطعم، واختار مطعماً لا يرتاده الناس الوقورون الذين يتعامل هو معهم. وكان المطعم مكوناً من مقصورات، فاختار رشيد أكثرها عزلة وأبعدها عن عيون المتلصصين، وتيقن بنفسه من إحكام الستار على مدخلها ونافذتها، ثم أمر

بأن يجيئونا بالشراب والطعام دفعة واحدة.

لم تكن الفتاة التي استأثرت أنا بها جذابة فحسب. بل مرحة أيضاً وذكية. وقد عوضنا هذا غياب اللغة المشتركة، فانصرفنا لما شرعنا فيه ولم نول ما يحيط بنا إلا أقل الانتباه. أما صاحبي أبو كمال، فقد لجأ إلى ما تصور أنه مدهش، فراح يستحضر الطرائف التي قرأها في كتب العرب ويبدو سعيداً إذا اكتشف أن ذاكرته تحتفظ بالكثير منها، وكان ينتقي من هذه الطرائف ما يتضمن معاني جنسية، ملغزة أو سافرة فيرويها ثم يهيب برشيد: «ترجم يا رشيد!» وكان رشيد يلوي رأسه نصف مستجيب، ثم يترجم وهو لا يخفي برمه: «سئلت أعرابية ما أحبّ الأسماء إليك، فقالت: زبير، فقيل: لم؟ فقالت...» إلى آخر ما قالته أعرابية مولعة بالتلاعب بالألفاظ. ولما احتجّ رشيد بأن هذه نكتة لفظية تتعذر ترجمتها، ابتسم أبو كمال ابتسامة الطامع في سعة صدر صديقه وقال: «سلامة فهمك، اشرحها لها!»

وفجأة، وقع ما اجتذب انتباهي كله: كان رشيد يصرخ في وجه مساعدة المهندس بالبلغارية كأنه يطلق قذائف رشاش والفتاة تصرخ في وجهه بما لا بدّ من أن يكون الرد على قذائفه، وأبو كمال واجم وهو يردد: «اهدأ يا رشيد!» ثم قالت الحانقة شيئاً لأختها، فجمعت الفتاتان أشياءهما وانفلتتا من المقصورة دون تحية وداع. ولم أدر ما الذي يمكن عمله. ولكن خوفي من ضياع الفرصة السانحة دفعني إلى اللحاق بالفتاتين. وبالكلمات الإنجليزية القليلة، أمكن، وليس بدون مشقة، أن نصل إلى تفاهم: أتخلى عن صاحبي فتصحبني الفتاتان إلى منزل الأسرة وليس إلى مكان آخر. ولما رجعت إلى المقصورة لأودع صاحبيّ، استوضحت رشيد سر انفجاره المباغت، فهل تريد أن تعرفه؟ لقد أذنت الفتاة لنفسها بأن تخاطب رشيد بصيغة المفرد: «نصف المومس هذه، من هي حتى تخاطبني بصيغة المفرد!» ولم أجد ما أقوله. فانصرفت صامتاً. وفي منزل الأسرة وجدنا والدي الفتاتين نائمين فترتب أن نمضي الوقت على العتبة أمام المنزل حتى لا نقلق نومهما. وهناك، مع غياب اللغة المسعفة دار الحديث

بمشقة، لكنه استمر حتى الصباح، ولك أن تعرف أنه كان حديثاً جاداً!

بعد عودتي من هذه الزيارة، كتبت مقالاً سياسياً عن بلغاريا، ركزت فيه على تجربة جبهتها الوطنية وذلك لاعتقادي أن سورية بحاجة إلى مثل هذه الجبهة. وفي صفحة في الجريدة غير مخصصة للسياسة، كتبت شيئاً عن زيارتي للمخيم الدولي للأطفال في بلغاريا. ولم أكتب غير هذا، فشؤون السياحة لا تجتذبني، والنقد الأدبي لا يقع في حقل اختصاصاتي. أما صديقي ديمتروف، هذا الذي ورطني في الرحلة السياحية، فقد سمع مني عتاباً مرّاً، ولم آذن له بعدها بأن يتبسط معي.

الرحلة التالية الى أوروبا حملتني الى سُرتها، الى برلين وجمهورية ألمانيا الديمقراطية. وهنا اختلف معي كل شيء: الطقس، والناس، والخبرات، وبدا كل شيء أدعى الى اجتذاب انتباهي.

تلقيت الدعوة إلى الزيارة عندما رجع ألفرد مارتر من زيارته إلى عاصمة بلده، وقمت بها بعد ذلك بشهر، فتوفر لدي وقت كاف لإعداد نفسي. قرأت الكثير زيادة عما كنت قرأته من قبل عن ألمانيا وتاريخها وشؤونها الجارية. وتفحصت برنامج الزيارة الذي جاء ألفرد به، وأدخلت عليه ما طاب لي أن أضيفه حتى صار مطابقاً لرغباتي. وفي المطار في دمشق علمت أن طائرة «انترفلوك» التي سأستقلّها إلى برلين ستقلّ وفداً بعثياً فيه خمسة عشر رفيقاً من أعضاء قيادات الفروع في الحزب، وأراحني أن أعرف أنهم مدعوون من جهة ألمانية غير التي دعتني. وفي مطار برلين الشرقية الذي بلغناه متأخرين عن الموعد المقرر أربع ساعات، جرى للوفد الحزبي استقبال حاشد عند سلم الطائرة. واختلط الأمر على المستقبلين فظنوا أني من أعضاء الوفد. فلما أوضحت أمري، أشاروا هم إلى سيدتين تقفان بمعزل عن الحشد وتتفحصان وجوه القادمين فتوجهت إليهما.

رأتني السيدتان وأنا أهبط سلم الطائرة فلم يخطر لهما أن الشاب الأشقر

الذي لا يبلغ الثلاثين هو الصحافي القادم من الشرق والذي تتوقعان وصوله والذي قيل لهما إنه صحافي ذو أهمية. كانت إحدى السيدتين هي فراو فوكس، أي السيدة فوكس، وهذا كما ترى اسم سهل التقطته للتوّ ثم لم أنسه، وكانت هذه السيدة هي أمينة سر الجمعية العربية الألمانية التي تستضيفني. أما الثانية فاسمها الأول هو وحده السهل، وهو نينا، اما اسم عائلتها فقد احتجت لوقت طويل حتى أتثبت من صحة التقاطي له وأتمكن من لفظه لفظاً صحيحاً. والواقع أن ما لفت نظري في هذه السيدة، لم يكن اسمها المألوف أو اسم عائلتها الغريب، بل الشبه الشديد بينها وبين النجمة السينمائية الشهيرة غريتا غاربو: القامة النشطة، وملامح الوجه المنمنمة، والعينان، والشعر الذي تتماوج حوّافه على حوافّ الرقبة، وكذلك الكتفان البارزان اللذان يوحيان بالإباء. ولا أكتمك أني غبطت نفسي حين اتضح أن هذه الفاتنة هي من سترافقني خلال الزيارة، ووطدت العزم على أن أقوم بما يلزم للظفر بإعجابها.

شرعت في إنفاذ عزمي هذا منذ كنّا في المطار، إذ أبيت أن تحمل هي حقيبتي مع أن حملها هو جزء من واجبات المرافقة. وتعمدت أن تدخل السيدتان قبلي أي باب مررنا عبره، ثم سبقتهما إلى السيارة وفتحت بابها الأمامي لتجلس فراو فوكس بجانب السائق، ثم فتحت الباب الخلفي وأصررت على أن تسبقني المرافقة. ثم جلست بجانبها وما أن استقرت جلستنا حتى قدمت للمرافقة سيجارة وأشعلتها لها بولاعة الرونسون الفاخرة التي اشتريتها من السوق الحرة في مطار دمشق. وبعدها فقط أشعلت سيجارتي وأطلقت لساني بأعذب ما يقدر عليه من مجاملات.

وفي الفندق، صحبتني المرافقة إلى حجرتي، وتأكدت من أن كل شيء في الحجرة على ما يرام، ثم قالت إن برنامجنا لم يلحظ احتمال التأخير في الوصول، وهو يقضي بأن نبدأ تحركنا في الصباح في الساعة التاسعة فهل بإمكاني وقد بلغت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أن أتبع البرنامج المعد مسبقاً، أم أني أفضل تعديله؛ قالت هذا بنبرة جعلتني أستنتج أنها لا تحبذ

التعديل، فجاريت ما تصورت أنه رغبتها: «في التاسعة ستجدينني جاهزاً».

وفي الصباح، قبل التاسعة بعشرين دقيقة، كنت واقفاً على الرصيف أمام مدخل الفندق. استبقت الموعد لكي لا تحتاج فاتنتي إلى البحث عن موقف للسيارة. وكان هذا هو أول ما حمل نينا على الجهر بدهشتها، هي التي تحفظت في الكشف عن مشاعرها في الليلة الفائتة. ومع رضاها الواضح بمسلكي سألتني نينا: «لكن، هل أفطرت، إذا؟» فلما قلت لها إني صحوت مبكراً، ومشيت نصف ساعة في الهواء الطلق، وتناولت فطوراً شهياً في مطعم الفندق، أنطقتها دهشتها: «لم أتوقع هذا، علي أن أعترف، نعم: علي أن أعترف!»

فقرة برنامجنا الأولى كانت جولة عامّة أتعرف خلالها على معالم المدينة. ومنذ صار فندق بيرولينا وراءنا، تواترت شروح المرافقة: هذا شارع كذا، شهد كذا وكذا، وهذه هي الساحة الفلانية المشهورة بالشأن الفلاني، وهذا التمثال...، وهذا النصب التذكاري...، وهذا المبنى... ولأن نينا لاحظت أن إنجليزيتي ضعيفة، فقد راحت تنتقي العبارات وتنطق بها بوضوح وببطء ملائمين، فحمدت لها هذا خصوصاً أنها لم تنوه بما فعلت.

أثناء جولتنا، مررنا قرب تمثال قرأت الاسم المكتوب على قاعدته: هاينريش هايني، ولاحظت أن نينا لم تتوقف عنده ولم تجيء على ذكر صاحبه. فكتمت ملاحظتي إلى أن ضمتنا جلسة الغذاء في مطعم أنيق وسط غابة وفعل النبيذ الفاخر فعله. سألتُ مرافقتي عن إحجامها عن ذكر هايني، وجعلت السؤال فاتحة لجديد أدهشها به، فرويت لها ما أعرفه عنه، وكان كثيراً. أصغت نينا دون مقاطعة، ثم نظرت إلي نظرة المقبل على قول شيء مثير للحساسية: «سأوضح لك السبب، على أن لا تستاء!» كنت أحمل وقتها جواز سفر سوري خاص تصدره وزارة الخارجية وقد حصلت عليه بسهولة لأن جريدة **البعث** طلبته رسمياً ولأن لي في وزارة الخارجية معارف يسهلون الأمور. وقد رأت نينا أن جواز سفري سوري، لكن لم يفتها أن تلحظ مكان الولادة هو غزّة كما

سجل على الجواز فأدركت أني فلسطيني، فتجنبتْ أن تتوقف عند تمثال هايني لأنه يهودي: «لم أشأ أن أثير حساسيتك».

ملاحظة نينا هذه شكلت مدخلاً لحديث خضنا أوله على الغداء، ثم ترتب أن نتابعه في محطّات كثيرة أثناء الزيارة. انطلقت هي من ظنّها بأني أكره اليهود أو أحمل ما يسمونه هم روح العداء للسامية. وانطلقت أنا من أني لا أكره أيما أحد بسبب دينه أو عرقه أو أي شيء من هذا القبيل، وأني أميّز حين يتعلق الأمر باليهود بين الصهيوني وغير الصهيوني منهم. وأكدت على ما أؤمن به حقاً وهو أن هناك يهوداً كثيرين قدموا للإنسانية بعض أجلّ منجزاتها وخدموا تقدم البشرية، ورويت نتفاً من الكثير الذي أعرفه في هذا المجال، وقلت لها أن معظم هؤلاء وجدوا قبل الصهيونية، أو كانوا ضدها أو غير مبالين بها.

ولما غادرنا المطعم، كانت حميّا النبيذ قد شحذت مشاعري وقوّت رغبتي في إدهاش فاتنتي. فصرت أبادر إلى التعليق على ما ترويه هي، أفعل هذا في نحو يظهر ما أختزنه من معرفة دون أن يبدو أني أتعمد ذلك. وقد تصادف، مثلاً، أن بلغنا مبنى الرايخستاغ القديم المدمر والمحرق في لحظة كنّا نتحدث فيها عن روزا لوكسمبورغ. فسألت بنبرة يبدو بها السؤال استطراداً للحديث الجاري: «أليس هذا هو المكان الذي اعتقلت فيه روزا لوكسمبورغ آخر مرة؟» وفيما نحن ماضون في جولتنا، صارحتني نينا بأنها تواجه مشكلة، فتبين أنها رفضت أن ترافقني عندما طلبت الجمعية منها أن ترافق عربياً، وذلك، بالطبع، قبل أن تعرفني. واتضح أن نينا رافقت من الزوار العرب اثنين في زيارتين منفصلتين، عراقياً يشغل منصباً كبيراً في حكومة بلده وفلسطينياً يرأس منظمة نقابية كبيرة ولقيت الأمرّ من الأمرّين على يد كل منهما. فلما قالوا لها إن هناك زائراً عربياً رفضت للتوّ، وقد رجوها أن ترافقني ليوم واحد، فقط لأن من تدبروها لتحل محلها مشغولة في شأن هام ولن تفرغ منه إلا في اليوم الثاني. ثم قالت نينا إنها تواقة للاستمرار معي، وأرادت أن أهتف أنا للسيدة فوكس وأعلن رغبتي في بقائها لأعفيها هي من حرج المطالبة بما رفضته من

قبل. لكني وجدت أن الأمر أكبر على نفسي من أن أقدم عليه. قلت هذا لنينا، وأضفت لأخفف وقع رفضي عليها: «حتى لو تعلق الأمر بإرضاء غريتا غاربو نفسها!» سرّت صراحتي نينا وسرها التنويه بالشبه بينها وبين الممثلة الجميلة، وتركتني لبضع دقائق، ثم رجعت لتقول إن الأمر قد سوّي: «سأبقى معك»، قالتها وهي متهللة الوجه، ثم وجهت إلي تلك النظرة التي تصبّ فيها الأنثى ذوب فتنتها: «إذا، فقد لاحظت أنت ذلك الشبه. وأنا التي ظننت أنك من الذين لا ينتبهون إلى هذه الأمور». فاغتنمت الفرصة: «يبدو أن على سيدتي الجميلة أن تلغي ظنوناً كثيرة خاطئة بشأني!» كان افتتاني قد بلغ ذروته، ولم يعد من الممكن أن يهن.

في المساء، كان علينا أن نذهب إلى دار الأوبرا لنشاهد باليه «بحيرة البجع». وشاءت نينا أن تشرح لي ما هو الباليه، فقاطعتها أنا الذي صار أكثر جرأة في مخاطبته لها: «أعرف أن الباليه رقص جميل يشاهد وليس طبقاً يؤكل، وأحبّ موسيقى تشايكوفسكي وأتطلع بشوق شديد إلى مشاهدة أول ما أشاهده على مسرح من عروض الباليه». وذكرت لنينا كيف أني أتابع القليل الذي يعرضه تلفزيون دمشق، وأتصيد الفرص فأشاهد باليهات كاملة من تلك المخزونة في أرشيف التلفزيون.

بعد المسرح، أخذتني نينا إلى مطعم موجود في المبنى ذاته. كانت نينا منتشية وقد راق مزاجها إلى نحو لم آلفه في أي إنسانة قبلها. وبهذا المزاج، اختارت نينا أصناف شرابنا وأطباق طعامنا وأوقدت الشمعتين القائمتين على المائدة، ثم شربت نخبي، فثنيت بشرب نخبها. وغمرتني هذه النشوة التي يصعب وصفها: نشوة الحضور الفاتن لامرأة تتفتح بحضورها الروح وتنفكّ القيود التي تسربل البدن وهو يتشهاها. واكتسى حديثنا، حتى وهو يتناول أصعب المواضيع، طلاوة لم أتذوق مثلها في عمري إلا مرات قليلة. وقالت التي توهج وجهها بالصبوات المتقدة في داخلها: «هبْ أن امرأة في هذا المكان أعجبتك فاشتهيتها فدعوتها إلى الفراش فاستجابت، فهل يستمر إعجابك بها إن

عرفت أنها يهودية؟» فقلت، وأنا أسير عينيها اللتين تحثاني على المبادرة: «أنا جاهز للاختبار فلم لا ندخل في التجربة!» فقالت هي دون أن يبدو أنها أخطأت فهم إيماءتي: «لست يهودية». فألقيت صنارتي: «ليس تجربة دينية ما أدعوك إليه، وهواجس الساميين واللاساميين ليست هي التي تشغلني في هذه اللحظة». فتبسمت نينا، فنثرتُ الصنارة: «إني أتحدث عن تجربة من نوع آخر، وأنت تفهمين». فردت هي وكلّها استجابة: «نعم، إني أفهم»، ولكم كان فهمها ممتعا!

تجولت برفقة نينا في أربع من محافظات البلد العشرة. كنّا نذهب إلى مكان ثم ننتقل إلى غيره، أو نرجع إلى برلين في المساء لنذهب في الصباح إلى مكان جديد. وقد زرت مدناً كثيرة وبلدات وقرى، وزرت فيها مصانع ومزارع وموانئ ومعارض ومتاحف ومؤسسات ثقافية واجتماعية، وحاورت ناساً من مستويات مختلفة. وفي غضون ذلك، أقمت في أرقى الفنادق وارتدت أفضل المطاعم والمنتديات، وشاهدت أعظم ما تعرضه المسارح، واستمعت إلى الموسيقى تعزفها أمهر الفرق، وكل ذلك على حساب مضيفيّ الألمان. لقد كانوا في الدول الاشتراكية أسخياء حين يستضيفون صحافياً، وكان السخاء يبلغ حدّه الأقصى إن كان الضيف غير شيوعي.

زرت فايمار مدينة المتاحف الفنية النفيسة، وفيها زرت منزل غوته ومنزل شيلر اللذين تحولا إلى متحفين لا ينقطع عنهما الزوار. وشربت النبيذ في الحانة التي كان غوته يرتادها في لايبزغ ويقصف فيها مع أصحابه. وهناك، التقيت نخبة من الكتاب والفنانين الذي جمعوا لأتمكن من إجراء حواراتي معهم في هذا المكان الموحي. وزرت بوخنفالد معسكر الاعتقال النازي الشهير. وكانت هذه، بالذات، زيارة بقي لها في نفسي وقع خاص لم تمحه الأيام. ولعلي لا أثقل عليك أن أشركتك في استحضار بعض تفاصيلها.

جاءت نينا بي إلى المعسكر في يوم أحد وقت الضحى، وقادتني عبر البوابة

الخارجية المفضية إلى باحة المعسكر وهي كئيبة كآبة لم يحررها منها كأس الكونياك الكبير الذي شربته مع الإفطار وسوغت شربها له بأنه يساعدها على احتمال ما سترى. وترتب علينا أن نعبر صالة كبيرة تلي البوابة الداخلية التي تبدأ عندها أبنية المعسكر. وقد جعلت هذه الصالة متحفاً جُمعت فيه الشواهد التي تدل على وحشية النازيين. كان هناك الكثير من أدوات التعذيب وصور الضحايا. وكان هذا مما يمكن أن أشاهده دون انفعال، أنا الذي عرف منذ طفولته شتى أنواع المآسي وشهد بأم عينه المجازر التي نفذها الإسرائيليون ضد الفلسطينيين. أما ما فاض عن حدّ احتمالي فتمثل في ما حوته خزن كثيرة من قطع الجلد البشري الموسومة بأشكال الوشم المختلفة. هنا، شرعت نينا في شرح حكاية هذه القطع، لكنها لم تتمكن من المضيّ في الشرح إذ داهمها دوار لم تتمكن من مغالبته، فأسلمتني إلى أحد الأدلاء وخفّت هي إلى الهواء الطلق. وهنا، عرفت أن امرأة تحمل رتبة ضابط في الجيش النازي عملت في هذا المعسكر، قائدة له أو نائبة لقائده أو شيئاً من هذا القبيل. وكان لهذه النازية هواية وحشية، هي سلخ أجزاء الجلد البشري التي تحمل وشماً والاحتفاظ بها. وما كان أشنع حظ المعتقل الموشوم إذا وقعت عين هذه الضارية أو عين أحد زبانيتها عليه!

في بوخنفالد، تجسدت جرائم النازية بأفظع مدلولاتها، العقيدة الشائهة التي تحول إنساناً إلى وحش، والنظام الدكتاتوري الذي جعل واحداً من أعرق شعوب أوروبا أداة عدوان فتاكة. لم تقم النازية للإنسان أي اعتبار، فالسجّان قطعة في آلة الفتك، والمسجون ضحية تفتك هذه الآلة به بسبب وبغير سبب. هنا، صار من الممكن أن يموت المعتقل، أيا كانت مكانته أو موهبته أو خدماته للإنسانية، بسبب الجوع، أو الإجهاد، أو الأمراض التي لا تعالج، أو التعذيب، أو القتل المتعمد. وهنا، لقي حتفه عدد من أنزه أبناء الأمة الألمانية إلى جانب الذين لقوا حتوفهم من أبناء الأمم الأخرى، روس وإيطاليون واسبان ومسيحيون وملحدون يهود، أعضاء أحزاب شيوعية وبرجوازية. يهود كثيرون أبيدوا لأن

لهم نشاطاً ضد النازية أو لمجرد أنهم يهود. الأمين العام للحزب الشيوعي الألماني آرنست تيلمان أطلقوا على رأسه رصاصة ثم تخلصوا من جثمانه في المحرقة التي أكلت أجداث ألوف الضحايا. قسيس ألماني وضعوه في الزنزانة وكان للزنزانة نافذة مرتفعة تطل على إحدى باحات المعسكر حيث يقضي المعتقلون المحظوظون الدقائق المقررة لفسحتهم اليومية، فلم يفوّت القسيس الفرصة، فصار يسند سريره على حائط الزنزانة ويرتقي حافته كل يوم. ومن موقفه القلق، كان القسيس يمد رأسه عبر النافذة ويعظ المسجونين. القسيس جاءته هو الآخر رصاصة من الخلف فيما هو منصرف إلى الوعظ وأكلت المحرقة جثمانه. ثلاثة عشر عاملاً إيطالياً أودت بهم نشاطاتهم الديمقراطية إلى بوخنفالد وحشروا في زنزانة واحدة، واحتملوا أصناف العذاب طيلة أكثر من سنة، وظلوا صامدين. وعندما سمع هؤلاء أصوات الاشتباك الجاري على محيط المعسكر وأدركوا أن محرريهم وصلوا، داهمتهم الفرحة مداهمة فأطلقوا حناجرهم بأناشيد النصر. وبالرغم من أن السجانين كانوا يعدون العدّة للفرار فقد أحنقتهم الأناشيد التي لم يفهموا لغتها وإن لم يفتهم إدراك مغزاها. وفي تراجعه، بقي النازي كما كان في تقدمه، متوحشاً. وقد حصد التوحش المهزوم أرواح العمال الطليان وهم ينشدون، ولم يتحرر من السجن إلا أجداثهم.

قلت لنينا التي انتظرتني عند البوابة وبدت متلهفة لمعرفة انطباعاتي: «سنحكي الكثير، لكن بعد أن نبتعد عن هذا المكان وتتخلصي أنت من تأثير الزيارة على أعصابك. وعندما لاحظت أن مرافقتي تتابع بنظرها شيئاً ما، وجهت نظري إلى حيث تنظر هي، فوقفت على مشهد لن أنساه: عجوز دخلت البوابة بقامتها المحنية وفي يدها باقة زهر، وخطت بضع خطوات في الباحة ثم نثرت زهور الباقة، وركعت على ركبتيها وضمت يدها أمام صدرها واستغرقت في ما لا بد من أن يكون صلاة. رأت نينا هذه السيدة في زيارات سابقة وتحرّت حكايتها فعرفت أن ابن السيدة وزوجها وأخاها، ثلاثتهم، لقوا حتفهم في هذا المعسكر والتهمت المحرقة أجداثهم فلم يقم لأي منهم قبر، وها هي ذي الأم، الأخت،

الزوجة المفجوعة تجيء كل يوم أحد وتهدي باقتها للمكان كلّه وتصلي. سألت أنا: «أهي يهودية هذه العجوز؟» وإذ نينا هي التي تقول: «هي إنسانة، وقد كانوا أناساً مثلها أولئك الضحايا».

وفي السيارة، في الطريق إلى فايمار، قلت لنينا إن ما رأيته وأدركته مريع، وهو يجعلني أفهم على نحو أوضح كره الألمان للحرب وتشبثهم بالسلام. وبعد أن ضمنا مقهى دافئ وصار أمامنا فنجانا قهوة، صارحت نينا بأن في الأمر ما يذكرني بما لحق بالفلسطينيين. لم أخف عن المرأة التي أتوخى إقناعها أني لا أجد الحجوم متماثلة، ولكني قلت إن ما يفعله الصهيونيون يذكر بما فعله النازيون: أرض الميعاد وشعبها المختار، وألمانيا التي فوق الجميع وعرقها الآري المتفوق. أرض إسرائيل الكاملة حاجتها إلى حدود يمكن الدفاع عنها أي إلى التوسع، والمجال الحيوي لألمانيا وحربها التوسعية. فلسطينيو هذه الأرض التي سعت إسرائيل إلى التخلص منهم ويهود الأمس الذين تخلصت منهم النازية. لم تسترح نينا إلى هذه المقارنات، لكن شيئاً فيها زعزع ثبات القناعات السابقة، ولم أسع أنا إلى المزيد.

في المساء، ضمتنا مائدة العشاء إلى نائب عمدة فايمار وأنا ضيفه. بذل الرجل جهده للحفاوة بالقادم من سورية، وراح يردد كل ما حكي له عن البلد البعيد ويتعمد أن ينتقي ما يستحق الثناء. غير أن نينا قالت للرجل شيئاً بالألمانية فكف للتوّ عن ذكر سورية وسألني فجأة عن أحوال الفلسطينيين. وقادنا الحديث إلى ذكر المعسكر المجاور. فاتضح لي أن الرجل لم يتوقع أن يجدني معادياً للنازية، أنا العربي الذي قيل له قبل لحظة إني فلسطيني. وكان هذا كافياً لأستفزّ، حتى لو لم أكن مستفزاً طيلة النهار. وبروح الاستفزاز، سألت الرجل أين كان إبّان العهد النازي، فلم يدرك الصلة بين هذا السؤال وبين الموقف من النازية، فقال بنبرة من يتم تعريفي بنفسه إنه كان هنا في فايمار وكان يشغل وظيفة مرموقة. عندها داهمت مستفزّي: «ألم تلاحظ أي شيء مريب مما كان يجري في بوخنفالد على طرف مدينتك الصغيرة؟» هذا

السؤال أربك الرجل، استخدمت نبرة تبرز مغزى سؤالي وتفننت نينا في نقله، فارتبك الرجل. وجاء الجواب باهتاً: كانوا يظنون أنه معسكر للأسرى، ولم يعرفوا عن الجرائم التي وقعت إلا بعد انتهاء الحرب. فسألت مضيفي عن مداخن المحارق والدخان الذي كان ينبعث منها. فقال الرجل إنهم ظنوا أنها محارق نفايات. وقبل أن أصدمه بسؤال جديد، استدرك: «هكذا قيل لنا». فوجدتني مدفوعاً إلى السخرية: «وهل يمكن لأي أنف حتى لو سدّته سدادة أن يخطئ التمييز بين رائحة الشواء البشري وأي شيء آخر!» عندها تطامن الرجل ورأيت في مؤقيه حبتي دمع، وقد قال: «لا أدري. ما حصل قد حصل. كنّا كالمنومين، عليّ أن أقر بهذا. والآن، من المهم ألا يتكرر الأمر». بعد هذا الإقرار، سيطر الرجل على الحديث واهتم بأن أعرف أنا أن تجربتهم مع النازية ساعدتهم على فهم موقفنا من إسرائيل، ثم كرر الكلام الذي كنت أسمعه حيث حللت، فقال إنهم يأبون الاعتراف بإسرائيل ولن يعترفوا بهذه الدولة ما لم تقبل هي تطبيق قرارات الأمم المتحدة وتكفّ عن ممارستها العنصرية. وانخرطت نينا في جدل مع مضيفنا، جدل يخصّها هي، فتهيأت لي الفرصة لإكمال وجبتي.

في ماكديبورغ، تقاطعت زيارتي لبضع ساعات مع زيارة الوفد البعثي الذي كان يتبع برنامجاً مختلفاً. وهناك أخذوني إلى الاجتماع الذي ضم الوفد مع ممثلي أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية الألمانية الخمسة، فتسنى لي أن ألتقي الرفاق وأشهد حوارهم مع نظرائهم الألمان. كان أقرب أعضاء الوفد إليّ من حيث المعرفة الشخصية هو نصر شمالي. وقد وجدت هذا الرفيق في حال يدعو حقاً إلى الرثاء، ذلك أنه أصيب منذ بداية الرحلة بالإسهال ولم يخبر مضيفيه بما حلّ به لتصوره أن حديث القائد الثوري عن الإسهال يحطّ من قدره. حتى لي، لم يبح نصر بسرّه إلا بعد أن لاحظت تواتر خروجه من الاجتماع. وأنا الذي أعلمت المضيفين فور انتهاء الاجتماع بحال صديقي، فاضطر هو إلى الإقرار. وشجع إقرار نصر آخرين. وإذ هم كثيرون هؤلاء

الذين كتموا آلامهم. وسرعان ما وصلت سيارات الإسعاف!

في الاجتماع، صبّ البعثيون الخمسة عشر جل حديثهم على الوحدة الألمانية. فبدا لمحاوريهم الألمان أن هذا هو الموضوع الوحيد الذي يشغل بال الضيوف. وقد حاولت أن أجتذب انتباه رفاقي إلى وجود مسائل أخرى يهتم الألمان بها، فلم أفلح. وهكذا، شهدت الجدل الممض وما انطوى عليه من طرافة، بالرغم من مضاضته. فقد رأى الفريق السوري أن بسمارك وحد معظم مقاطعات ألمانيا وأن هتلر أتم التوحيد، وراح الوفد يطالب التقدميين الألمان بأن يضعوا مطلب إعادة التوحيد على رأس جدول أعمالهم. ورأى الفريق الألماني أن تقسيم ألمانيا جاء نتيجة لهزيمتها في الحرب وقد نشأ فيها نظامان متناقضان، اشتراكي ورأسمالي، وأن توحيد ألمانيا لن يتم إلا إن قضى أحد النظامين على الآخر، وليس هذا في مقدور أي منهما. تحول الجدل إلى حوار طرشان، فاشتدّ ضيقي واعتذرت عن المشاركة في العشاء الذي دعي الجميع إليه. وطلبت من نينا التي أدهشها انصرافي عن رفاقي أن تأخذني إلى مكان لا يخجل فيه المصاب بالإسهال ولا يتحدثون عن الوحدة الألمانية.

وفي ختام جولتي في المحافظات، حظيت بالتعرف على شخص لا ينسى. كان هذا هو السيد فولف عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد، أي حزب الشيوعيين، وهو من بلغ آنذاك الستين وكان مديراً لأكبر مزرعة تعاونية. تمتد المزرعة بقراها العديدة وأحراجها وحقولها الفسيحة على مساحة قريبة من مدينة روستوك في شمال البلاد. وقد أمضيت في المدينة ذاتها نهارين وليلتين وكان لي فيها برنامج حافل. وفي هذه المدينة نظم لي المضيفون لقاء مع الطلبة السوريين الذين يدرسون في جامعتها. وكان هؤلاء إما من الشيوعيين الذين يرسلهم الحزب الشيوعي السوري وإما من البعثيين الذين ترسلهم الحكومة. وكان الجميع معنيين بالتعرف على طبيعة التعاون الذي قيل لهم إنه انتظم بين البعثيين والشيوعيين بعد حركة ٢٣ شباط/فبراير اليسارية. واستهدفت الأسئلة التي وجهها إليّ البعثيون معرفة ما يجري

داخل حزبهم، خصوصاً أن أصداء تمرد سليم حاطوم والأحاديث الرائجة عن الخلافات المستجدة في الحزب كانت تقلق هؤلاء. ولهؤلاء قلت إن شؤون الحزب يسأل عنها القادمون في مهمة حزبية، وأحلتهم إلى الوفد البعثي الذي أعرف أنه سيصل المدينة بعدي. أما التعاون بين البعثيين والشيوعيين فقد أفضت في الحديث عن ضروراته وأهميته. ولما ألح الحاضرون على معرفة درجة التعاون القائمة، قلت إنها ما زالت دون المستوى اللازم. فلما أصر بعض الطلبة على تحديد أدق، أوردت مثلاً وطلبت أن يستنبط الطلبة منه ما يشاءون. ذكّرت الطلبة بما كانوا يعرفونه قبل مغادرتهم الوطن عن حال جريدة **صوت الشعب** الناطقة باسم الحزب الشيوعي، وهي الجريدة التي كانت تطبع وتوزع سراً وقد يتعرض حتى مقتنيها إلى العقوبات إن كان من العسكريين أو الذين في حكمهم. ثم قلت إن هذا الوضع تبدل بعض الشيء إثر حركة شباط/فبراير. فالجريدة مازالت تطبع سراً وتوزع باليد، غير أن أجهزة الأمن كفّت عن ملاحقة ناشريها وموزعيها، وصار بإمكان المهتمين بقراءتها أن يحصلوا عليها دون هواجس. وقد حسّن اللقاء مع الطلبة مزاجي. وبهذا المزاج الحسن، توجهت إلى المزرعة التي تعرفت فيها على السيد فولف.

بالإضافة إلى نينا والسائق، صحبني في هذه الزيارة عضو من الجمعية نسيت اسمه وبقي في ذاكرتي الألقاب الثلاثة التي لا يجوز لأحد أن يخاطبه دون أن يقرنها بهذا الاسم: هرْ دكتور بروفيسور أي السيد الدكتور الأستاذ. وكان هذا في مظهره رجلاً تراه فتتصور أنهم غسلوه ونشّوه وكووه للتو. وكان سلوك الرجل مطابقاً لمظهره أتمّ التطابق، وكان قليل الكلام، فإن فاه بشيء جاء كلامه على هذه الشاكلة، مغسولاً ومنشىً ومكوياً. ولأن نينا أدركت كم ضقت بالرجل منذ لقيته، فقد راحت تحدثني عن الآخر الذي سألقاه. فعرفت أن فولف شيوعي قديم، عاصر ذوي الأسماء الكبيرة من القادة، وصادق ستالين وسكر معه على مائدة واحدة أكثر من مرة. كما عرفت أن الرجل معدود من كبار الخبراء في إدارة المزارع التعاونية ولهذا فإنهم

يرسلونه إلى المزرعة التي تتعثر أحوالها فيديرها لبعض الوقت ويصلح الأمور، ثم ينتقل إلى إصلاح مزرعة أخرى.

استقبلني رجل يطابق شكله وسلوكه الصورة المرتسمة في ذهني للبلشفيّ صحيح النسب: القامة التي ظلت متينة بالرغم من آثار المعاناة التي تثقل عليها؛ والوجه الذي يبدو كأن أحداث ستين سنة خلفت آثارها عليه دون أن ترتخي قسماته أو يفقد وضوح تعابيره؛ والحركات السخيّة؛ والصوت المجلجل؛ والسلوك الذي ينمّ عن شخصية مقدامة. واتضح أن مضيفنا يعرف الإنجليزية فلم يضع أي وقت في الترجمة. وقد جال بنا مضيفنا في أرجاء المزرعة الفسيحة، في السيارة، أو في تراكتور، أو على الأحصنة، أو مشياً على الأقدام. وتسنى لي أن أطلع على سير العمل وأسمع الشروح المتميزة عن طبيعة كل جانب فيه. وقد لاحظت أن الشيوعي العتيق يكثر الاستشهاد بلينين وماركس وإنجلز ويتعمد أن يمزج بين عرض الوقائع وبين التفسير الماركسي اللينيني لها، ويسعى في كل مرة إلى أن يجتذب انتباهي إلى هذا التفسير ويقنعني بصوابه. وإزاء هذا السلوك، رحت أنا أتصيد فرصة أظهر فيها معرفتي بالماركسية اللينينية. وقد جاءت الفرصة عندما ذكر فولف شيئاً ولم ينسبه إلى واحد من آباء الشيوعية الثلاثة، وكان هذا هو قوله إن النساء في المزرعة هن أكثر تقبلاً للتدابير الجديدة من الرجال. فقد عقبت على ملاحظة فولف بأني قرأت في أدبيات الماركسية شيئاً عن هذا. ثم تحذلقت لا لشيء إلا لاجتذب مزيداً من الانتباه، فأضفت أي لا أتذكر أيُهم بالضبط الذي تعرض لهذه النقطة، أهو ماركس، أم إنجلز، أم لينين. وتعهدت أن أعود إلى مراجعي تحرياً للدقة وأكتب لفولف ما أقع عليه.

فطن الرجل على الفور إلى مغزى تعقيبي، فقال بالصراحة التي لا تقع عليها إلا عند الواثقين بأنفسهم: «رأيتك شاباً في أول عمرك، وقيل لي إنك بعثي. وهذه تعادل عندنا اشتراكياً قومياً من الذين أتعبونا، فرأيت أن أغتنم الفرصة لتوسيع أفقك. هكذا نحن الشيوعيين في العمل!» بعدها، قال فولف شيئاً

بالألمانية وقالت نينا شيئاً ورسم الهر دكتور بروفيسور عبارة. ودار جدل أوجزته نينا لي، فعرفت أن المدير عازم على استبقائنا للعشاء وأن هذه الفقرة غير المدرجة في البرنامج لا تلائم صاحب الألقاب. والواقع أن الأمر سوّي بعد ذلك؛ سوّاه فولف على طريقته. فقد بدا له أن البروفيسور يخشى أن تحنق زوجته بسبب تأخره في العودة إليها، فاتصل هو بالزوجة وظل يلح إلى أن ظفر بموافقتها. وهكذا، ظفرت أنا بالسهرة التي لا تنسى.

دفعنا مضيفنا دفعاً بذراعيه القويتين، وساقنا بالمعنى الحرفي للكلمة سوقاً إلى ما بدا لي أنه أكبر مطاعم المزرعة أو أفخمها. وهناك خصّونا بمقصورة كبيرة، وانضم إلينا نفر من ناس التعاونية فصرنا حوالي عشرة. وقامت بخدمتنا سيدتان جميلتان ونشيطتان. وامتلأت المائدة بأطيب الأطعمة وأفخر المشروبات. وحلا السمر. شرب فولف نخبي فرددت بشرب نخبه، ثم اقترح أن نشرب نخب سورية فهمست نينا بشيء فأضاف فلسطين، فشربت أنا نخب ألمانيا. وتعاقبت المرات: حديث طليّ، وطبق وراء طبق، ونخب يليه آخر، ولا تعقيدات. وقد ظللت أعدّ الأنخاب التي شربناها حتى بلغت تسعة. فاقترحت مع العاشر ان نشرب نخب الجبهة الحمراء التي تضم تقدميي العالم، فكأني أطلقت في الجو قنبلة ضوء ومرح. ولم أعد بعدها أحصي الأنخاب!

لم أتذكر أنا ولم تتذكر نينا الوقت الذي غادرنا فيه المزرعة. وكل ما أتذكره أن جرساً مرناناً أيقظنا في الخامسة صباحاً، أنا ونينا التي وجدتها نائمة في حجرتي في الفندق. واتضح أنها هي التي رتبت الأمر مع موظف الاستقبال ليوقظنا في هذا الوقت. كان علينا أن نعجل بالسفر إلى برلين حيث ينتظرني ما عدّه مضيفوي أهم فقرة في زيارتي لبلدهم. وقد قضت خطة نينا أن نصل إلى برلين قرابة العاشرة فيتسنى لنا أن نصلح أمرنا في الفندق ثم نذهب إلى موعدنا الهام في الثانية عشرة. وكان هذا موعداً مع نائب رئيس الحكومة الذي سنلقاه على الغداء في أحد مطاعم المدينة. غير أن التعب الحال بالجميع جعل السائق يتوقف على الطريق أكثر من مرة وفي واحدة من الوقفات، أعلن

السائق أنه عاجز عن المتابعة، وكان في إرغامه على قيادة السيارة وهو مجهد مجازفة، فأكملنا الرحلة إلى برلين بالقطار، فبلغناها قرابة الثانية عشرة. وكان أمامنا أن نذهب إلى اللقاء الموعود بكلالنا وسوء حالنا أو نذهب إلى الفندق فنخلف موعدنا مع الرجل الكبير. وقد حسمت أنا الأمر: «نذهب إلى الموعد كما نحن».

كنت أعرف باول شولتز نائب رئيس حكومة ألمانيا الديمقراطية قبل أن ألقاه في عاصمة بلده. فقد زار الرجل سورية مرتين أو ثلاث مرات وتسنى لي أن أجتمع به فيها. وقد احتفظت ذاكرتي بقضية طريفة كان هو بطلها وكنا في دمشق نتندر بها كلما جئنا على ذكر صديقنا سليمان المقداد ناظر قلعة بصرى الأثرية. ففي واحدة من زياراته لسورية، أخذ باول شولتز إلى القلعة الشهيرة وصحبه الدكتور نبيه ارشيدات في رحلته إليها. وأراد سليمان أن يبهر الضيف الأجنبي الصديق، فأهداه مما في متناوله بساطاً من الحجم الذي يعلق على الحائط. وكان هذا بساطاً مصنوعاً باليد مما هو في متناول أي إنسان يدفع خمسين ليرة. ولكن سليمان أضفى على الهدية جلالاً اخترعه اختراعاً، فقال للضيف إن أهل بصرى احتاروا منذ عرفوا نبأ قدومه: أي هدية يقدمونها له، ثم هداهم احترامهم له إلى الهدية المناسبة، فقدمت كل أسرة جرزة صوف وغزلت كل امرأة خيطاً ونسجت كل فتاة غرزة فكان هذا البساط. وافتتن بول شولتز بالهدية، فخصص للبساط صدر صالون الاستقبال في منزله في برلين وراح يروي حكايته لأي زائر.

جئنا إلى المطعم البرليني، إذاً، ونحن نحمل آثار سهرة البارحة على وجوهنا وهيئاتنا وملابسنا. وقد تيسرت لي بضع دقائق قبل وصول شولتز، فرحت إلى حجرة المغاسل وحاولت أن أصلح أمري. لكن هيهات: إنك بحاجة إلى يوم كامل لتصلح ما يفسده السهر مع فولف. ومنذ أقبل الرجل الكبير، التقطت عيناه ما نحن فيه. فشرعت نينا التي هيأت نفسها لهذه اللحظة في تقديم شروحها. وما أن ورد اسم فولف حتى تبسم شولتز وطلب منها أن تكف عن

الشرح، ثم قال لي بغير قليل من الدهشة: «كيف تمكن مسلم مثلك من أن يجاري صاحبنا في سكره الصاخب؟» فقلت وقد التقطت روح التسامح التي نم عنها سؤال الرجل: «أنت لا تعرف المسلمين كلّهم، هل تعرفهم؟»

كان هذا مدخلاً لحديث امتد وتشعب. تناولت موضوعات علاقات ألمانيا الديمقراطية بالعرب وسعيها إلى حمل الأنظمة العربية التقدمية على الاعتراف بها وإقامة علاقات دبلوماسية كاملة معها. تناولنا القضية الفلسطينية وموقف ألمانيا الديمقراطية المتميز عن مواقف بقية الدول الاشتراكية منها. ثم انعطفت أنا بالحديث إلى الموضوع الذي يتجنب قادة الدول الاشتراكية الخوض فيه، موضوع الخلاف بين الاتحاد السوفييتي وبين الصين الشعبية. وأدلى شولتز بآراء سديدة حول هذا الخلاف وتنبأ بأنه سيستفحل وسيضعف استفحاله الجانبين. وعندما قلت لشولتز: «ماذا لو أني نشرت حديثك هذا»، قال هو: «أعرف أنك صحافي مستقيم ولن تنشر كلاماً قيل لك على أساس الثقة بك». وكان الرجل ودوداً، وقد جعل غداءنا وحديثنا لذيذين، بالرغم من تحرجنا إزاء سوء حالنا.

مسائي الأخير في برلين خصصته لوداع نينا. توطدت علاقتنا خلال أسبوعيّ الزيارة، وصار الفراق قاسياً. وعبرت هي عن شعورها وفي عينيها دموع: «أخشى أن أكون قد أحببتك وانتهى الأمر».

في ذلك المساء، كشفت نينا عن جانب مأساوي في حياتها الشخصية لم تكن قد حدثتني عنه من قبل. كانت المرأة التي رضيت بمرافقتي بعد إحجام، زوجة لفيزيائي يعمل في أحد مخابر الدولة. وقد وصفت نينا زوجها بأنه رجل موزع الفكر بين حاجاته لمجاراة النظام القائم وبين عطفه الذي اكتشفت بعد الزواج أنه لم يتحرر منه على النازية. قالت نينا إن زوجها يسلك في النهار سلوك اشتراكي مستقيم الولاء، أما في المساء فيلجأ إلى الكحول ويستحضر ما هو مختزن تحت جلده إلى أن يسلمه الإجهاد إلى النوم ليتصرف حين يصحو في الصباح كأن شيئاً لم يكن. وإذا ذكّرتْ هي زوجها بما قال أو فعل، كان الزوج

يقدم اعتذاراً مقتضباً ولا يزيد على ذلك. وقالت نينا إن أمرها مع هذا الزوج انتهى إلى برود عواطف تجاهه، وإذا لم تنفصل عنه فلأن الزواج أثمر إبنة لا تريد هي أن تحملها متاعب الأطفال الذين ينفصل ذووهم بعضهم عن بعض.

روت نينا هذا، ثم اعتذرت عن إلحاحها على معرفة حقيقة عواطفي تجاه اليهود: «كان هذا وسيلتي لمعرفة ما قد تخبئه تحت الجلد وكنت بحاجة إلى أن أعرف». ولم أجد ما أقوله لنينا عن المستقبل سوى أني وعدتها بأن أكتب لها بانتظام وأغتنم أي فرصة سانحة لأجيء لزيارتها.

في الصباح، جاءت السيدة فوكس، أمينة سر الجمعية. وضمتنا نحن الثلاثة مائدة الإفطار في مطعم فندق بيرولينا. وكان من الطريف أن هذه السيدة جلبت لي حبتي برتقال زوادة للطريق حسب التقاليد. ولم أتمكن من ضبط نفسي، فقلت للسيدة المدهونة دهناً بالحرص على ما هو رسمي وبروتوكولي: «لا شك في أنك أتعبت نفسك حتى وجدت برتقالاً في برلين». ولما أجابت هي بأن نعم، قلت غير منتبه إلى قلة لباقة القول: «نسيت يا سيدتي أني راجع إلى بلاد البرتقال!» ولم يكن ينقص إلا هذا كي تشتدّ برودة السيدة فوكس وتمعن هي في سلوكها البروتوكولي العقيم.

وفي الطريق إلى المطار، جلل الصمت سيارتنا. وكان لكل منّا سببه لكي يصمت. صمتت السيدة فوكس لأنها فرغت في المطعم من كل ما يوجب البروتوكول أن تقوله في وداع الضيف. والسائق كان ما يزال مجهداً. ونينا أثقل عليها الحزن الذي لا تستطيع أن تفصح عنه بوجود أمينة سرّ الجمعية. أما أنا فغرقت في التفكير، في ما أنا تاركه وفي ما أنا راجع إليه. وكان لدي الكثير مما أفكر فيه على الجانبين.

١٥ توليت مسؤولية رسمية فزادت مشاكلي

أقلعت الطائرة بي على طريق العودة إلى دمشق. وما أن هدأ ضجيج السماعات التي نقلت إلى الركاب تحيات الطاقم وتعليماته، حتى خلوت إلى نفسي لأراجع الأفكار والعواطف التي تصطخب فيها. نأيت عن دوامة المشاغل التي استغرقتني أسبوعين ودوامة العواطف التي ملكتني فوجدتني أسير دوامات أخرى تطوحني ذات اليمين وذات اليسار. ذهبت السكرة فجاءت مائة فكرة، وجاهدت كي أنظم أفكاري وأستخلص ما هو جوهري من انطباعاتي. إني عازم على أن أكتب عن هذه الرحلة، فما الذي أقوله لقارئي، ما الذي يمكن أن أقوله. وأنا متعلق بنينا تعلقاً أدركت قوته حين كوتني لوعة الافتراق عنها، فما هي هذه العاطفة التي أحملها للألمانية.

لقد رأيت الكثير وسمعت الكثير في البلد الذي زرته، سلبيات وإيجابيات. وأثر فيّ في نحو خاص وقوف ألمانيا الديمقراطية على خط التصادم المباشر مع المعسكر الذي أبغضه. وفتنني أنهم هناك يجندون كل إمكانية لتقوية مركزهم في وجه الإمبريالية. رأيت بلداً يحثّ الخطى في تطويره لاقتصاده وتنظيمه لمجتمعه وتعميمه لثقافة ديمقراطية تقدمية متحررة من العنصرية والاستعلاء على الآخرين. ولكني لم أر أن الناس كلهم سعداء مع أني توقعت أن يكونوا كذلك. ولم تهدني مداركي إلى السبب، فنسبت السبب إلى بطر الناس وتطلّبهم.

كل إنسان له عمل وضمانات مستقبل. كل إنسان له مسكن. التعليم مجاني للجميع في مستوياته كافة، والطبابة، وفرص الراحة وقضاء الإجازات. ووسائل الثقافة مبذولة: المكتبات العامة، المسارح، دور السينما، بأسعار تكاد تجعلها مجانية. المواصلات مجانية لفئات وشبه مجانية للآخرين. أسعار المواد الضرورية، الأطعمة والمشروبات والملابس، أرخص من ان تثقل على صاحب أي دخل. المساواة بين المرأة والرجل. امتيازات الأطفال التي تضع الطفل في مرتبة ملك. رعاية الشباب، والرياضة، والوسائل المبذولة للجميع. المتقاعدون وحقوقهم. مأوي المقعدين والعجزة. الانفتاح الاجتماعي. كل هذا وغيره، فما الذي ينقص؟ وهل علي أنا المنحاز مسبقاً إلى الاشتراكية أن أغفل هذه الإيجابيات جميعها لأن بعض الذين يتمتعون بها لا يكتفون.

نينا وتعلقي بها. هل هو حبّ هذا أحمله لها، أم هو الظرف الاستثنائي وهو الذي جعل مشاعري مرهفة. لو خيرت بين أن أبقى في ألمانيا، في كنف النعيم الذي شهدته وفي كنف نينا ولذائذه، وبين أن أرجع إلى ما كنت فيه، فهل سأختار البقاء، وكم سيعذبني الفراق؟!

أسئلة انداحت، وأجوبة لا يستقر لها قرار، ثم: «بعد دقائق ستهبط طائرتنا في مطار دمشق فالرجاء التأكد من ربط الأحزمة و...» وعاد الضجيج.

على كل فوائدها ومتعها، سببت لي رحلتي إلى ألمانيا مشاكل كادت تعصف بالقليل من الاستقرار المتيسر لي في دمشق. أخطر المشاكل هي التي هددت استقراري العائلي وقد نجمت كما تستطيع أن تحزر بسهولة من علاقتي بنينا. لم يكن حباً ما حملته للألمانية، ولكنه الانجذاب إلى العلاقة الراقية التي لم توفر ظروفي مثيلاً لها من قبل. وقد شدد تعلق نينا بي تعلقي بها وأرضى غروري، ثم جاءت رسائلها لي جرعات كحول يتناولها مفتون بالشراب، تطفئ الجرعة الظمأ للحظة، ثم تسلمك هي ذاتها إلى ظمأ أشد.

كانت إنجليزية نينا راقية، فكنت أسعد برسائلها، لغة وأسلوباً ومعاني. أما

إنجليزيتي فلم تكن تيسر لي أن أرد برسالة أرضى عنها، فكان أن استعنت بلطف غنطوس الذي صار مديراً إدارياً لجريدة **البعث** إلى جانب عمله في مكتب م.ت.ف. كنت أكتب الرسالة بالعربية، أنتقي عباراتها وأتفنن في الأسلوب وأرتقي بمستواها ما أمكنني ذلك، فيترجمها لطف إلى إنجليزية من المستوى ذاته، بل لعل ترجمته هو الخبير كانت تحسّن المستوى. وقد حملت رسائلي إلى نينا ما حملته رسائلها إلي: التوق إلى لقاء جديد. وغني عن البيان أني حرصت على إبقاء المراسلات المتبادلة مع نينا سراً بيني وبين لطف لا يطلع عليه أحد سوانا.

وفي أحد الأيام، تلقيت بطاقة بريدية. قالت نينا في البطاقة إنها أمضت ليلة في الفندق الذي أقمنا فيه كلانا في ماكديبورغ فتذكرت أمسيتنا في البار وحديثنا عن الموسيقى والأدب والفلسفة فوجدت نفسها مدفوعة لكتابة هذه البطاقة، ولم تقل غير هذا. ولما لم يكن في البطاقة ما يثير ريبة زوجة غيورة، فإني أهملت الاحتياطات المألوفة. فوقعت البطاقة في يد زوجتي. وانفجر في المنزل بركان، ثم لم يهدأ، واقتربنا من حافة الطلاق. وإذا كان الطلاق لم يقع في ذلك الوقت فلأن محمد بصل، أخا زوجتي، ما زال في المكان الذي يختفي فيه، ولم أجد من اللائق الإثقال عليه بمزيد من المتاعب.

والواقع أن شيئاً في دوافع هذا الانفجار رابني. فأنا لم أقتنع بأن حديثاً عن موتسارت وديستويفسكي وهيجل يمكن أن يثير غيرة زوجة إلى حدّ التسبب في دمار أسرتها. فتحريت الأمر وساعدني آخرون، لأكتشف أن شأني مع نينا مكشوف كله لزوجتي وقد وصل إليها مضامين الرسائل المتبادلة كلها. ولئن لم ترفع الزوجة من أدلة الاتهام في وجهي إلا البطاقة البريئة فلأنها لم تشأ أن تجهر بمعرفتها ببقية الأدلة حتى لا أتعرف أنا على المصدر الذي وضعها بين يديها.

افترضت بالطبع حتى قبل وقوع هذا الانفجار أن بريدي مراقب. فأنا أعرف

أنهم يراقبون في أجهزة الأمن السياسي المشاغبين وطويلي اللسان ومستقلي الرأي من أمثالي، يستوي في التعرض للمراقبة أن يكون المستهدفون أعضاء في الحزب الحاكم أو خصوماً له أو محايدين. لكن مراقبة البريد بنوازع سياسية شيء، وإيصال رسائل شخصية إلى الزوجة شيء آخر لم أحسب حسابه. لم يكن من السهل التيقن من أن الأجهزة هي التي أوصلت الرسائل ولم يكن من الحصافة نفي هذا الاحتمال. لكن استبعاد دور الأجهزة لا يعني إلا شيئاً واحداً هو أن لطف غنطوس لعبها من وراء ظهري وتسبب لي بأذى مريع وأنا أجل لطف عن هذا السلوك.

وكان أن طرقت باب عبد الكريم الجندي وصارحته بسبب حيرتي وقلقي. فأنكر أبو حسين أن يكون لأي من أجهزته الأمنية دخل في هذا الموضوع، وحذرني من أن أذيع مثل هذا الاتهام بين الناس. لم أسترح إلى إنكار صدر دون تحقيق أو تحريات. فقلت للعقيد إني لا أشك فيه هو ولا يخطر ببالي أن أتهمه بهذه الدنيّة، لكن من حقي أن أتصور أن بين مرؤوسيه من هو حاقد علي. وما أن قلت هذا، وقبل أن أتم ما شرعت في قوله، حتى انتفض العقيد في غضبة عاتية، وطالبني بأن لا أستغلّ احترامه لي للإساءة إلى جماعته. كان الرجل من النوع الذي يعدّ نفسه مسؤولاً عن الحفاظ على سمعة الناس الذين يقودهم، فأسقط في يدي ووقفت مظهراً عزمي على الانصراف. وقتها، وقتها فقط سأل هو: «هل تشك في أحد بعينه؟» فلم أجب على سؤاله، بل رجوته رجاء حاراً أن يجري تحقيقاً لعلنا نصل إلى نتيجة يقينية. ويبدو ان الرجاء، بعكس الاتهام، هو الذي أثر في العقيد، فقد وقف ومدّ يده لمصافحة الوداع وقال بنبرة ودودة: «زرني بعد أيام». وبعد أيام، هاتفني هو قبل أن أزوره، فأكد على أنه أجرى التحقيق وهو واثق مما توصل إليه: ما وقع لم يقم به أي من أجهزة الأمن. قال العقيد هذا، ثم أضاف: «فتش عن مصدر الأذى بين أصحابك!»

بعبارته هذه، وجهني أبو حسين إلى أن أتهم لطف غنطوس، ولأني كنت أعرف

أن عقيد القيادة لا يحبُّ لطف، فإن بلبالي بشأن المصدر لم ينطفئ. ولم يقدّر لي أن أعرف هذا المصدر بعد ذلك أبداً. أما ما نابني جرّاء تحرياتي فكان ازدياد تدخل الناس من الأجهزة وغيرها في شأني الشخصي. جلجلت الفضيحة فانشغل بها المحبّ والمبغض!

وفي الجريدة، سببت الزيارة مشكلة أخرى. شاورت رئيس التحرير في ما اعتزمت كتابته عن الزيارة. واتبع ناجي مألوف عادته فأراد أن يحيلني على الرفيق علي، لكن تشبثت بأن يتم الاتفاق معه أولاً. كنت أعرف أن ناجي الدراوشة يكره الشيوعية والشيوعيين كراهية تحريم فخشيت أن يوعز إلى علي من وراء ظهري بتعطيل نشر ما أكتبه عن الزيارة فتضيع المسؤولية. وفي ختام مناقشة ممضة، اتفقت مع ناجي على أن أسرد وقائع زيارتي في ما يشبه المذكرات اليومية، فأكتب حلقة عن كل يوم. وكان معنى هذا أن أنشر موضوعاً مسلسلاً على مدى أربعة عشر يوماً. أراد ناجي أن يقتصر الموضوع على الوقائع بغير آراء ويجزئه ظاناً أن هذا وذاك سيقللان من قيمته. ووجدت أنا في هذا النهج فرصة لإطالة أمد الاهتمام بموضوعي. وكنت أدرى من ناجي بما يمكن أن يبثه السرد الحاذق من آراء.

وما أن ظهرت الحلقات الأولى حتى بدأ اللغط، وقد صدر أول ما صدر عن غرفة رئيس التحرير. أبدى ناجي خشيته من أن يكون الشيوعيون قد بهروني فحولوني إلى بوق لهم. وقال الذين يجارون رئيس التحرير من رواد مجلسه إنه لا بدّ من أن يكون الألمان الديمقراطيون قد غمروني بكرمهم حتى أغمض عينيّ عن السلبيات. ومضى بعض هؤلاء إلى حدّ الاتهام الصريح: اشتراه الشيوعيون بالمال. وانداح هذا اللغط هنا وهناك، واتسع مع توالي الحلقات. ويوم نشر الحلقة السابعة، استدعاني ناجي فور وصوله إلى الجريدة في الصباح: «كثر الحكي عليك، فعليك أن تتوقف!» فصارحت ناجي بأني لا أقيم وزناً لحكي النمامين. قلت لرئيس التحرير إني وقد ندبت نفسي للكتابة مستعد للمجازفة. فالنمامون لن يكفّوا عن الحكي أيا كان ما أكتبه، وأنا واثق

من أن الناس المحترمين في البلد يقدرونني ويحترمون ما أكتب ويتداولونه باهتمام. وحذرت ناجي من أن إيقاف النشر سيبلبل القارئ لأن الحلقة الأخيرة المنشورة تضمنت الإشارة المعتادة إلى وجود حلقة تالية. ويبدو أن هذا التحذير بلبل ناجي ذاته. وبعد جدل آخر ممض، اتفقنا على أن أنشر حلقة واحدة جديدة تكون هي الأخيرة.

لا أتذكر ما كتبته في هذه الحلقة بتمامه. لكني أتذكر أني رويت شيئاً عن الاجتماع المشترك الذي شهدته بين وفد حزب البعث وممثلي الجبهة الوطنية الألمانية في ماكديبورغ. أتذكر هذا لأني تعمدت ان أنهي الرواية بهذه العبارة: «وهكذا، ذهب الرفاق البعثيون في طريق ومضيت أنا في طريق آخر». وكان هذا هو أقصى ما استطعت تمريره على رقابة ناجي وعليّ، لكي يدرك القارئ الفطن مقدار تميزي.

في مساء ذلك اليوم الذي شهد صباحه جدلي الممض هذا مع ناجي، لبيت دعوة إلى استقبال دبلوماسي. وهناك، لقيني الملحق الثقافي البلغاري، ديمتروف، ما غيره. رآني المفتقر إلى الفطنة واقفاً في حلقة مع عدد من المعارف من مختلف الجنسيات، فأقبل علي وصرخ قبل أن يبلغ الحلقة: «مقال واحد فقط عن بلغاريا، أما عن ألمانيا فحلقة وراء حلقة!» لم تكن عربية ديمتروف في العادة جيّدة، أما في ذلك الوقت فقد أطلق انتقاده بعربية يفهمها العارف والجاهل. أراد المعنّي بإبراز شؤون بلده أن يعاتبني فاختار أسوأ وقت وأقل الأمكنة ملاءمةً. وهكذا، وجدتني أنفجر في وجه ديمتروف، فأطلق لساني عليه، بالفصحى والعامية، بالعربية والإنجليزية، وأتهمه بالفظاظة وقلة الأدب. وقلت لديمتروف إنه يتجاوز حقوقه كدبلوماسي ويحشر أنفه في شأن داخلي لا يخصه. وشاعت حكاية مشاجرتي أنا صديق الدول الاشتراكية، مع الدبلوماسي الاشتراكي. فشمت بي وبه من شمت، وتدخل أصدقاء كثيرون لإطفاء سخطي. وهاأنذا لا أنسى موقف السفير البلغاري، فاسيل باليفسكي، الشهير. كان هذا رجلاً متقدماً في السن ذا تاريخ بطولي في مقاومته الاحتلال

النازي لبلده، وكان محبّاً للعرب وخصوصاً الفلسطينيين. وقد أيد باليفسكي موقفي ضد ملحقه الثقافي تأييداً لا لبس فيه، وعمل كل ما يلزم لتطييب خاطري. والذي حصل بعد ذلك أن ديمتروف نقل من دمشق وحل محله رجل يتقن العربية كأهلها ويتمتع بخفة دم ونباهة ملحوظتين. وكان هذا هو المستشرق كيرياك تسونيف الذي صار من أعزّ أصدقائي. وهو الذي ترجم إلى البلغارية نصوصاً فلسطينية وخصوصاً نصوصاً لمحمود درويش ومعين بسيسو.

في هذه الأثناء، وجد أصدقاء مخلصون لي ما ينتقدونه في ما كتبته عن ألمانيا. محمد بصل كان من هؤلاء، بل كان أقساهم نقداً وبالتالي أكثرهم فائدة لي. فهو لم يستسغ العنوان الذي تصدر الحلقات كلها، بل وجده إنشائياً خطابياً لا يستخدمه إلا مصممو الدعاية السياسية الرديئة، ولم يسترح إلى أسلوبي في إبراز الإيجابيات وحدها وإغفال السلبيات، بل عدّ هذا تضليلاً للقارئ لا يستفيد منه أيما أحد. وما أكثر ما تعلمته من انتقادات المخلصين!

ومهما يكن من أمر، فإن الحلقات المنشورة وما أثارته من جدل عززت شهرتي وقوت مكانتي في المهنة ووسعت علاقاتي بالأوساط السياسية والدبلوماسية. ومع اتساع العلاقات، زادت الهدايا التي أتلقاها من الدبلوماسيين هذه التي غالباً ما تكون من الدخان الفاخر والمشاريب المستوردة، فزادت قدرتي على إتحاف الزملاء والأصدقاء ببعض ما أظفر به. يقولون: رب ضارة نافعة، فلي أن أقول أيضاً: ربّ نافعة ضارة. والواقع أن هدايا الدبلوماسيين لي كانت نافعة وضارة في آن واحد. لقد ذكرت لك وجه النفع، أما الضرر فنجم من عادة اتبعتها حرصاً مني على كرامتي ودرءاً للشبهات. فقد كنت أرد على الهدية بهدية، تماماً كما أرد الدعوة إلى الموائد بدعوة مثلها. وكنت أنفق في هذا المجال مبالغ وفيرة. ولك أن تعرف أن دخلي في ذلك الوقت كان كبيراً بمقدار ما كان عملي كثيراً. بالرغم من هذا، ظل علي أن أستدين لأغطي العجز الذي أقع فيه كل شهر.

عدا هذه الأوساط، اتسعت علاقاتي أيضاً، بالأوساط الأدبية والفنية وربطتني علاقات شخصية، بضمنها صداقات حميمة، بأدباء البلد وفنانيه وسياسييه ونقابييه. وبمقدار ما يتعلق الأمر بناس النخب، يجوز لي أن أقول إني كنت أعرف هؤلاء الناس، جلهم إن لم يكن كلّهم. وقد ندر أن يقع حدث أو تنعقد ندوة ولا يكون لي في كل منها حضور ملموس.

وفي داخل حزب البعث، تعززت أكثر فأكثر شهرتي كناقد لاذع النقد لأي قائد مهما علت مكانته دون أن يخلّ هذا بأدائي لأي من المهام التي توكل إليّ. هنا، قد ينبغي أن أكرر ما استخلصته من التجربة فأنا لا أملّ تكرار هذا: حين ينتمي المرء لحزب أو منظمة أو شيء من هذا القبيل ويعتزم انتقاد السلبيات دون تهيب ويتوخى أن يكون انتقاده مسموعاً، فإن عليه أن يحترم الواجبات التي يمليها الانتماء وأن ينفذها على أتمّ وجه. ففي احترامه لواجبات الانتماء التنظيمي، يوفر المرء لنفسه احترام الأغلبية، كما يوفر لنفسه الحماية ضد الأذى الذي قد يتعرض له بسبب انتقاداته.

وعلى أي حال، فإن أمري في الحزب في ذلك الوقت كان بالغ الحساسية. اتسعت الشقة بيني وبين عدد كبير من أعضاء التنظيم الفلسطيني، وافتقدت علاقتي بهؤلاء، بمعظمهم إن لم يكن بهم كلّهم، الحميمية، ولم يبق لي بينهم إلا قليل من الأصدقاء الثابتين على الصداقة. كان معظم رفاق الأيام الصعبة والطموحات الكبيرة قد غرق في مشاغل الإدارات التي يتولاها ومشاكل الحكم وما يتصل بها من تحالفات أو صراعات داخل الحزب. أما أصدقائي من الموالين للقيادة القومية السابقة، لعفلق وفريقه، فقد غادر عدد منهم البلد وحوت السجون بعضهم وكفّ آخرون عن النشاط العام فوهنت صلتي بهم. كمال ناصر ومثله عدنان كامل الذي لم أذكره لك من قبل، هذا المعني بالخليط من العفلقية وما ينازعها في داخله، غادر كلاهما البلد. وأحمد مرعشلي الذي خسر منصبه احتفظ بولاء سري للقيادة السابقة لكنه قلص حضوره العلني في النشاط العام حتى كاد يغيب. أما يوسف الخطيب، هذا الذي يأبى أن

يتعامل مع من أو ما هو دون المستوى ذي السمة التاريخية الجليلة، فقد خسر مركزه في الدولة، وهو من كان مديراً لإذاعة فلسطين من دمشق ثم مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون، وانصرف لتدبير وضع خاص يوفر له لقمة العيش بغير امتهان ويحميه من الأذى، فاستثمر مكانته الأدبية وانتهى أمره إلى إنشاء دار للنشر، وأصدر **المفكرة الفلسطينية** التي لا بدّ من أنك سمعت بها، وباشر في جمع أشعار شعراء فلسطين المحتلة، هؤلاء الذين كانوا مناوئين لإسرائيل فاشتهروا باسم شعراء المقاومة، وتهيأ لإصدارها في ديوان واحد كبير. ومحمد عطية، رفيقي في الحصار الذي تعرضنا له في مخيم خان الشيخ يوم كاد الناصريون الساخطون على البعثيين أن يفتكوا بنا، حوّل ولاءه إلى القيادة المنحاة وانخرط في النشاطات السريّة المعارضة، وصار هدفاً لأجهزة الأمن يدخل السجن ثم لا يكاد يفرج عنه حتى يدخله من جديد، ولم يعد من اليسير أن تنتظم صلتي به.

بكلمات أخرى: غاب المؤهلون لمناوءة القيادة الجديدة، فغاب التشويق الذي كان يجتذبني إلى معامع الجدل والمناورات في الاجتماعات. وطوى معظم الباقين لسانه، أو راح يبحث عن موقع تدوم له فيه امتيازات الحكم في طيات الخلافات المستجدّة على مواقع النفوذ. ومع هذا النوع من الأعضاء، لم يكن لي فتّ خبز. وإذا وصفت وضعي في الحزب بأنه ازداد حساسية، فهذا نابع من تضارب مشاعري أنا تجاه هذا الوضع. فقد وجدتني عضواً في حزب لم أعد أحمل الكثير من الإيمان بفكره ناهيك بالولاء لقيادته. ووجدت قيادة تتحدث لغة اليسار وتبثُّ آمالاً عريضة دون أن أطمئن أنا إلى أن أعضاءها كلهم يساريون حقاً أو أجد في الآمال ما يرتقي كثيراً فوق مستوى الأوهام.

أضف إلى هذا أن تمتعي بمكانة مرموقة وصلات واسعة بأعلى مستويات النخبة، جلب لي حسد الرفاق وجعلني عرضة لدسائس متلاحقة هدفها إيذائي والحطُّ من مكانتي. وكان لدى هؤلاء ما يغيظهم فعلاً. فأنا لا أشغل في الحزب أي مرتبة إلا مرتبة العضو العادي، ولا أجهد نفسي في ما يجهدون

أنفسهم فيه لمالأة ذوي المكانات العالية. وأنا لم أتبدل، فلم أتخلّ عن مبدأيتي ولم أكف عن مناوءة ذوي النفوذ. وكلما انعقدت مقارنة بيني وبين الرفاق الآخرين كان الحكم يجيء لصالحي. وكان كثيرون من شاغلي المناصب العليا في الحزب والدولة يولونني تقديرهم واحترامهم وينوهون بجهدي وكفاءتي، وانطبق هذا حتى على نفر من الذين لم أتهاون في انتقاد مواقفهم. وقد حرص هؤلاء على أن يستمعوا إليّ بإمعان ويصنفوا ما أجبههم به في باب الانتقادات البناءة ويشيدوا بنزاهة دوافعي. وكان لي بين هؤلاء أصدقاء شخصيون كثيرون. وانتهى أمري بأن صار رئيس الدولة الأمين العام للحزب الدكتور نور الدين الأتاسي من أصدقائي، ورئيس الحكومة الدكتور يوسف زعيّن، ورجل الحزب القوي اللواء صلاح جديد، وكل الذين شغلوا وزارات الإعلام والثقافة والخارجية، وغيرهم. وكانت مفكرتي تضم أرقام الهواتف الخاصة بهؤلاء في مكاتبهم ومنازلهم ولي حق الاتصال بأي منهم لأي شأن من الشؤون. لكن لئن أغاظ هذا أصحاب الأيام السالفة، فلك أن تعرف أنه عزز إحساسي أنا بالتناقض الذي حدثتك عنه.

تناقض آخر كان تأثيره علي أشدّ وقعاً. فأنا لم أرض بعدد من بنود السياسات الممارسة. ولكن وجودي في الإعلام وضعني في قائمة المروجين لها. وقد أسلمني هذا التناقض إلى توتر مزمن ووجع ضمير يزيد هذا التوتر. ولعل هذا هو ما شحذ الجانب الاستفزازي في طبعي وأوقعني في خصومات حادة لم يكن لكثير منها لزوم. أيدت في سياسات عهد شباط/فبراير عدداً من بنودها. ومن ذلك أيدت التوجه إلى تطبيق قانون الإصلاح الزراعي وتعديله لصالح الفلاحين، والتوجه إلى التصنيع، والدعوة إلى التوسع في إنشاء التعاونيات. كما أيدت العمل الجاري لإصلاح ما فسد من العلاقات مع القاهرة، وكذلك مع الاتحاد السوفييتي. وتحمست لتشدد العهد في وجه إسرائيل والولايات المتحدة ومناصرته للمنظمات الفلسطينية. أما ما لم أؤيده فهو، بالإجمال، التطرف الذي طبع العهد بطابع المزايدة. وقد عارضت المزايدة

في الشأن الفلسطيني والموقف السلبي من دعوة التضامن العربي. بالرغم من ذلك، أو ربما بسببه، تشبثت بنهجي، أنتقد وجهاً لوجه، وأبسط آرائي بصراحة أمام الذين ألتقيهم من المسؤولين، وأعمل في الوقت ذاته بهمة وأؤدي ما أتولاه أو أبادر إليه من مهام، وأحتفظ بيدي نظيفة في الأحوال كلها، وأتجنب مواطن الشبهات الشخصية.

قد تسألني لماذا بقيت في هذا الوضع بالرغم من المتناقضات. وهذا هو أول جوابي: إنك تتأثر بالتناقضات قبل أن تضع يدك عليها، قبل أن تعيها. أما الوعي فإنه لا يجيء دفعة واحدة. يتشكل الوعي أولا بأولا، وعندما يبلغ تمامه يصير عليك أن تميل إلى هذه الناحية أو إلى تلك أو أن تنأى بنفسك وتعتزل. وفي ذلك الوقت، لم أكن قد وصلت إلى مفترق حاسم. فبقيت في السياق الذي يشدني مألوفه، حتى وإن ميّزت نفسي في داخله عن سواي، كما صرت تعرف.

في هذا السياق، جاء وقت طلب مني فيه أن أتولى مسؤولية دائرة حساسة في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون. وقد كان لهذا الطلب حكاية يجدر بي أن أرويها لك. فقد عيّن عبد الله الحوراني مديراً عاماً لهذه الهيئة، وصار صديقي محمد الزعبي في الوقت ذاته وزيراً للإعلام، فتوسعت بطلب منهما مساهماتي في الكتابة لبرامج الإذاعة والتلفزيون السياسية. وصرت عضواً في اللجان الطارئة التي تتشكل لدراسة هذا الشأن أو ذاك من شؤون الإعلام. وكان عبد الله مديراً عاماً معتداً بنفسه، وكان انسجامه مع وزيره كاملاً وصداقته لرئيس الحكومة راسخة. وقد اشترط عبد الله أن تطلق يده في إدارة المؤسسة الضخمة حتى يتمكن من إصلاح شؤونها. وخاض الطامح للإصلاح صراعاً مريراً ضد الفساد المزمن، ضد الفوضى المستحكمة، ضد نزوات الضباط المتنفذين الذين يبيحون لأنفسهم التدخل وتسلطهم. ولكي تدرك إلى أي حد جار التدخل والتسلط المزاجيان على عمل الهيئة، فإنك محتاج إلى أيام بطولها لكي تقرأ ما أعرفه أنا عنها وأنا محتاج إلى شهور لكي أكتبه. فيكفي، إذاً، أن تعرف بعض الأمثلة. فقد كان من المألوف مثلاً، أن

يتصل أحد النافذين بأي مسؤول فيطلب أن يبثّ التلفزيون على الفور أغنية بعينها فيُقطع البرنامج المقرر وتُبثُّ الأغنية. ولم يكن غريباً أن يُقبل نص إذاعي تافه أو تلفزيوني، أو يشغل إنسان عديم الكفاءة وظيفة، أو، أو، أو، لا لشيء إلا لأن هذا هو ما يريده شخص ذو نفوذ.

ولكي يواجه عبد الله هذا كلّه، شاء أن يستعين بعدد من ذوي الكفاءات الثقافية والإعلامية والإدارية الذين يثق هو بقدرتهم على الاستمرار في المواجهة والثبات في وجه الضغوط. وهكذا، جاء عبد الله بمدير جديد للإذاعة، وآخر للتلفزيون، وأعاد توزيع المسؤوليات الأخرى بحيث صارت الدوائر التي توجه العمل في أيدي ناس موثوقين ومتجانسين.

وقتها، كان في الهيئة دائرة اسمها دائرة التوجيه السياسي وهي دائرة تزيد صلاحياتها كثيراً على الصلاحيات التي يوحي بها هذا الاسم. فهي التي تصبُّ فيها المواد المقترحة للبث في أي برنامج، سياسي أو غير سياسي، والعاملون فيها هم الذين يتفحصون صلاحية المواد، فضلاً عن أنهم يسهمون بدور كبير في التخطيط للبرامج كافة. وكان علي الجندي الشاعر البعثي القادم من السلمية هو رئيس هذه الدائرة. وإذا كان عمل الهيئة كله قد تأثر بالسلبيات التي أشرت إليها، فإن عمل هذه الدائرة تأثر إلى ذلك بالطبائع الشخصية لرئيسها.

كان بين علي الجندي وبين ما تتطلبه شؤون الدائرة طلاق بائن. فهذا الشاعر ذو الطبع المستهتر بالواجبات الملزمة لا خبرة له بالعمل ولا جلد له على تعلمه وليس فيه قدرة للمواظبة على أي شيء إلا مخالطة الأصحاب وسمر المجالس. ولم تكن لدى علي موهبة تشغيل مرؤوسيه، فكان أن استأثر بالعمل والمسؤوليات ولكنه لم يؤد حقوقها. أما الأذى الأكبر فقد لحق بعمل الدائرة بسبب مزاج رئيسها. فما كان أسهل إغواء علي أو إسخاطه. فصار لقرارات العمل مصدران، الغواية أو السخط، وغاب التمحيص والتوجيه والتخطيط. ودبت

الفوضى في الدائرة، وفسد كل شيء فيها. وقد عجز المدراء العامون السابقون عن تطويع الشاعر لمتطلبات العمل كما عجزوا عن إزاحته، فهو شاعر ذو مكانة بين البعثيين وحزبي قديم، وله حماة كثيرون في السلطة. وبوصفه هذا، صار علي مناوئاً ثابتاً لأي مسؤول يتوخى تعديل الوضع، وكان من الطبيعي أن يصطدم بعبد الله المصمم على الإصلاح ويتحول مكتبه إلى مركز يستقطب المناوئين كلهم وتنتظم فيه مؤامراتهم لإفشال الخطط الجديدة.

تشاور عبد الله بشأن علي مع وزير الإعلام ورئيس الحكومة، وانتهت المشاورات بقرارين: أن ينقل علي إلى عمل في وزارة الإعلام لا مسؤوليات له، وأن يطلب مني أنا أن أحل محله. لم يفاتحني عبد الله بالأمر إلا بعد أن أنهى المشاورات، كان يعرف أني أرفض أن أشغل وظيفة رسمية وأني أرفض أيضاً أن أدخل بين مسننات الخلافات الحزبية، فجاء بالطلب بما هو انتداب أصدقائي لي لتولي مهمة إصلاحية لا يقدر عليها غيري، ووضعني بمواجهة ضميري.

لم أكن واثقاً من أني، أو أن أي شخص غيري، قادر على كنس الفساد المستحكم، لكني لم أكن قد انتهيت إلى اليأس. وهكذا، ترددت بين الرفض والقبول. وسألت عبد الله عما يمكن أن يحميني لو جاءتني عشيقة ضابط متنفذ بنص رديء لتغنيه فرفضته، هل سيحميني رئيس الحكومة أو وزير الإعلام، وإذا نجحا مرة فكم مرة سينجحان، وكيف أضمن ألا تثيرهما ضدي مؤامرة محبوكة باتفاق، وكم مرة سيتوجب علي أن أشكو أنا الذي سأتعامل مع عشرات النصوص كل يوم. لكن عبد الله، وهو المسكون بهاجس الإصلاح وتوطيد سلطته في الهيئة، لم يشأ أن أستسلم للهواجس، بل إنه اتهمني بالتهويل.

في تلك الفترة، وقعت حادثة صغيرة ذات دلالة أثرت على موقفي. فقد أبلغت إلى عبد الله معلوماتٌ من جهة ذات اختصاص تظهر أن موظفة في أحد الأقسام الفنية تمارس الدعارة وتقوم بالدعاية لاجتذاب الزبائن أثناء عملها. وكان عبد الله قد عرف قبل هذا أن الموظفة مخبرة لدى واحد من أجهزة الأمن، فاستغل

المعلومات الجديدة وأصدر قراره بوقفها عن العمل. غير أن الموظفة لم تعبأ بقرار المدير العام، بل جاءت في اليوم التالي إلى عملها وأعلنت بصوت عالٍ: «سأبقى هنا وأدوس على شوارب عبد الله وحاميه يوسف زعيّن». وصل النبأ إلى عبد الله وأنا عنده، فأسهمت بنصيبي في تهدئته، ونصحت بأن لا ينجر إلى مواجهة مع داعرة. وكان من رأيي أن الذين يحمون هذه المرأة هم الذين دفعوها إلى إعلان هذا التحدي الفظ، فالمواجهة ينبغي أن تكون معهم وليس مع أداتهم الصغيرة الرخيصة هذه. وعلى الخط الرباعي الذي يصل كبار المسؤولين بعضهم ببعض، تكلم عبد الله مع الدكتور زعيّن حول الفساد والإصلاح وتشدد في المطالبة بوضع حد لتدخلات أجهزة الأمن في عمل الهيئة.

جاء يوسف زعيّن بنفسه إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون. وحضر وزير الإعلام محمد الزعبي واستكملت المداولات بحضوري. وقتها، التفت الدكتور زعيّن ناحيتي، ولم يكن عبد الله قد ذكر له شيئاً عن ترددي، وقال: «أتدري لماذا اخترناك. لقد دققنا في أسماء الرفاق الصالحين للمهمة فلم نجد بينهم من هو أنشف وجهاً منك، فأنت وحدك المؤهل لمواجهة المتدخلين». كان محدثنا يعدّ وصفه لي بنشافة الوجه إطراء. وكان هو، والحق يقال، من أنشف الذين شغلوا منصب رئاسة الحكومة وجهاً، حين يتعلق الأمر بمواجهة أي فساد. وأمّن محمد الزعبي على كلام رئيسه وأضاف: «ناشف الوجه وغير هيّاب، هذا هو ما نحتاج إليه...» وكان الزعبي، والحق يقال أيضاً، طريّ الوجه دائم الابتسام، يبتسم بلزوم وبغير لزوم في وجه من يستحق ومن لا يستحق. عندها، نظر عبد الله إليّ تلك النظرة التي تقول: «هل ستظل متردداً بعد هذا الإطراء كله!»

شئت أن أشرح هواجسي التي ذكرتها قبل ذلك لعبد الله غير أنه هو سبقني وعرضها عرضاً مفصلاً. عندها، قدّم رئيس الحكومة تعهده: «لكم كلمتي وكلمة وزير الإعلام، لن نسمح لأحد بأن يزعجكم واليد التي ترتفع عليكم سنقطعها!» ومرة أخرى، أمّن الزعبي على كلام رئيسه، وأضاف: «اعتبروني

مجنداً لحمايتكم!» فهل كان بإمكاني أن أتشبث بترددي؟ بالطبع لا. وكل ما فعلته أني ذكرت عدداً من الشروط، وكان مما لا أزال أتذكره أن لا ينقض الوزير قراراً أتخذه أنا بشأن أي مادة، وأن لا يبتّ بأي شكوى أو يصدق أي وشاية ضدي قبل أن يستمع إلى وجهة نظري. فقال الزعبي وعلى وجهه ابتسامة تؤكد على ما وعد به: «لك علي إن كتبت أنا مادة أن أعرضها عليك قبل بثها». ثم بحثت مع الوزير والمدير العام الإجراءات الإدارية المتعلقة بتوظيفي. ولأمر ما لعله ناجم عن تأثير الهواجس. اشترطت أن لا تنقطع صلتي بالجريدة، بل أبقى على قائمة محرريها. فهاتف الزعبي ناجي الدراوشة على الفور، واتفق الإثنان على أن يستمر عملي في الجريدة بحيث يقتصر على الكتابة، إلى جانب عملي الجديد.

وضعت نظام عمل للدائرة واضحاً وبسيطاً، نظاماً أتاح توزيع الأعباء على العاملين كلهم كما أتاح لكل منهم أن يتخصص حسب مؤهلاته في الإشراف على نوع من المواد. واحتفظت لنفسي بسلطة الإشراف مباشرة على الأحاديث الدينية وبرامج الأطفال. وكلفت موظفة نشيطة ومستقيمة بأعمال السكرتاريا ورئاسة ديوان الدائرة. وصار على موردي المواد أن يسلموها لهذه الموظفة، فتقدمها هي إليّ مصنفة، فأحيل أنا كل نوع منها إلى الموظف المختص ليدرسه ويقيّم مدى صلاحيته، ويبقى لي في نهاية المطاف حق القرار الأخير. ووزعت ساعات عملي أو أعمالي على النهار والليل. فصرت أجيء إلى الدائرة في الثامنة صباحاً وأبقى فيها حتى الثانية بعد الظهر. وبعد غداء واستراحة في المنزل، كنت أتوجه إلى الجريدة في الرابعة، ثم أعود إلى الدائرة في السادسة مساء وأبقى فيها إلى أن أنهي الأعمال المتراكمة. وما أكثر المرات التي انتصف فيها الليل وأنا غارق في العمل!

في هذه الأثناء، رحت أدرس الحالة في الهيئة، وأحاول وضع اليد على مواطن الخلل لأتلافى ما يقع منها ضمن اختصاصي، أو أقدم لعبد الله وزملاء العمل الآخرين ما أتوصل إليه من اقتراحات. كنّا، عبد الله والذين انتقاهم لتسلم

المسؤوليات وأنا، فريقاً متجانساً يعمل كما تعمل خلية نحل، يتقاسم، أعضاؤه الأعباء، ويتبادلون الرأي والخبرات، ويتبارون في حمل المسؤولية، ويقيل بعضهم عثرات بعض. وقد أكسبنا تماسكنا، وكذلك جهودنا المثابرة، احترام المحترمين وعززا ثقتهم بنا وبالقدرة على الإصلاح. أما الذين زعزع عملنا مصالحهم أو قلص نفوذهم فقد وصفونا بأننا عصابة وتجندوا واستنفروا قواهم وعلاقاتهم لمحاربتنا. ولم تكن معركتنا في هيئة الإذاعة والتلفزيون إلا واقعة واحدة في سياق حرب بين الاستقامة والفساد، الفوضى والنظام، التحديث والتخلف، حرب يتقد أوارها في طول البلاد وعرضها، وعلى كل المستويات.

كنت أصغر أعضاء العصابة سنّا وأحدثهم عهداً بتولي المسؤولية. فانصبت جهود كثيرة للتأثير عليّ من قبل الذين تصوروا أنني الأطرى عوداً. وقد تنوعت هذه الجهود أو قل إنها كانت نوعين، إذ أن بعضها استهدف إغوائي فيما لجأ بعضها الآخر إلى الضغوط.

وهاأنذا أتذكر من محاولات الإغواء ما قام به آل قنوع لاجتذابي إلى ما ألفوا أن ينجذب إليه سلفي. وآل قنوع الذين أحدثك عنهم هم ثلاثة أقرباء لهم صلة بالمسرح. والذي قاد المحاولة منهم هو عمر وهو من كان زميلاً لي في المدرسة لبضع سنوات. وكان عمر هذا قد حقق لنفسه بعض الشهرة في دمشق بوصفه ممثلاً كوميدياً يتعاطى ذلك النوع من الكوميديا الذي أعدّه أنا تهريجاً. وقد كوّن عمر نواة فرقة مسرحية هو ممثلها الأول وأحد أقربائه هو كاتب النصوص والثالث هو المخرج. وكانت المسارح الرخيصة وحدها هي التي تعرض أعمال الفرقة. ولكن الفرقة بالرغم من هبوط مستواها شقّت لنفسها وسط الفساد والفوضى والمزاجيات طريقاً إلى الإذاعة ثم إلى التلفزيون. وقد برع عمر وقريباه في إغواء المسؤولين الذين تعاقبوا على الدائرة، وكانوا يصطادون كل واحد من هؤلاء بالطعم الذي يعرفون أنه يجتذبه. وكثيراً ما كان الطعم رشوة، أو إمرأة مهاودة، أو مخدراً، أو مائدة شهية، أو مزيجاً من الطعوم.

وفي يومي الأول في الدائرة، جاءني عمر وأظهر بهجة مجلجلة بوجودي، أنا صديقه كما وصفني، في هذا الموقع، وأمعن في إظهار البهجة مستخدماً التهريج الذي اشتهر به، فراح يرقص ويجلجل بضحكته المعروفة في المسرح ويطلق الهتاف المقترن بشخصيته الكوميدية: «طيبة!» بالنبرة المطوطة التي يتوخى بها الإضحاك. وبعد هذا المدخل، قال عمر بنبرة من يثق بأني لن أرفض عرضه: «هذه مقدمة الاحتفال؟ أما الاحتفال الذي يليق بالمناسبة العظيمة فسيجري الليلة، عندنا، سنجعلها سهرة لم تشهد دمشق مثيلاً لها!» هذه الجلبة وهذا العرض نشّفا وجهي زيادة على ما هو ناشف في الأساس: «أنا لا أسهر إلا مع أصدقائي، عليك أن تعرف هذا، وأنت لست منهم!» فلم يبد على مدّعي الصداقة أنه أُخذ بفظاظتي، بل إنه هتف مواصلاً تلبس شخصيته المسرحية: «يحرس دينك! هكذا يكون المسؤول المحترم!»

في اليوم التالي، رجع عمر ومعه حقيبة يد فاخرة. أقبل الذي اهتدى إلى طعم يناسبني بهيئة جادة وأخرج من الحقيبة كتباً تمنع الرقابة تداولها ويحصل القراء عليها من مصادر تصور هو أني لا أصل إليها: «رفضت السهرة فقلنا: عفة نفس وهذه من طباع الكرام. أما الهدية! الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدايا». فصار علي أن أتسلح بنشافة الوجه من جديد: «أنا لست رسولاً. وهذه الكتب موجودة كلّها في مكتبتي والحقيبة لا حاجة لي بها، فخذها إلى من يحتاج إليها!» وظل عمر يعاود الكرّة كلما اهتدى إلى طعم جديد، هكذا، طيلة وجودي في الدائرة.

وأتذكر دلال شمالي، وقتها، كانت هذه المغنية قد تخطت سنّ الصبا وظلت تتصرف كأنها صبية. وكان بعض البعثيين، ومنهم الشاعر خليل خوري، قد اكتشف دلال في مربع ليلي تغني فيه فافتتن بها ويسّر لها الوصول إلى الإذاعة والتلفزيون. وكتب خليل قصيدة عن جبل قاسيون، رمز دمشق وحدبه على البعثيين، وغنت دلال القصيدة فافتتن بها البعثيون كافة. دلال هذه

اقتحمت حجرتي اقتحاماً دون أن تمر على الديوان، واندفعت نحو مكتبي وأجلست نفسها على المقعد القائم أمامي دون استئذان. وبملابسها الضيقة والقعدة التي انتقتها ظهر من المرأة ذات الفتنة ما يكفي للفّ رؤوس عشرة رجال. كان بإمكاني أن أظهر فظاظتي للتو فآمر الزائرة بالانصراف ما دامت قد جاءت على غير موعد. لكن شيئاً في حركة المرأة اجتذبني إلى مراقبتها، فلم أظهر الفظاظة إلاّ بعد أن تمليتها وبعد أن استقرت هي. ويبدو أن زائرتي تصورت، وقد لاحظت أني أراقبها بانتباه، أنها أوقعت بي وانتهى الأمر؛ فقد رأيتها تفتح حقيبة يدها الأنيقة وتخرج ورقاً عليه كلام مكتوب وعلبة سجاير وولاعة؛ ثم رأيتها وهي تشعل سيجارة وتمتص نفساً وتنفث الدخان نفثات متمهلة، ثم وهي تمد إليّ الأوراق وتقول: «وقّع على هذه النصوص، إنها أغان جديدة وأنا مستعجلة على تسجيلها!» عندها، رأتني هي أنهض وأتجه إلى الباب الذي تركته هي مفتوحاً وأهتف من موقفي عند الباب طالباً من السكرتيرة أن ترسل إليّ كل من ينتظر مقابلتي، ثم رأتني وأنا أرجع إلى مكتبي على مهل، ثم وأنا أجلس على مقعدي، ثم وأنا أقول على مسمع من المراجعين: «لو أخرجت جسدك كله من هذه الملابس وليس فخذيك وحدهما، لما أمكن مع كل الفتنة أن تحصلي على معاملة استثنائية».

يقينا أن دلال فوجئت برد فعلي مفاجأة تامة. وقد توقعت أنا أن تجابهني المغنية بكلام وقح فيصير لي الحق في أن أطردها طرداً. لكني فوجئت بدوري برد فعلها. فهي سرعان ما اتخذت قعدة محتشمة دون أن يفارقها مظهر الثقة بالنفس، ومصت من السيجارة نفساً عميقاً، ثم قالت وهي تنفث الدخان: «لم أفهم». وبردّ فعلها هذا، امتصت التي استفزتني حنقي، فشرحت لها الإجراءات التي نتبعها، وطلبت منها أن تودع أوراقها في الديوان، وقلت إن النتيجة ستبلغ إليها ما أن نفرغ من تقييم النصوص. عندها، قالت هي: «من تظن نفسك حتى تحدثني بهذه اللهجة. إذا لم توقع فوراً فسأجيء بتوقيع الوزير في لمحة عين». ولأني كنت قد فوّت فرصة طرد هذه السيدة ولم أعد بعد راغباً في أن أكون فظاً،

فقد قلت بهدوء مراعياً أن يستخلص الحاضرون كلهم العبرة: «لك بالطبع أن تجربي، لكن علي أن أحذّرك، فقد اختاروني لهذا المكان حتى لا يستقوي أحد بأي وزير». فسحبت دلال أوراقها وانصرفت دون تحية أو كلام.

بعد يومين اثنين، جاءت دلال مع السكرتيرة مرتدية ملابس تبرز رشاقتها دون تبذل وعلى وجهها ابتسامة عريضة، وقالت قبل أن تجلس: «سألت عنك وعرفت أنك أهل للاحترام. وأنا أعتذر عن سوء الفهم».

هذه السيدة أمكن اجتذابها إلى السلوك الصحيح، إذاً، لكن الذين تعاملت معهم لم يكونوا كلّهم مثلها. ولا أبالغ إن قلت لك إن معظم الذين لم أتهاون معهم حقد علي ونهش سمعتي بالنمائم، بالرغم من أني عاملت الجميع بالتساوي، الموالين للسلطة والمناوئين لها. ولعل أبرز ما فعلته أني حاولت اجتذاب الموهوبين وذوي الكفاءات إلى التعاون معنا مستبعداً معيار موقفهم من السلطة. وقد أقنعت الوزير بتنظيم استقبال دعي إليه عدد كبير من هؤلاء وجرى فيه حوار صريح تعهد فيه الوزير توفير فرص متساوية دون استخدام معيار الولاء. ثم ثابرت من جانبي على الاتصال لوضع هذا التعهد موضع التنفيذ.

وفي مراقبتي للبرامج، وفي حثي على ابتكار برامج جديدة، سعيت إلى توفير هامش ما من الحرية، هو الهامش الذي تبيح لي صلاحياتي حين أستخدمها على أتم وجه أن أوفره. ومع النجاح الذي حققه التوسع النسبي في الانتقاد، دعمني محمد الزعبي بصلاحياته ودعمني عبد الله وبقية العصابة. وحمانا زعيّن بنفوذه، فاتسع الهامش، وبدأ الذين ترددوا في التعاون معنا يراجعون أنفسهم، فزادت الفرص، وبدا أن الأمور تتقدم في النحو الذي نتوخاه، وكنّا كلما أنجزنا خطوة ونجحنا في محاصرة ردود الفعل السلبية عليها شرعنا في خطوة جديدة أجرأ. لكن لا يغريك هذا الكلام فتتصور أن متاعبنا صارت أقل أو أن ما حققناه كان عظيماً. كل ما في الأمر أن ثقتنا بجدوى التشبث بالسلوك الصحيح هي التي كانت عظيمة. أما هامش الحرية الذي وفرناه

فظل دون أي مستوى يُعتدُّ به. وهاأنذا أتذكر تجربة خضناها وكدنا نقترب بها من المستوى المتوخى، لكن مسعانا أحبط قبل أن يبلغ تمامه.

كانت هذه تجربة في برنامج «يا مرحبا» الذي يعدّه ويقدمه فيصل الياسري. وقد صمم فيصل القادم حديثاً من ألمانيا الديمقراطية حيث درس الصحافة التلفزيونية برنامجه في صيغة محاكمة: هيئة اتهام، وهيئة دفاع ومتهمون، وما إلى ذلك. وكان فيصل ينتقي المتهمين من بين مسؤولي المؤسسات التي يمكن كشف عيوب عملها دون المساس بالسياسات العامة أو المسؤولين الكبار. والواقع أن البرنامج اجتذب مشاهدين كثيرين بالرغم من انخفاض سقف حرية التعبير الذي يحكمه. وهذا هو ما شجعنا على اختيار هذا البرنامج بالذات للدخول في التجربة. وشئنا أن نرفع السقف ونقارب السياسات العليا. وهكذا، خططنا لإجراء محاكمة لمسؤولي الإذاعة والتلفزيون. واشتملت الخطة على أن تستغرق المحاكمة حلقات عدّة. ودبرنا الأمر بحيث تتدرج المحاكمة في الكشف عن السلبيات، فتبدأ بوضع اليد على أوجه القصور في الهيئة، ثم في الإعلام ككل، ثم تصل إلى كبار المسؤولين في الدولة باعتبار أن الإعلام هو خادم السياسة التي يرسمونها والخلل موجود في هذه السياسة.

اخترنا هيئة الاتهام من بين أكثر منتقدينا جرأة وانتقينا هيئة الدفاع من غير المتعصبين لنا. وجلس في قفص الاتهام ثلاثة، مدير الإذاعة، ومدير التلفزيون وأنا. ونفذنا خطتنا، فلم ندحض معظم الاتهامات، بل رحنا نرجعها إلى أسبابها ومسببيها الذين هم أعلى مراتب منا، ممهدين للحلقات التالية. وما أن بثت الحلقة الأولى حتى انهالت اتصالات المشاهدين، ثم توالت الرسائل في البريد. وكان معظم ما وصلنا يشكك في أننا سنمضي إلى النهاية. فلما أذيعت الحلقة الثانية التي انضم عبد الله فيها إلى الجالسين في قفص الاتهام، والتي سارت على منوال الأولى وصعدت به، تبدلت لهجة الاتصالات والرسائل، وزاد عدد الراغبين في تزويد هيئة الاتهام بما يدعم الاتهامات. وكان من المتفق عليه ومن خطتنا أن ينضم وزير الإعلام إلى المتهمين في الحلقة التالية، ثم يجيء دور

رئيس الحكومة ليواجه الاتهامات التي تمس السياسات العليا. والواقع أننا تشاورنا مع رجلي الحكومة هذين وتلقينا موافقتهما المبدئية، غير أنهما أحجما كلاهما بعد أن شاهدا ما جرى في الحلقتين وانكشفت نوايانا وخطتنا.

ومهما يكن من أمر هامش الحرية المتاح، فإن ما بثَّ منذ توليت مسؤولية الدائرة كان كافياً لإبراز نواياي وتميزي عن الذين سبقوني، تماماً كما كان كافياً لإثارة سخط الذين تؤذيهم الشفافية ولا يهنأ بالهم إلا إذا كبتت الحريات. ولك أن تعرف أن هؤلاء حملوا لي عداء يكفي لنسف جبل. ولولا تماسك العصابة ورعاية عبد الله والحماية التي يوفرها وزير الإعلام ورئيس الحكومة وغيرهما لما أمكن أن أستمر في عملي الجديد أسبوعاً واحداً. وأنا على كل حال ومع توفر كل ما تقدم لم أبق في هذا العمل إلا لبضعة شهور.

وما دمت أذكر بعض الأمثلة فلأروِ لك ما فعله بي كاتب صديق، قبل أن أحدثك عما فعله الخصوم. الكاتب الذي أتمثل بحكايته هو نصر الدين البحرة، وهو من ظل يجهر بسعادته بوجود مثلي في الدائرة، إلى أن جاء دوره ليمسه أسلوبي في التعامل مع الجميع دون محاباة. صديقي هذا جاءني بنص إذاعي كتبته قريبة له هي، إن لم تخنّي الذاكرة، من كانت زوجته. وقد حصلتُ على تقييم الموظف المختص لهذا النص. وكان الموظف من أصدقاء نصر الدين مثلي. وكان التقييم لغير صالح النص. فقرأت النص بنفسي، فتأكد لي صواب التقييم، ورفضت الإذن ببثه. وعندما ناقشني نصر الدين في موقفي آملاً أن يثنيني عنه، شرحت له سبب الرفض: ركاكة البناء وسذاجة المحتوى. وذكّرتُ نصر الدين بأنه يعد نفسه مثقفاً ماركسياً ويتنطح لمنافسة زعيم الشيوعيين خالد بكداش ويتحداه ويتهمه بالقصور في فهم الماركسية، فلي عليه، إذاً، حق أن يفهمني. فالنص الذي كتبته قريبة صديقي هذا يتناول شخصية إقطاعي فيصفه بأنه فظ المظهر والسلوك، ينتصب على وجهه شاربان ضخمان، ولا يتكلم إلا صراخاً، ويجلد أبناء الفلاحين بسبب وبغير سبب، ويغتصب نساءهم، ويكاد لا يصحو من السكر. وكان هذا كله مرسوماً

بأسلوب مباشر خال من أي جاذبية فضلاً عن أنه ركيك. استحضرت ما في النص وسألت نصر الدين: هل بهذه الركاكة نحرض ضدّ نظام الإقطاع؟ وماذا لو كان الإقطاعي، كما هو شأن كثيرين منهم في الواقع، رجلاً بهيّ الطلعة حريصاً على آداب السلوك صائماً مصلياً حاجاً إلى بيت الله، هل يصير نظام الإقطاع عادلاً؟ واستخدمت اللغة التي أعرف أن صديقي يفهمها: إن الإقطاع نظام تحدده علاقات إنتاج متخلفة وظالمة بصرف النظر عن سلوك هذا الإقطاعي أو ذاك. وقد استهلك الأدب في سورية صورة الإقطاعي الفاسد والجاهل والفظ حتى حين رسمتها نصوص لها قيمة فنية، فكيف بهذا النص الذي لا يخدم إلا التخلف.

بعد هذا الشرح، أظهر نصر الدين تحبيذه لموقفي ونوّه بما سماه هو عمق فهمي للأمور، بل هتف: «منذ زمان، كنّا نتمنى أن يستلم الدائرة شخص لا يحابي أصدقاءه». إلا أن نصر الدين ذاته كتب في اليوم التالي في زاويته في جريدة الثورة أن المسؤول الجديد عن النصوص، الذي هو أنا، يدافع عن الإقطاع. ووصفني صديقي في زاويته بأنني من أعداء الثورة، وتمنى على من سماهم المسؤولين عن العهد اليساري الذي نعيش فيه أن يعلقوا أمثالي على المشانق.

مع رجال الدين المسلمين، الذين يبثون الأحاديث الدينية أو يلقون خطب الجمعة المنقولة على الهواء مباشرة، كانت لي حكايات وحكايات. فقد كان التنافس شديداً على الاستئثار بالفرص المتاحة، حديث إذاعي واحد وآخر تلفزيوني كل يوم وخطبة واحدة كل أسبوع لعشرات المتنافسين. وقد استقر الوضع قبل مجيئي أنا على عدد ثابت من هؤلاء، حددته موازين قوى وحسابات واعتبارات أخرى شتى، فلم أشأ أن أبدل هذا الوضع. ولأن المتحدثين ألفوا تبدل العهود والحكومات وتقلب السياسات، فقد تجنب معظمهم الخوض في السياسة أو أي شيء يفضي إليها، وصار يختار الموضوعات التي لا تثير سخط أحد. أضرب لك مثلاً عن واحد من هؤلاء كان من أهم مشايخ البلد هو بهجت البيطار، وهو من كان ذا سمعة ومهابة راسختين في الأوساط المحافظة،

وكانت له في السياسة آراء ومواقف لا يجمعها جامع بالبعثيين. وقد أعدّ الشيخ بهجت مسبقاً الأحاديث التي يلقيها طيلة عام ليكررها هي ذاتها في العام التالي. وكانت الأحاديث كلها مما يتناول موضوعات الطهارة أو العبادات والفرائض أو الإحسان أو برّ الوالدين، أو ما إلى ذلك مما يعفي الشيخ من تناول الشؤون الحساسة.

ولأني لا أنبهر برجال الدين بعد تجربتي الطويلة معهم في صباي وفتوتي، ولأني أعدّ نفسي يسارياً وأتصور أن اليسارية تقضي بتطويع أي حديث لخدمة هدف ثوري، سياسي أو ثقافي أو اجتماعي، فقد طمعت في أن أضع رجال الدين على هذا الخط. ولما لم تكن لدي صلاحية إلزام هؤلاء أن يقولوا ما أريد، فقد توخيت إقناعهم إقناعاً، وتوهمت أني سأفلح، ما دمت على صواب. وهكذا، بدأت، كما سبق أن قلت لك، بأن حصرت مهمة الإشراف على الأحاديث الدينية بي. ثم رحت أستدعي المشايخ واحداً بعد آخر وأجرب براعتي. ولك أن تعرف أن عدداً من هؤلاء استجاب لي. بعضهم استجاب لأنه اقتنع فعلاً بأهمية وقوف رجل الدين إلى جانب غالبية الشعب ضد الاستغلال وإلى جانب الشعب ضد الاستعمار والصهيونية؛ وبعضهم استجاب لأنه تصور أني أبلغ إليه طلباً من السلطة. إلا أن عدداً من الشيوخ رفض الاستجابة؛ بعضه أبى أن يخوض في السياسة، أي سياسة، وبعضه أبى أن يجاري السياسة الجارية، وقدم آخرون إجابة مراوغة ثم استمروا في ما هم فيه.

الشيخ بهجت البيطار كان أفصح الرافضين وأوضحهم موقفاً: «تريد أن أتحدث كما تتحدثون، أنتم البعثيين، هذه كبيرة عليك يا ولدي!» وإزاء إلحاحي أنا الذي يسمع ما هو رائج عن صلات الشيخ بالمملكة السعودية، صارحني هو بأن السعودية عرضت أن تدفع له خمسة آلاف ليرة شهرياً كي يهاجم البعثيين، ثم قال ساخراً: «فهل تظن أنت أنك تشتري صوتي بخمسة وعشرين ليرة!» وكان هذا هو الثمن الذي يتقاضاه المحدث عن كل حديث. وقبل أن أهتدي إلى ما أحاجه به، دعاني الشيخ إلى أن أحمد الله لأن شيخاً له

مكانته يقبل أن يتحدث، «أما أن أجاري أهواءكم فهذه ليست لكم!» وقد ظل الشيخ بهجت البيطار يكرر أحاديثه عن البر والإحسان ويتعاون سراً مع خصوم البعثيين.

وبين الذين حاولت إقناعهم، كان الشيخ عبد الرؤوف الأسطواني القاضي الشرعي. عرفت هذا الشيخ قبل سنوات عديدة عندما كنت أتردد على الجامع الأموي وكان هو أحد ثلاثة يتناوبون خطبة الجمعة على منبره الشهير. والتقيت الشيخ بعد ذلك عدّة مرات، فيما كنت أجيء إلى القصر العدلي بصحبة المحامي الفلسطيني خليل جبري الذي عملت أجيراً في مكتبه وأنا فتى. وقد أعددت نفسي إعداداً خاصاً للحوار مع الشيخ الذي صار هو القاضي الشرعي الممتاز وزادت حصاناته. وعزمت على استثمار براعتي لأدير معه حديثاً صريحاً. إلا أن الشيخ لم يأت إلى الموعد وحده، بل صحب شيخاً آخر أعرفه ولا أحبه ولا أحترمه. وكان هذا الشيخ الثاني هو تلميذ الكلية الشرعية الذي سبق أن حدثتك عنه والذي طرد منها متهماً بالشذوذ الجنسي فظهر في الجامع الأموي بزي المشايخ وراح يعظ الناس بما يعرف وما لا يعرف فاصطدم جبري به. وقد تابع الفتى الذي صار شاباً سيرته، فوضع نفسه في خدمة أجهزة الأمن في العهود المتعاقبة مخبراً يتجسس على عباد الله ويتقدم في المراتب، ولم أكن قد نسيته. ولهذا فرض وجوده على مجلسي مع الشيخ الآخر المحترم جواً ثقيلاً وبلبل أفكاري وإعداداتي.

تسربل الشيخ عبد الرؤوف بالصمت الوقور معظم الوقت فيما رحت أنا أتحدث. أما الشيخ الآخر، ولأسمّه هنا س.، فما أشدّ الجلبة التي راح يصطنعها وما أكثر ما قاطعني لسبب وبدون سبب! ولم يظهر الشيخ المحترم استجابة أو رفضاً، بل قال بنبرة صوته المتأنية: «الله الموفق لقول ما فيه الخير». أما س. فقال دون أن يُسأل إنه يضمن أحاديثه هذا الذي أشير إليه وأكثر، وبدا حريصاً على إفهامي أنه رجل حكومة. ثم أذن س. لنفسه أن يتبسط معي مع أن ضيقي به وضيق الشيخ عبد الرؤوف بثرثرته ومزايداته كانا ظاهرين.

وقال س. إن كل الذين يلقاهم من مسلمين أو غير مسلمين يقدرون كونه رجل دين ويراعون حرمة شهر الصوم ولا يدخنون في حضوره. قال س. هذا ليضيف بعد ذلك أني أنا لم أفطن لهذا الأمر بالرغم من لباقتي الظاهرة. ولم يكن ينقصني إلا أن يجبهني ذو السيرة الفاسدة بهذه الملاحظة حتى ينبثق الضيق الذي يخنقني. وهكذا وجدتني أواجه الرجل بنظرة وشت بما أعرفه عنه وأهتف مستنكراً: «شيخ س.!» وأقرن الهتاف بحركة اليدين التي تعني: «لقد تجاوزت الحد!» وبدا لي أن س. تذكرني في هذه اللحظة أو تذكر الحكاية القديمة وتيقن من أني أعرفها. ومنذ ذلك الوقت، دأب س. على تصيّد المناسبات ليغرقني بنفاقه.

مصاعب العمل تبقى جزءاً من مشاغل هذا العمل. أما المصاعب التي تُعنّي الروح فجاءتني من الرفاق البعثيين وأجهزة الأمن. خذ علي الجندي مثلاً، نقل إلى مرتبة أعلى في وزارة الإعلام وصار راتبه أكبر دون أن يحتاج إلى القيام بأيّ جهد فتفرغ لمناوأتنا والتأليب علينا. وقد خصني علي بجزء كبير من سخطه، سخط لأني حللت محلّه وسخط أكثر لأن المقارنة بين سلوكي وسلوكه كانت تصبّ لصالحي، وما أكثر الذين أخذوا يقارنون بين حال الدائرة في أيامه وبين الحال الذي صارت عليه!

وفي التنظيم الفلسطيني للحزب، حسدني الرفاق. وكان من هؤلاء نفر من أعزّ أصدقائي في الأيام الخالية، حسدوني لسببين قد يبدوان متناقضين: لأني أحتفظ بما تخلّوا هم عنه وأظل مستقل الرأي والإرادة؛ ولأني أتمتع مع هذا بمكانة واحترام لا يحظون هم بمثلهما. كان هؤلاء أوفر موارد مني وأعلى مراتب إذ أين منصب رئيس الدائرة المتواضع من مناصب المدراء العامين للمصانع والمؤسسات. ولكني كنت أهم منهم، فلم يراعوا أني أحقق مكانتي بجهدي وبحرصي على استقلاليتي بالذات، بل حسدوني. والحسد يؤسس للبغض. والبغض قد يتزيا بأزياء مخاتلة فتجيئك ضربةٌ فلا تعرف لم جاءت.

هنا، قد ينبغي أن أعيد القول إن بقائي في الحزب لم يستند إلى الاقتناع بعقيدته، بل بقيت للأسباب التي ذكرتها لك. ومع توسع نشاطاتي باضطراد وتزايد المخاطر، انضاف سبب آخر أصارحك بأني انتبهت إلى فائدته. ففي عضوية الحزب ضمانة ضد المخاطر وفيها غطاء. وإلى هذا، كان أصدقائي من البعثيين السابقين أو الباقين في الحزب يحثونني على البقاء. أما أصدقائي من الشيوعيين وأخصهم نبيه ارشيدات، فصار حثهم إياي على البقاء في البعث واجبا من واجباتهم الثابتة، حتى لقد بدا لي أن لا همّ لنبيه الشيوعي إلاّ همّ استبقائي في حزب البعث. ومنذ تعرفت على خالد بكداش، لم يكف الأمين العام للحزب الشيوعي عن التنويه بأني بعثي يساري صادق النية وأن وجود أمثالي في حزب البعث ضروري لدفع هذا الحزب أكثر فأكثر في الاتجاه التقدمي. وسواء صح هذا أو لم يصح، وسواء خالط المبررات المبدئية شيء من رغباتي الشخصية أو لم يخالطها فإني عددت احتمالي البقاء في الحزب تضحية أبذلها لصيانة قناعاتي الكبيرة. وعلى هذا، فإني لم أستسلم إزاء المحاولات التي جرت لإقصائي عن الحزب، بل قاومتها وأحبطتها.

وهاأنذا أتذكر واحدة من هذه المحاولات وأرويها لك لأنها تعطيك فكرة عن أساليب المبغضين وجهودهم لإيذائي. هذه المحاولة أدارها زميلي السابق في السكن رفيق الأيام الصعبة إميل صبيح. إني لا أعرف إلى الآن لماذا أبغضني إميل بعد محبّة، هل أبغضني كما روى هو بسبب غيرته على الحزب الذي رأى أني أفتنّ في انتقاد سياساته فيما أنا قاعد في حضنه، أم أن جهات ما، حزبية قيادية أو أمنية حرضته على الإيقاع بي. الشيء المؤكد أن إميل سعى سعياً حثيثاً لإقناع قيادة التنظيم بطردي من الحزب. وفي محاولته التي أحدثك عنها، وهي واحدة من كثرة، استغل إميل شيئاً اشتهرت به وهو دأبي على تأليف النكت السياسية التي تعرّض بالحزب وقادته. وحثّ إميل زميلا لي يعمل في إدارة جريدة **البعث** ويعسّ لأحد أجهزة الأمن، فجمع هذا عدداً من أوجع النكت وجعله في تقرير قدّمه إلى قيادة التنظيم مطالباً بطردي على

أساس أني معادٍ للحزب. وقد فشلت قيادة التنظيم في تشكيل لجنة تحقيق، لأن الأعضاء جميعهم وبضمنهم إميل والذين على شاكلته أبوا أن يرأسوا اللجنة، فانتهى الأمر إلى قرار بأن تحقق القيادة معي مجتمعة.

كل هذا كان يجري من وراء ظهري، لكني عرفته لأن عضو القيادة الدكتور فتحي موسى أنف أن يجاري إميل في التآمر وأطلعني على ما يجري وحذرني. وهكذا، جئت إلى الاجتماع وأنا متهيئ له. وتعمدت منذ ولجت حجرة الاجتماع أن أملأ الجو بالنكت. وقتها، بدا عمر خليفة محرجاً، فهو لم يشترك في المؤامرة، لكنه لا يجهل وجودها. وخاطبني عمر بلهجة رسمية، فذكر التهمة الموجهة إلي، وذكر الوقائع الواردة في التقرير، ثم طلب رأيي في ما هو منسوب إليّ. لم أقل رأيي، بل وجهت سؤالاً: «هل تريدون، فعلاً، تحقيقاً جدياً، أم أنكم تلقيتم تقريراً فلا بدّ من أن تحققوا معي بشأنه ثم نطوي الموضوع؟» وقبل أن يجيب أحد، قلت أنا إن كان الأمر أمر أداء واجب روتيني ليس أكثر فسأساعدكم على شرط أن نطوي الموضوع دون ضغائن. أما إن أردتم أن تنبشوا ضميري فإن لي أنا الآخر أظافر، وأنا أستخدمها كلما اقتضى الأمر. ثم جعلت تحذيري أوضح وقرنته بعرض صريح: «لنطو الموضوع فيبقى كل منا على ما هو فيه أو إني سأسجل في التحقيق وقائع قمت بها بصحبتكم، وقائع يطالها قانون العقوبات العام، وليس نظام الحزب وحده!»

التقط عمر العرض، وأجال نظره في رفاقه فالتقط ما أوحت به نظرات الأغلبية، ثم نظر إلي فالتقطت الاستجابة. وانتهت هذه المحاولة دون أن أطرد من الحزب أو تنالني أي عقوبة. وما زلت أتذكر من بين الذين دعوا إلى الإدلاء بشهاداتهم صديقي وزميلي السابق في عرب فلسطين ورفيقي الذي سبقني إلى حزب البعث محمد زعيتر. كان محمد قد صار مثلي صحافياً، وقد ذكر التقرير أنه كان حاضراً عندما فهت أنا بما فهت به ضد الحزب. وقد دخل محمد الحجرة بخطوات عسكرية وأدى التحية على طريقة العسكر، مظهراً بهذا سخرية سافرة بالذين استدعوه. فلما انتهر عمر الشاهد، قال محمد:

«أعطيتم لأنفسكم دور ضابط الأمن وأردتم تحويلنا إلى مخبرين، فلماذا لا أعاملكم على هذا الأساس؟!»

في تلك الفترة، اشتد تسلط أجهزة الأمن عليّ. أنا لم أعرف منذ عهد ديكتاتورية أديب الشيشكلي فترة لم أكن فيها أسير قلقي من هذه الأجهزة. ولم أعرف منذ جاء البعث إلى السلطة فترة أمنت فيها على نفسي حتى مع أني عضو فيه. غير أن الفترة التي أحدثك عنها كانت هي الأقسى حتى ذلك الحين. فقد صارت الرقابة على هاتفي المنزلي دائمة، وعلى اتصالاتي عبر الهواتف الأخرى، وعلى مراسلاتي. وكثرت تقارير مختلف المخبرين ضدي. وبلغ أمر التقارير المتواترة حداً جعل عبد الكريم الجندي يحذرني في واحدة من نزواته ويطلب مني أن أنتبه إلى لساني لأن المخبرين أتعبوه لكثرة ما نقلوا عن هذا اللسان. وقد ألف هذا المشرف على أجهزة الأمن، كما عرفت منه وأكد عليه أحد مساعديه، أن يرفض التقارير التي تتناولني، وكان يردد كلما جيء إليه بتقرير: «هذا إنسان يقول في وجوهنا كلاماً أقسى من الذي يقوله في غيابنا، فلم التقارير».

هنا، قد ينبغي أن أذكر لك أن العلاقة بين الحزب وأجهزة الأمن صارت أكثر تعقيداً في هذا العهد مما كانت عليه في أي عهد سبقه. فصلاح جديد من موقعه في قيادة الحزب ونور الدين الأتاسي ويوسف زعين وآخرون مثلهم حاولوا توطيد مكانة التنظيم الحزبي وتوسيع صلاحياته. والواقع أن هؤلاء شاءوا أن لا يقتصر دور الحزب في الحكم على التوجيه والمراقبة بل يتعداه إلى الإدارة والتنفيذ، فصار من شأن هذا أن ينتقص من صلاحيات القائمين على المؤسسات الحكومية حتى لو كانوا من البعثيين أنفسهم. واشتمل هذا على المس بسطوة أجهزة الأمن على الإدارات الحكومية بالرغم من أن الحاجة إلى دورها في حماية النظام وملاحقة خصومه لم تتبدل. وأنا أتذكر كيف وصل الأمر إلى حد أن يؤخذ رأي منظمات الحزب في توظيف أي موظف جديد من أي مرتبة، فصار الحزب شريكاً لأجهزة الأمن في هذا المجال. وكان من الطبيعي أن تحاول الأجهزة مقاومة أي إجراء يمس هيمنتها الكاملة حتى

لو كان إجراء بسيطا، وتسخط على البعثيين الذين يقفون وراء الإجراءات أو يتحمسون لتنفيذها. وكثيراً ما راقبت أجهزة الأمن حزبيين مقربين من القيادة واختلقت الأسباب للبطش بهم. وقد شاع في تلك الفترة أكثر مما شاع قبلها استدعاء الأجهزة لنشطاء حزبيين ومسؤولي إدارات حكومية وإخضاعهم لتحقيقات لا هدف لها إلا المس بسمعتهم أو كسر شوكتهم. ولك أن تعرف أن كثيرين من هؤلاء لم يصمدوا أمام الضغوط. وما كان لي أن أنجو من ملاحقة هذه الأجهزة لي. بل إنني صرت معرضاً لمزيد من النقمة كلما اتسع نشاطي وأثمر. وبتزايد عدد المحرضين ضدي وثباتي في رفض الضغوط، ازداد عدد الذين يريدون كسر شوكتي وتخويفي.

١٦ طردت من الوظيفة وبقي لي المهم

أصدر رئيس الحكومة قراراً يحظر على أجهزة الأمن السياسي استدعاء موظفي الدولة إلا حين يتوفر سبب ملزم. وأوجب القرار أن يتم الاستدعاء عن طريق الوزير الذي يعمل المستدعى في وزارته. وأصدرت قيادة الحزب قراراً موازياً فحظرت على الأجهزة استدعاء أي عضو في الحزب إلا عن طريق قيادة المنظمة التي يتبعها العضو.

بعد صدور القرارين، أقبل عليّ في مكتبي شخصان لم يخطئ حدسي في أنهما من رجال الأمن. تصرف الإثنان بكياسة، ونقلا إليّ استدعاء إلى مقابلة رئيس قسم التحقيق في الشعبة السياسية، جهاز الأمن السياسي التابع لوزارة الداخلية. وكان دور الشعبة قد قوي منذ صار محمد عيد عشاوي، عضو القيادة القطرية صديق زعيّن والمقرب من صلاح جديد، وزيراً للداخلية. فهذا الوزير أراد أن يجند جهاز وزارته لخدمة الحزب، وظن أنه قادر على اجتراح هذه المعجزة، فلم يزد على أن قوّى الجهاز، فصار الجهاز أقدر على تطويع الحزب. لم يرد في الاستدعاء المكتوب ذكر للسبب. ولم يبح الرجلان بأي سبب. فاتصلت بمحمد الزعبي فسألني عما إذا كان الرجلان في مكتبي، فلما عرف الجواب، قال وهو حانق: «اطردهما. أنت تعرف التعليمات!»

كنت أعرف التعليمات التي لم يمض على صدورها سوى بضعة أسابيع.

ولكني كنت أعرف واقع الحال، أيضاً. فلم أطرد أيما أحد. بل تحدثت إلى الرجلين بنبرة لا تشي بامتعاضي. وطلبت منهما أن يبلغا إلى رئيسهما إضطراري للالتزام بهذه التعليمات. وقتها، انصرف الرجلان غير ساخطين كما بدا لي، لكنهما جاءا في اليوم التالي وحملا إليّ نسخة أخرى من الاستدعاء ذاته. والواقع أن الإصرار على تكرار المخالفة أحنقني، غير أني كتمت حنقي، وكررت ما قلته في اليوم السابق. فقال أحد الرجلين إن رئيسه طلب أن يبلغ إليّ أن المسألة بسيطة ولن يتعدى الأمر سؤالا وجوابه، وهو ينصحني بتلبية الاستدعاء وتجنب خلق مشكلة. لم يكن هذا تهديداً، لكنه انطوى على ما يشبه التهديد. فتشبثت بالحكمة، وقلت للزائرين: «ما دامت مسألة بسيطة فليتصل رئيسكما بي فنحلها على الهاتف أو نجد وسيلة لحلها دون مخالفة التعليمات التي تقيدني وتقيده». هذه المرة، لم يخف رجلا الأمن سخطهما إزاء عنادي، فغادرا الحجرة دون تحية وداع.

في اليوم التالي، في وقت الانصراف من العمل، وسط زحام المغادرين المتجهين إلى باب الخروج، أحاط بي رجلان لا أعرفهما وأطبق كل منهما على واحد من ذراعيّ. فحدست أنهما من رجال الأمن المحترفين وتأكد حدسي حين هتف أحدهما: «وزير الداخلية يطلبك». فدفعت جسمي إلى الخلف مؤملاً أن أتحرر من القبضات المطبقة على ذراعي: «عليّ أولاً أن أرى وزيري». غير أن رجلاً ثالثاً أوقف اندفاعتي وأطبق علي من الخلف. وفي لحظة تشبه، حقيقةً وليس مجازاً، لمح البصر، وجدتني محمولاً بين أذرع شقت حشد المغادرين، واندفعت بي إلى سيارة صغيرة كانت في الانتظار، وحشرتني في مقعدها الخلفي. هكذا، تم اعتقالي خطفاً، جهاراً نهاراً، أمام مئات الموظفين الذين فتحت الدهشة عيونهم وكبّل الخوف ألسنتهم. وما أن تحركت السيارة حتى أطلق الجالس بجانب السائق سيل شتائم بذيئة. وكان بين ما قاله الرجل مما علق ببالي: «ترفض المجيء إلينا يا خرا، من تظن نفسك، نحن قادرون على تكسير أكبر رأس في البلد!» عنف الحقد الذي عكسته الشتائم جعلني أخشى أن يعتدي

رجال الأمن علي داخل السيارة. فالجأتني الحاجة إلى الوسيلة الوحيدة المتيسرة للدفاع عن النفس وهي إدعاء الأهمية. وتأكيداً للادعاء، رحت أتكلم بالفصحى: «ما قمتم به جريمة ولن تفلتوا من العقاب. من تظنون أنفسكم أنتم ومعلميكم، إنكم موظفو حكومة مثلكم مثل الموظفين جميعاً، فما الذي يعطيكم الحقّ في مخالفة التعليمات وإيذاء الناس». وظللت أكرر أقوالاً من هذا القبيل إلى أن توقفت السيارة أمام المبنى الذي أعرفه معرفة تامة. إنه المكان الذي أستدعيت إليه مرتين مع أعضاء قيادة الطلاب، مرة في عهد الوحدة، وثانية في عهد الانفصال.

وقفت السيارة أمام مبنى الشعبة السياسية محدثة الجلبة التي يعرفها من يعرف كيف يتصرف ناس الأمن حين يجيئون إلى وكرهم بصيد دسم. وغادر الرجال الثلاثة السيارة قبلي، ثم شدّوني إلى خارجها شداً، وأطبقوا علي من جديد، وأدخلوني المبنى وهم يواصلون الشتائم والصخب. وفيما هم يعبرون بي الممرات، رحت أنا أصيح بأعلى صوتي: «من يعرف المقدم منيب المجذوب فليبلغ إليه أن فيصل حوراني معتقل في هذا المبنى». استنجدت بصاحب هذا الاسم لأنه صديقي، ولأنه رجل نزيه، ولأنه يشغل منصباً كبيراً في الجهاز الذي اعتقلني. والواقع أني كنت ما أزال أهتف باسم المقدم الصديق حين ألقاني خاطفيّ داخل حجرة بدت لي، أنا القادم من الضوء الساطع في الخارج، معتمة. وقبل أن تصل يدي إلي النظارة القاتمة التي أضعها على عيني، عاجلتني يد ما بصفعة مدوية برقت بها عيني وطارت النظارة. وتكررت الصفعة. وانهالت علي ضربات متلاحقة من رجل مهتاج، باليدين وبالقدمين. وكان هذا المهتاج يضرب وهو يوالي شتمي: «من أنت يا خرا حتى تخالف أوامري!»

لم يتح لي أن أتبيّن ملامح المعتدي. ولم أتمكن من تقدير الوقت الذي استغرقه الاعتداء. ومن الذي يستطيع التقدير ولحظة الوجع تعادل دهراً! كل ما انتبهت إليه كان صوت الرجل وهو يهدر بعد أن شفى غليله: «خذوا هذا الكلب إلى الشيخ حسن!» وفي تلك اللحظة، انتبهت إلى المذياع المفتوح على إذاعة

دمشق. وجاءني صوت صديقي المذيع داوود يعقوب وهو يتلو التعليق السياسي الذي كتبته أنا والذي يعكس رأي الحزب والدولة؛ إن أحوال سورية لا تفتقر أبداً إلى المفارقات!

الشيخ حسن هو اسم السجن ذي السمعة الرهيبة. وهذا هو المكان الذي حملتني إليه سيارة جيب فيها حراس مسلحون. وقد كان الحراس على العموم لطفاء، حتى أن أحدهم عرض علي المساعدة فجعلته يشتري لي علبة سجائر. وفي الباحة التي تلي مدخل السجن. تلقانا ضابط لا يحمل شارة رتبته، وبدا لي أنه هو الضابط المناوب وقد أنذر مسبقاً بوصولي: «هذا هو، إذاً، الفيلسوف كبير الرأس»، هدر الضابط بهذه العبارة، ثم أضاف: «مرحباً بك! عندنا لا يخرج أحد بالرأس التي دخل بها». ولما لم يصدر عنّي أي رد فعل، بارحت السخرية نبرة الضابط، وجاء الإنذار سافراً: «الذي لا يليّن رأسه نلينها نحن له».

هنا، قد ينبغي أن تعرف أني لا أهاب السجن ولا أخشى مواجهة ناس الأمن السياسي. أما الذي أهابه وأخشاه وأتوجس فيه أوخم العواقب فهو التعذيب الجسدي، إنها الخشية المزمنة من أن ينكسر عامودي الفقري الذي يستوطن الداء اللعين فيه لو تعرض هذا العامود لأي صدمة. وكسر العامود الفقري شنيع كما لا بد من أنك تتصور. ولدى أصحابي وصية أعاود التأكيد عليها بين وقت وآخر: تعجلوا استخدامَ ما تملكونه من نفوذ فور تعرضي للاعتقال! وفيما تولى الضابط ترتيبات إيداعي في الزنزانة احتفظت أنا بهدوئي، فقد كنت على ثقة من أن عبد الله والأصحاب الآخرين سوف يفعلون ما يلزم لحمايتي من التعذيب. وقد كدت أبتسم حقاً حين فرغ الضابط من ترتيباته وقال لي: «هيأنا لك الإقامة التي تليق برأسك الناشف، ولك أن تطمئن: كل شيء هنا بالمجان، الدولة هي التي تدفع!»

اقتادني أحد الحراس باتجاه الزنزانة التي حدد رئيسه رقمها، وقد فهمت أني

سأقيم فيها وحدي. واجتزت مع الحارس الباحة الصغيرة ثم ولجنا بابا واطئاً ورحنا نهبط الدرج في دهليز يزداد إعتامه كلما أوغلنا في الهبوط. فأدركت أني سأحلّ في واحدة من الزنازين التي تقع تحت القبور. فهذا السجن قائم على حافة مقبرة الباب الصغير في حي الميدان العتيق، وزنازينه الأشدّ سوءِ تقع تحت المقبرة. ولكي أقدر العمق الذي سأقيم فيه، رحتُ أعد خطواتي. وكنت قد بلغت العشرين حين هتف صوت من ورائنا يدعونا إلى العودة. ولم يعد الضابط إلى السخرية، بل إن وجهه اكتسى جدية ممزوجة بالحيرة، فبدا كأنه وجه آخر، وقال وهو يجهد لإخفاء ارتباكه: «تلقينا أوامر بإطلاق سراحك، فأنت حر»، ثم أضاف إنهم في الشعبة السياسية يريدون أن أعود إليهم لاستكمال إجراءات روتينية ليس غير. وبعد هذا، وقف الضابط لوداعي وقد استعاد مزاجه الساخر: «أنت ترى، حكومتنا حريصة على ميزانيتها». وبرقت في داخلي إشارة اعتزاز: ما أحسن أن يكون للإنسان أصحاب سريعو المبادرة!

في مبنى الشعبة، أخذت إلى حجرة غير تلك التي ضربت فيها، وإلى طابق أعلى. وهناك، استقبلني من قدّم نفسه على أنه رئيس قسم الصحافة. وأبدى الضابط الذي يحمل رتبة رائد حفاوة زائدة بي، فبدأ بأن أعاد إليّ نظارتي التي فقدتها في حجرة زميله، ثم طلب قهوة لي وله، وقدم سيجارة وأشعلها بنفسه، كل هذا فيما راح يكرر الاعتذار. زعم الرائد أن الأمر وقع نتيجة سوء تفاهم ليس أكثر، وقال إن رجلاً كبير النفس مثلي لن يتأثر بما وقع، وأمعن في كلام من هذا القبيل. أما أنا فقلت إني سأتحدث بصراحة تامة، فأنا لا أصدق زعمه، وأنا موجود بين يديه لأني مرغم على هذا إرغاماً، ولو اتبعت رغبتي لما رضيت بأن أبادله الحديث. وقلت للضابط إني عازم على أن أرجع إلى مراجع أعلى، وقد ينفعني أن أعرف جوابه على هذا السؤال: لماذا استدعيت إلى الشعبة أصلاً؟ ويبدو أنه لم يكن بحوزة الرائد ما يجيب به على السؤال، أو أنه آثر التكتم، فراح يلوك كلاماً أوضح ما فيه تكرار الاعتذارات، فقاطعته

وقلت بنبرة تشي بالتذمر: «أكدوا لي أني حر فهل أستطيع أن أنصرف؟» فتبسم الذي بدا لي أنه مكلف بتطييب خاطري، وقال بأريحية: «سيارتنا جاهزة لنقلك إلى حيث تريد»، ثم رجاني أن أبقي ما وقع في الحدود التي وصل إليها دون تكبير، «ولا لزوم، خصوصاً، لإشغال رجال الدولة الكبار بالحكاية». والواقع أن هذا الرجاء استفزني، فقد هجست برائحة إنذار مبطن في طواياه، فقلت غير مخفٍ امتعاضي: «سيارتكم توصل إلى السجن، أما إلى الحرية فإني أتدبر الأمر بنفسي».

شاعت قصة اختطافي بأسرع مما توقعت. وفي المنزل، وجدت كثيرين في الانتظار. أما عبد الله فقد بقي في مكتبه إلى أن تحقق من الإفراج عني، فجاء على عجل ليصحبني إلى حيث التأم اجتماع العصابة في مكتبه. ولم يطل النقاش. فقد استخلص الجميع بسهولة ما ينبغي عمله، لأنهم استخلصوا بالسهولة ذاتها مغزى ما وقع، وأدرك كل منهم أنه إزاء تحد يطال الجميع. وهكذا، كتبنا جميعنا استقالة جماعية واتفقنا على أن لا نتراجع إلا إذا عولجت الحكاية معالجة نرضى عنها. ثم جاء محمد الزعبي، وكان من رأيه أنه مستهدف هو الآخر. واتصل الوزير برئيس الحكومة. وانتهى الأمر بأن دعانا الدكتور يوسف زعيّن، عبد الله وأنا، إلى منزله. واستقبلنا الرجل وهو في البيجاما والعباءة وقد انتعل شاروخاً منزلياً، مما دل على رغبته في رفع الكلفة، وبادر إلى تهنئتي بالسلامة، ثم طلب مني أن أقص عليه الوقائع بالتفصيل، وشدد: «بالتفصيل، حاول أن لا تنسى أي شيء!»

لست راوياً سيئاً. وقد استمع الدكتور زعيّن إلي وهو يبذل جهداً واضحاً ليكظم انفعاله، فما أن فرغت من الحديث حتى انفجر: «سأجيء بقائد الشعبة السياسية هنا أمامك، وسأضربه بهذا الشاروخ». قال مضيفنا هذا، ثم أدار رقماً على الهاتف الرباعي، وهدر بصوته الأجش: «فتش عن المقدم حسن حمدان وقل له أن يجيء إلي فوراً!» وما هي إلا لحظة حتى رن جرس الهاتف. وهدر الصوت من جديد: «ضع كل المسؤولين عن حكاية فيصل في السجن

وتعال إليّ فوراً، هنا في الدار!» ولم يعط الرجل الغاضب لمحدثه فرصة أن يفوه بكلمة، بل أقفل الخط، وتوجه إلينا: «بالشاروخ، سأضربه أمامكما».

بالرغم مما قد يتسم به سلوكي من نزق، فقد كنت أحكم من أن أشهد المشهد المرتقب. فلو نفذ رئيس الحكومة وعيده وضرب قائد الشعبة السياسية أمامي، فإن جهازه وكل جهاز أمن سوف يحقدان علي حقداً لا مخرج منه. ولذا، تذرعت بالتعب والحاجة إلى تصريف أعمال عاجلة تراكمت في المكتب وانسحبت. وأدرك عبد الله أني لم أنسحب إلا لسبب وجيه فجاراني، ولما عرف السبب أثنى على حكمتي. والتأم جمع العصابة من جديد في مكتب المدير العام. ثم لم يلبث أن اتصل الدكتور زعيّن بعبد الله. فعرفنا أن مقدم الشعبة السياسية قدّم روايته لرئيس الحكومة مشدداً على أن الأمر أمر سوء تفاهم، ومظهراً استعداده للاعتذار إلي واسترضائي. وقال زعيّن لعبد الله إن الأمر متروك لكم فإن اقتنعتم بالرواية وقبلتم الاعتذار طوينا المسألة وإن لم تقتنعوا فسيبدأ التحقيق منذ الغد. ثم عرفت فيما بعد أن المقدّم حاول أن يحرض رئيس الحكومة ضدي فزعم أني ضخمت حكاية الاستدعاء كلها بهدف الإساءة إلى وزير الداخلية لأن الوزير نقل صديقي الفلسطيني المقدم منيب المجذوب من دمشق إلى اللاذقية. لكن حكاية المقدم هذه لم تجز على زعيّن الذي أدرك أني لم أعلم أن صديقي نقل بدليل أني استنجدت به. أما سبب الاستدعاء كما رواه المقدم لنا مكرراً ما رواه لرئيس الحكومة، فله حكاية لا يختلقها إلا مفتقر إلى القدرة على أي ابتكار. فقد زعم المقدم أن قسم الصحافة في شعبته تلقى تقريراً قدمته دورية أمن عادية كانت تتواجد قبل أيام بجوار سينما الزهراء. وقد جاء في التقرير أن الدورية أمسكت بفتى يبيع تذاكر السينما خارج نافذة التذاكر بأسعار السوق السوداء، فتقدم شاب طويل أشقر الشعر من الدورية وقال إنه الصحافي فيصل حوراني وأن الفتى يخصّه وأفتكّ الفتى. وما حدث بعد ذلك، حسب رواية المقدم، أن قسم الصحافة شاء أن يتحرى مدى صدق التقرير فطلب من قسم التحقيق أن يسألني عن

الواقعة. أما بقية ما حدث فنجمت من رفضي الاستجابة للاستدعاء وجهل قسم التحقيق بمكانتي في الهيئة. وفيما عدا ذلك، لم يخالف قسم التحقيق الإجراءات المعتادة، فالمتبع عندهم أن يُستدعى المطلوب للاستجواب مرة وثانية، فإذا بقي ممتنعاً عن الاستجابة فإنه يُحضر بالقوة. وأما عن ضربي، فقال المقدم إن جميع الذين لهم صلة بالحكاية ينفون وقوع أي ضرب.

لم يكن تماسك رواية المقدم إلا ظاهرياً فقط. إذ ما الذي يمكن أن يربط بيني وبين فتى يبيع تذاكر سينما، وما هو هذا التناقض بين أن تكون لي سلطة على دورية أمن في الشارع وأن يجهل رؤساؤها مكانتي؟ ثم كيف بقي القسم على جهله بعد أن زارني رجلاه مرتين في مكتبي، بل كيف اهتدوا إلى هذا المكتب؟ ولماذا تمر الرواية مرور الكرام على ضربي حتى قبل أن يوجه إلي أي سؤال؟ ولماذا تغفل تحويلي إلى السجن؟ قلت هذا كلّه وكثيراً مما يماثله للمقدم. وأضفت: «لم يتيسر لك وقت كافٍ لتحبك رواية مقنعة». ورفضت أن أقبل الاعتذار.

في اليوم التالي، بدأ التحقيق. وتولى محمد عيد العشاوي وزير الداخلية التحقيق بنفسه، ولم يكتف بدور المشرف.

هنا استطرد لأقول لك إن العشاوي هذا لا يحبني، ولعلي لا أبالغ إن قلت إنه كان لا يطيق سماع اسمي. كان الرجل محدود الأفق لم تصله باليسار إلا صلته بزعيّن وأمثاله، وكان شكاكاً، يشكّ في أيما أحد. وأنا الذي وصفت الرجل في معرض التشنيع عليه بأنه يصنف المواطنين في صنفين لا ثالث لهما: صنف الجواسيس الذين ظهرت خيانتهم، وصنف المشبوهين. بالرغم من هذا، تصورت أن العشاوي لن ينحاز ضدي لأن الموضوع يتجاوز شخصي ويمس هيبة الحكومة. وظننت أن الوزير في الحكومة سوف يُعنى بجمع الأدلة التي تظهر استهانة الشعبة السياسية بهذه الحكومة وتعليماتها. وهكذا، ذهبت إلى التحقيق الذي استدعيت إليه بوصفي المعتدى عليه وأنا متفائل. لكن تفاؤلي سرعان ما غاض. إذ ما أن أدخلت على العشاوي حتى فاجأني

بسؤال بدا لي غريباً: «ما هي صلتك بنائل حبّي». فتساءلت مندهشاً: «نائل حبّي» وكررت الاسم فلم يلتمع في ذاكرتي أي شيء يتصل بصاحبه. فسألت: «من هو نائل حبّي هذا؟» ويبدو أن رد فعلي جاء طبيعياً إلى درجة بلبلت طارح السؤال، لكن العشاوي لا يتراجع بسهولة: «أتنكر إذاً أنك تعرفه؟» فلما التقطت نبرة الإدانة في هذا السؤال، حلّ الاستياء محل الدهشة، وتذكرت بغض العشاوي لي، فهتفت متعمداً أن أظهر استيائي: «ليتبرع أحد ما هنا فيقول لي ما الحكاية، هل أنا الشاكي أم المتهم، ومن هو هذا النائل حبّي الذي أسأل عنه؟!»

لا ينبغي أن أطيل عليك بأكثر مما فعلت. لقد تحولت في ذهن العشاوي من شاكٍ إلى مشبوه. فرئيس قسم التحقيق الذي اعتدى علي أمضى هو وبعض عناصره ليلة موقوفين تنفيذاً لأمر رئيس الحكومة، فتمكن من حبك القصة التي هيجت عقدة الشك المزمنة في نفس الوزير. أقرّ ملازم الأمن بأنه كان ساخطاً علي بسبب عنادي. وقال من عرفت أن اسمه هو وليد نائلي إنه هدد فعلاً بضربي لكن نائل حبّي رجاه أن لا يضربني ووصل في الرجاء إلى حد الانحناء لتقبيل قدميه. أما من هو نائل حبّي هذا فاتضح أنه أحد أنصار قيادة عفلق المعزولة، وهو موقوف في سجن تدمر مما يشي بخطورته، وكان موجوداً في مكتب الملازم عندما فاه هذا بوعيده، لأن الملازم استدعاه للتحقيق في شأن من الشؤون. وقال ملازم الأمن إن الموقوف شهد دخولي حجرة المكتب وخروجي منها دون أن أضرب أو أهان. وتأكيداً على هذه الرواية، جاءوا بشهادة كتبها سجين تدمر بخطّ يده وصادق عليها مدير السجن وهي تتطابق تطابقاً كاملاً مع ما رواه ضاربي. ولا بدّ، إذاً، من أن أكون أنا واحداً من أنصار عفلق حتى يبيح نصير عفلق المسجون لنفسه أن يقبل قدميّ ضابط الأمن ليجنبني الضرب.

ولم ينجني من أن أزامل الشاهد في سجن تدمر إلا رسوخ سمعتي كمناوئ لعفلق وعجز العشاوي عن إقناع رئيسه يوسف زعيّن بأني تبدلت. وصار علي

أن أسعد بنجاتي. أما رجال الأمن فعادوا إلى مواقعهم وسيرتهم المألوفة فيها.

وبعد أيام، نشرت جريدة الحياة البيروتية نبأ منسوبا على ما أتذكر إلى مصادر خاصة في دمشق، فأبلغت إلى القراء أني أشتغل في السوق السوداء، هكذا بالمطلق دون تحديد أي سوق، وقالت إن أجهزة الأمن ألقت القبض علي وأخضعتني للتحقيق، فتدخلت جماعة صلاح جديد لحمايتي وأمر يوسف زعيّن بالإفراج عني. هذا النبأ اقتبسته إذاعة إسرائيل وإذاعة لندن، وتكرر بثّه في نشرات أخبارهما بالعربية. ولأمر ما، لعله ثقتي بسلامة موقفي، لم يهزني نشر النبأ الذي سربته الشعبة السياسية. غير أني صرت أقرب إلى الواقعية في حساب القدرة على مقاومة الأجهزة السرية. فما دامت للأجهزة سلطة تقييم سلوك الناس، فإن بإمكانها أن تمضي في تعزيز نفوذها إلى أي حد تشاء. وقد صرت أفهم في صورة أجلى لماذا يرضخ كثيرون من كرام الناس لسطوة أجهزة الأمن السياسي فيتحولون إلى خدم صاغرين لها.

وهاأنذا أتذكر واقعة لها صلة بما استخلصته. فبعد سنة أو نحوها، جاء إلى منزلي من يحمل استدعاء لي لمقابلة ضابط أمن في واحد من هذه الأجهزة الكثيرة. وقتها، كانت عيني الوحيدة مريضة هذا المرض الغامض الذي يؤججه داء ظهري بين وقت وآخر، وكنت أكاد لا أبصر وأنا خاضع لعلاج دقيق هو الذي ألزمني البقاء في منزلي. بالرغم من هذا الوضع، فقد توجهت في الموعد الذي حدده الاستدعاء إلى مكتب الضابط الذي استدعاني. ولم أجرؤ على التمنع أو حتى الاعتذار. وقد بادرني الضابط بالقول إنه يعرفني معرفة جيدة وليس لديه ما يأخذه عليّ إلا أنه تلقى تقريراً فيه وشاية ضدي فعليه أن يتحرى صدق الوشاية من كذبها، بالرغم من ثقته الشخصية بأنها كاذبة. وقد جاء في التقرير أني سافرت إلى مدينة دير الزور القريبة من العراق والتقيت هناك بمبعوثين سريين من القيادة العفلقية قادمين من بغداد. فقلت للضابط - وهاأنذا أتذكر أنه كان النقيب يوسف طحطوح - إن زيارة دير الزور والمناطق الشرقية واحدة من أمنياتي التي لم تتحقق إلى الآن، أما القيادة العفلقية فمن

شأنها أن ترفض هي التعاون معي حتى لو ألقيت نفسي عليها إلقاء. وقال الضابط إنه يعرف هذا كله.

تصورت أن المسألة سويت. وبقيت صامتاً فيما انشغل النقيب بإعداد محضر التحقيق، ولما طلب مني أن أقرأ المحضر وأوقع عليه، اضطررت إلى ذكر مرض عيني. وقتها، انتبه هو إلى النظارة الداكنة وعاتبني: «كان بإمكانك أن تعتذر عن المجيء». فحضر ردّي على الفور: «فعلت ذلك مرة فكادت تودي بي». فأبدى النقيب أسفه، وتبرع بقراءة المحضر لي، فاكتشفت أنه وضع على لساني وصفاً لجماعة القيادة العفلقية لم أقله وليس من عادتي استخدامه وأنا أنتقد الذين يستخدمونه: «اليمين المشبوه». فقلت متأثراً بتأدب النقيب معي طيلة اللقاء إن اليمين صفة أقبلها وأستخدمها، أما المشبوه فتهمة، وليس من شأني أن أتهم أيما أحد. فإذا بالضابط الدمث وقد انتفض وظهرت فيه سطوة ضابط الأمن. وصار علي أن أختار بين القبول بما أملاه الضابط وبين التوقيف بتهمة الاتصال باليمين المشبوه. وأظن أنه لولا مرضي ولولا أن الضابط يعرفني لما توفر لي سوى خيار وحيد.

وما دمت قد استبقت سياق الوقائع مرة فلأسمح لنفسي بثانيةٍ حتى تكمّل الحكاية. فبعد سنوات طويلة كنت في بيروت. وهناك، قدمني أحد أصدقائي إلى رفيق له ثم قدّم هذا الرفيق إليّ: «نائل حبّي». فرن الاسم في مسمعي وانفتحت الذاكرة: «نائل حبّي الذي...»، فرد هو باسماً: «نعم! نعم، وأنت فيصل حوراني الذي...». فتشبثت به: «كويّس، أنت إذاً تتذكر، وأنا أبحث عن سر شهادتك ضدي، الكاذبة كما تعرف». وهكذا انكشف سر الشهادة. فنائل حبّي المسجون آنذاك هو ابن خالة وليد نائلي الضابط الذي ضربني. كان نائل من المخلصين لعفلق الذين يتوقعون عودته إلى السلطة. وكان وليد بعثياً شاباً أيد القيادة التي خلفت عفلق بالطريقة ذاتها التي أيّد بها عفلق بمراعاة مصالحه في الحالتين. وكما يفعل متقلبو الولاء كافة، حرص الضابط على أن تصير له يدٌ عند قريبه المعارض المسجون حتى يستفيد منه إذا عادت

جماعة عفلق إلى السلطة. فكان الضابط وهو رئيس قسم التحقيق كما عرفت، يختلق أسباباً تسمح له باستدعاء المسجون من سجن تدمر إلى دمشق ثم يبقيه يوماً أو أياماً تحت سلطته ويتيح له أن يرى أسرته. ولقد كان نائل في مكتب ابن خالته عندما أرسل هذا رجاله لاختطافي وتحدث معه بشأني هو الذي يسمع باسمي ويعدّني من أنصار العهد الذي يعارضه. ولم يكن لدى العفلقي المسجون ما يحببه بي، ولم يسؤه أن أضرب أمامه. وعندما استدعي نائل في الليل من قبل مدير سجن تدمر وعرض عليه أن يوقع على شهادة ضدي معدة مسبقاً، لم يهمه من الأمر كله إلا أن يخدم قريبه الذي ينفعه ويزيد تأجيج المنازعات بين ناس العهد الذي يضعه في أبشع سجن. ومهر نائل الشهادة الكاذبة بتوقيعه دون أن يخالجه أي وجع ضمير.

بعد حكايتي مع الشعبة السياسية، بقيت في وظيفتي. رأيت في خروجي بعد أول ضربة فراراً لا يليق بكرامتي، وحثني على البقاء كل من أعرف، زعيّن، والزعبي، وعبد الله، وبقية العصابة، ناهيك بالشيوعيين من أصحابي. ولم يلبث أن غرقت في المشاغل الكثيرة التي أتولاها، وذلك إلى أن وقعت الواقعة التي أدت إلى خروجي، أو قل إلى إخراجي، من الوظيفة، ثم لم أشغل بعدها أي وظيفة حكومية، لا في سورية ولا في غيرها.

وببقائي في الدائرة، واصلت محاولاتي لإصلاح البرامج وضممت جهدي إلى جهود الآخرين في السعي إلى التجديد. فنجح بعض المحاولات وفشل الكثير. خذ نشرات الأخبار. كانت خطابات قادة الحزب والدولة وتصريحاتهم وبياناتهم وكذلك بيانات المنظمات الشعبية الكبيرة تذاع بنصوصها الكاملة في هذه النشرات، وغالباً ما كانت تتصدرها. فإذا أخذت في الحسبان طول النصوص وتماثلها ناهيك بثقل تعابيرها ومعانيها، فستدرك كم كانت النشرات ثقيلة الوقع على الجمهور. وفي أغلب المرات كان بثُّ النشرة يستمر ساعة أو أكثر مع أن الوقت المقرر لها هو ربع ساعة. وكان معنى هذا أن ينصرف الجمهور عن إذاعة دمشق وتلفزيونها ويبحث في الأثير عن محطات أخرى. وكان يكفي

أن يلقي المرء نظرة على أسطح المباني فيرى شبكة الهوائيات التي تشغلها ليدرك أن المواطنين يتصيدون برامج المحطات البعيدة. وقد حاولنا أن ننقل من طغيان النص الطويل، وأجرينا مداولات ممضة مع الوزير ومع المسؤولين عن النشر في الحزب، فلم نفلح إلا في إدخال تعديل بسيط. فقد بقي علينا أن نبث بيانات قيادة الحزب العليا ورئاسة الدولة والحكومة ووزارة الدفاع في صدر نشرات الأخبار، أيا كان طول هذه البيانات. وأذن لنا بأن نقدم موجزاً لبقية البيانات على أن نذيع نصوصها بعد النشرات.

شيء آخر حاولنا إصلاحه وكنت أنا المبادر إلى المطالبة بالإصلاح، وذلك هو أسلوب صياغة الخبر، وخصوصاً الاقتباسات. لم يتعلق الأمر بالشكل كما قد يبدو لك، ذلك أن كل صياغة تعكس مفهوماً. وكان من المألوف أن يتلو مذيع النشرة خبراً عن إسرائيل مصاغاً في هذا النحو: «قال موشي دايان وزير العدوان الصهيوني إن قوات العدوان الصهيونية جاهزة لممارسة العدوان وتحقيق التوسع في الأرض العربية المقدسة». وقد حاولنا أن نخضع النص إلى ما تقتضيه قواعد الاقتباس، بعضها إن لم يكن كلها، فلم نفلح. فقد تعذر إقناع مسؤولينا بتسمية الأشياء بأسمائها كما تعذر إقناعهم بأن المستمع يميز بنفسه بين ما نقتبسه من أقوال الآخرين وبين رأينا في هذه الأقوال.

أما أطرف ما اطلعت عليه فكان وضع البرنامج العبري، أي البرنامج الذي تبثه إذاعة دمشق باللغة العبرية وتوجهه إلى المستمعين اليهود في إسرائيل. أنيط الإشراف على هذا البرنامج بالمخابرات العسكرية لأسباب أمنية رأى الذين سبقونا أنها ملزمة. وألف معدّو البرنامج أن يتعاونوا مباشرة مع هذه المخابرات. وانتهى الأمر بأن ماعت الحدود بين ما هو أو من هو من المخابرات وبين ما هو أو من هو من الإعلام. وصارت المخابرات هي التي تنتقي العاملين في البرنامج وهي التي توجههم. ولم يبق للهيئة من دور سوى توفير الاحتياجات التقنية ودفع النفقات. وبمضي السنين، صار البرنامج بمثابة وكر يعشش فيه الكثير مما هو ملتبس، وتتموضع داخله مصالح صغيرة يحميها ذوو نفوذ،

ويسترها إدعاء كبير هو ادعاء الحرص على الأمن والحيلولة دون استخدام البثّ لتقديم معلومات إلى العدوّ. وعندما أدخلت أنفي في هذا الوكر، لم أخطئ تحديد الرائحة العطنة. فلما أدخلت أكثر من أنفي، رأيت أعجب ما قد يقع عليه إنسان في جهاز إذاعي.

ضمت أسرة البرنامج متعاملين عديدين معه، دون أن يكون أي منهم متفرغاً للعمل فيه وحده. ومعظم هؤلاء لم يعرف من العبرية أكثر مما أعرف أنا الذي لا يعرف سوى كلمة شالوم. إثنان فقط كانا يعرفان لغة البرنامج. أحد الاثنين هو الفلسطيني اللاجئ إلى سورية ربحي كمال. والثاني كان السيدة وصال سمير المتخرجة حديثاً من جامعة مصرية. وكان الاثنان مستغرقين بالعمل في غير مكان، في الجامعة، ووزارة الدفاع، وسواهما. وهما اللذان يترجمان إلى العبرية مواد البرنامج التي يكتبها الآخرون بالعربية. في وضع كهذا الوضع، صار البرنامج العبري يبثُّ نصوصاً مماثلة للنصوص التي يبثها البرنامج العام، مع فارق غير بسيط وهو أن التغطية الإعلامية في البرنامج العبري تتأخر أياماً، وربما أسابيع. أضرب لك مثلاً التعليق السياسي. كان كاتب التعليق شخصاً لا يتاح له أن يعرف عما يجري في إسرائيل إلا ما تنشره أجهزة إعلامنا. وكان ربحي كمال هو الذي يترجم التعليق. وتيسيراً على ربحي المتخم بالمشاغل، ألف كاتب التعليق أن يقدم إلى المترجم عشرة تعليقات أو خمسة عشر دفعة واحدة. فعنى هذا أن يتناول التعليق المذاع اليوم حدثاً وقع قبله بأسبوعين. أما فحوى التعليق فكان شأنها أعجب. وغالباً ما كان المعلق يستخدم صياغات البرنامج العام ومفهوماته. وهذا عنى أن يحرض التعليق المستمع الإسرائيلي ضد الولايات المتحدة، مثلاً، لأن هذه الدولة الإمبريالية توفر الدعم الكامل لإسرائيل وتعمل ضد مصالح الدول العربية!

أطلعت عبد الله على هذه وغيرها من عجائب البرنامج العبري. واتفقنا على المبادرة إلى محاولة إصلاحه، دون أن يغيب عن بالنا أن الإصلاح سيمس مصالح كثيرين وسمعتهم. اتصل عبد الله بالجهة المشرفة. وكان من حسن

الحظ أن المخابرات انتدبت إنساناً متفهماً للتباحث معنا. وقد استمع الرجل إلى ملاحظاتي باهتمام وتقبل النقد، ثم صحبته إلى عبد الله فجرى أخذ ورد طويلان. ثم تم الاتفاق على أن يكون للمسؤولين في الإذاعة حق الإشراف الفني والسياسي على البرنامج وأنيط الأمر بي، دون إهمال ما يتصل بدور المخابرات في صيانة الأمن.

مهما يكن من أمر، فإن عملي في الدائرة لم يستمر طويلاً. والواقع أني أخرجت من هذا العمل في اليوم المائة لالتحاقي به. هذه النهاية سبقتها مقدمات أشرتُ إلى بعضها. أما القشة القاصمة فجاءت على يد رفعت الأسد، شقيق وزير الدفاع، اللواء حافظ الأسد، أو جاءت بسببه إن توخينا تعبيراً أدق. آنذاك، كان رفعت ضابطاً في أول عهده بالخدمة، ملازماً ثانياً أو أولاً، وكان يحمل لقب قائد حرس القيادة ويلتصق بأخيه الوزير ويتولى مسؤولية أمنه الشخصيّ. أما الأسد الكبير ذاته فأنت تعرف عنه دون شك ما يكفي. وآنذاك، كان وزير الدفاع هذا أحد عسكريين ثانيهما صلاح جديد يتقاسمان قمة النفوذ في سورية ويتنافسان على الاستئثار بها. ولم تربطني بحافظ الأسد أو بأخيه أي معرفة شخصية. وعلى كثرة الذين عرفتهم من قادة الحزب وأعضائه لم يتسن لي أن أتعامل معاملة مباشرة مع اللواء ولا مع أخيه الملازم.

أما كيف وقع الاحتكاك فللحكاية خلفيات ينبغي أن تعرفها لكي يتضح لك مغزى الحكاية. ففي تلك الفترة، أتمت حكومة يوسف زعيّن جولة مفاوضات مضنية مع شركة نفط العراق C.P.I. البريطانية، وظفرت بإلزام الشركة زيادة العائدات التي تحصل سورية عليها مقابل مرور النفط عبر أراضيها. وعدّت الحكومة هذا نجاحاً كبيراً وجرى الاحتفال بالنجاح.

جاء الدكتور زعيّن إلينا بنفسه ووجه رسالة إلى المواطنين بشرهم فيها بالنتيجة. وما أن فرغ زعيّن من كلمته حتى تبعه الفلسطيني عبد الرحمن غنيم، وكان من مرؤوسيّ في الدائرة، فبثّ زجلاً كتبه للتو ومطلعه: «بطن الاستعمار انشق/

وسورية حصلت ع الحق». وما أسرع ما انهالت برقيات التهاني! وفي مكتب عبد الله، حيث أحطنا برئيس الحكومة المتوهج بالزهو، أنبأنا زائرنا بأن حكومته ستدخل في جولة مفاوضات أخرى مع الشركة، وطلب أن نعكس أفراح المواطنين بالنجاح دون أن نتسبب في استفزاز هذه الشركة. وقد وجه زعيّن إلي مباشرة تعليماته بشأن البرقيات الوافدة. فتوجب علي أن أقرأ كل برقية قبل إذاعتها وأحذف منها ما قد يستفز. وقال زعيّن إني مخول بالحذف أيا كانت مرتبة مرسل البرقية وأني في الوقت ذاته المسؤول عن أي خلل يقع في هذا المجال. وقال إنه يعتمد علي في هذه المهمة الحساسة لأنه يثق بفطنتي ويعرف قدرتي على العمل، ثمّ كرر أنه لن يقبل مني أي عذر مهما بلغ حجم العمل.

والواقع أن الحدث أثار حماساً لم أتوقعه. حتى أن الممثل الكوميدي دريد لحام وهو من كان مخرجاً تلفزيونياً أيضاً طلب معونة فنية وهبط إلى الشارع وراح يستوقف الغادين والرائحين، المشاة والركاب ويحاورهم حول هذا الحدث. آنذاك، كان نجم دريد في أول سطوعه وقد أسهمت محاوراته المرتجلة في اجتذاب مزيد من الناس إلى الاهتمام بما يجري. وتدفقت برقيات التهنئة تدفقاً. وصل بعض البرقيات إلينا مباشرة. وأرسل آخرون برقياتهم إلى قيادة الحزب أو رئاسة الحكومة أو القصر الجمهوري. وصار هذا الدفق كله يصب في مكتبي. بثّ زعيّن بشراه إلى المواطنين في التاسعة مساء. فما أن حلّ صباح اليوم التالي حتى كان في مكتبي أكثر من ألف برقية. وتواصل الدفق على مدى ثلاثة أيام ولم ينقطع إلا بعد أن وجهنا إلى المواطنين نداء يدعوهم إلى الاكتفاء بما أرسل.

وفي هذه الأيام الثلاثة، انشغلت كما لم أنشغل في أي وقت. كان علي أن أقرأ، وأحرر، وأحذف ما ينبغي حذفه، عشرات البرقيات في كل ساعة. وكنت أسهر في مكتبي إلى ما بعد منتصف الليل حتى يتوفر للمذيعين ما يبثونه في صباح اليوم التالي. ولكي لا يقع أي خلل أو تجاوز، اتفقت مع دائرة النشر على إجراء بسيط: لا تذاع أي برقية أيا كان مرسلها ما لم تمر علي وتتصدرها

موافقتي على إذاعتها.

في ثاني الأيام الثلاثة، في السابعة صباحاً، رن جرس الهاتف في منزلي. وكان المتحدث هو المحرر المناوب في دائرة النشر ولديه طارئ يبلغه إلي. ففي آخر الليلة الفائتة، أرسل الملازم رفعت الأسد برقية لم تذع فور وصولها لأني لم أكن موجوداً. وها هو ذا الملازم قد اتصل منذ الصباح الباكر وكرر الاتصال ثلاث مرات، ساخطاً على التأخير. كنت أعرف ما الذي يعنيه التمشكل مع ضابط صغير يشغل أخوه أعلى المناصب. فبادرت إلى الحركة دون إبطاء. وكانت عقارب الساعة التي تتصدر مبنى الإذاعة والتلفزيون تتجه نحو الثامنة وأنا ألج مدخل المبنى وفي نيتي أن أفرغ من هذه المشكلة الصغيرة قبل أن تصير كبيرة. وفيما أنا متجه إلى مكتبي، وقعت عيني على صديق لي من الذين يخدمون بإمرة رفعت في حرس القيادة. وكان هذا هو الفلسطيني البعثي الملازم الثاني صلاح معاني. ولم يصعب علي أن أحزر سبب قدوم الضابط إلى الإذاعة في وقت مبكر. والواقع أن صلاح هو الذي حدثني عن المهمة الموكولة إليه؛ فعل هذا وهو يبتسم دون أن يدرك أن في مهمته شيئاً غير لائق. ومن فم صلاح، إذاً، عرفت أن رئيسه رفعت أمره بالتوجه إلى غرفة المذيعين وانتقاء أحسن مذيع وسوقه سوقاً إلى الاستديو كي يقرأ البرقية. واقتضتني الحكمة أن أكظم حنقي. وقلت لصلاح: «لن نحوجك إلى استخدام القوة»، ثم اقتدته إلى مكتبي وطلبت من دائرة النشر أن يحضروا برقية رئيسه. في هذه الأثناء، وصل عبد الله إلى مكتبه وطلبني بالهاتف كعادته كل صباح، فلما عرف أن صلاح عندي، وكان هذا صديقاً له أيضاً، استقدمه إلى مكتبه. ولا بدّ من أن عبد الله تقصد أن يبعد الضابط عن مكتبي كي أصير أكثر حرية في التعامل مع البرقية.

لا أعرف من الذي صاغ لرفعت نص برقيته. وقد كان هذا نصاً يبدأ بما يكاد يطابق هذه العبارات: تواقون لشرب الدماء، نقاتل الإمبريالية بالأيدي والأرجل والأظافر والأسنان، ونعامل شركاتها المستغلة بيدٍ من حديد. وبهذا، لم تعد

تعليمات رئيس الحكومة وحدها هي التي لا تجيز إذاعة البرقية، بل انضاف إليها الذوق العام.

أبلغت قراري إلى عبد الله بالهاتف، فقال المشغول بتهدئة زائره الضابط: «بسيطة، صلاح عندي، وهو يفهم». ولأني لم أجار عبد الله في ركونه إلى فهم الضابط، فقد طلبت الوزير في منزله. قرأت نص البرقية لمحمد الزعبي دون أن أذكر اسم مرسلها. فقال هو: «مثل هذا الكلام لا يرسله إلا واحد من اثنين، إما رفعت وإما...»، فقاطعته ورويت له ما جرى، وأصدر هو تعليمات مشددة وكان منها: «إذا اتصل رفعت بك، أقفل الخط في وجهه».

بعد دقيقة واحدة، اتصل رفعت، قالوا له إن المسؤول عن إذاعة البرقيات قد وصل فطلب أن يتحدث إلي. حيّاني رفعت بنبرة جعلت تحيته أقسى وقعاً من الشتيمة، وتساءل باستنكار عن سبب التأخر في إذاعة البرقية وعما إذا كنت قد رأيت الملازم صلاح. لم أقفل الخط في وجه الضابط المسكون بالزهو والغرور، بل تلقيت صخبه بأرقّ ما يسمح به الوضع، وذكرته بأني لا أعرفه شخصياً لكني أعرف مكانته. ثم قلت بكلمات انتقيتها بعناية إني موظف أخضع لتوجيهات محددة ولا أملك مخالفتها، ولأن في البرقية ما يخالف التوجيهات فإني سأوضح الأمور لصديقنا المشترك صلاح ومن الممكن تعديل النص بالاتفاق معه. وشاء رفعت أن يعرف مصدر توجيهاتي، فذكرته له، فهتف محنقاً: «رئيس الحكومة له رأي، ونحن لنا رأي آخر»، وأراد أن يتابع. فقاطعته وقلت إني هنا موظف أتبع تعليمات الحكومة، فزمجر: «بسيطة!» وأقفل هو الخط.

تفاعلت الحكاية. وعلى الجانب الذي أنتمي إليه، اتصل بي محمد الزعبي بعد فراغي من حواري مع رفعت، وسألني عما فعلت. وعندما عرف الوزير الطريقة التي تصرفت بها مع شقيق وزير الدفاع أثنى على سلوكي، وقال عن نفسه إنه تعجل عندما طلب مني أن أقفل الخط في وجه رفعت. ونقل محمد إلى رئيس

الحكومة الوقائع كما سمعها مني ومن عبد الله. وعلى الصعيد الآخر، تلقى صلاح مكالمة من رفعت، فغادر مكتب عبد الله عجلاً ومضطرباً. وأبلغ رفعت إلى أخيه الوزير أنهم في الإذاعة رفضوا اذاعة برقيته بينما أذاعوا برقيات كل من هبّ ودبّ من خلق الله. ونسب رفعت موقفنا منه إلى أننا من جماعة صلاح جديد ويوسف زعيّن التي لا تحبّ جماعة الأسد. وحنق حافظ الأسد بالطبع لأن أخاه تعرض إلى هذه المعاملة. أما زعيّن فإن واقعة إرسال الملازم صلاح إلى المبنى مكلفاً بإذاعة البرقية بالقوة، هي التي أحنقته أكثر من أي واقعة أخرى في الحكاية. وقد عدّ زعيّن هذا عودة إلى تدخل العسكريين في شؤون هذه المؤسسة المدنية، فاتصل بنفسه بالمشرف على مدخل المبنى وأمره بأن يمنع أي لابس للزي العسكري من دخوله.

وفي نهاية المطاف، وضعت المسألة أمام قيادة الحزب؛ وضعها زعيّن الذي طلب معاقبة رفعت على فظاظته؛ كما وضعها الأسد الكبير الذي طلب معاقبتي لأني تسببت في المشكلة. واحتدم الجدل، كما يحتدم أي جدل حين يدور بين متنابذين. واقترح الأسد الكبير إجراء تحقيق «فإن تبين لكم أن صاحبكم هو المسؤول فعليكم وضعه في السجن، وإن ظهر أن أخي رفعت قد أساء التصرف فسأضعه في السجن بنفسي».

شاعت الحكاية على نطاق واسع، وأدخلها الرواة بين مسننات الخلافات التي تقسم ناس عهد شباط/فبراير إلى فريقين متنابذين. وأدخل التداول الشفهي للحكاية إضافات كثيرة عليها. ووجدت القصة المشوهة طريقها إلى بيروت، إلى النشر في سياق ما تنشره الصحف مما يقدم للقارئ على أنه من فضائح البعثيين. أما التحقيق الذي اتفقت القيادة على إجرائه فقد جرى فعلاً، غير أني لم أطلع على وقائعه، ولم يكلف المحقق نفسه عناء استدعائي والاستماع إلى روايتي. وقد قيل لي إن المحقق سأل دائرة النشر واستمع إلى وجهة نظر عبد الله. وعلى الجانب الآخر، قال رفعت للمحقق إنه سأل عن سبب تأخرنا

في إذاعة برقيته فقيل له إنها بحاجة إلى تعديل، فأرسل إلينا صلاح معاني، الفلسطيني مثلنا، كي نتفق معه على هذا التعديل. وأنكر رفعت كل ما عدا هذا. وتوقف الأمر على شهادة صلاح، إن ذكر الحقيقة بُرّئت أنا وأدين رفعت. فما الذي فعله الضابط المتمتع بمزايا وجوده إلى جانب شقيق وزير الدفاع. تنكر صلاح للحقيقة وخان صداقته لي ولعبد الله، فصار لا بدّ من إرسالي إلى السجن.

بعد وصول الأمور إلى هذه النتيجة، استدعاني محمد الزعبي إلى مكتبه، ويبدو أنه كان قد تحدث مع عبد الله بشأني فتجنب عبد الله أن يحضر اللقاء. أوجز الزعبي وقائع التحقيق، ولما سألت عن سبب عدم توجه المحقق إلي، زاغ الزعبي: «أنت تعرف، إن المسألة أكبر من ذلك، وقد ركزنا جهدنا كله على حمايتك من السجن، ولم يكن هذا سهلاً». وما أشدّ ما بدا محمد الزعبي محرجاً! فقبل مائة يوم فقط، تعهد هو كما تعهد رئيس الحكومة بحمايتي ضد أي تدخل في العمل الذي ندبت منهما لتوليه. وها هو ذا الوزير وقد صار عليه أن يعاقبني مع أني لم أفعل شيئاً سوى اتباع تعليمات رئيس الحكومة. لفّ الزعبي ودار حول الموضوع المحرج، «لم يكن استبعاد سجنك سهلاً»، كرر الرجل، ثم بق حصاته: «سنعيدك إلى وضعك السابق في جريدة البعث ونريحك من العمل المتعب في الإذاعة والتلفزيون». تجنب الزعبي أن يبدو الأمر طرداً من الوظيفة، فاستكتب رئيس تحرير **البعث** رسالة يطلب هذا فيها إعادتي إلى الجريدة. وفي صياغته لقرار طردي – كما هو القرار في واقع أمره، أظهر الوزير أنه اتخذه استجابة لطلب ناجي الدراوشة.

حزن ناس كثيرون، أما المبتهجون فكانوا أكثر. وكان من شأني أن أبتهج أنا نفسي لو أن تحرري من هذه الوظيفة تم في ظروف مختلفة. أما وقد هزمني الباطل فقد أسيت. ولك أن تعرف أن أشدّ ما أثار أساي كان سلوك أفراد «عصابتي». ولكي لا تخطئ الفهم، علي أن أقول إن حزن هؤلاء فاق أي حزن وإن أسفهم كان جلياً وصادقاً، لكن رد فعل أي منهم لم يتخط الحزن والأسف.

فنبت من جديد ذلك الإحساس العتيق بأني أُترك مرة أخرى وحدي، كما حدث في التنظيم الفلسطيني. ومرة أخرى، لكي لا تخطئ الفهم، علي أن أقول لك إني لم أحمل أصحابي أي مسؤولية بل اقتنعت بأن العلة فيّ أنا وليس فيهم، فأنا أمضي في كل مرة إلى أبعد مما تبيحه الظروف، وأحمّل نفسي أكثر مما يطيقه أصحابي، فأنتهي إلى أن أجد نفسي وحيداً. ومبعث الأسى كامن في عجزي عن السلوك في نحو مختلف.

وكما هو شأن الضارة التي قد تنطوي على نفع، لم تحجب هزيمتي بعض المنافع. ففي المعمعة التي خضتها على مدى مائة يوم، زادت شهرتي واتسعت علاقاتي بالكتاب والفنانين، وظهر صدق تميزي عن غيري من أعضاء الحزب الحاكم، واكتسبت مزيداً من الاحترام. ثم إن عبد الله وزعين والزعبي، وقد أحسوا بأنهم ورطوني في ما حذّرت منه، عوضوا الأذى الذي لحق بي بإيلائي مزيداً من رعايتهم. وظل عبد الله، وهو من يتاح لي أن ألقاه كل يوم في المنزل أو العمل، أكثر الجميع حرصاً على توفير ما ينفعني وتزكيتي للمهام التي يتصور أني أهل لها. وقد كان عبد الله ثم ظل لوقت طويل من المبالغين في تقديره لأهليتي. ولئن فقدتُ في الإذاعة والتلفزيون وظيفة شغلتها لبعض الوقت، فقد بقي لي حضوري القوي فيهما واستمر، ولم تنقص مساهماتي الكتابية في البرنامج، بل صرت أكتب كل يوم واحداً من التعليقات السياسية إن لم أكتب أكثر. وزادت مساهمتي في إذاعة فلسطين والبرنامج العبري. وفي البعث، استعدت حضوري السابق كاملاً، في إدارة التحرير وفي الكتابة، وزادت براعتي في المواءمة بين قناعاتي المشتعلة وبين التوجيهات الرسمية، وخصوصاً في ما أكتبه للإذاعة والتلفزيون حيث صار عبد الله أشد حرصاً على حمايتي كلما أفرطت في تغليب قناعاتي على التوجيهات.

وفي وزارة الإعلام، زادت دالتي على الوزير. وكان في هذا وحده ما يكفي. فكيف وقد ظفرت أيضاً بصداقة أمين الوزارة العام أحمد مدنية ومعظم رؤساء الإدارات فيها! وعبر صلاتي في الوزارة، واصلت توفير التسهيلات لمعارفي

وأصدقائي من الصحافيين العرب والأجانب الذين يفدون إلى دمشق. كان هؤلاء يعانون الأمرين قبل أن يحصلوا على أي تسهيلات. ثم شاع أني قادر على فتح الأبواب المغلقة فتزايد عدد الذين يلجأون إلي. كنت أستاء من المصاعب التي تعترض الصحافيين والشكوك التي تحيط بهم وأعدّ هذه وتلك من الغباوات وأجهر بالدعوة إلى مكافحتها. وفي الحالات التي يكون الوافد فيها من أصدقائي أو من ذوي الأهمية الخاصة كنت أتخطى وزارة الإعلام وأتصل بقادة الحزب أو رئيس الحكومة أو رئيس الدولة لتأمين الموعد المرغوب. وكثيراً ما كان يطلب إلي أن أصحب الضيف واكتسب فأحضر اللقاء، وأتعلم وأكتسب خبرات جديدة.

صلاتي الواسعة بالأوساط كلها في المستويات كلها وفرت لي الاطلاع على دقائق ما يجري في البلد والكثير مما يجري في بلدان أخرى. وشهرتي بوصفي من المطلعين على دقائق الأمور، صارت هي ذاتها سبباً في توسيع إطّلاعي عليها. كان أحد ما، سياسي أو صحافي أو غير هذا، يجيئني متوخياً استقصاء حدث ما، فأتبادل معه الحديث فتغتني معلوماتي حتى من الحديث ذاته.

وبخروجي من الوظيفة، استعدت قدرتي على التحرك في هذه المجالات كلها. وكما قال نبيه ارشيدات وهو يواسيني: بقي لك المهم: الاتصالات والكتابة، فلتذهب الوظيفة ومشاغلها الروتينية إلى جهنم!

١٧ ماخوس شجعني: الحرب لن تقع فاذهب إلى باريس

في هذه الفترة، توسعت شلتنا الثلاثية، نبيه ومنير وأنا، فصارت سداسية. أول من رفد الشلّة المتميزة كان هو الناقد السينمائي سعيد مراد، وهو شيوعي، ومن جيلي، ونبيه هو الذي عرفني عليه. وقد كانت لسعيد مراد أصالة نبيه وقدرته على التعامل مع شتى الناس، على أن تضيف إلى هذا خبرات إبن المدينة العريقة دمشق وحذقه وذوقه المرهف. نشأ سعيد في أسرة كردية فقيرة، وأرغمته الحاجة على العمل طفلاً، فاشتغل أجيراً في دكان قصاب متواضع الحال هو عمه، وأتقن الحرفة، وتزوج إبنة العم شبه الأميّة، وأنجب صبياً وبنتاً، إلا أن توقه إلى مواصلة الدراسة لم يبهت، فواظب على الدراسة وهو يعمل إلى أن ظفر بالشهادة الثانوية، كما واظب، خصوصاً، على تثقيف نفسه بالمطالعة، فكان يلتهم الكتب التهاماً، وكانت له ذاكرة قوية وقدرة على الفهم مدهشة، فكان يهضم ويخزن، وكلما اقتضى الأمر كان مخزونه يفيض.

وعندما تعرفت عليه، كان سعيد قد تخطى مشاق النشأة ومصاعب حياة الشباب، وكان قد طلق زوجته الأولى وتزوج خريجة كلية الحقوق هند الميداني التي ستصير بتطور حياتها مع سعيد، مخرجة تلفزيونية، كما كان قد حقق لنفسه مكانة مرموقة في الوسط السياسي الثقافي السوري وأخذ يمدُّ صلاته حيث يتيسر في دنيا العرب. وفي دمشق، شكل سعيد مراد واسطة العقد

الذي ينتظم صفوة مثقفي البلد، وخصوصاً الناشطين منهم في مجالات الآداب والفنون. كان هذا الإنسان، مثله مثل كل مثقف عمل بيديه في مهن شاقة، متنوع الخبرات العملية وعميق التمثل للحياة، وكان إلى ذلك من أوسع المثقفين ثقافة، فصار حديثه يعكس هذا المزيج الدسم من الخبرة والمعرفة والأصالة، فيشدّ سامعه، يستوي في هذا أن يتحدث سعيد إلى عامل المصعد في الإذاعة أو إلى أكبر الفنانين، ويستوي فيه أن يتناول حديثه طرق إعداد الخيار المخلل أو آخر روايات نجيب محفوظ أو أحدث أفلام فلليني. أما خبرة سعيد مراد في إعداد أشهى الأطباق وتنظيم أغنى الموائد وإدارة أمتع السهرات وأكثرها فائدة، فإنها تعكس هذا الجانب من شخصيته الذي أود أن أظهره لك ولا أظفر بالعبارات القادرة على تحديده، فلأقل إنه الذوق الرفيع والرغبة الدائمة في إبهاج الآخرين وإدهاشهم بما هو نافع وممتع. وحين تعرفت عليه كان سعيد يعمل في وكالة أنباء نوفوستي السوفييتية ويكتب للصحافة. وقد اجتذبت أنا سعيد إلى الكتابة للإذاعة، فتوثقت صلتنا، فكنا نلتقي في النهار في أوساط الإذاعة، وتضمنا في المساء، أوله أو آخره حسب الأحوال، اجتماعات الشلّة.

ثاني من رفد الشلّة كان حنّا مينه، إنك تعرف بالطبع هذا الروائي الشهير، ولعلك تعرف شيئاً عن تطورات أحواله منذ صار نجماً. أما في بداية حياته فقد نشأ حنّا هو الآخر في أسرة فقيرة، أو قل في أسرة انحدرت إلى فقر مدقع منذ أخرجت من مستقرها في لواء اسكندرون. وقد انتهى مطاف الهجرة بأسرة حنّا إلى اللاذقية. وهناك، عمل طفل الأسرة أجير حلاّق وأتقن المهنة وشبّ وهو يمارسها دون أن تتوفر له بعد الابتدائية فرصة الدراسة في مدرسة. وفي دكان الحلاق، تدرّب حنا على القصّ، ليس قصّ الشعر وحده، بل قصّ الحكايات. ومن المدينة الساحلية ومينائها، استقى حنّا مصادر حكاياته. ومن هذا المنبت الموحي، جاء الروائي الكبير، وفي مدرسة الحياة تعلم وطور ثقافته بجهده. ولما ضاقت اللاذقية بموهبة الشاب وطموحه، انتقل حنا إلى دمشق وغاص في ما يغوص فيه أدباؤها الناشئون، الصحافة،

والمنتديات والبحث عن فرص النشر. وعندما لوحق الشيوعيون، وجد حنا طريقه إلى بيروت حيث توجب عليه حتى هنا أن يتخفى. ومن بيروت إلى بكين والعمل في إذاعتها حيث توثقت علاقته بنبيه ارشيدات. ولما ضاق حنّا كما ضاق نبيه بالثورة الصينية الموصوفة بالثقافية، انتقل إلى بودابست وبقي هناك. وهناك اجتذبت حنّا كتاباتنا التي تبثها الإذاعة، فتوهم أن اليسار سيطر على البلد وانتهى الأمر، فتعجل العودة: «خدعتموني يا أحبائي!» صار حنّا الذي انضم إلى الشلّة يقولها كلما شاء أن يذكرنا بما آل إليه حاله في وطنه: حال العاطل عن العمل الباحث عن مصدر رزق يعيل به أسرته الكبيرة والعاجز عن أن يرجع حلاقاً كما بدأ.

خاتمة العقد كان سعيد حورانية، هذا الذي لا يمكن لأي وصف أن يحيط بشخصيته أو يستوفي أطباعه. توجه سعيد إلى بيروت كما توجه حنّا عندما لوحق الشيوعيون في عهد الوحدة بعد أن أمضى فترة في سجن المزة. وفي بيروت، عاش سعيد متخفياً لكن أمره انكشف للسلطات فأودع سجن الرمل بصحبة المجرمين، ولم تنفع النداءات المحليّة والإقليمية والدولية التي طلبت الإفراج عنه في زحزحة بغض السلطات للقاص الشيوعي. وعندما تحرر سعيد حورانية من السجن في نهاية المطاف، رجع إلى دمشق. وهنا، وجد سعيد أعضاء شلتنا، وكلهم من أعزّ أصحابه، في انتظاره، فانضم إليها ونهض بهمتها إلى الأوج.

في هذه الأثناء، بلغ صخب الخطاب اليساري لعهد شباط/فبراير ذروته. واستعار العهد كل ما هو متشدد من شعارات التيارات اليسارية المتعددة في العالم وأضاف إلى تشدده الأصلي. واختلط حابل الشعارات بنابلها، المحافظ والتقدمي القومي والأممي، العفلقي الذي تحت الجلود وعلى السطح والماركسي اللينيني صحيح النسب أو زائفه، والجيفاري، والماوي. ووجد في الحزب الحاكم من يقول إن الإصلاح لا يتم إلا بالاهتداء بالماركسية ومن يقول إن الماركسية وليس أي شيء آخر هي التي تخرب الحزب. ومع التشبث بشعار

الأمة العربية الواحدة ورسالتها الخالدة، كثر الحديث عن الصراع الطبقي. ومُيّزت البرجوازية الصغيرة عن غيرها، وقيل إن على الحزب أن يتوخى اجتذابها، وصار خطاب السياسة والإعلام يتوجه إلى هذه البرجوازية الصغيرة كأنها جهة معروفة الشخصية والعنوان ويواصل حثّها ليل نهار على الالتفاف حول العهد.

وحاول صلاح جديد ونفر من أخلص المحيطين به أن يبنوا تنظيماً حزبياً متماسكاً محكوماً بمركزية تكاد تشبه مركزية المؤسسة العسكرية. وأمل جديد في أن تصير للحزب الكلمة الأولى في الجيش والمجتمع، فبرزت الدعوة إلى الجيش العقائدي كما لم تبرز من قبل، ومعها الدعوة إلى تنظيم الجماهير. وصار على شاغل أي منصب حكومي أن ينفذ تعليمات الجهاز الحزبي. وهكذا، بهذا، كما بغيره بالطبع، تحمل الحزب أمام الرأي العام مسؤولية الأخطاء والنواقص وأوجه العجز والفوضى والتجاوزات التي تلغ فيها أجهزة الحكم. فصار الحزب مبغوضاً بمقدار ما هي السلطة غير الديمقراطية مبغوضة وزيادة. وبالرغم من أن جديد وناسه حاولوا تكوين تنظيم طليعي مبرأ من الفساد، فإن نجاحهم في هذا المجال بقي محدوداً، فلم يطفئ بؤر الفساد ولم ينشئ أسساً راسخة لتطور مبرأ منه. ذلك أن الأنظمة، حسنها وسيئها، لا تنشئها النوايا، بل السياسات والتدابير. وهذه بمعظمها عمقت التباعد بين النوايا وواقع الحال. ومع غياب الديمقراطية والافتقار إلى الرقابة الشعبية الحرة وإحلال بيروقراطية الحزب والسلطة محلهما، اتسعت المهاد التي نمت عليها عوامل الشكوى.

بكلمات أخرى: بدت سورية في عهد شباط/فبراير كأنها واحد من مراكز التطرف اليساري العالمي، دون أن يتعدى الأمر حدود التشدد اللفظي بكثير. أما داخل البلد، فانهال كلام متواتر عن حريات الجماهير وحقها في المبادرة، فيما حظر أي نشاط عام إلا أن يكون النشاط الذي ينظمه الحزب الحاكم أو يرضى عنه. وفي المحصلة، اشتد التضييق على الجميع، ولم تنتفع بالدعوة

اليسارية حتى المنظمات اليسارية التي تريد الاحتفاظ باستقلالها. وقد تأثر صلاح جديد ويوسف زعيّن وأمثالهما بالتجربة الكوبية فاقتبسوا منها بعض ظواهرها. وطمع جديد في أن يفعل في سورية ما فعله فيدل كاسترو في كوبا. فخطط لدمج التيار القومي الاشتراكي الذي يمثله البعث بالتيار الماركسي الذي يمثله الشيوعيون، لكنه لم ير في الدمج المتوخى إلا التحاقاً من الآخرين بالبعث وإقراراً منهم بحقه في قيادة الحركة السياسية والمجتمع. واتسم التخطيط للدمج بطابع المؤامرة. فصار الهدف هو الهيمنة على الآخرين بتشجيع القابلين منهم بالدمج وإضعاف غيرهم. وقدمت محاولة صلاح جديد تجاه الشيوعيين أسطع انموذج. فقد ضُمّ إلى حكومة العهد وزير شيوعي واحد دون أن يصير الحزب الشيوعي مرخصاً أو حراً في ممارسة النشاط المستقل. وانتظمت محاولة اتخذت طابع مؤامرة طويلة النفس لشق الحزب الشيوعي بهدف إضعاف خالد بكداش بالذات واجتذاب مناوئيه في حزبه إلى التعاون مع البعث باستخدام الجزرة الكوبية.

وفي الشأن الفلسطيني، انتظمت العلاقة مع «فتح» من جديد بعد طيّ مسألة يوسف عرابي. وأعادت «فتح» أو استعادت حضورها في سورية، هذا الحضور الذي كان أبرز ما توفر لها في دنيا العرب إلى جانب حضورها في الجزائر. ولقيت مساعي «فتح» للقيام بعمليات ضد إسرائيل كثيراً من التأييد اللفظي وبعض التأييد العملي. وجرى تشجيع أحمد جبريل هو الآخر للقيام بعمليات مماثلة. وبدأ أحمد يتمظهر ببعض السمات اليسارية ويسعى إلى مدّ خيوط علاقاته هنا وهناك على حاملة التشجيع السوري والتنافس مع «فتح». أما العلاقة مع حركة القوميين العرب فظلت على سوئها. وظلت العلاقة مبلبلة بين القيادة السورية وبين الشقيري وفريقه الذي يتصدر قيادة م.ت.ف. وفي الخطاب السياسي والإعلامي السوري، صار التأييد لما سمي حرب الشعب طويلة الأمد أو الكفاح المسلح طاغياً. وأنت تعرف دون شك أن سياسة سورية في هذا المجال أعطت لإسرائيل واحدة من ذرائعها لتوتير الجو في المنطقة

والتحضير للحرب الكاسحة التي شنتها بعد ذلك.

في تلك الحقبة، وأنا أتحدث عن الشهور التي سبقت حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، صارت سورية تحت أضواء الاهتمام الإقليمي والدولي. استجاب عبد الناصر ليد دمشق الممدودة من أجل إصلاح ما فسد من علاقات الطرفين، ورأى في الوجه التقدمي المعادي للإمبريالية في سياسة العهد البعثي الجديد ما شجعه على الاستجابة. وارتاعت الأنظمة العربية المحافظة من الصخب اليساري، وأغلب الظن أنها بالغت في تقدير مخاطره عليها، فساءت علاقاتها بسورية وبلغت في أحوال عدّة حد القطيعة. وفي هذا السياق، احتضن الأردن جماعة سليم حاطوم الفارّة، وأنشأ سليم داخل الأردن قاعدة عسكرية اجتذب إليها عدداً من العسكريين المؤيدين له، وراح ينظم عمليات تستهدف زعزعة النظام السوري. فأجابت سورية على هذا بتشديد رعايتها لمعارضي النظام الأردني، ونظمت عمليات مضادة. ووجد السوفييت في بعثيي ٢٣ شباط/فبراير أفضل الذين يمكن التعاون معهم من البعثيين، فسعوا إلى اجتذابهم وشجعوهم، وأغدقوا المعونات. ولئن صح أن البعثيين متعبون إن صادقوا كما هم متعبون إن خاصموا، فإن بعثيي ٢٣ شباط/فبراير أظهروا ميلاً زائداً إلى التعاون مع السوفييت فلم يفوّت السوفييت الفرصة، بل عملوا كل ما يقدرون عليه لتقوية العهد، فيما غضوا النظر عن المتاعب وتجملوا إزاءها بالصبر الشديد. وفي الغرب الرأسمالي، تجدد الكلام عن سورية الحمراء وقُرعت النواقيس المنذرة: السوفييت يقتربون من المياه الدافئة ويحيطون بمنابع النفط!

ومع حلول ربيع ١٩٦٧، بدا أن وضعاً جديداً قد تأسس في المنطقة قوامه تعاون مصر وسورية في مقابل الأنظمة والقوى المحافظة. كما بدا أن إسرائيل في خطر، وتجدد الحديث عن فكيّ الكماشة. وحين تكون إسرائيل في خطر والأنظمة المحافظة في ضيق، وحين ينضاف الحضور السوفييتي إلى الصورة، فهذا يعني أن مصالح الغرب الرأسمالي باتت مهددة. ولما كانت أكثر شعارات

البعثيين حدّة وصخباً هي تلك الموجهة ضد إسرائيل، ولما كانت إسرائيل تعد مصر أقوى أعدائها وأخطرهم عليها، فقد فُسّر التعاون المصري السوري على أنه موجه ضد هذه الإسرائيل بالذات. وفي هذا يكمن التفسير السديد للحملة العدائية الهائلة التي استهدفت سورية من قبل إسرائيل، وهي الحملة التي طالت مصر أيضاً وانتهت بانفجار الموقف.

في عمق الصورة، كما في تفصيلاتها الظاهرة، لم تتسم علاقات البعثيين المتجددة بعبد الناصر بحسن النية والصفاء اللذين يقتضيهما التعاون بين بلدين شقيقين ضد أخطار كبيرة محدقة بهما كليهما. فقد كان هناك ما استقر تحت الجلد من تأثير الخصومات السابقة. ولم تكن تلك خصومات هينة حتى يزول تأثيرها. واستمرت اختلافات الجانبين حول العديد من الموضوعات السياسية الهامة. فكان الخلاف بين دعوة البعث إلى وحدة القوى الثورية العربية بما هي دعوة ضد التضامن العربي العام، وبين ميل عبد الناصر إلى هذا التضامن. وكان الخلاف بين نبرة البعثيين المتشددة في كل شيء وبين نبرة عبد الناصر المتعقلة في معظم الأشياء. ثم كان هذا الخلاف الحساس في الموقف من منظمات الكفاح المسلح الفلسطينية. فقد اتسم الموقف الناصري بالتحفظ إزاء نشاطات هذه المنظمات. وعندما تعلق الأمر بـ «فتح» بالذات، اتسم هذا الموقف بالعداء. وهكذا، فيما رعى السوريون عمليات «فتح» وأحمد جبريل المسلحة وشجعوها، أدانت مصر هذه العمليات إدانة سافرة وعدّتها محاولة مريبة لإقحام العرب في حرب مع إسرائيل لم يستعدوا لها. وفيما احتضنت سورية «فتح»، رأت مصر في هذه المنظمة الفلسطينية امتداداً للاخوان المسلمين وعادَتْها. وهاأنذا أتذكر أن صديقي المصري فتوح الشريف حذرني في ذلك الوقت من التعاون مع «فتح». كان فتوح هذا مديراً لمكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط، الوكالة الصحافية المصرية الحكومية، في دمشق، واتضح لي في ما بعد أنه هو ممثل مخابرات الرئاسة المصرية في سورية. وقد جاءني فتوح بعد أن عرف صلتي بياسر عرفات، وهمس في أذني أن المخابرات المصرية تلاحق رجل «فتح» هذا بما هو

عميل للمخابرات البريطانية.

عرضت لك أبرز عناصر الصورة التي تشكلت قبل الحرب لتعرف مقدار الإضطراب الذي يلف البلد والمنطقة ويشغلهما بما هو مفيد وما هو غير مفيد أيضاً. وهل كان من الممكن أن لا تتأثر حياتي الشخصية بهذا الاضطراب الذي أغرق في معمعانه. لقد اضطرد ضيقي بالمزايدات حتى صار يخنقني. ولم أتحمس لمقاطعة سورية لمؤتمرات القمة، ولم أقتنع بأن الدعوة إلى وحدة القوى الثورية العربية هي البديل المفيد للتضامن العربي. مع هذا، وراء الصخب والمزايدات، بقي في سياسة العهد الكثير مما أؤيده. حتى اعتراضاتي كانت غالباً ما تنصب على الأسلوب. فأنا لم يعجبني، مثلاً، أن يشكل الكفاح المسلح عماد دعوة الحزب إلى تحرير فلسطين وأن يتصرف ضباط الجيش البعثيون، بالرغم من هذه الدعوة، تصرف السادة العابثين فلا يعبأون بواجباتهم العسكرية. لم يعجبني، مثلاً أيضاً، أن تتسع الدعوة إلى تطوير العلاقات مع الاتحاد السوفييتي وتظل علاقة سورية التجارية، مع ذلك، أكبر مع الدول الرأسمالية منها مع الدول الاشتراكية. كنت أرى كيف تتشدد قيادة الحزب في معاقبة أي عضو يخالف النظام، حتى لو كانت المخالفة من نوع التأخر في تسديد اشتراكه الشهري، وأرى كيف تقف القيادة ذاتها، في الوقت ذاته، مكتوفة الأيدي إزاء سلوك الضباط. وكنت أرى كيف يحشر الضباط أنوفهم في ما لا يعنيهم ولا يفهمونه في حين يعجز العضو المدني حتى عن تسجيل ملاحظة صغيرة ضد الجيش أو أي من ضباطه. وكان هذا كله لا يعجبني. وكان إحساسي بالتأذي يتفاقم ومع تفاقمه يشتد توتري وأندفع في المواجهات بحساب وبغير حساب.

وظل انهماكي في المعامع هو وسيلتي لإطفاء التوتر فضلاً عن فوائده الأخرى، وكانت جرأتي في المواجهة تشكل لي تعويضاً عن التأذي. وقد ألفت أن أظنني الفارس الثوري الحق وأسعد حين أتصورني الوحيد أو أجدني متميزاً حتى عن الفرسان. وكثيراً ما هيئ إلي أني أفهم ما يعجز غيري عن فهمه وأرى

أبعد مما يرون وأتمتع بقدرة هائلة على التنبؤ. غير أن هذا كلّه ما كان لي أن أتمتع به إلا بيني وبين نفسي حين تأذن المشاغل بأن أخلو إليها. أما في مجرى الحياة فإن ثقتي بصواب ما أفعل كانت تتآكل. وصار على أصدقائي أن يبذلوا جهداً أشدّ لإبقائي على الخط وتشجيعي على الاحتمال. والواقع أن الدكتور نبيه بقي هو الأطول باعاً في هذا المجال. وقد ألف نبيه أن يحيلني إلى خالد بكداش إن عجز هو عن تصبيري فكان بكداش يستقبلني في منزله أو يلقاني في منزل نبيه فلا أخرج من بين يديه إلا وقد تخففت من الضيق. أما مع منير الحمارنة فكان الأمر يختلف، فمنير لا يعظ، ولا يقدم وصفات، ولا يتكئ على الأسباب الكبيرة، بل يتبادل معي حديث إنسان لإنسان، فنصل إلى النتيجة ذاتها. وأما سعيد مراد فكان ما يدور بيننا هو تبادل للشكوى: أشكو أنا ما أجده من البعثيين ويشكو هو ما يجده من شيوعييه، فنتخفف كلانا من الضيق. أما ذروة الراحة فكنت أبلغها في الأماسي حين ينتظم جمع الشلة كلّه. وما كان أعذب تلك الأماسي!

على أي حال، إن أحداث تلك الحقبة لفتني بصخبها وتدافعها. ولم يبق لي من أجل التأمل إلا أوقات نادرة. كان كل شيء يندفع نحو الحرب، إسرائيل تستعد لها استعداداً فعلياً وتتفنن في توفير الذرائع، والعرب يهللون للأمجاد القادمة. وكنت أشهد الإندفاعة وأخشاها فيما يطرب الآخرون من حولي لقرع الطبول التي يقرعونها بأنفسهم. وفي السابع من نيسان/إبريل ١٩٦٧، في يوم احتفال البعثيين بعيد تأسيس حزبهم، شنت الطائرات الإسرائيلية غاراتها الشهيرة على الجبهة السورية ودمّرت عدداً منتقى من المواقع فيها. باغتت الغارات السوريين. ووفق الرواية الإسرائيلية حققت الطائرات المغيرة أهدافها بسرعة وعادت إلى قواعدها دون أن يعترضها الطيران السوري ناهيك بأن يهبّ إلى قتالها. ووجه هذا كله ضربة قاسية للكبرياء البعثي وللخطاب السياسي الإعلامي الذي يتبجح باليقظة والاستعدادات. غير أن هذا الخطاب لم يتبدل بعد الغارة. وقد تولت البلاغات العسكرية الرسمية تفنيد الرواية الإسرائيلية

عن الغارات، وصورت ما جرى على أنه انتصار عسكري سوري، ووجد الخطاب المزايد أسبابا جديدة ليشتط في المزايدة. وبدل استخلاص العبر الصحيحة، طمأنت البلاغات الجمهور: وقوع هذه الغارات يثبت أن سورية البعث هي الخطر الأكبر الذي يخشاه كل من الصهيونية وإسرائيل والإمبريالية ومعها الرجعية العربية.

بعد يومين أو ثلاثة، أي بعد أن أعيد ترتيب وضع المواقع المستهدفة استضافت رئاسة أركان الجيش السوري عدداً كبيراً من الصحافيين العرب المقيمين في بيروت وزملائهم اللبنانيين. ولما عرفت أن غسان كنفاني قادم مع هؤلاء فقد انضممت إليهم لأظفر بلقاء الصديق الذي يقيم في بيروت فيما أنا محروم من زيارتها. وهكذا، وجدني غسان بالانتظار عند مدخل مبنى الأركان، وقدمني إلى أمين الأعور الصحافي اللبناني الشيوعي الذي أعرفه بالاسم، فشكلنا ثلاثتنا شلة متميزة وسط الحشد؛ كنّا بعثياً غير مفتون بالبعثيين وقومياً عربياً مختلفاً عن القوميين العرب وشيوعياً يستهين بالشيوعيين. وقد تماثلنا ثلاثتنا في طول اللسان والقدرة على تأليف التشنيعات وكذلك الاستهانة بالمسؤولين الحكوميين والميل إلى السخرية منهم.

كان حافظ الأسد هو وزير الدفاع وقائد القوى الجويّة، لكنه لم يستقبل الصحافيين، والذي استقبلهم هو أحمد سويداني، وكان هذا قد حصل على رتبة لواء وصار رئيساً للأركان العامة. ولم يكن رئيس الأركان على وفاق مع الوزير. وهكذا قدم سويداني رواية اشتملت على ما صرت تعرفه من سمات الخطاب البعثي وتضمنت غمزاً يكاد يكون صريحاً بقعود الطيران السوري عن المجابهة، أي بحافظ الأسد. ولأننا نحن الثلاثة كنا من العارفين بدقائق العلاقات بين قادة العهد، فقد تتبعنا مدارات كلام سويداني بمتعة، ورحنا نتندر بها. وعندما جاء دور الأسئلة، انبثق من وسط الحشد صوت أمين الأعور بكلام أملاه الجوّ عليه فذكر ما يعرفه الجميع من أن الرئيس جمال عبد الناصر عرض أن يرسل طائرات مصرية للمساهمة في حماية سماء سورية

وأن سورية رفضت العرض، ثم سأل: ما هي أسباب هذا الرفض؟ إزاء هذا السؤال. وقد تعلق الأمر بالمنافسة مع عبد الناصر، نسي حديث العهد برتبته العسكرية ضيقه بالأسد وحكى كما يحكي أي بعثيّ صحيح النسب: «لدينا طائرات تزيد عما تستوعبه سماء سورية، ولسنا بحاجة لمعونة أحد». إن ذكر الطيران المصري مقترن بواقعتين لا أظن أن سويداني يستطيب أيا منهما: نقل المظليين المصريين إلى الساحل السوري في المحاولة الفاشلة للتصدي لحركة الانفصال، والوعد الذي قدم للناصريين السوريين بدعم الطيران المصري لهم في ١٨ تموز/يوليو ١٩٦٣. وقد استحضرت أنا هاتين الواقعتين، ففهمت لماذا أجاب سويداني بنزق. أما أمين الأعور فقد عقّب: «أمّا حكي!» وأما الآخرون فقد ضحكوا.

بعد هذا اللقاء، حملتنا باصات عسكرية إلى الجولان. وهناك، تجول الصحافيون مع أدلاء عسكريين في المواقع التي تعرضت للقصف، وشاهدوا ما أجيز لهم أن يشاهدوه، واستمعوا إلى روايات جنود وصفوا بأنهم شهود عيان. وكان في هذا كله ما يظهر ما توخى منظمو الرحلة إظهاره: جبهتنا لا تقهر. وفي القنيطرة، ضمتنا قاعة كبيرة مخصصة لاجتماعات الضباط في قيادة الجبهة. وكان في هذه القاعة ما أعرف وما لا أعرف من التجهيزات. وفيها ما يقرب من مائة مقعد، وقد اخترنا نحن الثلاثة مجالسنا في صف المقاعد الأخير، وذلك لنأخذ راحتنا حين نتحادث. وكنّا نرى من هذا الصف كل شيء في القاعة. حتى الخارطة التي تجسم منطقة الجبهة والتي تشغل الحائط المقابل كنّا نستطيع أن نقرأ ما عليها من أسماء المواقع، الكبيرة والصغيرة. ولم يلبث أن أقبل قائد الجبهة العقيد أحمد المير الذي أعرفه؛ القامة المربوعة وبذلة الميدان، والخطوات الناشطة التي يميزها افتقارها إلى ايقاع الخطوة العسكرية بالرغم من أن الرجل عقيد. ومع قائد الجبهة، جاء مرافقه، ضابط برتبة رائد، لخطوته إيقاع منتظم فكأنه يسير في عرض عسكري. ووجد أمين الأعور في التباين بين هيئة المرافق ورئيسه ما يعلق عليه ويطلق لسانه بالتشنيعات

فاستغرقنا الاستماع إليه. ولم نفطن إلى أن قائد الجبهة قد شرع في الحديث إلا حين رأيناه متجهاً إلى الخارطة وهو يتساءل: «سكوفيه؟ سكوفيه؟» وينقل نظره على امتداد الخارطة بحثاً عن القرية التي تحمل هذا الاسم وهو لا يهتدي إليها بالرغم من أننا رأينا من موقعنا البعيد الاسم المقصود. وعندما كان هسيس الضحك في القاعة يتحول إلى قهقهة صريحة، تقدم المرافق وتناول المؤشر الخشبي الأنيق وأشار إلى المكان: «هنا يا سيدي!» ثم أعاد المؤشر إلى مكانه وتراجع بالخطوة الموقعة ذاتها التي تقدم بها. أدهشنا بالطبع أن قائد الجبهة الذي يُفترض أن يحفظ المواقع عن ظهر قلب لم يشعر بأي حرج إزاء عجزه عن قراء خارطة لا يقل عرضها عن خمسة أمتار. أما كلام العقيد، فقد أثار فينا ما هو أكثر من الدهشة. فالعاجز عن قراءة خارطة قال أمام حشد الصحافيين إن حزبه لا يهيئ الجماهير ليس لحرب دفاعية، بل لحرب هجومية هدفها تحرير فلسطين والانطلاق منها لتحرير الأمة العربية كلّها وتحقيق وحدتها، ثم لم يتوقف عند هذا التصريح، بل دعمه بإيضاح، فلو اقتصر الأمر على الحرب الدفاعية لكفى من أجله اللواءان اللذان جندتهما سورية من النساء. وكان العقيد يشير بهذا إلى ما أعلن مؤخراً من ان الجيش الشعبي يضم لواءين من المتطوعات. والجيش الشعبي كما ينبغي لك أن تعلم تنظيم ميليشيا توجد تشكيلاته على الورق أكثر مما هي موجودة في الواقع. أما اللواءان النسائيان فلم يكونا موجودين حتى على هذا الورق. ومع إمعان العقيد في الحديث الذي على هذه الشاكلة، تكررت حركة المرافق كما تكرر هتافه المتأدب: «هنا، يا سيدي!»

تلاشى إحساسنا الأول بطرافة مسلك قائد الجبهة، وحل محلّه إحساس ثقيل. وقال غسان كنفاني وهو يغالب أساه مستعيراً تعبيراً شائعاً في الشارع السوري: «ما دام هذا العسكر عسكرنا، لا، بالله، انتصرنا!»

ملأ حديث الحرب كل مكان. وبدا كل من تلقاه على يقين من أن الحرب قادمة وأن إسرائيل ستشنها. بالرغم من هذا، فما أقل ما عُمل من أجل الاستعداد

لها. والواقع أن المسؤولين في الحزب والدولة انتابتهم حالة يصعب وصفها لكثرة ما تتداخل فيها المؤثرات المتباينة. كان واحدهم يبدو راضياً، وربما مبتهجاً، لأن السياسة التي يتبعها تثير الاهتمام وتضع سورية في بؤرة الأضواء، وكان يتوهم أن الحرب هي الوسيلة إلى حل المسائل العالقة فيتعجل وقوعها. غير أن الشخص ذاته كان يخشى أن يفلح عبد الناصر، وهو رجل المناورات البارعة، في منع إسرائيل من شن الحرب ويتوصل إلى تسوية ما فتخرج سورية من دائرة الأضواء. ولو تعمقت في النفوس وبحثت في ما تحت الجلود فستقع على خليط متباين من الرغبة في الحرب والخوف من وقوعها، من توهم النصر وعدم الثقة بإمكانية إحرازه، دون أن تكف الألسنة عن ترديد الدعوات العنترية. لم تكن لدى هؤلاء فكرة واقعية عن الحرب. ولم يسبق لأي منهم أن كان في موقع مسؤولية عندما جرت الحروب السابقة.

وهاأنذا أتذكر المحاضرات التي توجب عليّ أن ألقيها والحوارات التي تبعتها في مواقع عسكرية مختلفة. فقد نظم مكتب الإعداد الحزبي برنامج محاضرات تلقى على ضباط الجيش، وأدرج اسم عبد الله الحوراني في عداد المحاضرين. ولسبب أو غيره، عجز عبد الله عن تفريغ نفسه لأداء المهمة، فلجأ إلي ورجاني أن أحل محله، وقبل مكتب الإعداد هذا الاستبدال على مضض. وفي سياق البرنامج، كان علي أن أتحدث في مواقع كثيرة في أنحاء سورية كافة. وقد تصادف أن دوري كان يحل دائماً بعد ضابط مشهور هو مصطفى طلاس وأظن أنه كان في ذلك الوقت قائداً للمنطقة العسكرية الوسطى أو شيئاً من هذا القبيل. وكان طلاس، العقيد وقتها، صاحب أعلى الأصوات المرحبة بالحرب صخباً وأشدّها إيغالا في المزايدة. ولم يكن هذا العقيد من الذين يميزون بين المحاضرة والخطاب والتحريض، فكان يخطب دائماً ويستهدف استثارة الحماس، ولا يعنيه أن يستند إلى حقائق أو أن يروج أوهاماً.

وقتها، اشتهر طلاس بالمقولة التي رددها في كل مكان حل فيه وهي المقولة التي وجدت طريقها إلى النشر في الخارج واستخدمتها الدعاية المضادة

دليلاً على وجود نوايا عدوانية عند سورية. ملخص هذه المقولة أن الجيش السوري قادر على اختراق خطوط الهدنة وإلحاق الهزيمة بجيش إسرائيل والوصول إلى المحور المؤدي إلى تل أبيب، وذلك كله في يومين اثنين إذا اتخذت سورية المبادرة إلى الهجوم. أما إن كان جيش إسرائيل هو المبادر فإن الجيش السوري محتاج، وفق مقولة طلاس، إلى ستة أيام حتى يطرق أبواب تل أبيب ويزيل دولة إسرائيل من الوجود. وإذا ووجه طلاس بأسئلة حول الوقائع والاستعدادات، فإنه كان يلجأ إلى ترديد العبارات المطمئنة وإزجاء الوعود ولا يزيد على هذا: «حسبت قيادتكم حساب كل شيء، فلا تخشوا المفاجآت!» أو «أعددنا لكل شيء عدّته وهيأنا لكل احتمال ما يناسبه، ولا داعي للبوح بالأسرار، فاطمئنوا!» بكلمات موجزة، كان طلاس يبشر بحرب ساحقة ماحقة، النصر مضمون فيها للعرب، مثلما هو مضمون إلغاء وجود إسرائيل واستعادة عروبة فلسطين.

كان نهج طلاس وقوله يناقضان نهجي وقولي، أنا الذي أحلّ بعده بيومين في الموقع الذي تحدث هو فيه. فكنت أرى في عنتريات الخطاب العربي عن الحرب لغطاً فارغاً إن نم عن شيء فعن الجهل أو عن ما هو أخطر من الجهل. وكنت أتصور أن العرب إن أرغمتهم إسرائيل على خوض الحرب فسوف يتعرضون لهزيمة عسكرية جديدة، وأتمنى ألا تقع الحرب. ولم يكن من المناسب ولا حتى من الممكن الجهر بمثل هذه الآراء في محاضرة تلقى في موقع عسكري في إطار برنامج يفترض أنه يهيئ العسكريين للاستعداد لحرب قادمة. غير أني بقيت قادراً على أن أتحدث بما يتسق مع آرائي وأنتهج التبصير بالوقائع التي تظهر الفارق الكبير بين استعدادات إسرائيل وبين ما هو متوفر على الجانب العربي. وقد دأبت على التحذير من مخاطر السياسة المغامرة لأنها توفر لإسرائيل ذرائع تبحث عنها وهي عازمة على العدوان. كما دأبت على التنديد بالذين يستهينون بقدرات إسرائيل وقوة التأييد الدولي لها. وكنت بهذا أقترب قليلاً أو كثيراً من الجهر برأيي الكامل وأمتنع عن الانسياق

مع أي عنتريات. وظل واضحاً في أي كلام قلته أني ضد المخاطرة بخوض الحرب وأني لا أجد الظروف ملائمة لخوضها.

المحاضرة الأولى ألقيتها في كلية ضباط الاحتياط في حلب. وقد صدف أن الطلاب الذين تحدثت أمام جمعهم الكبير كانوا كلهم من خريجي الجامعات وحاملي الدرجات العلمية. كان هؤلاء قد نجحوا في تأجيل سوقهم إلى الخدمة العسكرية، سنة بعد سنة، ثم سيقوا إليها في الجوّ المفعم بشعارات حرب الشعب طويلة الأمد والمنذر بحرب نظامية. وكان كثيرون منهم من الذين مارسوا حياة العمل بعد التخرج، ولم يكن بينهم إلا القليل جداً من البعثيين. ولم يكن هؤلاء سعيدين جداً بوجودهم في الكلية وانقطاعهم عن الفرص المتاحة لهم في الحياة المدنية.

أمام هؤلاء المستمعين، وبالرغم من وجود قائد الكلية ومعاونيه البعثيين، أمكن أن أقدم صورة للوضع قريبة مما أراه. وقد عرضت ما هو متداول وما هو غير متداول مما أعرف. وخلصت إلى أن إلحاق هزيمة عسكرية بإسرائيل هدف مرغوب فيه، ولكن بلوغه ليس بالسهولة التي يجري الحديث عنها في دنيا العرب. وبينت أن دول الغرب، وبينها ثلاث دول عظمى، قد سلحت إسرائيل بما يكفيها للتفوق وستعمل على أن تظل إسرائيل متفوقة على الدوام. وما أن أنهيت حديثي الذي ارتجلته ارتجالاً حتى كادت القاعة تنفجر بالضجيج. واختلط صياح المستنكرين بصياح المحبذين وتزاحم طالبو التعقيب وطارحو الأسئلة.

أظهرت ردود الفعل خطورة الأسلوب الملتوي الذي استخدمته في بسط آرائي. فقليل فقط من الأسئلة والتعقيبات أظهر أني فهمت على نحو صحيح. أما أغلب ردود الفعل فقد عكس سوء فهم مؤسياً. ويبدو أن سوء الفهم ينجم من المفارقة الصارخة في وضعي. فقد استمع الحشد إلي بوصفي من أعضاء الحزب الحاكم وتعامل مع حديثي على هذا الأساس. فلما عرضت آراء أو أوردت وقائع لا تتفق مع الرائج، ظن كثيرون أنها زلات لسان مني وعاملوني

على قاعدة خذوا أسرارهم من صغارهم. وهكذا، تدفقت الاتهامات: اعترفت بلسانك ذاته أنكم لم تستعدّوا للحرب فلماذا تحشدوننا لها؟ ولم يكن بمقدوري أن أقول جهراً لهؤلاء المستنكرين إني أستنكر قرع الطبول أكثر مما يستنكرونه هم. أما مدير الكلية ومعاونوه فظنوا أن هجمة طلابها علي دليل على نقاوة حزبيتي. وأغلب الظن أن هؤلاء لم يصغوا جيداً إلى ما قلت بل كانوا مشغولين بمراقبة القاعة أو منصرفين للتأمل في أحوالهم. وقد كانت تلك معمعة لم أخرج منها إلا وأنا موهون القوى. معظ الطلاب ريشي، ولم يعده إلا التكريم الذي حظيت به من مسؤوليهم.

المواجهة التالية جرت في كلية ضباط الأركان في القابون قرب دمشق. هنا، وجدتني في قاعة محاضرات حسنة التجهيز وأمامي عدد من الضباط القادة، رواد ومقدمون وعقداء. وهنا، كان الحاضرون جميعهم من البعثيين، بل من ذوي النفوذ بين الضباط البعثيين ممن يشغل كل منهم موقع مسؤولية في وحدات الجيش. وكان أول ما لفت نظري أن هؤلاء استقبلوني بأدب مع أني كنت في سنّ أصغرهم سنًا واستمعوا إلي بانتباه. هذا السلوك شجعني على الإفاضة في الحديث وعرض مخاوفي من السياسة التي تستعجل الدخول في الحرب. وسرعان ما بدا لي أني ألقيت بذوري على أرض مهيأة لها. فقد خلت التعقيبات والأسئلة من الاستفزاز وندر ما وشى منها باعتراض صريح على أقوالي. شيء واحد وشت به ردود الفعل هو التوق إلى معرفة الصلة بين ما أقول وبين ما يقرّه الحزب. وقد كنت حاسماً فبينت في نحو قاطع أني أعرض آرائي الشخصية. كانت الخلافات في قمة القيادة قد أخذت تنداح على كل مستوى. وكان كل حزبي يتصيد الفرص ليستكشف مزيداً من التفاصيل ويستشعر اتجاهات الرياح المتباينة. وأغلب ظني أن بعض الضباط الحاضرين تصور أني أعكس آراء في قيادة الحزب لا يفصح أصحابها عنها بصراحة. وقد كان من الضروري أن أجلو هذه النقطة فأؤكد على استقلالية رأيي.

وفي إجابتي على أحد الأسئلة، قلت إني أتحدث أمام ضباط لهم دور في أي

حرب وكل ما أفعله أني أفكر معهم بصوت مرتفع وأظهر الهواجس التي تقلقني. عندها، انبرى لي رائد أعرفه وأعرف أنه من الذين لا يحبّون مصطفى طلاس، قال الرائد إنه وجد في حديثي كثيراً من المنطق واستمع إلي باحترام كبير، ثم سأل «كيف تفسر أن مسؤولاً عسكرياً كبيراً جلس قبلك على هذا المنبر وقال كلاماً مختلفاً كل الاختلاف عن كلامك ووعدنا بأن نحقق النصر في وقت يتراوح بين يومين وستة أيام؟»

كان لهذا السائل من يحميه من غضبة مصطفى طلاس، فمن الذي اتكل عليه، أنا الذي ضربني قبل شهرين ملازم شرطة؟ لقد أحرجني السؤال: أحرجني لأن الرد عليه بصراحة يقتضي أن أهاجم طلاس والرد بمواربة يفقدني الاحترام الذي ظفرت به ويزعزع صدقيتي. ولأني لم أهتد إلى مخرج، فقد تعاملت مع السؤال كأنه تعقيب استمعت إليه، وأردت أن أنتقل إلى السؤال التالي. لكن الرائد الذي يعرفني هو الآخر لم يسمح لي بها، بل أصر على تلقي إجابتي. ورأيت في عيون الضباط أن حكمهم الختامي عليّ مرهون بإجابتي على هذا السؤال بالذات. فما الذي كان بإمكانه أن يبقيني ساكتاً! وأسندت ظهري إلى ظهر الكرسي وفردت يدي على المنضدة، وقلت بنبرة من يرد على متحدّيه: «سأجيب على السؤال، شرط أن يكون لديكم الوقت الكافي للاستماع على شرح طويل». والواقع أن الحديث تجدد، فبدا كأنه محاضرة ثانية. يومها، قلت إني أجد المزايدة خطراً حتى حين يوجه الكلام إلى الجنود وعامة الناس بقصد إثارة الحميّة، فكيف حين يوجه إلى الضباط الذين يتوجب عليهم أن يقودوا الجنود في المعارك! المزايدة في هذه الحالة تصير نوعاً من الجريمة.

بعد يومين، تحدثت في مطار المزة العسكري أمام ضباط من سلاح الجو. وهنا حيث احتشد عدد كبير من الضباط الشبّان رافق صخب الاستنكار حديثي من أوله إلى آخره، ولم تجر أي مناقشة من أي نوع، بل صدرت تعليقات حانقة تندد بي وبأقوالي. وهبّ أحد الضباط في وجهي وصرخ: «لولا الاحترام المفروض للمحاضر لما خرجت من هذه القاعة سالماً».

ومن وحي الجوّ السائد والمناقشات التي انهمكت فيها، كتبت مقالاً لا أزال أتذكره لأني تنبأت فيه بالكارثة. كتبت المقال في مناسبة الخامس عشر من أيار/مايو ١٩٦٧، في الذكرى التاسعة عشرة لانتهاء الانتداب البريطاني وإعلان قيام دولة إسرائيل وحلول الكارثة بالفلسطينيين. وصدر المقال في البعث في اليوم التالي. ذكّرت في بداية المقال بالأعوام التي توالت وانقضت منذ حلّت الكارثة بالعرب. وقلت لو أن أحداً ذكر في العام ١٩٤٨ أن تسعة عشر عاماً ستمر دون أن يقضي على إسرائيل لرجمه المتحمسون بالحجارة. وفي ختام المقال، تنبأت بأن العرب قد يواجهون كارثة جديدة تهون أمامها كارثة ١٩٤٨، إذا لم يتقنوا حساب سلوكهم وسياساتهم.

كان في المقال جرعة صراحة زائدة على المألوف. جرأني غيظي من المزايدة فزدت عيار الصراحة. وتحوطت لرقابة «الرفيق علي» كي يجد المقال طريقه إلى المطبعة. وكنت أعرف أن المقال سيظهر في الجريدة ويقرأه المسؤولون حين أكون أنا قد غادرت سورية في مهمة إلى الخارج، فالحساب المتوقع بشأن المقال مؤجل، إذاً، وإلى أن أعود يكون لكل حادث حديث.

في منتصف أيار/مايو هذا، توجهت في عداد وفد بعثي كبير إلى الجزائر للمشاركة في ندوة الاشتراكيين العرب التي انعقدت هناك. زودتني وزارة الخارجية السورية بجواز السفر الخاص الذي تمنحه للمشاركين في مهمات خارجية. وبهذا الجواز، عبرت الحدود اللبنانية مع الوفد في السيارات الرسمية التي أوصلتنا مباشرة إلى مطار بيروت. وهناك، التقينا وفود الأحزاب اللبنانية الكثيرة المتوجهة إلى الندوة ذاتها. ولقيت الصحافي أمين الأعور وقد جاء في عداد وفد الحزب الشيوعي اللبناني فقدمني إلى اللبنانيين. وفي هذا السياق، تعرفت على اثنين من القادة اللبنانيين خلفا عندي انطباعاً دائماً، محسن إبراهيم القومي العربي المتحول منذ ذاك الوقت نحو الاشتراكية، وكمال جنبلاط زعيم الحزب الاشتراكي الذي لا يخاطبه لبناني أو يذكره إلا أضاف لقب «بك» إلى اسمه. استخففت ظلّ الأول وأنستُ له. واستثقلت الثاني ونفرت منه.

وتراوحت مشاعري إزاء الآخرين بين الاستئناس والاستثقال. ومع صحبة طيّبة، في طائرة مريحة، ومع خدمة ميّز بها المضيفون الوفود، طرنا أولاً إلى مطار القاهرة، ثم إلى الجزائر. ووجدتني ضيفاً على النظام الذي فررت قبل عامين من وجهه.

لم أعد أتذكر من أعضاء الوفد السوري إلا قليلين. أتذكر من هؤلاء رئيس الوفد، عضو القيادة القطرية الوزير سليمان الخش. وهو من كان يتباهى بأنه من تلاميذ الأرسوزي ولا يجد في هذه الصفة ما يتعارض مع وجوده في قيادة يسارية أو ندوة للاشتراكيين. وأتذكر حسين العودات صديقي وشريكي في كتابة التعليقات السياسية للإذاعة. وهو من كان آنذاك المدير العام لوكالة الأنباء السورية «سانا». وكان معنا من الشيوعيين شخص واحد هو الدكتور بدر الدين السباعي. وهو من اختاره البعثيون أنفسهم لعضوية الوفد حتى لا يمكنوا الشيوعيين من الذهاب بوفد مستقل أو اختيار من يمثلهم في الندوة بأنفسهم. وكنت أعرف بدر الدين معرفة تكفي لأن أستاء، فهذا رجل متأنٍ في كل ما يفعل وهو يتقن التعبير بالكتابة ويعجز عن التعبير بالحديث المرتجل، فليس هو إذاً أصلح الشيوعيين للمشاركة في ندوة يتعارك فيها المتكلمون.

كان سليمان الخش، فضلاً عن تبعيته للأرسوزي، وربما بسبب هذه التبعية، يعد نفسه عبقرياً مثل أستاذه المعدود عبقرياً من قبل أتباعه. ولأني أخشى أن لا تكون مطلعاً على إنتاج زكي الأرسوزي أو عارفاً بحاله، فإني آذن لنفسي باستطراد قصير لأعرفك بالرجل وإنتاجه أو أزيدك معرفة بهما. ففي حلقة مريديه، ظل الأرسوزي يبشر بأفكار قومية مقتبسة من هنا وهناك قوامها أن العرب أمّة عبقرية مطلوب بعثها مرة أخرى لكي يفوح عبق عبقريتها من جديد. وللبرهنة على عبقرية الأمة، إتكأ الأرسوزي على أفكار متداولة بين المهتمين بعلوم اللسانيات، وألف كتاباً حمل هذا العنوان ذا الدلالة: **عبقرية اللغة العربية**. أما عبقرية رئيس وفدنا سليمان الخش فقد ظفر بها من قراءته لهذا الكتاب واستماعه لأحاديث أستاذه.

والواقع أن عبقرية رئيس الوفد، وقوامها، خلافاً للعبقريات كلها، ضيق المعرفة وضيق الأفق، تجلت فور وصولنا إلى الجزائر حين هدد بالامتناع عن المشاركة في الندوة لا لشيء إلا لأن الكاتب السوري إلياس مرقص قد دعي إلى حضورها. والواقع، أيضاً، أن إلياس لم يكن عضوا في الندوة فحسب بل عضوا في اللجنة التي حضرت للندوة ونظمتها. كان إلياس صديقاً لقادة السلطة الجزائرية، اجتذبهم إليه بسمعته كمناوئ للشيوعيين وصديق قديم للثورة الجزائرية فأشركوه في العمل التحضيري واستفادوا من نصائحه، واستثمروا وجوده لمواجهة الشيوعيين المعارضين للسلطة. وكان الخش مؤيداً لموقف إلياس مرقص من الشيوعيين. أما وجه الاعتراض فنجم من استياء رئيس وفدنا لأن الدعوة وجهت إلى مواطن سوري من وراء ظهر الحزب الحاكم. وكانت هذه حجة أثارت سخرية أعضاء الوفود واستنكارهم. فنشطنا، حسين العودات وهو من كان وقتها وجيهاً من وجهاء عصابتنا ومديراً عاماً لوكالة الأنباء السورية «سانا» وأنا، وجندنا آخرين، إلى أن أمكن طيّ الاعتراض والكفّ عن تعريضنا للسخرية.

وما كدنا نفرغ من مشكلة إلياس حتى ظهرت مشكلة أخرى. فالحزب الشيوعي السوري، غير المطمئن إلى قدرة الدكتور بدر الدين على تمثيله في الندوة، أبرق إلى عضو مكتبه إلياس موريس صليبي الموجود في أوروبا كي يتوجه إلى الجزائر ويتدبر أمر مشاركته فيها. وقد وصل «أبو جلال» غير عارف بأي تفاصيل زيادة على ما نقلته البرقية الموجزة، واهتدى إلى مقر إقامتنا، واستعرض قائمة أعضاء وفدنا فاختار أن يتصل بي أولاً. واستعنت أنا بحسين العودات فتواطأنا على خطة بسيطة قال حسين إنها الوحيدة التي ستحمل رئيس الوفد على ضمّ القائد الشيوعي إلى وفد بلده. وهكذا، روى حسين لصاحب العبقرية أن الجزائريين رفضوا ضمّ موريس إلى الندوة بدعوى أن الوفد البعثي لا يطيق وجود شيوعي إلى جانبه، وقال حسين أن هذا الرفض يسيء إلى سمعة البعثيين مع أن نظامهم هو النظام العربي الوحيد الذي تضم حكومته وزيراً شيوعياً.

وأفلحت الخطة: ثار الخش لسمعة البعث، وأبلغ إلى الجزائريين المندهشين إزاء ثورته أنه لن يدخل قاعة الندوة ما لم يدخلها موريس صليبي قبله.

أما أسطع تجليات عبقرية رئيس الوفد فهو ما ظهر جهاراً نهاراً تحت أسطع الأضواء، وذلك في حفل افتتاح الندوة الذي حضره ألوف المدعوين وبث التلفزيون الجزائري والإذاعة وقائعه على الهواء. انعقدت الندوة في قصر الأمم أو قصر الصنوبر. ولعلك ما تزال تتذكر أن هذا القصر بني في عهد أحمد بن بيلا ليستضيف قمة دول عدم الانحياز. وأنت تتذكر دون شك كيف تعطل انعقاد هذه القمة لأن بن بيلا سقط. والواقع أن القصر سيء الحظ لم يشهد أي لقاء دولي قبل انعقاد ندوتنا فيه. وقد ذهب بعض ذوي الألسنة الطويلة وكنت أنا واحداً منهم، إلى القول بأن الجزائريين لم ينظموا الندوة ويتكبدوا نفقاتها الكثيرة إلا ليفكّوا عزلة هذا القصر. ونظم حفل افتتاح الندوة بحيث لا يمكن لافتتاح أي قمة أن يكون أبهى منه. وندب سليمان الخش لإلقاء كلمة في الحفل، لأنه رئيس وفد أول بلد اعترف بعهد هواري بو مدين الذي خلف عهد بن بيلا، ولأن سورية كانت في مركز الأضواء وهي تتعرض لتهديدات إسرائيل.

ولما لم تكن مسألة الاشتراكية، موضوع الندوة وعنوانها، مما يشغل بال سليمان الخش، فإنه لم يركز عليها في كلمته. أما ما ركزت عليه الكلمة فكان الشأن السياسي الراهن، أي التهديدات الإسرائيلية. وقد استخدم الخش فنون الخطابة التي يعلمونها في المدارس ليظهر استهانته بهذه التهديدات. وأكد الخش على أن ما يشغل بال سورية ليس هو العدوان الإسرائيلي المرتقب، بل العمل لتحرير أقطار الأمة العربية كلها من المحيط إلى الخليج وتحقيق الوحدة العربية. أما العدوان الإسرائيلي الذي تتواتر نذره، فكرر الخشّ بشأنه ما سبق لي أن سمعته من صديقه قائد الجبهة السورية العقيد أحمد المير، وقال ما يرن صداه في أذني إلى الآن لكثرة ما سبب لي من ضيق: «إذا تجرأت العصابات الصهيونية على المس بنا فلتتفضل، فقد أعددنا لمواجهتها

لواعين من النساء المقاتلات!»

أضاف انضمام موريس إلى الندوة واحداً من أطرف تفصيلاتها. فالشيوعي القادم بدون دعوة اعتبر عضواً مراقباً، ولم يكن له حق الكلام في اجتماعاتها. وهكذا، صار على موريس أن يجلس بجانب الدكتور بدر الدين، فيتابع المناقشات ويعد ما ينبغي أن يقوم حزبه بشأنها، ويسلم ما يكتبه من مداخلات وردود إلى الدكتور بدر الدين، فلا يبقى على صاحب العضوية الكاملة إلا أن يرفع يده ويطلب الإذن بالكلام ثم يتلو ما كتب له. مع هذا، لم يرفع الدكتور بدر الدين يده إلا مرات قليلة، وكان الجدل الهامس بينه وبين موريس يحتدم باستمرار على مشهد من الحاضرين، ولم يعرف أحد ما إذا كان الدكتور غير راض عما كتب له، أم أن الأسلوب الذي يجعله قارئ نصوص فقط هو الذي لا يرضيه، أم هو ضعف الهمّة.

تواترت جلسات الندوة، مرتين كل يوم. وتواترت الولائم بالوقع ذاته، وليمة غذاء ووليمة عشاء كل يوم. وقد اتسمت الولائم كلها ببذخ لم أكن قد شهدت مثيلاً له حتى ذلك الوقت، وقلما شهدت ما يماثله بعد ذلك. ولما كان القصر بعيداً عن العاصمة وعن أي حيّ سكني فإن أعضاء الندوة لم يشاهدوا إلا ما يشاهده المتنقل بالسيارة بين القصر ومواقع الولائم. وزاد في العزلة أن معظم أعضاء الوفود أقام في الفيلات الملحقة بقصر الاجتماعات فلم يتسن له أن يرى إلا ما أباح البرنامج رؤيته.

كنت تواقاً بالطبع إلى الاتصال بالذين أعرفهم ورؤية المواقع التي ألفتها عندما أقمت في البلد ومعاينة التطورات. وقد تدبرت أمري بحيث أقمت في فندق أليتي في وسط العاصمة. فقد أنزلونا في هذا الفندق يوم وصولنا. وعندما جاءوا في اليوم التالي لنقلنا إلى الفيلات، كنت قد لقيت صديقي ج. الذي يشغل مركزاً في إدارة الندوة، وهو الذي تدبر أمر بقائي في الفندق. وهكذا، أمكن أن أتصل بالذين بقوا خارج السجون ولم يذهبوا إلى المنافي من معارفي

وأرى ما أرغب في رؤيته وأستعيد الذكريات. وصرت أستغل الوقت بين الجلسات أو أزوغ من سمر الولائم لأتبع توقي إلى معرفة ما يجري في البلد وما الذي حلّ بأصحابي.

في هذه الأثناء، قمت بمحاولات عدّة للاتصال بالمعارضة السرية فلم أفلح. ثم جاءت المبادرة من الطرف الآخر فتحقق الاتصال. فقد اتصلت زوجة الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري بشير الحاج علي ومعها زوجة محمد حربي ببعض رؤساء الوفود والأشخاص ذوي المكانة الخاصة فيها. وطلبت الزوجتان تدخل اشتراكيي العرب لدى السلطات من أجل الإفراج عن المعتقلين السياسيين أو تحسين معاملتهم، وتلقتا وعوداً من هنا وهناك، وثابرتا على متابعة تنفيذ هذه الوعود. وتركز الاهتمام على شخص بن بيلاّ المسجون دون محاكمة. وعندما جرت مناقشة الأمر في وفدنا، ظهر أن معظم الأعضاء غير متحمس للتدخل في هذا الشأن. وكانت الحجة أنه شأن جزائري داخلي لا يليق بالضيوف أن يحشروا أنوفهم فيه. وإلى هذه، أضاف رئيس الوفد حجة أخرى حين استحضر الحرج الذي سيتعرض له إن رد الجزائريون على طلبه بمطالبته بالإفراج عن المعتقلين السياسيين في سورية وبينهم ناس اشتهروا بأنهم أصدقاء للثورة الجزائرية ومؤيدون لعهد بو مدين.

حسين وأنا اتخذنا موقفاً مختلفاً واتبعنا كالعادة أسلوب تحريض الخش بإثارة غيرته على حزب البعث. وعلى هذا الأساس، دحضنا المقارنة وقلنا إنهم في سورية يحبسون ناس اليمين أما في الجزائر فيحبسون ناس اليسار. واستهوت الفكرة رئيس الوفد، فطلب ترك الأمر له، ووعد بأن يستغل أول فرصة مناسبة ليقول كلمة طيبة بشأن المعتقلين، ومنّانا بأنه سيفعل هذا في اللقاء المرتقب بين الرئيس بومدين وبين رؤساء الوفود.

ويبدو أن مناقشات مماثلة دارت داخل الوفود الأخرى وانتهى الأمر بإيكال المهمة إلى رؤساء الوفود.

والواقع أن الفرصة لم يلبث أن تهيأت. فقد دعي أعضاء الوفود جميعهم، وليس الرؤساء وحدهم، إلى الوليمة التي نظمها بو مدين في قصر الشعب. وفيما توزع المدعوون على موائد عديدة تشغل قاعة فسيحة، جلس رؤساء الوفود إلى مائدة واحدة تصدرها الرئيس المضيف. ودارت على مائدة الرئيس أحاديث تناولت شتى المواضيع، دون أن تمس الموضوع المطلوب. ولما كنت معنياً بالأمر فقد غاظني هذا غيظاً شديداً وكدت أنفجر في وجه رئيس وفدنا الذي تذرع بأن الفرصة لم تواته. وعندما انتظم الضيوف في صف طويل لوداع الرئيس، رحت أفكر. وما أن حل دوري وصارت يدي في يد بومدين حتى وجدتني أقول: «عشت في هذا البلد وعملت فيه في عهد الرئيس بن بيلاّ وأنا أحمل عن البلد والعهد أطيب الانطباعات». وكان هذا هو كل ما استطعت قوله. ولم يؤخذ بو مدين بما قلت، ولم يزد على أن تبسم وقال: «بارك الله فيك!» ثم توجه بنظره إلى الذي يليني.

ويبدو أن حكاية اهتمامي بالمعتقلين وصلت إلى المعارضة. ولعل هذا ما حمل السيدتين اللتين حدثتك عنهما على الاتصال بي. نظمت السيدتان الاتصال عبر صديقي صبحي عرب، وأمكن أن ألقاهما دون رقابة في أحد منازل العاصمة. وقد شكت السيدتان من إهمال وفود الأحزاب الاشتراكية لبن بيلاّ وأصحابه، فوعدتهما بأن أفعل شيئاً عبر الصحافة. لم أخف أن الجريدة التي أعمل فيها لن تنشر شيئاً. لكني عولت على صلاتي بالصحافة اللبنانية. ولأن الحزب الشيوعي اللبناني كان من المدافعين عن بن بيلاّ، فقد توسمت خيراً في أمين الأعور، وذكرت هذا للسيدتين وحصلت على موافقتهما على تدبير لقاء لهما به. ونقلت الموافقة إلى أمين، فشكرني وأبدى اغتباطه باللقاء المرتقب. أما حين حان موعد اللقاء، فإن أمين اختفى، فلما لقيته بعد ذلك وعاتبته، تذرع الشيوعي اللبناني بمشاغل طرأت في آخر لحظة، وتعهد أن يكتب لصالح المعتقلين ويحثّ زملاءه على الكتابة، ثم لم يفعل شيئاً.

ضمت الندوة إلى الذين عرفت أسماءهم عدداً كبيراً من المفكرين السياسيين

ونشيطي العمل الحزبي التقدمي في البلاد العربية. طبيعي أني لا أتذكر الأسماء جميعها، لكني أتذكر الذين تطورت علاقتي بهم بعد الندوة أو تابعتُ أحوالهم لسبب أو آخر. جاء عدد من قادة الأحزاب الأردنية، وكان منهم فؤاد نصار الأمين العام للحزب الشيوعي، وهو من كان مقيماً آنذاك في إحدى الدول الاشتراكية، وجاء عبد الله الريماوي أحد قادة البعث القدماء الذي انشق عن الحزب واتبع نهجاً ناصرياً وكان مقيماً آنذاك في القاهرة. ومن مصر، جاء أكبر وفد. ولولا وجود كمال جنبلاط ودأبه على اختلاق المشاكل التي تبقيه في بؤرة الاهتمام لاستأثر المصريون باهتمام الندوة كلّه. وقد أتيح لي أن أعقد صلاتي الأولى باليساريين المصريين منذ ذلك الوقت. وفي مقبل السنين، صار عدد من الذين لقيتهم في الجزائر من أعزّ أصحابي. وكان من هؤلاء مصريان لا أنساهما هما ميشيل كامل والدكتور محمد عجلان. ومن العراق، بقي في ذاكرتي اسم الدكتور خير الدين حسيب، وهو من كان آنذاك رئيساً لمؤسسة حكومية اقتصادية كبيرة. ومن السودان، بقي في ذاكرتي الصادق المهدي ووجهه ذو التقاطيع الحلوة وقامته الرشيقة. آنذاك، كان الصادق يظهر استقلاله عن والده الهادي المهدي الزعيم الطائفي التقليدي الشهير ويدعو إلى الاشتراكية ويفتن الاشتراكيين العرب بتميزه عن النهج المحافظ الذي سيرتد إليه في مقبل السنين. أما الجزائريون فحشدوا في الندوة أو حولها نجوم الفكر والسياسة الموالين لعهد بو مدين كلهم، وكان منهم عبد العزيز بو تفليقة وزير الخارجية، والأخضر الإبراهيمي، كما كان منهم، بل قل من أكثرهم مساهمة في النقاشات صديقي القديم محمد الميلي وهو الذي لا يكفّ عن المواءمة بين الفكر الإسلامي والفكر الاشتراكي. ولا أزال أتذكر كيف اجتذب الشيخ الميلي الانتباه لأنه كان يكثر الاقتباس من أقوال الشيخ محمد بن باديس مؤسس رابطة العلماء المسلمين ويؤكد بها على صحة الاشتراكية: «كما قال شيخنا بن باديس رحمه الله»، كانت العبارة اللازمة التي يرددها الشيخ الميلي بلا توقف.

كانت تلك مكلمة امتزج فيها لازم الكلام ونافله واستحوذت مداراته على اهتمامنا طيلة الأسبوعين الأخيرين من شهر أيار/مايو ١٩٦٧. في هذين الأسبوعين، بلغت استعدادات إسرائيل للحرب ذروتها. وأصدر عبد الناصر قراره الشهير بإنهاء مهمة البوليس الدولي وطلب من الأمين العام للأمم المتحدة إبعاده عن المنطقة الفاصلة بين مصر وإسرائيل. وكرر عبد الناصر التأكيد على أن مصر ستحارب إذا تعرضت سورية للعدوان. وكانت أصداء هذه الأحداث تخترق صخب الندوة، لكننا لم ننشغل بها بكليتنا. وفي هذه الأثناء، أغواني صديقي الأديب السوري صدقي إسماعيل باقتراح باهر: أن أذهب معه إلى باريس هو الذي سيذهب إليها بي أو بدوني. جواز السفر الخاص يمكنني من الحصول على التأشيرة الفرنسية، وتذكرة السفر التي بحوزتي يمكن تحويلها إلى باريس ولن يكلفني ذلك سوى مائة فرنك. ولو أنك عرفت صدقي كما أعرفه لأدركت كم كان الاقتراح مغوياً، صحبة الرجل العذب وزيارة باريس في آن. وما كان لشيء أن يمنعني عن الاستجابة للاقتراح إلا خشيتي من أن تقع الحرب وأنا بعيد عن دمشق.

فجأة، وصل إلى الجزائر الدكتور إبراهيم ماخوس نائب رئيس حكومة سورية ووزير خارجيتها. وقتها، لم تكن علاقتي بهذا الرجل طيبة، فقد كنت آخذ عليه تطرف أفكاره، وكان هو لا يرتاح لخلوّ كتاباتي من النفس المتشدد. غير أن علاقتنا لم تفتقر إلى الاحترام. فمن غير الممكن أن ينكر مثلي أن ماخوس كان واحداً من رهبان العمل السياسي الذين وهبوا عمرهم لقضية آمنوا بها. وقد ذهبت إلى مقرّ إقامة ماخوس في العاصمة الجزائرية مع بقية أعضاء الوفد. ولدهشتي، استقبلني الرجل بمودة لم أتوقعها، وذكر أمام الحاضرين أنه يتابع ما أكتب وتجنب أن يظهر رأيه السلبي فيه. شجعني هذا الاستقبال، فحدثتُ الوزير عن الفرصة المتاحة، وصارحته بأني راغب في اغتنامها إلا إذا كانت الحرب متوقعة. يومها، تبسم وزير خارجية سورية الرجل الثالث بين

أصحاب أعلى المناصب الحكومية في الدولة، وقال: «إذهب إلى باريس مع هذه الصحبة الطيبة!» كان ماخوس نفسه قادماً لتوّه من باريس. وكان قد التقى فيها الزعيم الفرنسي رئيس الجمهورية الجنرال شارل ديغول. وكان ديغول قد دعا المسؤول السوري إلى هذا اللقاء الطارئ ليحدثه عن التوتر الذي يعصف بالمنطقة. فكيف أشك بعد هذا كله بتشجيع الرجل لي على التمتع بإجازة طيبة. لقد قدم ماخوس تحليلاً للأحداث يظهر أن تجنب الحرب ممكن، وبدا لي أنه يعوّل على «شطارة» عبد الناصر وبراعته في الخروج من المأزق.

هذا اللقاء مع ماخوس تم في اليوم الأول من حزيران/يونيو ١٩٦٧، أربعة أيام قبل وقوع الحرب. ولم أكن وقتها قد شاهدت الشريط التلفزيوني الذي سُجلت عليه وقائع لقاء الجنرال ديغول مع الوزير السوري، ولو أني كنت قد شاهدت الشريط لأدركت أن صاحبي أخطأ فهم ما حذر الجنرال منه، ولما ذهبت إلى باريس.

١٨ ملحمة القنيطرة، ألّفتها تأليفاً ثم أغمي عليّ

لنا بباريس قبيل غروب الشمس، يوم السبت الثالث من حزيران/يونيو. غادرنا باص المطار الذي نقلنا إلى مركز المدينة قرب حديقة اللوكسمبورغ. ومن هنا، بدأنا، صدقي اسماعيل الذي يعرف المدينة ويعشقها وأنا الذي أزورها لأول مرة، جولة البحث عن فندق ملائم ورخيص. وقد أمضينا ساعات في هذه الجولة لأن الجمع بين الصفتين في فندق واحد لم يتيسر بسهولة. كانوا في دمشق قد دفعوا لي ثمانمائة فرنك نفقات سفر إلى الجزائر فلم أنفق منها هناك إلا مائتين، والمائة الثالثة التي دفعتها لتبديل خط الرحلة. وقد قدر صدقي أن الفرنكات الباقية كافية لنفقات أسبوع في باريس إذا عشت فيها عيشة متقشفة. فلما لم أعثر على غرفة أجرتها أقل من خمسين فرنكا، فقد عزمت على اختصار الأسبوع المأمول إلى أربعة أيام.

لا بدّ أن كثيراً من مشاهداتي الأولى خلال هذه الجولة في الحيّ اللاتيني قد أدهشني. لكن ذاكرتي لا تحتفظ بالكثير، وإن بقي فيها صورتان أود أن أصفهما لك. شابة تسير على رصيف الحديقة عارية تماماً وقد أثقلت المخدرات خطوها وغيمت نظراتها، دون أن يجتذب حالها اهتمام أحد سواي. وعجوز قبيحة الوجه مترهلة الجسد تشوه بقع بيضاء سواد بشرتها الفاحم، وبجانبها فتى أشقر له قوام فارس هيليني ونضارة وجهه، والإثنان واقفان متلاصقين يتعانقان

ويتبادلان القبل بوجد حارق، دون أن يلفت وضعهما نظر أحد سواي، أيضاً.

وبعد عناء الجولة والجوع الذي فتك بي، شئت أن أطبق خطة التقشف الصارمة، فطلبت من صدقي أن يدلني على مكان آكل فيه شطائر رخيصة. لكن الرجل الطيّب طلب أن أرجئ تطبيق الخطة إلى الغد، وباح بما بدا أنه رتّبه من قبل: «وجبتك الأولى في باريس على حسابي». وقد ظفرت بوجبتي الأولى هذه في مطعم لبناني في الحي اللاتيني، حيث طاب الأكل والشرب والسمر، وبقينا إلى ما بعد منتصف الليل.

في اليوم التالي، قادني صدقي من موقع إلى آخر حريصاً على أن أشاهد أكثر ما تمكن مشاهدته في الوقت القليل المتيسر لي. وفي المساء، أشركني رفيقي في ممارسة عشقه القديم وهو الجلوس في مقهى باريسي على الرصيف ومراقبة المارّة وتبادل الأحاديث مع الجالسين في المقهى. وقد اختار صدقي لجلستنا زاوية في ساحة سانت ميشيل تشرف على الساحة كلها. وهناك بقينا إلى ما بعد منتصف الليل، بل إلى أن اقترب الفجر.

هل كان لفتنة الجو الذي عشته ألا تثير ما هو هاجع في النفس مما كتمته شواغل الشهور الفائتة. يقولون إن الأسى يبعث الأسى، فهل يبعث الفرح إلا ما هو مبهج. في قعدتنا على الرصيف، حضرتْ برلين، وانبثق الشوق إلى نينا وحكيت لصدقي حكايتي معهما ومنه جاء الاقتراح: لماذا لا تذهب إليهما. وقبل أن أجيب، أكمل هو: «نفقات إضافية، لن تحتاج إلى مال كثير، ثمن تذكرة القطار، وما ينقصك منه أسلفك إياه». وسبق العزم أي تفكير: سأسافر إلى برلين، وليكن ما يكون، أيام قليلة أخرى لن تقدم شيئاً أو تؤخره!

وما أن حلت التاسعة صباحاً حتى طلبتُ السفارة السورية وتحدثت مع السفير الذي أعرفه الدكتور سامي الجندي. وقبل أي شيء آخر، وجدتني أسأل الرجل عما إذا كان بإمكانه أن يتدبر لي تأشيرة دخول إلى ألمانيا الديمقراطية. ولدهشتي، سألني صديقي بنبرة جادة: «إنك لا تعرف الفرنسية؟» ولم أدرك

الصلة بين السفر إلى برلين ومعرفة اللغة الفرنسية، فعدت بالحديث إلى موضوع التأشيرة. إلا أن السفير قاطعني: «هذا هو السبب، أنت لم تسمع الأخبار. الحرب ابتدأت هذا الصباح».

كنّا في صباح يوم الاثنين الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧.

قلت لمحدثي إني قادم إليه للتو وإن صدقي إسماعيل سيكون معي. فاتضح أن رفيقي صار فعلاً في السفارة. ما أغرب دماثة هذا الرجل. لقد عرف النبأ من الإذاعة، فلم يشأ حتى مع نبأ له كل هذه الأهمية أن يقلق نومي أنا الذي ذهب إلى الفراش مع الفجر. وكم أدهشني بعد ذلك حين قال إنه تصور أني ذاهب إلى برلين بالرغم من الحرب، فآثر أن أتوجه إليها وأنا مستريح!

توقفت رحلات الطيران إلى البلاد المنهمكة في الحرب، ولم يبق أمامي من سبيل إلا التوجه إلى تركيا بالطائرة، ثم تدبر أمر الوصول براً إلى دمشق. ولأن كثيرين غيري اضطروا إلى السفر إلى تركيا، فقد اشتد التزاحم على المقاعد المتيسرة في الطائرات. وصار على الدكتور سامي أن يقتطع من مشاغله وقتاً يهتم فيه باستخدام صلاته في العاصمة الفرنسية لأظفر بفرصة استثنائية بأعجل ما يمكن. واقترضت من السفارة المبلغ اللازم لتغطية النفقات الإضافية، ورحت أنتظر فرصتي للسفر.

ذلك اليوم والأيام التي تلته أمضيتها في السفارة، أجيء إليها في الصباح ولا أرجع إلى الفندق إلا في منتصف الليل، أتابع الأنباء العامة وأشاهد وقائع الحرب على شاشات التلفزيون، وأطلع على الأنباء الخاصة التي تنقلها البرقيات المشفّرة من دمشق إلى سفيرها في عاصمة الدولة العظمى. رأيت على الشاشة وقائع اجتياح الجيش الإسرائيلي لسيناء وسيطرته على قناة السويس واجتياحه الضفة الغربية وسيطرته على القدس العربية كما رأيت ما صبّه الطيران الإسرائيلي في غاراته المتواترة على الجولان.

وفي صباح الخميس جئت إلى السفارة لأودعهم قبل أن أتوجه إلى اسطمبول

بعد الظهر. وكنت في مكتب السفير حين دخل العقيد عدنان عمران وهو من كان على ما أظن الملحق العسكري في السفارة وبيده برقية مشفرة وصلت للتو. فك العقيد رموز البرقية وتلاها علينا بنبرة جهد لكي يجعلها عادية ثم توجه إلى الحمام الملحق بالمكتب. ومن هناك، جاءنا صوت نحيب العقيد، فتبعته إلى الحمام وعرفت ما أبكى الرجل الذي أعرفه صلداً. نص البرقية أبلغ إلى السفارة أن الإسرائيليين اخترقوا الجبهة السورية من نقطة بعينها. أما ما شرحه لي العقيد عمران فهي أن هذه بالذات هي النقطة الحصينة التي تصوروا في سورية دائماً أنها غير قابلة للاختراق، «والمسألة الآن مسألة وقت ليس أكثر. فبعد هذا الاختراق، لن تصمد جبهتنا طويلاً». قال العقيد هذا ثم عاوده النحيب.

وفي جوّ الأسى الذي جلل مجلسنا، انفتح مخزون سامي الجندي وطغت حاجة الأديب الفنان إلى البوح على تكتم السياسي فيه. وما أكثر وأخطر ما باح به الأديب الملتاع! سينشر سامي في ما بعد ما باح به في تلك الجلسة وبإمكانك أن تطلع عليه. ولن أروي لك هنا إلا الحكاية التي أكّدت لي كم كنت أنا على حق حين توقعت حلول كارثة وهجست بأن مستسهلي قرع طبول الحرب لا يتوقعونها. ففي موقعه في باريس، وباتقانه الفرنسية والإنجليزية، ومع صلاته الواسعة على المستويات كلها، تجمعت لسامي الجندي وقائع السيناريو الذي يجري الإعداد لتنفذه إسرائيل على ساحة المنطقة. وقد صبّ السفير ما تجمع له في تقرير بعث به قبل أسبوعين إلى وزارة الخارجية وطلب أن يطلع عليه قادة الحزب والدولة. وكان في التقرير تحذير من الكارثة المقبلة ودعوة إلى العمل على تجنبها. ولم يلبث أن عرف سامي من أحد أصدقائه في وزارة الخارجية أن الدكتور ماخوس قرأ التقرير ثم ألقاه جانباً وعقّب عليه ساخراً: «أما سفراء آخر زمان!»

كنّا في اليوم الرابع للحرب. وكانت شوارع باريس تغصّ بالمتظاهرين الذين يهللون لانتصارات إسرائيل العسكرية ويندون بالعرب. كانت حكومة الجنرال

ديغول قد اتخذت موقفاً فيه إدانة واهنة لحقيقة أن إسرائيل هي التي بدأت الحرب، فاستفزّ الموقف، على وهنه، المولهين بحبّ إسرائيل، وهم وقتها جلُّ الفرنسيين، وأخرج من مخازن البغض الفرنسي للعرب أقذر ما فيها. أما الأوساط المتنفذة فقد جمع المالي اليهودي الفرنسي الشهير روتشيلد ممثليها وتبرع هؤلاء بسبعمائة مليون فرنك لتمويل النشاطات الدعائية المناصرة للدولة المعتدية. فلم يكن غريباً أن تكتسي باريس وأنا أعبر أحياءها في طريقي إلى المطار كل مظاهر التهليل بانتصار إسرائيل والفرح بهزيمة العرب. ولم يكن ينقصني إلا معاينة هذه المظاهر كي تكتمل أوجاعي.

وفي الطائرة، جلست ساهماً في حالة تشبه حالة فقدان الوزن. وصار أول همومي أن أصل إلى دمشق قبل أن يصل إليها الإسرائيليون. خطرت الأسرة على البال، والأصحاب، والأجواء المألوفة. وحضرت خبرة ١٩٤٨ وما استخلصه جيلي من عبرها: لا ينبغي أن يجد المعتدون في توسعهم الجديد بلداننا خالية. وتوالت الهواجس: أنا متجه إلى اسطمبول لأني لم أجد مقعداً على طائرة تحملني إلى مدينة أقرب منها إلى حدود سورية، وعليّ أن أتدبر مقعداً في طائرة تحملني إلى مطار أقرب، فماذا لو انسدت السبل؟ لماذا تمضي طائرتي ببطء فكأنها لا تتحرك!! وانتزعني الجالس بجانبي من سهومي. شاب قال شيئاً بالفرنسية، فسألته عما إذا كان يتكلم الإنجليزية، فهز رأسه، تلك الهزة التي لا يتقنها إلا عربي، فوجدتني أسأله دون تردد: من أين الأخ؟

رفيق الرحلة هذا كان اسمه خير الله. وهو لبناني قدم لي نفسه على أنه تاجر لحوم جاء إلى باريس لشأن شخصي وهو متوجه إلى تركيا من أجل صفقة أغنام. وعندما استوضحته عن المكان الذي سيذهب إليه، تبين أن التاجر الشاب ذاهب إلى اسكندرون وهو لم يذهب إلى اسطمبول إلا لأن الحصول على مقعد في طائرة متجهة إلى كليكيا أو حتى أنقرة تعذر عليه كما تعذر عليّ. كان الشاب، إذاً، مثلي، ومن الممكن أن نترافق حتى البلدة التي كانت جزء من

سورية ثم صارت قريبة من حدودها. والواقع أن وجود خير الله إلى جانبي كان رحمة ما بعدها رحمة. وفور هبوطنا في مطار اسطمبول، توجه خير الله إلى مكتب طيران يبدو أنه يعرف أحداً فيه وظفر بمقعدين لي وله، إلى كليكيا عبر أنقرة على طائرة تغادر اسطمبول في السابعة من صباح اليوم التالي. وكان هذا إنجازاً ما توقعت أن يتم بهذه السهولة. إننا في أوقات الضيق نحسب أصغر الإنجازات إنجازاً جليلاً. وتبيّن أن خير الله يتقن التركية ويعرف البلد وأحواله، وهو الذي عرض أن نظل معا فرحت بالعرض وأكدت على حرصي على البقاء معه حتى لو أثقلت عليه. وهكذا، حملنا تاكسي واحد إلى ساحة تكسيم وسط المدينة العريقة ووضعنا أمام الفندق ذي النجوم الثلاثة الذي اختاره رفيق الرحلة، وحللنا معاً في حجرة واحدة.

لو كنت وحدي لمشيت في المنطقة المحيطة بالفندق حتى أتعب ثم رجعت لأنام. أما وقد كنت بصحبة خير الله غير المسكون بما يسكن روحي من هواجس، فإني استجبت لاقتراحه، أن نتمشى ساعة ثم نتناول كأساً في المربع الليلي في الفندق: «اجعل لراحة القلب ساعة، فالأحزان لها ساعات الأيام الطويلة القادمة كلّها»، قالها خير الله، وذكر أنها الترجمة العربية لشعر فرنسي تعلمه في المدرسة. وكنّا نتهيأ للخروج حين رن جرس الهاتف في الحجرة. وجاءني صوت رجل يتحدث بعامية تشبه عامية منطقة اللاذقية. وقدم المتحدث نفسه على أنه عربي من منطقة اسكندرون وهو يحبّ العرب ويرى من واجبه أن يكرمهم. وقال الرجل إنه صديق صاحب الفندق وقد عرف بوجودنا من صديقه، فشاء ألا تفوت الفرصة. فأعطيت السماعة لخير الله فتبادل مع الرجل حديثاً قصيراً انتهى بموافقتنا على قبول دعوته. وما أن وضع خير الله السماعة حتى أطلق العنان لضحكة كتمها أثناء الحديث: الرجل قواد، وقد تصور أنه وقع على صيد سمين، صحافي وتاجر كما هو وارد بجانب اسمينا في سجلّات الفندق.

«لماذا لا نلعب لعبة تتسلى بها عن أحزانك»، اقترح اللبناني، «نتصرف بوصفنا ضيفين مدعوّين ونكبد القواد كلفة سهرتنا». والواقع أن القواد بالغ في إظهار حبّه للعرب ورغبته في الاحتفاء بنا، فسهل بذلك تنفيذ عزمنا، وصعب عليه تنفيذ عزمه على الإيقاع بنا. ففي المربع الليلي، طلبنا أغلى الأطباق وأغلى المشروبات مظهرين أنها أطباقنا المفضلة ومشروباتنا التي نتناولها كل ليلة، وفي غضون ذلك، أقبلت على منضدتنا امرأة ترتدي ملابس فاخرة وتتزين أتم زينة. وحيّت المرأة مضيفنا تحية صديق تقع عليه صدفة. فدعاها هو إلى مجالستنا. فأظهرت هي خشيتها من أن تثقل علينا. توخت المحترفة بهذا أن تحصل على موافقتنا فتجاهلنا مناورتها. فخطا القواد خطوة، فقدم إلينا المرأة باسم مهيب وأضاف إلى الاسم لقب «خانم». ثم سأل ما إذا كنا نرغب في أن تجالسنا هذه الخانم. فقال خير الله للمضيف إن الأمر متروك له. فابتلعها القواد، ولعله احتسبها في عداد ما تصور أنه سذاجة فينا، ودعا محترفته إلى الجلوس والتذرع بالصبر واعداً إياها بأن هذين الأبلهين سوف يقعان لا محالة. كان حديث القواد ومحترفته يدور بالتركية، وكان اللبناني ينقل فحواه إلي بطريقة أو أخرى، ولم أكن أنا على كل حال أبله، فطابت اللعبة.

شربت الخانم كأساً، ثم آخر دون أن يوليها أي منا الاهتمام الذي يعزز أملها في الظفر بزبون. وتبادلت المتخفية في ثياب سيدة مجتمع عبارات حانقة مع القواد، ثم وجهت إلينا الخطاب بالإنجليزية فزعمت أنها مضطرة إلى العودة إلى منزلها لأن زوجها لا بدّ من أن يكون قد عاد إليه. وقامت المرأة بآخر محاولاتها، فقالت إنها راغبة في استضافتنا في كأس في منزلها. فكان أن شكرتُها أنا شكراً مبالغاً فيه، وقلت إنها متعة أن نتمتع بضيافة سيدة مجتمع راقية السلوك، إلا أننا نأبى أن نقحم أنفسنا على جوّها العائلي في هذا الوقت المتأخر من المساء. وتشبثنا كلانا بالإباء المزعوم، ثم تجاهلنا النظرات الساخطة والحديث الحانق بين القواد والمحترفة.

في هذا النحو أو ما يماثله، سلكنا إزاء خانم ثانية حلت محل الأولى. وتكرر الأمر مع ثالثة، ثم مع رابعة. وعندما جاءت الأخيرة، كان الليل قد انتصف، وصار علينا أن نختم السهرة. والواقع أن المحترفة الأخيرة تخلت عن الوقار المصطنع وقالت لخير الله بسفور إنها تعرض عليه قضاء وقت طيب وبإمكانها أن تستدعي صديقة لها من أجلي. وبهذا، بلغ الموقف نقطة حساسة. فاقترحت أنا أن نخرج إلى الهواء الطلق حيث يمكن أن نفكر بالاقتراح المغري. فظن محبّ العرب أنها فرجت. وكان هذا هو بالضبط ما توخيته. وجاءت فاتورة الحساب فتناولها القواد ووضعها على المائدة وراح يبحث بتأن عن حافظة نقوده ويطيل البحث دون أن يبدر منا ما يشي برغبتنا في منافسته على الدفع. وما أن صرنا في الهواء الطلق حتى داهمني التثاؤب. فقلت متذرعاً بنعاسي: «اذهبوا أنتم وأكملوا السهرة أما أنا فذاهب إلى النوم!» ومددت يدي للمصافحة وأنا أكرر عبارات شكر مبالغ فيه. ولم أنتظر حتى أسمع الرد. بل خطوت مبتعداً عنهم. لحظتها زعق خير الله: «انتظر لحظة أنا قادم معك»، وقال للقواد: «لا يجوز لي أن أترك صاحبي وهو على هذه الحالة»، وتبعني. وفي طريقنا إلى حجرتنا، قال خير الله المغتبط بنجاح خطته: «لو عامل عربنا إسرائيل كما عاملنا نحن هذا القواد لما خسروا ما خسره ولدفّعوها هي بدل أن تدّفعهم ثمن غفلتهم».

ما أعقد الطبيعة البشرية! لو كنت في ظروف أخرى لما خطر لي بأي حال من الأحوال أن أفعل ما فعلته تلك الليلة في عاصمة بني عثمان. أما في ليلتي تلك فإن إحباطنا لمناورات القواد ومحترفاته حقق لي شيئاً من التوازن النفسي. وما أن استلقيت على سريري حتى غفوت. وقد نمت في تلك الليلة نوماً عميقاً لا يحظى بمثله أكثر الناس خلوّ بال.

في الصباح، في المطار، كان في الانتظار مفاجأة. ففي الحشد الذي التأم قبل التوجه إلى الطائرة، وقعت على حسين العودات وإلياس مرقص. كان آخر

عهدي بالرجلين يوم تركا الجزائر قبلي وتوجها إلى مراكش لحضور ندوة منعقدة هناك. وقد واجه الإثنان ما واجهته أنا من انقطاع سبل العودة المباشرة إلى سورية، فلم يجدا إلاّ الطائرة التي حملتهما إلى اسطمبول، وها هما هنا لنتابع الرحلة معاً. وفي الطائرة المتجهة بنا إلى أنقرة ثم إلى كليكيا، جذبني إلياس وأقعدني بجانبه، وقال بالصراحة الفظة التي تميز خطابه: «ناقشت حسين طويلاً، الآن أريد أن أناقشك وأفنّد أفكارك الخاطئة».

لو قيض لك أن تتحادث مع هذا الكاتب الشهير لعرفت أن النقاش معه يعني كلمة منك أو كلمتين وسؤالاً أو سؤالين يتيح لك أن تطرحهما عليه ثم يستأثر هو بالحديث فيفيض كلامه بغير توقف، وغالبا ما يتحول إلى قذائف مصوبة إليك ومحملة بشتى الاتهامات. حتى حين يكون إلياس في أطيب مزاج ويود أن يشرح لك أمراً على مهل، فلا بدّ من أن يبدأ بالتنديد بشيء فيك، وكثيراً ما يقول إنك لا تفهم شيئاً في هذا الأمر فهو مضطر إلى شرحه، أو أنك لا تملك الصبر الكافي لاستيفاء الفهم إلا أنه سيرغمك على الاستماع حتى لو أثقل عليك. أما ما يقوله إلياس دوماً، وليس غالباً فقط، فهو أنك لا تفهم الأمر في نحو صحيح لأن فهمه الكامل يتطلب ثقافة تفتقر أنت إليها وقراءة كتب لم تكلف نفسك عناء البحث عنها ومعرفة بلغات أجنبية ضيعت عمرك دون أن تتقن أيا منها. أما إزائي أنا البعثي، كما هو الحال إزاء أي بعثي، فما أكثر التهم التي كان إلياس يضيفها دون أن يخالجه ندم أو وجع ضمير!

ساعة بين اسطمبول وكليكيا، وساعة استراحة، وساعة أو نحوها حتى اسكندرون، ثلاث ساعات متصلة، في اليوم الخامس للحرب التي تفترس أرض العرب وجيوشهم ومنشآتهم الحيوية وكبرياءهم، وأنا خلالها بين الأرض والسماء بين براثن الذي لا يكل لسانه ولا يملّ. لم يكن إلياس على معرفة بشؤوني ومواقفي، فاكتفى بأني بعثي يزعم التوجه إلى الماركسية، وانهال علي بما يختزنه من انتقادات ضد فكر البعثيين ومواقفهم. وإذا نحيت من

كلام هذا الكاتب المثابر ما هو شخصيّ، فإنه كان ينسب الكارثة إلى انقسام الحركة العربية القومية والصراع بين البعثيين والناصريين ويحمل البعثيين مسؤولية هذا الانقسام. رأى إلياس أن البعثيين وقعوا في الخطأ ذاته الذي ينسبه هو إلى الشيوعيين، فعجزوا عن فهم حركة عبد الناصر وفكره وطبيعة نظامه وأهداف توجهاته. وأصر إلياس على القول إن الخروج من الكارثة متيسر لكنه لن يتم إلا إذا اتحدت الحركة العربية التقدمية ورضيت بقيادة عبد الناصر لها وتوحدت رؤيتها. تحدث إلياس في هذه الساعات بصيغة من يتدرب على إعداد المقال الذي سيكتبه عن الحرب الكارثة، ولم يهتم بأن يعرف وجهة نظري، ولم يتح لي أن أعرضها عليه. ولو أتاح إلياس لي الفرصة، لقلت له إني أعد الصراع بين قوى حركة التحرر القومي العربية واحداً من الأسباب التي سهلت وقوع الكارثة، وأؤمن بأهمية العمل لرأب الصدع دون الانشغال بتوزيع الاتهامات على هذا الطرف أو غيره، ودون إغفال الأسباب الأخرى، القائمة بوجود الخلاف وبدونه.

وفيما كان إلياس يفترس صبري، تمتع حسين بحديث شيق عن تجارة الأغنام بين تركيا وسورية ولبنان مع خير الله المندهش بمعرفة حسين لهذا الشأن. وظل حسين يلقي نحوي نظرة متعاطفة بين وقت وآخر كأنه يقول: احتمل هذه الساعات فقد احتملت أنا أياماً بطولها!

من كيلكيا إلى اسكندرون، حملتنا نحن الأربعة سيارة جاملنا سائقها فجعل صوت فريد الأطرش، وليس أي مطرب آخر، يلعلع طيلة وقت الرحلة. وظن السائق أنه بهذا يبهجنا، ولم نشأ أن نخيب ظنه فصبرنا. وفي اسكندرون، قادنا خير الله إلى مطعم بعينه، أصحابه والعاملون فيه جميعهم عرب. وكان صخب هؤلاء يمتزج برائحة اللحم المشوي والسمك المقلي فيعبق في المكان هذا الجو الذي يأنس به رواد مطاعم الشواء العربية. ويبدو أن اللبناني قال لأصحاب المطعم شيئاً عنّا، فغمرنا هؤلاء بالحفاوة والكرم وأحضروا أجود

المقبلات، ثم جاء اللحم المشوي والسمك مقلياً ومشوياً، وحفلت مائدتنا بما يكفي لإطعام سرية عسكر ويزيد. وفي هذه الأثناء، ظل راديو المطعم مفتوحاً على إذاعة دمشق، وفاضت الأغاني والأناشيد والنداءات التي تحثّ على الصمود وتبثّ البشائر باقتراب نهاية العدو. وتوالت أصوات المذيعين الذين أعرفهم: داوود يعقوب، وعادل خياطة، وفؤاد شحادة، وعواطف الحفار، زوجة صدقي إسماعيل الذي تركتُه في باريس، وخالد أبو خالد، وأحمد زين العابدين. ولم يلبث أن صدح صوت يوسف الخطيب، وإذاً فإن الشاعر الفلسطيني الشهير قد امتطى المذياع متطوعاً حتى لا تفوته فرصة الإسهام في المعركة.

كل هذا الذي أصفه لك أحاط بي في المدينة التي لم تبق عربية تماماً ولم تفلح جهود التتريك في جعلها تركية تماماً، فاسلمني إلى ذلك الوضع الذي لا تتيقن فيه مما إذا كان واقعياً أو غير واقعي. ولك أن تتصور حالي، أنا الذي شاهد وقائع الهزيمة العربية على شاشة التلفزيون وعرف ما عن الجبهة السورية، حين أسمع من إذاعة دمشق أغنية صاخبة يهتف مغنيها:

وناولنـــي هالبـــارودة	اللي بيقرب عَ حدودي!
عبّي لي الجعبة خَرطوشْ	بيكلفني خمس قروش

ومن الذي كان يعيش حقاً خارج الواقع ولا يحس به، أنا الجالس بالرغم من الكارثة إلى مائدة عرق ومقبلات ومشاو وحولي عرب فقدوا جنسيتهم وفُرض عليهم الظلم أن يصيروا أتراكاً، أم أولئك الذين يتدفق هدير حماسهم من الإذاعة، تحيط بهم الكارثة ويبشرون بالانتصارات!؟

عدّنا أصحاب المطعم ضيوفاً، وعدّوا استضافتنا واجباً على العربي تجاه أخيه العربي. ووجد إلياس في هذه المبادرة مادة أطلقت لسانه في التأكيد على أهمية القومية العربية وزعيمها عبد الناصر، ولم يفته حتى في ذلك الموقف أن يشنع على خالد بكداش في معرض انتقاده للبعثيين: «صديقك بكداش أجاز للشيوعيين أن يعادوا عبد الناصر ويتعاونوا مع البعثيين، رفض

التعاون مع الحركة المتمكنة ورضي بالمغامرين». وعندما أبديت امتعاضي من إصرار إلياس على هذه السيرة وقلت: «حتى في هذا المكان وهذا الموقف!» رد هو ممعناً في إصراره: «نعم في هذا المكان كما في غيره وفي هذا الموقف كما في أي موقف، ينبغي أن تواجه الحقيقة التي ترفض أن تراها!»

بقي اللبناني في اسكندرون. واستأجرنا نحن الثلاثة سيارة توجهت بنا إلى نقطة الحدود. وعبرت السيارة المر الطويل والملتوي الذي يخترق تلك الناحية من جبال طوروس، شِعب بوان ذو الطبيعة الفاتنة. وحضر قول المتنبي، وردّده حسين بصوت مسموع:

مغاني الشِعب طيباً بالمغاني   بمنزلة الربيع من الزمان

كنّا ما نزال في فصل الربيع. فكأننا عبرنا، إذاً، ربيع الربيع، وها هي الصورة باقية في الذاكرة: نبتات الدفلى وألوانها الفاتنة والحيوية التي تضفيها على المشهد. ولأن إلياس جلس بجانب السائق، فقد جلسنا، حسين وأنا، في المقعد الخلفي فنجوت من استفراد إلياس بي، وتعاونت مع حسين لتنويع الحديث حتى لا يتركز على عبد الناصر وقوميته العربية أو خالد بكداش وما يأخذه إلياس عليه ويلومني أنا بسببه. وفي نقطة الحدود السورية، تعرف علينا الموظفون، فخصونا بمعاملة مميزة واغتنموا الفرصة ليسمعوا رأي «الأساتذة» في الأحداث الكبيرة الجارية. فقال كل منا شيئاً من هذا الكلام الذي يلوكه المرء لوكاً حين لا يكون في المقام الملائم لحديث مستقيم. وبعد ذلك، انحدرت بنا سيارة أجرة سورية عبر الممرات الجبلية التي تخترق غابات الفرنلق حتى بلغنا اللاذقية.

هنا، كان على إلياس مرقص ابن هذه المدينة أن يتجه إلى منزله، وعلي وعلى حسين أن نتدبر أمر مواصلة المشوار إلى دمشق البعيدة. وأمام منزله، احتبسنا إلياس غير عابئ بتعجلنا، فقد أصر على أن نجري حساباً دقيقاً للأكلاف المشتركة حتى نتقاسمها بالعدل والقسطاس. وقد أدهشتني جدية

إلياس في استقصاء كل قرش، وانطبعت في ذهني صورته بنظارته السميكة وهو يمسك بالقلم والورقة ويجمع ويطرح ويقسم، ثم وهو يتفقد جيوبه بحثاً عن قطع العملة الصغيرة فلا يجدها فيصر على أن ننتظره حتى يحضرها من المنزل ويغتنم الفرصة ليقرعنا: «الحساب الصحيح هو مفتاح التقدم. خربتم القضايا الوطنية وضيعتم البلاد لأنكم تستهينون بالحسابات».

قبل هذا وبعده، بقي إلياس مرقص مفكراً ذا شأن كبير، وكان حرصه على المواءمة بين المعتقد والسلوك هو أميز ما يميزه.

في الساحة التي تتوسط اللاذقية، عصر يوم الجمعة التاسع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، في اليوم الخامس للحرب، لم نعثر على أي وسيلة مواصلات يقبل سائقها أن يحملنا إلى دمشق. في مكتب الباصات، قالوا لنا إن هذه لا تسافر بسبب المخاطر التي تكتنف الطريق. وفي مكاتب التكسيات، قالوا لنا إن ما جاء من دمشق قد رجع إليها ، وما كان من اللاذقية ممتنع عن السفر. ولم نعثر على سائق واحد يقبل المجازفة.

بقينا في الساحة إلى أن حل الظلام وخلت الشوارع إلا من المسلحين. فحملنا كلالنا وأسانا وتوجهنا إلى أقرب فندق واخترنا فيه حجرة تطلّ نافذتها على الساحة لعل فرصة ما تلوح فنتمكن من السفر. كانت هذه حجرة بغير حمام فلم يتسن لنا أن نغتسل. ولأن مراقبتنا للساحة لم تستكشف أي أمل، فقد خطر لنا أن نتوجه إلى مكتب حزب البعث. كانت أنوار الشوارع مطفأة وأنوار المنازل مخبأة، حسب التعليمات، فتلمسنا طريقنا تلمساً واهتدينا إلى المقر بإرشادات مسلحين يبدون في العتمة كأنهم أشباح. ولم نجد في مكتب الحزب ما هو مفيد أو من يفيدنا بشيء ذي بال. فعدنا أدراجنا خائبين، ورحنا من جديد نتلمس الطريق. وفجأة، أضاءت أنوار الكشافات سماء اللاذقية وملأ ضجيج المدافع المضادة للطائرات أجواءها. ونشطت حولنا حركة المسلحين وقد فوجئوا فلم يعرفوا ما الذي ينبغي عمله. وصار هؤلاء

يتحركون في مختلف الاتجاهات، ربما لإثبات الوجود وربما لمداراة الخوف. هذه الحركة هي التي أرعبتني، خصوصاً وقد استمرت بعد أن صمتت المدافع وانطفأت الأنوار وأطبق الظلام من جديد. وجدتني في محيط لا أرى ما فيه، بين مسلحين لا أعرف كم هم غشماء وقد يتوجس أي منهم خطراً ما أو يستثيره خوفه فيطلق النار على غير هدى، وقد ينطلق رصاص أي بندقية لأن حاملها لا يعرف كيف يتحكم بها.

بحت بهواجسي لحسين، ولم يكن هو بغير هواجس. فتعجلنا العودة إلى الفندق. وهناك، كان النزلاء ملتفين حول جهاز التلفزيون الوحيد فانضممنا إليهم. كان الجهاز مفتوحاً على محطة القاهرة وقد أعلن قبل لحظات أن الرئيس عبد الناصر سيوجه خطاباً للأمة. وفي هذا النحو، استمعت إلى الخطاب الشهير ورأيت الزعيم مكلوم الروح وهو يجهد ليبدو متماسكا. وعندما تلا عبد الناصر الفقرة التي يعلن فيها استقالته من مناصبه الرسمية كافة، صدرت عن جماعتنا صرخة موحدة، صرخة استنكار واحتجاج: «لا» جهيرة ومكررة. والتقطت يد أحدهم شيئاً قذفه باتجاه الجهاز.

كم كانت قسوة تلك الليلة قاسية وكم كانت مرارتها مريرة!

لم يكن لأي منّا، حسين وأنا، ما نقوله أمام الجمع المستاء. وكان الأمر أشدّ تعقيداً وأكثر إثارة للعواطف من أن نخضعه لأي تحليل أو تعليق. فصمتنا، وتابعنا المشاهد صامتين، وارتد كل منّا إلى داخله. ولم أستعد انتباهي إلى ما حولي إلا بعد أن راح التلفزيون يبث ردود الفعل على الاستقالة، البيانات والتصريحات ثم المظاهرات التي ملأت شوارع القاهرة بعد لحظات من إلقاء الرئيس لخطاب الاستقالة. ولك أن تعرف أن الرفض الجماعي للاستقالة أسعدني.

لم أكن من الموالين لعبد الناصر على بياض. ولم تسحق نجوميّة الزعيم الكارزماتي قدرتي على رؤيته بما له وما عليه. أما في تلك اللحظات، فقد وجدت في استقالة عبد الناصر تعبيراً عن إحساسه العميق بالهزيمة، تعبيراً

إنسانياً صرفاً لا صلة له بحساب الزعامة. وعزّ علي أن يتنحى هذا الإنسان وهو مهزوم، ووجدت من العادل تماماً أن تتاح له فرصة أخرى، حتى لا يبارح الحلبة وهو مكسور الخاطر. ولهذا، أسعدني أن يندفع الجمهور المصري بملايينه إلى الشوارع، وأن تتجاوب الجماهير العربية معه على الفور فتحمي الإنسان المكسور من أساه. وأيقنت أن حسابات الزعيم سوف تعيده إلى تقديره العالي للمسؤولية ولن يخيّب أمل جماهيره.

وفي الحجرة، حين صار لا بدّ من الإيواء إليها، امتد سهرنا، حسين وأنا، طويلاً. وعندما أثقل الإحساس بالقهر جفوني، كان نومُ الأرق أرحم منه.

في تلك الليلة، رأيت في نومي جدي سلمان، رأيته في الهيئة التي رأيته فيها آخر مرة عندما برحت أنا الفالوجة بالصدفة وبقي هو وشهد الحصار الذي شهده عبد الناصر. واستشهد هو ونصف أعضاء الأسرة فيه. رأيت الجدّ في باحة الدار وعمتي الطفلة تحفّ به وتصب على يديه الماء وهو يغسلهما. ثم رأيت طائرة إسرائيلية أبقاها طيارها في الجو وهبط إلى باحة الدار وسأل: «هل مازال عبد الناصر هنا؟» ورأيت جدي وهو يرفع رأسه دون أن يتوقف عن غسل يديه وسمعت إجابته: «تغذى هو وأصحابه وتسهلوا». ورأيت الطيار وقد أحنقه الجواب فاختفى، ثم ظهر في الطائرة وصرخ: «خذوا!» وانفتح جوف الطائرة، وهبطت منها دنان أخذت حجومها تكبر وتكبر. وصرخت أنا طالباً من جدي أن يكرر ما قاله، والجد لا يسمعني لأن صوتي ليس له صوت. ثم طغت أصوات الانفجارات، وصحوت من نومي على أصوات المدافع المضادة وهي تملأ جوّ اللاذقية بصخبها من جديد.

بكرنا في الهبوط إلى ساحة المدينة، فوجدنا ناساً كثيرين عازمين على السفر. وضمتنا مع ثلاثة آخرين مرسيدس صغيرة انطلقت على الطريق الطويل، وأطلقنا نحن لأفكارنا العنان. وأظهر السائق همة طيبة ومضى بغير تردد إلى أن عبرنا بلدة جبلة وصرنا في الاتجاه إلى طرطوس. هنا، بدأت معنويات

السائق في التراجع. فقد زاد عدد السيارات القادمة على الاتجاه المعاكس، وأظهرت لوحات كثير منها أنها حكومية. واستخلص السائق ما استخلصناه نحن فهاجت هواجسه. راقبت الوجه القلق في المرآة وأنا أمنّي نفسي بأن لا يجبن الرجل. وعندما لوح لنا ركاب سيارة بأيديهم حاثين إيانا على العودة، لفت سائقنا أنظارنا إلى هذه الحركة بنبرة من ينتظر منا الاستجابة. لكننا صمتنا وبقينا صامتين إلى أن عبرنا طرطوس واتجهنا إلى حمص. هنا، شكلت السيارات المعاكسة صفاً يكاد يكون متصلاً. وكثرت الأيدي الملوحة بالعودة إلى النكوص. وظهرت نسبة واضحة من السيارات العسكرية بعضها صغير وبعضها شاحنات. ولم يخف السائق وجله، وانتهى به الأمر إلى أن توقف وقال إن من الأسلم ألا نغامر.

كان بين الركاب رجل في العقد الرابع يلبس زي الميدان العسكري ويتزنر بمسدس مهيب وعلى ذراعه شارات رقيب. وكان هذا هو الذي حسم الجدل مع السائق وحمله حملاً على متابعة الرحلة. وقال الرقيب إنه كان يوم أمس بالذات في الجبهة. وتكلم الرجل عن الصمود والبطولات التي شهدها بأم عينه موحياً بأنه اشترك هو نفسه في اجتراحها، ثم قال إنه أرسل في مهمة عاجلة إلى اللاذقية وقد أداها وها هو راجع إلى موقعه. وأعلن الرقيب بنبرة منذرة أن الذين يبثون الإشاعات ويتحدثون عن هزيمة الجيش وتراجعه خونة وعملاء لإسرائيل.

في حمص، في مرآب السيارات العام، غادر السائق سيارته وقال قولاً قاطعاً: «ابحثوا عن غيري!» عندها قفز الرقيب قفزة أظهرت مدى لياقته البدنية، ووضع فوهة مسدسه على مكان القلب في صدر السائق. وبهذه الوسيلة وحدها، وسط صمت متواطئ منّا، اجتازت المرسيدس حمص. وعلى الاتجاه المعاكس، انتظمت قافلة سيارات يزاحم بعضها بعضاً، وطغت نسبة السيارات الحكومية المدنية والعسكرية على ما عداها. وصارت دلالة المشهد صارخة، حتى أن اثنين من

ركاب المرسيدس غادرا السيارة وبقينا ثلاثة ركاب، حسين والرقيب وأنا. ولفّ الصمت جماعتنا الصغيرة وهي في وضع المجذّف ضد التيار.

أغفى الرقيب، وانصرف السائق إلى الراديو. وانشغلت أنا، ولعل حسين انشغل مثلي، في محاولة التعرف على راكبي السيارات الحكومية. وفجأة، فيما نحن نقترب من بلدة النبك، بثت الإذاعة تلك الموسيقى التي أعرف أنها تمهد لإذاعة نبأ طارئ، ثم أعلن مذيع مضطرب الصوت أنه سيتلو بلاغاً عسكرياً تلقاه لتوّه. وكان هذا هو البلاغ الذي أعلن فيه سقوط القنيطرة، حاضرة الجولان الشهيرة، في أيدي المهاجمين الإسرائيليين. وسقوط القنيطرة يعني لمن يعرف جغرافية المنطقة أن أمر الجبهة السورية كلها قد انتهى.

صدرت عن السائق صرخة أيقظت الرقيب، فتساءل هذا: «شو فيه!؟» فرد السائق المذعور: «سقطت القنيطرة»، فهتف الرقيب الذي لم يستعد يقظته: «هذا حكي جواسيس». عندها، حتى لا يؤدي حمق الرقيب وذعر السائق إلى أسوأ مما نحن فيه، لمست كتف الرقيب لمسة تحثه على الهدوء، وأعدت عليه ما صدر في البلاغ الرسمي. فكان كأنني فجّرت ساقية دموع. وبين موجة نحيب وتاليتها، حكى الرقيب حكايته برواية مختلفة. قال العسكري الباكي إنه كان حقاً في القنيطرة، وهو مرافق لضابط كبير في الجبهة جاءت زوجته لزيارته. وعندما بدأت الحرب، كلف الضابط رقيبه بمرافقة الزوجة المذعورة وإرجاعها إلى منزل الأسرة في إحدى قرى اللاذقية. وقد اغتنم الرقيب الفرصة فزار أسرته في قرية أخرى.

في النبك، أعلن السائق: «اقتلوني إن شئتم، لكن لن أتقدم شبراً واحداً!» ولم يستخدم الرقيب مسدسه. ولم يقل أي منّا أي شيء. وحملنا، حسين وأنا، حقائبنا وتوجهنا إلى منزل أنسباء له في البلدة وأودعنا حقائبنا عندهم. وجاءنا أنسباء حسين بسائق سيارة أجرة صديق لهم فشرحنا له حاجتنا وسبب استعجالنا بلوغ دمشق. وانتخى الرجل نخوة لم يلبث أن أكد على

صدقها: «علي الطلاق، سأنزلكم في ساحة المرجة، مهما كانت الظروف!»

كنت مدفوعاً بإحساس بالواجب يصعب وصفه. يقينا أنه ليس ذلك الواجب الذي يتحدثون عنه في الإذاعة. لم يشغلني سوى هاجس واحد: أن أصل إلى دمشق. كانت الأسرة بالطبع في البال، الزوجة التي ترعى صغيرتين، ولمى التي لم تتم عامين، ولينا التي لم تتم عامها الأول، وكان الأصدقاء والأصحاب والمعارف الكثيرون، وأجواء العمل ومعامعهما التي غيبني عنها السفر. أحسست أن الكارثة التي بدأت باحتلال إسرائيل لقطاع غزة وسيناء والضفة، قد ثقلت باحتلالها الجولان وجبل الشيخ. لكن الأبعاد الكاملة للكارثة، الأبعاد التفصيلية لم تكن قد ارتسمت في الذهن بتمامها بعد.

ومرة أخرى، عدنا نجذف ضد تيار صار جارفاً. لكنّا كنّا بصحبة سائق غير هيّاب فخفت الوطأة. اشتد تزاحم السيارات المعاكسة واشتد الصخب. وكان بعض السيارات في تعجل أصحابه الفرار يخرج عن الخط فيواجه سيارتنا ويضطرها إلى التوقف. وكنّا نتبادل الحديث مع الذين تصوروا أن بإمكانهم النجاة من الخطر إذا ابتعدوا عن العاصمة. وكان ما يقوله هؤلاء مما يثير الذعر. لكن سائقنا غير الهياب بقي غير هيّاب، بل إنه أجاز لنفسه أن يشتم المذعورين. وبقينا نتقدم، بيسر أو بغير يسر، إلى أن بلغنا حاجزاً أقامته الشرطة العسكرية عند القابون. وهناك، قيل لنا إن حظر التجول مفروض على دمشق فليس بإمكاننا أن نتقدم.

لم يكن في حسابنا أن نواجه هذه العقبة ونحن على باب المدينة التي قطع كل منّا آلاف الأميال كي يصل إليها بأسرع ما يمكن. ولم تنفع رجاءات سائقنا الذي شرح للشرطي حكاية حلفانه بالطلاق. فطلبنا من الشرطي أن يجيئنا بقائده، فقدم ملازم ثان بدا شديد الزهو بقامته والرتبة التي لا بدّ من أنه ظفر بها حديثاً. وشرح حسين حالنا للملازم، وشدد على أهمية المواقع التي نشغلها في الإعلام وضرورة أن نكون على رأس عملنا في هذه الظروف.

وصارحنا الملازم بأننا عضوان في الحزب وجعلناه يدرك أننا من ذوي النفوذ. ولكي أؤكد على هذه النقطة، قلت للملازم: «إن كنت تخشى المسؤولية فدعني أتصل برئيس الأركان العامة». ولم يؤخذ الضابط بالأهمية التي ادعيناها، إذ ما هي أهمية إعلامي عند ضابط مغرور، لكنه لم يملك أن يغفل إشارتي إلى صلتي برئيس الأركان. ولما لم يكن عند ناس الحاجز هاتف، فإن الملازم عرض حلاً وسطاً، فقبلناه. وهكذا صار علينا، نحن الصحافيين، أن نتابع المشوار على الأقدام. أما السيارة فتعذر الإذن لها بدخول المدينة.

ولم نكن قد ابتعدنا عن الحاجز أكثر من ثلاثمائة متر حين لحق بنا السائق وسيارته. وهتف النبكي بنبرة الظافر: «حلفت بالطلاق، فلا بدّ من أن أوصلكم إلى المرجة بنفسي وتضعوا أقدامكم على أرضها أمامي». وهل كان بإمكاننا الا أن نبرئ الرجل الأريحي من يمينه. ومن المرجة، شاء حسين أن يتوجه فوراً إلى مكتبه في وكالة الأنباء، ففضلت أن أصحبه إليه حتى لا نشغل السائق أطول مما شغلناه.

كانت دمشق قد سمعت قبل ساعتين أو ثلاث البلاغ العسكري الذي سمعناه عن سقوط القنيطرة فأدركت أن طريق الإسرائيليين إليها لم يعد مقفلاً. وكان كثيرون من سكان المدينة قد غادروها. ولكنها لم تصبح مدينة خالية، بل إن أغلبية السكان بقيت فيها. وبالرغم من ثقل الظروف فإن دمشق لم تبد لي مدينة مستكينة. ولقد رأيت هنا وهناك جماعات من الشبّان الذين حرموا من السلاح تطوف متحدية حظر التجول وتهتف مطالبة بالحصول على سلاح. وفيما نحن متجهون إلى مبنى وكالة الأنباء السورية «سانا»، اجتذب انتباهي جمع محتشد أمام مقرّ التنظيم الفلسطيني البعثي، المقر القريب من «سانا»، فدفعني شيء في داخلي إلى مغادرة السيارة والتوجه إلى هذا المقر. وما أن اخترقت الحشد وولجت الباب حتى التقطتني عينا عمر خليفة المنهمك في الإشراف على عملية توزيع البنادق. لم يفت عمر أن يهتف حتى في هذا الظرف: «حمداً لله على سلامتك»، ثم لم يفته أن ينوه بي بعد أن عرف أني

واصل لتوي من الخارج ويهتف بصوت مسموع: «أصيل»، قالها عمر، ثم ناولني بندقية جديدة دون أن يلزمني الوقوف في الدور الطويل وقال: «لك أن تذهب إلى أسرتك ثم ترجع إلينا بعد أن تستريح!»

لم أذهب إلى الأسرة، بل اكتفيت بالاتصال الهاتفي فعرفت أن زوجتي انتقلت منذ بداية الحرب إلى منزل أسرتها، فاطمأنيت، وتوجهت إلى عملي، إلى مقرّ الجريدة. في صباح ذلك اليوم، صدرت البعث وقد تصدر صفحتها الأولى عنوان عريض باللون الأحمر ينبئ القارئ بأن مدفعية الجيش السوري تقصف صفد. وهذا يعني أن القوات السورية اخترقت خطوط الهدنة وتوغلت داخل إسرائيل أو أنها في أقلّ تقدير لم تتزحزح من مواقعها في الجولان. وقد قدرت عمق خيبة الأمل بعدما اتضح أن الإسرائيليين وصلوا إلى القنيطرة، وانبثق الإحساس بالواجب، فرأيت أن أتوجه إلى مقرّ عملي وأسهم في مواجهة آثار الهزيمة على المعنويات. وهكذا، حملتني سيارة التنظيم الفلسطيني المأذون لها بالتجول إلى مقر البعث وأنزلني السائق أمام المدخل وانصرف. وصعدت أنا الدرج جرياً. ظننت أني سأفاجئ الزملاء، فإذا بي أنا الذي يفاجأ؛ كان المقر مقفلاً ولا حركة تدل على أن فيه أحداً. كررت الضغط على الجرس وسمعت رنينه، وطرقت الباب وكررت ذلك، ولا جواب.

أدركت أني في ورطة. فأنا في تعجلي لم أتزود من عمر بإذن تجول. وهذه البندقية التي معي لا أحمل ما يشير إلى حقي في حملها. والموكلون بالأمن أعرفهم وما أسهل أن يتهمني أي رجل أمن في الشارع بأني جاسوس أو شيء من هذا القبيل ويلقي القبض عليّ. ولم يبق أمامي إلا أن أواصل الضغط على الجرس وطرق الباب، وكان غيظي من تعجلي وغياب فطنتي هو الذي يضغط ويطرق. وفجأة، انفتح الباب، وبرز أمامي بواب المقر العجوز وهو يفرك عينيه، وسألني بنبرة ساخطة عما جاء بي إلى هنا في هذا الوقت. وكل ما أمكن أن أعرفه من البواب الناعس «أن الذين كانوا هنا» انتقلوا إلى

حمص تحسباً للطوارئ. وبهذا، تقررت خطوتي التالية، فبحثت عن عبد الله الحوراني عبر الهاتف. واتضح أن العاملين في الإذاعة والتلفزيون أخلوا مقرهم المعرض للغارات الجوية وانتقلوا إلى مبنى عتيق في وسط البلد كان مقراً للإذاعة في أول عهد استقلال سورية. وما أن عثرت على عبد الله حتى رجوته أن يرسل من يحملني إليه.

من يعرف هذا المبنى القائم في شارع النصر يعرف أنه مبنى صغير يفضي مدخله إلى صالة تنفتح عليها أبواب الحجرات. وقد وقعت عيني في هذه الصالة على مشهد لن أنساه ما حييت: كل من أعرف من فرسان الإذاعة في أوقات المعامع كان هناك، مرمياً على مقعد، أو قاعداً وظهره مسنود إلى جدار أو مستلقياً على الأرض، ساكن الحركة ومخذولاً، ولا شيء له حضور حيّ في الصالة إلا الصمت. وما أن ولجت الصالة حتى جرى الأمر كما يجري في الأفلام، واحد فتح عينيه، وثانٍ رفع رأسه، وثالث هتف بتحية كليلة، وآخر أضاف إلى التحية ترحيباً أكثر كلالاً. يوسف الخطيب وحده، وكان مسترخياً بوهنٍ على كنبة، بدا كأن وصولي أعاد إلى صوته جلجلته الشهيرة: «أصحابك السوفييت خانونا يا فيصل». وهذا هو الهتاف الذي نبّه الآخرين فتناوبت تعليقاتهم اليائسة.

تطوع يوسف مع بداية الحرب للعمل في الإذاعة تطوعاً فكتب وأذاع، وصال وجال حين كانت الأنباء الرسمية التي لم يصدق غيرها تنبئ بأن جيوش العرب تفتك بجيش العدوان. ويوسف هو الذي استخفه طرب الانتصارات التي يذيع أنباءها، فأقدم على ما لم يفطن إليه عربي غيره من ملايين القاطنين بين المحيط والخليج. فهو الذي كتب بقلمه وأذاع بصوته وكرر الإذاعة نص دعوة صاغها باسم الفلسطينيين جميعاً دون أن يستشير أيا منهم. في هذا النص الشهير دعا يوسف جماهير الأمة العربية بأسرها إلى قضاء سبع أيام ولياليها الملاح في فلسطين حيث سينعقد الاحتفال قريباً بتحريرها وعودتها إلى حضن

العروبة. ومن هذا الحماس الذي شاركه فيه الفرسان جميعهم هبط يوسف وسواه مرة واحدة إلى قاع سحيق عندما اطلع على بلاغ سقوط القنيطرة. أليس صحيحاً أن الذي يحلق عالياً إنما يبتعد عن سطح الأرض وإن خانته الأحلام فإنه لا يرجع إلى مكانه بل ينحدر إلى القيعان!

هتفت في وجه يأس يوسف: «ولو يا أبا بادي، ألست أنت الذي يردد دوماً أن لكل حصان كبوة، شدّ حيلك يا رجل!» ولم أزد على ذلك شيئاً. لقد فهمت أصحابي. والوقت لم يكن وقت تبادل اللوم.

بعد البلاغ عن سقوط القنيطرة فقد الشباب القدرة على الكتابة وهم بحاجة إلى بعض الوقت قبل أن يستردوها. شرح عبد الله الأمر، وأضاف أنه يواجه مشكلة ويبدو أن الله أرسلني إليه في هذا الوقت بالذات لأساعده على حلها، فهم مازالوا يذيعون مواد أعدت قبل البلاغ، مواد لا تلائم ما انكشف، فلا بدّ من إعداد مواد جديدة: «خذ القلم وشمر عن ساعديك!» والواقع أني شرعت في الكتابة قبل أن تصل القهوة التي طلبها عبد الله لإنعاشي. وسمع الجمهور ما يذكّر بتاريخ سورية الوطني وثباتها في مقاومة الغزو الأجنبي. وترددت أسماء سلطان الأطرش وإبراهيم هنانو وصالح العلي وحسن الخراط والشيخ محمد الأسمر وغيرهم من أبطال الكفاح الوطني ورموزه. وحل هذا وذاك محل الحديث الذي سمعه الجمهور في الأيام الفائتة عن أمجاد حزب البعث وحدها.

وفيما بدا أن الأمور يمكن أن تأخذ هذا المجرى ووجد عبد الله وقتاً لحث الفرسان المخذولين على استعادة روح العمل، طرأت مشكلة لم تكن في حسبان أي منّا. فقد اتصل المتحدث باسم القوات المسلحة العقيد غازي أبو عقل وأملى على عبد الله نص بلاغ عسكري جديد ينفي أن تكون القنيطرة قد سقطت بيد القوات الإسرائيلية. كان هذا العقيد هو رئيس إدارة التوجيه المعنوي في الجيش، أو الإدارة السياسية وفق تسمية أحدث، وكان بلاغه الجديد تكذيباً للبلاغ السابق الذي أملاه هو نفسه على عبد الله. خشي عبد

الله أن يكون في الأمر التباس فأحد البلاغين على الأقل كاذب تماماً. ودخل عبد الله في جدل مع من عثر عليهم من كبار المسؤولين: لدى الرأي العام ما يكفي لإغراقه في البلبلة، فلماذا نذيع بلاغا ثم نتبعه ببلاغ يناقضه، دون إيضاح أو تفسير. وأفرز الجدل اقتراحاً بلوره عبد الله، فصار على الإذاعة أن تمهد لبلاغ التكذيب بالقول إن القوات الإسرائيلية التي دخلت القنيطرة، حسب البلاغ السابق، تجابه مقاومة عنيفة من القوات السورية ومواطني البلدة، لتنتهي إلى القول إن هذه المقاومة أرغمت المعتدين على الانسحاب ويذاع البلاغ الذي ينقل هذه النتيجة إلى المستمعين.

هكذا، بدأت في الإذاعة حكاية ملحمة القنيطرة.

هنا، يجدر بي أن أروي لك ما عرفته أنا معرفة يقينية عن حكاية بلاغ السقوط ومحاولة نفيه بعد إذاعته. أعرف أن الحكاية تدوولت بروايات مختلفة وأحاط بها لغط كثير وانطوى اللغط على إتهامات شتى. ولك أن تثق بروايتي، كما أن لك أن تشك فيها، أما أنا فواثق من أنها أدق الروايات.

عاشت القوات السورية في الجبهة ثلاثة أيام بلياليها تحت وطأة الطيران الإسرائيلي المتفوق. وما أن فرغ الجيش الإسرائيلي من الجبهتين المصرية والأردنية حتى وجه رأس حربته إلى الجبهة السورية. فكان الاختراق الأول الذي وقع وأنا في باريس وتلته اختراقات. وتقدم المهاجمون الذين تفرغ طيران إسرائيل كله لمساندة هجومهم. وانهارت المقاومة السورية وتشتتت وحدات الجيش في الجبهة. وعندما أصدرت القيادة السورية أمرها الشهير بالانسحاب الكيفي، كان الانسحاب قد بدأ بالفعل قبل ذلك، أو قل إن الذي كان قد بدأ هو الانهيار.

فإذا أضفت إلى هذا أن سورية رفضت في أيام الحرب الأولى قرار مجلس الأمن الدولي الداعي إلى وقف إطلاق النار، ثم إذا أضفت إليه ما صرت تعرفه عن عقلية أصحاب القرار فيها، فستدرك كم صار صعباً على القيادة البعثية

أن تتخلى عن الكبرياء وتبادر هي إلى طلب وقف إطلاق النار. في جوّ الانهيار، نشأ اجتهاد بأن الإعلان عن سقوط القنيطرة سوف يظهر أن الطريق إلى دمشق صار مفتوحاً أمام القوات الإسرائيلية، فيثير خشية العالم من أن تؤدي الحرب إلى إلغاء كيان دولة فيبادر الذين يعارضون تبديل الخارطة السياسية إلى الضغط لوقف التقدم العسكري الإسرائيلي. وبهذا الاجتهاد الذي أملاه الانهيار الشامل، صدر البلاغ عن سقوط القنيطرة قبل أن يدخلها الجيش الإسرائيلي. والواقع أن القوات المهاجمة تخطت البلدة لتتجنب معركة لم تجد لها لزوماً ما دام الجولان قد صار تحت سطوتها وانهارت مقاومته فصار بإمكانها أن تدخل البلدة في أي وقت بعد ذلك.

والذي حصل أن صدور البلاغ أسخط الوحدات السورية المتمركزة داخل القنيطرة التي لم تر أي إسرائيليين، فبادر قادتها إلى الاحتجاج. وعندما تجاهلت القيادة في دمشق الاحتجاجات، هدد الساخطون بإعلان سخطهم. وكاد الأمر يتحول إلى فضيحة فأعدّت القيادة بلاغ التكذيب.

أما لماذا لم تبلغ حكاية الملحمة التي كتبتها أنا نهايتها الظافرة فلأن كاتبها أغمي عليه. وفيما أنا غائب عن الوعي، تواترت الأحداث وطوت الحاجة إلى إذاعة البلاغ الجديد.

والواقع أن بلاغ سقوط القنيطرة حقق بعض غرضه. فقد صدر عن مجلس الأمن قرار جديد بوقف إطلاق النار. ونشطت الاتصالات بين موسكو المؤيدة للعرب وواشنطن المنحازة لإسرائيل. وأعلنت الحكومة السورية من دمشق قبولها لقرار وقف إطلاق النار. وأرسل الدكتور إبراهيم ماخوس بوصفه وزير الخارجية موافقة حكومة سورية إلى يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة. غير أن يوثانت لم يقبل البرقية وسيلة للتعبير عن موقف له تلك الخطورة، بل أصر على حضور الدكتور إبراهيم ماخوس بنفسه إلى مكتب الأمم المتحدة في دمشق ليبلغ الموقف بلسانه بعد أن يشهد مدير المكتب بأن المتحدث هو حقاً

وزير خارجية سورية وليس أحداً غيره. وهذا هو ما حصل.

في هذه الأثناء وقعت أنا في الغيبوبة. وعندما صحوت، وجدت الدكتور نبيه ارشيدات مع عبد الله بجانبي. وقال نبيه، ربما ليطمئنني، إنه الإجهاد والتدخين الشره والحمى التي أوقدها التهاب البلعوم، وكل هذا قابل للمعالجة. لقد تصرف عبد الله بفطنة إذ استدعى نبيه بدل أن ينقلني إلى أي من المستشفيات المكتظة بضحايا الحرب. وجاء نبيه وأسعفني ودس فيّ تحميلتين مخفضتين للحرارة وهو يقول إنهما أنفع من القاهر والظافر. عبر نبيه عن رأيه في ما جرى باستعارة اسمي الصاروخين اللذين صممهما خبراء أجانب مرتزقة وعولت مصر عليهما ثم اتضح وقت الحرب أنهما غير صالحين للاستخدام. وبعد أن اطمأن الطبيب الصديق إلى انتفاء الخطر، حملني بسيارته إلى منزل أنسبائي حيث تقيم أسرتي، وأرغمني على المكوث في الفراش، وأوصى أهل الدار بأن يبقوا عيونهم علي حتى لا أتملص من الراحة وأن يحولوا خصوصاً دون أن أستمع إلى الأنباء، ورجع في الليل ليطمئن علي ويعطيني ظافراً وقاهراً جديدين.

استفاد محمد بصل من القرار الذي صدر بالعفو عن المعتقلين السياسيين، فغادر المنزل الذي اختفى فيه بعد تمرد سليم حاطوم، ورجع إلى منزله وظهر فيه علناً، فاكتظ المنزل بالزوار وجاءت مع الزوار شتى الحكايات. وفي الصباح جاء نبيه مبكراً، فصحوت على جلبة تحياته لأهل الدار. ووجدني هو في حالة أفضل، فأذن لي بالحركة، وقال إن أول ما هو مطلوب منك وقد خرجت من المعمعة الكبيرة أن تساعدنا في واحدة صغيرة. وبعد هذه المقدمة، عرفت من نبيه أن قدري فؤاد جميل الفتى ابن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة وهو الابن البكر لصديقنا المشترك «أبو قدري» شاغل الطابق الثالث في المبنى الذي يشغل أنسبائي طابقه الثاني مستسلم للأسى والبكاء منذ أول الحرب ونبيه يندبني لحل مشكلته. ذهب قدري إلى حيث يوزع البعثيون السلاح على أنصارهم. ولأنه متحمس للدفاع عن الوطن فقد طلب سلاحاً فمنعوه عنه.

كان أبو قدري محسوباً عند البعثيين شيوعياً، وكان قدري عضواً في منظمة الشبيبة الشيوعية، وقد أساه أن يحصل غيره على السلاح ولا يحصل هو عليه مع أنه لا يقل حماساً عن أيّما أحد. والواقع أني حللت مشكلة قدري على الفور، فقد استقدمته قبل أن يبرحنا نبيه وأعطيته الكلاشينكوف الذي أخذته من مقر التنظيم الفلسطيني. فازدهى الفتى بحصوله على البندقية ونزل إلى الشارع ليجد لنفسه مكاناً بين المدافعين عن الوطن. وهناك، وقعت عين المسؤول البعثي عن توزيع السلاح في الحيّ على الفتى والبندقية، فصادر البندقية وضمّها إلى مخزن أسلحته، ثم جاء إليّ معاتباً، وهو الذي أفهمني أن التعليمات المبلغة إليه تحظر تسليح غير البعثيين وأنصارهم الموثوقين. ورجع قدري إلى أساه، ولكنه أحبني منذ تلك اللحظة حباً لم يبارحه في أي وقت بعد ذلك.

كان نبيه، وقد رضخ منذ البداية إلى واقع حرمان الشيوعيين من حمل السلاح، قد حول عيادته إلى مركز للنشاط العام لدعم المجهود الحربي والدفاع المدني ورفع معنويات الجمهور وتقديم أي خدمات تتطلبها ظروف الحرب. وتطوع للعمل في هذا المركز عدد وافر من الشيوعيين وأصدقائهم، واستقطب نبيه عدداً آخر من أصدقائه الشخصيين، فتحول المركز إلى خلية نحل لا يتوقف نشاطها لا في النهار ولا في الليل. وعندما حدثني نبيه عن هذا المركز وهو يعودني في ذلك الصباح قلت لنسمّه إذن سمولني. اقترحت هذا الاسم تيمناً باسم القصر الشهير الذي أدار فيه لينين نشاطات الثورة البلشفية، فطرب نبيه للتسمية. وعندما رجع قدري إلي مؤملاً أن أجد وسيلة جديدة لمعالجة أساه، نصحته بأن يلتحق بسمولني نبيه بل طلبت منه أن يصحبني إليه للتوّ. وكانت زيارتي لمركز نبيه هي أول ما قمت به بعد صمت هدير الحرب في ذلك الصباح.

لشدّ ما كان نبيه قادراً على المبادرة وابتكار الوسائل من أجل الخدمة العامة واجتذاب المتطوعين، ولشد ما أحببت هذا الرجل في تلك الظروف المريرة!

١٩ شهرتي عارفاً بالأسرار جلبت لي المزيد منها

وسعت إسرائيل رقعة سيطرتها في أرض العرب، فشملت بها الضفة الغربية وقطاع غزة وقرية الحمة، أي بقيّة أرض فلسطين التي لم تستول عليها في حرب ١٩٤٨-١٩٤٩، كما شملت شبه جزيرة سيناء المصرية وهضبة الجولان السورية ومعها جبل الشيخ. وشكل نهر الأردن وقناة السويس وحصون الجولان الطبيعية خطوط وقف إطلاق النار التي تفصل بين الجيوش العربية وجيش إسرائيل. وبحرب حزيران/يونيو، صارت إسرائيل، كما وصفها أستاذ إسرائيلي في الجامعة العبرية مزدهٍ بالتوسع الجديد، إمبراطورية، وبدا أنها امبراطورية منيعة.

أما سكان هذه المناطق فإن الفلسطينيين منهم، وهم جلّ هؤلاء، لم يكرروا مأساة النزوح الشامل التي وقعت في العام ١٩٤٨. استوعب الفلسطينيون عظة التجربة السابقة، فتحملوا وطأة العدوان ومخاطره بكثير من الصبر والشجاعة، وبقي معظمهم حيث هو، وانهمك في مقاومة محاولات الاقتلاع. وكانت سيناء في الأساس شبه خالية من السكان، وفي الحواضر القليلة المأهولة من هذه الصحراء، بقي ناس وإن نزح آخرون. الجولان وحده شهد حالة نزوح شبه جماعي. ففي هذه البقعة الضيقة التي يرتبط عيش ناسها وأمنهم بوجود الجيش الوطني، كانت وطأة الحرب ثقيلة على كل إنسان، فخلا

الجولان من معظم سكانه تحت وطأة العمليات الحربية وطرد المحتلون معظم بقيتهم بعد ذلك. ولعل من المفيد أن تعرف أن عدد سكان الجولان لم يكن كبيراً. ومن هؤلاء، بقي في الجولان سكان ثلاث قرى درزية تشبث أهلها بأرضهم في حضن جبل الشيخ وصمدوا أمام محاولات اقتلاعهم منها.

وعلى الصعيد العسكري، تغلبت القوات الإسرائيلية على قوات ثلاث دول عربية هي مصر وسورية والأردن، وألحقت بهذه القوات وعتادها دماراً مريعاً، وفتكت بمعنويات عسكرها. وقد أظهر مجرى العمليات في أيام الحرب الستة أن مساهمة الدول العربية الأخرى في القتال لم تكن مما يمكن أن يُعتد به بأي حال من الأحوال. صحيح أن عدداً من الدول العربية أرسل نجدات عسكرية إلى هذه الجبهة أو تلك، لكن هذه النجدات لم تتعد وحدات رمزية وصلت في آخر لحظة ولم تقم بمجهود حربي يذكر. أما النجدة الكبيرة التي بعث بها العراق إلى الجبهة الأردنية فقد توجب عليها أن تقطع مئات الكيلومترات دون حماية جوية، ثم لم تصل إلى حيث تشترك في القتال لأن إطلاق النار توقف.

لم يكن الأمر، إذا، أمر هزيمة في حرب فحسب، بل أمر كارثة فاقت اندياحاتها المؤسية أي توقعات سابقة وأمر نصر خاطف حققته الجهة الغازية بأسرع مما يتحقق النصر في الروايات والأفلام. وبهذا، تعززت على الجانبين مقولة جيش إسرائيل الذي لا يقهر فأفرزت صلفاً قبيحاً على جانب وإحساساً بالخذلان قبيحاً أيضاً على الجانب الآخر. وحظيت إسرائيل بسمعة هائلة التأثير في بلاد الغرب، فانهال عليها الإطراء والتأييد والمعونات، وتعززت سمعتها بما هي قوة فعالة وقادرة على حماية مصالح الغرب. وصارت صورة الجنرال موشى دايان بالعصبة السوداء التي تغطي عينه المعطوبة أشهر من نجمة داوود ذاتها. ومقابل صلف الإسرائيليين وزهوهم واحتفالاتهم بالنصر وتحليقهم في أجواء التأييد الذي انصب عليهم، انداحت آثار الكارثة في الجانب الآخر، الأرض التي اغتصبت وصار الباقون فيها من أهلها أسرى سطوة الاحتلال، والجيوش التي زعزعتها الهزيمة وخسرت معدّاتها، والمنشآت

الاقتصادية التي دمرت أو استولى عليها الغاصبون، وألوف الضحايا وعشرات ألوف الجرحى من المدنيين والعسكريين ومئات ألوف المهجرين، والفوضى والضياع. كشفت الكارثة هشاشة مؤسسات الدول العربية. وأوجز المحللون الأسباب فنسبوها إلى التخلف، وانطلقت الألسنة في عملية موجعة لجلد الذات.

وكما يحدث بعد أي كارثة، تصور كثيرون أن المسؤولين عنها، وهم الحكام وقادة الجيوش في المقام الأول، سوف يستوعبون العبرة ويبدلون ما هم فيه. وشاعت آمال عراض. وجرد كتاب عديدون أقلامهم في حملة كلام لم يسبق سعتها وضجيجها مثيل. وُصفت مظاهر التخلف، واستقصيت أسباب الهزيمة، وتواترت الدعوة إلى معالجتها. لكن هذا كلّه ظل كلاماً، إن أوجع أو أطرب فإنه لم يبدل واقع الحال ولم يؤثر إلا في أضيق الحدود. أما على الصعيد العملي، وبعد المحاولة اليتيمة التي تمثلت باستقالة عبد الناصر وتراجعه عنها، فإن أنظمة الحكم المهزومة عملت في المقام الأول على صيانة سلطاتها وتوطيد مركزها داخل بلدانها وتبديد مخاطر رياح النقد الذي يستهدفها. وقد فعل كل نظام حكم هذا بطريقته ووفق ظروفه. فعبد الناصر استعاد من شعبيته التي ثبت أنها راسخة وأجهزة إعلامه التي لم تمسّها الحرب بأي تدمير فوجه سخط الجمهور ناحية أجهزة المخابرات. وكانت هذه الأجهزة مكروهة بسبب دورها في القمع فسهل أن ينصب السخط عليها. وتمت في مصر التضحية بعدد من الرؤوس. والملك حسين، وهو الذي خسر نصف المملكة وواجه مشاكل لا قبل لأحد بحلّها، لم يجد أفضل من أن يتصدر التأييد الشعبي للمقاومة الفلسطينية المسلحة، فغض الطرف عن توسع الوجود الفلسطيني المسلح وتدفقِ ألوف الفدائيين إلى أغوار الأردن. وأضاف الملك إلى ألقابه لقب الفدائي الأول.

أما في سورية، فقد تصرف القادة المدنيون والعسكريون وكأن ما وقع لم يكن كارثة، أو قل إنهم تصرفوا تقريباً في هذا النحو. أبى القادة السوريون أن يقرّوا بأن هزيمة ماحقة قد وقعت، وعدّوا ما وقع مجرد انتكاسة في معركة في

حرب أمدها الطويل ما يزال مفتوحاً، ورأوا أن خسارة معركة لا تعني خسارة حرب، ألم يدعُ البعثيون دائماً إلى حرب الشعب طويلة الأمد!؟ وركزت أدبيات البعث ودعاية الإعلام الرسمي على نقطتين بدا معهما أن ما وقع يكاد يكون نصراً للعرب، بل إن بين الأدبيات ما سماه نصراً تسمية صريحة. أولى النقطتين أن هدف إسرائيل والولايات المتحدة من شن الحرب كان إسقاط النظامين الوطنيين التقدميين في سورية ومصر، وما دام النظامان كلاهما قد بقيا فهذا يعني أن المعتدين فشلوا، وهو يعني أن استمرار النظامين فيه استمرار للنصر العربي. والثانية أن الأحداث جاءت لتثبت صحة وجهة نظر حزب البعث، هكذا، كما قيل وتكرر حرفياً: «جاءت الأحداث لتثبت صحة وجهة نظر الحزب». فهذه الأحداث كشفت أن لإسرائيل نوايا توسعية وأن الإمبريالية تدعم إسرائيل، تماماً كما قال الحزب، وليس هذا القول بالأمر القليل! وقلما صدر بيان عن الحزب أو الدولة أو نشر مقال أو أذيع نص سياسي دون أن يرد فيه التأكيد على هاتين النقطتين ويتكرر.

تعامل رفاقي البعثيون مع مسألة الحرب قبل وقوعها وبعده بخفة بدا لي في الحالتين أنها شديدة الخطر. فحين توالت نذر الحرب عبر تهديدات إسرائيل لسورية، لجأ رفاقي إلى المزايدة، فلم يظهروا استخفافهم بمخاطر الحرب، فحسب، بل أظهروا أيضاً أنهم راغبون فيها وبدا كأنهم هم الذين يخططون لشن الحرب، وكان في ظنهم أنهم يكسبون بهذا شعبية. وعندما بدأت الحرب، وقد بدأتها إسرائيل، تباهى قادة بعثيون في يوم الحرب الأول بأنهم هم الذين تسببوا في وقوع الحرب وجرّوا عبد الناصر إليها جراً. وقد دخل محمد طلب هلال، وهو من كان عضواً بارزاً في قيادة الحزب القطرية ووزيراً في الحكومة، إلى مكتبه صباح الخامس من حزيران/يونيو وهو يفرك يديه جذلاً أمام موظفي المكتب ويردد بافتخار: «نحن الذين استدرجنا عبد الناصر إلى الحرب». اعتقد الرجل أن النصر آت، فشاء أن يضمن حصة وافرة لحزبه من أمجاد هذا النصر. وبعدما تكشفت الحرب عن الكارثة المتحققة، بقي رفاقي على

استخفافهم بالواقع، وامتطوا سرج الكلمات الكبيرة، ولم يكفوا عن المزايدة، بل أمعنوا فيها.

في تلك الفترة، حسمت أمري بشأن مسائل عديدة فكرية وسياسية حسماً لا لبس فيه. وتأسس في نفسي هذا الضيق الشديد، الذي لازمني بقية عمري، ضد كل أشكال المزايدة والتطرف والسياسة المغامرة. ووجدتني أقرب بهذا إلى موقف الشيوعيين، بل صرت آخذ على الشيوعيين قصورهم في مواجهة سياسة البعثيين المغامرة. وفيما يتعلق بإسرائيل، تعززت قناعتي بأن العرب عاجزون عن إزالتها من الوجود وسيظلون عاجزين في أي مدى زمني تمكن رؤيته. وتبلورت بشكل جليّ رؤيتي السابقة لأهمية توجيه الجهد العربي باتجاه تخفيف مخاطر إسرائيل ومنعها من التوسع، بدل تبديد الجهد في العملية السيزيفية التي تستهدف القضاء على وجودها. ولأن شجاعة الإسرائيليين الذين عارضوا سياسة حكومتهم العدوانية بهرتني، فقد ترسخت قناعتي السابقة بأهمية التمييز بين الصهيوني وغير الصهيوني من اليهود. ولما كنت في الأساس متحرراً من أي نازع عنصري أو تعصب ديني ضد أي قوم، فإن إعجابي بمعارضي السياسة العدوانية اليهود، وأخصهم الشيوعيون، انطوى على استعدادي للإشادة بدورهم وقبولي المجازفة بالتعرض لسخط الرفاق وغيرهم. وتعززت أيضاً قناعتي بأهمية الرأي العام العالمي وبأننا لن نكسبه إلا إذا التزمنا في توجهنا إليه منطق العصر وقوانينه وقيمه ونبذنا أي مظاهر عنصرية أو طائفية في دعايتنا ضد إسرائيل. وزاد انتباهي منذ تلك الفترة إلى ما تنطوي عليه الدعوات القومية من تعصب إزاء الآخرين وتهوين من شؤونهم.

وبإضافة جديد قناعاتي إلى قديمها، تبلورت رؤيتي السياسية، فرأيت أن السياسة الصحيحة هي التي تستهدف إرغام إسرائيل على الانسحاب من الأرض التي أحتلتها في الحرب الأخيرة. ولكي تحقق هذه السياسة هدفها، رأيتها أنها لا بد من أن ترتكز على ثلاث ركائز: وضع داخلي يتمتع الجمهور فيه بالحرية وتتوفر له فرص تكتيل أمتن قواه؛ وتضامن عربي يشكل تعاون

مصر وسورية ومعهما م.ت.ف. نواته ويجتذب ما يمكن اجتذابه من الدعم العربي، وتعاون صادق ومتين مع الاتحاد السوفييتي والحركات التقدمية وحركات التحرر الوطني في كل مكان.

بكلمات أخرى، وجدتني بعد الحرب أبعد مما كنت قبلها عن المزايدات وأقرب إلى السياسة التي يروج لها الشيوعيون. وإذا كنت لم أنتسب إلى الحزب الشيوعي فلسبب بسيط ملخصه أن الشيوعيين لم يحبذوا انتسابي إلى حزبهم. فقد عدّني هؤلاء منذ البداية بعثياً يسارياً فتشبثوا بالتعامل معي على هذا الأساس ووجدوا أنه أنفع لهم. أما لماذا لم أترك حزب البعث من تلقاء نفسي فالأسباب متعددة: تأثير المألوف، وتأثير العلاقات الشخصية، وما أجده في سياسة البعث مما يستحق التأييد، وكذلك، وربما أهم من كل ذلك، تشجيع الشيوعيين والتقدميين الآخرين لي، بل إصرارهم على أن أبقى في حزب البعث لقد خصني الشيوعيون بمعاملة حادبة، تجلت أكثر ما تجلت في الصداقة التي محضني إياها عدد من قادة الحزب وأعضائه والاحترام الذي أحاطوني به والسمعة الطيبة التي نشروها حول اسمي. وألزمت أنا نفسي تأييد الشيوعيين وأنا لست عضوا في حزبهم. ولعلي فقت في هذا المجال ما التزمه الأعضاء.

وبهذا زاد وضعي تعقيداً: بعثي عند الشيوعيين، شيوعي عند البعثيين، وطني فلسطيني عند هؤلاء وهؤلاء، وبعثي قومي أو شيوعي أحمر عند الوطنيين الفلسطينيين. وأورثني البقاء حيث لا أرغب والحرمان من الوجود حيث أرغب توتراً في الروح والجسد انضاف إلى أسباب التوتر التي تعصف بالجميع، وانضاف إليه التوتر الذي يحدثه الداء المزمن الذي يستوطن عمودي الفقري ويستفحل فيه بمضي الوقت، فصرت إنساناً لا يقرّ له قرار، أعصابه متوترة على الدوام، ولسانه لا يكفّ عن الانتقاد. ولا بدّ من أني كنت في تلك الفترة شخصاً لا يطاق، أو لا يطيقه إلا المطلعون على دخيلة نفسه. ولما كنت محروماً من الجهر بآرائي الخاصة في المقالات التي تنشرها الصحافة أو تبثها الإذاعة والتلفزيون، فقد أفرطت في عرض آرائي شفاهة في أي مجلس أحل فيه في

مختلف الأوساط التي أتصل بها. وصارت السخرية سلاحاً أتفنن في استخدامه. ولعلك تعرف أن السخرية هي أنجع وسائل إفراغ التوتر والمحافظة على التوازن النفسي. وكان لا بدّ من أن يتسرب شيء من أفكاري الخاصة في ما أنشره. فجوّدت قدرتي على التسريب من وراء ظهر شتى الرقابات. وللتسريب وسائل يعرفها الكاتب المحترف ويتلقاها القارئ الفطن في أي بلد لا تتوفر فيه حرية التعبير. فأن تضع فاصلة أو تهملها، وأن تورد صفة أو غيرها، وأن تركز على واقعة أو اسم أو تاريخ، هذا كله وكثير غيره وسائل في المتناول، وقد أفرطت آنذاك في استخدامها.

والواقع أني تمتعت بعد انتهاء الحرب مباشرة بفترة أفلتُّ فيها من القيود. ولكن هذه كانت للأسف شهر عسل مع حرية التعبير انقضى بسرعة ثم لم يتكرر. ففي الأسابيع القليلة التي تلت وقف إطلاق النار، انشغلت القيادة وحكومتها بلملمة الأشتات التي مزقتها الحرب وإعادة ترتيب مركز السلطة وتحري مخاطر أي انقلاب عليها، فخفتْ سطوة القيادة على أجهزة الإعلام، وكنت أنا جاهزاً لاغتنام الفرصة.

في هذه الفترة، صلتُ وجلت على خاطري تقريباً. أقول تقريباً لأن وهن يد السلطة المركزية لم يلغ وجود واحد هنا وآخر هناك من أتباعها اليقظين أو الخوافين من إباحة أي انتقاد، وتوزع وقتي بين سمولني نبيه ارشيدات وجريدة **البعث** التي لم تطل غيبة طاقمها عن العاصمة ومبنى الإذاعة والتلفزيون الذي رجع إليه العاملون فيه.

في سمولني، كنت، بالطبع، آخذ حريتي على مداها فأبثّ ما أريده، فيتداوله الشيوعيون ويروجونه في المدينة. أما في البعث فأنت تعرف أن رئيس التحرير كان من الخوافين، فلم يبق لي إلا التسريبات التي ألفتها. المتع كلها والحرية توفرت في الإذاعة والتلفزيون حيث عبد الله وبقيّة العصابة المقدامة. وهنا، بلغ اضطراب سطوة السلطة العليا حداً، أذنتُ معه لنفسي بأن أمارس

صلاحيات الوظيفة التي طردت منها قبل ثلاثة شهور، وأشغل الغرفة ذاتها التي أخرجت منها. لم يكن أحد قد خلفني في هذا المكان بعد. وكان لا بد من مساعدة عبد الله المجهد بالأعباء والمرارات الناجمة من الهزيمة. فاستعدت وظيفتي بنفسي أو قل إني مارست صلاحياتها دون أن يصدر أي قرار بتعييني لها من جديد. والمدهش أن الإدارة المالية ذاتها، وهي أشدّ إدارات الهيئة تشبثاً بالأصول، قبلت هذا الوضع وأجازت المعاملات التي تحمل توقيعي ودفعت لأصحابها ما يستحقونه من مكافآت.

ولأن رفاق العصابة القديمة، وفي المقدمة عبد الله، توصلوا إلى استخلاصات شبيهة بالتي توصلت إليها، فقد شاعت في البرامج النبرة الوطنية على حساب الطبقية، والدعوة إلى التضامن العربي الشامل على حساب دعوة الحزب إلى وحدة القوى الثورية. وتصدت البرامج السياسية للرد على الحملة التي تعرض لها الاتحاد السوفييتي بعد الحرب. وكانت هذه الحملة امتزجت فيها نوازع اليمين بنوازع اليساريين المتطرفين وانطوى بعض بنودها على غمز بموقف السوفييت، فيما أطلقت بنود أخرى اتهامات سافرة لهم. وواجهت البرامج، أيضاً، حملة غمز ولمز استهدفت عبد الناصر والسياسة المصرية.

في مواجهة الحملة على السوفييت، كان من رأيي أن الموقف من السوفييت شكل حتى وقوع الحرب معياراً للموقف الطبقي في المقام الأول. أما بعد الحرب واشتداد الحاجة إلى الدعم السوفييتي، فقد صار الموقف من السوفييت معياراً للوطنية ذاتها ومؤشراً على صدقية الموقف من الاستعمار والإمبريالية والصهيونية، بالإضافة إلى دلالته الطبقية. وقد أفضت في شرح هذا الرأي في ما كتبته للإذاعة والتلفزيون. وأمكن أن أسرب شرحاً له في مقالات صدرت في **البعث**. وظل من رأيي أن كل وطني في بلادنا ملزم بالعمل على تمتين روابط الصداقة والتضامن مع الدولة الاشتراكية العظمى. وفي هذا السياق كتبت للإذاعة تعليقاً سياسياً انطلق من الاعتراف الكامل بجمهورية ألمانيا الديمقراطية التي لم تكن سورية قد اعترفت بها بعد. والتبس الأمر على

صديقي قنصل ألمانيا العام الفرد مارتر فاتصل مستفهماً عن مدى تمثيل التعليق للموقف السوري الرسمي. وكان علي أن أخيب أمل صديقي الذي يترقب الاعتراف السوري منذ سنوات: «أنا أمثل كومونة الإذاعة، ليس أكثر!»

وفي مواجهة ما كان يقال في سورية ضد عبد الناصر، كان الأمر أعقد، لكنه كان أدعى إلى استثارة الهمم. ذلك أن انتقاد عبد الناصر تجلى في تسريبات لا تفصح عن نفسها مباشرة، فصار علينا أن نترصدها ونتحرى خفاياها ثم نتصدى لها. وتمثل أخطر ما بثته التسريبات في محاولة تحميل عبد الناصر وحده المسؤولية عن الهزيمة وتبرئة القيادة السورية من المسؤولية. وتحت ستار تبرئة الجانب السوري، تخفى الحاقدون على عبد الناصر لأي سبب من الأسباب، وبضمنهم الحاقدون على البعثيين أيضاً. ولك أن تعرف أننا لم نقصر في فضح هؤلاء والعمل على تنقية الأجواء من سمومهم!

في هذه الفترة أكثرت وكالات الأنباء السوفييتية من اقتباس ما أكتب وعندما ألف يفجيني بريماكوف وزميله بلياييف كتابهما الشهير عن الحرب، وهو الذي حمل عنوان **انكشف سر الحمامة**، اقتبس المؤلفان السوفييتيان الكثير مما كتبته في تلك الفترة، لأنهما، كما قالا لي كلاهما شخصياً، لم يقعا في أدبيات ما بعد الحرب على ما هو أقرب منه إلى موقف دولتهما. وثابر فتوح الشريف على توزيع مقتبسات كبيرة مما أكتب، وذلك في نشرة وكالة أنباء الشرق الأوسط «أشا» المصرية التي يرأس هو مكتبها في دمشق.

وقبل أن أمضي إلى أبعد من هذا في ممارسة حرية التعبير المتاحة في ظرف استثنائي، استعادت القيادة سلطتها الكاملة. وعيّن لرئاسة الدائرة صديق لي هو عطيّة الجودة. وبقي لي وضعي السابق، الكاتب المتعاون مع الهيئة، ومعه وضعي في البعث وقدرتي على التسريب.

أما أخطر ما انهمكت فيه بعد الحرب، فكان مساهمتي في التصدي لمحاولات التغطية على المسؤولية عن الهزيمة. وفي هذا المجال، تسلحت بجرأة لا أعرف

كيف واتتني، إلا أن يكون عمق إحساسي بالفجيعة والتوق إلى تجاوزها وشدة غيظي من سذاجة إجراءات التعمية ومجافاتها للمنطق هي التي غيبت التحسبات الشخصية وزيّنت لي المخاطرة. فالقيادة التي واجهت سخطاً شاملاً تجندت في حملة منظمة لمواجهة هذا السخط. ولئن أمكن مواجهة سخط الرأي العام بالتي هي أحسن أو التي هي أسوأ، فإن التصدي لسخط أعضاء الحزب أنفسهم ظل هو الأصعب. وفي هذا المجال، نظمت القيادة حملة خاصة لامتصاص سخط البعثيين بالذات وتحويل مشاعرهم كي يساعدوها على مواجهة سخط الرأي العام. وكانت الوسيلة هي استثارة مخاوف البعثيين على نظام حكمهم بالتركيز على القول بأن إسرائيل والإمبريالية والرجعية العربية تستهدف وتحرض جمهور سورية ضده. وفي سياق هذه الحملة، جال أعضاء القيادة على منظمات الحزب المدنية والعسكرية، الواحدة تلو الأخرى، وصالوا وهدأوا الساخطين واستحثوا الهمم للدفاع عن سلطة الحزب المهددة.

هنا، قد ينبغي أن أتبسط قليلاً لتكتمل أمامك معالم الصورة. فقد كان الجميع ساخطين وإن تفاوتت درجات السخط وأمديته وتعددت بواعثه وتنوعت أوجه التعبير عنه. والواقع أن أكثر سهام السخط وجهت آنذاك ناحية المؤسسة العسكرية. فاتهمت هذه بالتهاون في الاستعداد للحرب وسوء الإدارة واستشراء سياسة إفساد الروح العسكرية مع انشغال قادة العسكر بشؤون السلطة وولعهم بامتيازاتها. وإلى جانب المؤسسة العسكرية، وجهت سهام النقد إلى أجهزة الإعلام. وقد اتهمت هذه بالديماغوجية وممارسة التضليل والكذب والانشغال بالدعاية للنظام ومنجزاته الفعلية أو المدعاة والصمت إزاء السلبيات، بدل تغذية العقول بالحقائق. وكان أقل النقد، وأنا أتحدث هنا عن النقد الذي صدر عن البعثيين، هو ذلك الذي وجه إلى السياسة العامة ذاتها. فمعظم الأعضاء لم يجد ما يأخذه على سياسة الحزب العامة ولم يستوقفه ما اتسمت به من شطط ومزايدة وتطرف.

أما أنا فوجدتني مع أقليّة الأعضاء التي فهمت أن منبع السلبيات كامن في السياسة العامة. لأن هذه السياسة رسمت للحزب والجيش والبلاد كلها أهدافاً لا تتطابق مع القدرات الواقعية، فتورط الجميع في ما هم ليسوا مستعدين له. وعندما جاء دور شعبة فلسطين لتلقي زيارة قادة الحزب، كانت لي مع هؤلاء مواجهة لا تنسى، وفيها سمع هؤلاء مني إعادة مكثفة لكل كلام سمعه مني أي قائد التقيته قبل ذلك في اجتماع خاص أو عام.

أخرت القيادة لقاءها مع المنظمة الفلسطينية قدر ما استطاعت، فقد شاءت أن تجيء إلينا بعد الفراغ من تطويع المنظمات الأخرى. وربما كان في البال ما ترسب فيه عن شغب الشعبة القديم وجرأة أعضائها وكفاءاتهم، أو صار في البال الاهتمام بصفة هذه الشعبة بما هي فلسطينية بعد أن قفزت فلسطين كلها بسبب الحرب إلى مركز الاهتمام. وأيا كان الأمر، فقد جاء إلينا صلاح جديد بنفسه ومعه عدد وفير من أعضاء القيادتين القومية والقطرية. وقد تكلم هؤلاء وبثّوا ما شاؤوا بثه، وتلاهم متكلمون كثيرون من أعضاء الشعبة فأفضوا بما شاءوا الإفضاء به، فيما بقي صلاح جديد صامتاً.

كان القائد الأكثر نفوذا بين جميع القادة يراقب الحاضرين، ويتحرى مدارات الكلام، ويسجل ردود الفعل، ويخزن الإنطباعات، ولا يفصح عن نفسه بما يزيد عن الابتسام أو التجهم غامضي الدلالة في أغلب الحالات. ورحت أنا أتابع وقائع اللقاء دون أن أغفل الانتباه إلى هذا الرجل الذي أعدّه الأكثر مسؤولية بين الحاضرين. ولما شرعت في الكلام، وقد تعمدت ألا أكون بين أوائل المتكلمين، بدأت بالعبارة التالية: «جاءت الأحداث أيها الرفاق لتثبت صحة وجهة نظر الحزب، هذا هو ما تكرره قيادة الحزب صبح مساء. أما النتائج فتتمثل في الكارثة التي نراها رؤية العين، فأين، إذاً، الخلل؟!» لم أكن قد أعددت هذه العبارة من قبل، وعندما سمعتني أقولها في مطلع حديثي أعجبتني، وزاد إعجابي بها بعد أن عاينت تأثيرها على المستمعين، فجعلتها لازمة كلام أكررها ورحت «أقسّم» عليها كما يقسم العازف على النغمة الرئيسة. ومع تنويع التقسيمات،

رحت أنوّع نبرة السخرية. وبأسلوب من يعتزم الإجابة على السؤال الذي تتضمنه العبارة، رحت أفند ما بثته القيادة في تسويغها لما وقع، نقطة نقطة، وأبثّ انتقاداتي التي صرت تعرفها. وفي المحصلة، أظهرت أن المسؤولية عن الكارثة تقع بكاملها على عاتق القادة الذين يتقاسمون مسؤوليات الحزب والدولة. وتشبثت بالقول إن الخلل قائم في السياسة العامة، وما كتائب الجيش أو ناس الإعلام أو أي من الذين على شاكلتهم إلا منفذي هذه السياسة. وبلورت يومها الفكرة التي كررتها بعد ذلك في غير مقال، فذكرت أن أكفأ مؤسسات أي دولة هي المؤسسات التي تنفذ سياسة الدولة بإحكام، وأن أنجح إعلام في أي زمان هو الإعلام الذي يعكس السياسة المرسومة له. ثم تساءلت: لنفرض أن لدينا أكفأ جيش وأقدر مؤسسات وأذكى إعلام وأننا جندنا هذه كله لخدمة سياسة خاطئة، فهل يمكن أن تتحقق نتائج صحيحة؟

بكلمات أخرى: تحدثت بما قلب صورة النقد الرائجة، ولامست الأوتار الحساسة، واجتذبت الانتباه إلى الذين أعدّهم المسؤولين عن المسؤولين، فعلت هذا بعبارات صريحة ولاذعة. وقد استغرق حديثي ساعة كاملة أظهرت خلالها خطأ الأسس التي تقوم عليها السياسة العامة، ومخاطر المزايدة وتغليب حضور الجمل الثورية على حضور الفعل الثوري، والاعتياد على التصرف بالنيابة عن الجمهور والإدلال بأن هذا يجري لمصلحته، وما إلى ذلك. ثم انتقلت إلى الوجه الآخر، فذكرت أن القيادة تجيز توجيه النقد إلى غيرها، بل قد تمارسه هي كما فعل وزير الإعلام عضو القيادة صديقي محمد الزعبي حين ألمح في مؤتمر صحافي عام إلى قصور قيادة الجيش، ولكنها لا تنتقد ذاتها. وقلت إن القيادة لا تتجنب انتقاد ذاتها لنوازع شخصية كما قد يتبادر إلى الذهن، بل لأن الإقرار بخطأ السياسة يوجب تبني سياسة أخرى مختلفة، وهذا هو بالذات ما تأباه القيادة الماثلة أمامنا. فلو أقرت القيادة بأن مصادرة الحريات العامة خطأ لتوجب أن تبيح هذه الحريات؛ ولو أقرت بأن الاستهانة بالتضامن العربي خطأ لتوجب أن تدعم جهود عبد الناصر لاستئناف عقد

القمم العربية بدل محاربتها؛ ولو أقرت بأن الانفراد بالسلطة فيما البلاد بحاجة إلى جهود كل مواطن، لتوجب أن تنشأ جبهة وطنية على الفور؛ ولو أقرت بأن شعار إزالة إسرائيل شعار مزايد يوقع في سياسة لا نفع فيها، لوجب أن تؤيد سورية الدعوة السوفييتية إلى إزالة آثار عدوان حزيران/يونيو وتدعم السعي المصري لتكتيل القوى من أجل تحقيق هذا الهدف؛ ولو...؛ ولو...؛ وأكملت تعداد كل ما أراه من أخطاء وما أرى أنه البدائل السليمة.

أصغى صلاح جديد بانتباه تام، وتعمد أن يهزّ رأسه الهزّة التي تنمّ عن الانتباه ويبتسم ابتسامة المتفهم كلما تطرقت إلى نقطة حساسة. وأصغى القادة الآخرون الذين سبق أن سمعوني وألفوا أسلوبي في النقد، بالطريقة ذاتها، إلا واحداً أخرجه حديثي عن طوره. وكان هذا هو كامل حسين عضو القيادة القومية المقرّب جداً من صلاح جديد والذي يسمعني لأول مرة. انتفض رقيق الجسد والأحاسيس مغتاظاً وقاطعني صارخاً: «يبدو أن الرفيق المتكلم لا يعرف المنجزات التي حققتها ثورة الحزب لهذا القطر، وهو...»، فقاطعته، أنا الذي كنت قد فرغت مما اعتزمت قوله، وحملت نبرة صوتي أكثر ما يمكن أن تحمله من سخرية: «أعرفها يا رفيق، أحفظها عن ظهر قلب، لأن توجيهاتكم تطالب الإعلاميين كل يوم بالكتابة عنها، وأنا أقرأ التوجيهات». ثم رحت أعد مستخدما أصابعي: «مشروع سد الفرات الذي يتولى الاتحاد السوفييتي تنفيذ العبء الأكبر منه ونقصر نحن في تنفيذ البقية؛ مشروع السكك الحديدية الذي تنفذه الدول الاشتراكية ويشرف عليه الوزير الشيوعي الوحيد في الحكومة ولا يواجه من المشاكل إلا تلك التي يخلقها المتنافسون على العمولات والذين يحميهم رفاقنا؛ معمل السماد الأزوتي الذي يذهب معظم إنتاجه إلى أغنياء الفلاحين فيما نتحدث نحن عن حرصنا على مصالح الكادحين؛ معمل تجفيف البصل وقد أدى وجوده في غياب سياسة اقتصادية صحيحة إلى جعل سعر البصل فوق متناول المستهلك الفقير دون أن يزيد ربح منتجيه؛ ومشروع بناء مقر جديد للقيادة القطرية أخشى أن تصير القيادة فيه أكثر عزلة».

وفيما أنا أعد وأسخر، مال عضو القيادة القطرية مروان حبش الذي يعرفني جيداً ناحية كامل حسين وهمس في أذنه بشيء، فبقي هذا صامتاً وهو متجهم. ثم طلب صلاح جديد الذي لا يفوته التزام نظام الجلسات الإذن بالكلام، ثم التفت إلى زميله المتجهم وقال: «يبدو أنك لا تعرف رفيقنا فيصل، إنه من أكفأ رفاقنا وأنشطهم، وإذا كان يشتد علينا في النقد فهو شديد على نفسه في تنفيذ أي مهام يوكلها الحزب إليه، وقد اعتدنا أن نستمع إليه باحترام ونستفيد من ملاحظاته». وما أظن أن أفطن القادة كان سيجد وسيلة أنجح من هذه الوسيلة لامتصاص ما أحدثه كلامي من تأثير. كان أبو أسامة والحق يقال جمّ الأدب بمقدار ما هو جمّ الفطنة. ولما لم يكن قد بقي عندي ما أضيفه، فقد ختمت حديثي بتوجيه شكر لا بدّ منه للقائد الذي أطراني.

بعد هذه المواجهة، هدأ توتري. وعندما دعاني صلاح جديد لتناول العشاء مع كامل حسين، استجبت راضياً. قال أبو أسامة إنه يريد ان يزيد زميله معرفة بي، ولا بد من أنه توخى أيضاً أن يطيّب خاطري. وكانت تلك على كل حال هي إحدى وسائل القادة لامتصاص السخط. فاللقم، كما قالت العرب، تدفع النقم.

نبيه ارشيدات الذي استمع بأناة إلى عرضي لوقائع اللقاء، قال وفي نفسه مرارة وعلى وجهه تعابير حيرة: «بمواقف كهذه المواقف، لن يطول بقاؤك في حزب البعث». ولأني شممت رائحة الامتعاض من سلوكي، فقد هممت بأن أحتج، غير أن الصديق المحب سبقني: «مفهوم، أنت عاجز عن أن تكون أقل صدقاً مع نفسك، وما أكثر ما سترى وتتعب!» استحضر نبيه دون شك ما عاناه هو منذ الأربعينات، هو الذي لم يستطع أبداً إلا أن يظل صادقاً مع نفسه.

محاولة النقد الأوسع داخل الحزب قام بها في واقع الأمر غيري واقتصرت مساهمتي فيها على دور المعاون. فالجولات الحزبية توجت بالدعوة إلى عقد اجتماع استثنائي لمؤتمر الحزب القطري كي يناقش ما وقع. وكان عبد الله وحسين العودات وآخرون من الحريصين على الجهر بالانتقاد أعضاء في المؤتمر

أما أنا فلم أكن كما صرت تعرف عضواً في أي هيئة حزبية قيادية. وقد هيأ هؤلاء أنفسهم لمناقشة جادة لمسألة الحرب ونتائجها واعتزموا أن يثيروا الحساس وغير الحساس من نقاطها. ولأن عزم هؤلاء على المجابهة شاع، فقد اتصل بهم حزبيون ساخطون كثيرون، عسكريون ومدنيون، وعرضوا المساعدة. وبهذا، توفر للعازمين على المجابهة فيض من المعلومات عن أحوال مؤسسات الدولة العسكرية والمدنية، عن مظاهر الخلل والفساد وغياب التقدير الصحيح لحاجات الجمهور. وكان أخطر هذه المعلومات هو ما تناول شؤون الجيش: الامتيازات الوفيرة التي يتمتع بها الضباط المتنفذون والتغافل عن القيام بالواجبات. ومن هذه المعلومات ما كان يعدّ في قيادة الجيش من الأسرار التي لا يعرفها سوى عدد محدود في قيادته، وفيها ما لم تكن طبيعته توجب تصنيفه بين الأسرار لولا حرص القيادة على كتمانه حتى لا تنكشف مظاهر الخلل. أضرب لك أمثلة: عدد ساعات التدريب المقررة نظرياً وعدد الساعات التي يجري التدريب فيها فعلاً والفارق بين العددين، والمقارنة بين هذا وذاك وما يماثلهما لدى جيش إسرائيل، وتوزيع بنود ميزانية وزارة الدفاع والأموال المرصودة لكل بند، وما يوضع من الأموال في تصرف ضباط الأمن. وها أنا ذا أتذكر أن المبلغ المحدد لبند علاج الضباط في الخارج وحده، وهو ما كان يصرف واقعياً على رحلات ليس غرضها العلاج بالضرورة، فاق ما هو مخصص للشؤون الصحية لمواطني محافظة دمشق كافة. كما أتذكر أن الملازم الأول المسؤول عن وحدة ما في المخابرات كان بمقدوره أن ينفق في الشهر مبلغاً يصل إلى ثلاثة آلاف ليرة دون تقديم فواتير، وهو مبلغ يعادل الرواتب الشهرية لدزينة من معلمي المدارس إن كان للواحد منهم زوجة وخمسة أولاد.

بمعلومات وفيرة وأرواح وثّابة، توجه فرسان النخبة الشجاعة إلى المؤتمر. ابتلع أعضاء المؤتمر المفاجأة الأولى حين أظهرت الدعوة التي تلقوها، أن جلسات مؤتمرهم ستنعقد في ثكنات اللواء المدرع السبعين، على بعد خمسة وعشرين أو ثلاثين كيلو متراً عن دمشق. أما المفاجأة الثانية فعرفها الأعضاء بعد وصولهم

إلى الثكنات، عندما أبلغ إليهم أنهم ممنوعون من مغادرة مكان الجلسات إلى أن يفرغ المؤتمر من أعماله كلها. ثم جاءت مفاجأة أخرى عرفها الأعضاء فور افتتاح المؤتمر، بل عنقود مفاجآت. فقد افتتح المؤتمر جلسته العامة بكلمة مقتضبة، ترحيبية، ألقاها الدكتور نور الدين الأتاسي بوصفه الأمين العام للحزب، ثم أعلن أن الأعضاء سيوزعون فوراً على لجان المؤتمر العديدة، دون جلسة عامة وبالتالي دون مناقشات يسمعها أو ينهمك فيها الجميع. كما أعلن أن اللجان ستعقد جلساتها في أماكن متباعدة في منطقة الثكنات الفسيحة، مما يعني تعذر الاتصال بين عضوين في لجنتين مختلفتين ويشي بالتدبير الذي أعد لحرمان الأعضاء المتجانسين من التنسيق بعضهم مع بعض.

لا أظن أنك بحاجة إلى من يشرح الهدف وراء هذه المفاجآت. وقد استخلص فرسان المواجهة على الفور أن هذا الترتيب سيحرمهم من بلورة كتلة كبيرة ناقدة وقادرة على التأثير في السياسة العامة كما توخوا. وتشاور هؤلاء على عجل، فقرّ قرارهم على التوجه إلى اللجنة العسكرية، حيث يفترض أن تدور أسخن المداولات.

وما كاد اجتماع اللجنة التي ترأسها اللواء أحمد سويداني رئيس الأركان العامة يبدأ حتى طلب عبد الله الكلام. تميز عبد الله بأنه أفصح أصحابه لغة وأقدرهم على الارتجال دون أن يكون أقل جرأة من أي منهم، فجعلوه أول من يتحدث بأمل أن يشق لهم الطريق. لكن، لم يكد عبد الله يشرع في أول انتقاداته ويدعمه بما في حوزته من معلومات، حتى قاطعه اللواء سويداني بغضب، وأعلن أن المتحدث يورد معلومات سرية لا يجوز له الإطلاع عليها أصلاً ولا البوح بها. وإزاء رد عبد الله بأن لا أسرار على أعضاء لجنة للشؤون العسكرية في الهيئة الحزبية الأعلى في القطر، قال سويداني بنبرة متهمة: «إن هذه المعلومات لا يعرفها إلا الجواسيس»، وقطع سياق الجلسة موقفاً عبد الله عن إتمام كلامه. وأصر سويداني على التحقيق مع كاشف الأسرار العسكرية حول المصادر التي استقى منها هذه الأسرار. وهكذا،

ضاعت فرصة النقد، ونشأت مشكلة حول الحاجة إلى تشكيل لجنة تحقيق مع عبد الله من عدمها، وانقسم أعضاء اللجنة العسكرية على رأيين. وانصب جهد أصحاب عبد الله على تخليصه من تلبس تهمة خطيرة.

وبطريقة ما، أبلغ الأمر إلى الدكتور نور الدين الأتاسي، فجاء رئيس الدولة الأمين العام للحزب إلى المكان، وجاء معه الحل الوسط: يتخلى عبد الله عن حقه في الكلام، ويتخلى اللواء سويداني عن المطالبة بالتحقيق، ويبوح عبد الله للدكتور نور الدين وحده بمصدر معلوماته، فيعود للدكتور الحق في تقدير طبيعة المصدر وما إذا كان من الضروري إبلاغ اسمه إلى رئيس الأركان أو طيّ الموضوع. وبهذا، أنقذ رأس عبد الله ورؤوس أصحابه والذين أمدّوهم بالمعلومات. أما المحاولة الجريئة للنقد والمراجعة فقد أجهضتْ. وفي حدود علمي، أنا الذي لم يكن قليل الإطلاع، لم تجر في الحزب أي دراسة نقدية أو مراجعة. ولم أعرف أن أيا من مؤسسات الدولة قد قامت بما يعتدّ به في هذا المجال.

على صعيد آخر، في مواجهة الحملة التي استهدفت الأداء الإعلامي، قررت القيادة تشكيل مجلس أعلى للإعلام وأولته مسؤولية إعداد الخطط التي يسترشد بها الإعلاميون وتزويد المؤسسات الإعلامية بالمعلومات والدراسات اللازمة لعملها. وتشكل المجلس برئاسة محمد الزعبي الذي مازال وزيراً للإعلام وضم أكثر من خمسين من القادة المدنيين والعسكريين والإعلاميين، وصرت أنا عضواً فيه. هنا، جرت محاولة أخرى للنقد والإصلاح انهمكت أنا فيها بجانب الذين يأخذون الأمور بجدية ويتوقون إلى تغيير الحال. غير أن هذه المحاولة أجهضت هي الأخرى. ذلك أن ذهنية المزايدة والاستخفاف بالواقع والأداء المظهري للواجبات هي التي هيمنت على عمل المجلس. ولعلي بحاجة إلى إيراد مثال ليتضح لك كيف جرت الأمور. فقد شكلنا في المجلس لجنة للدراسات. وأعدّت اللجنة قائمة بمائة وخمسين موضوعاً رأت أن يشرف المجلس على إعداد دراسات وافية بشأنها كي توزع على المؤسسات الإعلامية. وعندما جئنا بالقائمة إلى اجتماع الهيئة العامة للمجلس تصدر العقيد مصطفى

طلاس الراغبين في إنجاز المهمة، وتطوع هو نفسه بإعداد عشرة من الدراسات دفعة واحدة، واختار من الموضوعات ما يعجز حتى عبقري عن الإلمام بها جميعها. ولم يجرؤ غيري على التشكيك بقدرة العقيد على إنجاز المهمة. حتى أنا، وقد جرؤت على قول شيء ما، لم أذهب بعيداً، بل اكتفيت بالقول إن الوقت لا يتيح لزميلنا أن ينجز عشر دراسات، ولم أزد على ذلك. لكن العقيد جابهني بابتسامة مستخفة، وقال إن من حقي أن أتحدث عن قدراتي وليس عن قدرات الآخرين، وإذا كنت عاجزاً عن التلاؤم مع إيقاع العمل الذي توجبه الظروف المستجدة فإنه، هو العقيد، ليس عاجزاً مثلي. بعد ذلك، لم ينجز العقيد أي دراسة، وجاراه آخرون في القصور دون محاسبة من أيما أحد. وفي المحصلة، أنجزت دراسات قليلة كتبت أنا واحدة منها، وكانت حول رد الفعل العربي ورد الفعل الدولي على عدوان حزيران/يونيو. هذه الدراسة نشرها مكتب الإعداد الحزبي بعد أن تلاشى وجود المجلس الأعلى للإعلام. وقد كتبتها حين لم أكن متمرساً بكتابة الدراسات. ولذا، أظن أن مستوى الدراسة جاء متواضعاً، إلا أن أسلوب تناولي للموضوع اختلف عن السائد، ومن المؤكد عليه أنه لم يجار القول بـ «جاءت الأحداث لتثبت صحة وجهة نظر الحزب».

بعد مشكلته في المؤتمر القطري، وبعد عجزنا جميعاً عن إنجاز شيء مهم في مجلس الإعلام، وبتأثير إحساسه بالمسؤولية إزاء كارثة حزيران/يونيو، استقال عبد الله الحوراني من منصب المدير العام للهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، واختار لنفسه بنفسه أن يشرف على مكتبة الهيئة، أي أنه اختار مكاناً هادئاً لا يمارس فيه سلطة. دأب عبد الله منذ انجلت الحرب عن الكارثة على الدعوة إلى محاسبة المسؤولين عنها، وكان يقول ساخراً إن المسؤول الإعلامي يستحق الشنق مرّة والعسكري مرتين أما المسؤول السياسي فإنه يستحق الشنق ثلاث مرات. شخص آخر من أجوائنا كان يدعو إلى المحاسبة هو وزير الإعلام محمد الزعبي، وقد انتهى أمره بأن استقال أو امتنع عن استلام المنصب في الحكومة الجديدة. وكان الزعبي يردد أن الحرب كشفت جهل المسؤولين فعلى هؤلاء أن

يعودوا إلى الدراسة من جديد. والواقع أن الزعبي اتبع ما نصح به فالتحق عند أول فرصة متاحة بجامعة في ألمانيا الديمقراطية ودرس الفلسفة.

عندما استقال عبد الله، كان هو الوحيد الذي استقال إقراراً منه بالمسؤولية عن الكارثة، فأحرجت خطوته هذه كثيرين، خصوصاً المسؤولين الكبار، وحاول كثير من هؤلاء ثنيه عن الاستقالة. وفي اليوم الذي غادر فيه عبد الله مكتبه دون نيّة العودة إليه، وجدَ في وداعه العاملين في المبنى الكبير كلهم. وقد احتشد جمع هؤلاء في مظاهرة رافقت المستقيل إلى البوابة الخارجية، وشاء المودعون أن يندفعوا إلى الشارع لولا أن المستقيل قبل العودة معهم إلى المبنى. يقينا أن عبد الله كان محبوباً من معظم مرؤوسيه، لكن كثيرين منهم لم يرتاحوا لإدارته وإجراءاته الصارمة. أما الاحترام الكامل والمحبّة الشاملة فقد حظي عبد الله بهما بسبب إقراره بالفشل. إن الناس يقدرون الإنسان الذي يقرّ بالمسؤولية.

في الجيش، كانت الحملة شديدة على عبد الله، وعليّ، وعلى كلّ من جهر بالنقد. قيل للضباط البعثيين إن عبد الله وأصحابه يهاجمون العسكر، هكذا بالإطلاق، وينفسون عليهم امتيازاتهم. ولم يتح لعبد الله أو لأي منا فرصة الدفاع عن النفس. ويوم استقال عبد الله، فرح كارهوه العسكريون فرحاً أشك في أنهم كانوا سيتمتعون بمثله لو أنهم هم الذين انتصروا في الحرب. وهاأنذا أتذكر مشهد تدفق الضباط البعثيين على مبنى الإذاعة والتلفزيون لتهنئة المدير العام الجديد. حلّ صديقي وخليفتي في دائرة التوجيه السياسي محل عبد الله في منصب المدير العام. وعنى هذا لمن يعرف عطيّة الجودة أن خطّ الإذاعة والتلفزيون لن يتبدل. فقد كان عطية من يساريي البعث، ولعلّه كان أرسخ منّا في هذا المضمار. وفي اليوم الأول، بل في الساعة الأولى من تسلم عطية مكتب المدير العام من عبد الله، وقبل أن يتخذ أي إجراء جديد أو يصدر أي قرار، دخلت المكتب للتشاور حول التعليق السياسي الذي كان علي أن أكتبه. وقد فوجئت باكتظاظ الحجرة بالضباط المهنئين. وإلى هؤلاء قدمني عطية بصفة معلقنا

السياسي وذكر اسمي الأول وأغفل اسم العائلة فلم يعرفوا من أنا ولم يفطنوا إلى الصلة بيني وبين عبد الله. وشاء عطية الذي طالما تواطأت وإياه على أمور كثيرة أن يريني ما يسميه هو في العادة «خفّة عقل العسكر»، فوجه إلي الغمزة التي تحثني على الانتباه ثم توجه نحو الضباط وسألهم: «ما الذي يقولونه الآن في الجيش عن الإذاعة؟» فجاء الرد الفوري من أعلى الضباط رتبة: «يقولون إنها صارت الآن، فقط، إذاعة تسمع»، وأمّن الآخرون.

لم تتبدل صلتي بالهيئة بعد تخلي عبد الله عن منصبه. والواقع أن مساهماتي الكتابية راحت تزداد منذ مجيء عطية. فقد كان بإمكان عطيّة أن يعرض عليّ أي مهمة دون أن يحس بالحرج الذي يتعرض له عبد الله حين يخصّني أنا قريبه بالمهام. والتفاهم الذي نشأ بيني وبين عطية وتطور صار أعمق حتى من تفاهمي مع عبد الله. وإذا كنت في السابق المعلق السياسي الأول فقد كدت بوجود عطية أن أصير الوحيد. وقد دأب عطية على استشارتي في كل ما يستجد، وكان يحيل إليّ النصوص السياسية أو الدينية أو حتى الدرامية بعد أن يجيزها مرؤوسوه لأعيد تقييم صلاحيتها قبل أن يأذن هو ببثّها. وفي سلوكه السياسي، كان عطيّة من الصنف الذي أرتاح أنا إلى التعاون معه. فهو تقدمّي دون تبجح، وهو من الذين يزنون الأمور بميزان الواقع ويتحملون الغلاظات والاستفزازات مقابل إنجاز شيء يجدونه مفيداً. كان عطية يأخذ توجيهات قيادة الحزب بعين الاعتبار الشديد، ولكنه لا يرهن سلوكه بها وحدها. وبتماثلنا في هذا الشأن، نشأت بيني وبين عطيّة لغة تفاهم خاصة. فصار يكفي أن نتبادل إشارة بعينها أو عبارة لا يبدو أن لها معنى خاصاً حتى يتم التفاهم على أهم الأمور خذ مثلاً حكاية التشاور حول التعليق السياسي. كان الأمر يقتضي أن أترك أعمالي الأخرى وأجيء إلى المبنى لألتقي المدير العام. وظل هذا في حدود المحتمل عندما كنت أكتب تعليقين أو ثلاثة في الأسبوع. أما بعد أن صارت المهمة شبه يومية، فقد ثقل عليّ دوام الذهاب والرواح كل يوم. فصرنا، عطية وأنا نتشاور عبر الهاتف. ولأننا غالبا ما احتجنا إلى

التواطؤ حول أسلوب الالتفاف على توجيهات القيادة وموازنة التعليق بينها وبين قناعاتنا، ولأن خطوط الهواتف مراقبة، فقد نشأت بمضي الوقت المصطلحات الموجزة التي لا يفهم دلالتها سوانا. إن قال عطية مثلاً: «اللي عليك عليك»، أي أن ما يترتب عليك فعله لا بدّ من أن تفعله، فهذا يعني أن بإمكاني المضيّ إلى أبعد الحدود في عرض رأيي المستقل، وإن قال: «قوميتي، عروبتي، إيماني» فهذا يعني أن بإمكاني الاتكاء على المفاهيم الماركسية للتحليل السياسي، وسيعمل هو على ستر ذلك بإذاعة الأغنية التي لها هذا المطلع، بعد إذاعة التعليق. أما إن قال عطية «مش راكبة»، فمعناها أن فرصة التفلت من صرامة التوجيهات الحزبية غير متوفرة.

لقد تطورت صداقتنا كثيراً وأثمرت تعاوناً كان في أغلب الحالات مفيداً. حتى أن حجم مساهماتي في برامج الإذاعة والتلفزيون فاق حجم عملي في جريدة البعث حيث المفروض أن فيها عملي الأصلي. وقد ظلت علاقتي في الجريدة مضطربة مع رئيس التحرير. ظل الدكتور ناجي بحاجة إليّ لأني أؤدي مهام كثيرة دون تذمر، لكنه ظلّ أيضاً على ضيقه بي، وإن كان عاجزاً عن إيذائي. وبقينا مختلفين حول أمور كثيرة، حتى ليكاد يصح القول أننا اختلفنا حول كل شيء. كنت لا أخفي ضيقي بجهل رئيس التحرير بالعمل الصحافي وافتقاره إلى القدرة على اكتساب الخبرة. وكان هو يظهر لي وداً بالغ التحفظ ويشجع كل من يتوخى الإساءة إليّ. وهاأنذا أتذكر مرة قدمت فيها إلى اجتماع العاملين في التحرير متأخراً فيما شرع أحد هؤلاء في التحدث ضدي. وعندما شاء الخائف من حضوري أن يبدل مجرى حديثه، تشبث ناجي بالموضوع وحث المتحدث على الاستمرار فتلجلج المسكين لأنه يعرف أن التهم التي عرضها ليست صحيحة. ولم يجد متهمي ما يضيفه سوى تهمة كانت رائجة بشأني، وهي أني أؤثر التعاون مع الكتاب الماركسيين وأنشر مقالاتهم في صفحة الرأي التي أحررها وأستخفّ بالقوميين. واستشهد المتورط باتهامي بما فعلته بمقالاته، هو البعثي صحيح النسب، وقال إني رفضت نشر ما قدمه

لي. كان هذا شاباً طريّ العود وليس من الوزن الذي أخاصمه، وكان بإمكاني أن أتعفف عن رد الأذى، لو لم يوقف ناجي مجرى الاجتماع مصراً على أن التهمة خطيرة: «دافع عن نفسك يا رفيق!» وهكذا تكلمت ببرود، وقلت إن الأمر لم يبلغ حدّ تفحص محتوى مقالات متهمي ومعرفة ما إذا كان ماركسياً أو قومياً أو غير ذلك، فالمقالات لم تنشر لسبب أبسط من هذا، فهي مليئة بأخطاء الإملاء والنحو والصرف والصياغة، وما إلى ذلك مما له صلة بسلامة اللغة. وأحضرت المقالات وجعلت المجتمعين يرون الخطوط الحمراء التي أضعها في العادة تحت الأخطاء التي من هذا القبيل. أما متهمي فقد غادر الاجتماع مخزياً. وأما رئيس التحرير فقد اغتاظ إذ أسقط في يده، وظل بعد ذلك مواظباً على البحث عن فرصة أخرى.

في هذه الفترة، توثقت علاقتي بالصحافي المصري فتوح الشريف. ينحدر فتوح من أسرة مصرية فقيرة تعيش في قرية قريبة من القاهرة. ولأنه حصل على درجة عالية في امتحانات الشهادة الثانوية، تمتع فتوح بمنحة حكومية ودرس اللغة الإنجليزية، ثم وجد طريقه بعد التخرج إلى وكالة أنباء الشرق الأوسط، وانتهى بأن صار رئيساً لمكتبها الإقليمي الذي مقرّه دمشق. كان فتوح من جيلي، وكان يرأس فريقاً من العاملين صغيراً لكنه فعال. فلم يكن لدى رئيس المكتب ما يشغله سوى التجول هنا وهناك وتسقط الأنباء. وقد أدرك فتوح أني مصدر أنباء دقيق لا يكذب، وعلى هذا، نشأت علاقتنا. ثم لم يطل الوقت حتى صرنا صديقين لا يمر يوم دون أن نلتقي أو نتهاتف. وعبر فتوح، تسنى لي أن أعرف كلّ صحافي مصري يزور سورية، كما تسنى لي أن أعرف ما يعرفه من أنباء فأزيد حصيلتي منها والواقع أننا شكلنا، فتوح وأنا، ثنائياً صحافياً صارت له شهرة الثنائي الذي لا يفوته نبأ ولا يستغلق عليه معرفة أيّ سر. ولئن كنا في هذا المجال متفوقين حقاً مما يسوغ الشهرة، فإن الشهرة ذاتها صارت سبباً يبيح لنا الظفر بمزيد من الأنباء والأسرار. فأكثر الناس فضولاً هم الذين يعرفون الكثير. وبانجذاب هؤلاء إلينا بسبب شهرتنا،

كان يتسنى لنا أن نطلع على ما لديهم. وهذا هو ما انتهى إليه أمرنا: فيصل وفتوح يعرفان كل شيء فاقصدوهما! تتواصى الأوساط السياسية بهذا، فتنصبّ الأسرار كلها في جعبتنا، وتتعزز بها مكانتي بين الإعلاميين.

وهكذا توزعت أوقاتي في تلك الفترة، النهار كلّه وأول المساء للعمل المتنوع ودوّاماته والعلاقات وأمديتها المتنوعة، وآخر المساء للشلة التي اكتملت نواتها الدائمة؛ نبيه ومنير وسعيد مراد وسعيد حورانية وحنا مينه وأنا. يحققنني العمل غالبا بما يثقل على الروح فأتخفف منه في لقاء الشلة المتجانسة وأغذّي روحي بما يعينها على الاحتمال.

وهكذا، صرت ألتقي رفاقي البعثيين في أوقات العمل وما أن أفرغ منه حتى تضمني مجالس الشيوعيين.



٢٠ عبد ممدوح عدوان الأمة مهزومة فطلبت منه أن يستثنيني

بعد حرب حزيران/يونيو، تأسست علاقتي بمن كان آنذاك صحافياً وهو سعيد حمامي. قدم مجايلي الفلسطيني هذا من عمانٍ إلى دمشق ليدرس اللغة الإنجليزية في جامعتها، وبرز سعيد في الأوساط الطالبية بوصفه من أنصار عبد الله الريماوي الناصريين الذين انشقوا عن حزب البعث أيام وحدة سورية ومصر. وعندما انتعشت دعوات اليسار في سورية، برز سعيد بوصفه يسارياً متطرفاً من الداعين إلى البؤر الثورية على طريقة تشي جيفارا واشتطّ في زيّه اليساري المستجد. ثم عندما استأثر يسار البعث بالسلطة بعد حركة شباط/فبراير ١٩٦٦، برز سعيد في الوسط اليساري المتطرف الذي يتزعمه رئيس الاتحاد العام للعمال خالد الجندي، ولم يلبث أن صار معاون خالد الأول في إصدار أسبوعية **صوت العمال الاشتراكي** الناطقة باسم الاتحاد والتي كنت أسهم في الكتابة لها. وتعاون سعيد مع العقيد عبد الكريم الجندي، أيضاً، واستثمر علاقاته بيساريين من طينته وأنشأ هؤلاء بدعم من العقيد مجموعة يسارية أردنية. توخى سعيد وأصحابه إنشاء بؤرة ثورية في الأردن تسندها إمكانيات العقيد، وتوخى العقيد إزعاج الأردن رداً على احتضانه للبعثي المنشق سليم حاطوم. وفي مقابل نشاط سليم التخريبي ضد النظام الذي انشق عنه في دمشق، نفذت البؤرة بضع عمليات تفجير في الأردن،

حتى لا يكون أحد أقصر باعاً من أحد. وجارى سعيد العقيد عبد الكريم في شعبويته كما جارى ابن عمه خالد في سلوكه، في الإدلال بترويج الشعارات اليسارية الكبيرة والتمتع بأمتع ما تتيحه الحياة في ظل السلطة النافذة. فكان من الطبيعي، إذاً، أن لا أحبّ سعيد ولا أجد ما يجذبني إلى صحبته.

حرب حزيران/يونيو ونتائجها الكارثية أثرت على شخصية سعيد تأثيراً كبيراً فغيرت حاله من يساري متطرف شديد التطرف، إلى يساري متعقل مفرط في التعقل. وقد بدأت صلتي به تتوثق حين تعرض إلى مشكلة فدعوت إلى التضامن معه، ثم حين تكرر تعرضه للمشاكل فثابرت على التضامن.

فإلى جانب عمله في مجلة العمال، كتب سعيد بعد الحرب سلسلة مقالات في جريدة الثورة اليومية التي تصدرها وزارة الإعلام. وفي واحد من مقالاته، تورط سعيد بمهاجمة المحكمة الشرعية في دمشق ووصف قراراتها بأنها رجعية. ولم يكن اليساري المتحمس يعلم أن القانون يحظر التعرض للقضاء بأي سوء ويعد التجريح به جريمة شائنة لا يلغي التقادم عقوبتها ولا يطالها العفو. وصار مصير سعيد معلقاً بما قد يقدم عليه قاضي دمشق الشرعي الممتاز الشيخ عبد الرؤوف الأسطواني. فلو شاء الشيخ أن يقاضي سعيد لما نجا هذا من السجن.

وقتها، تصدرت أنا جماعة الصحافيين التي تضامنت مع سعيد بدعوى الدفاع عن حريّة التعبير. وفي سياق حملتنا لحماية سعيد من عقوبة لعينة، ضغطنا على العقيد عبد الكريم الذي أبى أن يستخدم نفوذه للتأثير على القاضي الشرعي الممتاز ولو لحماية صاحبه، فحملناه نحن على التدخل. ومن حسن حظ سعيد أن العقيد تصرف إزاء هذه المسألة الحساسة بحكمة. وبدل اللجوء إلى الضغط الذي يستفزّ القضاء بأسره، اتبع العقيد أسلوباً علانياً ومهذباً، فصحب العقيد سعيد في زيارة إلى مكتب الشيخ وقدمه للقاضي الممتاز بما هو مذنب يقرّ بذنبه ويطلب الصفح. وبهذا الأسلوب، مقروناً بالطبع بما يعرف الشيخ عن سطوة

العقيد المسؤول عن أجهزة الأمن في البلد، أمكن أن ينجو سعيد من السجن.

غير أن الشاب المشاكس، الذي كانه الفلسطيني الذي لا يستقر على حال، لم يلبث أن وقع في مشكلة جديدة. وكانت المشكلة هذه المرة مع المخابرات العسكرية في وزارة الدفاع التي وهنت سلطة العقيد الجندي عليها. فقد نشر سعيد مقالاً ضمنه مقارنة بين القدرات العسكرية الإسرائيلية وقدرات الدول العربية التي خاضت الحرب. فاشتمل المقال على معلومات وجدتها مخابرات الجيش صحيحة، فاستدعي كاتب المقال إلى التحقيق للشك في أنه قد يكون جاسوساً أو على صلة بالذين يتجسسون. كان الذين استدعوا سعيد يجهلون وجود مركز الدراسات الاستراتيجية في لندن وما يصدر عنه من معلومات. وقد اتخذنا نحن من هذه الواقعة مدخلاً للاحتجاج على تدخل أجهزة الأمن في عمل الصحافيين. وأوردت أنا الواقعة في اجتماع لمجلس الإعلام الأعلى بحضور العقيد مصطفى طلاس الذي يصعب أن ينكر أنه يعرف مركز دراسات لندن. فنجا سعيد وتأسست صداقتنا المتينة.

الصلة الهامة التي تعززت بعد الحرب، كانت صلتي الخاصة بخالد بكداش. فبين البعثيين الفلسطينيين، كنت الوحيد الذي جهر بالصوت العالي بأن الشيوعيين على حق حين يدعون إلى نبذ المزايدات في الموقف إزاء إسرائيل ويضعون مطلب إزالة آثار العدوان والعمل من أجل تسوية سياسية على رأس جدول الأعمال. ومع شهرتي في هذا المجال، ازداد اهتمام خالد بكداش بي. فصار الرجل الكبير يستدعيني كلما استجد أمر لديه ما يقوله لي بشأنه مما يفيدني. وصرت ألجأ إليه كلما اشتبهت الأمور وغامت رؤيتي. وكثيراً ما كان منزل نبيه هو المكان الذي ألتقي فيه الرجل، وغالبا ما تمت اللقاءات في أوقات المساء.

كنّا نتداول الأحداث الجارية، السورية والفلسطينية والعربية والدولية، ونسمر. وفي الحالتين، كنت أغذي عقلي وروحي وأتعلم وتتقوى معنوياتي. أما بكداش فقد دأب على أن يقول في كل مرة إنه تعلم مني. كانت عناية بكداش بأصدقاء

الشيوعيين واحدة من سماته البارزة، وكذلك كان أدبه وتواضعه في تعامله معهم.

وفي هذا الوقت، توطدت صلتي بالصديق الذي قدر لي أن يصير واحداً من أصدقاء العمر، وهو الدكتور منير حمارنة. كان هذا الأردني ابن مأدبا الذي يكبرني ببضع سنوات قد انضم منذ مطلع شبابه إلى الحزب الشيوعي في بلده ثم تجول، أو قل تشرد في دول عدّة. فقد توجه إلى القاهرة للدراسة في جامعتها في مطلع الخمسينات، ثم أبعد عن القاهرة بسبب نشاطه السياسي، فتوجه إلى بغداد، فلم يلبث أن طرد منها بسبب هذا النشاط. ولم تنتظم دراسة الشاب الشيوعي إلا في براغ التي وفر له حزبه منحة لدراسة الاقتصاد في جامعتها. ومع أن أمور منير لم تجر حتى في عاصمة تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية بغير متاعب، فقد أمكن أن يستمر فيها إلى أن ظفر بشهادة الماجستير في الاقتصاد السياسي وسجل نفسه للحصول على الدكتوراه، وبعدها قدم إلى دمشق وعمل فيها لأنه لم يتمكن من العودة إلى الأردن. ومع اضطراب حياته باضطراب الشؤون العامة، حظي منير بسند عائلي مستقر برعاية أب متين الشخصية وأم حدوبة ومتفهمة وتضامن ستة اخوة تعددت اهتماماتهم وتنوعت ميولهم وولاءاتهم السياسية. اجتذب منير إلى دمشق ما اجتذب أمثاله: سمعة النظام السوري اليسارية ووجود أصدقاء وأقرباء له فيها. وقد شغل منير موقعاً محترماً في المؤسسة العامة الاستهلاكية حديثة التأسيس فصار رئيساً لقسم الدراسات فيها وأبلى بلاءاً مثابراً في العمل على تطوير المؤسسة وتنشيط دورها في حياة سورية الاقتصادية. ومنذ تعرفت عليه وتأسست صداقتنا الدائمة، ظل منير هو الوحيد بين أصدقائي الذي لم أختلف معه على شيء هام ولم أخالف نصائحه لي.

وفي تلك الفترة، اتسع الهمس في حزب البعث والجريدة والتقارير التي يكتبها المخبرون للجهات الأمنية حول صلتي بالشيوعيين وتأثري بهم وإيثاري سياستهم على سياسة الحزب الذي أحمل بطاقة عضويته. وتعقد وضعي منذ صدور قرار مجلس الأمن الدولي ذي الرقم ٢٤٢ ودعوته إلى تسوية النزاع العربي

الإسرائيلي، وهو القرار الذي قبله كل من مصر والأردن وتحمس له الشيوعيون وعارضه البعثيون وصبوا عليه أبشع اللعنات وانبروا لمقاومة تطبيقه. أيد الشيوعيون القرار بما هو دعوة إلى انسحاب إسرائيل من الأرض العربية التي احتلتها في الحرب الأخيرة، وعارضه البعثيون بما هو دعوة إلى الدول العربية كي تعترف بإسرائيل وتقر بوجودها على أربعة أخماس أرض فلسطين. وقد جهرت أنا بانحيازي إلى مؤيدي القرار، فوجدتني في موقف معارض لموقف حزبي إزاء هذه المسألة الجوهرية، وازداد بهذا تناقض وضعي، خصوصاً أن الفلسطينيين، إذا استثنينا الشيوعيين، عارضوا القرار وجعلوا مقاومة تطبيقه على رأس جدول أعمالهم.

كنت أجهر بموقفي شفاهاً، ذلك أني لا أملك فرصة الإفصاح عن رأيي كتابة. لكني دأبت على تسريب شيء من رأيي في ثنايا ما أكتب كلما تيسر ذلك. كنت أرى في معارضة التسوية عبثاً لا يجد تفسيره إلا في ضيق الأفق السياسي وتغليب السعي إلى نقاوة السمعة على متطلبات العمل السياسي الناجح. وغاظني بين ما غاظني أن الحزب الذي يحكم البلد ويتصرف بمقدراته مثابر على الدعوة إلى انتهاج أسلوب حرب التحرير الشعبية والتشكيك بجدوى الحرب النظامية، لا لشيء إلا لأن للشعار طنيناً مغوياً. ولم أجد معنى للجوء إلى أساليب الحرب الشعبية ما دام في البلد جيش كبير وبالإمكان صرف الجهد لتطويره وتقويته. وكان لساني طويلاً في التشنيع على المزايدين دعاة حرب الشعب طويلة الأمد بمقدار ما كان حاداً في محاججتي لهم. وربما كنت بين البعثيين أول من تنبأ بمجيء وقت سيتمنى فيه كثيرون من رافضي القرار ٢٤٢ الحصول حتى على أقل مما يعرضه عليهم. أما أصحابي الفلسطينيين فكنت أكرر أمامهم: اقبلوا ٢٤٢ حتى لا تضطروا بعد سنوات إلى المطالبة بـ ١٢١.

يقينا إن دعاة الحل العسكري لم يكونوا بغير حجج، إلا أن حججهم لم تقنعني. ولم تقنعني بأيّ حال من الأحوال حجج السوريين الذين تصوروا أن حرب الشعب وليس الحرب النظامية هي الوسيلة الأنجع. قد تلجأ الشعوب

إلى السلاح، بل قد يصير من واجبها أن تلجأ إليه بوسائل الميلشيات حين لا تتمتع بالاستقلال ولا تتوفر لها ظروف بناء جيوش نظامية. أما من يملك جيشاً وظروفاً لتطويره فلماذا يلجأ إلى الوسائل البدائية التي تستخدمها الميليشيات، كنت أفهم أن يلجأ الفلسطينيون المشتتون المحرومون من الوطن والاستقلال إلى أي شيء، بل إني فهمت أن ترفض م.ت.ف. القرار ٢٤٢. أما أن يفعل ذلك حكام دولة فهذا ما لم أستسغه.

كانت حججي تؤثر في بعض سامعيها. وكانت التشنيعات التي أؤلفها تنتشر انتشاراً واسعاً. وكثيراً ما لجأت إلى السخرية، بل السخرية القاسية من كل ما يعده المزايدون عظيم الشأن، وكانت هذه السخرية تفعل فعلها: قالوا: «حرب الشعب» فقلت: «أمن أجل أن يقاتل الشعب ويتفرغ الجيش للحكم!» وقالوا: «تنبع السياسة من فوهة البندقية»، فقلت: «لماذا البندقية وليس قاذف الصواريخ، هل لأن استخدام الصاروخ يتطلب تدريباً أشق!» قالوا: «الحرب طويلة الأمد»، فتساءلت: «ماذا لو حلت المشكلة بحرب أمدها قصير أو متوسط، هل ينبغي أن نطيل الأمد لا لشيء إلا لننسجم مع الشعار؟» وفي مواجهة الإفراط في الحديث عن تقديس ربّ العالمين لأرض فلسطين، كنت أتساءل: «هل كنتم ستعفون أنفسكم من الكفاح لو أن أرض فلسطين لم تكن مقدسة؟» لكن معظم الذين يصغون إلي من البعثيين كان يمحض ولاءه في نهاية المطاف للقيادة ويظهر تأييده لسياستها، حتى لو اجتذبته حججي. وكان أكثر هؤلاء محبة لي وحرصاً علي هو الذي يحثني على كتمان آرائي حتى لا أتعرض للأذى.

هذا هو ما آلت إليه أحوالي بعد الحرب: عازف يكاد يكون منفرداً في محيط تصخب فيه جوقات كثيرة.

وهاأنذا أتذكر واقعة قد تعطيك صورة أوضح. فقد جاءني الشاعر السوري البعثي الشاب ممدوح عدوان بمقال له يريد نشره. كان ممدوح، وهو من كان آنذاك مجنداً لخدمة العلم، قد بدأ بروزه بما هو شاعر قادم إلى المدينة من

الريف ومسكون بالهياج والغضب. وكان هذا هو النموذج الذي يتسق مع ثورية البعثيين في تلك المرحلة، ولأنه بعثي فقد أخلي بينه وبين المنابر. وبما هو ثوري ملتهب الثورية، فقد جاء مقال ممدوح ملتهباً بالنقد، لكنه النقد الذي لا يكشف خطأ ولا يشير إلى مسؤول بعينه عنه، أي النقد الذي لا يجازف صاحبه بالتعرض لأي أذى ولا ينتفع به غيره: جلد الذات وتحميل المسؤولية عن الكارثة للجيل أو الأمة، أو للكون كله. ولك أن تعرف أني كنت وما أزال أبغض شيئين بغض تحريم: جلد الذات وتعميم المسؤولية عن الأخطاء. وقد بدأ ممدوح مقاله بهذه العبارة: «نحن أمّة مهزومة»، فأضاف بها شيئاً ثالثاً أبغضه هو تنطح الكاتب للحديث باسم الأمة دون تفويض منها.

دخل ممدوح حجرة مكتبي وهو بزيّه العسكري بحركة اقتحامية، وأحلّ في الحجرة تلك الجلبة التي ترافق الثوري الشاب أينما حلّ، واستل من جيب قميصه أوراق مقاله ووضعها أمامي، وأغلب الظن أنه توقع أن يبهرني مقاله. أما أنا فما أن قرأت عبارة المطلع حتى قلبت الأوراق وقلت بنبرة تعمدت أن تبدو عادية: «أن تقدر حالة الأمة كما تراها أنت فهذا حقك؛ وأن تتحدث باسمها فهذا علي أن أفوته لأنك بعثي وهذه من سمات البعثيين. لكني لن أنشر المقال إلا إذا لبيت شرطاً أعدّه أنا حقاً لي». فظن ممدوح أني جاد واستعجلني الإفصاح عن شرطي. فقلت لجالد الذات إني لا أعدّ نفسي مهزوماً ولا أقبل ان أحسب في المهزومين، فأنا لم أضع السياسة الخاطئة ولم أقصّر في انتقادها، وأنا لم أجر جرياً نحو الهزيمة كما فعل المزايدون ولم أكفّ عن التجديف ضد التيار. ثم قلت للذي استمع إلي وهو يتصور أني لا أستحق أن أعمل في جريدة حزبه إن عليه، إذاً، إن تشبث بعبارة المطلع، «نحن أمة مهزومة»، أن يفتح قوساً ويكتب: «باستثناء عضو هذه الأمة فيصل حوراني الذي أبلغ إلي شخصياً أنه لا يحس بأنه هو المهزوم»، ثم يقفل القوس. وبالطبع، لم يفتح الشاعر قوساً ولم يقفل آخر. وقد أرسلت أنا المقال إلى المطبعة. فهذا لم يكن سوى واحد من ألوف مقالات جلد الذات التي راجت في تلك الأيام.



٢١ أرادوا إحراجي فأحرجتهم والتحقت بمعسكر التدريب

في الحادي عشر من حزيران/يونيو ١٩٦٧، أي في اليوم الذي تلا توقف الحرب، كنت جالساً مع الزوار الذين اكتظت بهم حجرة المكتبة في منزل محمد بصل. كنت قد نمت الليلة الفائتة بطولها بعد أن أغمي علي وصحوت في الصباح تام اليقظة. وكان النقاش قد حمي بين صاحب المنزل وأحد زواره. نسب الزائر الهزيمة إلى دور الجواسيس الذين رأى أنهم مبثوثون في كل مكان، فتصدى محمد له وحاول أن يتعمق المسألة. وتابعت أنا النقاش بانتباه، ورحت أتحين الفرصة لأدخل على خطه الساخن. وفجأة، اقتحم الحجرة ابن اخت محمد واسمه وليد بصل، وهو فتى في السادسة عشرة أو السابعة عشرة يميزه طول قامته ورشاقتها وحلاوة تقاطيعه ولون بشرته الأسمر الرائق. اقتحم وليد الحجرة بالمعنى الحرفي للكلمة وفي يده رزمة أوراق، فقطع ظهوره في هذا النحو النقاش. وتوقف هو وسط الحجرة لحظة، ثم هتف موجهاً الخطاب لخاله: «الآن يا خالي يبدأ العمل الجاد»، ثم وزع أوراقه علينا واحداً واحداً وتعجل الانصراف.

انتسب الفتى وليد إلى جبهة التحرير الفلسطينية التي أسسها أحمد جبريل؛ اجتذبه إلى الجبهة أحد زملاء المدرسة وصار من نشطائها بين التلاميذ. أما ما وزعه وليد علينا فهو البيان الذي أصدرته الجبهة عشية انتهاء الحرب

ورسمت فيه رؤيتها لمجرى الأمور. وهكذا قرأت وسط الكارثة المحيطة بياناً يقول إن اندحار الجيوش العربية يشكل مناسبة لانطلاق المقاومة الفلسطينية المسلحة، ويحثُّ الجهود على الانخراط فيها، ويؤكد على أن أوان القضاء على إسرائيل قد حان، وليس أقل من ذلك.

هتاف الفتى وليد بأن أوان العمل الجاد قد أزف لم يصدر من فراغ. فالمنظمات الفلسطينية المسلحة كلها، «فتح» وجبهة التحرير وغيرهما، استخلصت أن اندحار الجيوش يوفر الفرصة لإطلاق نشاطها هي إلى أوسع الأمدية. ستشتهر هذه المنظمات وما سينشأ من جديد على شاكلتها، باسم فصائل المقاومة الفلسطينية، أو الكفاح المسلح، أو العمل الفدائي، أو ما إلى ذلك من تسميات. وقد رأت الفصائل جميعها أن الهزيمة أوهنت العوائق التي وضعتها الدول العربية ضد العمل الفدائي الفلسطيني. وفي حثِّها الجمهور على دعم العمل الفدائي، قالت الفصائل إن العرب هزموا لأن جيش إسرائيل متفوق على جيوشهم، ولا علاج لتفوق إسرائيل العسكري إلا بحرب العصابات التي تباشرها هي، وما دامت هي قد باشرت حرب العصابات بالرغم من ثقل الهزيمة العسكرية، فإن السير على طريق تحرير فلسطين قد ابتدأ ولن يتوقف إلا بتحريرها. فوليد لم ينقل أكثر مما لقنوه إياه في منظمته: جهد الجيوش العربية محكوم بالتفوق الإسرائيلي فهو يتبدد عبثاً. أما العمل الجاد فهو العمل الفدائي.

والواقع أن أحمد جبريل الذي بقيت صلتي به منتظمة لم يخف في مجالس منظمته شماتته بالجيوش التي هزمت، كما لم يخف فرحته بأن الهزيمة وفرت فرصة طيبة لانطلاق العمل الفدائي. والواقع أيضاً أن دعاية المنظمات الفدائية لقيت استجابة هائلة في الأوساط الشعبية. والذين ترددوا قبل الحرب في تأييد الدعوة إلى الكفاح المسلح الشعبي وعوّلوا على الجيوش بدلت الهزيمة موقفهم وجاروا الآخرين في التسابق على دعم الفصائل الفدائية.

وفيما انصرفت المنظمات القائمة إلى ترتيب أوضاعها في ضوء المستجدات،

راحت تنبت هنا وهناك منظمات جديدة، وبدأت الأحزاب السياسية التفكير في التحول إلى منظمات فدائية مسلحة حتى لا يتخطاها قطار الكفاح المسلح الذي لا شعبية لقطار غيره. وفي سورية، نشطت حركة تسلل إلى الجولان المحتل، وأخذ الفدائيون يجمعون ما يمكن حمله من الأسلحة التي خلّفها الجيش السوري أو ألقاها جنوده المنسحبون على الطرقات. فتوفر بهذا مصدر للسلاح انضاف إلى المصادر التي توفرت قبله، وصار بإمكان الفصائل أن تلبي رغبة أي ملتحق فيها في حمل سلاح. وفي هذا المجال، كما في غيره، برّت «فتح» الجميع. وتميزت «فتح» عن غيرها بوجود فروع لها في أي مكان يضم تجمعاً فلسطينيا، فوفر لها الانتشار الواسع امداداً بشرياً ومالياً لم يتوفر مثله لأي منظمة أخرى.

وفي حزب البعث، امتزجت رغبة الأعضاء في مجاراة المزاج العام بدعوة قيادة الحزب إلى حرب التحرير الشعبية، واتخذ حزبيون فلسطينيون وغير فلسطينيين مبادرات مبكرة إلى المساهمة في العمل الفدائي. ومن جانبها وعلى طريقتها، ساندت أجهزة الأمن السورية بعض هذه المبادرات لأغراض شتى، لعل أهمها أن توجد لنفسها موطئ قدم داخل العمل المتسع باضطراد لتراقبه وتؤثر على مجراه. واحتدم النقاش في الحزب، خصوصاً تنظيمه الفلسطيني، حول الحاجة إلى إنشاء منظمة فدائية بعثية. واختلط هذا كلّه، بعضه ببعض. وانعكست نتائج الاختلاط في اضطراب المبادرات الأولى وتنوعها. وانتهى الأمر إلى إلزام أعضاء الحزب الذكور كلهم بالتدرب على السلاح في معسكرات أقيمت لهذا الغرض. وصار على كل حزبي أن يتبع ما أطلقوا عليه اسم «دورة ممارسة»، وهو اسم اشتق من قرار قيادة الحزب بأن يمارس كل عضو بعد تخرجه من دورة التدريب عملية فدائية واحدة على الأقل. وفي نهاية المطاف، تبلورت الجهود في ما لا بدّ من أنك تعرفه إذ انشأ حزب البعث ما أطلق عليه اسم «طلائع حرب التحرير الشعبية – قوات الصاعقة». أما لماذا هذه التسمية الطويلة، فلأن الحزب في دعوته الأولى إلى حرب التحرير الشعبية استهدف

أن يتولى محاربوها تحرير كلّ جزء من بلاد العرب تحتله قوى أجنبية وليس فلسطين وحدها. ولهذا، وصفت المنظمة التي ستعمل على تحرير فلسطين بأنها طلائع هذه الحرب للإيحاء بأن البقية ستتبع، وميزت باسم الصاعقة اتباعاً لتقاليد حرب الغوريلاّ التي سماها كتاب متحذلقون حرب الغوار. فهذه التقاليد توجب أن يتسمى ثوار التحرير ومنظماتهم بأسماء ترهب أعداءهم. ألم تطلق «فتح» على جناحها العسكري اسم قوات العاصفة.

أيا كان الأمر، فقد وجد البعثيون الفلسطينيون جديداً ينشغلون به ويعوضون ما فقدوه في الفترة الأخيرة من تأثير على ساحتهم الوطنية. وكان أهم مظاهر هذا الجديد هو الانصراف إلى تجنيد المؤيدين كي يلتحقوا بدورات التدريب على السلاح، دورات الممارسة، وتنظيم اشتراك أعضاء الحزب فيها.

سأستطرد هنا متعمداً لأتيح لك أن تعرف خلفية هذا الاتجاه إلى عسكرة الحزب. ففي ذلك الوقت، تم تمايز الكتلتين الكبيرتين: التي تزعمها صلاح جديد والتي تزعمها حافظ الأسد. وكان صلاح جديد قد انشغل منذ بداية عهد شباط/فبراير بقيادة الحزب وشؤونه أكثر مما انشغل بأي همّ آخر. أما حافظ الأسد الذي احتفظ بقيادة القوى الجوية وتولى وزارة الدفاع منذ بداية العهد في شباط/فبراير ١٩٦٦ وتمتع بصلاحيات القائد العام للجيش، فقد تركز جهده بطبيعة الحال على الجيش. يقينا أن صلاح جديد لم يفتقر إلى مؤيدين عسكريين وأن الأسد لم يفتقر إلى مؤيدين مدنيين. غير أن التمايز حين ينظر إليه بإجماله أفرز كتلتين أغلب مؤيدي الأولى من البعثيين المدنيين وأغلب مؤيدي الثانية من البعثيين العسكريين.

بتأثير هذا الاصطفاف، عملت قيادة الحزب الملتفة بأغلبيتها حول صلاح جديد على توطيد الوجه العسكري للحزب وبالغت في إبراز أهمية حرب التحرير الشعبية والعمل الفدائي. جرى ذلك، إلى أسبابه الأخرى، في معرض التنافس مع الكتلة ذات الأغلبية العسكرية المتمركزة في الجيش النظامي. والواقع أن

العمل لعسكرة الحزب تماوج شدّة وإرخاءً مع تماوج الخلاف بين الكتلتين. ومنذ اتضح أن غالبية العسكريين البعثيين تؤيد حافظ الأسد، اضطرد الميل إلى عسكرة الحزب دون توقف. وهو الميل الذي انتهى إلى إنشاء منظمة الصاعقة وعدم قصر العضوية فيها على الحزبيين الفلسطينيين وتولى قادة الحزب الكبار قيادتها. ومنذ العام ١٩٦٨، صارت الصاعقة هي الجهاز المسلح المناصر لكتلة القيادة، كتلة جديد. ولكي لا يخطئ أحد الفهم، أبادر إلى القول إنه ما من أحد في قيادة الحزب فكر في أن يزجّ الصاعقة في مواجهة مع الجيش. كل ما في الأمر أنه تنافس على اكتساب الشعبية ومواقع التأثير.

في بداية هذه التطورات، خصوصاً ما استجدّ منها بعد انجلاء تأثير الحرب على الوضع الداخلي واشتداد تمايز الكتلتين، كانت صلتي بالتنظيم الفلسطيني البعثي وهمومه الذاتية قد وهنت إلى أدنى درجات الوهن. وقد اختلطت مشاعر أعضاء قيادة التنظيم تجاهي حتى صار من الصعب أن أتبينها فأعرف حدود الصداقة أو حدود العداوة فيها. ولما كنت قليل الانشغال بشؤون التنظيم، فإني لم أعبأ بتحري الحقيقة. لقد مددت جهدي واهتمامي على ساحة العمل الفلسطيني العام، الأوسع، والأقل تنفيراً لي. وفي هذا السياق، تعززت صلتي بناس «فتح» كما بناس جيش التحرير الفلسطيني. اتبعت «فتح» الفرصة السانحة فوسعت نشاطها وعلا صخب دعايتها للكفاح المسلح وانتقادها لقيادة م.ت.ف. وانشأ جيش التحرير ميليشيا تابعة له سماها قوات التحرير الشعبية، واجتذب إليها ناس الأوساط اليسارية التي تنفرها يمينية «فتح». وكان معظم ضباط هذه القوات كما كان قادة الجيش من معارفي، وكان لي بينهم عدد من الأصدقاء الحميمين الذين تعود معرفتي بهم إلى أيام وحدة مصر وسورية حين عملت معلماً ومدير مدرسة في منطقة الجولان: عبد الرزاق اليحيى، ومصباح البديري وعبد العزيز الوجيه وبهجت الأمين ومحمد الحلبي وكثيرون غيرهم شكلوا الكوكبة المهيمنة على قيادة جيش التحرير في دمشق وقواته الشعبية التي راحت تنشر وحداتها في أغوار الأردن. أما

محمد الشاعر فقد احتاج الجيش السوري إلى خبرته في التحصين منذ شرع في بناء الجبهة الجديدة بعد فقده جبهة الجولان التي أشرف الشاعر نفسه على إنشاء تحصيناتها حتى العام ١٩٥٩. وقد أعيد الشاعر إلى الجيش السوري ومنح فيه رتبة عقيد، ثم رفع إلى عميد، وأشرف على إنشاء التحصينات الجديدة الهائلة دون أن يكفّ عن الاهتمام بشؤون جيش التحرير والساحة الفلسطينية. وعدت أنا إلى الالتقاء بصديقي القديم وتجددت الصداقة وتوطدت.

وأما ياسر عرفات وقادة «فتح» الآخرون، وهم الذين وجدوا وسيلة للتفاهم مع عبد الناصر وحظوا بتأييد مصر إلى جانب تأييد سورية، فقد بقيت صلتي بهم طيّبة كما كانت، بل إنها توطدت. وهايل عبد الحميد (أبو الهول)، صديق العمر، صارت له في «فتح» مكانة بارزة وصار هو معتمدها النافذ في مصر وراح يتردد على دمشق فألقاه ونجدد الصداقة ونتعاون. وأنيس الخطيب ثالث ثلاثتنا أيام العمل في «عرب فلسطين»، الصديق الذي لا يضاهى، المتفائل أبداً، المفعم بالحيوية والمعجون بالحرص على نظافة اليد والسمعة الطيبة، ترك عمله في السعودية ورجع إلى دمشق واستعاد وظيفته المتواضعة في وزارة التعليم لينشط في واقع الأمر في الحقل الوطني الفلسطيني بعدما صار عضواً في «فتح» وصارت له فيها مكانة تكافئ جهده وخبرته. وقد تولى أنيس في «فتح» بعد الحرب مسؤوليات إعلامية وأخرى تنظيمية وعسكرية. وما أسرع ما عادت اللحمة بيني وبين أنيس: جددنا الصداقة، ونمينا التفاهم، وكانت لنا على الدوام، أنا من موقعي وهو من موقعه، مواقف كثيرة متماثلة.

حركة القوميين العرب أورثتها نتائج حرب حزيران/يونيو أزمة حادة، أو قل أججت أزمة كانت تعتمل في داخلها. وقد عاد إلى دمشق عدد من نشطاء الحركة الذين بارحوها أيام النزاع مع البعثيين على السلطة، فتجددت صلاتي بهم وتسنى لي أن أتابع التطورات التي عصفت بحركتهم العتيقة وانتهت بتفتيتها وإنشاء منظمة فدائية أو منظمات مما بقي منها. لم يعجبني موقف الحركة من عبد الناصر حين كانت تضعه قبل الحرب في منزلة قريبة من منزلة

إله لا يخطئ. ثم لم يعجبني بالطبع انقلاب موقف الحركة إلى النقيض بعد الحرب. لكن هذا لم يمنع وجود نشطاء في الحركة ألقاهم وأتبادل معهم المودة والاحترام. فقد وجدت في هؤلاء ناساً معنيين بالهمّ العام وعلي أن أتعاون معهم، ووجدوا هم فيّ بعثياً يمكن أن يأمنوا جانبه وفلسطينياً قد يختلف معهم في الرأي لكنه منصرف إلى ما هم منصرفون إليه.

وبانشغالي في هذا النحو الواسع، لم أنتبه إلى التفاعلات الجارية داخل التنظيم الفلسطيني البعثي. تقاسمت الكتلتان ولاءات أعضاء التنظيم، فصار فيه يمين ويسار على أساس أن كتلة الأسد كانت مصنفة من قبل خصومها بما هي يمينية. ولم أتأثر أنا بهذا. إلا أن كثيرين لم يصدقوا أني حقاً بمنأى عن تصنيفات البعثيين بعضهم بعضاً. وقد وجد من ظن أني داهية أتظاهر تظاهراً بعدم الاهتمام وأحضّر للاستئثار بقيادة التنظيم. ووجد هذا الظن ما يسنده في حقيقة صلتي الشخصية بأعضاء القيادة الكبار وإطراءاتهم المتواترة لي.

هذه العلاقة المعقدة تسببت في سوقي إلى دورة الممارسة بالرغم من الداء الذي يفتك بعمودي الفقري. كان أعضاء قيادة التنظيم جميعهم على معرفة بحالتي الصحية. وكثيراً ما لامني هؤلاء لأني ألزم نفسي أعباء فوق طاقتي الجسدية. وكان عضو القيادة الدكتور فتحي موسى واحداً من الأطباء الذين يعالجونني، وكان عضوها الآخر الصيدلي سامي قنديل وهو مدير عام لشركة أدوية أحد الذين يجلبون لي أدويتي. أما عمر خليفة ومعين حامد وإميل صبيح وبقية أعضاء القيادة فكانوا يعرفون من شأني ما أعرفه أنا نفسي. وعلى كثرة ما سيق إلى دورات الممارسة من أعضاء وأنصار، لم يفكر أحد في البداية بإلزامي أيّ دورة. لكن، قبل أن تنقضي سنة كاملة على انتهاء الحرب، فيما أنا منهمك في أعتى المشاغل، فوجئت باستدعائي إلى الالتحاق بدورة ستنعقد في تموز/يوليو ١٩٦٨. وأدركت للتو أن في هذا الاستدعاء ما يريب، فتحريت دوافعه، فوقعت على مؤامرة صغيرة أعدت لتشويه سمعتي.

وقتها، كانت على الأبواب دورة انتخابات حزبية جديدة. وقد ظن الذين يضيقون بي أني مقبل على منافستهم، فدبّروا أمر استدعائي إلى الدورة المجهدة، وتصوروا أني سأعتذر بسبب المرض فتتهيأ لهم فرصة التشهير بي بوصفي من خصوم الكفاح المسلح المستنكفين عن تحمل أعبائه. ألم أكن من الداعين إلى التسوية السياسية التي يبغضها البعثيون، ألم أجهر بتأييدي للقرار ٢٤٢ الذي يعد البعثيون القبول به خيانة! ثم لم يلبث أن تبين لي أن زهير محسن الطامح إلى البقاء في قيادة الحزب متحالف مع هؤلاء الذين تواطؤوا ضدي. كان زهير الفلسطيني القادم من طولكرم عفلقياً متعصباً أيام صراعنا مع عفلق، فكان يضيق بي على هذا الأساس. وبعدما دارت الدائرة على عفلق، بدل زهير ولاءه ولحق بركب الظافرين بالسلطة دون أن تتبدل مشاعره نحوي، بل زاد عليها تحرجه إزائي أنا الشاهد على تقلباته. وعندما عاين زهير حجم علاقاتي ومستواها، أخطأ تقدير وضعي وظن أني سأدخل شوط الانتخابات من أوله وأظل فيه وأنافسه على تمثيل الفلسطينيين في قيادة الحزب العليا. وإلى هذا، كان زهير يعدُّ صديقي الدكتور نشأت الحمارنة، البعثي الأردني القديم المستقيم ذو السمعة الطيبة، أخطر منافسيه. وقد لاحظ زهير عمق صلتي بنشأت. وكان نشأت يعتزم فعلاً الدخول في المباراة الانتخابية. فتصور القلق على مركزه أننا، نشأت وأنا، متحالفان ضده، واستخلص أن تحالفنا سوف يسد طريقه هو إلى القيادة. لم أدر كيف بنى زهير منظومة استخلاصاته هذه، هل استقى معلومات مغلوطة من مصدر شاء تضليله، أم أنه نسب للمحبة والاحترام المتبادلين بيني وبين نشأت غرضاً لم يكن فيهما، أم أنه اختلق الحكاية كلها اختلاقاً ليجمع آخرين حوله من خلال تحريضهم علينا؟

أيا كان الأمر، فقد رددت على المؤامرة الصغيرة على طريقتي، فعزمت على أن ألتحق بالدورة فعلاً فأحرج الذين توخوا إحراجي. وكتمت عزمي حتى يكون التأثير الذي أتوخاه كاملاً. وهكذا، انصرفت إلى مشاغلي بنفس مطمئنة. وفي هذه الأثناء، عُيّنت عضوا في اللجنة الوطنية السورية الموكلة بالتحضير

للمهرجان العالمي للشباب. وكان المهرجان سينعقد في صوفيا في الوقت الذي يفترض أن أكون فيه منهمكاً في دورة الممارسة.

كانت تلك كالعادة لجنة كبيرة ضمت عدداً من قادة الحزب والمنظمات الشعبية والمهنية، كما ضمت عدداً ممن عدُّوا خبراء، وكنت واحداً من هؤلاء. وقد أنيطت رئاسة اللجنة برئيس الأركان العامة للجيش اللواء أحمد سويداني بوصفه عضواً في قيادة الحزب، وكان هذا بين أكثر قادة الحزب ولعاً بالخطاب اليساري المتطرف. فإذا أضفت إلى هذا أن الرجل كان قبل ذلك قائداً للشرطة العسكرية ثم مديراً للمخابرات العامة ثم شغل ثاني أهم المناصب في الجيش، فلك أن تتصور وحدك الجوّ الذي فرضه وجوده في رئاسة اللجنة، وكيف ثقلت الألسنة في الإفصاح عما تختزنه الصدور!

افتتح اللواء سويداني أول اجتماعات اللجنة بعبارات صرت أحفظها عن ظهر قلب لشدّة ما انطبعت دلالتها في ذهني وكثرة ما كررتها وأنا أتمثل بها في أي حديث عن رعونة اليساريين المتطرفين وغلاظتهم. قال اللواء ما يكاد يتطابق حرفيا مع هذه العبارات: «أنتم تعدون للمشاركة في مهرجان عالميّ كبير، فلا تهابوا شيئاً أو أحداً ولا تسمحوا لأحد بأن يزايد عليكم! أنتم تمثلون سورية البعث، سورية الثورة، وسورية تقف على يسار الاتحاد السوفييتي، والصين وكوبا، وفييتنام، وثوريتها أقوى من ثورية ماركس ولينين وماوتسي تونغ وجيفارا وكاسترو مجتمعين». وقوبلت العبارات بتصفيق أسهم فيه الحاضرون جميعهم باستثنائي أنا الذي أطرقت برأسي واحتفظت بيدي معقودتين على صدري.

وفي واحدة من الجلسات، دفعت أنا اللجنة إلى مناقشة موضوع أعرف أنه حساس. كنت أطلع على جريدة **الاتحاد** العربية التي تصدر في حيفا وتنطق باسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي – راكاح. كان لي صديق في مكتب الدراسات في القصر الجمهوري يزودني بما يعرف أني أهتم بقراءته من الصحف والنشرات التي ترد إلى القصر وتحجب عن المواطنين. وقد قرأت في الاتحاد قبل توجهي

إلى الاجتماع أن وفد راكاح إلى المهرجان سوف يضم محمود درويش وسميح القاسم ونخبة أخرى من الأدباء العرب في إسرائيل. وكان محمود وسميح يومها شاعرين شيوعيين شابّين يتصاعد نجاحهما بسرعة في سماء الشعر العربي. ومن الاتحاد عرفت أيضاً أن اللجنة التحضيرية العالمية للمهرجان قررت أن يقتصر وفد الشبيبة القادم من إسرائيل من تزكية المنظمات الإسرائيلية التي جهرت بمعارضتها لعدوان حزيران/يونيو وشجبت سياسة إسرائيل التوسعية، مما عنى أن الوفد كله سيتشكل من شبيبة راكاح وأصدقائه. ولأني أعرف موقف البعثيين من راكاح وأعلم أنهم يصنفونه بين الأعداء ما دام حزباً إسرائيلياً حتى لو ضم عرباً من نسل الشنفرى، فقد هجست بأن تقع مشكلة بوجود الشاعرين وأمثالهما، ورأيت أن أعرض الأمر على اللجنة الوطنية بأمل أن تجد حلاً لا يضع وفد سورية التي هي «على يسار كل يسار» بتعارض مع وفد فيه محمود درويش وسميح القاسم.

وفي الجلسة التي أحدثك عنها، عرضت ما قلت إني قرأته في الصحف وطلبت أن يوضع على جدول الأعمال بند صغته في هذا النحو: «ما الذي يمكن ان يفعله الوفد السوري في صوفيا للحفاوة بشاعري المقاومة محمود درويش وسميح القاسم». وكان هذا اقتراحاً ما كدت أنطق به حتى بدا كأني ألقيت في الاجتماع قنبلة. اضطرب الجميع، وحل الاضطراب بكل شيء. وفي صخب الأصوات التي تداخلت أجراسها، التقطت أذناي أعلاها. وكان هذا هو صوت شاب بعثي قادم لتوه من باريس حيث يدرس، اسمه سهيل مهنا وقد سمعته وهو يقذفني صراحة بتهمة الخيانة.

كان سهيل مهنّا من أقرباء صلاح جديد، وقد أشيع عنه أنه اشترك في ثورة الطلبة الباريسيين في أيار/مايو ١٩٦٨. وكان هو على كل حال يتصرف بما يوحي بأنه كان من قادة هذه الثورة، أما يساريته فكانت مفرطة في تطرفها حتى فاقت يسارية اللواء سويداني نفسه. وقد التقطت زعيق هذا الإنسان وهو يقول إن مجرد عرض الموضوع على لجنة وطنية مثل لجنتنا يشكل إهانة،

وهذه إهانة لا يجرؤ عليها إلا الخونة. ولم أدر لماذا لم أتمالك نفسي كما ألفت أن أفعل إزاء التهم التي يطلقها الحانقون، بل حملني شيء أقوى من تصبري على الرد، فوجدتني أقذف متهمي بشتيمة مجلجلة وأندفع عبر منضدة الاجتماع ناوياً الاشتباك معه. وقد قفزت من فوق المنضدة فعلاً، وتشابكت أيدينا وكاد العراك يبدأ لو لم يتدخل الحاضرون فيفصلوا بيننا. وفي هذه الأثناء، واصل اللواء سويداني الدق على المنضدة والزعيق بصوت مرتفع طالباً العودة إلى الهدوء، إلى أن استعاد سيطرته على الاجتماع.

تصورت وأنا أعود إلى مقعدي فيما راح الشاعر السوري علي كنعان يهدئني أني لن ألبث أن أتلقى التقريع من اللواء سويداني. ولمت نفسي على رد فعلي النزق، بل إني شعرت بالندم لإثارتي الموضوع، فما لي أنا وما قد يقع في صوفيا ما دمت سأكون وقتها في معسكر التدريب! غير أن ما قاله سويداني فاجأني مفاجأة تامّة. فقد تحدث الرجل بنبرة لم آلفها في خطاباته السابقة، وندد باللجوء إلى الكلمات النابية أو العنف في مجال التعبير عن اختلاف الآراء بين الرفاق، ثم قال إنه يعرفني معرفة جيّدة ويعرف آرائي التي قد لا تتسق مع سياسة الحزب لكنه يعرف، أيضاً، نضالي وصحة التزامي ويقدر كفاءتي. ودعاني سويداني إلى أن لا أحمل ما قاله سهيل عني على محمل الجدّ فالحنق من اقتراحي هو الذي أعجل لسانه بإلقاء تهمة لا قيمة لها. وبعد هذا، وجه سويداني إليّ الشكر لأني لفتّ نظر اللجنة إلى هذا الموضوع، ثم أعلن أن التعامل مع وفد راكاح أيا كان أعضاؤه شأن سياسي لا بدّ من عرضه على قيادة الحزب، ووعد بأن نعرف رأي القيادة في اجتماعنا التالي.

حل يوم توجهي إلى معسكر التدريب قبل أن تفرغ اللجنة من عملها وقبل أن نتلقى رأي القيادة القطرية. وفي هذا اليوم، في فجره، رآني رفاق الدورة وأنا مقبل نحو تجمعهم في الشارع بانتظار الشاحنات العسكرية. كان أحد أعضاء قيادة التنظيم حاضراً للوداع، فكان هو الأشدّ دهشة. رآني الصديق القديم مقبلاً وحقيبتي على كتفي وأنا أترنم بنشيد «يا علمي يا علم!» فبهت.

وأنا أزعم أني لمحت في عيني هذا الصديق نظرة خجل. ولم أشأ أن أعفي صديقي من الخجل، فقلت على مسمع من الجميع: «أتدرب، لقد جربت أدوية كثيرة، فلم تشفني من الداء اللعين، فلم لا أجرِّب تمارين الدورة المجهدة، ألا يمكن أن يكون الدواء في التي كانت هي الداء كما قال عزيزنا أبو نواس».

أعدّ الموقع المجاور لنبع بردى قبل سنوات ليصير معسكراً للكشافة، ثم تحول إلى معسكر لدورات الممارسة هذه. واشتق برنامج التدريب من البرامج التي يتبعها الجيش لتحويل الجنود الأغرار إلى مغاوير أو كوماندوس. ونظمت الدورة بحيث تستغرق خمسة أسابيع مما أوجب ضغط فقرات التدريب التي تستغرق في الجيش ثلاثة شهور، فصارت أكثر مشقة، حتى ليكاد ذوو الأجساد السليمة يعجزون عن احتمالها فكيف بأمثالي ذوي الأجساد المعطوبة! ومنذ احتشدنا، نحن والوافدين من جهات أخرى، على أرض المعسكر، اتضح أن هذه الدورة تضم فريقين متمايزين. فقد سيق إلى دورتنا حشد من أعضاء الحزب وأنصاره الفلسطينيين الذين تأخر سوقهم إلى التدريب، وكان معظم هؤلاء من خريجي الجامعة أو طلاب الصفوف العليا فيها، وبينهم عدد من ذوي المناصب الإدارية الكبيرة. كما سيق إلى الدورة ذاتها عدد من الذين اجتذبهم الحزب من عمال وباعة صغار وكان عدد كبير من هؤلاء من العاطلين عن العمل.

أما قيادة المعسكر فقد أنيطت بالملازم الأول إبراهيم الغرايبة، وهو بعثي جاء من الأردن، ولم أكن أعرف عنه ما يزيد على هذا. وعندما لاحظ الضابط الاختلاف البيّن بين الفريقين اجتهد أن يفصل بينهما بقدر الإمكان. وكان في طرف المعسكر مهجع فسيح فخصصه الضابط لإقامة غير الحزبيين، ووزع الحزبيين على الخيام المنصوبة فوق الطرف المقابل، وجعل في كل خيمة أربعة ممارسين أو ستة حسب سعتها. وهكذا، صار الفريقان يلتقيان سحابة النهار أثناء التدريبات والدروس ثم يفترقان مع حلول المساء.

كان مدربونا جميعهم من ضباط الصف المحترفين. وكان علينا أن نستيقظ

على صافرات تدهم نومنا في الخامسة صباحاً فنتجمع في الباحة أمام مساعد طويل القامة عريضها بارز تقاطيع الوجه وجهمها جهير الصوت، وهو كبير المدربين. لم يستخدم المساعد الصافرة وحدها، بل استخدم لسانه أيضاً ليحثنا على العجلة. ألف المدرب المحترف أن يزعق على الجنود المبتدئين، ولم يجد سبباً لتبديل مألوفه، فكانت شتائمه تلعلع في الباحة: «أركض يا حمار! تقدم يا تيس! هزّ وسطك يا...» وما إلى ذلك.

وفي صباحنا الأول، أوجب علينا المساعد أن نؤدي جملة التمارين الرياضية القاسية دون تساهل. ثم نظمنا الرجل في صفوف متوازية وتقدمنا هو والمدربون، وجرى فجرينا خلفه. لم أدرك أننا سنجري مسافة طويلة إلا حين عبر المساعد بوابة المعسكر وجرى بنا على الطريق الصاعد من نبع بردى نحو طريق الزبداني. كان بإمكاني بالطبع أن أتوقف وأنكص. غير أن المكابرة وربما أيضاً التهيب من شرح شأن شخصي لعسكري غريب منعاني، فواصلت الجري. وصار الألم، وليس التعب وحده، يشتدّ كلما تقدمنا. ثم جاء وقت صار لكل خطوة فيه وقع مؤلم. ولكني تجلّدت متسلحاً بالمكابرة إلى أن بلغنا نقطة رأيت منها مفرق الزبداني وقدرت أن المساعد سوف يوصلنا إلى المفرق ويمنحنا استراحة ثم نعود من حيث جئنا. ومنيت نفسي بأن الجري على طريق العودة سيكون أسهل لأنه منحدر. فلما بلغ المساعد المفرق فلم يتوقف بل انعطف بنا في الاتجاه المفضي إلى بلدة الزبداني، كنّا قد قطعنا ثلاث كيلومترات، ولم يعد بإمكاني أن أحتمل المزيد من الآلام. وأسقطني الإعياء مرمياً على الطريق وأنا أكاد أفقد الوعي. وشرح الذين يعرفون حالتي وضعي للمساعد. فإذا بهذا الرجل الذي حسبته أنا جلفاً يظهر أتمّ التفهم، بل إنه لامني لأني لم أحك له عن مرضي بنفسي قبل أن أتعرض لهذه المشقة.

بعد عودتنا إلى المعسكر، استدعاني الملازم الأول إبراهيم، وكان المساعد عنده. وجرت مناقشة تقرر إثرها إعفائي من التمارين الرياضية الشاقة والتدريبات الجسدية، وبقي لي أن أسهم في النشاطات غير الشاقة وأحضر

الدروس التعليمية والتدريب على الأسلحة والرمي وما إلى ذلك مما تسيغه حالتي. وفي اليوم التالي، جاء إلى المعسكر عدد من قادة التنظيم البعثي الفلسطيني. ويبدو أن قائد المعسكر لام هؤلاء على إرسالهم مريضاً مثلي إلى التدريب. فتجنب الملومون الحرج فذكروا أني أنا الذي أصررت على الالتحاق بالدورة. فازداد تقدير قائد المعسكر لي وصار يضرب بي المثل كلما احتاج إلى ذكر نموذج للإقدام والشجاعة والصبر على الشدائد. وتشكلت لجنة للنشاطات الثقافية توليت أنا رئاستها. وهكذا، حقق التحاقي بالدورة الغرض الذي توخيته، وتوفر لي وضع محتمل، بل ممتع في بعض وجوهه. وأتيح لي أن أعايش هذا العدد الكبير من أعضاء التنظيم في هذا الظرف الخاص. كما أتيح لي أن أكتسب خبرات جديدة، كل هذا وأنا معدود مجنداً تحت السلاح لخدمة القضية الوطنية!

في تلك الفترة، كان العمل الفدائي الفلسطيني يشهد موجة صعوده الحاسمة، وهي الموجة التي تلت معركة الكرامة الشهيرة. وقد أزعجت النشاطات الفدائية قادة إسرائيل فراحت طائراتهم تغير على مواقع الفدائيين. فتعلم هؤلاء كيف يتجنبون أذى الغارات الجوية، فتوجه الإسرائيليون إلى البحث عن وسائل أخرى، وتكررت تهديدات موشى دايان بأن جنود جيشه قادرون على الوصول إلى الفدائيين داخل قواعدهم.

بتأثير هذا الجو، وفي سعيي للاستزادة من الخبرات، اقترحتُ على قائد المعسكر إجراء مناورة هدفها اختبار متانة المنتسبين إلى العمل الفدائي ودرجة يقظتهم ومدى قدرتهم على الاحتمال. وفي ضوء اقتراحي والتعديلات التي أدخلها النقاش عليه، نظمنا مناورة حيّة دون أن يعرف أغلب المشتركين في الدورة أنها مناورة. وقد قامت خطة المناورة على خلق انطباع بأن الجنود الإسرائيليين يداهمون معسكرنا. واخترنا الفريق الذي سيلعب دور الإسرائيليين بسرية كاملة. وأعد المدربون الجو بحيث يلعلع صوت الرصاص والانفجارات كما يقع في هجوم حقيقي. وكلّف المهاجمون باختطاف بضعة عناصر من أماكن النوم وسوقهم إلى خرابة غير بعيدة

عن المعسكر وإيهامهم بأنهم ينتظرون وصول طائرات الهيليوكبتر لتنقل الجميع إلى إسرائيل. وكلف إثنان يعرفان كلمات بالعبرية أن يلعبا دور محققين إسرائيليين ويتوليا التحقيق مع المخطوفين أثناء الانتظار.

وعند التنفيذ، أفلح المدربون، وخصوصاً مدربي المتفجرات، في خلق جوّ أثّر حتى عليّ أنا العارف بخطة المناورة. وأدى المكلفون بمهمة الاختطاف مهمتهم دون مشاكل. وتوليت أنا ومحمد زعيتر جانباً من هذه المهمة. ولأننا، محمد وأنا، شئنا أن نظهر القدوة الحسنة ونتباهى بها، فقد تعمدنا أن نخطف رجلاً جسيماً له مظهر يثير الخوف. والواقع أنّا كنّا نعرف واحداً من نزلاء المهجع فيه هذه السمة وله شاربان يعتني بانتصابهما في أتم صورة وعلى ذراعه وشم سيف. وهذا هو الرجل الذي داهمناه وهو غارق في النوم، ثم همسنا في أذنه وفوهة المسدس مصوبة إلى جبينه بأن يطاوعنا دون اعتراض. ولدهشتنا، استجاب الرجل بليونة وبدا الأمر معه ونحن نغادر المهجع ثم ونحن نغادر المعسكر كأننا ذاهبون في نزهة ليلية. حتى أن الرجل انحنى قبلنا ليفتح الفرجة التي مررنا منها عبر الأسلاك الشائكة. وفي هذا النحو بلغنا الخرابة.

في التحقيق، تنوعت ردود الفعل. مخطوفنا ذو المهابة الظاهرة، قال، دون حذلقة ودون أن يبدو عليه الهلع، إنه كان عاطلاً عن العمل وعندما عرض عليه المجيء إلى الدورة رحّب بالعرض وتمنى أن يصير فدائياً، فهذه مهنة مثل المهن جميعها. مخطوف آخر تخاذل وراح يرجونا أن نكون رحيمين به، وشتم الحزب الذي أوقعه في هذه الورطة. المخطوف الثالث ظل صامتاً ورفض الإجابة على الأسئلة، وعندما نطق شتمنا وقذف في وجه المحقق بصقة كبيرة. وعندما انتهت عمليتنا وأدرك هذا المخطوف أنها كانت مناورة، بصق بصقة كبيرة أيضاً لكنه وجهها ناحية الأرض، وبارحنا وهو حانق.

أول ما فطنّا له ونحن نستخلص عِبَرَ المناورة أن محيط المعسكر المسور بالأسلاك الشائكة وحدها وجانبه المفتوح على ماء النبع غير العميق يبقيان في النهار

والليل بغير حراسة. فتم تدارك هذا الأمر. وفي الصباح، عند إجراء التفقد، اتضح أن أحد الأشخاص مفقود. ثم مضى يوم وآخر دون أن يظهر هذا المفقود. وعندما حلّ اليوم الثالث، التقط الحراس شخصاً زري الهيئة وهو يلوب حول المعسكر فتبين أنه هو الذي نبحث عنه. فرّ هذا الممارس من المعسكر حين رآه يتعرض للهجوم وتصور أن الإسرائيليين احتلوه فاختفى في الوهاد المحيطة. فلما انقضت ثلاثة أيام دون أن يظهر ما يدعم تصوره، جرؤ على الاقتراب من المعسكر.

أمضيت في المعسكر ثلاثة أسابيع كانت إجازة استرحت خلالها من العمل الذهني وشحذت إحساسي بأهمية التفاصيل الصغيرة لحياة الإنسان بعد أن كاد الانهماك الدائم في القضايا الكبيرة والمعامع الفكرية والسياسية يبلّد إحساسي هذا.

هنا، صار لكل تفصيل أهمية خاصة. فقضاء ليلة مريحة أو مرهقة مرهون بالموقع المتيسر لك في الخيمة وهل هو مستو أم ناتئ أم مجوّر. والطعام بوجباته الثلاث، نوعه، وانتظار وصوله. والانتظار في الدور للحصول عليه، والكمية التي يجود بها موزعه، والمكان الذي يتيسر لك أن تتناوله فيه، في الظل أم تحت الشمس. المدرب، ومزاجه، الملابس وما تتعرض له أثناء التدريب أو أثناء النوم. والتدريب، والدروس، والعلاقات مع الآخرين كل هذه تفاصيل لها أهميتها. كانت ليومنا محطات عديدة. ولم تلبث أن صارت أوقات الحصول على الوجبات هي أهمّ هذه المحطات. فالتدريب الشاق أثناء النهار يعجل الإحساس بالجوع ويشحذه. والليل الطويل يجعلك تبيت وأنت تتطلع إلى وجبة الإفطار. كان العشاء يوزع بين الخامسة والسادسة فينقضي وقت طويل قبل حلول الثامنة أو التاسعة من صباح اليوم التالي موعد توزيع هذه الوجبة. أما الغداء فيجيء مع الظهر بعد أن تفتك التمارين بالأجساد وتفرغ المعدة. وكان من المفروض نظرياً أن نحصل في وجبة الغذاء على كمية وفيرة من الخضار واللحم والأرزّ أو البرغل. أما عملياً فإن الطعام الذي يعد في مطبخ عسكري خارج معسكرنا،

كان يتعرض للانتقاص أولا بأول، فلا يتطابق ما يبلغنا منه مع ما هو مقرر. فالمتعهد الذي يورد المواد إلى مطابخ الجيش ويرشو ضباط التموين كان يقنص شيئاً. وضباط المعسكر الذي يعدُّ فيه الطعام، وبعدهم ضباط الصفّ، كانوا يستأثرون بأجود ما فيه. ثم يجيء دور ضباط معسكرنا وضباط صفّه وضيوفهم. فيصلنا في نهاية المطاف العظم والدهن والقليل من اللحم، فلا نجد ما يملأ فراغ المعدة إلا بحشوها بالأرز أو البرغل. وكنّا نتسابق ونتزاحم، وكثيراً ما كان يقع العراك حتى بين أكمل المتزاحمين تعليماً وارفعهم ثقافة وأعلاهم مراتب. الجوع كافر، يقولون، وهذا قول سديد.

أما التدريب فمفهومه كان يقترن بمفهوم الترويض ويستهدف قبر أي نزعة للتميز في شخصية المتدرب، ولا يتوقف قبل أن يتحول المتدرب إلى رقم مطواع في جماعة مطواعة. والرتبة تعطي لصاحبها حق التسلط على من هو أدنى رتبة منه. فإذا وصل الأمر إلى المتدرب، وهو الذي لا رتبة له، فللجميع حق التسلط عليه وليس له إلا الرضوخ. كان هذا هو المنهج المتبع في الجيش، وهو ما حاول مدربونا العسكريون اتباعه معنا. وقد تذمرنا، إلا أن كل شيء كان معداً لإطفاء التذمر. وفي كل الأحوال، من العبث أن يتطلع الإنسان إلى معاملة ديمقراطية في مؤسسة عسكرية في مجتمع تفتقر حتى مدارسه وجامعاته إلى مثل هذه المعاملة.

خذ حكاية الشتائم التي لا يكفّ المدربون عن إطلاقها. لقد استكبرنا أن يوصف الواحد منّا بأنه حمار أو تيس أو غبيّ أو جبان أو منحلّ أو بصفات تطعن في شرفه وأعف عن كتابتها. وشكونا الأمر إلى قائد المعسكر وهو المتفهم لوضعنا العارف بأننا لسنا جنوداً أغراراً. واستجاب الرجل لشكوانا فجمع مدربيه وحظر عليهم استخدام الشتائم. فكيف جرى الأمر في ظل هذا الحظر؟ كبير المدربين، المساعد الذي لا شك في أريحيته وتفانيه في العمل حلّها بهذه الطريقة: «إجر يا رفيق! أقول لك يا رفيق حتى لا أقول يا حمار فتذهب وتشتكي مثل النسوان». وحلّها المدربون الآخرون بالطريقة ذاتها أو

بما يماثلها، مما جعل الشتائم المباشرة أرحم وقعاً، وجعلنا نغضّ النظر عنها.

في ختام الأسبوع الثالث، وصلت إلى المعسكر برقية بشأني. فعرفت أني سميت عضوا في قيادة الوفد الذاهب إلى مهرجان الشباب العالمي. وهكذا، ودعتُ ناس المعسكر على عجل، وتوجهت إلى دمشق حتى ألحق بالوفد المسافر في اليوم التالي.

ولعلك تفهمني إن قلت لك إن تلك التجربة القصيرة في المعسكر كانت تجربة لا تنسى. لا أشير بهذا إلى التدريب على السلاح فالتدريب الذي تلقيته أنا الذي لم يتم الدورة لم يزد كثيراً عما يتلقاه المتطوع في الجيش الشعبي، بل أتحدث عن الشدّ والجذب بين البيروقراطية العسكرية وبين نازعي المستحكم إلى التميز والتفلت من القيود، بين الذهن الذي ألف أن يظل متوقداً على مدار الساعة وبين الظروف التي تدفع هذا الذهن إلى الاسترخاء والتبلّد. ولولا جدّة المهمة التي ندبت إليها وفرادتها لآثرت البقاء في المعسكر.

تشكل الوفد من مائة وعشرين عضواً لهم قيادة سميت أنا عضوا فيها وسمي غريمي في اللجنة التحضيرية سهيل مهنا رئيسا لها. وضمّ الوفد عدداً من أعضاء منظمة الشبيبة البعثية واتحاد الطلاب الذي يهيمن البعثيون عليه. إلا أن الوفد ضم أيضاً عدداً غير قليل من الذين لم يعودوا شباباً. وكان من هؤلاء صحافيون مثلي وأدباء وموسيقيون وممثلات وممثلون، كما كان منهم مدنيون وعسكريون. أما قيادة الوفد فقد ضمت من الذين لا أزال أتذكر أسماءهم الفلسطيني الدكتور غازي حسين والشاعر علي الجندي والعقيد غازي أبو عقل قائد إدارة التوجيه المعنوي في الجيش. وبعد عنتٍ وجدل شديدين، ضمّ البعثيون إلى الوفد عشرة أعضاء من منظمة الشبيبة الشيوعية دون أن يصير أي شيوعي عضواً في قيادة الوفد. ومن حسن حظي أن سعيد مراد صديقي الذي آنس إليه كان واحداً من العشرة.

وفرت شركة الطيران السورية رحلة خاصة لنقل الوفد إلى صوفيا. وعلى

سلم الطائرة انتبهت إلى أن الصاعد بجانبي هو سهيل مهنا. فكان من الطبيعي أن أسأله عن الموضوع الذي اختصمنا بشأنه وما الذي انتهى إليه القرار بشأن التعامل مع وفد راكاح الإسرائيلي والشاعرين محمود درويش وسميح القاسم. وقد أجابني سهيل وهو لا يخفي امتعاضه بأن القيادة القطرية تركت لقيادة الوفد أن تتصرف في ضوء واقع المهرجان ومواقف الوفود العربية الأخرى والتنسيق مع هذه الوفود. هذا الحل أرضاني، إذ كنت واثقاً من أن استخدام هذين المعيارين سوف يفضي إلى سلوك إيجابي تجاه راكاح وأعضاء وفده. أما سهيل فإنه أفصح عن نيته حين أضاف إنه سيطلب من الوفود العربية أن تتضامن في الضغط على منظمي المهرجان «كي يمنعوا هذا الوفد الصهيوني من الاشتراك فيه». نعم، الصهيوني، هكذا وصف رئيس الوفد السوري وفد راكاح الشيوعي وفي عداده أشهر شعراء المقاومة العربية لإسرائيل. وكان هذا وقتها أمراً مألوفاً من البعثيين.

٢٢ اتهمت بمصافحة محمود درويش وكانت تلك تهمة خطيرة

صوفيا أميرة انقطعت صلتها بالبلاط وبقي لها من تأثيراته النظافة والأناقة والمظهر الفتّان. مدينة تملأ ألوان الورود فراغاتها وتجلس هي مستريحة في كنف جبلها الأخضر وتهب زوارها متعها المتقشفة بغير عناء. صوفيا، هذه التي كنت أزورها للمرة الثانية، أعدّت نفسها إعداداً خاصاً من أجل استقبال ألوف الشبان القادمين من كل مكان في العالم، فتزينت أتم زينة، وأصلحت وسائل الخدمات فيها أتمّ إصلاح، وهيأت فنادقها العديدة والكثير من أبنية السكن الجديدة كي يقيم فيها ناس المهرجان بأتم راحة وينشطوا ما احتاجوا إلى النشاط ويسمروا كلما طاب لهم السمر، في الليل كما في النهار. وكان من المتيسر أن نظفر بحصتنا من متع المهرجان الفريد لو لم نجلب معنا عقدنا وهمومنا ونزاعاتنا وننشغل بها.

وصلنا إلى العاصمة البلغارية قبل يومين من موعد الافتتاح الرسمي للمهرجان. وبعد ساعة من هبوطنا في المطار، كنا قد توزعنا شقق بناية سكنية كبيرة، كل شقة منها مكونة من حجرتين للنوم وحجرة جلوس ومطبخ وحمام. وقد خصصت شقة لكل أربعة أعضاء. أما أعضاء القيادة فمُيزوا بتخصيص شقة لكل اثنين منهم. وأمضينا بقية النهار في استكمال الترتيبات التي لا بدّ منها. شاركني الدكتور غازي حسين شقة الإقامة ورضيت به، فقد كان هذا

الباحث في قسم الدراسات في القصر الجمهوري صديقاً لي، وكان من الذين شاركوني الرأي بضرورة الحفاوة بالشعراء القادمين في عداد وفد راكاح.

ولد غازي، هذا الذي لا يكبرني إلا بسنين قليلة، في قرية سلمة جنوبي يافا غير بعيد عنها. وبعد الهجرة، استقرت أسرة غازي في الضفة الغربية. وهناك أتمّ دراسته الثانوية، ويبدو أنه كان من التلاميذ الناشطين في العمل العام فاجتذبه الشيوعيون إلى حزبهم ثم وفروا له منحة دراسية جامعية، فتمكن من دراسة القانون الدولي في جامعة لايبزغ في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وهناك تزوج فتاة ألمانية وطاب له المقام في البلدة الجميلة، فتابع دراساته العليا، فظفر بالماجستير ثم بالدكتوراه هابيل. وفي غضون ذلك جارى غازي ما فعله مبعوثون شيوعيون غيره كثيرون، فتضاءلت علاقته بالحزب الشيوعي الذي أوفده، وانفصمت العلاقة مع انتهائه من آخر مراحل دراسته. وفي غضون ذلك أيضاً، نشأت علاقة صداقة بين غازي هذا وبين صديقي البعثي نشأت الحمارنة الذي كان يتخصص في طب العيون. ولما كان نشأت مولعاً باجتذاب الذين يتصور أنهم تقدميون إلى حزب البعث، فقد أغوى صديقه غازي بالتوجه إلى سورية. وكانت الغواية شديدة، لأن نشأت وفر لصديقه الشيوعي السابق فرصة العمل في القصر الجمهوري بالذات، ولم يكن هذا قليل الإغواء لحامل درجة علمية جاء من منابت الفلاحين. وكما يقع لأي شيوعي ينتقل إلى صفوف القوميين، غالى الدكتور غازي في مجاراته للتشدد القومي البعثي وجنّد قلمه وكذلك لسانه لمهاجمة القرار ٢٤٢ وكشف عيوب القرارات الدولية التي يرفضها البعثيون. ولم يترك غازي شعاراً متشدداً من شعارات البعث إلا تعمد أن يدافع عنه ويهاجم منتقديه. كان صاحب لقب الدكتور هابيل يكتب مقالاته في القصر الجمهوري ويرسلها إليّ لتنشر في **البعث**، وكنت أنشرها، بالطبع، دون أن أكفّ عن محاججة صاحبها بشأنها كلما لقيته. ولأمر ما، تقبل غازي انتقاداتي لمواقفه دون ضغينة، بل إنه كثيراً ما استكان أمام هجومي على تطرفه. والحاصل أننا صرنا أصدقاء.

ولما كان غازي عضواً في اللجنة التحضيرية التي تعاركت فيها مع سهيل، فقد شهد هذا العراك، وأدلى برأي فيه لا يدينني، ثم ترقب توجيهات القيادة القطرية فلما عرفها استخلص ما استخلصته أنا من أنها إيجابية. وفي الطائرة التي جلست فيها بجانب غازي، بادر هو متطوعاً إلى القول إنه يؤيد رأيي ضد رأي سهيل. وقال الفلسطيني الذي زاملني في قيادة الوفد السوري: «القادمون مع وفد راكاح أهلنا، ومن المعيب ألا نحتفي بهم»، ووعدني بأن يدعم موقفي في قيادة الوفد.

منذ وصولنا، تصرف سهيل بهدي النية التي أفصح عنها ونحن على سلم الطائرة، وباشر الاتصالات للتحريض ضد وفد راكاح دون أن ينشغل بأي همّ آخر. وسلك سهيل في الوفد سلوك ديكتاتور ينذر ويتوعد، فأرهب الأعضاء وفرض جواً أقل ما يوصف به أنه مغاير للجوّ الذي جئنا لنشترك فيه. وأعلن سهيل أنه يملك صلاحية إلغاء عضوية أي عضو في الوفد وترحيله إلى سورية، فأرغم الأغلبية على الإنصياع. وأمضينا اليومين الأولين في جدل ممض مع سهيل هذا، وذلك قبل أن يتحول الجدل إلى صدام.

لقيت دعوة سهيل إلى مقاطعة وفد راكاح الصدّ من أي جهة سمعت بها. وفي اجتماع رؤساء الوفود العربية، لم يكتف هؤلاء بصد رئيس وفدنا، بل أبلغوا إليه أنهم عازمون على إبراز وجود وفد راكاح والحفاوة به. لم يعنهم العرب أو أصدقاؤهم الأجانب كيف يطالب عربي تعرض بلده لعدوان إسرائيل باستبعاد وفد جاء من إسرائيل ذاتها ليظهر تأييده للعرب ويفضح العدوان. لكن سهيل لم يأبه للصدّ ولم يقم وزناً لأحد، بل راح يحرض أعضاء الوفد السوري ضد الوفود العربية ذاتها ويتهم قادتها بأنهم عملاء للإمبريالية وجواسيس لإسرائيل، أو أنهم في أقل الحالات متهاونون في حق أمّة العرب.

ولأن أمر وجود خلاف بيني وبين سهيل شاع، فقد جاءني رئيس الوفد المصري وحثني على فعل شيء لإيقاف نشاط سهيل هذا الذي تحول إلى مهزلة مؤلمة.

فطلبت من سهيل أن يعقد اجتماعاً لقيادة الوفد وأنذرته بأني سأتصرف وحدي وعلى مسؤوليتي إن أهمل الرجوع إلى القيادة وتهرب من عقد الاجتماع. كنت أعول على اثنين في قيادة الوفد: الدكتور غازي حسين والشاعر علي الجندي. أما لماذا عولت على عليّ الذي يبغضني فلأنه هو الذي قدّم محمود درويش وسميح القاسم وكوكبة الشعراء العرب في إسرائيل إلى المستمعين في برنامج إذاعي واظب على إعداده لإذاعة دمشق منذ سنوات وكان من أشد المعجبين بشعرهم.

وفي اجتماع قيادة الوفد، جاءت المفاجأة الأولى. فغازي حسين لم يكتف بالصمت أو الامتناع عن تأييد موقفي، بل كافح ضدي وصوت ضد هذا الموقف. ولم أتمكن في هذا الاجتماع من تحقيق أي شيء مفيد سوى الإفصاح عن رأيي بوضوح. وقد أعلنت أمام قيادة الوفد، الأقلية التي أيدتني والأغلبية التي عارضت، أني عازم على التصرف وفق قناعاتي وأن القرار الذي اتخذته الأغلبية مخالف للتوجيهات التي تلقاها الوفد في سورية. وهكذا، انتقلنا إلى الصراع المكشوف. المفاجأة الثانية جاءت من علي الجندي. فقد اقترحت على علي أن يبادر إلى الاتصال بمحمود درويش ويجهر بمبادرته لعل في هذا ما يكسر حدّة المتطرفين ضده. فاستكثر علي أن تجيء المبادرة منه، لكنه قبل اقتراحي بأن يستجيب هو إلى المبادرة إن جاءت من محمود الذي هو في رأيي أهم أصحابه. من هنا اشتعلت الفكرة التي راودتني منذ البداية ولجمتها عندما كنت أسعى للحصول على موافقة قيادة الوفد: لماذا لا أبحث عن الشاعر فأشبع توقي إلى لقائه وأحثه على المساعدة لكسر حلقة البغض الذي أججه مسلك سهيل.

في هذا البحث، انضم إلي الصديق سعيد مراد الذي لا يعوزه الفهم الصحيح ولا يقل توقه إلى لقاء محمود عن توقي. وهكذا، توجهنا، سعيد وأنا معاً إلى المبنى الذي يقيم فيه وفد راكاح. وبعد وقفة أمام المبنى، ظهر محمود ومعه سميح فتقدمنا منهما، وشرعت في تقديم نفسي وصاحبي إليهما. فلم أكد أذكر أننا من الوفد السوري حتى انتفض سميح بنزق وقال بعنجهية لا تقل

سوء عن عنجهية المتطرفين من البعثيين إن الغبار الذي على حذائه أنظفُ وأكثر وطنية منا نحن أعضاء الوفد السوري. ثم لم يتح لنا أي فرصة لأي إيضاح، بل انصرف حانقاً وهو ما يزال يبربر بالشتائم. أما محمود المندهش مثلنا إزاء رد فعل زميله، فقد سلك سلوكاً مختلفاً، فبدأ بالاعتذار عن نزق سميح. ثم سألنا عن السبب الذي دفعنا لتجشم عناء البحث عنه، وعندما عرف السبب كرر الاعتذار ودعانا إلى فنجان قهوة في الكافيتيريا القريبة. وهناك أمكن أن نتكلم بهدوء ونقول ما جئنا من أجل قوله.

بدا الشاعر الفلسطيني المبتلى هو نفسه بوجوده تحت السلطة الإسرائيلية ظاهر الاستياء من موقف الوفد السوري وتحريضاته. والواقع كما قال هو أن هذا الموقف فاجأه مفاجأة مؤلمة، فهو يحبّ سورية ويعرف أن شعبيته فيها راسخة، ويشعر بالامتنان لأن الإذاعة السورية رعت شعره وشعر زملائه وروجته على أوسع نطاق، وقد صدمه الصد والتجني، ولم يقع على دوافع تسوغهما. فكان لا بدّ من أن أشرح لمحمود خلفية هذا الموقف. فقلت إن البعثيين في رفضهم اسم إسرائيل ذاته وأيا من مشتقاته يرفضون الاعتراف براكاح بما هو حزب إسرائيلي. وهم يأخذون على هذا الحزب أنه ينطلق من الإقرار بوجود إسرائيل وحقها في الاستمرار. ويدعو العرب إلى عقد تسوية معها، ولا يغوي البعثيين أن الدعوة إلى التسوية تشتمل على الإقرار بحق العرب في استعادة أرضهم التي توسعت إسرائيل فيها بالقوة وتطبيق قرارات الأمم المتحدة. فالبعثيون ضد التوسع الجديد وضد القرارات. وهم يأبون أن يقيموا أي اتصال مع راكاح أو أي من ناسه ويدينون من يتصل بهم. وذكرت لمحمود أننا بحاجة إلى شيء من الليونة منهم لعلها تساعدنا في تليين الجانب الذي ننتمي إليه، وسألته في هذا السياق عما إذا كان بالإمكان أن يظهروا في مسيرة الافتتاح دون أن يحملوا العلم الإسرائيلي. فقال محمود إنهم في الحزب قد ناقشوا مثل هذا الاقتراح فوجدوا أن استنكافهم عن حمل العلم سيسوغ الدعوة الناشطة في إسرائيل لحجب الشرعية القانونية عن الحزب،

وهم في غنى عن هذه المجازفة من أجل مسألة هي في نهاية المطاف شكلية. فسألت محمود عما إذا كان من الممكن أن يمتنع هو وسميح عن الاشتراك في المسيرة فهما في العالم العربي رمزان لمقاومة العرب للطغيان الإسرائيلي ومن غير المستحب أن يشاهدا في مسيرة في ظل علم إسرائيل. هنا، أيضاً، أورد محمود حجة مقنعة، ذلك أن استنكاف أي من أعضاء الوفد بهذا الدافع سوف يعني تلقائياً أن الآخرين آثمون، وليس هو الذي يرضى بأن يتعرض رفاقه للقيل والقال على حساب طهارته.

بعد ذلك، ذكرت الاقتراح المتعلق بالمبادرة إلى الاتصال بعلي الجندي وأطلعت محمود على اتفاقي مع علي. فقبل محمود الاقتراح دون ممانعة ووعد بالاتصال بعلي في وقت تناول الغداء في اليوم التالي وهو الوقت الذي ضمنا أن يكون علي فيه قريباً من الهاتف. وقد نفذ محمود وعده. ومن سوء الحظ أن علي لم يكن هو الذي التقط السماعة كما توقعنا، فلما جاءه ملتقطها وكنت موجوداً بجانبه ودعاه إلى الحديث مع محمود، جبن علي أمام العيون التي أحاطت به وامتنع عن التوجه إلى الهاتف.

اللقاء في الكافيتريا تلته سهرة طيبة اخترنا لها مكاناً بعيداً عن أنظار الساخطين وشهدها عدد منتقى من عرب آخرين فتنتهم فرصة اللقاء مع محمود. وكانت في اللقاء الأردنية ليلى نفاع التي ستصير زوجة صديق العمر منير الحمارنة. تعرفت على ليلى وأختها الأكبر الزعيمة الشيوعية إميلي نفاع في لقاء ضمني مع قادة الوفد الأردني وموجهيه من قادة الحزب الشيوعي. وقد اجتذب انتباهي في الأختين رقيّ سلوكهما ومتانة شخصيتيهما وحرارة انهماكهما في الشأن العام. ولما تحدثت عن مشروع السهرة المتفق عليها مع محمود، أبدت ليلى رغبتها في المشاركة، فكانت فرصة زادتني معرفة بها وإعجاباً بسلوكها. وأنا الذي همست في أذن منير بعد عودتي إلى دمشق: «لماذا لا تنهي عزوبيتك، وأمامك هذه الشابة الرائعة!» أما في ذلك المساء، فقد توجهت جماعتنا إلى سدّ «إيسكر» الشهير وبحيرته الفاتنة واحتوانا مطعم مشرف

على السد والبحيرة، فطاب السهر وفاضت المواجد. وعندما أقفل المطعم أبوابه بعد أن انتصف الليل، لم نشأ أن نفترق عن محمود فهبطنا إلى شاطئ البحيرة وبقينا هناك حتى الفجر وما أكثر ما بحنا به في تلك الليلة، وما أشدّ ما أحسسنا بالتقارب. بلاد العرب أوطاني، نعم، والفلسطينيون، أينما كانوا وأيا كانت وثيقة السفر التي يحملونها أهلي وأهل العرب كلهم.

لم نفطن ونحن مفتونون بجو اللقاء إلى أن وسائل المواصلات تتوقف عند منتصف الليل. ولما كنا بعيدين عن صوفيا خمسة عشر كيلومتراً فقد تعذر أن نعود إليها على الأقدام. لكن الصدف التي طالما نجتنا من المآزق أوقفت شاحنة خضار بالقرب من مجلسنا فهرعنا إليها. وكان سائق الشاحنة أريحياً فأذن لنا أن نعتلي صناديق البندورة ورؤوس القرنبيط وأكياس الجزر التي تملأ صندوق الشاحنة. وبدل أن ينزلنا عند سوق الخضار أصر السائق المفتون بحمله الإضافي على أن يخترق وسط المدينة العامر حتى الصباح بالأضواء والناس وينزلنا أمام أفخم فنادق المدينة. وهناك، وقعت عيوننا على رائد فضاء سوفياتي تعرفنا عليه لأننا نعرف صورته، واستخفتنا النشوة فتقدمنا نحوه مرحين. وهاأنذا أتذكر هيئة الرجل وهو يراقب تقدمنا نحوه ثم وهو يستمع إلى تعريفنا بأنفسنا. ولأمر ما لعله الغيظ من موقف رفاق وفدي، وبعد أن قدمت نفسي بوصفي فلسطينياً وليلى بوصفها أردنية وسعيد مراد بوصفه سورياً وجدتني أشير إلى محمود وأقول: إسرائيلي. وقتها فقط، فتح رائد الفضاء فمه وخرج منه التعبير عن الدهشة: «سوري وإسرائيلي معاً!» فتبرع الذين حولي بتقديم الإيضاحات فاختلطت أصواتهم ولم أتمكن من تقديم إيضاحي. وقد أردت أن أقول للسوفياتي المدهوش إني سأحب الشاعر محمود درويش حتى لو كان حقاً إسرائيلياً، ولكنه في واقع الأمر فلسطيني وليس له أن يكون أي شيء آخر.

بعد فشله في تحريض أي وفد، أرسل سهيل برقية إلى القيادة القطرية في دمشق يشرح فيها الموقف حسب رؤيته له، ويطلب الإذن بالانسحاب من

المهرجان والعودة بالوفد إلى بلده. وجاء جواب القيادة سريعاً برفض الانسحاب، ولكنه أجاز للوفد أن يقاطع مسيرة الافتتاح وحدها. وما دامت القيادة القطرية هي التي رسمت رد الفعل الرمزي هذا فقد توجب علي أن ألتزمه إذ لم يعد من الممكن أن أتذرع باختلافي أنا عن سهيل في تفسير توجيهات القيادة.

وعند افتتاح المهرجان، صار وضعنا طريفاً بمقدار ما يمكن للسلوك المؤسي أن يصير غريباً إلى حد الطرافة. انتظمت وفود المهرجان كلها في مسيرة متصلة امتدت على طول سبع كيلومترات في شوارع صوفيا. وتفنن كل وفد في إظهار أميز ما يميز بلده من فنون وفولكلور ومهارات. وقطع أغلب الوفود المسيرة على أيقاع الآلات الموسيقية الأكثر شعبية في بلده وبالأزياء الأجمل والأغاني الأفتن. أما الوفد السوري الذي لم يكن أكبر الوفود ولا حتى من الوفود الكبيرة، فنأى بنفسه عن المسيرة، وتوجه إلى الاستاديوم الرياضي الكبير، حيث ستصب المسيرة المشاركين فيها على مدرجاته ويشهد ملعبه احتفالات الافتتاح. واتبع أعضاء الوفد تعليمات سهيل، فتعجلوا احتلال المكان المخصص لهم بأمل أن يراهم الناس فيعرفوا أنهم مقاطعون. وهناك حططتُ على مقعدي بين جماعة الوفد وحطَّتْ علي الهموم.

وفدت الوفود إلى الاستاديوم تباعاً، يعبر الوفد البوابة المفضية إلى باحة الملعب فيستقبله الذين سبقوه بما يليق بمكانته من هتافات وتهاليل، ثم يطوف حول الباحة إلى أن يبلغ المكان المخصص له على الدرجات وينضمّ إلى المرحبين بالوفود التالية. وسط هذا كلّه، أصر أنصار سهيل في وفدنا على تمييز أنفسهم بسوء السلوك، فصاروا كلما مر وفد عاملوه حسب موقفهم من سياسة نظام الحكم في بلده. فإذا عرفت أن أنظمة الحكم التي يرضى البعثيون عنها قليلة، فستدرك أن الشتائم هي التي غالبا ما انطلقت من الأفواه كلما وصل وفد جديد. أما عبارة «فلسطين عربية» فصارت لازمة ترددها الجماعة بمناسبة وغير مناسبة بين كل شتيمة وأخرى. وهكذا، بدونا وسط صخب التهاليل

والأفراح حفنة معزولة، وظهرنا كأننا مهووسون خرجوا عن السرب دون أن يكون لخروجهم سبب معقول.

ما كان أعمق أغوار الأسى الذي غمرني في تلك الساعة!

وقد بلغ أساي أعمق أعماقه عندما وصل إلى الستاديوم وفد راكاح. لم يكن الوفد كبير العدد إلا أنه كان حسن التنظيم، ولم يكن يحمل أي آلة موسيقية ولا كان يغني، بل طاف حول الملعب صامتاً ورفع يافطتين كبيرتين واحدة بالعربية وأخرى بالإنجليزية والنص واحد: «أرض العرب للعرب، مع الشعوب العربية ضد الاحتلال الإسرائيلي». ولأن الذين يقولون هذا القول إسرائيليون قادمون من إسرائيل، فقد ألهب ظهورهم حماساً لم يقابل به أي وفد آخر سوى الوفد الأمريكي الذي حمل هو الآخر يافطة تدين السياسة الإمبريالية الأمريكية وعداءها للشعوب. لقد وقف لتحية وفد راكاح كل من كان في الاستاديوم وملأ صخب التحايا الجوّ. وأعضاء وفدنا وقفوا هم الآخرون لكن ليشتموا. وتميز وسط الشتائم التي لا يسمعها أحد سوى قاذفيها صوت الممثلة هالة شوكت وهي تردد: «فلسطين عربية» بنبرة تبدأ العبارة معها لمن لا يعرف العربية كأنها شتيمة موجهة إلى حاملي اليافطة التي تعلن أن أرض العرب للعرب. ولو أن دموعي لم تجفّ منذ زمن طويل لفاضت على آخرها في ذلك الموقف.

وفي المساء. أصدر سهيل أوامر تحظر على أي عضو الخروج من المبنى، وأعلن أنه سيطوف على الشقق ليتأكد من أن الجميع موجود فيها. وجاءني من اشتكى، فراجعت سهيل، فاتضح أن منظمي المهرجان أعدوا قاعة للرقص تتسع لخمسة آلاف راقص، والقاعة سوف تُفتح في تلك الليلة وستجيء مجموعات الراقصين من مختلف البلدان ومع كل منها آلاتها وألحانها فتتناوب العزف فيرقص من يشاء على النغم الذي يستهويه، طيلة الليل. وبافتراض أن العرب أمة محاربة، استنّ سهيل قاعدة أن المحارب لا يرقص واحتبس أعضاء الوفد في المبنى حتى لا يتسلل أي منهم إلى القاعة فيسيء بالرقص إلى حرب

الأمة ضد أعدائها. ومن هذه الحكاية، اكتشفت أن سهيل يخفي عني ما تتلقاه قيادة الوفد من إعلانات عن نشاطات أو دعوات إلى حفلات وندوات.

لم أكن بعد آلام الافتتاح تواقاً إلى الرقص في ذلك المساء. غير أن سخطي على إجراءات سهيل أخرجني من المبنى وحملني إلى القاعة وأبقاني فيها ساعات. وفي الصباح، بكرت في الذهاب إلى المركز الصحافي وسجلت اسمي في قائمة الذين يغطّون المهرجان. وبعد هذا التدبير الذي لم أبح به أمام الذين ينقلون الكلام إلى سهيل، صار رئيس الوفد يقع علي في أي مكان حجب عني الدعوة إليه، وصرت أستمتع بمراقبته وهو يتميز من الغيظ.

في اليوم الثاني أو الثالث للمهرجان، جاء دور العسكريين ليضيفوا غريبة أخرى إلى الغرائب التي أتاها مدنيو الوفد، وفي هذا اليوم، وصل العقيد غازي أبو عقل إلى اجتماع قيادة الوفد متأخراً، وبدا في هيئة من فرغ لتوه من إنجاز عمل شاق لكنه جليل الشأن، وقطع مسار حديثنا وروى حكاية ما فرغ من أدائه. ان هذا هو العقيد نفسه الذي أملى على عبد الله الحوراني نص بلاغ سقوط القنيطرة بيد الإسرائيليين ثم أملى بعد ساعات نص بلاغ جديد يكذب سابقه، وهو الذي أطلقنا عليه من باب التندر اسم «غازي أبو عقلين»، بدل اسمه «أبو عقل» واحد. وقد لاحظ أبو العقل أو العقلين أن وفد راكاح يوزع كتاباً مطبوعاً بالكلمة والصورة، فغاظه هذا وقرر أن يفعل شيئاً ضد الكتاب، فقام هو والعسكريون الذين جاء بهم في عداد الوفد، وكانوا أربعة، بالاستطلاع اللازم فرأى أن موزعي الكتاب يضعون رزماً منه في الأماكن المطروقة، كمداخل قاعات الاجتماعات الكبيرة أو المطاعم. وأحصى العقيد هذه الأماكن، ثم واصل الاستطلاع فاكتشف أن أقبية مباني الجامعة التي تضم أجهزة التدفئة المركزية غير مطروقة في هذا الوقت من العام. وفي ضوء استطلاعه، وضع العقيد خطته لإبعاد الكتاب عن المتناول، ونفذها «دون أن يثير انتباه أحد»، كما قال لنا مباهياً بدقته ونباهته. وانتهى الأمر بأن انتهت نسخ الكتاب كلها إلى ظلام الأقبية. وقد جاءنا العقيد بنسخة من الكتاب، وكان عنوانه «إسرائيليون آخرون»، وفيه تظهر بالكلام والصور

قباحة العدوان الإسرائيلي على أرض العرب ومواطنهم، وليس أي شيء آخر، وعندما حاولت أن أجتذب الانتباه، إلى خطأ ما أقدم العقيد عليه، صمت الذين أدركوا كم هو الخطأ فادح، وأيد الآخرون العقيد وأثنوا على غريبته، ولم يجهر أحد بأيّ تأييد لي.

بكلمات أخرى، صرت في قيادة الوفد منبوذاً أو كالمنبوذ. أما أعضاء الوفد فإن أمري معهم اختلف. البعثيون من الأعضاء توزعت ردود أفعالهم بين إدراكهم سلامة ما أدعو إليه وتهيبهم الجهر بموقفهم. والشيوعيون أيدوني بغير تحفظ. وأيدتني البقية بتحفظ أو بدونه. بين الجميع، تميز موقف الشاعر علي كنعان. فعند علي هذا، كان محمود درويش أهمّ شاعر عربي يظهر منذ عهد المتنبي. من هنا، كان تأزم علي شديداً؛ فقد فهم أن يجد شاعره الكبير نفسه في عداد الوفد الإسرائيلي لأن هذه هي إحدى إفرازات القضية الفلسطينية المعقدة؛ لكنه لم يستسغ رؤية الشاعر الكبير سائراً في ظل علم إسرائيل. كان علي صادقاً في فهمه وفي رفضه، وقد زعزعه مشهد شاعر المقاومة سائراً تحت علم إسرائيل وأورثه اضطراباً في روحه لم يبرأ منه لوقت طويل. تميز أيضاً موقف الممثلة هالة شوكت، لكن ليس بالصدق بل بما هو عكسه. فقد جارت هالة موقف سهيل وبدت أكثر طواعية له من أي عضو آخر، وذلك في العلن. وفي الخفاء استصوبت الممثلة الباحثة عن النجومية موقفي وحثتني على الاستمرار، ورجتني وكررت الرجاء كي أدبر لها لقاء مع محمود: «سأموت إذا لم أره». وهاأنذا أقرّ بأني حرمت محمود درويش متعة اللقاء بالممثلة المفتونة به.

وإذا انقسم أعضاء الوفد السوري في موقفهم مني، فإن أعضاء الوفد الفلسطيني الذي جاء إلى المهرجان باسم وفد م.ت.ف. أيّدوني بالإجماع وبضمنهم أعضاء في حزب البعث. وأظهر بعض هؤلاء حماساً زائداً فعرض أن يزور رئيس وفدنا ويحاول ثنيه عن تعنته. الوفود العربية جميعها بالمنتمين من أعضائها إلى أي تيار سياسي أيدتني وصارت لي فيها شهرة صاحب الرأي الجسور الذي يجذف ضد التيار. وأتيح لي أن أتعرف على كثيرين من

قادة الوفود العربية وأعقد معهم صلات استمرت بعد ذلك. وكان معظم هؤلاء من الشيوعيين أو الناصريين أو من في حكمهم وأسعدني بالطبع أن أجد في أجواء الوفود الأخرى تعويضاً عن معاناتي في الوفد السوري. وقد أتاحت لي صلتي بهذه الوفود أن أشهد نشاطات تخصها هي وحدها. وكان من أهم ما شهدته مما بقي في الذاكرة الندوة التي نظمتها مجلة **قضايا السلم والاشتراكية** على هامش المهرجان واشترك فيها ممثلو منظمات الشبيبة الشيوعية وتحدثوا عن تجاربها المتنوعة. فصديقي الأردني آمال نفاع كان واحداً من المشرفين على الندوة وهو الذي يسر لي حضورها.

وفي ختام أيام المهرجان العشرة، أقام ثيودور جيفكوف رئيس الدولة الأمين العام للحزب الشيوعي البلغاري حفل استقبال ضخم دُعي إليه أعضاء قيادات الوفود كافة. هذه المرة لم يكتف سهيل بحجب بطاقتي عني، بل تشدد في التكتم أيضاً، وأعطى بطاقتي لهالة شوكت فضمن أن الممثلة التي تطلعني على أسرارها لن تبوح لي بهذا السرّ بالذات. بالرغم من هذه الاحتياطات، فوجئ سهيل وصحبه ليس فقط بأني قد سبقتهم، بل، أيضاً، بأني أقف قريباً من جيفكوف في حلقة يتوسطها وزير خارجية بلغاريا ويشع منها المرح. ومن موقعي هذا، رأيت الرفاق البعثيين وقد أخذوا دورهم في الصف المتجه إلى مصافحة جيفكوف، ورأيت كيف قدّموا هالة شوكت عليهم، ثم رأيت هالة وقد أمسكت يد الزعيم البلغاري وهزتها هزّة قوية وهي تهتف كأنها في مظاهرة: «فلسطين عربية!» وذلك بدل عبارة التحية.

اللافت للنظر في الأمر كلّه أن ما بدا لي أنا غريباً أو شاذاً أو سخيفاً بدا لمعظم بعثيي الوفد عادياً. وصار علي أن أصل بالهواجس التي تشغلني منذ سنين بشأن بقائي في حزب البعث إلى نهايتها المنطقية فالبعثيون هم البعثيون، وهذا الحزب هو حزبهم، ولا مجال للتبديل، وكل ما في الأمر أني لم أعد ملائماً.

وفي الطائرة، في رحلة العودة إلى دمشق، عرفت أن حقد الحاقدين علي تبلور

في تقرير أعد ليرفع إلى قيادة الحزب القومية يصف أفعالي ويطلب فصلي من الحزب. علم علي كنعان بوجود التقرير لأن مقدميه طلبوا منه أن يوقع عليه، وعدّ الأمر مؤامرة، وظن العارف بشهرتي في الاطلاع على الأسرار أني مطلع على هذا الأمر، فجاء إلي في الطائرة ليبرئ نفسه من هذه الدنيّة.

ما كان أطيب علي كنعان وأنظف ضميره! فهذا البعثي الشاب القادم إلى العاصمة من ريف تدمر والمسكون بما يسكن الريفيّ الأصيل من توق إلى النزاهة، كان أكثر أعضاء الوفد ضيقاً بوجود محمود درويش في الوضع الذي رآه فيه، لكنه أبى أن يسهم في التشهير بمحمود أو يستثمر جرح الفلسطيني المرغم على حمل الجنسية الإسرائيلية إرغاماً، وأبى، خصوصاً، أن يعاديني لأني دافعت عن محمود وأصحابه. عجز علي عن ابتلاع المسألة المعقدة، لكنه لم يجعل من عجزه مسوغاً لاتهام أيما أحد: «هم كتبوا التقرير ووقعوا عليه، وقد رفضت أن أوقع». و «هم» هذه شملت أربعة بعثيين: سهيل مهنا وعلي الجندي اللذين صرت تعرف شأنهما معي، وفايز قنديل المذيع الفلسطيني القديم المنتقل إلى الصحافة، والذي يتصرف كأنه الوحيد الموكل بالاحتفاظ بنقاوة عروبة فلسطين، ولعله هو الوحيد بين الأربعة الذي نقم علي بدافع اعتقاده أن سلوكي يشوه هذه النقاوة، والقاص حيدر حيدر، هذا الذي احتفظ طيلة أيام المهرجان بصمت ظننته أريباً فلم أعرف أن له موقفاً معي أو ضدي إلا حين عرفت أنه وقّع التقرير. وقد اتهمني هؤلاء بأني خالفت قرارات قيادة الوفد المعطوفة على توجيهات قيادة الحزب وحرضت أعضاء وفدنا والوفود الأخرى ضدها وشاركت في نشاطات عربية مخصصة للشيوعيين وحدهم، وانفردت بمصافحة محمود درويش إمعاناً مني في التحدي ومخالفة سياسة البعث.

والحقيقة أن هؤلاء لم يعرفوا من وقائع اتصالاتي بمحمود إلا الواقعة التي جرت علناً وهي واقعة المصافحة. فقد نظم الوفد العراقي الشيوعي أمسية لتكريم شاعر العراق محمد مهدي الجواهري والاستماع إليه. ولبيت أنا دعوة

العراقيين. وما أن دخلت القاعة المكتظة حتى وقعت عيني على محمود درويش جالساً في الصف الأول ولحظ هو دخولي فتبادلنا التحية بهزة رأس وتلويحة يد. غير أن مضيفينا العراقيين شاءوا أن يبرزوا تميز موقفي المطابق لموقفهم فقادتني جماعة منهم إلى حيث يجلس محمود، وهتف هاتفها بصوت توخى أن يسمعه الحاضرون أن قف يا محمود وحيّ الرفيق البعثي الجسور الذي خالف سياسة حزبه، والذي هو أنا. وهكذا، صنع الشيوعيون العراقيون من هذا اللقاء العابر «زيطة» سياسية. ووجدنا أنفسنا، محمود وأنا، كل من جانبه، مرغمين على مجاراتهم. وهكذا تصافحنا أمام جمهور القاعة الذي صفق للقاء التقدمي المهيب. ولو لم يكن محمود من الذين يأنفون تبادل التحية بالعناق، لما اقتصر الأمر على المصافحة وحدها!

هذه الواقعة شهدتها بعثية أردنية جاءت معنا من دمشق في عداد الوفد السوري. وقد أطلقت أنا على هذه البعثية اسم هند لأن في سلوكها ما ذكرني بشخصية هند زوجة أبي لهب التي أكلت كبد سيد فرسان المسلمين حمزة بن عبد المطلب. فلأسمّها هنا، أيضاً، هند. ولتعرف أنت أن هند هذه أظهرت إعجابها بموقفي عندما اختلفنا بشأنه في قيادة الوفد وحاولت التقرب منّي فاستجبت لها إلى أن ظهر لي أن دافع محاولتها لا يقتصر على الإعجاب بسلوكي السياسي. ولما لم أظهر انجذابا إلى هند بما هي أنثى، فقد انقلب موقفها منّي من الإعجاب إلى الضغينة، وظهر منها هذا الذي ذكرني بآكلة كبد الشهيد حمزة. وهند هذه هي التي نقلت واقعة المصافحة، وبالغت في وصف رد فعل القاعة، وعدّت ما جرى طعنة مني «لقضية العرب الأولى قضية فلسطين» فاقتبس معدّو التقرير هذا الوصف وأضافوا إليه جملة من الافتراءات لتعزز اتهامهم إياي وتجعله خطيراً.

داهمني شعور مركب، فقد سخطت على المفترين الذين خططوا للإساءة إلي، ووجدت في الوقت ذاته أن طلبهم طردي من حزبهم عادل. وأدركت أني لا

أستحق الطرد فقط، بل أرغب فيه أيضاً. ساءني أن أكون ضحية الجهل وضيق الأفق والافتراء، لكن المطالبة بإخراجي من الحزب لم تسؤني. إنه شعور الضحية إذا دفع بها دفعاً نحو مصير هو بالذات المصير الذي تجد فيه حلاً لمعاناتها.

كانوا في الطائرة يهذرون، يتبادلون الأمازيح والتعليقات، همساً أو بأصوات مرتفعة، ويتبارون في التباهي بما اشتروه من أسواق صوفيا وجلبوه معهم على طائرة الرحلة الخاصة التي لا تتعرض حوائج ركابها للوزن أو التدقيق الجمركي. وتركز هذر المازحين من حولي على واقعة أثارت أعضاء الوفد في اليوم السابق للسفر. فقد سمع أحدهم من إذاعة لندن بالعربية، وهي سيئة الالتقاط في صوفيا، نبأ استخلص منه أن انقلاباً عسكرياً وقع في سورية، فأصاب أعضاء الوفد ما أصابهم إلى أن تحروا الأمر فاتضح أن ما تحدثت عنه إذاعة لندن كان محاولة انقلاب جرت في جيش التحرير الفلسطيني وفشلت. وشاء علي الجندي، هو الذي لم يعلم أني علمت بأمر التقرير، أن يتظارف، فوجه إلي سؤالا من مقعده في الطائرة: «ماذا لو صح أن الانقلاب وقع فتعرض ركاب الطائرة إلى الاعتقال فور وصولهم إلى المطار؟» فواتتني الفرصة فاغتنمتها وقلت بصوت سمعه الجميع: «البركة فيك يا علي الجندي، أنت وكتاب التقارير، فأنا واثق من أنكم ستتوسطون لدى الحكام الجدد للإفراج عن المعتقلين».

فجر جوابي الضحك. وبقي علي وحده صامتاً فقد التقط مغزى كلامي بتمامه وأدرك أني أتهمه بالتلون. وأحسست أنا بأني تخففت من بعض ما يثقل على صدري.



٢٣ فصلوني من حزبهم وأبقوني في صحافته

يوم عودتنا إلى دمشق كان يوم خميس. حطت الطائرة في المطار في وقت ما بعد الظهر. وبلغتُ منزلي حين أوشكت الشمس على المغيب. وأملت في الظفر براحة مديدة ما دام اليوم التالي هو يوم عطلة. غير أن جرس الهاتف أقلق راحتي منذ وصلت، ثم لم ينقطع عن الرنين. شاعت الأنباء. ورغب كثيرون في معرفة ما جرى، فصار علي أن أنهمك في تقديم الإيضاحات.

كان الشاعر يوسف الخطيب بين أوائل الذين اتصلوا بي في ذلك المساء وجلجل صوته المتميز: «أخي فيصل! أنت، عندي، إنسان لا يكذب. ولي سؤال أحب أن أسمع الجواب عليه منك أنت بالذات».

سؤال يوسف له حكاية طويلة لا بدّ من أن أوجزها لك. فكما سبق أن قلت لك عُني هذا الشاعر في السنوات الأخيرة بجمع نصوص الشعراء العرب في إسرائيل، وجعلها في ديوان سماه **ديوان الأرض المحتلة** وطبعته دار النشر التي أسسها هو وكان في ذلك الوقت على وشك أن يبدأ في توزيع الديوان. وقد أتيح لي أن أطلع على هذا الديوان قبل توجهي إلى صوفيا. وساءني أن يوسف أغفل في المقدمة ذكر صفة هؤلاء الشعراء بما هم بمعظمهم شيوعيون فلفت نظره إلى خطورة هذا الإغفال ورجوت أن يتداركه. وفي صوفيا، مع

المشكلة التي نشأت حول محمود درويش أبرز شعراء الديوان، حضرتْ هذه الحكاية ودفعني استيائي إلى تأليف تشنيعة على يوسف على لسان محمود، فتدوولت بما هي طرفة يعرف الجميع أنها ليس أكثر من طرفة. تقول الطرفة إن محمود لقي في أحد شوارع صوفيا شخصاً توسم فيه ملامح عربي واتضح أن هذا الشخص من سورية، ففرح محمود للمصادفة وقال للسوري: «لي عندك حاجة فأرجو أن تتصل فور عودتك إلى دمشق بيوسف الخطيب وتبلغ إليه أن محمود يطالبه بأن يكفّ عن ترويج شعره وامتداحه!» ويبدو أن أحد أعضاء الوفد اتصل بيوسف ونقل إليه الطرفة المؤلفة تأليفاً بما هي واقعة حقيقية، وذلك كما هو واضح ليحرضه على محمود. وها هو يوسف قد لجأ إلي متحرياً مدى صدق الواقعة.

قاطعت يوسف الذي شرع في رواية الواقعة وأكملت بقيتها ليعرف أني أعرفها، ثم لم أعرف كيف أتصرف، فقد وثق الرجل بصدقي وأنا لا أريد أن أكذب، وإن أعلمته أنها تشنيعة ألفتها أنا فلن أعدو أن أحرضه علي. وهدتني الحاجة إلى جواب أتجنب به الكذب والضرر معاً فنفيت أن يكون محمود قد فاه بشيء مما تنسبه الحكاية له، ونقلت ليوسف ما قاله محمود لي عنه حقاً، فعرف يوسف أن زميله الكبير يشعر بالامتنان للجهد الذي بذله هو في جمع نصوص الديوان ويشكره عليه. ثم أضفت لأحرض يوسف من جانبي ضد خصومي: «الذين نقلوا لك الكلام المؤلف تأليفاً أعرفهم وأعرف من أين استقوه وبأي دافع نقلوه إليك: لقد أرادوا أن يقطعوا الصلة العميقة التي تشدّ أرواح شعراء فلسطين بعضها إلى بعض، وأكاد أجزم أن الذي سعى بهذه الوشاية إليك واحد من اثنين، صديقك علي الجندي أو صديقك الآخر حيدر حيدر». ففتن يوسف بجزمي الذي لقي هوى في نفسه، وهتف بالفصحى التي يستطيبها حين يستخفه الجذل: «لا تعوزك الفطنة أبداً أيها الحبيب. الواقع أن الاثنين هتفا لي، وهاتفني بعدهما صديقك فايز قنديل، هي إذا مؤامرة، لكن هؤلاء سيرون مني ما لا يسرهم».

يوسف المدفوع أيضاً بخشيته من أن تؤدي الحملة على محمود درويش وأصحابه إلى حظر توزيع الديوان في سورية انهمك بهمة في حملة الدفاع عن هؤلاء، وقابل رئيس الدولة ورئيس الحكومة ووزيري الثقافة والإعلام وقادة الحزب وكل من له نفوذ من الذين لهم صلة بالموضوع. وفي النهاية، ضمن يوسف توزيع الديوان، وصدر عن أعلى مراجع السلطة والحزب قرارات توجب على المؤسسات الرسمية شراء نسخ منه. وتقاطع جهد يوسف بالطبع مع جهدي للدفاع عن موقفي.

أما في ما يتعلق بالتقرير المكتوب ضدي فقد انتهت الأمور إلى نتيجة مغايرة. فقد حرص كاتبو التقرير على تسليمه للقيادة في يوم عودتهم. وبدأت تفاعلات أعادت إلى ذهني تفاعلات الحكاية التي أدت قبل الحرب إلى إقصائي عن موقعي الإداري في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون.

كانت التطورات العامة قد أفضت إلى رفع سوية التنظيم الفلسطيني في حزب البعث. فقد دمجت قيادة الحزب التنظيم الأردني بهذا التنظيم وجعلت للتنظيم الموحد مرتبة التنظيم القطري وجعلت له قيادة قطرية موحدة. وكانت الانتخابات الحزبية التي شرع في إجرائها أثناء غيابي هي، إذاً، الانتخابات الأهم في تاريخ هذا التنظيم. وكان صراع الكتلتين قد أجج التنافس العادي فحوّله إلى معركة ملتهبة. وكان زهير محسن قد انهمك في المعركة الانتخابية دون أن يحسم ولاءه لهذه الكتلة أو تلك. وقد أظهرت نتائج الجولة الأولى التي جرت أثناء غيابي أن زهير والمجتمعين حوله لا يحظون بتأييد الأغلبية. وفي واحدة من الفرق هي تلك التي أنا عضو فيها، أوجب نظام الحزب احتسابي أنا الغائب مرشحاً لأني متغيب لأداء مهمة أوكلها إليّ الحزب. وقد فزت، أنا المرشح دون رغبة منه أو حضور، بإجماع الأصوات. وفاز بالإجماع أيضاً صديقي الدكتور نشأت الحمارنة. هذه النتيجة أججت هواجس زهير إزاء ما احتسبه هو تحالفاً يقوده نشأت وأشترك أنا فيه. ولكي يسدّ زهير الطريق على التحالف المفترض، استثمر موقعه في قيادة الحزب، وتعسّف في استخدام

سلطاته، وأصدر قرارات تجمد عضوية عدد كبير ممن توهم هو أنهم قاعدة هذا التحالف حتى يحرمهم من الاشتراك في جولات الانتخابات التالية. وما أن وقع زهير على التقرير الذي يتهمني حتى تشبث به. وقع الظمآن على كوب ماء فكيف يهمله!

لم يكن لي أي دخل في هذا الذي جرى أثناء غيابي، ولم أعرف ما وقع إلا بعد عودتي من صوفيا. لكن هذا لم يبدل المجرى اللاحق للحكاية. ففي صباح يوم السبت، استدعيت إلى التحقيق أمام لجنة شكلتها القيادة القومية. وقد ضمت اللجنة ثلاثة: رئيسها زهير محسن نفسه عضو قيادة الحزب القومية، وسهيل سكرية اللبناني وهو أيضاً عضو قيادة قومية، ويوسف البرجي عضو القيادة القطرية للتنظيم الفلسطيني الأردني الموحد.

وجدت ثلاثة وجوه متجهمة: وجه زهير هذا الذي يظن أن الجهامة من سمات القيادة فيصطنعها كلما انهمك في عمل. ووجه سهيل الذي تجهم لأنه أقحم إقحاماً في قضية غير نظيفة فصار مرغماً على مجاراة زهير حتى لو خالف وحي ضميره. ووجه يوسف الذي تجهم لأنه صديقي وهو يعزني ولكنه لا يملك إلا صوته في مقابل صوتين.

تجنب زهير أن يحاورني، واختار أسلوباً غير مألوف في عمل لجان التحقيق، إذ أعد مسبقاً قائمة أسئلة مكتوبة وسلمها إلي في بداية جلسة التحقيق، وطلب أن أجيب عليها. كان زهير يعرف قدرتي على المحاججة لكنه كان واثقاً من متانة موقعه في اللجنة، فاتبع هذا الأسلوب ليفقدني ميزتي فتبقى ميزته هو وحدها. وما أن ألقيت النظرة الأولى على الأسئلة حتى أدركت أن زهير عازم على فصلي من الحزب لا محالة. ولأني لم أعد حريصاً على البقاء في الحزب، فقد شئت أن أوجه دفاعي إلى إدانة زهير وأصحاب التقرير ومنطقهم بدل الاهتمام بالدفاع عن نفسي. وبهذا العزم، باشرت الهجوم للتو. قلت إني سأجيب كتابة على الأسئلة المكتوبة ولكني أريد أن أقول في وجوهكم بضع كلمات.

وبضع الكلمات هذا صار حديثاً أفضت فيه على مدى ساعة. وعندما حاول زهير إيقاف دفق الحديث، تصدى له يوسف البرجي وصمت سهيل، فلم أتوقف. تقصدت أن أتحدث بالفصحى وأن أختار أكثر التعابير قدرة على نقل المعاني. وقلت، في البداية، إني أفهم أن يلتبس مسلكي على سهيل سكرية فهو قليل الدراية بتعقيدات الحالة الفلسطينية. ثم وجهت الخطاب إلى زهير: «أما أن يلتبس الأمر عليك أنت فهذا ما لا أصدقه، فأنت تعرف ما الذي كان سيحصل لو صدف أن أمك نسيتك في الدار في لحظة الرعب الذي أخرجها من وطنها، فقد كنت ستنشأ في إسرائيل مثل محمود وأصحابه ولو قيّضت لك الموهبة فقد تصير شاعراً وتجيء في وفد راكاح، فأي خطأ أرتكبه أنا إن قابلتك وحييتك، وأي خطأ لا أرتكبه إن تجاهلتك أو أدنتك!» وفي هذا النحو، استرسلت في الحديث متناولاً جميع نقاط الخلاف وجاعلاً من حديثي عن أي نقطة سوطاً أجلد به الغباء وضيق الأفق والتطرف. كل هذا دون أن يصدر عن زهير أي رد فعل إلا ازدياد وجهه تجهماً. سهيل سكرية وحده أدلى بملاحظة واحدة عندما تحدثت عن الأثر الضار لسلوك الوفد السوري في صوفيا على سمعة سورية، فقال كأنما ليثبت استحقاقي لما وصفته به: «ذكر الرفاق في تقريرهم أن موقف وفدنا اجتذب اهتمام الوفود الأخرى كافة». وفي جوابي، قلت: «الاهتمام؟ نعم، لكن أي نوع من الاهتمام!» وأعدت على مسامع اللجنة ما سبق أن قلت كلما حاول أحد أن يسوغ السلوك الغريب بحكاية الاهتمام هذه. فلو أني سرت في مسيرة الافتتاح عاري القفا ووجهت قفاي إلى عدسات المصورين فهل كان لأي حدث آخر أن يبزّ قفاي في اجتذاب الانتباه!

وإزاء الأسئلة المكتوبة، كان في المتناول أن أقدّم إجابات مراوغة تحرم زهير من استخدام أقوالي ذاتها دليلاً قاطعاً ضدي وتبقي الباب مفتوحاً لكفاح أتقن خوضه لإحباط العزم على فصلي من الحزب. لكني كنت أنا قد عقدت العزم على الابتعاد. وما دامت الفرصة قد توفرت فلماذا أحبطها. إن صدور القرار بفصلي يعفيني من الحرج تجاه أصدقائي البعثيين وغير البعثيين الذين

رغبوا في بقائي في الحزب، فلِمَ أفوّت الفرصة؟

أول الأسئلة المكتوبة كان عن محمود درويش ورأيي في موقفه هو الذي يفترض السؤال أنه يقبل وجود إسرائيل ويقر بحقها فيه. وفي الإجابة، تحدثت عن محمود المناضل ومحمود الشاعر ومكانته المحترمة في الحالتين. وتلت ذلك أسئلة عن رأيي في موقف راكاح ومواقف الأحزاب الشيوعية العربية من إسرائيل. وفي الإجابة، قلت إني لا أجد في ما اطلعت عليه من أدبيات هذه الأحزاب ما آخذه عليها. وتضمنت القائمة أسئلة عن صلاتي بشيوعيين أو منظمات شيوعية وأسئلة عن شيوعيين بعينهم ومدى معرفتي بهم وما إلى ذلك مما هو من هذا القبيل. وقد أجبت على الأسئلة دون أي تنازل عن آرائي التي صرت تعرفها. صغت إجاباتي على الأسئلة السبعة عشر في أوجز العبارات وأفصحها دلالة. وعندما فرغت من كتابة الإجابات، سلمت الأوراق لزهير وقلت له: «لك أن تفرح، ففي إجاباتي سبعة عشر دليلاً على مخالفتي لسياسات الحزب، وهاأنذا أتطوع بلفت نظرك إلى النص الوارد في نظام الحزب الذي يجيز لك أن تفصلني عنه: الخروج على خط الحزب السياسي، تذكر هذا، فأنا أعرف أني صرت من هذه اللحظة الرفيق السابق!» وذكرت رقم المادة في نظام الحزب التي تشمل على هذا النص. ثم رويت تشنيعة سبق أن ألفتها إزاء ظاهرة خروج البعثيين المتزايد أو إخراجهم من الحزب. وهي تشنيعة تقول إن باب مراتب العضوية وشروطها في نظام الحزب قد عدل، فالجاهل يصير نصيراً، والذي يفاخر بجهله يصير عضواً متدرباً، والذي يبقى جاهلاً بعد سنتين يصير عضواً عاملاً، والذي يتشبث بجهله يتقدم في المواقع القيادية، أما من تظهر عليه أعراض الفهم فإنه يصير عضواً سابقاً. وأضفت: لن تطيقوني، فقد أزمنت فيّ أعراض الفهم!

بعد أسبوع أو أكثر قليلاً، فيما أنا في حجرة مكتبي في **البعث**، دخل أحد الزملاء ووضع أمامي العدد الذي صدر للتوّ من **المناضل** جريدة الحزب الداخلية مفتوحاً على صفحة فيها نبأ رسم تحت سطوره خطوطاً حمراء. وكان هذا هو

النبأ الذي أبلغ إلى القراء أني فصلت من الحزب. وجرى تعليل الفصل بخروجي على خط الحزب السياسي، تماماً كما اقترحت أنا، وأضيف إليه سبب يبدو أن بغض زهير محسن لي هو الذي اختلقه، وهو اتباعي سلوكاً شخصياً يسيء إلى سمعة الحزب. وقد أثار إيراد هذا السبب بالذات موجة استنكار وموجة تندر، إذ ما الذي يمكن لأيما أحد أن يأخذه حقاً على سلوكي الشخصي أنا الذي يعرف الجميع أني ألزم نفسي في هذا المجال ما يلزم وما لا يلزم. وتحت ضغط الحملتين فسر زهير الأمر بأن المقصود هو ما فعلته في صوفيا.

رأت لجنة التحقيق بأغلبية صوتين ضد واحد أني أستحق أقصى عقوبة ينص عليها نظام الحزب الداخلي فأوصت بفصلي. وصادق مكتب الأمانة العامة على توصية اللجنة، فصارت قراراً. وظفرت باللقب: الرفيق السابق. وفي الواقع، كان للأمانة العامة حق رفض توصية اللجنة، لكن حساب توازنات الكتل جعل جماعة صلاح جديد المهيمنة على الأمانة تتهاون في استخدام هذا الحق. ومن المؤكد عليه أن الجماعة ما كانت لتبادر إلى فصلي لو لم يتشبث زهير به وتؤيده جماعته. أما ما حكي لي همساً بعد ذلك في معرض محاولة الجماعة التي خدمتها كثيراً تطييب خاطري فقد تضمن سبباً آخر. فقد قال الهامس إن الجماعة الأخرى، أو كتلة الأسد طلبت سوقي إلى السجن لأن تقريراً جاء من صوفيا زعم أني سرت في مسيرة الافتتاح مع محمود درويش ووفد راكاح تحت العلم الإسرائيلي. وأن الاكتفاء بفصلي جاء ثمرة تسوية تم التوصل إليها بعد أن بذلت كتلة صلاح جديد مجهوداً كبيراً لتجنيبي عقوبة السجن. ولم أصدق هذا الذي همس به في أذني. فأنا أعرف أني لو كنت من الموالين لما حبست وأعرف أن ثلاثة من الأربعة الذين كتبوا التقرير كانوا من موالي صلاح جديد المتزمتين.

وأيا كان الأمر، فإن مشاعري إزاء قرار الفصل اختلطت كما حدث في كل مرة تعرضت فيها في الحزب إلى ما يسوء. فقد شعرت من جهة بأني غُلبت وأن عضواً في القيادة القومية تمكن مني بعد أن أسلم رقبتي إليه حزبيون خفيفو

العقل. وشعرت من جهة أخرى بأني تحررت آخر الأمر من الازداوجية التي تفتك بشخصيتي واستقراري الفكري، وان سلوكي تحرر من قيود العضوية التي تكبّل حركته. صار الأمر أشبه ما يكون بانفثاء دمّل طالت معاناتك منه، فقد تشعر بالألم حين يشقونه، لكن لا تلبث أن تحل الراحة محل هذا الألم. وهذا هو ما انتهت إليه أموري: تلاشى الألم وبقي لي من الفصل نتائجه الإيجابية.

وبينما أنا غارق في الأفكار التي داهمتني فور قراءة نبأ الفصل، اتصل بي عطية الجودة وأراد أن يتفاهم معي كالعادة حول التعليق السياسي الذي كان علي أن أكتبه للإذاعة في ذلك اليوم. فبادرت صديقي بإبلاغ النبأ الجديد إليه. وتساءلت عما إذا كان من حقي أن أكتب التعليق السياسي بعد فصلي من الحزب الحاكم لخروجي على خطّه السياسي. فلم يؤخذ عطية لا بالنبأ ولا بالتساؤل، بل قال ببساطة: «حطّ في الخرج!» ولما ألححت على ضرورة إيلاء الموضوع ما أرى أنه يستحقه من اهتمام، أرسل عطية سيارة الإذاعة فحملتني إلى مكتبه. فتداولنا في الأمر «بعيداً عن العواطف الشخصية» كما طلبت. ولم يكن عطية، وهو بارد العواطف بطبعه بحاجة إلى ما يحثه على تبريدها. وقد رسم صديقي الموقف بهدوء: ما من أحد اتصل به بشأني أو طلب إيقافي عن الكتابة، فحقي السابق ما زال، إذاً، قائماً و«اللي عليك عليك». لكني لم أكتف بهذا التبسيط، بل شئت أن أتيقن. وطلبت أن يبادر هو بالرجوع إلى مراجعه الأعلى. وكنت حريصاً على أن أعرف موقف القيادة، فتشبثت بطلبي. وانتهى الأمر بأن استقبلني وزير الإعلام الدكتور حبيب حداد الذي هو عضو في قيادة الحزب القطرية من الموالين لصلاح جديد. كان الرجل الذي لا تعدّ خفّة الدم من سماته البارزة لطيفاً معي في ذلك اللقاء غاية اللطف، استقبلني بالابتسامة التي لا ترتسم على ثغره إلا في حالات نادرة، وطلب لي القهوة قبل أن أبدي رغبتي فيها، وقدم لي سيجارة وأشعلها بولاعته، ثم فتح الموضوع قبل أن أفتحه أنا: «أوكلنا إليك كتابة التعليق لأنك أكفأ من يكتبه» هكذا بدأ الوزير الكلام، «ولا غبار على سلوكك حتى مع طول لسانك، والآن لم يتبدل

شيء»، وهكذا ختمه.

وهكذا، كتبت في يوم فصلي من الحزب التعليق السياسي الذي يفترض أنه يعكس سياسة هذا الحزب. واستحضرت وأنا أسمع صوت داوود يعقوب ما وقع في العام الفائت عندما كان ضابط في الشعبة السياسية يضربني بقدميه ويديه فيما داوود يقرأ التعليق الذي كتبته. هل قلت لك عندما رويت تلك الواقعة أن أحوال سورية لا تخلو من المفارقات في أي وقت؟ يبدو أن علي أن أكرر هذا القول.

في جريدة **البعث**، لم ينتظر ناجي الدراوشة أن أفاتحه أنا بالموضوع، بل تعجل الاتصال بمكتب الإعلام والنشر في القيادة القومية منذ قرأ النبأ في **المناضل**. لم يفعل ناجي هذا لأنه لا يحبني، بل لأنه يخشى المسؤولية. وقد جاء الجواب بعد ساعة من مالك الأمين عضو القيادة رئيس هذا المكتب: تريد القيادة أن أبقى في الجريدة ولا يمسّ وضعي فيها بأي حال من الأحوال. وناجي نفسه هو الذي روى لي هذا، ثم صارحني بأنه لم يكتف بتوجيهات مالك الأمين، بل اتصل بمكتب اللواء صلاح جديد فتلقى الإجابة ذاتها ومعها الإشادة بكفاءتي الصحافية والتأكيد على حاجة الحزب إلى الأكفاء: «حكايتك فيها سر»، قال ناجي. فإن كان هو المفتقر إلى الكفاءة الصحافية قد صار رئيس تحرير فكيف يصدق أنهم يتشبثون بي بسبب كفاءتي!

لا أخفي عليك أن ردود الفعل الطيبة هذه وفرت لي طمأنينة لم أتصور أن تتوفر بهذا اليسر، فأنا ربُّ أسرة وعليّ مسؤوليات، ولو فقدت عملي بسبب الطرد من الحزب الحاكم لتعذر أن أجد عملاً في سورية، ومن المشكوك فيه أن يأذنوا لي بالمغادرة حتى لو توفرت فرصة عمل في الخارج. وأنا أحبّ الصحافة وقد ألفت ما تحقق لي في ميدانها. وهكذا، شكل إبقائي في الإعلام السوري بالرغم من طردي من الحزب الحاكم، رحمة لي فضلاً على ما حمله من مغزى سياسي. هكذا هو الإنسان. أو هكذا هو الصنف من الناس الذي أنتمي أنا إليه: يضيق الواحد منّا بوضع، وقد يشتد ضيقه ويكاد يخنقه، حتى إذا وقع

ما يهدد وجوده فيه تشبث بالبقاء وسعد إن بقي.

والواقع أني لم ألبث أن اكتشفت أن فصلي من الحزب الحاكم مع استمرار مصدر عيشي واستمراري في الكتابة كان بمثابة هدية أكثر منه عقوبة. فقد تحررت من واجبات العضوية والتزاماتها وصرت أقدر على الجهر باستقلال رأيي والتمتع بهذا الاستقلال. ومن موقعي الجديد، موقع المستقل، اتخذت بيني وبين نفسي قراراً ألزمت نفسي به: أن أتجنب التهجم على السياسة السورية ما أمكنني ذلك، أقول رأيي وأتجنب مهاجمة الآراء الأخرى. وفي خلفية هذا القرار، كمنت دون شك الحاجة إلى الأمان الشخصي بعد أن فقدت أمان التستر بعضوية الحزب. لكن هذه الخلفية اشتملت على شيئين آخرين، كل منهما كان له في حدّ ذاته تأثيره: العلاقات السورية الحسنة مع الجانب الفلسطيني الذي زاد إحساسي بالانتماء إليه، وحقيقة أنهم في الحزب اكتفوا بفصلي ولم يلحقوا بي أي أذى.

بكلمات أوجز: استرحت أنا من ثقل وجودي في الحزب على روحي وقناعاتي المستقلة، واستراح الحزب من شغبي داخل صفوفه. ولم يؤد الفصل إلى أي جفوة بيني وبين من كنت أحبّ من البعثيين ولم يدفعني إلى أن أبغض الآخرين أكثر مما أبغضتهم وأنا عضو في حزبهم. وقد أعلنت أمام كل من يعنيه الأمر أني سأتعاون مع الحزب ضمن الهامش المشترك الذي يتسق مع قناعاتي وأتجنب الاصطدام حين تتناقض القناعات. وخف تأثير المشاعر الشخصية في رسم أوجه سلوكي إزاء الحزب، خفّ كثيراً في واقع الأمر، وصرت أقدر على التمييز بين ما هو إيجابي وما هو سلبي، أقدر كثيراً في واقع الأمر، أيضاً.

وفي يوم غير بعيد عن يوم فصلي، وقع ما اختبرت به التزامي الجديد فثبت لي، كما ثبت لكل من يعنيه الأمر، خصوصاً من البعثيين، أني قادر على الوفاء بهذا الالتزام.

حدث هذا عندما احتدمت الأزمة بين كتلتي الحزب وتحرك عسكر كتلة الأسد

ضد المؤسسات التي تهيمن عليها الكتلة الأخرى. كان التمايز بين الكتلتين قد اقترب من حدّ الافتراق وكانت الاتهامات المتبادلة بشأن المسؤولية عن الهزيمة في الحرب قد حولت التمايز إلى تباغض وكانت كل كتلة تسعى إلى قضم مواقع نفوذ الكتلة الأخرى في مؤسسات الحزب والدولة. فتواترت الاحتكاكات هنا وهناك واشتد تواترها باضطراد. ولأن كتلة القيادة، كتلة صلاح جديد، فقدت الثقة بولاء ناجي الدراوشة لها فقد نحته عن رئاسة تحرير البعث وأوكلت المهمة إلى محمد الجندي الصحافي الكفؤ والإنسان المتمتع بسمعة شخصية لا غبار عليها والنصير غير المشكوك في ولائه لقيادة الحزب أو جسارته في مناوئة خصومها. فتولى محمد المهمة فيما احتفظ بموقعه السابق مديراً عاماً لمؤسسة الوحدة التي تصدر يومية **الثورة**. وبهذا، سيطرت القيادة على اليوميتين اللتين لا يصدر في دمشق غيرهما. وراح محمد يكتب في البعث كما في الثورة افتتاحيات تندد بالكتلة الأخرى تلميحاً وصراحة وتستثير سخط أنصارها. وكانت افتتاحيات محمد والحق يقال ساخنة وقاسية.

وفي اليوم الذي أحدثك عنه، حرك حافظ الأسد وحدات عسكرية للهيمنة أو استعادة الهيمنة على عدد من المواقع ذات التأثير في البلد. وفي هذا السياق، داهمت مجموعة من رجال المخابرات العسكرية مقر **البعث** وسيطرت عليه. وكنت أنا في مكتب محمد الجندي عندما اقتحمه رئيس المجموعة النقيب سليمان ملّوك. هذا النقيب، كنت قد اشتركت معه أيام كان الحزب في المعارضة في عمل مشترك له صلة بالشأن الفلسطيني، وظل هو منذ ذلك الوقت يعدني صديقاً. وما أن رآني النقيب في مكتب رئيس التحرير الذي جاء هو ليحتلّه حتى فرد ذراعيه وشاء أن نتعانق على عادة الأصدقاء. غير أني قابلت لهفة النقيب ببرود، وتجاهلت ذراعيه المفتوحتين، وشهدت المشادة بينه وبين رئيس التحرير وأنا صامت. لقد قاوم محمد محاولة إقصائه عن مكتبه، قاوم بلسانه الذي لا تعوزه الجسارة، وبذراعيه اللذين ليست لهما قوة أذرع المداهمين. كان هذا كما لا بد من أنك حزرت مشهداً أثار شجاي، لكني لم أتدخل. فهذا

نزاع بين عضوين في حزب لم أعد أنا عضواً فيه. وعندما غادر صديقي محمد، صديقي الحقيقي وليس الدعيّ، مكتبه حملني شجاي إلى خارج المكتب، وتجاهلت مرة أخرى رغبة النقيب الذي خلا له الجو وشاء أن يستبقيني.

في هذا الوضع وتعقيداته الكثيرة التي يصعب استيفاء الحديث عنها دون إطالة، تجمهر معظم محرري الجريدة في حجرتي. كان هؤلاء بغالبيتهم من أعضاء الحزب، وكان بينهم من أوكل إليه محمد الجندي مهام سكرتير التحرير ليحل محل علي الأشقر الذي أوكلت إليه مهمة أخرى خارج الصحافة كلها. جاء الجميع طالبين مشورتي كما ألفوا أن يفعلوا، فأوضحت لهم أني في هذه الأزمة بالذات لست في الوضع الذي يبيح لي أن أقدم مشورة. فهم أعضاء في الحزب، والأزمة في حزبهم، وأنا غير مطالب بالإصطفاف. فلما ألحفوا، قلت إني أملك أن أحدد موقفي الشخصي وحده: ثمة سلطة هيمنت على المؤسسة التي أعمل فيها وسأطلب من هذه السلطة توضيح النهج السياسي الذي ستتبعه الجريدة، فإن وجدت فيه هامشاً مشتركاً يتسق مع قناعاتي فأنا باق حيث أنا، وإن لم أجد مثل هذا الهامش فسأنسحب. ولأن زملائي كانوا مبلبلين، فقد تشبثوا بما لاح لهم أنه الموقف الصحيح أو قل الأدعى إلى توفير السلامة. وانتهى الأمر إلى أن أعلن المحررون جميعهم، وبضمنهم جان الكسان الذي لم يكن قد انضم بعد إلى حزب البعث، أنهم سيحذون حذوي. ووجدتني، دون أن أقصد، كما رأيت، زعيماً في هذه الأزمة لمحرري جريدة الحزب، أنا المطرود حديثاً من هذا الحزب.

لم ينتظر النقيب سليمان أن أسأله أنا عن السياسة الجديدة للجريدة، بل استدعاني فور أن نقل إليه نبأ مداولتنا. وتعمد النقيب مرة أخرى أن يعاملني بوصفي صديقاً، ولكي لا يترك الأمر ملتبساً، تساءل بنبرة تستدرجني إلى مجاراته: «ألسنا أصدقاء، ألم نعمل معاً في العمل الحزبي في الأيام الصعبة؟» فقلت عازما على وضع حد حاسم بيني وبين محدثي: «لكل زمن مصاعبه، تلك الأيام، وهذه، وما مضى لا علاقة له بالحاضر، حزبكم منقسم على نفسه،

لكني أعمل في جريدته، ومن حقي أن أعرف السياسة التي تتبعها الجريدة، فأنا بعد أي حساب، لست صحافياً مرتزقاً».

عندها، نهض النقيب عن كرسيه مرحاً، وكمن «وجدها»، قال وعلى وجهه ابتسامة عريضة: «أي سياسة، أنت سيد العارفين، ألسنا جميعاً على درب الوحدة والحرية والاشتراكية، هذه هي السياسة». لم أتورط في شرح الفارق بين الشعار والسياسة فكيف أشرحه لهذا الذي أدركت أنه لا يميز بينهما ولا يعنيه منهما أصلاً إلا ما يسوغ ألاعيب المتخاصمين على مواقع النفوذ والمنافع! ضحكت متعمداً ان تكون ضحكتي ساخرة، وقلت لمحدثي إن الذين انشقوا عن حزب البعث في تاريخه الطويل، والمنقسمين الآن بعضهم على بعض، جميعهم، يرددون هذه الشعارات، فهل يعني هذا أن نهجهم السياسي واحد. وفي نهاية جدل لم يستسغ النقيب الإمعان فيه، رجاني مدعي صداقتي أن لا أعقد الأمور، وزعم أنه تحمس للمهمة التي أوكلت إليه لمعرفته أني موجود في الجريدة وأني قادر على أن أشيل معه عبء إدارة تحريرها. ظن النقيب أني مستاء من قيادة الحزب لأنها فصلتني وتوقع أن أتعاون معه هو المنتمي إلى مناوئيها بل حاول أن يغويني: «أنت تفصّل وأنا ألبس، هكذا ستكون الحال، ستكون أنت رئيس التحرير الفعلي وأنا الذي يتحمل المسؤولية».

لم تطب لي، بالطبع، هذه المناجاة المعجونة بالختل، ولم أشأ أن يظل النقيب أسير سوء فهمه لدوافعي: «لا تنسى أن جماعتك تسببت في ضربي وإهانتي، ثم أخرجتني من وظيفتي في الإذاعة والتلفزيون، وكادت تسجنني، وسربت إلى الصحف أنباء كاذبة تشهّر بي، وأني بالرغم من هذا كلّه لم أدخل مشاعري الشخصية في تقييمي لناسها». قلت هذا الذي أخرجه الغيظ من جوفي، ثم استدركت أني أعرف حدود صلاحياته هو نقيب المخابرات ولا ألومه. وأضفت أن البلد كلّه، وليس حزب البعث وحده، صار عند الهزيمة في الحرب على كفّ عفريت، فليس هذا هو وقت الأهواء الشخصية وأنا لا أستطيع إلا أن أتبع وحي ضميري. وكررت أني مصرٌ على معرفة السياسة الجديدة.

صمت النقيب، ووجه إلي نظرة حادة، لكنه سرعان ما استردها، ثم أدار رقماً على الهاتف، وأبلغ إلى محدثه أن الشباب في الجريدة راغبون في الالتقاء بمسؤول يشرح لهم السياسة. تحدث النقيب إلى رئيسه، رئيس المخابرات العامة العقيد علي ظاظا، فتلقى أمر العقيد بأن يحضرنا جميعنا إلى مكتبه في وزارة الدفاع. وهكذا حملتنا قافلة سيارات تتقدمها سيارة النقيب إلى المبنى الشهير.

حُشرنا أول ما وصلنا في قاعة صغيرة، وطال انتظارنا. وهناك، حاول النقيب مرة أخرى استدراجي إلى مناوراته. قال النقيب إنه من الأفضل أن نتوصل إلى اتفاق قبل مجيء العقيد «حتى لا نشغل وقت المسؤول الكبير بمثل هذا الأمر». فاستبقني جان الكسان إلى الاعتراض: «ما دمنا قد صرنا هنا، فلماذا لا نسمع من العقيد؟». أراد النقيب أن يهدينا إلى عقيده جاهزين، وعندما اسقط في يده راح من جديد يكرر كلامه حول الوحدة والحرية والاشتراكية، ولم يهتد إلى غيرها. ثم ظهر العقيد علي ظاظا. جاء الرجل بملابس مدنية معتنى بأناقتها، وحيانا بابتسامة لها أناقة ملابسه، وصافحنا واحداً واحداً، وقادنا إلى قاعة أكبر يتصدرها مكتب جلس هو إليه وتوزعنا نحن مقاعدها. هذا كله ترك أثراً طيباً، وشكل مدخلاً ملائما إلى حديث مثمر.

بدأ العقيد حديثه بقوله إنه يشعر أمام هذا الحشد من الصحافيين بأنه مغلوب سلفاً، ولكنه سعيد بوجوده معنا، وهو عازم على أن لا يرفض لنا طلباً. وكانت هذه بداية طيّبة لحديث يتم في ظروف معقدة وعاصفة. وبعد هذه البداية، توقعنا أن يجيء الإيضاح الذي طلبناه. لكن العقيد بسط ذراعيه على المكتب وجال علينا بنظرة هادئة وهو يقول: «أنا بتصرفكم، فهاتوا أسئلتكم»، ثم نظر إلى ساعته في حركة أفهمتنا أن الوقت المتيسر قصير. عندها، تنطح النقيب سليمان للحديث فقال لعقيده إنه أجرى معنا قبل مجيئه حواراً طويلاً وأننا اتفقنا على أن نهج الجريدة هو نهج الوحدة والحرية والاشتراكية، ثم أضاف النقيب، موحياً بأن الأمر قد حسم أن الشباب أحبّوا بعد ذلك أن يتشرفوا بلقاء العقيد والسلام عليه.

ما كان لشيء أن يستفزني أكثر مما استفزني كلام هذا النقيب. غير أن جان استبقني مرة أخرى، وكان هو الآخر مستفزاً وقد ظهر صدق غيظه حين استخدم لهجة القامشلي التي جاء منها هو الذي لا يستخدمها إلا إذا خرج عن طوره. صرخ جان محتجاً على ما أسماه هذا التبسيط المخيف للأمور وانطلق من فمه سيل كلام أقرب إلى الشتائم. ولا بدّ من أن العقيد أدرك أن مرؤوسه أخطأ، فقد منع نقيبه الرد على جان، وكرر القول إنه مستعد للاستماع إلى أسئلتنا.

ما قاله جان خفف من غيظي أنا الآخر. فتسلمت دفة الحديث وأنا هادئ. فلخصت دوافعي إلى معرفة سياسة السلطة الجديدة التي تولت أمور الجريدة. فقلت أن البعث اتبعت نهجاً تقدمياً في الشأن الداخلي ومناهضاً للصهيونية والإمبريالية والرجعية العربية وحاثاً على توطيد العلاقات مع الاتحاد السوفييتي وحركات التحرر الوطني في الشأن الخارجي. ثم سألت: هل سيظل هذا هو النهج أم أنه سيتبدل، وما الذي سيظل وما الذي سيتبدل؟

عندها، تكلم العقيد وأطال. عرض الرجل مجريات الخلاف بين الكتلتين، وبيّن دوافع الجيش إلى التحرك، وأظهر أنه يشاركنا القلق والإحساس بخطورة الوضع، ثم قال إن لديه نبأ ساراً سيسعدنا أن نعرفه. واتضح أن العقيد قادم من حيث عقد اجتماع ترأسه الأمين العام للحزب رئيس الدولة نور الدين الأتاسي وحضره قادة الكتلتين. وكان هذا هو الاجتماع الذي تقرر فيه تجميد تحركات الطرفين عند الحدود التي وصلت إليها ودعوة المؤتمر القطري إلى اجتماع استثنائي والاحتكام إليه. وقال العقيد إن الطرفين تعهدا إلتزام القرارات التي تقرّها أغلبية المؤتمر. والمسألة، إذاً، كما قال العقيد، مسألة أيام قليلة تعود بعدها الأمور إلى نصابها الصحيح في إطار الشرعية الحزبية. ثم قال العقيد إن من رأيه ألا يتبدل شيء في نهج الجريدة، لكنه يتمنى علينا، يتمنى ولا يأمر، أن نتجنب التعرض لما يتصل بخلافات الحزب الداخلية، كما يتمنى أن لا يجد في الجريدة ما يسيء إلى أي نظام عربي.

أراحني ما سمعته. وقلت إني مستعد لمتابعة العمل في ضوئه. واستأذنت في أن ألخص ما عرض علينا كي لا يقع التباس أو سوء فهم. وقلت إني فهمت أن يستمر خط الجريدة على حاله دون التطرق إلى الخلافات الحزبية أو العربية، وذلك إلى أن تصدر قرارات المؤتمر القطري الاستثنائي فيلتزمها الجميع. وقال العقيد الذي أدرك أن مشكلة محرري البعث قد انتهت: «تمام».

بعد أيام، صدرت قرارات المؤتمر فلم توائم ما توخاه الذين هيمنوا على الجريدة. وبعدما أعددنا القرارات للنشر، تلكأ النقيب سليمان في إرسالها إلى المطبعة، وغادرت أنا الجريدة في المساء قبل أن يرسلها. وفي الصباح، ظهر عدد البعث خالياً من القرارات. واشتمل العدد في صفحته الأولى على مواد تندد بكتلة القيادة وتحرّض عليها وتحثّ البعثيين ضمننا على العمل لإسقاطها. وإزاء هذه المخالفة الفظة لاتفاقنا مع العقيد ظاظا، جئت إلى الجريدة وسجلت احتجاجي، وأعلنت أني متوقف عن العمل ومتوجه منذ اللحظة إلى مقرّ نقابة الصحافيين حيث سأعتصم.

لم أطلب من أي زميل أن يذهب معي. لكني أملت في الواقع في أن يحذو الآخرون حذوي. وتلكأت في مغادرة الجريدة بدعوى الحاجة إلى ترتيب أوراق مكتبي، مترقباً أن يتجمع المحررون فيصير لتحركنا شيء من الأهمية، وذلك، كلّه، دون طائل تقريباً. أقول تقريباً، لأن محمد زعيتر رافقني، فكان الوحيد من بعثيي الجريدة الذي انتصر في هذا النحو لقرارات مؤتمر حزبه. أما الآخرون فبقوا في الجريدة لسبب أو آخر، وواصلوا العمل.

سلوكي هذا سجل نقطة لصالحي بالطبع وأظهر ما توخيته به: صدق التزامي بقناعاتي وتجنب الإنهماك في خلافات حزب البعث الداخلية أو الانحياز لطرف فيها ضد طرف إلا بما يتفق مع هذه القناعات.

وقد تعرضت بعد أيام لاختبار جديد، فظهر لي متانة الاحترام الذي أسسه هذا الموقف. وقتها، وصل إلى فرع الأمن الخارجي التقرير الذي كتبه صابر

فلحوط من صوفيا. وصابر هذا هو من كان الملحق الثقافي في العاصمة البلغارية، وهم يعدّونه في البعث شاعراً. وقد جعل صابر من نفسه، أثناء احتدام خلافاتنا في الوفد، البوق الأعلى ضجيجاً في مهاجمة محمود درويش والتحريض عليه. وكان صابر يكرهني كرهاً يعود إلى مائة سبب، أذكر لك هنا اثنين منهما: معرفته بأني أستخفّ بما ينظمه ويسميه شعراً ومعرفته بأني مطلع على عسّه لأجهزة المخابرات وتجسسه لصالحها حتى على أعزّ رفاقه. ولم يفوّت صابر الفرصة السانحة لإيذائي فخصّني بتقرير ووصل التقرير إلى فرع الأمن الخارجي، واستدعاني الفرع إلى التحقيق.

تلقاني رجل في ثياب مدنية فأدركت من لهجته أنه دمشقي ومن مسلكه أنه وكيل ضابط. وعرفت أن الرجل موظف مخابرات محترف من هذا الصنف الذي يخدم العهود والرؤساء الذين يتعاقبون بتعاقبها ولا يتأثر في ولائه لكل عهد مستجد بتبدل السياسات. هذا المحترف سلمني رزمة أوراق وحذرني من أنه يعرف كل ما قمت أنا به في صوفيا، وطلب مني أن أكتب وقائع الرحلة بالتفصيل، أو كما قال هو بلهجته الدمشقية: «من طق طق إلى السلام عليكم». وعندما رجع الرجل بعد ساعة إلى الحجرة التي عزلني فيها وجد أني سودت خمس صفحات كبيرة أو ست صفحات في وصف وقائع تحركي من منزلي إلى المطار في صباح اليوم الأول للرحلة. واستاء المحقق كما توقعت، وعنفني، فتغابيت: «أنت الذي أردتها من طق طق...». ويبدو أن الرجل تصور أنها حقاً غلطته، فقد تطامن وقال: «أكتب عن الأشياء الهامة، والأشياء الهامة، بَسْ!» وبعد ساعة أخرى، وجد الرجل أني أوجزت وقائع عدّة أيام في أقل من صفحة، فاستنتج أني أعابثه عن عمد، وكاد ينفجر من الغيظ. لكني تغابيت من جديد: «حيّرتني، التفصيل لا ينفع، والإيجاز لا ينفع، فماذا تريده بالضبط!؟» عندها، اصطحبني المحتار في أمري إلى حجرة مكتبه، وهناك واجهني بأسئلته.

أظهرت الأسئلة كم هو ساذج هذا الرجل وكم هو جاهل بالقضية التي أوكل إليه التحقيق فيها. كان هذا المحقق يظن أن محمود درويش شيوعي أردني

جاسوس لإسرائيل، وكان يخلط بين فهمي السلفيتي عضو قيادة الحزب الشيوعي الأردني الذي ذكر تقرير صابر أني كنت أتلقى منه الأوامر وبين توفيق الطوبي عضو قيادة راكاح. وقد تصور المحقق أن سميح القاسم، الذي هو درزي، قريبٌ لصابر فلحوط الذي هو، أيضاً، درزي وأن صابر حانق على سميح لأن هذا فرّ من جبل الدروز في سورية والتجأ إلى إسرائيل. أصف لك مقدار اختلاط المعلومات وتشوهها في ذهن رجل المخابرات هذا لتدرك كيف أمكن أن أشفق على الذي يحتجزني ويحقق معي ويجهد نفسه كي يبدو قاسياً. وقد وجدتني محمولاً حملاً على تقديم إيضاحات لتعريف الرجل بالناس وصفاتهم الحقيقية. ويبدو أن رجل المخابرات أدرك في النهاية مغزى مسلكي وصبري وأنا أشرح له ما خفي عنه أو اختلط عليه، وقد أذن لنفسه بأن يتذمر أمامي: «يحيلون إلي قضايا لا أفهم فيها».

وقتها، بلغت الساعة الخامسة بعد الظهر، ولم يبد أن هذا التحقيق سيصل إلى نهاية، فسألت محتجزي: «هل أنا معتقل؟»، وقبل أن تنقضي دهشته ذكرته بأني محتجز عنده منذ خمس ساعات. فإن كنت معتقلاً فليطلب لي ما آكله، أو ليأذن لي بالذهاب إلى منزلي حتى آكل شيئاً ثم أرجع إليه لاستكمال التحقيق. وفي المنزل، أجريت الاتصالات اللازمة. وعندما رجعت، كان رئيس الفرع قد أمر حراس المدخل بأن يخطروه بوصولي. وتعمد الرائد عدنان طيّارة الذي يعرفني معرفة جيّدة أن يستقبلني في الممر ثم قادني إلى مكتبه، وهو يعتذر عما حصل لي ويكرر الاعتذار. استدعيت إلى التحقيق نتيجة خطأ روتيني ليس أكثر، قال الرائد هذا، ثم لم يفته أن ينعت صابر فلحوط بأنه مخبر مغرض، ويضيف إلى هذا النعت شتيمة مهينة، ثم يقول: «نحن نحترمك».

أظهر هذا الحادث وملابساته ما كان علي أن أستخلصه بشأن وضعي بعد فصلي من الحزب: أنا مثلي مثل أي ناشط في الحقل العام لست محصناً ضد المضايقات، غير أن فصلي من الحزب لم يضف سبباً خاصاً لأصير مستهدفاً.

انتسبت إلى حزب البعث في صورة عارضة أواخر العام ١٩٥٧، قبل أن يحل الحزب تنظيمه في سورية بوقت قصير. وجددت انتسابي إلى هذا الحزب في العام ١٩٦١ وهو في دهاليز العمل السري في آخر عهد وحدة مصر وسورية، إبّان تعرض البعثيين للملاحقة والقمع، عندما كان الانتساب إليه شهادة طلاق لراحة البال. وفصلت من الحزب في العام ١٩٦٨ وهو في قمة السلطة. وفي غضون عشر سنوات ونيف، تواترت أحداث، وتبدلت أحوال، ونبتت بدايات أحداث أخرى وتبدلات، وتبدلت أنا، تحررت من أسر قناعات وحلّت محلها قناعات جديدة، ونبتت بدايات قناعات أخرى.

لم أبدأ نشاطي السياسي بالانضمام إلى هذا الحزب، ولم أنو أن أتوقف عن النشاط بخروجي منه. كانت السياسة هي حياتي. والحياة لا تبدأ بالانضمام إلى حزب ولا تنتهي بالاستقلال عنه.



المؤلف

ولد في قرية المسمية الصغيرة- فلسطين في العام ١٩٣٩، وعند النكبة هُجّر مع أسرته إلى غزة، ثم انتقل هو وأسرته إلى دمشق، وفيها أتمّ تعليمه الأساسي، فيما توجّب عليه أن يعمل في أيام العطل أجيراً في مهن شتى. عمل معلم مدرسة في مدارس الأنروا وانتسب إلى كلية الآداب في جامعة دمشق، ثم استقال من الأنروا وانتقل إلى الجزائر وفيها تفرّغ للعمل الصحفي. وفي العام ١٩٦٥ عاد إلى دمشق وعمل في صحافتها.

تفرّغ للعمل في العام ١٩٧١ في دوائر م. ت. ف. السياسية والثقافية في القاهرة، ودمشق، وموسكو، فيما واصل الكتابة للصحافة. وبعد ذلك انتقل إلى بيروت وعمل في مركز الأبحاث التابع لـ م. ت. ف. رئيساً لقسم الدراسات الفلسطينية وسكرتيراً لتحرير شهرية **شؤون فلسطينية**، وواصل العمل بعد انتقاله مع المركز في العام ١٩٨٣ من بيروت إلى نيقوسيا- قبرص، وصار مديراً لتحرير المجلة.

في العام ١٩٨٩ استقال من مركز الأبحاث وتفرغ وأقام في فيينا. وفي العام ١٩٩٥ رجع إلى فلسطين وحصل على حق الإقامة في رام الله وواصل تفرغه للكتابة.

منذ العام ١٩٧٩ عضو المجلس الفلسطيني الأعلى للتربية والثقافة والعلوم، ومنذ العام ١٩٨٤ عضو مستقل في المجلس الوطني الفلسطيني.

صدر للمؤلف

■ الرواية

١٠ المحاصرون، دمشق: المطبعة التعاونية، ١٩٧٣.

٢٠ بير الشوم، بيروت: دار الكلمة، ١٩٧٩.

٣٠ سمك اللجّة، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٢.

■ الدراسات

١٠ الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤، دراسة للمواثيق الرئيسة لمنظمة التحرير الفلسطينية، بيروت: مركز الأبحاث-م.ت.ف ١٩٨٠.

٢٠ العمل العربي المشترك وإسرائيل، الرفض والقبول، نيقوسيا: شرق برس، ١٩٨٩.

٣٠ جذورالرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨، نيقوسيا: شرق برس، ١٩٩٠.

٤٠ تقاسيم زمّار الحيّ، مقالات. (قيد الطبع)، عمان: دار الكرمل، ٢٠٠١.

■ الشهادات

١٠ دروب المنفى (١)، الوطن في الذاكرة، دمشق: دار كنعان، ١٩٩٤.

٢٠ دروب المنفى (٢)، الصعود الى الصفر، عمان: دار سندباد، ١٩٩٦.

٣٠ دروب المنفى (٣)، زمن الأسئلة، عمان: دار سندباد، ١٩٩٨.

الجري إلى الهزيمة

... قالوا: "حرب الشعب" فقلت: "أمن أجل أن يقاتل الشعب ويتفرغ الجيش للحكم!" وقالوا: "تنبع السياسة من فوهة البندقية"، فقلت: "لماذا البندقية وليس قاذف الصواريخ، هل لأن استخدام الصاروخ يتطلب تدريباً أشق؟" قالوا: "الحرب طويلة الأمد"، فتساءلت: "ماذا لو حلت المشكلة بحرب أمدها قصير أو متوسط، هل ينبغي أن نطيل الأمد لا لشيء إلا لننسجم مع الشعار؟" وفي مواجهة الإفراط في الحديث عن تقديس رب العالمين لأرض فلسطين، كنت أتساءل: "هل ستعفون أنفسكم من الكفاح لو أن أرض فلسطين لم تكن مقدسة؟"

الجري إلى الهزيمة

يتحدث عن سوريا في الستينيات، وعن مشهدها السياسي المتلاطم غير المستقر، الذي انتهى الى هزيمة ١٩٦٧، وعن ورطة الفلسطينيين في هذا المشهد وما قاسوه من آلام وتمزقات، وعن أوهامهم التي ساهم تحطمها وانكسارها في إبراز فكرة الكيان الوطني الفلسطيني المستقل وتدعيمها.

والكتاب هو الجزء الرابع من المشروع الكبير "دروب المنفى" الذي عكف على إنجازه فيصل الحوراني، والذي سيكون عند اكتماله، أعرض سيرة ذاتية في الأدب الفلسطيني الحديث. فهو يبدأ منذ ما قبل النكبة لينتهي في التسعينيات من القرن العشرين متحولاً بذلك الى سيرة للمنفى الفلسطيني كله، عبر عين مثقف خرج من بين صفوف تلك القطعة من اللاجئين الفلسطينيين حطت برحالها في سوريا.

زكريا محمد